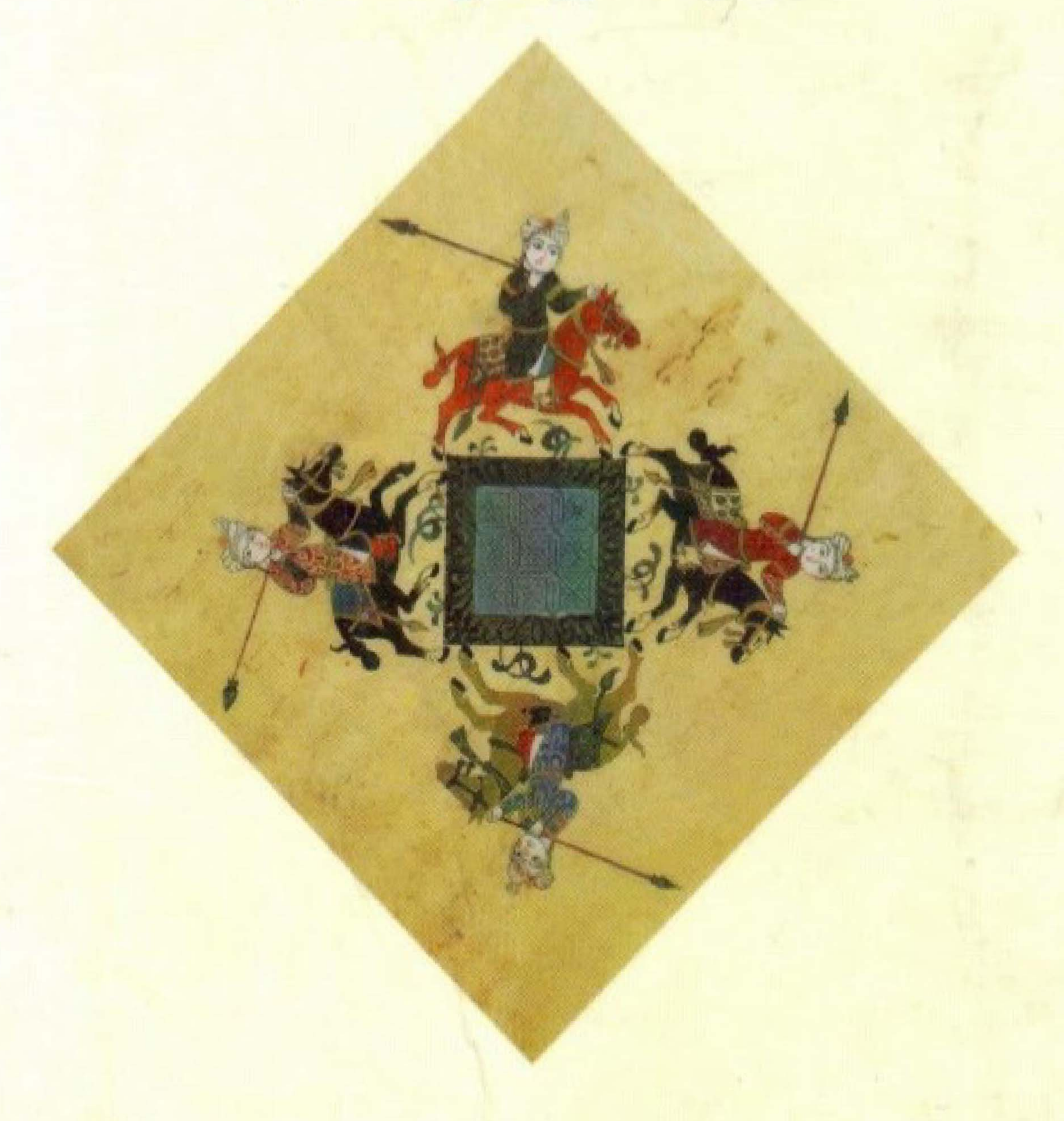
رشيد الخيّون

الأديان والمذاهب بالعراق

(طبعة مزيدة ومنقّحة)



ولد رشيد **الخيّون** بالعراق-الجبايش. تخرج من معهد المعلمين- بغداد ١٩٧٥. حصل على شهادة البكالوريوس في الفلسفة من جامعة عدن ١٩٨٤. نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية من جامعة صوفيا ١٩٩١. مارس التعليم في المدارس الابتدائية ببغداد ١٩٧٥-١٩٧٩، والتدريس في المدارس الثانوية باليمن ١٩٧٩-١٩٨٨. أشرف على الدراسات العليا في الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية بلندن. كاتب مقال إسبوعي في جريدة «الشرق الأوسط». باحث في التراث الفكري والفلسفي الإسلامي. صدر له:
مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة، دار النبوغ- بيروت ١٩٩٤؛ **تلخيص البيان في ذكر أهل الأديان** (تحقيق) دار الحكمة-لندن ١٩٩٤؛ **معتزلة البصرة وبغداد** (ثلاث طبعات) ١٩٩٧و١٩٩٩؛ **جدل التنزيل** (تاريخ خلق القرآن) منشورات الجمل-كولونيا ٢٠٠٠، **حروف حي، تاريخ البابية والبهائية**، منشورات الجمل - كولونيا ٢٠٠٣؛ **كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمون** (تحقيق) دار الحكمة-لندن ٢٠٠٣؛ **المباح واللامباح** (فصول من التراث الإسلامي) دار مهجر-بوسطن ٢٠٠٥؛ **خواطر السنين.. مذكرات الدكتور محمد مكية** (تحرير) دار الساقي- بيروت ٢٠٠٥؛ **المشروطة والمستبدة**، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت ٢٠٠٦.

رشيد الخيّون: **الأديان والمذاهب بالعراق**، الطبعة الثانية ٢٠٠٧

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مقدمة

الطبعة الثانية

إن موضوعاً متشعباً ومتداخلاً مثل موضوع الأديان والمذاهب بالعراق قد لا يلمه كتاب واحد . فهو تاريخ وعقائد وعلاقات اجتماعية وسياسية متشابكة ، خضع كل دين ومذهب منها لدراسات متناقضة في المعلومات . ومن الصعوبة بمكان ايجاد الدراسة الموضوعية غير المشوهة بالموقف المسبق من قبل الآخر . وبفعل هذا التعقيد والتشعب جاءت إضافات وتصويبات الطبعة الثانية : تصحيح اخفاق في تحقيق رواية ، أو تشذيب معلومة ، أو إضافة ما تجب إضافته على ماورد في تاريخ أو عقيدة هذا الدين أو ذاك المذهب . لكن الأهم من ذلك كله هو ملاحظة التغيير الكبير الذي حدث بالعراق في التاسع من أبريل ٢٠٠٣ . فبسقوط نظام البعث برزت مستجدات هائلة في الوضع الديني والمذهبي . وكان فراغ السلطة ، على مدى شهور ، اختباراً حقيقياً لآصرة المواطنة بين أديان ومذاهب العراق . بعد ظهور توقعات متشائمة مثل انفجار حرب أهلية بين سُنَّة وشيعة ، وتوقعات أخرى أنذرت بهجرة المسيحيين والصابئة المندائيين والأيزيديين ، وكل مَنْ لا يرغب به المتشددون الإسلاميون .

لكن ما حدث خالف مجمل تلك التوقعات ، قياساً بعدد سكان العراق ، وما خلفه النظام السابق من مآس وكوارث اجتماعية وبيئية . وبالجملة ، من دون النظر في الجزئيات ، ظهر العراقيون على مختلف أديانهم ومذاهبهم أكثر تمسكاً بالمواطنة التي جمعتهم منذ زمن بعيد . وما حصل من تجاوزات ضد الأديان الأخرى بسبب الجماعات التكفيرية ، التي وزعت إيذاءها على الجميع ، وما سببه العائدون تواً من إيران ، من الحاملين عقلية الإعلام الديني المتشدد من ضغوط على أهل الأديان الأخرى ، ليس له تلك الخطورة والتأثير ، بل سينحسر أثره مع تقادم الأيام والتمرس على الديمقراطية . أخذت الشعارات الاستفزازية وخاصة في أيام عاشوراء تتراجع بعد ضيق الناس وتواجد السلطة . إلا أن الخطر الذي لم يحسب حسابه

منذ الساعات الأولى هو ظهور الحركة الوهابية السلفية ، وهم جماعات زرعها النظام السابق حتى بين عدوها اللدود الشيعة ، ثم تسلل الجماعات المتشددة ، المعروفة في الإعلام العربي بالأفغان العرب ، إلى داخل العراق وبكثرة .

أشارت التقارير إلى ضخامة تواجد هذه الجماعات بكثافة بالفلوجة والأنبار وتكريت وأجزاء من بعقوبة والموصل . أي في ما عُرف عموماً بالمثلث السُنّي ، وما عرف بمثلث الموت ومركزه اللطيفية جنوب بغداد ، وتنسيق هؤلاء مع بقايا النظام السابق . سعت هذه الجماعات إلى تحريك فتنة دينية ومذهبية لم يألفها العراقيون من قبل . أومأت رسائلهم إلى العمل على تغذية حرب أهلية بين الشيعة والسُنَّة ، عبر تفجير مساجد شيعية وأخرى سُنّية ، لكي تتهم الطائفتان أحدهما الأخرى فتنشب حرب لا يعلم إلا الله مدى خطورتها على آصرة المواطنة العراقية .

لكن تحرك العقلاء من الطائفتين واكتشاف هول هذا المخطط مبكراً أفشل تنفيذه ، وحلت المسائل المتعلقة بقتل الشباب الشيعة بالفلوجة أوتفجير المساجد بروية وعقل . كذلك كان لظهور جيش المهدي بقيادة مقتدى الصدر تأثيره السلبي في النسيج الشيعي . فما حصل من مواجهات بين أطراف شيعية لها حضورها وتاريخها السياسي مع جيش المهدي أكد أن النسيج الشيعي فيه أكثر من لون ، رغم أواصر المذهب الجعفري التي تجمعهم . فهم مختلفو الرأي والهدف تجاه التمثيل في السلطة ، أو التوحد للعب دور الأكثرية السكانية التي يعتقدونها بالعراق . فبالوقت الذي أشارت فيه أصابع الإتهام إلى دور مقتدى الصدر في قتل السيد عبد المجيد الخوئي في العاشر من أبريل ٢٠٠٣ ، وهو نجل المرجع الأعلى أبي القاسم الخوئي ، وهو مقتل مؤلم ومحزن التفاصيل . ألتف حول الصدر المئات ثم الآلاف من العوام ورجال الدين الشباب يتظاهرون باستنكار العمل مع الأمريكان والبريطانيين . بينما نسقت بقية الأحزاب الشيعية ، شأنها شأن أحزاب المعارضة الأخرى ، الدينية والعلمانية العربية منها والكردية والتركمانية والآشورية ، مع قوات التحالف لإعادة بناء الدولة على أنقاض النظام السابق .

ونحن نعد لهذه الطبعة حدثت تطورات عديدة في مسار العلاقة بين الأديان والمذاهب العراقية . فبعد تغييب صوت تلك المكونات ، في الفترة السابقة ، أخذت تطالب بتواجد مناسب لها في الوزارات ومجالس البلديات وفي رأس السلطة . تواجد حقيقي يعكس وجودها على الأرض . وهناك إشارات إلى ارتفاع عددها من خمسة أديان إلى سبعة بعد إعلان البهائية والكاكائية (أهل الحق) كديانتين . وسعياً لتأكيد التواجد أعلن جماعة من الصابئة المندائيين تأسيس حزب أو تجمع سياسي ، تأسس خارج رغبة رجال الدين أو مجلس

الطائفة الروحاني الأعلى بالعراق . لأن ليس من تقاليد هذه الديانة أن تهتم بالشأن السياسي المباشر . لكن هناك حقيقة أخرى وهي أن الأديان والمذاهب ذات الكثافة السكانية الأقل ، قياساً بالسُنَّة العرب والشيعة العرب أيضاً ، ممثلة أساساً عبر تكويناتها القومية أو الأثنية . فالصابئة حسبوا على نسبة العرب ، وعلى تواجد أبنائهم داخل الأحزاب السياسة العراقية الأخرى . والمسيحيون حسبوا أساساً على نسبة الكلدو آشوريين . بينما حُسب الأيزيديون على النسبة الكردية ، وحاول بعضهم التميز بكيان سياسي . وربما توزع الكرد الفيليون بين الكرد والشيعة عموماً .

لهذا لم يتم تمثيل أهل الأديان غير الإسلامية ، وأقصد بالتحديد المذاهب المسيحية المتعددة ، على أساس ديني أو مذهبي بل تم التعامل معهم على أساس أثني . فبطبيعة الحال كل مسيحي هو أما كلداني أو آشوري . وكل أيزيدي هو كردي . وكل صابئي هو عربي ، رغم أن الأصل آرامي . ومعلوم أن الظروف القاهرة أجبرت المندائيين على حسر لغتهم الآرامية بطقوسهم الدينية ، ولا تجد مَنْ يجيدها سوى رجال الدين ، وبضعة كلمات يحفظها المندائي العامي عند الصباغة أو المعمودية ، وما عرف بالملواشة . وهم خلاف المندائيين الأهوازيين في الحرص على تعليم أبنائهم لغتهم الأولى .

ارتأينا في هذه الطبعة إضافة الديانة البابية والبهائية إلى الكتاب ، بعد أن شغلت كتاباً خاصاً بها هو كتاب «حروف حي» (دار الجمل ٢٠٠٣) . لقد أشرنا في مقدمة الكتاب الأولى إلى أن مبدأ الأكثرية والأقلية لا يعني شيئاً في دراستنا . فما اعتمدناه هو الأُصول والجذور بالعراق . أعلنت البهائية ديانةً ببغداد في القرن التاسع عشر ، وتركت كعبة لها بمحلة شيخ بشار بالكرخ . ذلك المكان الذي وصلت قضية التنازع عليه إلى عصبة الأمم عن طريق بهائيي العالم . وتعرض البهائيون لاضطهاد منظم ، من قبل النظام السابق ، فكان يحكم على البابي أو البهائي بالإعدام ، وحرم وجودهم بقوانين معلنة . لكنهم نشطوا من جديد بالعراق قُبيل سقوط النظام وانشغاله في أمنه الخاص ، ولهم أتباع عديدون يتزايدون بشكل ملحوظ . قد لا تتوقف الإضافات والتعديلات في موضوع متشعب ومتسع مثل موضوع الأديان والمذاهب . ففي أجواء الحرية ، وهيمنة مقومات المجتمع المدني المتحضر تعلن الطقوس ويفرج عن مقالات ، ووثائق ظلت مطوية طوال قرون . ويحدث إتصال مباشر بين شيوخ ووجهاء الأديان كافة ، من دون أن يكون للسلطة شأن في الأمر . ومن المحاولات الجادة من أجل تنقية أجواء التجاور الديني والمذهبي تشكلت ، بعد سقوط النظام السابق ، هيئة عليا للتضامن الروحي بين الأديان السماوية بالعراق . وعقدت مؤتمرها الأول ببغداد في ٢١ آب «أغسطس»[١] .

---

(١) مجلة افاق مندائية ، بغداد ، العدد ٢٦ السنة ٢٠٠٤ .

لقد بدأت الدولة العراقية خطوة صحيحة في العشرينيات عندما جعلت معلمين من الطوائف الدينية لتعليم الأولاد الصلاة بمعتقدهم، في درس خاص حسب أديانهم، مثلما يتعلم أولاد المسلمين أمور وتاريخ ديانتهم[٢]. جاء في مذكرات مدير التعليم العام ساطع الحصري أن مدارس العراق الرسمية العام الدراسي ١٩٢١ - ١٩٢٢ضمت ٤٢٨٨ مسيحياً، و٥٧١ يهودياً، و١٦٥ صابئياً، وأربعة أيزيديين فقط. والطائفة الأخيرة كانت بعيدة عن التعليم والدولة بشكل عام. مقابل ٧١٠١ طالب مسلم سُنّي، و٣١٤٦ طالباً مسلماً شيعياً. ثم تزايد العدد في العام ١٩٢٢ - ١٩٢٣ ليصبح عدد الطلبة المسيحيين ٤٣١٣، واليهود ٧٤٠، والصابئة ١٩٤، والأيزيديين ١٦، مقابل ٨١٦٦ مسلماً سُنّياً، و٣٨٠٢ مسلم شيعي[٣].

إن أي نقص في التركيبة الموزائيكية الدينية والمذهبية، القائمة بالعراق، سيؤدي إلى تغيير وجه العراق نحو الأسوأ. لذا أجد من الحكمة أن يحرص العراقيون ونظامهم الجديد على توفير الشروط القانونية والحقوقية لطمأنة أهل الأديان الأخرى، وإشعارهم أنهم الأقدم في هذه الأرض، وهذه هي الحقيقة بعينها. وأن يحرم التكفير والإقصاء تحريماً قاطعاً في الدستور. وأجد من الحق أن يضمن حق العودة لكل مهجر عن أرضه. وأن لا يستثنى يهود العراق من تلك العودة بحجة مقارعة إسرائيل والصهيونية. فمقارعة الصهيونية كانت ذريعة لإرتكاب جريمة الفرهود في حزيران ١٩٤١ ضدهم، وتهجيرهم بإصدار قانون إسقاط الجنسية. فلهؤلاء حقوق المواطنة وأملاك وعقارات هي جهد سواعد آبائهم وأجدادهم، أملاك مازالت معلقة تحت عنوان «الأموال المجمدة».

حزيران «يونيو» ٢٠٠٥

---

(٢) الحصري، مذكراتي في العراق ١ ص ٣٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٣.

مقدمة

الطبعة الأولى

تتعايش بالعراق أديان ومذاهب عديدة، متقاربة تارة ومتنافرة تارة أخرى. غير أن تقاربها وتنافرها لم يصل إلى حد الإلغاء، سواء كان بالضم أو بالهجرة القسرية. حافظ الجميع على وجودهم بقدر ما يسمح فيه التجاور على بقعة جغرافية واحدة. فالصابئة المندائيون مثلاً عاشوا مئات السنين بين المسلمين الشيعة بمدن جنوب العراق وأهواره، وكان وجودهم في ظل سطوة العشائر أكثف بكثير من وجودهم في ظل الدولة المركزية الحديثة. إذ بلغ عدد أُسرهم في واحدة من حواضر الأهوار (الجبايش) قبل ١٩٢٤[1] حوالى مائة وعشرين أسرة، ومعظمهم من عشيرة البريجية المندائية. يُعد هذا العدد كبيراً نسبة إلى مجموع نفوس الصابئة بالعراق، ونسبة إلى عدد سكان تلك الحاضرة البالغ آنذاك بضعة آلاف. وبعد إلغاء سلطة العشيرة لم يبق من هذه البريجية إلا القليل، وبالتدريج نزح الجميع إلى المدن الكبرى. يعيننا هذا المثال على تفهم طبيعة التعايش بين عشيرة مسلمة وجماعة من الصابئة، خارج إطار الدولة. مع أنهم حسب التقاليد الدينية السائدة هناك فئة من الكفار، وقديماً صدرت بحقهم فتاوى قتل. هذا ما حدث بقرى متناثرة وسط الأهوار، ونجد الصورة أحسن بكثير بالمدن المتقدمة اجتماعياً.

وما عدا المدن المغلقة، إلى حد ما، لديانة أو مذهب، مثل النجف وكربلاء والقوش ومانكيش، فمعظم المدن العراقية الكبرى مختلطة الأديان والمذاهب، وفي مقدمتها بغداد والموصل والبصرة، ذلك بحكم الدور الذي لعبته هذه المدن الثلاث في تاريخ العراق العباسي والعثماني. وهنا لا نقر الإشارة إلى هذه المدن بالولايات المنفصلة، طوال فترة العهد العثماني، والتي منها، كما يذهب البعض، خلق البريطانيون العراق بحدوده اليوم. بل

---

(١) سليم، الجبايش، ص ٤٥٤.

كانت بغداد منذ العباسيين ولحد هذه اللحظة عاصمة بلاد استقرت تسميتها بالعراق قبل الإسلام بكثير . قال ابن رسته في حدود العراق الجغرافية ، آنذاك : «إن حد السواد (العراق) الذي تم مسحه في صدر الإسلام هو من لدن تخوم الموصل ، ماراً إلى ساحل البحر من بلاد عبادان ، من شرقي دجلة طولاً ، وعرضه منقطع الجبل (حمرين) من أرض حلوان (بعد خانقين) إلى منتهى طرف القادسية ، مما يلي الغُرَيب (لعلها تحولت إلى أبو غْريب في مابعد)»[٢] .

وأكد أبو الحسن المسعودي (ت٣٤٦هـ) حدود العراق وكأنه يتحدث عن حدوده الحالية تماماً ، بالقول : «السواد وهو العراق ، فقالوا حده مما يلي المغرب ، وأعلى دجلة من ناحية آثور . وهي الموصل القريتان . القريتان المعروفة إحداهما بالعلث من الجانب الشرقي من دجلة وهي من طسوج مسكن . ومن جهة المشرق الجزيرة المتصلة بالبحر الفارسي المعروفة بميان روذان من كورة بهمن أردشير وراء البصرة»[٣] .

وقال أيضاً : «العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم من النمادرة ، وهم ملوك السريانيين الذين تسميهم العرب النبط . ثم ملوك الفرس على طبقاتهم من الفرس الأولى إلى الساسانية ، وهم الأكاسرة . وهي حيث تلتقي دجلة والفرات وما قرب ذلك . وهي من السواد البقعة التي حدها الزابي (نهر الزاب) فوق سر من رأى مما يلي السن ، وتكريت ، وناحية حلوان مما يلي الجبل ، وهيت مما يلي الفرات ، والشام و واسط من أسفل دجلة والكوفة من سقى الفرات إلى بهندف وبادرايا وباكسايا ، وهي بالنبطية تَرْقُف من أرض جوخى»[٤] .

ومراعاة لأشرف المواضع ، حسب المسعودي ، اعترض الشاعر الفرزدق على قرار يزيد بن عبد الملك (ت١٠٥هـ) القاضي بتعيين عمر بن هبيرة حاكماً على العراق ، وهو لا يؤتمن على راحلة قلوص ، حسب قوله الآتي :

أمير المؤمنين وأنت بر	أمين لستَ بالطبع الحريص
أأطعمتَ العراق ورافديه	فزارياً أحذَّ يد القميص
تفهق بالعراق أبو المثنى	وعلَّم قومه أكل الخبيص
ولم يكُ قبلها راعي مخاض	لتأمنه على ورك القلوص
ستحمله الدّنيئة عن قليل	على سيساء ذعبلة قَموص[٥]

---

(٢) فوزي ، تاريخ العراق في عصور الخلافة الإسلامية ، ص ٢١ ، عن ابن رسته .

(٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٢-٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٥) ديوان الفرزدق ، ص ٣٠٤ ، المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ٢ ص ٧٣ ، التنبيه والإشراف ،

وكم يشوقنا أهل المعرفة ، على حد رواية المسعودي ، حين قالوا في تاريخ العراق الحضاري المفعم بالانجازات الإنسانية مثل الكتابة والعجلة والطب والعمران ، إلى الماضي السحيق ونحن نُقلب الرماد ولا نجد فيه نار علم وفضل ، فلم يبق من ذلك غير حفائر وذكرى تتهاوى في لجج من الآلام والخراب .

تقول لك : ماذا بقي من العراق؟ الذي وصف أبو الحسن المسعودي أهله بالقول : «أهل العقول الصحيحة والشهوات الممدوحة والشمائل الموزونة والبراعة في كل صناعة ، مع اعتدال الأعضاء واستواء الأخلاط وسمرة الألوان ، وهي أعدلها وأقصدها ، يستدل على اعتدال مزاج باطن أبدانهم بالذي يرى من السمرة الظاهرة في ألوانهم واعتدال أعضائهم ، أحسن الناس ألواناً ووجوهاً ، وأئمتهم حلماً وفهماً ، فهم أهل العلم والخير ، وذلك لامتزاج صقعهم من حر الجنوب وبرد الشمال ، وغلب عليهم المشتري لامتزاجه من برد فلك زحل ، وحرارة فلك المريخ فاعتدلوا فاجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، كما اعتدلوا في الجبلة ، كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بمحاسن الأمور ، وكيف لا يكونون كذلك وهم أرباب الوافدين وأصحاب الرافدين من دجلة والفرات»[٦] . وكيف تدهور الحال من اختراع العجلة في الزمن الغابر ، العجلة التي بدورانها أقتربت أقاصي الأمكنة ونشأت الصناعات ، إلى تحريم استخدام القطار في بداية القرن المنصرم ، يوم أعلن رجل الدين «أتتركون حمير الله وتركبون الشمندفر»؟

في الاختلاط والتجاور الديني والمذهبي العراقي كتب الرحالة ابن سعيد الأندلسي (القرن السابع الهجري) بعد أن زار البصرة برفقة قاضي القضاة : «وجدته ببغداد صاحب أعمال الخليفة المستعصم فانحدرت معه إلى البصرة في دجلة ، ورحلتي معه تحتمل سفراً زبدتها في هذا المكان ، إنا وصلنا البصرة حللنا بين نهر الأبلة ونهر المعقل ، وضرب الصاحب هناك خيمة ، وفيها ماء يرتفع ويدور كالأهلة برسم الجلوس للناس ، وجاءه الوافدون من المسلمين والنصارى والمجوس والصابئة ، فسنح لي القول :

مــا بــين نــهــر الأبلة ونــهـــر معقـــل حلة
قـــد حلـــها كـلّ جــود وأمـــهــا كـــل ملّــة»[٧]

تجاورت ببغداد والموصل والبصرة الأديان والمذاهب . محال مختلطة وأخرى مغلقة لدين أو مذهب . ليس على هيئة الغيتو المغلق . حصل التجاور ببغداد بين اليهودي والمسيحي والمسلم ، يتزاورون في الأعياد والمناسبات ، ولم يؤثر في سلامة هذا التجاور غير الموقف

= ص٤١ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٥ ص ٢٧ .

(٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٧ .

(٧) الأندلسي ، المقتطف من أزاهر الظرف ، ص ١٥٥ .

السياسي والتعصب باسم الدين . ذلك ما سنراه من متابعة الاضطهادات الدينية والمذهبية . خلا ذلك فالأديان والمذاهب كافة لديها فسحة من التسامح ، قد تضيق وتتسع . وبالنتيجة لم يصل الأمر إلى إلغاء الآخر . فالحكم الفارسي ، قبل الإسلام ، سمح بتعدد الأديان مقابل دفع الجزية . ثم جاء الإسلام وظل الحال كما هو عليه . لكن لموقف الملك الفارسي ، أو الخليفة المسلم ، تأثيره المباشر في أحوال التعايش الديني والمذهبي ، وما لذلك من علاقة بجباية الجزية ، أو موازنة الموقف السياسي عبر الحدود الشمالية ، حيث الروم البيزنطيين وحروبهم الطويلة مع الساسانيين ثم المسلمين . ورغم ضمان الإسلام للحرية الدينية لأهل الكتاب ، إلا أن العديد من الخلفاء والولاة جعلوا «لا إكراه في الدين» وراء ظهورهم ، وتعاملوا مع الآخر بشتى صنوف الذل والإهانة . بداية من «وهم صاغرون» عند دفع الجزية إلى لبس الثياب المغايرة للباس المسلمين ، ومنعهم من ركوب الخيل أو حمل السيوف ، والتضييق عليهم في وظائف الدولة . كل هذا يولد الشعور بالضغينة والاستعداد للتنافر الحاد . ولو تركت الطوائف العراقية دون تدخل سياسي ، وكهنوتي عنصري ، فإن زمانها سيكون دائماً العام ٢٤٤هجرية ، وهو العام الذي أتفق فيه الاحتفال بالأعياد «الأضحى وفطير اليهود وعيد الشعانين للنصارى في يوم واحد»[٨] .

ما زالت خارطة العراق الدينية والمذهبية غنية بالتنوع . وفي هذا الكتاب نُعنى بالأديان الحيّة فقط . ولا نأخذ عدد الأتباع بنظر الاعتبار ، فمن الاجحاف التعامل بمصطلح الأقلية والأكثرية . ذلك لما في مصطلح الأقلية من حرمان وإلغاء للحقوق التاريخية والشراكة المتوازنة في الوطن الواحد . إضافة إلى ما يولده هذا المصطلح من شعور بالضعف والاغتراب . وبالتالي يصبح الوطن وطن الأكثرية فقط . فالمواطنة حقوق لا تخضع لمبدأ الأقلية والأكثرية . مع علم الجميع أن زيادة التناسل التي تأتي بالأكثرية ، بسبب الزواج المبكر وتعدد الزوجات ، أصبحت معوقاً من معوقات التنمية ، وتنمي عن جهل حضاري ، وقصور في التربية والإعداد السليم ، والشواهد على ذلك كثيرة .

لم يتسع الكتاب بطبيعة الحال للأديان والمذاهب القديمة ، سومرية وبابلية وآشورية ومانوية ، من التي لم يبق لها أثر غير متعلقاتها في أديان أخرى ، مثل المندائية والأيزيدية . ذلك أن تلك الأديان قد بحثت كثيراً وصدرت فيها المؤلفات العديدة ، ولا أجد لديّ ما يُضاف إلى دراسات علماء وباحثين عراقيين وأجانب ، وما ظهر من دراسات جديدة قد لا تتعدى جهود طه باقر ، ونوح كريمر ، وفوزي رشيد ، وفاضل عبد الواحد وغيرهم . كذلك ما تحتاج إليه تلك الدراسات من اختصاص آثاري ، ومعرفة جيدة باللغات القديمة وهذا ما لا ندعيه .

(٨) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٢ ص ٣١٨ .

ومن وجهة نظري ، وهي تحتمل الخطأ والصواب ، أن الدين الصابئي المندائي هو الدين الأقدم بين الديانات العراقية الحيّة . لذا تقدم على فصول الكتاب الأخرى . فالتسمية (الصابئة) كانت مهيمنة على الديانات العالمية بداية من بابل ومصر إلى الرومان والهند ، ودخل تحت هذا الاسم كل مَنْ جعل التماثيل والرسوم وسيلة للتعبد ، هذا ما أيده المؤرخون المسلمون كافة . وصابئة العراق مختلفون بطبيعة الحال ، فالاسم عندهم لا يتعلق يصبأ العربية وهو الانحراف عن الدين ، بل هي متعلقة بالتعميد أو الصباغة . ومن ناحية أخرى ليس هناك أهل دين ادعوا نزول كتابهم على آدم أبي البشر غير الصابئيين المندائيين ، وهو كتاب «الكنزاربا» . وما يؤكد قدم هذا الدين أيضاً صلته الوثيقة بالديانة البابلية . والمندائية هي الديانة التي ينطق معتنقوها اللغة الآرامية ، بلهجتها الشرقية ، والمعروفة نسبة لهم بالمندائية . وسمعت من شيوخهم أنهم دين الفطرة الأولى ، بهم بدأ الدين وبهم سيختتم ، وما الأديان الأخرى إلا خارجة عن الدين الأول ، وسيظهر المسيح وسيملك العالم ، وفي آخر المطاف سيعود الناس مندائيين . لكل هذا اجتهدنا في أن يكون الدين المندائي أقدم دين عراقي ما زال على قيد الحياة .

أما الديانة الأيزيدية ، التي تشغل الفصل الثاني من الكتاب ، فهي امتداد لأديان ضاربة بالقدم . منها الزرادشتية ، التي كان يعتنقها الأكراد ، مع وجود اليهودية والمسيحية بينهم . وهي من الديانات التي يصل توحيدها إلى نبذ فكرة وجود إبليس خالق الشرور والذنوب . وورد تأكيد تسميتها بالأيزيدية صلة باسم الله القديم لديها يزدان أو أيزيد ، ولإبعادها مما شاب تاريخها من روايات نسبتها إلى يزيد بن معاوية . فهي أيزيدية وليست يزيدية ، وقيل لهذه التسمية صلة ما بكلمة سومرية . حاولنا في الفصل الثالث ، الخاص بالديانة اليهودية ، تقصي عاطفة يهود العراق تجاه ضفاف دجلة والفرات ، عبر كتاباتهم واحتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم ، بعد مرور أكثر من نصف قرن على تهجيرهم إلى إسرائيل ، وهجرة عدد منهم من هناك إلى دول أخرى . غير أن الخمسين سنةً في المهجر لا تعني شيئاً قياساً بجذورهم الممتدة بالعراق إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام .

لقد شغلت المسيحية ، التي دخلت العراق عبر حدياب (أربيل) ، الفصل الرابع من الكتاب . وكانت دراستها محاولة لرصد انعطافها إلى النسطورية ، وتعامل الملوك الساسانيين معهم وفقاً لحالة السلم أو الحرب مع الروم البيزنطينين . ثم انتشارها من العراق إلى الهند والخليج العربي ، حيث كنائس بيث قطراي (دويلة قطر حالياً) . وكانت دراسة الملتين ، اليهودية والمسيحية ، عبر قراءة في اللوائح الإسلامية في التعامل مع أهل الذمة ، بداية من عهد الرسول ، وعهود الخلفاء الراشدين لهم إلى قرارات جعفر المتوكل ضدهم . يتبين من هذه

القراءة مدى تحكم مزاجية الخلفاء والولاة في تفسير أو تأويل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بشأن أهل الكتاب . مع أن هؤلاء تطلعوا إلى معاملة أفضل من معاملة العهد الساساني ، فوجدوا في الإسلام ما يضمن لهم حريتهم الدينية ، وشاركوا في الدولة عبر الاهتمام بالعلوم وفي مقدمتها الطب ، الذي يحتاجه الخليفة ويبذل لطبيبه ما يشاء . لذا جلبت مهنة الطب الكثير من المنافع لأهل الذمة ، حتى شعر بعض الفقهاء والمحتسبين المسلمين بأهمية هذه العلوم ، التي حمت أهل الذمة من هيمنتهم الفقهية ، فنصحوا المسلمين بتعلمها .

ويأتي تقديم المذهب الشيعي على المذاهب الإسلامية من الناحية الزمنية ، لا لأمر سوى أنه المذهب الذي ولدته سياسياً سقيفة بني ساعدة ، بعد وفاة الرسول . ولا يؤخذ بجدية ما ذهب إليه إخباريو ومؤرخو التشيع من أن الرسول هو المؤسس الأول للشيعة ، وهذا ما يدعيه معظم المذاهب الفقهية والفكرية . فالحنفيون أتوا بأحاديث نبوية لتصديق رواية تنبُؤ الرسول بظهور الإمام أبي حنيفة النعمان . وكذلك فعل الشافعيون والمعتزلة . بل وتطرف الحنابلة حين جعلوا الإمام أحمد بن حنبل من سلالة الرسول ، وأنه بايع الله تعالى بمكة . ولا أجد في أمر تأسيس المذهب الشيعي غير تأييد القول : إن التشيع سبق المذاهب الأخرى بعد أن تبلوره مذهباً سياسياً حول مسألة الإمامة ، وظل في المعارضة زمن الخلافتين الأموية والعباسية ، واستقل مبكراً بمقالاته الفقهية ، ورواياته التاريخية المنسوبة دائماً إلى الأئمة ، وعلى وجه الخصوص الإمام جعفر الصادق ، لذا عرفت الإمامية بالجعفرية أيضاً .

وقصدنا من تثبيت عنوان الفصل الخامس تحت عنوان الشيعة وليس المذهب الشيعي ، لأن الشيعة حركة سياسية واجتماعية ومذهب فقهي معاً ، ومفهوم الحركة يستغرق المذهب . والحال مختلفة بالنسبة إلى أتباع الإمام أحمد بن حنبل وتسميتهم بالحنابلة ، في أكثر المواقف ، لا بالمذهب الحنبلي ، لأنهم لم يشكلوا مذهباً فقهياً ، وإنما كانوا حركة شغل إمامها الشاغل هو تسجيل الحديث النبوي لمواجهة أهل الرأي والفكر العقلي بشكل عام . هذا ما ما أفصح عنه المؤرخ والمفسر محمد بن جرير الطبري ، وكان سبباً في مطاردته من قبل الحنابلة . بينما بدأ وأستمر المذهبان الحنفي والشافعي كمذهبين فقهيين خالصين .

الكتاب بمجمله رصد تاريخي واجتماعي ، لا يخلو بطبيعة الحال من إيضاحات لأهم مقالات الأديان والمذاهب الفكرية والفقهية ، وكشف المشترك بينها . وغالباً ما كان البحث وفقاً لتسلسل الأحداث الزمني . وبما أن الكتاب لم يختص بدين أو مذهب واحد ، لذا جرت محاولة الإلمام بأهم الأحداث ، مع إبراز التعايش بين الديانات والمذاهب العراقية ، اثناء فترات الفرج والشدة . ومعلوم أن التعرض لمثل هذه الأحداث قد يغضب الكثير ، ويُرضي

الكثير في الوقت نفسه. لا يوافق البحث المتجرد من العاطفة الدينية أو المذهبية الجميع. وليس من العدالة تصديق رواية طرف وتكذيب رواية طرف آخر. وللرواية التاريخية، مهما كانت ظروفها، أهميتها في البحث التاريخي. نجد من الصعوبة الحديث عن تسامح إسلامي دائم مع أهل الذمة، أو عدالة طائفية في العهد العثماني مع ما خلفه من ظلم بالعراق تجاه الشيعة والكرد. وهل يمكن السكوت عن محاولة تصفية الآشوريين الجماعية في العهد الملكي مثلاً؟ أو عن التهجير الجماعي ليهود العراق بعد فرهود ١٩٤١ بسنوات؟ أو عن تهجير الشيعة، وغض الطرف عن شعار «لا شيعة بعد اليوم»؟ وهل يمكن أن نقر ما يِنقص من مكانة الإمام أبي حنيفة، ونضع ريادته الفقهية في تأسيس مدرسة الرأي وراء النعرات الطائفية؟ كل هذا سيغضب فئة ويرضي فئة أخرى. وتبقى الرواية التاريخية، ومقالة هذا المذهب أو ذاك هي المصدر.

ضم الكتاب ثلاثة تكوينات سُنَّية: الحنفي والشافعي والحنابلة، ولم يتعرض لوجود المذهب المالكي. والسبب أن هذا المذهب لم يكن مذهب العراقيين بقدر ما كان مذهباً لمسافرين وردوا بغداد للدراسة في مدارسها الفقهية. ومع ذلك كان للمالكية كرسي خاص في المدرسة المستنصرية، أسوة بالمذاهب السُنِّية الثلاثة الأخرى. وإن تدريس المذهب المذكور، رغم عدم وجود أتباع له، يتعلق بدولية بغداد آنذاك. فهي عاصمة إمبراطورية شاسعة، تتسع لشمال أفريقيا المالكية أيضاً. وكان معظم الدارسين على هذا المذهب من المصريين والمغاربة. وتاريخياً نشأ المذهب المالكي بالحجاز نقيضاً لمذهب الرأي بالعراق. أما لماذا للمذهب الشافعي مكانة كبيرة، وخصوصاً في غرب وشمال العراق، وقد نشأ في مكان آخر؟ فلعل الأمر يتعلق بتوسطه بين الرأي والحديث، أي أخذ من الحجاز والعراق.

أما الحنابلة فلم يعترف بهم كمذهب فقهي آنذاك، بقدر تمثيلهم لحركة فكرية تصدت لمقالتي خلق القرآن ونفي الصفات عن الذات الإلهية. وكان انتشارها بين العامة ببغداد لتعلقها المباشر بالنصوص التي عادة لها تأثيرها المباشر في عقول البسطاء، وهي أقرب إلى السياسة من الفقه، فاعتمدها الخلفاء، مثل جعفر المتوكل، لمواجهة الخصوم، ولم تستمر بعد تبلورها إلى مذهب فقهي بالعراق إلا بحدود ضيقة.

لقد منعت طائفية الدولة العباسية أن يكون للمذهب الجعفري كرسي، على الرغم من أن أتباعه لا يقلون عدداً عن المذاهب الثلاثة من غير المذهب المالكي. وإذا قيل: إن لهذا المذهب مدارسه الخاصة واختلافه الكلي عن المذاهب الأربعة، فللمذهبين الحنفي والشافعي، كل على حدة، مدارسهما الخاصة والمغلقة لأتباعهما ببغداد و واسط والموصل والمدن الأخرى. وأن الاختلاف بين الحنفية من جهة والشافعية والمالكية من جهة أخرى

ليس بالقليل ، حتى أن أحد القضاة تمنى أن تؤخذ الجزية من الشافعيين ، وأخبار المعارك بين الشافعية والحنابلة تملأ صفحات التاريخ .

سينتبه القارئ إلى إضافة الديانة البهائية التي أعلنت بالعراق في نهاية القرن التاسع عشر ، وحضرت بقوة في أحداث تلك الأيام ، وليس لنا إلا عدها ضمن خارطة الأديان والمذاهب بالعراق . وقد بدأ ت فرعاً من فروع الفرقة الشيخية أو الكشفية المنشطرة عن قوام الشيعة الإمامية . وانتهت إلى القول بظهور المهدي المنتظر ممثلاً بشخص السيد علي محمد الشيرازي ، ثم إعلان النبوة والتبشير ببهاء الله . وقد سبق نشر الفصل الخاص بالبابية والبهائية في كتاب «حروف حي» ، » مع إلحاقه بكتاب بهاء الله «كتاب أقدس» . لكن حرصنا على ضمها إلى طبعة الكتاب الجديدة .

ومع الإقرار بأن الشبك لا دين ولا فرقة ، علي إلهية أو صوفية ، وإنما هي قبيلة كردية مثل غيرها من القبائل العراقية المسلمة ، توزع أهلها على مذهبي الشيعة والسُنَّة ، إلا أنها حظيت بفصل خاص من الكتاب ، ذلك لمناقشة ما جرى تداوله من معلومات خاطئة حولها . منها ما كتبه أحمد حامد الصراف في كتابه «الشبك» ، والأب أنستاس الكرملي ، الذي عدَّهم في الإحصاء الحكومي جمعاً مع الأيزيديين . وإن اختلاق فرقة أو مذهب ديني باسم الشبك يذكر كثيراً باختلاق تاريخ مقالات لفرقتي السبئية والكيسانية على يد الإخباريين مستوحى بالنسبة للأخيرة من قصائد الشاعرين كُثير عزة والسيد الحميري . ومَن يسمع من الشبكيين أنفسهم سيجد شيعيتهم شيعية العراقيين الآخرين ، وسنِّيتهم شافعية ضمن المحيط الكردي العراقي .

واستثنى الكتاب الطرق والتكايا الصوفية ، ما عدا المرور السريع على طرق التصوف بالسليمانية ، عبر لقاءات مباشرة بشيوخ الطريقتين الرئيستيين ، النقشبندية والقادرية . تمت أثناء زيارة المنطقة . والسبب أن التصوف لم يشكل ديانة أو مذهباً قائماً بذاته ، وإنما الطريقة الصوفية ببغداد أو السليمانية أو في أي بقعة أخرى من العراق تتبع المذهب السائد فيها . ولم يبق التصوف محصوراً في المذهب الشافعي ، فللشيعة صوفيتهم أيضاً ، مثالها الحروفية والقزلباشية والقلم حاجية المنتشرة بمندلي سابقاً . وبالتالي فالطريقة الصوفية هي ممارسة طقسية ليس لها كيان المذهب . هذا من جهة ومن جهة أخرى أن التصوف كظاهرة اجتماعية وفكرية ودينية متشعبة ، ومتداخلة في الحياة العامة ، غير محصورة في الإسلام ، تدخل فيها حياة الرهبان ، وعزلة الأديرة المسيحية ، وحياة شيوخ الصابئة المندائيين ، وزهاد اليهود ، فلا يكفي البحث في تاريخها وطبيعتها فصل من فصول الكتاب بقدر ما تحتاج إلى كتاب خاص بها .

تم الاعتماد أولاً ، في مصادر الكتاب ، على كتب كل دين ومذهب . ثم ما كتبه الآخرون من مؤرخين وجغرافيين . ولم نواجه صعوبة في جمع المصادر ، وخصوصاً عند البحث في المذاهب الإسلامية ، ولا سيما أن المصادر الأكثر كانت التاريخية القديمة منها ، مع الابتعاد قدر الإمكان عن إجابات موسوعات الملل والنحل المختصرة في تعريف هذا الدين أو ذلك المذهب . وما كنا بحاجته من تلك المصادر هو الرواية التاريخية وتوكيد إسنادها . فمن كتب التاريخ والتراث الإسلامي حصلنا على مادة كافية لحياة غير المسلمين داخل المحيط الإسلامي منذ أصبحت بغداد عاصمة للدولة الإسلامية .

عكست روايات هذه المصادر تبايناً في سياسة الدولة تجاه مواطنيها الذميين ، ومدى مشاركتهم في الحياة العامة ، ومواقف الفقهاء المتباينة تجاههم بين متشدد ومتسامح . قاد هذا الأمر إلى التداخل بين فصول الكتاب للوقوف على وضع هذا المذهب أو ذاك من أهل الذمة . كما وردت في سياق البحث ترجمات عديدة لأهم الشخصيات الدينية والفقهية المؤثرة في أديانها أو مذاهبها . وإن تحدثت المصادر الإسلامية ، كتب الملل والنحل مثلاً ، عن مقالات وطقوس الأديان الأخرى ، لكنها لا تصلح مادة تاريخية إلا فيما ندر . ذلك لعدم حيادها وميلها للتشويه . استدعى ذلك البحث حول حقيقة العديد من المفاهيم ، مثل الأقانيم عند المسيحيين ، وما قيل في تزوير الكتابين : التوراة والإنجيل ، وما يتعلق بعلاقة الصابئة المندائيين بالكواكب والماء ، وما تحدث به مؤرخو السُنَّة حول مقالات الشيعة وبالعكس .

ليس لنا الدخول في ماهية اعتقادات الأديان والمذاهب بالتفصيل ، بقدر ما وردت إشارات وافية لطقوس العبادة . ويأتي التوسع حسب حاجة البحث ، مع الالتزام بالتسلسل التاريخي لوجود الدين أو المذهب ، وهو يعيش تارة التقارب وتارة أخرى التباعد مع الآخرين . غير أن التنوع الديني والمذهبي على الأرض العراقية ظل سمة مميزة للمجتمع العراقي منذ القدم ، ولم ينفر في أحلك الظروف طرف ما نفوراً تاماً إلى حد الهجرة الجماعية . وما حدث لليهود العراقيين (١٩٥٠ - ١٩٥١) كان مشروعاً اشترك فيه مسؤولون كبار في الدولة العراقية ، واستغلت فيه العاطفة الدينية ، وقبل ذلك مورس ضدهم الفرهود ، الذي ساهمت فيه فلول من الجيش قبل اللصوص ، وشجع عليه مواطنون عرب بسذاجة تحت مشاعر العداء للصهيونية ومناصرة النازية ، وفي مقدمتهم الشخصية الفلسطينية المعروفة مفتي القدس أمين الحسيني يوم كان مقيماً ببغداد ، مع أن ما حدث حقق لبن غوريون حلماً .

تحمل العراقيون على مختلف أديانهم ومذاهبهم الفواجع بنسب مختلفة . أشار المؤرخون إلى أعظمها وهو غزو التتار لبغداد . جاء برواية مؤرخ من القرن التاسع الهجري ما نصه : «خُربت بغداد الخراب العظيم ، وأحرقت كتب العلم التي كانت من سائر العلوم والفنون التي

ما كانت في الدنيا ؛ قيل : إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر»[٩] . لكن هناك مَنْ قال في هولاكو : كان «تواقاً إلى الحكمة ، يُرغب الحكماء في بحوث الأوائل ، وقد عين لهم الهدايا والمراسم ، وكان يزين بلاطه بالعلماء والحكماء»[١٠] . ومع أن انفراجاً شعر به المسيحيون لعلاقة المغول السابقة بالمسيحية ، وعبر زوجات الخانات من المسيحيات ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً ، فالعنف عندما يعم لا يستثني أحداً .

وفسر البعض خطأً دورات القسوة وسفك الدماء لطبيعة جُبل عليها العراقيون ، مع أنها فعل خلفاء وسلاطين قادمين من خارج الحدود غالباً ، مثل زياد بن أبيه وولده عبيد الله ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وهولاكو الفاتح ، أو أن تلعب السلطة نفسها لعبة العنف ، ذلك بتوجيه طائفة ضد طائفة آخرى . وهناك مَنْ فسرها برغبة أهل العراق في العصيان نتيجة لتفوقهم المعرفي والعقلي . فالمكان الذي تجتمع فيه عشرات الأديان والمذاهب لابد أن تكون بيئته وإنسانه متفوقين . وسعى أصحاب التفسيرين إلى التحصن بأحاديث نبوية ، على الغالب أنها من الأحاديث المختلقة . فمن الأحاديث التي تبناها القائلون برغبة العراقيين وميلهم الطبيعي للعنف ، ولا ندري لماذا؟ : «أن بها (أرض العراق) قرن الشيطان ، وتهيج الفتن ، وأن الجفاء بالمشرق»[١١] . ومعروف عن العراق أنه كان عاصمة المشرق الإسلامي ، حتى الهند والسند وما وراء النهر . وحديث نبوي آخر رواه الحجاج بن يوسف الثقفي عن (ثقات) ، كما ورد في صفته : «قال الخصب : أنا أنزل العراق ، فقال النفاق وأنا معك» . والرواية التي سندها الحجاج لا تحتاج إلى تعليق بشأن العراق! وكيف جعل الخصب وهو الخير الشامل ، حيث أرض السواد ، مقترناً بالنفاق؟

أما أحاديث مَنْ قال بالتفوق العلمي للعراقيين فمنها : «أن إبراهيم عليه السلام همَّ أن يدعو عليهم فأوحى الله تعالى إليه : أن لا تفعل فأني جعلتُ خزائن علمي فيهم ، وأسكنت الرحمة قلوبهم» . وعدَّ أحد المؤرخين-من غير العراقيين- الحديث الآتي : «قيل للعلم : أين تريد؟ قال العراق ، قال العقل : وأنا معك» من أمثال الناس السائرة . لكن من الغرابة أن مؤرخاً عراقياً معاصراً ، مثل بهجة الأثري ، عدَّ أحاديث ذم العراق من الأحاديث الموثوقة ، بينما عدَّ أحاديث المدح من الأحاديث الموضوعة أو المزيفة[١٢] . بينما أورد مثل هذه الأحاديث الخطيب البغدادي الشافعي (ت٤٦٣هـ) في «تاريخ بغداد» ، و أبي الفرج ابن

---

(٩) النجوم الزاهرة ٧ ، ص ٥١ .

(١٠) الهمذاني ، جامع التواريخ ، تاريخ هولاكو ، م٢ ج١ ص٣٢٧ .

(١١) ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، ص ٥ الهامش .

(١٢) المصدر نفسه .

الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧هـ) في و«مناقب بغداد» . لقد لعبت السياسة دورها في الحالتين ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ظهر أثناء الصراع بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان أقاويل وأشعار عديدة ، أشارت مباشرة إلى مدح وذم الشام والعراق ، وبعد سلخها من حقبتها التاريخية وحدثها ظلت تُشير إلى بلدان وشعوب ، فاتخذ منها المؤرخون ذريعة للمدح أو للقدح . لكن الصراع الذي دار آنذاك ، على أرض العراق وأرض الشام ، لم يكن بين العراقيين والشاميين بقدر ما كان بين القبائل العربية القادمة من اليمن والحجاز وعُمان ، ومع ذلك يبقى للحوادث أثرها بالمكان والزمان .

كان لعمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) حضوره في تلك التفسيرات ، ولعلَّ انحيازه للفكر العقلي يجعلنا نأخذ تفسيره لمآسي العراق على محمل الجد . قال معلقاً على فتور العراقيين عن القتال مع الإمام علي بن أبي طالب ، وتصديهم للحجاج وقبله لزياد بن أبيه : «العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام ، أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة . ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث . ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح ، والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء ، وإظهار عيوب الأمراء . وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد ، لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيب الأحوال»[١٣] .

كان الجاحظ عثمانياً ، وبالتالي قد لا يكون محايداً عندما يتكلم عن علي بن أبي طالب ، وخذلان أهل العراق من القبائل العربية الفاتحة! غير أن شارح «نهج البلاغة» ، عِز الدين بن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) ، العلوي والشيعي الهوى والشافعي المذهب ، وهذه واحدة من غرائب تداخل العاطفة المذهبية بالعراق ، فسر مأساة العراقيين على المنوال نفسه ، حين قال : «مما ينقدح لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أن هؤلاء من العراق وساكني الكوفة ، وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة ، والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة في المذاهب ، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومزدك وغيرهم»[١٤] . كان ابن أبي الحديد عراقياً أيضاً من أهل المدائن (طيسفون قديماً) ، ومحباً لعلي ، إلى درجة أن أعتبره عدد من مؤرخي الشيعة إمامياً . وقال خصومه : إنه جمع بين مذهب الخليفة المستعصم بالله الشافعي وبين مذهب وزيره ابن العلقمي الشيعي . ومن حبه للشيعة ذهب إلى مدح المهدي المنتظر ، ولعله كان يترقب ظهوره عند دخول التتار إلى بغداد (٦٥٦هـ) ، لعمق الكارثة التي حلت بالعالم الإسلامي آنذاك ، فقال :

---

(١٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ١ ص ٤٣ .

(١٤) المصدر نفسه ٧ ص ٥١ .

ولقـد علمـت بـأنـه لا بـد مـن
مهديكـــم وليـومـــه أتـــوقـــع

كانت كلمتا الجاحظ وابن أبي الحديد رداً متأخراً على خطب الحجاج بن يوسف الثقفي المدوية ، والتي كثيراً ما كان يلقيها عند ظهور تمرد أو إعلان انتصار ، ويستهل معظمها بعبارة «يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق» . فتح بوابات العذاب بخطبه ولم يغلقها ، فجاء بعده مَنْ يساويه بالقسوة والدموية من الولاة . ويوماً قام الحجاج خطيباً بمناسبة قتل أخيه وولده وشيوع خبر هلاكه : «بلغني أنكم تقولون : يموت الحجاج ، ومات الحجاج! فمَهْ! وما كان ماذا ، والله ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت! ما رضى الله البقاء إلا لأهون المخلوقين عليه إبليس . . . يا أهل العراق ، أتيتكم وأنا ذو لِّمة وافرة وأرفل فيها ، فما زال بيِ شقاقكم وعصيانكم حتى أحصّ شعري» . ويعني صلعَ رأسه من بلد ما أن يهدأ شهراً حتى يضطرب سنوات . ويعبر الشاعر أعشى همدان[١٥] عن أماني الحجاج السُود للعراق بقوله :

وينـــزل ذلاً بالعـراق وأهلـــه
كمـا نقضـوا العهدَ الـوثيق المؤكدا

كانت كلمة ابن أبي الحديد إشارة واضحة إلى التعدد الديني والمذهبي ، الذي كان وما زال ميزة من ميزات العراق الحضارية ، يحاكي فيها تنوعه الجغرافي والأثني . ظل هذا التنوع حاضراً في ذهنية الساسة العراقيين ورجال الدين في العصر الحديث . في حزيران ١٩٢٠ ، أوان ثورة العشرين ، «استقبل وفد يقوده جعفر أبو التمن (أحد وجهاء الشيعة البغداديين) ، ويضم شباباً من السُنَّة والشيعة ، موكباً مسيحياً كان في طريقه إلى أحد الكنائس للاحتفال بعيد الجسد ، فنثروا الورود ورشوا الماء المعطر على الموكب ، وهتفوا : عاش مجد سيدنا المسيح ، عاش إخواننا المسيحيون . . عاشت الوحدة العراقية ، عاشت الوحدة الوطنية»[١٦] . فكان جواب المسيحيين : «عاش إخواننا المسلمون ، عاش العرب» .

واستعداداً لتشكيل الدولة الحديثة والعيش بتجاور مريح حرصت كل الأطراف على المشاركة في الأعياد الدينية ، ووزعت منشورات في أيار «مايو» من السنة نفسها ببغداد والموصل على المسيحيين واليهود «تؤكد على وحدة وأخوة كافة الطوائف العراقية وتدعوها باسم الوطن الواحد والمصير الواحد إلى الاتحاد مع المسلمين لتحقيق استقلال العراق»[١٧] .

---

(١٥) الطبري ، تاريخ الملوك والأمم ٣ ص ٦٤٥ . من قصيدة طويلة في مدح الحجاج وذم أهل العراق ، لكنها لم تشفع لقائلها ، فقد قتله الحجاج بعد إلقائها على مسامعه مباشرة .

(١٦) فرسخ ، الأقليات في التاريخ العربي ، ص ٣٨٣ عن وميض نظمي ، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية في العراق ، ص ٣٦٥ .

(١٧) المصدر نفسه .

أكدت الأيام اللاحقة صدق هذه المشاعر ، فقد تعايش العراقيون دون منازعات طائفية ، مثل التي كانت تنبعث بين فترة وأخرى تبعاً لمزاج الخليفة أو الوالي . أصبح اليهودي ساسون حسقيل وزيراً للمالية . والمسيحي يوسف رزق الله غنيمة وزيراً للمالية والتموين . والمسيحي رفائيل بطي وزيراً للإعلام . وتبؤ وجهاء الشيعة مناصب خطيرة في الدولة : محمد الصدر أصبح رئيساً للوزراء ، وعبد المهدي المنتفكي و الشيخ محمد رضا الشبيبي وزيري معارف ، ولم يبق من الحساسية الطائفية الخفية بين الشيعة والسُنَّة غير مواقف فردية تأخذ في أغلب الأحيان سلوكاً سياسياً مؤذياً إلى حد ما ، بعيداً عن معارك المحلات وأحداث أيام عاشوراء ، التي كانت تتكرر دورياً في العهود السابقة .

وجدنا من الفائدة الحاق الكتاب بتقرير مديرية الأمن العامة ، الذي صدر بنسخ محدودة التوزيع ، كان الفضل في الحصول على نسخة منه للناشطة العراقية مارغريت جورج . إحتوى التقرير ، الذي أعتمد إحصاء ١٩٧٧ وهو آخر إحصاء عراقي شامل ، على إحصاءات لمختلف الأديان وفي جميع المحافظات ، موزعة على القوميات العراقية ، مع الإشارة إلى تطور النمو بين أهل الأديان العراقية من الإحصاء الأساس (١٩٤٧) عبر إحصاءات : (١٩٥٧) ، (١٩٦٥) و(١٩٧٧) . ولا يتضمن التقرير إشارة إلى المذاهب ، الإسلامية منها والمسيحية . وربما كان العذر الظاهر هو عدم تشجيع الطائفية . لكن وجود المذاهب بين المسلمين والمسيحيين واقع لا يمكن نفيه ، والإحصاءات العلمية ، بما يفيد البحث وتسجيل التاريخ ، لا تعني الطائفية بمكان . وكم تبدو هذه الحجة ضعيفة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن مثل هذه الإحصاءات غائبة منذ الإحصاء الرسمي الأساس (١٩٤٧) ، والطائفية تمارس بشكل ملحوظ ، وكل مذهب ظل محتفظاً بما لديه من أتباع وعقائد . إلا أن هناك مَنْ يشير إلى حذر رسمي ، في مختلف عهود الدولة العراقية ، من قيد الإحصاء المذهبي ، لأن النتيجة قد لا تسر الحاكمين ، كذلك اعتمدنا في احصاءات المسيحيين الإحصاء الكنسي .

واللافت للنظر في هذا التقرير أنه اعتبر معظم الأيزيديين عرباً ، وكذلك الصابئة المندائيين ، وربما كان هذا خلاف الواقع ، فلغة الأيزيديين الكردية القديمة ، ولغة الصابئة المندائيين الدينية هي الآرامية . كذلك أشار إلى ظاهرة التداخل الديني والقومي ، كوجود مسلمين من السريان والأرمن ، وصابئة من السريان ، ويهود ومسيحيين من الأكراد ، ومسيحيين من الأكراد الفيلية ، وأيزيديين من السريان ، ومسيحيين تركمان . ومن العجائب أن هناك صابئة وأيزيدية تركمان . إن التداخل والتعايش عبر الدهور جعل مسلمين يقيمون مجلس تأبين لمسيحي في المسجد . وصابئة يزورون ضريح الإمام علي ، وينذرون له النذور . ومرضعة مسلمة أرضعت طفلاً صابئياً ، وظلت ترعاه بعاطفة الأمومة حتى وفاتها وهو على

ديانة أبويه . ومسيحية تندب مريم العذراء والسيد المسيح والنبي محمد وعلي بن أبي طالب معاً في لحظة سقوط صاروخ خلال الحرب العراقية الإيرانية .

ولاذت عائلات مسيحية بصحن الإمام الكاظم أيام الحرب العصيبة لعلمها أنها منطقة محرمة على الصواريخ والطائرات الإيرانية . وصابئي ينافس المسلمين ويشارك بأكثر مما يشارك به أغنياؤهم في ما يُجمع لقارئ المنبر الحسيني في العاشر من عاشوراء . ومسلمون لا يفطرون في أيام رمضان إلا بعد أن يزودوا جارهم الصابئي من مائدتهم ، وأول الداخلين عليهم في يوم العيد هو وعياله . ووجيه نجفي هو السيد علي بحر العلوم يقيم صداقة معمرة مع الشيخ عنيسي فياض الصابئي . ويرد على منتقديه من المتزمتين بما كان بين الشريف الرضي وإبراهيم الصابئي . بهذا السلوك الإنساني المتمدن جعل العراقيون الأديان سبيلاً لوحدة البشر وسط تنوعهم .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى قوانين أصدرتها الحكومات العراقية لحفظ الأديان الأخرى من جور قد يمارسه المتزمتون والجهلاء ضدهم مقيداً من حريتهم الدينية . فما قاله عبد الحميد عبادة حول ما سماه بأذان الصابئة «لا يؤذنون في محل عال مرتفع مثلنا (يقصد المسلمين) ، وإنما يؤذنون بينهم بصوت خفي»[18] ليس من الدين ، وإنما خشية من المحيط . فهم من دون أن يؤذنوا بصوت عال يلاقون الأذى ، فكيف إذا رفعوا صوتهم وبكلمات غريبة؟ من تلك القوانين : يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على ثلاث سنوات كل :

١ - مَنْ اعتدى بإحدى طرق العلانية على معتقد لإحدى الطوائف الدينية أو حقر شعائرها .

٢ - مَنْ تعمد التشويش على إقامة شعائر طائفة دينية ، أو على حفل أو اجتماع ديني ، أو تعمد منع أو تعطيل اقامة شيء من ذلك .

٣ - مَنْ خرب أو أتلف أو شوه أو دنس بناءً معداً لاقامة شعائر طائفة دينية ، أو رمزاً أو شيئاً آخر له حرمة دينية .

٤ - مَنْ طبع أو نشر كتاباً مقدساً عند طائفة دينية ، إذا حرف نصه عمداً تحريفاً يغير من معناه ، أو إذا استخف بحكم من أحكامه ، أو شيء من تعاليمه .

٥ - مَنْ أهان علناً رمزاً أو شخصاً هو موضع تقديس ، أو تمجيد أو إحترام لدى طائفة دينية . ومَنْ قلد علناً نسكاً أو حفلاً دينياً بقصد السخرية[19] .

---

(١٨) عبادة ، كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمين ، ص ٤٦ .

(١٩) عادل دشر ، الصابئة اليوم ، آفاق مندائية ، بغداد ، مايو ٢٠٠٠ عن الجريدة الرسمية .

وفي حال تطبيق هذه القوانين يتساوى العراقيون على مختلف أديانهم ومذاهبهم ، وتحفظ مشاعر أتباع شيخ الأيزيدية آدي الراقد في وادي لالش ، وشيخ المندائيين دخيل بن الشيخ عيدان الراقد في باحة داره بمحلة المهدي الكائنة بالدورة من جنوب بغداد . وأن ينظر إليهـما مثلمـا ينظر إلى عتبات المسلمين المقدسة ، ومراقد جثالقة المسيحيين ، ورؤساء جالوت اليهود .

الفصل الأول

الصابئة المندائية

تقطن على ضفاف دجلة والفرات ، وسط وجنوب العراق ، وضفاف الكارون غرب إيران جماعة عرقية ودينية ، تعايشت مع سكان المنطقة بسلام ، ولعبت دوراً مهماً في عملية الإنتاج : صناعة القوارب ، وآلات الحصاد ، والحدادة ، وصياغة المينا (النقش على الفضة) . كانت تلك المهارات حكراً على الصابئة المندائيين لفترة قد تمتد إلى ما قبل العصر العباسي ، ومن أهمية هذا الموقع تعامل معهم الآخرون بود يشوبه الحذر .

اتخذ المندائيون ، على مدى زمن طويل ، من الصمت ومن لغتهم المندائية الغامضة على المحيطين بهم من الأديان الأخرى ، سبيلاً إلى البقاء . كان الغموض نافعاً في الحفاظ على كيانهم الديني ، يهمسون به للرد على سخرية جاهل يحاول النيل من عقيدتهم ، أو معتد قصد ديارهم لفرض ما لا يريدون وما لا يطيقون . شبهات عقائدية كثيرة دارت حولهم ، أقلها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم ، أو يزهقون أرواح المحتضرين منهم ، أو يعبدون كائناً لا وجود له إلا بأذهان الجاهلين بتفاصيل ديانتهم يدعى (اشميدهية) . هذا ما يشاع عنهم في جنوب العراق . والحقيقة أن من شعائرهم تغسيل المحتضر وإكساءه الكسوة الدينية البيضاء المعروفة بالرسته ، اعتقاداً منهم أن ذلك يمكن روحه من الصعود إلى مكانها في «مشوني كشطا» السماوي (أسفل طبقات عالم النور) ، وهي مطهرة مما علق بها من نجاسات العالم الأرضي . وقال بعض الفقهاء بنجاستهم لأنهم مشركون ، وفقاً للآية «إنما المشركون نجسٌ»[1] . على الرغم من أن النظافة والطهر كانا شاغلهم الشاغل . وأباح البعض الآخر قتلهم ، بدعوى عدم اقرارهم بالتوحيد ، مع توحيدهم ووداعتهم . فلرقة منهم يعتذرون ويستغفرون بعد ذباحة الطير والحيوان .

---

(١) سورة التوبة ٢٨ . ولا يخص هذا النص سوى مشركي العرب بمكة .

ترك المندائيون في المكان مفردات ما زالت شاعة ومتداولة جنوب العراق . منها «طبً» وهي «طْبَا» المندائية وتعني دخلَ ، وتستخدم بالمعنى نفسه مفردة دوشا أي دش أو دشيت . و«شيلة» وهي «شيالة» المندائية ، غطاء رأس المرأة العراقية الجنوبية ، وأصلها قطعة من اللباس الديني «الرستا» ، تختص بها النسوة . أما الرجل فيعرف غطاء رأسه «برزنقا» أي العمامة . وتطلق مفردة «زوطة» أي الصغير ، أو الطفل ، في اللهجة الجنوبية ، على نوع من الطيور المعروفة بـ «زيطة» وهي الأصغر حجماً . وشاعت كلمة «ويل» المندائية على لسان العراقيين وغيرهم ، وتعني النار أو الجحيم أو العذاب بشكل عام . ومَنْ يحقق في الغناء الجنوبي العراقي يجد حضور اًكبيراً لهذه المفردة ، فأي مغن لا يستهل أغنيته بعبارة «ويلاه ويلاه»! وما ميسان إلا مفردة مندائية أصلها «مي سيانه» أي الماء الطيني . وقيل : مي تعني الماء وشيان تعني : القصي أو البهي ، ومفردة «موسى» هي «مي سا» وتعني الغارق[٢] . ومثلما سعى أهل الأديان الأخرى إلى اعتبار شعوبهم شعب الله المختار ، وخير أمة أخرجت للناس ، قال المندائيون : نحن «بهيرا زدقا»[٣] وهم المختارون الصادقون .

إن صحت العبارة أن المندائيين أثر من آثار التاريخ الحيّة ، يذكر وجودهم بأنبياء ورسل نسخت الأديان المتعاقبة شرائعهم ، ولم يبق منهم غير صحف نوح وإبراهيم . فقول المندائيين : إنهم أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض ، وإن كتبهم هي صحف سادة البشر الأولين : آدم وشيت وإدريس ونوح ، يرفعهم إلى مصاف بدايات الأديان والشرائع الموحدة في التاريخ ، والكل نحل من منحلهم . لذا من الصعب أن يُعرف للصابئة المندائية مؤسس ، وهذه الخاصية ميزتهم عن اليهودية ، والمجوسية ، والمسيحية ، والمانوية ، وحتى الإسلام وغيرها من الديانات العالمية . وتشير روحانيتهم الصافية إلى فلسفة خاصة قد تنفي سفارة البشر بين السماء والأرض . لخص المؤرخ والفقيه الشافعي محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) تعلقهم بالروحانيات بالقول : «إنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين»[٤] .

ويبدو أن غرض الشهرستاني من نقل ، أو إبداع ، الحوار بين الصابئة والحنفاء[٥] هو ميل الصابئة إلى الرسل من الكائنات النورانية ، مثل هيبل زيوا(جبرائيل) . فالبشر لخطاياهم ، وما يتعلق بأبدانهم من فساد ، لا يصلحون للسفارة بين الله وخلقه . قال الشهرستاني في مذهب الصابئة : «إن للعالم صانعاً ، فاطراً ، حكيماً ، مقدساً عن سمات الحدثان ، والواجب علينا

---

(٢) رومي ، الصابئة ، ص ٤٦ و١١٢ ، وسباهي ، الصابئة ، ص ١٧٦ .
(٣) المراني ، مفاهيم صابئية ، ص ٩٩ .
(٤) الشهرستاني ، الملل والنحل ٢ ص ٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٩-٤٤ .

معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً ، وفعلاً ، وحالة»[٦] .

بيد أن ما أتى عليه الشهرستاني ، من عدم اعتراف الصابئة بأنبياء بشر ، قد يفنده ما ورد في كتبهم من الصحف التي نزلت على آدم ، والكتاب الذي نزل على أحد النوصرائيين إدريس (دنانوخت) ، وما يؤكده في الوقت نفسه أنهم لم يسموا أحداً من البشر بالنبي أو الرسول ، والكل عندهم كانوا نوصرائيين ، من آدم إلى يحيى بن زكريا . فالكتابات الصابئية المندائية أشارت «إلى الاعتقاد بأن المعرفة أو العلم الرباني - منداد هيي - إنما يؤتيه الله عباده المختارين الصادقين (بهيرا زدقا) ، إما وحيا وإما إلهاماً ، وذلك هو صوت الحي الأقدم (شوت هيا قدمايي) ، أو فيضاً سماوياً وكشفاً وهو التجلي (جلا) ، أو بواسطة رسل أثيرين نورانيين»[٧] .

وما يفيد في تأكيد تعصب المندائيين للروحانية أنهم ومنذ القدم لايهتمون بالمقابر والأضرحة ، التي تخلد عادة صفوة القوم . فحسب رجل دين صابئي أهوازي ، التقيته على هامش ممارسة التعميد أو الصباغة ومؤتمر حول المندائية ، أن الاحتفاظ بالقبر لايستمر أكثر من خمسة وأربعين يوماً ، فما يتخلف في التراب لا يعني شيئاً بعد صعود الروح خلال ثلاثة أيام . وعدم اكتراثهم بلقبور ليس خشية من الشرك ، مثلما يذهب إلى ذلك المسلمون الوهابيون ، بقدر ما فرضته عليهم فلسفتهم في الروحانيات ، وساهمت فيه البيئة المائية التي

---

(٦) المصدر نفسه ، ص٦ .

(٧) المراني ، مفاهيم صابئية مندائية ، ص ٩٩ . تجدر الإشارة إلى ما قاله عم النبي محمد أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب ، حين بلغه من أن ابن أخيه سيكون نبياً أو رسولاً : «الله أجل مما تقول» (الصافي ، كتاب السيرة المحمدية ، ص ١٨٣ ، عن السيرة الحلبية ١ ص ١١٨-١١٧) . تنبه هذه العبارة التي وضعها أمامي كتاب معروف الرصافي إلى أن هناك مَنْ لايعتقد بصلاحية الإسان لحمل رسالة سماوية من غير الصابئة المندائيين . وأنما ذلك من أختصاص الملائكة ، أو الكائنات النورية على حد التسمية المندائية للملائكة ، .قال الرصافي : «أذ لاريب أن الله أعظم وأجل من أن يعمد إلى إنسان فيرسله إلى الناس ليخبرهم عنه بما يريد ، فأن هذا لايليق بذاته الفعالة المطلقة ، ولا بوجوده الكلي السرمدي النهائي»(المصدر نفسه) . فلا أبو طالب ولا الرصافي كانا صابئيين ، ظل الأول متأرجحاً في الرواية الإسلامية بين أحتفاظه بديانة قومه وبين الإسلام ، والثاني وأن كان مسلماً سنياً إلا أن أعتقاده الديني ظل منزلة بين منزلتين . فحسب كتابه كان يؤمن بالله وله رأي في الأنبياء . وتذكر الرواية أن أبا سفيان صخر بن حرب تردد في القول بالشهادة الثانية يوم الفتح «فجعل يمتنع من أن يقول : وأنك رسول الله» (تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٥٩) . وفي رواية قال أبو سفيان للرسول بعد أن تشهّد الشهادة الأولى ، التي ليس له اعتراض عليها ، وهو يدعوه للتشهد بالثانية : «بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أما هذه ففي النفس منها شيء!» (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢ ص ١٥٧) .

لا يجد الأحياء فيها محط قدم فكيف بالأموات! أما الآن فللمندائيين مقابرهم بالعراق والأهواز والدول التي هاجروا إليها مؤخراً . لكن بناء القبر ليس من تعاليم الدين . أختص الصابئة المندائيون ، دون غيرهم من الديانات ، بالقول بأكثر من آدم ، وأكثر من كوكب مأهول بالبشر . فهو آدمنا الذي خُلق من طين أرضنا ، ونزلت روحه من عالم النور بأمر الحي الأزلي ، وآدم الخفي (كسيه) ، وبهذا أجابوا بسهولة على تساؤل أبي العلاء المعري :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله
وتزويج بنتيه في الخنا
علمنا بأن الناس من نسل فاجر
وأن جميع الخلق من عنصر الزنا[٨]

فحسب العقيدة المندائية «لم يتزوج الأبناء أخواتهم ، إنما أرسلت البنات إلى عالم آخر فيه أناس مثلنا ، يسمونه مشوني كشطه ، أي أرض العهد ، وجيء بفتيات من مشوني كشطه إلى أولاد آدم فتزوجوهن . وعلى هذا الأساس فالمرأة في نظر الدين من عالم غير عالمنا ، فقد أتت من عالم الطهارة»[٩] . وحجة المندائية أيضاً في طهارة المرأة «أن آدم خلق من طين وحواء خلقت من جسمه . وعلى هذا الأساس فتسمية الابن باسم أمه أعلى من تسميته باسم أبيه (آدم من طين اهوه ، هوه زوى من كان ادنافشي اهوت) أي أن آدم من طين وزوجته حواء من نفسه ، وبذلك فهي أطهر من الطين»[١٠] .

اعتقد المندائيون ، ربما لاهتماماتهم الفلكية ، بوجود بشر خارج كوكب الأرض ، فالكواكب السماوية عندهم ، ما دون عالم النور ، اتخذت سكناً للبشر (الشبه روحيين) والكائنات النورية . وترشد كتبهم الدينية ترشد إلى عوالم «يسكنها بشر مثلنا ، وتركز بالدرجة الأولى على عالم العهد مشوني كشطه . وتذكر أيضاً أن البشر في هذا العالم لا يختلفون عنا كثيراً . وعلى هذا الأساس فقد أمر هيي ربي قدمايي ، الحي الأزلي ، بنقل بنات آدم من هذا العالم (اره اد تبيل) ، الأرض ، وجلب زوجات من عالم مشوني كشطا لأولاده»[١١] . ويصف غضبان رومي ، وهو واحد من المثقفين المندائيين العراقيين البارزين ، مستقبل العلاقة بين إنسان الأرض وإنسان الكواكب الأخرى حسب تصورات ديانته بالقول : «من ذريتهن تكوّن الإنسان الحالي ، الذي أخذ يزحف من عالمنا هذا نحو الكواكب الأخرى .

---

(٨) العلوي ، المنتخب من اللزوميات لأبي العلاء المعري ، ص ٢٤٦ .
(٩) رومي ، الصابئة ، ص ١٦٧ ، آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢١٥ .
(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .
(١١) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

وليس ببعيد أن يصل في آخر المطاف إلى عالم مشوني كشطه ، وينزل ضيفاً على أخواله هناك ، مُستقبلاً من أبناء عماته»[١٢] .

كان آدم أباً للبشر وحواء أمهم . لكن البشرية ، حسب الكتب المندائية ، فنيت عدة مرات بكوارث سببها عالم الظلام المنحوس . وانتقل ما فيه من شر إلى الآدميين عبر مادة الطين ، وهي من عالم الظلام حيث الماء الآسن ، والتي منها كان جسد آدم . وفي كل فناء يبقى رجل وامرأة يتجدد الجنس البشري منهما . «فبعد شيت قضي على هذا العالم بالحرب ، ولم يبق منه إلا رجل وامرأته ، هما رام ورود . وبعد عشرات الالوف من السنين فني العالم بالنار ، ولم يبق منه إلا شوربي وزوجته شور هيبل . وبعد عشرات الوف أخرى جاء الطوفان ، ولم ينج منه إلا نوح وابنه سام ، وزوجته انهريتا»[١٣] . وحسب أغلب الأديان ، ومنها المندائية ، إن هذه الكوارث ضرورية لغسل الأرض من خطايا البشر . قال أبو العلاء المعري وكأنه قرأ الكنزاربا :

والأرض للطوفان مشتاقة ... لعلها من درن تُغتسل

قد كثر الشرُ على ظهرها ... وأتُهمَ المُرسِلُ والمُرتسَل

إن اعتقاد المندائيين بوجود بشر يعيشون على الكواكب العليا يقود إلى علاقة ما بنظرية أفلاطون «المثل» أو «النماذج» . وبالتالي له صلة ما بالفكر اليوناني بشكل عام . ولا ندري ، هل كان هذا التوافق توارد خواطر أم تأثيرات فلسفية مباشرة ، قد يكون للحرانيين في نقلها دور ما . ولا يستبعد أن يكون الأمر امتداداً سومرياً وبابلياً ، حيث القول بوجود مجتمع الآلهة ، ومكانه العالم العلوي ، وخلق البشر على هيئته ونظامه .

قالت الخبيرة في الشؤون المندائية الليدي دراوور[١٤] : «أخبرني أحد الكهان : يوجد اثنان من كل شيء في الدنيا ، الواقع ومقابله المثالي . وأوضح لي : أن لكل شخص على هذه الأرض شبيهاً (دموثه) في مشوني كشطه . ولدى الوفاة يفارق إنسان الأرض جسمه الترابي ، ويلتحق بالجسم الأثيري لشبيهه . وفي هذا الجسم الأخير تعاني الروح آلام التطهير . أما الشبيه في مشوني كشطه ، فهو لدى وفاة صنوه الأرضي يغادر جسده الأثيري ، الذي

---

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

(١٤) من الدراسات المهمة التي تناولت طقوس هذه الديانة عن قرب دراسات المستشرقة دراوور (١٨٧٩ - ١٩٧٢) في كتابها (The Mendeans of Iraq and Iran) والذي ترجمه إلى العربية المندائيان غضبان رومي ونعيم بدوي ، كذلك صدر لها قاموس «مندائي - إنكليزي» . وفي العام ١٩٥٣ أصدرت في الفاتيكان وثيقة عن الصابئة بعنوان «حوران الداخلية» ، ثم ببيلوغرافيا الكتب المندائية إضافة إلى دراسات أخرى مشفوعة بمصورات مندائية .

استقر به ، ويدخل في جسم نوراني . وحين تكون النفس البشرية قد أتمت دورتها التطهيرية ، وأذنت لها موازين أباثر بالانعتاق من أعبائها ، تدخل أيضاً في عالم الأنوار ، ويتحد الاثنان»[١٥] . جاء في النصوص المندائية على لسان المحتضر : «أذهب إلى شبيهي ، وشبيهي يأتي إليّ ، يتذكرني ويحتضنني ، كما لو أنني خارج من السجن»[١٦] .

تقطن هذه المُثل ، حسب الشيخ هرمز برانهر ، الكواكب ، ومنها «نجم يقطنه البشر ، أحفاد آدم الخفي (آدم كسيه) ، إلا أنهم شبه روحيين في طبيعتهم ، وأصغر منا حجماً . ويسمى هذا النجم المريخ ، وهو نجمة الصبح»[١٧] . ويبدو خيال الكهنة المندائيين خصباً ، وسبقت تصوراتهم حول الكائنات الغريبة ما اسماه العلماء حديثاً بـ(Aliens) ، وهم سكان الكواكب المحتملين . ومَنْ يتفحص الرسومات المندائية ، أو المنمنمات في كتبهم الدينية ، ومنها «ديوان أباثر» يجد الشبه واضحاً بين المخلوقات المندائية وبين تلك الكائنات حسب تصور العلماء . نقول هذا لمجرد التذكير بخصوبة الخيال المندائي ، والاهتمام الفلكي ، الذي وصل إلى حد توهم الآخرين أنهم عبدة الكواكب والنجوم .

سفن الفضاء

لدى المندائيين كتب ورسومات أشارت إلى ناقلات الأرواح ، أو ما عرف بسفن الكواكب[١٨] . ظهرت على صفحاتها رسوم وتخطيطات لأشكال من هذه السفن على هيئات الشمس والقمر والزهرة . قالت دراوور : الشمس (شامش) «كسائر الأرواح الفلكية في دورته عبر الفلك ، واعتباره قوة للخير لا للشر ، واضح على الأغلب في كتب الصابئيين . وأكثر من ذلك ، فلدى الصابئيين سنة شمسية وأعداد شمسية مقدسة ، ويدخل قرص الشمس في رسم الحروف الأبجدية ، ويظهر شامش (راكب السفينة الرئيس) مطابقاً لياور زيوا (ملاك) ، والصلوات له ذات صفة شمسية ، والتقاليد تعين له بحارة سبعة أُثري (ملائكة) نواريين ، ولو أن الصورة في «ديوان أباثر» لا تحتوي إلا على أربعة شخوص يقفون بجانب شامش في زورق الشمس»[١٩] .

والشمس عند المندائيين ليست مضيئة ، بل تستمد الضوء من أرواح أوكائنات نورانية

---

(١٥) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١١٠ .
(١٦) المصدر نفسه .
(١٧) المصدر نفسه .
(١٨) ماهود أحمد محمد ، منمنمات الصابئة المندائيين في العراق ، مجلة التراث الشعبي ، ١٩٩٤/١ .
(١٩) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١٣٦ .

كونية «تماماً كما تعكس المرآة الصورة تعكس الشمس ملكه زيوا وشامش (الشمس) سيد جميع ملائكة الدنيا المادية»[٢٠] . وهذا خلاف ما توصل إليه علم الفلك من أن الشمس مصدر النور . وتبدو سفينة القمر ، حسب الرسومات ، أصغر من سفينة الشمس ، ويصاحبها ثلاثة بحارة ، أحدهم يمسك الصارية والثاني يمسك المقود والثالث يقوم بدور الحراسة من كائنات الظلام[٢١] . أما سفينة الزهرة فتبدو أصغر من سفينة القمر ، وتظهر ليبات أو الزهرة جالسة في السفينة ، يصاحبها حارس مسلح ، مع بحار نوراني يدير مقود السفينة[٢٢] . ظهرت هياكل السفن الكونية في رسومات بدائية ، اطلعت عليها الليدي دراوور ونسختها في عدة كتب ، منها «ديوان أباثر» . لم تشر دراوور إلى ناقلات الأرواح ، حيث سفرها بعد الموت إلى المطراثي (مكان تطهير الأرواح من الذنوب) ، لتحديد مصيرها ، ومرورها على الملاك أباثر النوراني المسؤول عن وزن الروح وتحديد منزلتها إن كانت في جنة أو نار ، فهو بمثابة السراط المستقيم . وهي «لا تشبه سفن الأفلاك ، فهيكلها أكثر انسيابية في التكوين ، فهي مثل الهلال في وضع أفقي»[٢٣] .

والظاهر أن رسامي سفن الكواكب ، أو ناقلات الأرواح ، استوحوا شكلها من القارب المستخدم في الأهوار جنوب العراق (المشحوف) ، الذي أشتهر الصابئة بصناعته منذ القدم . واستوحى الرسام أدوات ملاحة السفن من أشكال أدوات الملاحة بالقارب المذكور . مثل الجذاف و(المردي) . يشير هذا التناغم إلى صلة المندائيين القديمة بالمنطقة ، فلو كانوا بحران أو فلسطين ، لاتخذت وسائلهم إلى الكواكب والمطراثي أشكالاً أخرى . عموماً تبقى هذه الرسوم عن خيال خصب له صلة ما بأفكار الأقدمين لغزو الفضاء الخارجي ، رغم أنها عند المندائيين مجرد طلاسم وتعاويذ ، تستخدم لحفظ الأطفال وطرد الشرور القادمة من عالم الظلمة .

العروج

وللمندائيين معراجهم أيضاً ، غير ما سبق من سفن الكواكب وناقلات الأرواح ، هو معراج دنانوخت أو إدريس إلى السماء السابعة ، حيث مكان الحي العظيم . وإدريس النبي هو أحد عظماء المندائيين من النوصرائيين العارفين في الدين ، وكان يحفظ عن ظهر قلب الكتب المقدسة ، ويحتفظ بها في مكان مقفل ، كما أُنزلت من الحي الأزلي على أدم أبي البشر .

---

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(٢١) مجلة التراث الشعبي ١/ ١٩٩٤ .

(٢٢) المصدر نفسه .

(٢٣) المصدر نفسه .

وفي يوم من الأيام وجد كتاباً جديداً موضوعاً على الكتب الأخرى ، فمزقه لعدم معرفته بحقيقته . لكنه أينما ذهب يجده أمامه ، وفي كل مرة يمزقه ويحرقه ، فيظهر له كاملاً في مكان آخر ، فاجتمع النوصرائيون الأربعة والعشرون ، وتوصلوا إلى أن هذا الكتاب منزل من الله ، ولا بد أن يقرأ مثل الكتب الأخرى . غير أن الكتاب الجديد قاد إلى عبادة القمر . وظهر كتاب آخر دل على دين آخر . وهكذا أخذت الكتب تظهر لدنانوخت واحداً بعد الآخر حتى ظهر له الكتاب السابع .

أدت هذه الكتب السبعة إلى تفرق النوصرائيين إلى مذاهب باطلة ، ليس بينها مذهب الحق . وبعدها نزل كتاب ثامن كان يشع نوراً من البداية ، ويحتوي على المعرفة الكاملة بالله . وعند قراءته انتصب أمام دنانوخت ملاك نوراني هو هيبل زيوا ، دعاه إلى العروج معه إلى السماء ، وتم العروج أثناء النوم . ومن كوكب إلى آخر ، كان أخرها كوكب الشمس ، وهو مكان النور ، ثم عرج إلى الجنة ، مكان يسكنه النورانيون الأربعة الكبار وهم : أرهام هيي ، ابن هيي ، سروم هيي وزيوا هيي ، (تعني كلمة هيي المندائية المصاحبة للأسماء المذكورة الحي) .

حاول دنانوخت التوقف عن العروج . لكن هيبل زيوا أمره في مواصلة الرحلة حتى محل (ملكا اد نهورا) . ومن عالم نوري إلى آخر حتى وصلا إلى محل مملوء بالأثري ، حيث سماء السموات ، بحر الضياء ومياه النور . كانت غاية العروج أن يعود دنانوخت إلى الأرض فيقص ما شاهد من عجائب العوالم السماوية . غير أنه حاول المكوث في عالم الضياء ، فقال له الملاك : «ألم أقل لك بأنك يجب أن تعود لتقص إلى الناس ما رأيت ، ولهذا سيتعلمون وسيؤمنون ولا ينكرون»[٢٤] .

ورد وصف دنانوخت في «الكنزاربا» بـ «الكاتب الحكيم ، حبر الألهة ، الفخور المتكبر»[٢٥] ، أو «فقيه الدين الحكيم ودواة كتاب الألهة والفخور والمترفع»[٢٦] ، ولم يصفه الكتاب بالنبي أو الرسول . وردت قصة عروج الحكيم المذكور كاملة في «الكنزاربا» ، مع اختلاف في ترجمة النص ، إلى حد ما ، عما ترجمه المندائيان غضبان رومي ونعيم بدوي ، مع احتفاظ القصة بجوهرها في الترجمتين . ورد في «الكنزاربا» على لسان دنانوخت : «رأيت الحي الذي كان منذ الأزل . ورأيت الكشطا التي منذ البداية . رأيت الموت ورأيت الحياة ورأيت النور . رأيت الخطأ ورأيت الصواب . رأيت البناء ورأيت الخراب . رأيت المرض ورأيت

---

(٢٤) كيف زار دنانوخت السماء السابعة ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي عن الكنزاربا ، مجلة التراث الشعبي ١٩٧٣/٥ .

(٢٥) الكنزاربا اليمين ، ص ١٥٩ .

(٢٦) كما ورد في « الكنزاربا» نسخة مارك ليدزبارسكي ، طبعة استراليا .

الشفاء . رأيت هذا الرجل الفاضل الشيخ الواقف منذ القدم بين الأرض والسماء»[٢٧] .

ولا ندري بالضبط مَنْ هو الرجل الفاضل الواقف منذ القدم بين السماء والأرض؟ لكن بعد قراءة النصوص الخاصة في العلاقة بين مندادهيي والمشارك الفعال في عملية خلق السماء والأرض ، نتوقع أن يكون ذلك الفاضل هو الملاك مندادهيي؟ وحسب «الكنزاربا» (طبعة استراليا ، وترجمة ليدزبارسكي) تنقص النص العبارة الآتية ، مما ورد في ترجمة بغداد ، «لقد رأيت الرجل ذا المقام السامي الذي هو أقدم سناً ، وكان في وجوده أسبق من ذلكم الذي شيد السماء والأرض»[٢٨] . إن الذي شيد ، أو شارك بفاعلية في تشييد السماء والأرض ، كما قلنا ، هو الملاك بثاهيل ، أشار إلى ذلك النص المقدس الآتي : «سجد بثاهيل وسبح للخالق الجبار ، ثم أمسك بسرة الأرض محاولاً ربطها بقلب السماء»[٢٩] . و«قال ملك النور السامي قوله ، فكان كل شيء . نزل بثاهيل فرفع السماء فبسط الأرض»[٣٠] .

قال دنانوخت ، بعد رؤية عجائب وغرائب العالم النوراني لدين مليخ الأثري (لا أثر لاسم الملاك هيبل زيوا في الترجمة العربية لكنزاربا كما ورد ذلك في ترجمة رومي وبدوي) : «أظل على عتبة بيت الحي ، ألهم التراب . وأكل الأحجار . ولا أعود إلى عالم الأشرار»[٣١] .
عاد إدريس من رحلته إلى السماء بتجربة ورؤية جديدة ، لما يخفيه العالم السماوي من كائنات وعلاقات ومصير للبشر . وعاد زرادشت من رحلة إلى السماء . وعاد النبي محمد من رحلة إلى السماء أيضاً . ناهيك من تفاصيل صعود عيسى بن مريم ، وقبله نزول تموز أو دموزي السومري من العالم العلوي إلى القعر المظلم في العالم السفلي ، والذي هو عالم الظلام عند المندائيين . إلا أن الجميع لم يخرجوا من فكرة المنقذ المستلهم تعاليم السماء . وما يختلف فيه المعراج المندائي أنه معراج مستمر ، لم ينقطع عند إدريس ، وسيعرج كل البشر الطاهرين أو بعد تطهيرهم . كل روح (نشماثا) تعرج بقارب سماوي . ومن قبل عرج آدم ، وبعده كان معراج يحيى بن زكريا ، الأب والمعلم المختار والشيخ العظيم الوقار ، وهذه ألقاب يحيى في

---

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٦-١٦٧ . ورد النص بترجمة مارك ليدزبارسكي : «لقد رأيت أنا الحياة تلك التي كانت قد نشأت منذ الأزل ، لقد رأيت الكوشطا ، تلك التي كانت منذ القدم في البداية . ثم استطرد هو قائلاً : رأيت الموت ورأيت الحياة ، رأيت الظلام ورأيت النور ، رأيت الخطأ ورأيت الحقيقة ، رأيت الدمار ورأيت النشوء والبناء ، رأيت البلاء ورأيت الشفاء ، لقد رأيت الرجل ذا المقام السامي الذي هو أقدم سناً ، وكان وجوده أسبق من ذلكم الذي شيد السماء والأرض» .(الكنزاربا اليمين ، طبعة استراليا ، السادس ، ص ٢٠٧) .

(٢٨) الكنزا ربا ، الكتاب اليمين ، الفصل السادس ، ص ٢٠٧ .

(٢٩) الكنزاربا اليمين (طبعة بغداد) ، الخليقة ، ص ٦٨ .

(٣٠) المصدر نفسه ، الوصايا ص ٩ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

وفي يوم من الأيام وجد كتاباً جديداً موضوعاً على الكتب الأخرى ، فمزقه لعدم معرفته بحقيقته . لكنه أينما ذهب يجده أمامه ، وفي كل مرة يمزقه ويحرقه ، فيظهر له كاملاً في مكان آخر ، فاجتمع النوصرائيون الأربعة والعشرون ، وتوصلوا إلى أن هذا الكتاب منزل من الله ، ولا بد أن يقرأ مثل الكتب الأخرى . غير أن الكتاب الجديد قاد إلى عبادة القمر . وظهر كتاب آخر دل على دين آخر . وهكذا أخذت الكتب تظهر لدنانوخت واحداً بعد الآخر حتى ظهر له الكتاب السابع .

أدت هذه الكتب السبعة إلى تفرق النوصرائيين إلى مذاهب باطلة ، ليس بينها مذهب الحق . وبعدها نزل كتاب ثامن كان يشع نوراً من البداية ، ويحتوي على المعرفة الكاملة بالله . وعند قراءته انتصب أمام دنانوخت ملاك نوراني هو هيبل زيوا ، دعاه إلى العروج معه إلى السماء ، وتم العروج أثناء النوم . ومن كوكب إلى آخر ، كان آخرها كوكب الشمس ، وهو مكان النور ، ثم عرج إلى الجنة ، مكان يسكنه النورانيون الأربعة الكبار وهم : أرهام هيي ، اين هيي ، سروم هيي وزيوا هيي ، (تعني كلمة هيي المندائية المصاحبة للأسماء المذكورة الحي) .

حاول دنانوخت التوقف عن العروج . لكن هيبل زيوا أمره في مواصلة الرحلة حتى محل (ملكا اد نهورا) . ومن عالم نوري إلى آخر حتى وصلا إلى محل مملوء بالأثري ، حيث سماء السموات ، بحر الضياء ومياه النور . كانت غاية العروج أن يعود دنانوخت إلى الأرض فيقص ما شاهد من عجائب العوالم السماوية . غير أنه حاول المكوث في عالم الضياء ، فقال له الملاك : «ألم أقل لك بأنك يجب أن تعود لتقص إلى الناس ما رأيت ، ولهذا سيتعلمون وسيؤمنون ولا ينكرون»[٢٤] .

ورد وصف دنانوخت في «الكنزاربا» بـ «الكاتب الحكيم ، حبر الآلهة ، الفخور المتكبر»[٢٥] ، أو «فقيه الدين الحكيم ودواة كتاب الآلهة والفخور والمترفع»[٢٦] ، ولم يصفه الكتاب بالنبي أو الرسول . وردت قصة عروج الحكيم المذكور كاملة في «الكنزاربا» ، مع اختلاف في ترجمة النص ، إلى حد ما ، عما ترجمه المندائيان غضبان رومي ونعيم بدوي ، مع احتفاظ القصة بجوهرها في الترجمتين . ورد في «الكنزاربا» على لسان دنانوخت : «رأيت الحي الذي كان منذ الأزل . ورأيت الكشطا التي منذ البداية . رأيت الموت ورأيت الحياة ورأيت النور . رأيت الخطأ ورأيت الصواب . رأيت البناء ورأيت الخراب . رأيت المرض ورأيت

---

(٢٤) كيف زار دنانوخت السماء السابعة ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي عن الكنزاربا ، مجلة التراث الشعبي ١٩٧٣/٥ .

(٢٥) الكنزاربا اليمين ، ص ١٥٩ .

(٢٦) كما ورد في« الكنزاربا» نسخة مارك ليدزبارسكي ، طبعة استراليا .

الشفاء . رأيت هذا الرجل الفاضل الشيخ الواقف منذ القدم بين الأرض والسماء»[٢٧] .

ولا ندري بالضبط مَنْ هو الرجل الفاضل الواقف منذ القدم بين السماء والأرض؟ لكن بعد قراءة النصوص الخاصة في العلاقة بين مندادهيي والمشارك الفعال في عملية خلق السماء والأرض ، نتوقع أن يكون ذلك الفاضل هو الملاك مندادهيي؟ وحسب «الكنزاربا» (طبعة استراليا ، وترجمة ليدزبارسكي) تنقص النص العبارة الآتية ، مما ورد في ترجمة بغداد ، «لقد رأيت الرجل ذا المقام السامي الذي هو أقدم سناً ، وكان في وجوده أسبق من ذلكم الذي شيد السماء والأرض»[٢٨] . إن الذي شيد ، أو شارك بفاعلية في تشييد السماء والأرض ، كما قلنا ، هو الملاك بثاهيل ، أشار إلى ذلك النص المقدس الآتي : «سجد بثاهيل وسبح للخالق الجبار ، ثم أمسك بسرة الأرض محاولاً ربطها بقلب السماء»[٢٩] . و«قال ملك النور السامي قوله ، فكان كل شيء . نزل بثاهيل فرفع السماء فبسط الأرض»[٣٠] .

قال دنانوخت ، بعد رؤية عجائب وغرائب العالم النوراني لدين مليخ الأثري (لا أثر لاسم الملاك هيبل زيوا في الترجمة العربية لكنزاربا كما ورد ذلك في ترجمة رومي وبدوي) : «أظل على عتبة بيت الحي ، ألهم التراب . وأكل الأحجار . ولا أعود إلى عالم الأشرار»[٣١] .

عاد إدريس من رحلته إلى السماء بتجربة ورؤية جديدة ، لما يخفيه العالم السماوي من كائنات وعلاقات ومصير للبشر . وعاد زرادشت من رحلة إلى السماء . وعاد النبي محمد من رحلة إلى السماء أيضاً . ناهيك من تفاصيل صعود عيسى بن مريم ، وقبله نزول تموز أو دموزي السومري من العالم العلوي إلى القعر المظلم في العالم السفلي ، والذي هو عالم الظلام عند المندائيين . إلا أن الجميع لم يخرجوا من فكرة المنقذ المستلهم تعاليم السماء . وما يختلف فيه المعراج المندائي أنه معراج مستمر ، لم ينقطع عند إدريس ، وسيعرج كل البشر الطاهرين أو بعد تطهيرهم . كل روح (نشماثا) تعرج بقارب سماوي . ومن قبل عرج آدم ، وبعده كان معراج يحيى بن زكريا ، الأب والمعلم المختار والشيخ العظيم الوقار ، وهذه ألقاب يحيى في

---

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٦-١٦٧ . ورد النص بترجمة مارك ليدزبارسكي : «لقد رأيت أنا الحياة تلك التي كانت قد نشأت منذ الأزل ، لقد رأيت الكوشطا ، تلك التي كانت منذ القدم في البداية . ثم استطرد هو قائلاً : رأيت الموت ورأيت الحياة ، رأيت الظلام ورأيت النور ، رأيت الخطأ ورأيت الحقيقة ، رأيت الدمار ورأيت النشوء والبناء ، رأيت البلاء ورأيت الشفاء ، لقد رأيت الرجل ذا المقام السامي الذي هو أقدم سناً ، وكان وجوده أسبق من ذلكم الذي شيد السماء والأرض» .(الكنزاربا اليمين ، طبعة استراليا ، السادس ، ص ٢٠٧) .

(٢٨) الكنزا ربا ، الكتاب اليمين ، الفصل السادس ، ص ٢٠٧ .

(٢٩) الكنزاربا اليمين (طبعة بغداد) ، الخليقة ، ص ٦٨ .

(٣٠) المصدر نفسه ، الوصايا ص ٩ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

«الكنزاربا» ليس بينها ما يشير إلى أنه نبي أو رسول . جاء في معراج يحيى : «سمع منداهيي ما قاله يحيى ، فوضع يده عليه ، وقف يحيى ، وخلع في يردنا (النهر) ثيابه ، ثياب اللحم والدماء ، وارتدى بدلة الضياء ، واعتم بعمامة النور ليصعد مع منداهيي إلى بلد النور»[٣٢] . غير أن عروج آدم ويحيى كانا بدون عودة مثل العودة التي فرضت على إدريس .

الصلة بالعراق

تفيد رواية أبي الحسن المسعودي التالية بصلة المندائيين بالعراق وحضارته القديمة . قال : «والكلدانيون وهم البابليون الذين بقيتهم في هذا الوقت بالبطائح بين واسط والبصرة في قرى هناك ، وتوجههم في صلاتهم إلى القطب الشمالي والجدي»[٣٣] . وكم تقترب رواية المسعودي من الصحة إذا أسندت بوشائج حضارية ، وشعائر طقسية ما بين المندائيين والبابليين ، وكلها تؤكد أُصولهم العراقية ، وما بينهم وبين الحرانيين غير اسم الصابئة ، وكتاب قيل إنه تحدث عن وجودهم بحران ، وصلتهم بحيى المعمدان ، الذي اعتبره المندائيون من بيئة الأهوار . كما سيأتي ذكر ذلك . أشار التاريخ القديم إلى صابئية الكلدانيين وهم البابليون . لكن قد لا يكفي ذلك دلالةً على صلة المندائيين ببابل . والسبب أن الصابئية ، حسب معظم المؤرخين ، كانت تسمية عامة لديانات كثيرة ، عرفها الكلدانيون واليونانيون والرومان والهنود والفرس والقبط وغيرهم . ومحور عقيدتها عبادة الكواكب والأصنام ، أي الوثنية بعينها ، التي تقول بتعدد الآلهة . قال ابن العبري (ت٦٨٥هـ) : «كانوا جميعاً صابئة ، يعبدون الأصنام ، تمثيلاً للجواهر العلوية والأشخاص الفلكية»[٣٤] .

غير أن التأكيد يأتي من الباحث العراقي المندائي عزيز سباهي الذي توصل ، في

---

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . كذلك نَذكر بعروج النبي حزقيال ، أو المعروف في قصص الأنبياء الإسلامية بذي الكفل . ويعتقد أنه صاحب الضريح القائم على حدوة الفرات قريباً من بابل وسط العراق . عرج بعيد السبي البابلي بكائن أسطوري يشبه البراق ، الذي وردت أخباره في إسراء ومعراج النبي محمد إلى السماء . قال حزقيال عن وسيلة عروجه المسماة بمركبة الرب : «نظرت فإذا ريح عاصف مقبلة من الشمال ، وغمام عظيم ونار متواصلة ، وللغمام ضياء من حوله ، ومن وسطها ما يشبه اللمعان القرمزي من وسط النار . ومن وسطها شبه أربعة حيوانات . وهذا منظرها : لها هيئة بشر ، ولكل واحد أربعة وجوه ، ولكل واحد أربعة أجنحة ، وأرجلها أرجل مستقيمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل . وهي تبرق مثل النحاس الصقيل . ومن تحت أجنحتها أيدي بشر على أربعة جوانبها . وكذلك وجوهها وأجنحتها لأربعتها . . .»(الكتاب المقدس ، العهد القديم سفر حزقيال ، ١/ ٤ - ٢٨) .

(٣٣) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٣٧ .

(٣٤) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٣ .

دراسته المقارنة بين البابليين والمندائيين، إلى ما يُطمأن له من وجود صلة بين الديانتين. منها تشابه بيت العبادة، المندي الصابئي والمعبد البابلي. الأول «كوخ صغير من القصب المطلي بالطين، يبنى على الأرض غير المبلطة، والفتحة الوحيدة فيه هي الباب التي تواجه الجنوب. لكنه يتجه من داخله نحو الشمال، نحو النجم القطبي، حيث يتجه المندائيون في صلواتهم. ولا تجري فيه أي شعائر دينية يجوز للعامة أن تشارك فيها. وأمامه بركة أو حوض من الماء يرتبط بقناتين في مجرى الماء الجاري، تسمحان بجريان الماء في البركة»[٣٥]. وقال سباهي عن آخرين: «إن هذا المعبد (المندي) يذكر بالمعابد البابلية في مراحل العبادة الأولى، حيث يوضع تمثال الإله في كوخ صغير مبني من القصب والطين، ويجلس فيه الكاهن، وإليه يلتجئ الناس التماساً للمشورة، وقد عثر في رقيم مشهور من كيش على صورة هذا المعبد»[٣٦]. ويتماثل المندائيون والبابليون بأمور أخرى، منها: التشدد في تحريم حلق اللحية وشعر الرأس، وضرورة ارتداء لباس الرسته (لباس المندائيين الديني) في أداء الطقوس الدينية.

وفي اعتقاد الديانتين أن الروح بعد مفارقتها الجسد تبقى تحوم ثلاثة أيام حول قبر المتوفى. بعدها تبدأ الرحلة إلى السماء حيث المطراثي. كما هو الحال عند المندائيين، لوزن أعمالها على يد أباثر (ملاك الميزان). و«نفس الصورة تقريباً يجدها المرء لدى البابليين، فروح الميت عندهم تبقى ثلاثة أيام بعد إيداع جثمانه في القبر. بعده تبدأ الرحلة إلى ما وراء العالم، وتجري محاسبة الروح على يد المثرا. ومن ثم الراشنو، الذي يتولى وزن أعمال الميت الخيرة والشريرة، وحتى إذا مال الميزان نحو جانب الخير فما زال أمام الروح البابلية أن تقدم كفارة عن الذنوب ولطلب الرحمة. وهذا ما يقابل المسخثة التي تقام للنفس المندائية للغرض ذاته. أما من ثقلت موازينه فالجسر الذي يتعين اجتيازه في الحالتين يغدو دقيقاً كالشعرة»[٣٧].

تقترب الديانتان كثيراً في أسطورة الخلق. فما ورد في «الكنزاربا» هي أسطورة «إينوما ايليش» البابلية نفسها. وملخصها: أن الكون كان المياه الأولى (تي آمت) لا شيء غيرها. وحدث أن ظهر الآلهة العظام جيلاً بعد جيل، حتى جاء الإله خالق البشر. فحدثت الحرب بين العالم العلوي، وليكن عالم النور، والعالم السفلي، وليكن عالم الظلام، الذي تمثله تي آمت عند البابليين والروهة وأولادها عند المندائيين، فيقتل الإله مردوخ تي آمت ويقضي على فلولها الشريرة. وبالمقابل عند المندائيين يقضي الملاك هيبل زيوا على كائنات الظلام

---

(٣٥) سباهي، أصول الصابئة، ص ٦٥.

(٣٦) المصدر نفسه، عن هوك، ديانة بابل، ص ٧٦.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٦٨ عن آخرين.

(الروهة وأولادها السبعة) ، ويخلق الإنسان ليعبد الآلهة[٣٨] .

أما عند المندائيين فالإله واحد ، هو الحي القديم ، يكون منه يردنا (الماء الحي) . ومن هذا الماء كانت الحياة الثانية ، وهي الملاك منداهيي ، العارف بالله ، وبقدرته ظهر الأُثريون . ينزل هؤلاء إلى عالم الظلام ، حيث المياه الآسنة والشياطين ، أرض العوز والنقصان . ثم يأتي ملاك هيبل زيوا (واهب النور على حد عبارة دراوور) لمطاردة ملكة الظلام الروهة . وبعد القضاء عليها يأمر الحي المتسامي الملاك بثاهيل (الذي ينسب له مع كائنات نورية أخرى تكوين السماء والأرض) بخلق جسد آدم . ينتظر الجسد بلا حراك حتى يجلب منداهيي الروح له من موقعها العلي ، ويتم خلق الكون ليظهر فيه الإنسان ليعبد الحي الأزلي[٣٩] . والفرق بين الملحمتين ، أن المندائيين جعلوا الخلق من اختصاص إله واحد ، وأن الذين عرفوا بالآلهة في القصة البابلية ، مثل : مردوخ أو أنليل وآنو وأناتو أصبحوا عند المندائيين ملائكة أو كائنات نورية ، تعمل ما يأمرها الحي العظيم .

وإذ تحدثت الكتب أو الأخبار الصابئية عن هجرة إبراهيم من أور الكلدانيين حيث جنوبي العراق ، وهذا ما أكده كتاب التوراة ، إلى الشمال حيث حران بعد أن فارق قومه المندائيين لسبب ديني ، أثار انستاس الكرملي مسألة ذات أهمية ، وهي أن إبراهيم خرج من أور الكلدانيين أي من نار الكلدانيين ، التي فهمت من التوراة أنها أور المدينة[٤٠] . ووفقاً لذلك تتأكد الصلة أيضاً بين المندائيين والكلدانيين أي البابليين . وتفيد أخبار مندائية ، نقلها شفاهة بعض كهنتهم ، أن إبراهيم كان مندائياً من عائلة كهنوتية ، ارتقى أخوه إلى درجة ريش أمة ، إلا أن مرضاً أصاب قلفته فأضطر إلى قطعها ، لذا حُرم من الكهنوتية ، كما هي التقاليد ، فرحل مع عائلته ، ولم يقترب من زوجته سارة لمرضه المذكور ، فقدمها إلى فرعون على أنها أخته .

بيد أن أهل العراق ، والصابئة منهم ، ما زالوا ينادون الزوج أو الزوجة أو الحبيب أو الحبيبة بالأخ أو الأخت . هذا ما يتداول بين الناس ، وفي أغانٍ شعبية مشهورة . يُضاف إلى ذلك أن علاقات الزواج في الأزمنة الغابرة كانت تبيح الزواج مِن الأخت ، ومن بقاياها أن يتم الزواج وبإصرار من ابنة العم ، ذلك من بقايا تقديس رابطة الدم . مع أن المجتمعات الحضارية توصلت إلى تحريم ليس الزواج بين أولاد العم فحسب بل كراهة الزواج من الصديق القريب (*Best friend*) ، ولم يعرف بين المسيحيين بالعراق زواج بين أولاد العم .

---

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣٩) الكنزاربا اليمين ، قصة الخلق .

(٤٠) مجلة المشرق ، أيلول ١٩٠٠ .

يأتي البيروني بقصة ختان إبراهيم عن كتاب لابن سنكلا النصراني ، الذي نعته بالكذب على الصابئيين ، جاء في القصة : «إن إبراهيم ، عليه السلام ، إنما خرج عن جملتهم لأنه ظهر في قلفته برص . وأن مَنْ كان به ذلك فهو نجس لا يخالطونه ، فقطع قلفته بذلك السبب ، يعني أختتن ، ودخل بيتاً من بيوت الأصنام ، فسمع من الصنم صوتاً يقول له : يا إبراهيم خرجت من عندنا بعيب واحد ، وجئتنا بعيبين (المرض والختان)! أُخرج ولا تعاود المجيء إلينا . فحمله الغيظ على أن جعلها جذاذاً (حطمها) وخرج من جملتهم . ثم أنه ندم على ما فعله ، وأراد ذبح ابنه لكوكب المشتري على عادتهم في ذبح أولادهم ، زعم فلما علم كوكب المشتري صدق توبته فداه بكبش»[41] .

كَذبَ البيروني قصةَ ابن سنكلا النصراني ، ودافع عن الصابئة بقوله : «نحن لا نعلم منهم إلا أنهم أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح ، ويصفونه بالسلب (منزه من الصفات) لا بالإيجاب ، كقولهم : لا يحد ، ولا يُرى ولا يظلم ، ولايجور ، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً . إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة ، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه ، ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها ، ويعظمون الأنوار»[42] . ما قاله البيروني كان صحيحاً ، وينطبق تماماً على المندائيين اليوم . لكنهم لا يحسبون للكواكب هذا الحساب إلا من باب التنجيم ، وفي هذا الباب يشترك معهم أهل أديان أخرى .

أما تعظيمهم للأنوار فلأنها فيض من النور الأزلي ، وهو الحي القديم أي الله . واللافت للنظر ، أن كاهناً صابئياً نقل لليدي دراوور قصة ختان إبراهيم الخليل ، وهجرته بعد خروجه من الدين المندائي ، عن طريق الأثر المتواتر بين أجيالهم . والسؤال هل أخذ المندائيون هذه القصة من ابن سنكلا النصراني ، أم أن الأخير أخذها عنهم وأضاف إليها ما أضاف؟ أما أن الصابئة المعاصرين ، وفي حدود العشرينيات ، يوم بدأت دراوور تبحث في شؤونهم ، قد قرأوا هذه القصة في كتاب البيروني «الآثار الباقية...» واعتبروها من موروثهم الشفاهي فهذا ضعيف الوقوع .

يلخص المندائيان نعيم بدوي وغضبان رومي صلة قومهما بالعراق القديم بالقول : «الصابئون طائفة عراقية قبل أن تكون أي شيء آخر . بل أننا كما تشير طقوسها صلة الحاضر بالماضي البابلي والأكدي والنبطي في العراق»[43] . ونحيل مَنْ جعل لفظة الأردن أو يردنا دليلاً على نزوح الصابئة من جهة فلسطين إلى معنى الكلمة المذكورة . قالت دراوور : «أنها

(41) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٣٠٥ .

(42) المصدر نفسه .

(43) دراوور ، الصابئة المندائيون ، مقدمة المترجمين ، ص ٢٢ .

تعني نهراً جارياً ، وليس له علاقة بنهر الأردن في فلسطين ، فالأردن والنيل يسمى عند الصابئة اردنه أو أردن . وقد سمعت لفظة أردن تسمية للنيل من أحد يهود العراق ، وفي الرطنة تطلق الكلمة على أي نهر»[٤٤] .

لكن أصبح هذا التاريخ القديم ، والجذر الضارب في عمق الأرض العراقية مهدداً بالزوال . فقد أنعكس ما سببته سلطة البعث بالعراق من كوارث الحروب والاضطهاد والحصار ، على وجود الصابئة المندائيين ، مثلما انعكس على بقية الأديان والمذاهب . فهجر عدد كبير منهم العراق إلى البلدان الأوروبية واستراليا ، فأقاموا هناك وأسسوا الجمعيات ، التي لم تقطع الصلات مع المركز ببغداد . وبطبيعة الحال يتضح أمر الهجرة بين الأقلية أكثر منه بين الأكثرية ، فهجرة المسلمين من كرد وعرب وتركمان ليست بالقليلة . لم تتوقف الهجرة بل أضيف عامل آخر بعد زوال المسبب في ٩ أبريل «نيسان» ٢٠٠٣ ألا وهو تفشي الأصولية ، وظهورها على السطح .

الماء والضياء

تقول دراوور حول جدلية الماء والنور : إن مفردة «نهر وثيقة العلاقة بين معنى النور والماء في الفكر السامي . ففي اللغة المندائية لدينا كلمة نهر ونهورا أي نور . وفي العربية لدينا نهر ونهار . وفي العبرية نهار أي نهر ونهارا . وفي البابلية نا - آ - رو أي نهر ، ونو - آو - رو أي نهار»[٤٥] . وأخيراً ترى دراوور في صلة المندائيين بالعراق أنهم «يرجعون مصدر جميع الأنهار والمياه إلى مصدر أصلي واحد ، هو نهر أبيض نقي في جبال تدعى كريمله ، وهذا المصدر الأصلي هو فراش زيوا ، أو فرات زيوا ، أي نهر الفرات ، وليس الأردن»[٤٦] . والأكثر دلالة على علاقة المندائيين بدجلة والفرات لا بالأردن هو ارتباط القيامة والعذاب بجفاف النهرين . جاء في «الكنزاربا» : «كل مَنْ عملَ باطلاً سيبقى هنا . . . مكبلاً بعذاب ربه إلى أن يجف الفرات من منبعه إلى مصبه . ويجري دجلة خارج مجراه ، إلى أن تجف جميع المياه في البحار ، وفي الجداول والأنهار والعيون والآبار بعدها»[٤٧] .

تبقى الإشارة ، في سياق الحديث حول اقتران الماء بالضياء ، إلى تسمية موقع المندائيين الجغرافي الأهوار ، حيث الشمس مشعة طول فصول السنة ، واتصال ذلك بمعنى

---

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٤٥) المصدر نفسه .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٤٧) الكنزاربا اليسار (ترجمة بغداد) ، التسبيح الثامن ، ص ٦٤ .

بلاد سومر فهي : الأرض المضيئة ، ومعنى الهور : البياض . تكشف هذه التسمية عن أصل مندائي قديم بالمنطقة . قال يعقوب سركيس : «إن لفظة هوارة ليست بعربية ، وجوزت لنفسي الظن أنها آرامية ، فاستطلعت الأب انستاس (الكرملي) فوافقني على أنها كما ظننتها ، وعلى أن آراميتها صابئية ، وأن معناها الأبيض والجص والجير والحوارى ، وعرفت بعدئذ أنها الواردة في السريانية والعبرية مع إبدال حرفها الأول بحاء مهملة وخا منقوطة»[٤٨] .

أما في العربية فتسمى المنطقة بالبطائح والآجام ، «واسمها في هذا الوقت (القرن الرابع الهجري) في ديوان السلطان : آجام البريد وأخراب جوخى»[٤٩] . وربما عرفت بالجامدة أيضاً . وليس بين التسميات العربية تسمية «هور» ، ولم تتردد التسمية الأخيرة إلا في العصر العباسي المتأخر ، بعد تمكن اللغة العامية من التواجد إلى جانب الفصحى . جاء ذكر الهور في كتب الأقدمين ومنها في بيت للشاعر مزيد الخشكري ، في عصر الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) ، كما سيأتي ذكر ذلك . وربما من آثار المندائيين في الأهوار تسمية القرية أو الجباشة «طهيثا» الآرامية ، وهي «قرية تائهة لوجودها بين الأهوار»[٥٠] . وما ذكره الطبري (ت٣١٠هـ) ، في سياق روايته لأحداث ثورة الزنج بالبصرة والعمارة ، مناطق بالأهوار باسم طهيثا ، وذكر مدينة ونهراً بهذا الاسم . ولقب أحد قادة الزنج بالروهي[٥١] ، وهو إشارة واضحة إلى تشبيه هذا القائد الأسود بكائن الظلمة المندائي الرهيب الروهة .

عُرف الصابئة المندائيون بارتباط طقوسهم بالماء ، إذ نحت أسمهم من عملية الارتماس في الماء الجاري ، ويسمى مصبتة ، وهو مأخوذ من صبأ الآرامية ، أي اغتسل . أما أن اشتقاق اسمهم من الضياء فلم يطرحه حديثاً ، على حد علمي ، غير الأب انستاس الكرملي ، ومن بعده طرحه الشيخ محمد جواد مَغنيّة . قال الأب : «إن الصابئة عندي مشتقة من صبأ ، لفظة قديمة من عهد أن كانت اللغات السامية لغة واحدة ، أو لغة مختلطة ومشتركة بين عامة الساميين ، ومصحفة عن ضوأ ، التي قلبها العرب في أصل لغتهم إلى كلمة ضاء . ولا جرم أنه وجد زمان قبل الزمان الذي دونت فيه اللغة وقواعدها ، بقرون كثيرة ، أمور لغوية عربية تقربها من سائر أخواتها السامية ، وهي اليوم قد فقدت أو قد أُميتت ، أو قد انقرضت ، أو قد عفت آثارها ، ولم يبق منها إلا غيض من فيض أو قيض من بيض . ولفظة الصابئة هي من هذا القبيل . فمعنى الصابئة إذن : عبادة الضيائية أي الأجرام المضيئة ، وهي عبادة الكواكب والأجرام السماوية ، ومثل ضاء : صبأ ، ومثل أضاء : اصبأ ، وسائر المعاني العربية المتفرعة

---

(٤٨) سركيس ، مباحث عراقية ،٢ ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤٩) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٧ .

(٥٠) علي الشرقي ، بعض مدن البطائح القديمة وقراها ، مجلة لغة العرب ١٩٢٧ .

(٥١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، السنة : ٢٦٢ و٢٦٧ .

مأخوذة من نشوء ، فتأمل»[٥٢] . والكرملي إذ نسب هذا الرأي إلى نفسه بعبارة «إن الصابئة عندي مشتقة من صبأ . . .» قد سبقه إليها ابن قيم الجوزية[٥٣] . ولا حاجة للكرملي بهذا الإدعاء ، إلا إذا كان قد ورد من باب توارد الخواطر ، وهذا بعيد .

ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية ، والأب الكرملي ، والشيخ مَغنيّة بأن اسم الصابئة منحوت من الضياء قد عكس واقع الحال ، من دون تعارض مع علاقة التسمية بالتعميد في الماء . فالضياء عندهم بعد الماء في الوجود ، والحي العظيم هو واجد الماء الأول . وقد سبق وأشرنا إلى التوافق في المعاني بين النهر والنهار . وبالتالي بين الماء والضياء . لذا لا يستحق الماء ولا الضياء العبادة من قبلهم ، لأنهما موجودان بفعل واجد ، ولا سيما أن (ضوأ) لا تعني عبادة الكواكب المضيئة ، بل تعني قولهم بالضياء العظيم ، أو بحر النور والأثري . وهي كائنات نورية سابحة في عالم النور النقي .

ورد في «الكنزاربا» ما نصه : «سمح لي العظيم بعظمته أن انشر الضياء ، العظيم سمح أن انشر النور ، وأن انشر الضياء»[٥٤] . هناك نصوص مندائية بليغة تحذر من عبادة الكواكب والنجوم ، منها مثلاً : «لم أسجد لربين»[٥٥] . بينما الكواكب والنجوم متعددة . وقولهم بالضياء : «يا أصفيائي : إلبسوا الأبيض ، واكتسوا الأبيض . . ألبسة الضياء وأردية النور . واعتموا بعمائم بيض كالأكاليل الزاهية . وانتطقوا بأحزمة الماء الحي ، التي ينتطق بها الأثريون ، وانتعلوا . واحملوا بأيديكم صولجانات مثل صولجانات الماء الحي ، التي يحملها الأثريون في بلد النور»[٥٦] . عموماً ، كل كلمات هذا النص المقدس أشارت إلى استخدام الضياء وليس إلى عبادته .

وإن ذكرهم المبشر الأمريكي (*Zwemer*) بعبدة النجوم ، نقلاً عن نص يعود تاريخ نشره إلى ١٨٩٤ ، وصف أحد طقوسهم بالقول : «يسير عبدة النجوم رجالاً ونساءً قبيل منتصف الليل ببطء بمحاذاة النهر ، متجهين إلى المشكنة (المندي)» . يرفض صابئة تلك الفترة والحاليون «بغضب اتهامهم بأنهم من عبدة النجوم ، ويؤكدون بأن نجوم السماء تلعب في حياتهم نفس الدور الذي تلعبه تقريباً في حياة شعوب الشرق الأخرى ، فهي تستخدم عند قراءة طالع المواليد الجدد ، أو عند تحديد الأيام أو الساعات المباركة للبدء بإنجاز أية قضية هامة كالسفر ، أو بناء بيت ، أو ما أشبه»[٥٧] .

---

(٥٢) مجلة المشرق ، حزيران ١٩٠١ .

(٥٣) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ١ ص ٩٤ .

(٥٤) الكنزاربا اليمين ، ص ٦١ .

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

(٥٧) آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٥٤ و٢٦٩ .

كتبهم المقدسة

أبدى أكثر من باحث، في شأن المندائيين، صعوبة البحث في كتبهم الدينية، بسبب تاريخها المجهول وموضوعاتها الشائكة. فـ«الكنزاربا» كتاب أُنزل بواسطة هيبل زيوا (جبرائيل) على آدم وشيت وإدريس ونوح، كمجموعة من الصحف نزلت بفترات مختلفة. إلا أن أسماءً وأحداثاً عديدة دخلت في الكتاب تصل إلى زمن يحيى بن زكريا، وعيسى بن مريم. ورغم أن الصابئيين يعتقدون أن كتاباً من كتبهم نزل على يحيى بشهادة القرآن: «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً»[٥٨]. إلا أن المفسرين المسلمين كافة يشيرون إلى أنه كتاب «التوراة»، لا الكتاب المندائي. وهنا يأتي السؤال هل نزل التوراة مرة أخرى، وكان قد نزل على النبي موسى؟

أورد أبو فرج النديم أموراً هامة لها صلة بكتاب الصابئة المقدس. ذلك الكتاب الذي رفعه رئيس كهنتهم دنقا عند دخول العرب المسلمين العراق[٥٩]، مبيناً لقائد الجيش أن قومه من أهل الكتاب. قال المترجم أحمد بن عبد الله بن سلام مولى هارون الرشيد: «ترجمتُ هذا الكتاب من كتاب الحنفاء، وهم الصابيون الإبراهيمية[٦٠]، الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام، وحملوا عنه الصحف، التي أنزلها الله عليه، وهو كتاب فيه. إلا أني اختصرت منه ما لابد منه ليعرف به سبب ما ذكرت منه اختلافهم وتفرقهم. وأدخلت فيه ما يحتاج إليه من الحجة في ذلك من القرآن والآثار، التي جاءت عن الرسول (ص) وعن أصحابه، وعن مَنْ أسلم من أهل الكتاب»[٦١]. وبهذا يكون الكنزاربا قد تُرجم إلى العربية في أيام هارون الرشيد، وإن عمد المترجم إلى الإضافة عليه من نصوص القرآن أو الحديث، ثم اختفى أثره. وحرص المندائيون على ترك ترجمته مرة أخرى حتى العام ١٩٩٧، ليظهر في ترجمة، صدرت ببغداد، شوهتها صياغة الشاعر المندائي عبد الرزاق عبد الواحد. أخبرني الريش أمة الشيخ عبد الله نجم: كانت كفر في الدين، وهي جريمة بحق ديننا وكتابنا ومقدساتنا.

---

(٥٨) سورة مريم، ١٢.

(٥٩) رومي، الصابئة، ص ١٩ عن كتاب «حران كويثا» الصابئي. ذكر لي رجل دين كبير، حسب الرواية التي لم تترجم إلى العربية لخطورتها، أن أنوش دنقا قتل في بداية الدعوة الإسلامية، وجعلوا منه مرمى الشيطان بمكة لدوره في تعاليمها.

(٦٠) أشارت هذه النسبة، حسب رجال الدين الصابئة بعد الاستفسار منهم، إلى برهم الملاك النوراني وليس لإبراهيم الإنسان، وهم في دعاء التعميد التالي: «بسم الحي ربي اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير ابن القدرة صبغتي تحرسني وتسمو بي إلى العلا» (مراني، مفاهيم مندائية) يعنون بإبراهيم الكبير الملاك المذكور، ولا يستبعد أن يكون إبراهيم المشترك بين الأديان هو برهم الملاك، جسده الاخباريون بشخص إبراهيم النبي المعروف.

(٦١) النديم، الفهرست، ص ٢٤.

وأضاف في لقاء خاص معه : إن لديه ترجمة بالعربية يحتفظ بها عند ولده الشيخ رافد ، لكنها تحتاج إلى صياغة . وقد كشف المترجمان يوسف قوزي وصبيح مدلول السهيري مساوئ صياغة الشاعر عبد الواحد اللغوية في الكتاب . قالا : «تلاعب بنص جنزاربا الذي ترجمناه إلى العربية من أصله المندائي مباشرة ، وهذا أمر مؤسف حقاً . لأن بعض ما نشر منه صياغته بعيدة كثيراً أو قليلاً أحياناً عن نص الترجمة الذي نحن أنجزناها»[٦٢] .

قال أحمد بن سلام أيضاً : «ترجمتُ هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل ، وكتب الأنبياء والتلامذة ، من لغة العبرانية والصابية وهي لغة أهل الكتاب إلى اللغة العربية ، حرفاً حرفاً . ولم اتبع في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف (اعترف في الرواية السابقة بإضافة نصوص إسلامية) . ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته . ولم أنقص إلا أن يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب»[٦٣] . وذكر مولى هارون الرشيد الكتب السماوية وما ادعته الصابئية منها ، منذ ذلك الزمان ، بالآتي : «جميع ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب . من ذلك مائة صحيفة أنزل الله تعالى فيما بين آدم وموسى . فأول كتاب منها أنزله جل اسمه صحف آدم عليه السلام ، وهي إحدى وعشرون صحيفة . والكتاب الثاني أنزله الله على شيث عليه السلام ، وهي تسع وعشرون صحيفة . والكتاب الثالث الذي أنزله الله تعالى على أخنوخ (مُصحف من الاسم المندائي دنانوخت) وهو إدريس عليه السلام ، وهو ثلاثون صحيفة . والكتاب الرابع أنزله جل أسمه على إبراهيم عليه السلام وهو عشر صحائف»[٦٤] .

إن رواية النديم عن مولى هارون الرشيد تجعلنا نشكك فيما ذهب إليه الكرملي إلى أن تاريخ كتابة «الكنزاربا» كان بداية القرن الثامن الميلادي ، ولا ندري لماذا السنة (٧٠٨ الميلادية) بالذات ، وكيف عده مترجم الرشيد من الكتب الأولى . وغير ما جاء في «الفهرست» ، عن مولى الرشيد ، ذكر ابن أبي أصيبعة أن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ ، مصنف كتاب «شرح مذهب الصابئي» ، ترجم كتاباً إلى العربية بعنوان «السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون»[٦٥] . ولا يستبعد أن يكون أحد كتبهم الحالية .

والتي هي : «كنزاربا» (الكنز العظيم) ، «سيدره أد نشماثه»(كتاب الأنفس) ، «النياني» (ترتيل وأناشيد) ، «القلستا» (أصول الزواج) ، «ترسو الف شياله» (اثنا عشر ألف سؤال) ، «حران كويثا»(قلعة حران ، كتاب تاريخي) ، «الم ريشايه» (العالم الرئيس ، تكوين

---

(٦٢) توضيح حول ترجمة كتاب جنزا ربا ، جريدة الزوراء ، ٣٠ مارس «أذار» ٢٠٠٠ .

(٦٣) النديم ، الفهرست ، ص ٢٤ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٦٥) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص ١٩٩ .

العالم) ، «مصبته هيبل زيوا»(عماد الملاك هيبل زيوا بعد عودته من عالم الظلام) ، «ديوان أباثر» (ميزان الأرواح) ، «دراشه اد يهيا» (تعاليم يحيى) ، «تفسير البغرا»(تفسير الجسد) ، «سفر ملواشه» (تفسير الأسم ، كتاب تنجيم) ، «زرستا» (الحارسة ، كتاب تداوي من كائنات الظلام) ، «القماهي» (حروز تكتب للأطفال) ، «شرح بارونا»(شرح اقامة الأقداس على أرواح الموتى)[٦٦] . غير أن كتاب «الكنزاربا» قد احتوى بعض هذه الكتب بين دفتيه وفي قسميه ، اليمين واليسار ، مثل كتاب «تعميد هيبل زيوا» وكتاب «تعاليم يحيى» وغيرها .

تعتبر الحروف الصابئية ، في الكتب المذكورة وكتب الطلاسم ، مقدسة . «يمثل كل حرف من الحروف بالنسبة إلى قوة من قوى الحياة والنور ، والحروف تبدأ بـ أ وتنتهي بـ أ . وهم يقولون : بأنهما يمثلان كمال النور والحياة ، وأن هذا الكمال لم يخلق بذاته ، بل خلق بأمر من الله سبحانه وتعالى»[٦٧] . وإذ كانت الحروف المندائية مقدسة فحبر الكتابة من القداسة أيضاً أن لا يصنعه غير الكهنة ، وأن لا يصلح لرسم حروف غير الحروف الدينية . «ولكل كاهن تقريباً تركيبه الخاص لعمل الحبر (ديوثا) ، الذي يحفظ على شكل بلورات تذاب في الماء ، حين يراد استعمالها»[٦٨] .

ويُحضر الحبر المقدس حسب الوصفة التالية : «امزج الغراء بماء النهر ، وأتركه إلى أن يذوب . ثم اغله إلى درجة التبخر لمدة ستة أيام . واسحقه في اليوم السابع . واخلطه بمسحوق الفحم ، بنسبة مثقال واحد من الفحم إلى خمسة وعشرين مثقالاً من الغراء لمدة أربعة إلى خمسة أيام . أمزجه بالماء إلى أن يصبح عجينة . ثم بعد غليانه يصير على شكل بلورات تمزج بماء النهر لعمل أكبر . وينبغي أن يتلى عليه دعاء : اسوثة ملكه ، صلاة التسليم»[٦٩] . تذكر هذه الطريقة بما كان يفعله الوزير الخطاط ابن مقلة في تحضير حبره من سُخام النفط ، بأخذ «ثلاثة أرطال ، فيجاد نخله وتصفيته ، ثم يُبقى في طنجير ، ويصب عليه الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر درهماً ، ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهماً ، ومن العفص عشرة دراهم ، ولا يزال يساط على نار لينة ، حتى يثخن جرمه ، ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء ويرفع إلى وقت الحاجة»[٧٠] . وأضاف آخرون شيئاً من

---

(٦٦) رومي ، الصابئة ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

(٦٨) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٦٩ .

(٦٩) المصدر نفسه .

(٧٠) القلقلشندي ، صبح الأعشى ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها . وطريقة أخرى ، تناسب الورق العادي ، يذكرها صاحب «صبح الأعشى» وموادها : العفص الشامي والآس والماء والصمغ العربي والزاج القبرسي . ويضاف إليه دخان من أجل السواد ، والعسل من أجل حفظه فترة طويلة ، والصبر كمادة شديدة

الكافور لتطييب رائحته ، وشيئاً من الصبر لمنع الذباب من الوقوع عليه . وذكر القلقلشندي : هناك من الحبر ما لا يتعامل معه السُخام والنفط . ومَنْ يدري لعله الحبر المقدس كما يصنعه الكهنة المندائيون ، فالنفط مادة غير مرغوب فيها ، وتعد من المواد المنحوسة في التاريخ .

تقليدهم الديني

نجد عند عبد الحميد بكر عبادة (ت١٩٣٠م) ، معلومات قيمة في الشأن المندائي ، وهو على حد علمي أول عراقي صنف فيهم كتاباً بالعربية صدر العام ١٩٢٧ ، معتمداً على معلومات استقاها من الكنزفرا ، أو الكنزبرا(درجة دينية عليا تعني مفسر وخاتم الكنزاربا) أنذاك الشيخ دخيل بن الشيخ عيدان (١٨٨١-١٩٦٤) بالناصرية . لكنه كما يبدو لم يلتزم بما قاله الشيخ المندائي حرفياً . قال عبادة حول تسمية الصابئة : «قالوا : إنهاكلمة سريانية معناها الغسل والوضوء ، ولها مناسبة معهم ، وأن أصل تسميتهم منداييي أي القديم»[٧١] . لذا كان عنوان كتابه «مندائي أو الصابئة الأقدمون» . ومن مباحثه : «هل هم كلدانيون أم سريانيون»؟ «هل هم عبدة نجوم»؟ «مساكنهم القديمة» . «اعتقادهم في بداية الخلق» .«ولادة يحيى ووفاته» . «هل يجوز للمسلمين أكل ذبيحتهم»؟ «تعميدهم» . « اعتقاد الصابئة في الله» . «كيفية تعميد الأطفال» . «الرشامة : أى الاغتسال والوضوء» . استغرق الكتاب (٦٦) صفحة . وقدمت مجلة «لغة العرب» عرضاً مختصراً له في عام صدوره . ثم أعدنا ، بعد التحقيق والتقديم ، نشر الكتاب (٢٠٠٣) .

مثلما اختص الصابئة المندائيون بحل مشكل زواج أولاد آدم من أخواتهم بزواج أولاد آدمنا من بنات آدم كسيه أو آدم الخفي ، وهنٍّ من سكنة مشوني كشطا ، أختصوا بالقول بخطيئة ذبح الحيوان ، فأوجدوا صلاة عُرفت بصلاة أو دعاء الاستغفار ، أو مغفرة الذبح ، وهو طقس يمارسه الذابح ، دون أن يعمدوا إلى تحريم اللحوم ، مع وجود نزوع إلى ذلك ، وعلى وجه الخصوص لدى المتدينين والكهنة[٧٢] . جاء في دعاء الاستغفار : «ليباركني اسم الله المتعال ،

= المرورة لطرد الذباب . أما الحبر المناسب للرق فيكون براقا بلا دخان . وكتابة فواتح الكلام قد لا تكون بالحبر العادي ، بل تكتب بالذهب ، بعد أن يحل ورقه المستعمل في الطلاء «في شراب الليمون الصافي النقي ويغسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب» ، ويضاف إليه قليل من الحبر (الليقة) أي اللاصق بالدواة ، ويضاف إليه الزعفران والصمغ المحلول . أما المغرة العراقية فتكتب فيها «نفائس الكتب ، وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان» (صبح الأعشى) . ومن ملحقات الحبر آلة المسقاة ، والملواق لتحريك الحبر في المحبرة .

(٧١) عبادة ، كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمون ، ص ٥ .

(٧٢) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٦١ . دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١٠١ .

واسم الملك ملكا مندادهيي المقرب من عرشه . إنني قد أديت عمل الذبح بسكين حديدية بأمر من الله تعالى . وأنه غافر لذنوبي . اللهم أغفر لي ذنوبي وأرحمني . ولا تحرمني من شفاعتك . ليبارك اسم المتعال ، وملكا مندادهيي فلان بن فلانة دائماً»[٧٣] .

من شعائر المندائية الثابتة : العماد والصلاة والصوم والصدقة . والعماد المندائي يمارس بثلاثة أنواع وهي : «مصبوتا» (العام) ومن مستلزماته الماء الجاري ، الذي عوض عنه في ما بعد بأحواض الماء ، التي تقام عادة داخل المندي ، مع إكليل الريحان أو الآس إشارة إلى الحياة والطيب . وكل عماد يشترط الملابس الدينية التي أشرنا إليها[٧٤] . وخلاف الأديان المعروفة الأخرى يقول المندائي عند المصبوتا : «رسمي لا يكون بالنار ، ولابالزيت ، ولا بالمسح . رسمي بالماء العظيم ماء الله الحي» . والنوع الثاني العماد الشخصي ويسمى «طماشة» ، وهو مجرد اغتسال من النجاسات كالجنابة وغيرها . والنوع الثالث يسمى «رشامة» ، وهو بمثابة الوضوء ، ويمارس ثلاث مرات يومياً ، وتغسل خلاله أعضاء الجسم الخارجية

وصلاة المندائي عبارة عن قراءة وتبريكات ، مع الانحناء كلما وردت كلمة السجود في النص المقروء ، كقولهم : «قوموا أيها المسلمون المؤمنون ، اسجدوا وسبحوا لله العظيم» . وإضافة إلى الصلاة الجماعية ، التي تقام في المندي ، هناك صلاة شخصية يصليها المندائي في مناسبات معينة . ويستقبل المصلي عند الصلاة جهة الشمال ، وهي القبلة المندائية ، اعتقاداً أنها الجهة المباركة ، حيث مكان الحق مشوني كشطه . وإن سألت أحد العارفين منهم حول السبب اختصر لك إجابته بالقول : لأن أعذب النسائم تهب من جهة الشمال؟ . أما الصدقة من المال فتقدم كهبة لأبناء الملة المحتاجين ، ومن شروط ثوابها أن تقدم سراً ، والإعلان عنها يُعد خطيئة تعادل خطيئة الكفر!

والصوم عند المندائية ستة وثلاثون يوماً متفرقة على مدار السنة ، تختم عادة بالأعياد . ومن تعاليمه : «امسكوا أفواهكم عن قول الكذب . . . لأن الذي يحل في قلبه البغض ليس مسلماً»[٧٥] . والامتناع عن أكل اللحوم فقط . ويحرم في أيامه ذبح الحيوان . ويبارك الدين الصابئي الزواج والخصب ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، معتبراً إياه فريضة من فرائض الدين ، ولذلك نهى بشدة عن العزوبة ، بما في ذلك رجال الدين . وبخصوص ذلك تقول التعاليم المندائية : «وأمرنا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجاً تعمر بكم الدنيا»[٧٦] . وعند الزواج

---

(٧٣) برنجي ، الصابئة المندائيون ، ص ٢٣٧ .

(٧٤) مجلة مندايي ١٩٩٤/٤ .

(٧٥) مراني ، مفاهيم صابئية مندائية ، ص ١٤٥ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

يجري التأكيد على العذرية ، فعقد زواج الثيب لا يتطلب العماد وأداء قسم الإخلاص من قبل الزوجين أمام رجل الدين ، بقدر ما يتطلب العقد والشهادة أمام رجل دين مُنع من إجراء الطقس الديني ، لسبب ما أخل بكهانته ، ويعرف بين المندائيين بـ«أبيسق»[٧٧] . ودرجات رجال الدين حسب التدرج هي : الشنكده ، الحلالي ، الترميده ، الكنزابرا ، ريش أمه (الكاهن الملك) ، والرباني ، ولم يحصل عليها سوى يحيى المعمدان .

فقهاء الإسلام

لم يعترف فقهاء المسلمين للصابئة المندائيين ما اعترف لهم به القرآن الكريم ، كأهل دين وكتاب ، في ثلاث من سوره . وهي : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٧٨] . والآية تتكرر بالصيغة نفسها : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون (هكذا وردت) والنصارى مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٧٩] . وصيغة أخرى أضاف فيها المجوس والمشركين ، «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد»[٨٠] .

جاء في أسباب نزول الآية الأولى ، وهي سورةمن البقرة : أنها «نزلت في أصحاب سلمان الفارسي . لما قدم سلمان على رسول الله (ص) جعل يخبر عن عبادة أصحابه واجتهادهم . وقال : يارسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبياً . فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله : يا سلمان هم من أهل النار . وهم حسب الرواية ، أصحاب الدير ، ولما شعر الرسول بضيق سلمان عندما قال : «وأظلمت عليَّ الأرض» أنزل الله : إن الذين آمنوا والذين هادوا . . . وتلا قوله : ولا هم يحزنون»[٨١] . وروي عن عبدي الله ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : «نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي ، وكان من أهل جندي سابور من أشرافهم»[٨٢] .

---

(٧٧) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٢٥٠ . مقابلة خاصة مع ريش أمة عبد الله نجم .

(٧٨) سورة البقرة ٦٢ .

(٧٩) سورة المائدة ٦٩ .

(٨٠) سورة الحج ١٧ .

(٨١) الواحدي ، أسباب النزول ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٨٢) المصدر نفسه .

وهنا لا يقصد بديانة سلمان المسيحية أو اليهودية ، فالكثير من أتباعهما دخل الإسلام قبله ، وجاءت فيهما نصوص قرآنية كثيرة ، لم تحتج إلى تدخل أحد ، سلمان أو غيره . كما لا يقصد فيها المجوسية ، وإن كانت منتشرة في بلاد فارس حيث انحدار سلمان . لأن أسباب النزول المذكورة خاصة بالآية (آية ٦٢) من سورة البقرة ، والمجوس لم يذكروا إلا في سورة الحج (آية ١٧) . لهذا ، فالاحتمال الوارد أن سلمان الفارسي واسمه الحقيقي (ما به بن بوذخشان بن ده ديره)[٨٣] كان صابئياً مندائياً ، فللدين المذكور وجود ببلاد فارس ، والعراق وإيران كانا تحت حكم واحد .

يروى عن عائشة أنها قالت : «كان لسلمان مجلس من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله»[٨٤] . وروي عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي قال : «أمرني ربي بحب أربعة ، وأخبرني أنه سبحانه يحبهم : علي ، وأبو ذر ، والمقداد وسلمان»[٨٥] .

فربما كانت هذه العلاقة سبباً في ورود شيء من اعتقادات المندائيين في الإسلام . فهم أول الأحناف ، وأن إبراهيم الخليل أحد الكبار في الدين المندائي ، ولعل تسمية الإسلام لها جذر مندائي . فقد ورد في أحد أدعيتهم أو صلاتهم «يا شلماني وامهيمنى . . يا امهيمنى وشلماني . . لا تيفخون من مملا لخون»[٨٦] ، ومعناها : «أيها المسلمون المؤمنون ، وأيها المؤمنون والمسلمون ، لا تتراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه» ، و«طوبى لعباد الحق المسلمين المؤمنين . . . طوبى للمسلمين المبتعدين عن السوء»[٨٧] .

عبارات عديدة أخرى تضمنت مفردة المسلم أو المسلمين . وبالتالي لا أجد سبباً يمنع من إشارة الآية : «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٨٨] إلى مندائية إبراهيم الخليل أو برهم الملاك حسب التعبير المندائي . ورغم أن هادي العلوي لم يشر إلى صلة لسلمان بالمندائيين ، وأكد ما جاء في سيرة سلمان أنه كان مجوسياً ثم مسيحياً ، إلا أنه بلا قصد أعطى إشارة إلى تلك الصلة ، وهو ما يتعلق بالموقف

---

(٨٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢ ص ٢١٧ . غير أن آخرين ذكروا اسم سلمان الفارسي بـ(روزبه) راجع العلوي ، شخصيات غير قلقة في الإسلام ، ص ١٥ .

(٨٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ٢ ص ٦٣٦ .

(٨٥) المصدر نفسه .

(٨٦) برغجي ، الصابئة المندائيون ، ص ٤٢ .

(٨٧) مراني ، مفاهيم صابئية مندائية ، ص ٢٤ . ترجمة عن النسخة الألمانية للكنزا ربا ، إلا أن الترجمة العربية (بغداد ٢٠٠٠) حورت العبارة إلى «الكاملون المؤمنون» .

(٨٨) سورة آل عمران ، ٦٧ .

من الكنز ، يفهم ذلك من قوله : «كنت رجحت في دراستي لمسألة تحريم الاكتناز أنها وقعت بتأثير من سلمان»[٨٩] . فكان سلمان لا يسكن بدار ، ويأكل من عمل يده بسف الخوص[٩٠] مع أنه كان أمير المدائن . وقد يعزز هذا الرأي أخبار زهد سلمان الفارسي المتماثل مع زهد كهنة المندائيين .

ورد تحريم الاكتناز في الآية : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[٩١] . وتعد سورة التوبة أو براءة ، التي وردت فيها أية الكنز ، من أشد السور تهديداً ووعيداً ، وهي السورة الوحيدة التي لم تستهل بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» . وحين سُئل الإمام علي بن أبي طالب عن السبب قال : «لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف»[٩٢] .

وبالمقابل هناك أكثر من نص ورد في «الكنزاربا» يحرم الكنز . منها : «وأن حُب الذهب والفضة وجمع الأموال صاحبه يموت ميتتين في موت واحد»[٩٣] ، و«لقد ولعت بالفضة والذهب فألقيا بك في لجة اللهب»[٩٤] ، و«لقد شغلني ذهبي . . وشغلتني فضتي ، ذهبي رماني في الجحيم وفضتي أسكنتني في ظلام بهيم ، وحليَ ومرجاني . . آليت أن يصادقاني . . فأي شر علماني»[٩٥] .

فسر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تسمية الصابئين ، حسب ما ورد في الآية (٦٢) من سورة «البقرة» بكلام طويل نلخصه بالآتي :

١- أنهم ليسوا يهوداً ، ولا نصارى ، ولا دين لهم .

٢ - منزلتهم بين المجوس واليهود . ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

٣ - أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله . وهذا خلاف ما أضافه الرواة إلى حديث سلمان الفارسي مع النبي محمد ، من أن قومه يؤمنون برسالته ونبوته .

---

(٨٩) العلوي ، شخصيات غير قلقة في الإسلام ، ص ١٩ .
(٩٠) ابن عبد البر ، الاستيعاب ٢ ص ٦٣٥ .
(٩١) سورة التوبة أو براءة ، ٣٤ - ٣٥ .
(٩٢) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ١ ص ١٤٢ .
(٩٣) كنزاربا اليمين ، ص ٢٦٤ .
(٩٤) كنزاربا اليسار ، ص ١٢٧ .
(٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

٤ - يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، ويصلون الخمس .

٥ - فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور .

٦ - قبيلة من نحو السواد ليسوا بمجوس ، ولا يهود ، ولا نصارى[٩٦] .

وما يخص الموصل فلعل المقصودين كانوا الأيزيديين ، فهم يقولون : لا إله إلا الله ، ولم يقروا بنبوة محمد . وقبل أن يحل فيهم الشيخ عدي بن مسافر الذي أدخل إلى دينهم ما أدخل من عقائد جديدة . وما يخص قراءة الصابئة للزبور فهي ما زالت شائعة بين العراقيين ، رغم عدم صحتها ، فهو من كتب اليهود ، جاء ضمن العهد القديم من الكتاب المقدس ، وورد تحت اسم «سفر المزامير» ، أو التسابيح عددها مئة وخمسون مزموراً ، لا علاقة لها بالصابئة المندائيين . يضاف إلى ذلك أن الزبور يعني الكتاب ، وكتاب الصابئة زبور «الكنزاربا» ، لا الزبور الذي غلب اسمه على مزامير داوود .

ليس بين النقاط التي أتى بها الطبري ، عن الإخباريين والمفسرين السابقين ، ما يشير إلى المندائيين الحاليين غير النقطة السادسة (قبيلة من نحو السواد ، ليسوا بالمجوس ولا اليهود ولا النصارى) . إن الجهل في تاريخ هذا الدين ، بسبب باطنيته ، جعل الطبري ينقل عن المفسر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ) عن سفيان الثوري : «الصابئون قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين»[٩٧] . ولا نعتقد في الشرق ، منبع الأديان ، هناك قوم لا دين لهم! . ومَنْ يطلع على كتاب «الكنزاربا» ، وترجمات كتب المندائيين الأخرى مثل «ديوان أباثر» ، ورسوم الأفلاك ، والكائنات النورانية قد يعذر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) على الشطر الأخير من عبارته التالية : «قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة»[٩٨] .

ويذكر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) والشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) على لسان يزيد بن أنيسة الخارجي «أن الله عزَّ وجلَّ يبعث رسولاً من العجم . وينزل عليه كتاباً من السماء . وينسخ بشرعهِ شريعة محمد ، صلى الله عليه وسلم . وزعم أن أتباع ذلك النبي المنتظر الصابئون المذكورون في القرآن . فأما المسمون بالصابئة من أهل واسط وحرّان فما هم الصابئون المذكورون في القرآن»[٩٩] . تفصح هذه الرواية عن غموض أمر الصابئة عند الأولين إلى درجة أن يفكر أحدهم ببعثهم بعد إندثار وهم موجودون . لكن ما ذا يعني النص القرآني وفصله في الأديان (سورة البقرة والمائدة والحج) إذا كان لا يعني قوماً موجودين؟ هذا من جانب ، ومن

---

(٩٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن ٢ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٩٧) الصنعاني ، تفسير القرآن ١ ص ٤٧ .

(٩٨) الزمخشري ، الكشاف ١ ص ٢٨٥

(٩٩) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٢٦٣ ، الملل والنحل ١ ص ٣٦ .

جانب آخر أن البغدادي والشهرستاني يذكران ذلك لابن أنيسة الخارجي كمخالفة وشذوذ ، وهما يعنيان أن صابئة واسط وحران هم المذكورون في القرآن .

إن غموض تسمية الصابئة وأحوالهم الدينية كان سببه ، كما أسلفنا ، باطنية أو سرية الطقوس والنصوص ، وهم قوم اعتادوا العيش تحت الاضطهاد من قبل الأديان الثلاثة . أشارت كثرة النصوص المندائية ضد اليهود إلى عذاباتهم من أهل هذا الدين ، المجاور لهم ببابل[100] . كما اعتبرتهم المسيحية نصارى منحرفين لابد من ارجاعهم إلى الجادة الصحيحة! وأصدر فقهاء المسلمين فتاوى قتل جماعي بحقهم ، أبرزها فتوى محتسب بغداد والقاضي والفقيه أبي سعيد الحسن بن يزيد الأصطخري (ت٣٢٨هـ) أيام القاهر بالله العباسي . روى الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في سياق ترجمة الأصطخري : «أفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى . وأنهم يعبدون الكواكب . فعزم الخليفة على ذلك ، حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له قدر فكف عنهم»[101] .

ذكرت فتوى القتل في المصادر الإسلامية الأخرى التي ترجمت لحياة الأصطخري ، ومنها «سير أعلام النبلاء» لشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، وكان المفتي بالقتل من أبرز فقهاء عصره ، يعرف بفقيه العراق ، وتولى حسبة بغداد ، فأحرق مكان الملاهي ، وكان شافعي المذهب . وجاء في رسالة رئيس ديوان الجوالي ، محمد بن يحيى بن فضلان (ت٦٣١هـ) ، الخاصة بأهل الذمة إلى الناصر بالله العباسي ، فقرة تذكر بفتوى الأصطخري في الصابئة والحث على تطبيقها : «الصابئة قوم من عبدة الكواكب ، يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة) لا ذمة لهم ، وكان في قديم الزمان لهم ذمة ، فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الاصطخري ، من أصحاب الشافعي ، في حقهم ، فأفتاه بإراقة دمائهم ، وأن لا تقبل منهم الجزية ، فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار ، فأمسك عنهم ، وهم اليوم لا جزية عليهم ، ولا يؤخذ منهم شيء ، وهم في حكم المسلمين والأمر أعلى»[102] .

أفتى الأصخري بإراقة دماء الصابئة رغم أن إمامه ومؤسس مذهبه الإمام الشافعي قال في باب الجزية : «الصابئون والسامرة مثلهم يؤخذ من جميعهم الجزية . ولا تؤخذ الجزية من أهل الأوثان . ولا ممن عبد ما استحسن من غير أهل الكتاب»[103] . وأخذ الجزية من أهل دين

---

(١٠٠) الكنزاربا (طبعة استراليا) ملحق ، كلمة عن الدين المندائي لليدزبارسكي ، ص ٦٨٠ .

(١٠١) البغدادي ، تاريخ بغداد٧ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ . لكن الأصطخري الذي أفتى بما ليس من فقه الشافعي قال له القاضي أبو العباس ابن سريج وهما في مناظرة : «أنت سألت عن مسألة فأخطأت فيها ، وأنت رجل كثرة أكل الباقلاء قد ذهبت بدماغك»(المصدر نفسه ٧ ص ٢٦٩) .

(١٠٢) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٧٠ ، سيأتي نص الرسالة في الفصل الخاص بالمسيحية .

(١٠٣) الشافعي ، كتاب الأم٩ ص ٢٩٣ .

ما يعني حرمة دمائهم . والأصطخري بفتواه خالف القرآن أولاً ، ثم خالف إمام مذهبه! ويصعب الاعتقاد أن الصابئة عبدوا الكواكب وكتابهم يقول : «باسم الحي العظيم ، أشرق نور الحي ، وتجلى منداهيي بأنواره ، فأضاء جميع الأكوان ، حطم ألوهية الكواكب ، وأزال أسيادها من مواقعهم»(١٠٤) . وكيف عبد المندائيون الأصنام والأوثان وكتابهم يقول : «من يقدم الضحايا والقرابين تعقد خطاه في جبل الظلام (جهنم) ، فلا يرى نور الله . أما من آمن وأتقى فله من النور مرتقى حتى يبلغ بلد النور»(١٠٥)؟ وهم قبل أن يأمر الأصطخري باجتناب الخمور نهوا عن شربها بالقول : «وليعلموا أن الخمرة يوضع شاربها في قيود وأقفال ، وتثقل عليه السلاسل والأغلال»(١٠٦) .

وإذ أجاز الأصطخري ، كشافعي ، أخذ الجزية من المجوس لما ورد عن الرسول أنه أخذها من أهل البحرين ، وهم مجوس بشهادة عبد الرحمن بن عوف ، ثم أخذها عمر منهم ، فإن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، وهو حنبلي المذهب ، قال : «الصابئة أحسن حالاً من المجوس ، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأَوْلى ، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً ، ولا يتمسكون بكتاب ، ولا ينتمون إلى ملة ، ولا يثبت لهم كتاب ولا شبه كتاب»(١٠٧) . وهذا اعتراف ضمني من فقيه حنبلي كبير في المذهب ، وتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٦هـ) ، بكتاب أو شبه كتاب للصابئة . يضاف إلى ذلك أن الفقه الحنفي فضل الصابئة على المجوس في الزواج . جاء في «المختار على مذهب النعمان» : «يجوز تزويج الكتابيات والصابيات ولا يجوز تزويج المجوسيات والوثنيات»(١٠٨) .

صدرت فتوى القتل المذكورة ، في القرن الرابع الهجري ، بعد أن أجاز الفقه الحنفي ، ممثلاً بقاضي القضاة أبي يوسف (ت ١٨٢هـ) ، في القرن الثاني الهجري التعامل مع الصابئة بأخذ الجزية منهم أسوة بـ «جميع أهل الشرك من المجوس ، وعبدة الأوثان ، وعبدة النيران والحجارة (من غير العرب) ، والسامرة»(١٠٩) . ورأي الإمام أبي حنيفة النعمان فيهم «أنهم ليسوا بعبدة أوثان ، وإنما يعظمون النجوم كما نعظم الكعبة»(١١٠) .

ويشترط أبو علي الماوردي الشافعي (ت٤٥٠هـ) في أخذ الجزية منهم «إذا وافقوا اليهود

---

(١٠٤) الكنزاربا اليمين ، ص ١١٧ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(١٠٧) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٠٨) مخطوط كتاب متن المختار على مذهب النعمان أبي حنيفة . جامعة هارفرد ، MS Arab 13 (14) .

(١٠٩) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٨ .

(١١٠) الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن ١ ص ٢٧٩ .

والنصارى في أصل معتقدهم ، وإن خالفوه في فروعه»[١١١] . وكم يبدو هذا الحكم في الصابئة مخالفاً للقرآن! فالقرآن ذكرهم كأهل دين مثلما ذكر اليهود والنصارى ، ولم يشترط موافقتهم لهذا الدين أو ذاك . ومَنْ يدرس كتاب المندائيين «الكنزاربا» ، ويقارنه بصوص القرآن ، ويدرس فقههم ويقارنه بلفقه الإسلامي سيجد الموافقة واضحة بين الديانتين . يضاف إلى ذلك كان الماوردي من أهل البصرة ، حيث موطن الصابئة ، ومعاينته لدينهم عن قُرب قد تبعده من الاعتماد على النصوص في شأنهم ، وبالتأكيد ستختلف فتواه فيهم .

لكن النصوص تحكم الفقهاء في الغالب ، فلا يهتمون بالواقع المعاش الذي قد يؤدي بهم إلى قاعدة صحيحة سار عليها بعض الفقهاء ، وهي تغليب المصلحة على النص . لذا لم يكلف أبو يوسف ، ولا الأصطخري ، ولا الماوردي وغيرهم أنفسهم ليحاولوا استقصاء حقيقة هذا الدين من كاهن أو خبير من أهله ، بدلاً من أعتبار أتباعه مشركين مجازين ، أو يصدرون فيهم حكم القتل ، أو تشترط عليهم موافقة اليهود والنصارى . هذه أهم آراء ومواقف الأقدمين ، ولنرَ ما قاله فيهم المعاصرون .

قال أبو الثناء محمود الآلوسي في «روح المعاني» : «وقيل هم موحدون يعتقدون تأثير النجوم»[١١٢] . ويرى محمد الحسيني الشيرازي «فيهم غموض وخلاف ، وربما قيل عبدة نجوم»[١١٣] . ويرى محمد حسين الطباطبائي أن عقيدتهم مزيج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرانية . ولعل الطباطبائي أول المحدثين من فقهاء المسلمين ميز بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين ، وأكد أسباب نزول الآية (٦٢) من سورة البقرة في ديانة سلمان الفارسي السابقة[١١٤] . ومع ذلك لم يأت الطباطبائي ، رغم بحثه المطول فيهم ، بشيء جديد على ما ورد في كتب الأقدمين .

ويعد محمد حسين فضل الله ، عن مؤرخين وكتاب مهتمين ، الصابئة فرقتين هما : المنديا ، أو نصارى يوحنا المعمدان ، وصابئة حران الوثنيين . ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى مثل بحث «الصابئة المندائيون» لليدي دراوور ، إلى أن «الصابئة الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا . ولا شك في أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري (ص ب أ) أي غطس ، ثم سقطت الغين ، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين»[١١٥] .

---

(١١١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ .

(١١٢) الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن ١ ص ٢٧٩ .

(١١٣) الشيرازي ، تقريب القرآن إلى الأذهان ١ ص ٧٨ .

(١١٤) الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ١ ص ١٩٦ .

(١١٥) فضل الله ، من وحي القرآن ٢ ص ٦٩ . حسب ما ورد حول العلاقة بين مصطلح ناصورائي

ولعل آية الله فضل الله انفرد من بين علماء الدين والمفسرين بتحفظه على قبول نسخ الآيات التي ورد فيها اسم الصابئة بالآية : «ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»[١١٦] . قال : «نتحفظ على هذا الجواب ، لأن مدلول هذه الآية لا يتنافى مع مدلول تلك ، حتى نفرض نسخ الثانية للأولى . لأن الظاهر إرادة الإسلام بمعناه المصطلح ، كما يلوح ذلك من صدرها ، وهو الالتقاء على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»[١١٧] . وهذا ما تقره الأديان المشار إليها في الآية جميعاً .

ويقترب محمد جواد مَغنيَة من الصواب بوصفه الصابئيين : «قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء . ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير والشر ، والصحة والمرض . ومنهم طائفة في العراق الآن»[١١٨] . وعلى خلاف مَنْ اشتق تسمية الصابئة من صبأ العبرانية أي غطس وتوضأ ، وجد مَغنيَة أن التسمية مشتقة من «صبأت النجوم أي طلعت» . ويعدهم بأقدم الأديان في التاريخ . ومن دون الإشارة إلى مصدر معلومته ، نجده قد أخذها من ابن قيم الجوزية الذي قال في اشتقاق تسمية الصابئة : «صبأت النجوم إذا طلعت وصبأ علينا فلان إذا طلع»[١١٩] . ولا يستبعد أنه اطلع أيضاً على سلسلة المقالات التي نشرها الأب انستاس الكرملي في مجلة «المشرق» (١٩٠٠ - ١٩٠١) ، وذهب فيها إلى اشتقاق تسميتهم من الضوء ، كما سلف .

وأفتى آية الله أبو القاسم الخوئي في أمر الصابئة المندائيين ، عندما استفتي في أمر رجل صابئي أشهر إسلامه معتنقاً المذهب الجعفري ، ثم طالبته زوجته الصابئية بالنفقة في إحدى المحاكم الشرعية ببغداد ، قال : «الصابئي كان من أهل الكتاب كما هو الظاهر»[١٢٠] . وطرح آية الله علي الخامنئي في رسالة نشرت (١٩٩٩) جملة أمور ايجابية

= المندائي ، الذي يعني الحافظ للقوانين والأوامر الدينية ، وبين نسبة الناصري التي عرف بها السيد المسيح بن مريم ، يبدو السيد المسيح هو الصابئي المندائي وليس العكس . إذ يقول الصابئيون انه كان صابئياً بعد تعميد يوحنا المعمدان له ، وفق الحديث الذي ورد في كتاب «دراشة اديهيا» (أحاديث يوحنا) . وعلى ضوء ماورد تكون «كلمة الناصري التي لقب بها المسيح مأخوذة من الناصيروية أي التبحر بعلم الكهانة» لا بلدة اسمها الناصرة! (غضبان رومي ، مجلة التراث الشعبي العدد ١٠/ ١٩٧٤ . وقيل كان المسيح ناصورائياً ثم خرج عن دينهم ، وهم المنداذيين . و«قاد الناس إلى دين آخر» (دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٤٢) .

(١١٦) سورة آل عمران ٨٥ .

(١١٧) فضل الله ، من وحي القرآن ٢ ص ٦٩ .

(١١٨) مغنية ، التفسير الكاشف ١ ص ١١٧ .

(١١٩) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص ٩٤ .

(١٢٠) رومي ، الصابئة ، ص ٥٣ .

بشأنهم . فلهم بإيران طائفة تعد بخمسة وعشرين ألف نسمة . لهذا نظر مرشد الدولة الإيرانية في أمرهم عن قرب ، باحثاً في كتبهم المترجمة إلى الفارسية والعربية . وربما كان أول فقيه لايعتمد النصوص الشرعية فقط ، ويطلع على كتبهم ويتابع ممارساتهم الدينية عن كثب . قال : «نتيجة البحث في النقطة الأولى : إن الأقوى والأظهر بحسب الأدلة أن الصابئين يعدّون من أهل الكتاب»[١٢١] .

ولأنه نظر في واقع هذا الدين ، لا فيما كتب وقيل ، نفى خامنئي أن يكون الصابئة ديانة متفرعة من الأديان الأخرى ، بل نظر إليها كديانة مستقلة . قال : «هل الصابئة يعدّون من شعب بعض الأديان الثلاثة : اليهود والنصارى والمجوس ، أو أنهم نحلة أخرى غير هؤلاء؟ والجواب على ذلك : قد علم من بعض ما ذكرنا في توضيح النقطة الأولى ، فلا دليل على ما قيل ، وقد مضى ما نقلناه من كلمات بعض الفقهاء ، من أنهم شعبة من اليهود ، أو أنهم مجوسيون ، وأمثال ذلك مما نقله في الجواهر عن غير واحد من الفقهاء كالشافعي ، وابن حنبل ، والسدي ، ومالك وغيرهم ، بل لعل مقتضى ما ذكرنا الجزم بخلافه»[١٢٢] .

ولعل الخامنئي في كلمته التالية قدم نقداً غير مباشر للفقهاء ، من الذين لم ينظروا في أمر هذا الدين ، وهو حي بينهم . قال : «الحق الذي ينبغي الاعتراف به هو أننا لا نعرف من المعارف والأحكام الدينية لهذه النحلة التاريخية ، والتي أصبح المنتمون إليها موجودين بين أيدينا وفي عقر بلادنا ، شيئاً كثيراً تسكن النفس بملاحظته إلى معرفة أصحابها ، والباحث في هذا الموضوع يجد في حقل البحث الموضوعي فيه فراغاً كبيراً لم يسدّ مع الأسف»[١٢٣] . وبعد الاطلاع على ما نشر من «درفش» (تعني الراية المندائية ، وهي اسم لصحيفة أو نشرة مندائية بإيران) قال الخامنئي : «فمن جملة عقائدهم التي يدعونها ويصرون عليها التوحيد»[١٢٤] . إن ما أكده مرشد الدولة الإيرانية في حكم الصابئة المندائيين هو «أن في عقائدهم جملة من العقائد التوحيدية الحقة المقبولة ، وزمرة من الأباطيل المنافية للعقيدة التوحيدية الخالصة»[١٢٥] . ويعني بالأباطيل المنافية للتوحيد الخالص هو «اعتقادهم بما يسمى منداهيي الذي يقولون عنه بأنه أول مَنْ سبح الله تعالى وحمده . وأنه أحد الملائكة المقربين ويقرنون اسمه في بعض البوثات (الآيات) باسم الربّ تعالى . ومن ذلك ما يرى التوسل

---

(١٢١) الخامنئي ، الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية ، ص ٤٠ .

(١٢٢) المصدر نفسه . ويعني بالجواهر موسوعة «جواهر الكلام» للنجفي .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(١٢٤) المصدر نفسه .

(١٢٥) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

بالملائكة الذين يسمونهم بأسماء عندهم، ويعتبرونهم من المقربين. ويذكرون آدم ويحيى عليه السلام في عداد الملائكة. ويسلمون على الأنهار المقدسة، والأماكن المقدسة، وعلى الحياة، وسكان عالم الأنوار، وغير ذلك»[١٢٦].

كل ما قاله آية الله علي الخامنئي في أمر الصابئة كان صحيحاً، لكنه ربما لم يسمع منهم تأويلاً لعلاقتهم بالماء الحي، وتعريفهم لعالم النور، وأي دين يخلو مما لدى الصابئة من العلاقة بالماء والضياء؟ فهم إذ يجعلون للماء منزلة في طقوسهم كوسيلة للعبادة، لا يسلمون على الأنهار، وإنما يذكرون الحي القديم، وهم يغطسون في النهر. وقد لا ينفصل اهتمام آية الله خامنئي بالصابئة المندائيين عن مهامه كمرشد لدولة يقطنها المسلم، والمسيحي، واليهودي، والمندائي، والزرادشتي، والبهائي. وهو بهذا تفوق على سلفه آية اللّه الخميني في معاملة أهل الكتاب والأديان الأخرى. فالخميني لم يعترف بكتاب أو شبه كتاب للصابئة. يفهم ذلك من حكمه في ما يخص الجزية. قال: «تؤخذ الجزية من اليهود والنصارى من أهل الكتاب، ومَنْ له شبه كتاب، وهم المجوس»[١٢٧]. ونطق بالحكم التالي، وهو ما يهدد وجود الصابئة في أي وقت من الأوقات: «فلا يقبل من غير الطوائف الثلاث إلا الإسلام أو القتل، وكذا لا تقبل ممَنْ تهود، أو تمجس بعد نسخ كتبهم بالإسلام. فمَنْ دخل في الطوائف حربي سواء كان مشركاً أو من سائر الفرق الباطلة»[١٢٨]. فالزرادشتيون بإيران يظهرون في المجالس الرسمية بثيابهم البيضاء الناصعة، بينما ليس هناك حقوق مكتوبة للصابئة المندائية.

ورغم ايجابية ماذهب إليه آية الله علي خامنئي في الدين المندائي إلا أن الدستور الإيراني في ظل الجمهورية الإسلامية، تضمن حكم آية الله الخميني في أحوال الأديان الأخرى، ولم يعترف بالصابئة مثل اعترافه بالزرادشتية أو المجوس. جاء في المادة الثالثة عشرة من الدستور «الإيرانيون الزرادشت واليهود والمسيحيون هم وحدهم الأقليات الدينية المعترف بها، وتتمتع بالحرية في أداء مراسمها الدينية ضمن نطاق القانون. ولها أن تعمل وفق قواعدها في الأحوال الشخصية والتعاليم الدينية»[١٢٩].

يتبين مما تقدم أن التعامل بهذه الطريقة مع ديانة قديمة بالمنطقة تعرض أدوات الفقيه، ومستوى علمه وحرصه على الحقيقة للمسائلة. فالغالب من الفقهاء استخدم أداة التاريخ

---

(١٢٦) المصدر نفسه.

(١٢٧) الخميني، تحرير الوسيلة ٢ ص ٤٤٨.

(١٢٨) المصدر نفسه.

(١٢٩) دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية، المركز الثقافي للجمهورية، ص ٤٤.

المكتوب ورواية الحديث، وترك الواقع المعاش. ولم ينته الأمر عند الفقهاء القدماء بل تواتر إلى المعاصرين، رغم كثرة الدراسات وتبدل أحوال المعرفة. إلا أنهم ظلوا يجهلون أمر الصابئة. بداية من صاحب أكبر موسوعة فقهية «جواهر الكلام» النجفي، من أعلام القرن التاسع عشر، وانتهاء بالفقهاء المعاصرين. فماعدا فتوى الإمام الخوئي، ورسالة لمرشد الدولة الإيرانية آية الله خامنئي لم نجد شيئاً مفيداً حول التعامل مع أهل هذا الدين. على الرغم من أن معتنقيه أكثر اختلاطاً بالمذهب الشيعي بجنوب العراق من غيرهم من أهل الأديان والمذاهب الأخرى. وكانوا سبباً في معاش المنطقة، فهم لفترة طويلة كانوا منتجي وسائل الإنتاج، من أدوات الصيد والزراعة والنقل.

مؤرخو الإسلام

كان الجهل والتجاهل، القديم الحديث بأمر الصابئة، والسكوت عما شاع حول نجاستهم بين العامة بجنوب العراق، رغم ذكرهم في القرآن أسوة بالذين آمنوا، وأهل الكتاب. وعلى الرغم من الصداقة الروحية، التي كان يضرب فيها المثل، بين جامع «نهج البلاغة» ونقيب الطالبيين وتلميذ الشيخ المفيد الشريف محمد حسين الرضي (ت ٤٠٦هـ) وبين الصابئي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤هـ)، وأخبارهما التي ملأت صفحات التاريخ والأدب، ورسائلهما الوجدانية قد استغرقت كتاباً، صدر بعنوان «رسائل الصابئ والشريف الرضي». كانت أشهر قصائد الشريف الرضي في رثاء إبراهيم الصابئ، التي استغرقت ثمانين بيتاً، ومطلعها المشهور:

أعلمتَ مَنْ حملوا على الأعوادِ

أرأيت كيف خبا ضياء النادي[١٣٠]

وإذ كانت عاطفة الشريف الرضي تجاه صديقه الأثير إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابئ، ندية كما جسدها في قصيدته المذكورة كان أخوه الشريف المرتضى من خشونة الجانب أن رد على «أعلمت مَنْ حملوا على الأعواد» بالقول: «نعم علمنا أنهم حملوا على الأعواد كلباً كافراً صابئاً عجلَ به إلى نار جهنم»[١٣١]. وعلى هذا تُقاس الهوة الروحية بين الأخوين الشريفين. ومن أبيات الرضي ذات الوجد العميق، التي وردت في قصيدته، وليكن اسمها «الصابئية»:

---

(١٣٠) نجم، رسائل الصابئ والشريف الرضي، ص ٤٥ - ٥٥.

(١٣١) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٥٥.

مـا مات مَنْ جعل الزمان لسانه يتــلـو مناقـبَ عُـوَّداً وبـوادي
فأذهـب كما ذهب الربيع وإثره بــاقٍ بـكــلِ خمـائـلٍ ونجـادِ

وكتب الرضي معاتباً إلى بعض أصدقائه ، عقب وفاة أبي إسحاق ، شاكياً له ما لحقه من وجد وقلق بسبب فقده : «بلاغي بما لا أقوم له من أليم قطيعته . والأولى صفته معي في الصديق الصادق . والحميم الموافق أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ . فإنه كما لم يغير لي وده في حياته رماني بالخطب الجليل من وفاته . وانتزعه من يدي على حين انضمامها على إخائه»[١٣٢] . وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال كان كاتباً ثقة عند البويهيين الشيعة ، وصنف كتاباً في تاريخهم تحت عنوان «التاجي» . ولم يسلم من غضبهم ، كما سترد الإشارة في حينه . وتحايل البويهيون على إبراهيم بن هلال أن يعلن إسلامه ليولوه منصب الوزارة لفضله ومنزلته ، لكنه امتنع[١٣٣] .

ظل طيف الصداقة بين الرضي والصابئي حياً في ذاكر ة الأتباع حتى عصرنا الحاضر . أخبرني السيد محمد بحر العلوم ، وهو ينتسب لأسرة دينية وأدبية نجفية عريقة أن صداقة وطيدة بين والده السيد علي بحر العلوم والشيخ الصابئي أبي بشير عنيسي دامت حتى وفاتهما ، يوم كانت لبحر العلوم أراضٍ وقفية بالعمارة . وعندما سأله الآخرون ، بين منتقد ومستفسر ، عن سر الصداقة مع شيخ صابئي أجاب مذكراً بما بين الرضي والصابئي[١٣٤] :

بيـني وبـين أبي بشير صـداقـة
تبـقى مـدى الأيـام والأحقـاب
إنـي لأرجـو الـود يبقـى بيننـا
كـوداد سيـدنا الرضي والصـابي

وكتب ابن أبي أصيبعة في ترجمة صابئي آخر له منزلة كبيرة عند أهل الأمر ، هو ثابت بن قرة الحراني : «هو أصل ما تجدد للصابئة من الرئاسة في مدينة السلام»[١٣٥] . وكان طبيباً من خاصة المعتضد ، يمشي معه للرياضة بالفردوس ، وهو بستان داخل دار الخلافة . وقال ثابت في والده شيخ أطباء بغداد : «إنه لما كان في أول يوم من المحرم ، سنة ست وثلاثمائة ، فتح والدي سنان بن ثابت بيمارستان السيدة (شغب أم المقتدر) ، الذي اتخذه لها بسوق يحيى ، وجلس فيه ورتب المتطببين ، وقبل المرضى ، وكان بناه على دجلة . وكانت

---

(١٣٢) نجم ، رسائل الصابئ والشريف الرضي ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(١٣٣) ترتون ، أهل الذمة في الإسلام ، ص ١٨٠ .
(١٣٤) لقاء مع السيد محمد بحر العلوم في مؤسسة آل البيت بلندن ، نوفمبر ١٩٩٩ .
(١٣٥) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص ١٩٩ .

النفقة عليه في الشهر ستمائة دينار . قال : وفي هذه السنة أيضاً أشار والدي على المقتدر بالله بأن يتخذ بيمارستاناً ينسب إليه ، فأمره باتخاذه ، فاتخذه في باب الشام ، وسماه البيمارستان المقتدري ، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار . ولما كان في سنة تسع عشرة وثلاثمائة إتصل المقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة ، من بعض المتطببين ، فمات الرجل ، فأمر إبراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا مَنْ امتحنه والدي ، سنان بن ثابت . وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فصاروا إلى والدي وامتحنهم ، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه ، وبلغ عددهم جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً ، سوى مَنْ استغنى عن مهنته باشتهاره بالتقدم في صناعته ، وسوى من كان في خدمة السلطان»[١٣٦] .

ولم يكن سنان بن ثابت طبيباً فقط بل كان من رجاحة العقل والرأي أن بعث له أمير واسط ، بعد وفاة الراضي بالله ، لتدبير بدنه وسلوكه . قال له : «أريد أن اعتمد عليك في تدبير بدني وتفقده ، والنظر في مصالحه . وفي أمر آخر هو أهم إليّ من أمر بدني ، وهو أمر أخلاقي ، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومحبتك ، فقد غمني غلبة الغضب ، والغيظ عليّ ، وإفراطهما بيّ ، حتى أخرج إلى ما أندم عليه عند سكونهما من ضرب وقتل»[١٣٧] .

فأين عاطفة الشريف الرضي ووجدانه تجاه مَنْ ظل محتفظاً بدينه الصابئي؟ وأين ثقة الخلفاء والأمراء في أطباء صابئين من فقهاء العصر ، الذين أفتوا خارج كتب الفقه بنجاسة الصابئة المندائيين ، وهم أهل دين ، الماء عندهم بعد الله وقبل النور؟ هذا وليس لدي معطيات تسمح ببحث العلاقة بين الرجلين خارج إطارها الإنساني . يذكر أن هناك إشارات وتلميحات في شعر الرضي تفيد في وجود منحى عرفاني لديه ، والصابئة بالأساس هم عرفانيون . وبالتالي قد تكتشف صلة فكرية بين عالمين مختلفي الديانة ، لكن ذلك هم آخر لا مجال للدخول فيه .

أتى المؤرخون المسلمون المندائيين الحاليين على تفاصيل أشارت إلى كتبهم ، وطقوسهم ، ومناطق تواجدهم بجنوب العراق ، حيث وفرة الماء الحي بمساحات شاسعة . قال الطبري مفسراً معنى الصحف الأولى : «نزلت على ابن آدم هبة الله ، وإدريس عليهما السلام»[١٣٨] . يُذكّر هذا بقصة معراج دنانوخت (إدريس) ، والكتب التي نزلت عليه ، ومعراجه إلى السماء السابعة ، كما ورد في «الكنزاربا» . وحسب الطبري كان «مُلك

---

(١٣٦) المصدر نفسه ٢ ص ٢٠٤ .

(١٣٧) المصدر نفسه .

(١٣٨) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ١ ص ١٧١ .

بيوراسب في عهد إدريس ، وقد وقع إليه كلام من كلام آدم ، صلوات الله عليه ، فاتخذه في ذلك الزمان سحراً . وكان بيوراسب يعمل به ، وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته ، أو أعجبته داية أو امرأة نفخ بقبضة له من الذهب»[١٣٩] . وبيوراسب «دعا إلى ملة الصابئين . . . وتبعه على ذلك الذين أُرسل إليهم نوح عليه السلام»[١٤٠] .

ويعد صابئتنا الحاليون كتابهم كتاب آدم . كما يعدون إدريس ونوحاً من عظمائهم . ويذكر المسعودي - غير الرواية الخاصة بالمندائيين الحاليين - أن الصابئة «تزعم أخنوخ بن يرد هرمس ، ومعنى هرمس عطارد ، وهو الذي أخبر الله في كتابه أنه رفعه مكاناً علياً ، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة . وهو أول مَنْ درز الدروز ، وخاط بالإبرة . وأُنزلت قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة . وأُنزلت على شيت تسع وعشرون صحيفة ، فيها تهليل وتسبيح»[١٤١] .

تقترب رواية المسعودي إلى حد كبير من قصة «الكنزاربا» . فأخنوخ بن يرد هو دنانوخت نفسه ، وهو هرمس ، وهرمس هو إدريس ، وهو الذي عرج إلى السماء السابعة المكان العلي ، ونزلت عليه الصحف فحفظها في غرفة مغلقة . ثم نزلت عليه ثمانية كتب أخرى ، لم يصح منها غير الكتاب الثامن . وورد معراج إدريس (دنانوخت) في القرآن الكريم ، وقصته واحدة من المتوافقات بين الكتابين ، جاء في الآية : «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبيّاً ، ورفعناه مكاناً عليا»[١٤٢] .

ويربط المسعودي (ت ٣٤٦هـ) بين الصابئة القدماء الحرانيين وبين المندائيين الحاليين ، ثم اختصاص الأخيرين باسم الكيماريين ، مشخصاً مؤسسهم الأول في الديار الهندية . قال : «رجل يقال له بوداسف أحدث مذهب الصابئة ، وقال : إن معالي الشرف الكامل والصلاح الشامل ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع ، وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات ، وهي التي برزوها من أفلاكها وقطعها مسافاتها ، واتصالها بنقطة ، وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم ، من آثار من امتداد الأعمار وقصرها ، وتركيب البسائط ، وانبساط المركبات ، وتتميم الصور ، وظهور المياه وفيضها ، وفي النجوم السيارة ، وفي أفلاكها التدبير الأعظم وغير ذلك . . . فاجتذب جماعة من ذوي الضعف في الآراء ، فيقال إن هذا الرجل أول مَنْ أظهر مذهب الصابئة من الحرانيين ، والكيماريين . وهذا النوع من الصابئة

---

(١٣٩) المصدر نفسه .

(١٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ - ١٧٩ .

(١٤١) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ١ ص ٤٣ .

(١٤٢) سورة مريم ٦٥-٧٥ .

مباينون للحرانيين في نحلتهم وديارهم بين واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام»[١٤٣].

وربما قصد المسعودي بقوله: «أعلى كهنتهم يسمى رأس كمري» درجة دينية عُرف بها كهنة المندائيين. وقد تقابل اليوم رئيس أمة أو ريش أمة، حسب اللفظ المندائي، وهو أعلى درجة دينية بين المندائيين الحاليين. وقد وردت لفظة الكمرا في كتاب «القلستا»، أو ترانيم الزواج عند المندائية. جاء في النص الديني: «ألكا كمرا: أنت الجوهرة الكاملة المختارة التي تخلو من العيوب»[١٤٤]. وكمر عند المندائيين كائن مقدس، أُثري من ملائكة النور، أو من مساعدي الملائكة، حسب الشروحات الواردة في «الكنزاربا». والمسعودي ينفرد في تسمية الصابئة المندائيين بالكيماريين، فلم نعثر على هذه التسمية عند الأخرين. ولربما سمعها من المندائيين أنفسهم. خلا ذلك، فكلمة كماريم وردت في «قاموس الكتاب المقدس»[١٤٥]. وتعني «كهنة الألهة الكاذبة» و«كهنة الأصنام»، أو «كهنة عجول بيت أوان». والجملة الأخيرة، حسب «نبوءة صفينا» من العهد القديم تعني السامرة، وهم فرقة يهودية تخالف اليهود في أمور عديدة. أما الجملتان الأخيرتان فتعني الصابئة، لإنهم حسب العرف اليهودي عبدة أصنام.

ومن الفائدة أن نأتي على متعلقات تسمية الكيماريين الأخرى، وأولها ما يتعلق بالختان أو الطهور. وبالتالي أنت مصحفة من كلمة كَمرة وتعني رأس الذكر، و«المكمور مَنْ أصاب الخاتن كمرته»[١٤٦]. وإن صح ذلك فالتسمية واحدة من مسميات الأضداد، مثلما يدعى القبيح بالجميل. فالمعروف عن الصابئة أنهم يحرمون الختان لأسباب تتعلق بتقديس ما خلقه الله. أو تتعلق التسمية بالستر والاخفاء، والمندائيون لا يشهرون طقوسهم، فهم ديانة أقرب إلى السرية. ومن معاني الكمر الغطاء والستر. أو لها صلة بالشعر والصابئة يشددون على عدم حلاقته، ومن معانيها أيضاً منطقة من الشعر، وهي فارسية. كل هذه الاحتمالات تحضر عند تفسير ما أتى به المسعودي من تسمية لم يألفها حتى الصابئة أنفسهم. لكن لا يستبعد أنه سمع باسم الملاك كمرا من أحد كهنتهم، أو بما نُعت به كهنتهم من قِبل اليهود.

سمى أبو فرج النديم (ت ٤٣٨هـ)[١٤٧] المندائية بالمغتسلة، وهو أقرب الأسماء تعبيراً

---

(١٤٣) المسعودي، مروج الذهب ١ ص ٢٦٣.

(١٤٤) كتاب القلستا، ترانيم الزواج المندائية، ص ١ و ٢٦.

(١٤٥) قاموس الكتاب المقدس، ص ٧٨٧.

(١٤٦) الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ص ٤٧١.

(١٤٧) صنف النديم «الفهرست» العام ٣٧٧هـ، وقد أخطأتَ، نقلاً عن آخرين، في جعل هذا التاريخ أو بحدوده تاريخاً لوفاته، كما حصل في كتبي السابقة: «مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة»،

عن طريقة طقوسهم . قال : «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح (الأهوار) وهم صابئة البطائح . يقولون بالاغتسال ، ويغسلون جميع ما يأكلونه»[148] . وقال في عقائدهم : إنهم «على مذاهب النبط القديم ، يعظمون النجوم ، ولهم أمثلة وأصنام ، وهم عامة الصابة (هكذا وردت) المعروفين بالحرانيين . وقيل إنهم غيرهم جملة وتفصيلاً»[149] . وفي العبارة الأخيرة تراجع النديم عن الخلط بين الحرانيين والصابئة المندائيين رغم أنه نقل قصة عن أبي يوسف أيشع القطيعي النصراني أشارت إلى حادثة غريبة تؤرخ إلى سبب اتخاذ الحرانيين اسم الصابئة ، بعد أن خيرهم الخليفة عبد الله المأمون بين الإسلام أو الالتحاق بدين من الأديان الكتابية ، واختاروا الدين الصابئي لذكره في القرآن بناءً على نصحية أحد العارفين[150] .

أشار النديم إلى المندائيين ، لا عن قصد ، بالكشطيين ، ومعروف أن كلمة كشطا كلمة مندائية تعني العهد أو الحق ، تتكرر كثيراً في كتاب «الكنزاربا» ، وتأتي مركبة : مشوني كشطه . «أي الحق المتسامي ، وهو عالم مثالي وموطن الآدميين السماويين ، وفيه أشباه المخلوقات والأدوات الأرضية ، ويكون موقعه في الشمال من الكون ، حيث يقع عالم النور»[151] . جاء في مقالة الكشطيين : «إنه قبل كل شيء الحي العظيم ، فخلق من نفسه ابناً وسماه نجم الضياء ، ويسمونه الحي الثاني (لعله مندادهي) ، ويقولون بالقربان والهدايا والأشياء الحسنة»[152] ، ومفردة الحي العظيم مفردة مندائية أيضاً .

ويستبعد أن قصد النديم في تسمية ملة من الملل بـ«الرشيين» الملة المندائية ، مع كل اهتمامها بالماء الحي والظلام ، وتعلق التسمية برش الماء يوهم بهوية مندائية . قال الرشيون : «لم يكن غير الظلمة فقط . وكان في جوفها الماء ، الريح ، وفي الريح الرحم ، وفي الرحم المشيمة ، وفي المشيمة البيضة ، وفي البيضة الماء الحي ، وفي الماء الحي ابن الأحياء العظيم . وارتفع إلى العلو ، فخلق البريات والأشياء والسموات والآلهة»[153] ، و معلوم أن مفردة الماء الحي مفردة مندائية خالصة . اتفرد النديم في ذكر المندائيين بالتسميات الدالة عليهم ، مثل الرشيين والكشطيين ، مع الاختلاف في المقالات والعقائد . ومن الغرابة بمكان أن يتجاهل المؤرخون المسلمون تسمية المندائية ، على الرغم من أنهم ترجموا لحياة أكثر من شيخ مندائي

= «معتزلة البصرة وبغداد» و«جدل التنزيل» .

(148) المصدر نفسه ، ص ٤٠٣ .

(149) المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ .

(150) المصدر نفسه ، ص ٣٨٩ .

(151) نعيم بدوي ، الصابئة فلسفة وتاريخاً ، محاضرة ألقيت على طلبة قسم الدين في كلية الآداب - جامعة بغداد ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٧٥ .

(152) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٠٣ .

(153) المصدر نفسه ، ص ٤٠٣ .

تحول إلى الإسلام ليكون شيخاً في علومه، وظل يعرف بالمندائي أو ابن منده. منهم: المعروف بطواف الدنيا، لكثرة تجواله بين البلدان، أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن منده (ت ٣٩٥هـ). والطبيب أبو علي أحمد بن عبد الرحمن ابن مندويه (ت ٤٤٠هـ) صاحب «المختصر في علم الطب - الأبانة عن السبب الذي يولد في الأذن القرقرة». وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد، ومنده لقب جده الأعلى (ت ٤٧٥هـ). والشيخ أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار المندائي (ت ٦٠٥هـ)، ويعرف بمسند العراق وكان والده قاضياً[١٥٤]. والمندائية هي الاسم الصحيح لهذه الجماعة، وتتصل باسم الملاك منداده‌يي، وهو الأثري العارف الأول بالحي الأزلي. وتتصل بالمانا وتعني العقل. وتُعرف معابدهم بالمنديات، أو بيوت المندي. وبالتالي تعني مفردة المندائي: الموحد أو العارف بالله[١٥٥] عن طريق آثاره، وهذا هو معنى العرفاني أو الغنوصي (راجع باب العرفان في الفروق لأبي هلال العسكري).

ويذكر ابن النديم علاقة المندائية بالمانوية. وهي ديانة وفلسفة في آن واحد، ظهرت بالعراق في القرن الثالث الميلادي، إلا أنها ليست فارسية بحال من الأحوال. فمن أهدافها إقامة كنيسة بابل، وأن الوحي والاجتماع المانوي الرسمي لا يتم إلا ببابل، وأن مؤسسها ولد بالقرب من كُوثى البابلية[١٥٦]، المكان الذي أنتسب له علي بن أبي طالب. وتؤكد هذه العلاقة قدم المندائية بجنوب العراق حيث جداول المياه العذبة في الأهوار، وكان ماني قد قتل بالمدائن بعد محاكمة في حضرة بهرام الأول، بتحريض من فقهاء المجوس السنة (٢٧٦ميلادية).

بدأت المانوية بصوت سمعه والد ماني، ناداه من الهيكل قائلاً: «لا تأكل لحماً. ولا تشرب خمراً. ولا تنكح بشراً. تكرر ذلك عليه دفعات في ثلاثة أيام. فلما رأى فاتق ذلك لحق بقوم كانوا بنواحي دست ميسان (العمارة حالياً) معروفون بالمغتسلة، وبتيك النواحي والبطائح بقاياهم إلى وقتنا هذا (القرن الرابع الهجري). وكانوا على المذهب الذي أمر فاتق الدخول فيه. وكانت امرأته حاملاً بماني، فلما ولدته زعموا: كانت ترى له المنامات الحسنة، وكانت ترى في اليقظة كأن أحداً يأخذه، فيصعد به إلى الجو ثم يرده»[١٥٧]. وأخيراً، لا ندري إن كان اسم ماني مشتقاً من المانا المندائية، التي تفيد عدة معان، كل واحدة منها مناسبة لصفات الأنبياء، وهي: العقل، الوعاء، النفس، وقد تأتي بمعنىً ملاك ذي مرتبة سامية[١٥٨].

---

(١٥٤) راجع ابن عماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،وإسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين.

(١٥٥)مصطلحات كنزاربا، اليمين.

(١٥٦) البيروني ،الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٢٠٨.

(١٥٧) النديم، الفهرست، ص ٣٩٢.

(١٥٨) مصطلحات كنزاربا اليمين.

روى أبو الريحان البيروني (ت٤٤٠هـ) عن آخر: «إن هؤلاء الحرانية ليسوا الصابئة بالحقيقة، بل هم المسمون في الكتب بالحنفاء والوثنية. فإن الصابئة هم الذين تخلفوا ببابل من جملة الأسباط الناهضة في أيام كورش، وأيام أرطحشست إلى بيت المقدس، ومالوا إلى شرائع المجوس، فصبوا إلى دين بختنصر، فذهبوا مذهباً ممتزجاً من المجوسية واليهودية كالسامرة بالشام. وقد يوجد أكثرهم بواسط وسواد العراق بناحية جعفر والجامدة ونهري الصلة، منتمين إلى أنوش بن شيت، ومخالفين للحرانية عائبين مذاهبهم لا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة، حتى أنهم يتوجهون في الصلاة إلى جهة القطب الشمالي والحرانية إلى الجنوبية»[١٥٩].

ولرواية البيروني صلة بمندائيي اليوم، فقد ورد في كتاب «كنزاربا» فصل تحت عنوان «تساؤلات أنوش»، جاء فيه: «باسم الحي العظيم.. جالس في بلد الضياء، متطلع إلى الأرض والسماء، أنا أنوش الأمين بن شتيل (شيت) الأمين بن آدم الأمين ابن الملائكة ذوي الوقار، ابن بلد المعرفة والتسبيح والأنوار»[١٦٠]. غير أن البيروني، الذي نقل هذه المعلومة المهمة، كان قد اعتذر في كتاب آخر عن ذكر المندائيين. قال: «الصابئون في كتاب الله تعالى مقترنون بالذكر بالطوائف الذين قدمنا ذكرهم. فأما الكائنون بسواد العراق، حوالى قرى واسط، فما حصلت من أسبابها على شيء البتة»[١٦١].

ومن غير المؤرخين، كتب ابن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحت عنوان «خصاء الصابئة»: «وأما الصابئون، فإن العابد منهم ربما خصى نفسه، فهم في هذا الموضع قد تقدم الرومي، فيما اضطر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة بخصاء الولد التام، وبإدخاله النقص على النسل، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه، ويسمر عندهم ... وقد خصى نفسه من الصابئين رجال، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم»[١٦٢].

وإذا كانت معلومة الجاحظ تتعلق بالصابئة المندائيين فإنه أخطأ في نقله، أو تصوره عنهم. والصحيح أن عقيدتهم حرمت الجنة على مَنْ يعزف عن الزواج. ولا يولون عاقراً منصباً دينياً. فكيف يمارسون الخصاء؟ والبوثة (الآية) التالية من كتابهم المقدس تُغني عن الرد: «أيها العزاب أيتها العذارى، أيها الرجال العازفون عن النساء، أيتها النساء العازفات عن

---

(١٥٩) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص٢٠٦.

(١٦٠) الكنزاربا اليمين، الكتاب الرابع عشر، التسبيح الأول، ص٢٢٦.

(١٦١) البيروني، القانون المسعودي ١ ص ٢٦٧.

(١٦٢) الجاحظ، كتاب الحيوان ١ ص ٢٥.

الرجال : هل وقفتم على ساحل البحر يوماً؟ هل نظرتم إلى السمك كيف يسبح أزواجاً؟ هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم ، هل تأملتم الأشجار واقفة تشرب الماء على ضفافه وتثمر؟ فما بالكم لا تثمرون؟ وجاء في البوثة : «الرجال الزاهدون في النساء ، والنساء الزاهدات في الرجال كذلك يموتون ، ومصيرهم الظلام حين من أجسادهم يخرجون» . والبوثة : «أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور»[١٦٣] .

فهل تكفي رد قول الجاحظ في خصاء الصابئة بوثات(آيات) «الكنزاربا» الكثيرة في تقديس الصابئة للخصب؟ والجاحظ الذي انحدر من بيئة الصابئة المندائيين ، البصرة ، يروي أن غلاماً صابئياً سأل غلام شيخه إبراهيم بن سيار النظام عن علة تحريم الإسلام للخمر ، فأجاب لأنها تزيل العقل . قال الصابئي : ينبغي تحريم النوم فإنه يزيل العقل . قال الغلام المسلم : إنه قوت البدن . قال الصابئي : ليحرم ما فضل عن القوت[١٦٤] . يذكر هذا الحوار بانفتاح فكري عاشه الجاحظ وعاشه المندائيون ، يقطع فيه الصابئي المسلم وبمسألة دينية ، الجدل فيها محظوراً .

أثرت مقالة الصابئة المندائيين بالمحيط ، فحرم بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية الختان للسبب نفسه ، وهو عدم إنقاص ما خلق الله في الجسد . فقد شاع عن عبد الله بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب أنه شرع لأصحابه ، وهم جماعة من الشيعة ، «تحريم الختان ، وقال (ما قالته الصابئة) : إن المختتن راغب عن خلق الله ، ولولا الشعر والظفر ميتان ، وعلى الحي مفارقة الميت ما قلمنا ظفراً ، ولا أخففنا شعراً»[١٦٥] . أحسب صاحب هذه الفرقة ، إن صحت الرواية ، قد سمعها عن المندائيين ، فاتخذها للتفرد بمقالة مثيرة .

وكم كانت قصة صراع وانتصار هيبل زيوا المندائي على ملكة الظلام الروهة متجسدة في مقالة إحدى فرق الشيعة «أصحاب بن حرب» في محمد بن الحنفية ، يوم يخرج من البلد الأمين ، ويقضي على الجبابرة بسيف من شق صاعقة ، يكور به الشمس . «ثم يعود في عمق الأرض حتى إذا بلغ الماء الأسود والجو الأزرق ، صاح به صائح يسمع الثقلين (الجن والأنس) : قد شفيت قد شفيت ، فيمسك عند ذلك ويعود إلى البلد الأمين»[١٦٦] . ومعلوم ، أن الماء الأسود عند المندائيين هو مكان كائن الظلام الروهة في أسفل السافلين من طبقات الأرض ، والجو الأزرق هو لون ثيابها ، لذا يكره الدين المندائي ارتداء الثياب الزرقاء ، مثلهم مثل الأيزيدية .

---

(١٦٣) الكنزاربا اليمين ، الكتاب الثاني ، ص ٣٨ - ٣٩ .
(١٦٤) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص ٢٧٢ .
(١٦٥)الأشعري ، المقالات والفرق ، ص ٤١ .
(١٦٦) الأشعري ، المقالات والفرق ، ص ٣١ .

عدد نفوسهم

أشارت الإحصاءات بداية من جهود الرحالة البرتغاليين في القرن السابع عشر الميلادي وحتى العام ٢٠٠٠ ، إلى تذبذب كبير في عدد المندائيين ، ويعود ذلك إلى التقديرات غير الدقيقة من جهة ، ومن جهة أخرى إلى الاضطهادات والأوبئة التي أثرت في عددهم تأثيراً خطيراً . فعدوا العام ١٦٥٢ بـ (١٢٥٠٠٠) نسمة نقصوا العام ١٨٧٧ إلى أربعة آلاف نسمة . بينما ورد عددهم في النشرة الرسمية العثمانية لعام (١٨٩٨ - ١٨٩٩) بالبصرة والعمارة والناصرية فقط (٣٠٠٠) نسمة[١٦٧] . وعددهم بالعراق العام ١٩٢٧ (١٠٠٠٠) نسمة . وذكرهم الدليل العراقي الرسمي العام ١٩٣٦ بحوالى أربعين ألف نسمة . بينما ذكرهم عبد الرزاق الحسني في «العراق قديماً وحديثاً» اعتماداً على إحصاء ١٩٤٧ بحوالى (٦٣٦٨) نسمة . وبلغوا العام ١٩٥٧ ، حسب الإحصاء الرسمي ، (١١٨٢٥) نسمة . وبلغوا العام ١٩٦٥ ، حسب الإحصاء الرسمي أيضاً ، (١٤٥٧٢) نسمة[١٦٨] . وعدَّ نعيم بدوي الناشيء قومه بحوالى (١٥٠٠٠) نسمة[١٦٩] . وعدتهم ناجية مراني في «مفاهيم صابئية مندائية» بـ (١٨٠٠٠) نسمة . وفي مجلة «المجلة» (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦) ورد عددهم بعشرين ألف نسمة . وقيل إن عددهم حالياً بلغ مئة ألف نسمة : خمسون ألفاً منهم داخل العراق ، والخمسون الأخرون بإيران وبقية دول العالم[١٧٠] . وورد عددهم في تقرير مديرية الأمن العامة (داخل العراق فقط) في إحصاءات : (١٩٤٧ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧) على التوالي : (٦٥٩٧) ، (١١٤٢٥) ، (١٤,٢٦٢) ، (١٥٩٣٧) . وأكثر نسبة لهم ببغداد ثم البصرة ثم العمارة ثم الناصرية[١٧١] . ولا ندري من أين أتى سعد الدين إبراهيم بالرقم (١٥٠ ألف)[١٧٢] ، وهو يتحدث عن صابئة العراق فقط؟ وحتى لو جمع بهم صابئة الأهواز ما بلغوا هذا العدد .

وعلى رغم من وجود هذا العدد ، الكبير نسبياً ، والتاريخ الضارب في القدم إلا أن الدولة العثمانية «لم تعترف بهم كطائفة ، ولهذا فأنها قبلت من أفرادها البدل العسكري ، أسوة بالعثمانيين غير المسلمين»[١٧٣] . أما في ظل حكمي الاحتلال البريطاني والعهد الملكي

---

(١٦٧) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ١٣٠ .

(١٦٨) صالح فليح حسن ، الصابئة دراسة جغرافية ، مجلة كلية الأداب - جامعة بغداد ، ٢٥/١٩٧٥ .

(١٦٩) مجلة «آفاق عربية» ١٩٧٥/٤ .

(١٧٠) نزار ياسر صكر حيدر (رئيس مركز البحوث والدراسات المندائية ببغداد) العام ٢٠٠٠ ، مقابلة مع جريدة القدس ، أجراها شاكر نوري .

(١٧١) التوزيع الديني للسكان العراقيين ، مديرية الأمن العامة ، ص ٢٦ ، جدول رقم (٧) .

(١٧٢) إبراهيم ، الملل والنحل والأعراق ، ص ٨١ ، ٨٣ .

(١٧٣) حارث يوسف غنيمة ، الطوائف الدينية في القوانين العراقية ، مجلة بين النهرين ، ١٩٨٩/٦٨ .

فكانت أجهزة الدولة كناظر العدلية ووزارة العدلية ومتصرفية لواء العمارة تعطيهم صفة الطائفة في التعامل الرسمي كالأيزيديين . واعتبرت أيام أعيادهم حسب القانون عطلة رسمية خاصة لهم ، وذلك بالقانون رقم ٢٩ لسنة ١٩٣٩[١٧٤] .

وقيل إن هذا القانون ، الذي أصدرته وزارة حكمت سليمان العام ١٩٣٦ ، في ظل انقلاب بكر صدقي ، قد ألغته الحكومة اللاحقة . وظل معطلاً حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨[١٧٥] . وظهرت بصفة الطائفة في التعامل الرسمي منذ ١٩٢٠ في كتاب ناظر العدلية البريطاني ، وكتاب وزارة العدلية العام ١٩٢٧ إلى محكمة سوق الشيوخ بالناصرية ، وكتاب متصرفية العمارة ١٩٣٠[١٧٦] . وحسب المرسوم الجمهوري رقم ١٠ العام ١٩٧٢ تمتع الصابئة بأربع عطل رسمية : يومان للعيد الكبير ، يصادف (٢٧ و٢٨) من شهر تموز (يوليو) . ويوم واحد للعيد الصغير يصادف ١١ تشرين الأول (أكتوبر) . ويومان لعيد الخليقة (البنجة) يوم ٢٤ آذار (مارس) . ويوم واحد لعيد يحيى المعمدان يصادف ٢٨ أيار (مايو)[١٧٧] .

كان المندائيون وما زالوا مثالاً للوداعة والسلام ، ينبذ دينهم الحرب حتى إذا كانت دفاعاً عن النفس . تمرسوا على الصبر المرير ليقاوموا به استفزازات المحيطين ، وتطاولهم ، وهذه وسيلة ناجعة مكنتهم من الاحتفاظ بكيانهم عشرات القرون . وهم حسب رجل دين مسيحي وصفهم بالمبتدعين والضالين «يمتازون بعدة فضائل ، منها العفة ، ولذا تراهم يفرقون عن غيرهم من سيمائهم ، فإن ملامح وجوههم تنطق بحسن أدابهم ، وبشاشتهم تُترجم عن نقاء سرائرهم ، ولسانهم يفصح عما في ضمائرهم ، ومن فضائلهم أيضاً محبة بعض لبعض ، وهي فيهم على نوع لا يشاهد إلا في الرهبان»[١٧٨] .

وشاهد صبرهم على الاضطهاد ما أوصاهم به «الكنزاربا» : «إذا اضطهدتم فقولوا : نحن منكم ، ولكن لا يكون ذلك قلبياً ، ولا تنكروا صوت سيدكم ملك النور الأعلى ، فالسر لا يمكن أن يعيش إلى ظهور المسيح الدجال»[١٧٩] . وكم تُذكر كلمات« الكنزاربا» بخطبة لعلي بن أبي طالب ، وهو يوصي أتباعه لما سيحدث بعده : «أما وانه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم ، مندحق البطن ، يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد ، فأقتلوه ولن تقتلوه . ألا

---

(١٧٤) المصدر نفسه .

(١٧٥)دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١٠٧ الهامش .

(١٧٦) رومي ، الصابئة ، ص ١٩٤ .

(١٧٧) المصدر نفسه ، ١٩١ - ١٩٢ .

(١٧٨) الأب انستاس الكرملي ، اليزيدية ، المشرق ، كانون الثاني ١٩٠٢ .

(١٧٩) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٥٧ .

وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني ، فأما السب فسبُوني ، فإنه لي زكاة ، ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني ، فإني ولدت على الفطرة ، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»[180] .

وهذا ما مارسه الصابئي المندائي خلال السيطرة البريطانية على العراق ، فأخذ الصاغة يكتبون على حوانيتهم عبارة : «مسيحي من أتباع يوحنا المعمدان»[181] . ربما ورد ذلك إثر ما نقلته الأجيال من اضطهاد البرتغاليين لهم في القرن السابع عشر الميلادي ، يوم «اتخذت الوسائل لتحويلهم إلى المسيحية بالقوة»[182] ، ويُذكر أن البرتغاليين الذين وصلوا سواحل البصرة كانوا «أول مَنْ دعا الصابئة بمسيحيي يوحنا المعمدان»[183] . وحسب أداموف ، هم أول مَنْ أخبروا أوروبا الغربية بوجود هذه الطائفة .

وقبل ذلك تعرض الصابئة إلى مذابح سجلوها في طلاسم ، وكأنها مناشير سرية ، حتى لا يظهر صوت احتجاج لهم . اطلعت الليدي دراوور على ما جاء في طلسم يخبر عن مذبحة رهيبة طالت كهنتهم وشيوخهم ، حدثت في زمن حاكم العمارة محسن بن مهدي . «كان السبب امرأة صابئية خرجت من دارها إلى النهر ، في اليوم الأول من السنة الجديدة ، في الوقت الذي ينبغي أن يكون فيه جميع أفراد الصابئة داخل بيوتهم ، فتعرض لها أعراب كانوا في أسطول من الزوارق راسٍ هناك . ونشب قتال . وأعلنت الحرب على الصابئيين ، فذبح الكهان والرجال والنساء والأطفال . وبقيت الطائفة مهيضة وبلا كهان لعدة سنين»[184] .

وربما كان الصابئة المندائيون من بين الأديان الحية بالعراق يشكون باستمرار من نقص في رجال دينهم . ويبدو أن المذابح والاضطهادات كانت تستهدف كهنة الطائفة . وهناك سبب آخر لقلة رجال الدين هو صعوبة الوصول إلى الكهانة حسب العرف الديني ، فدرجة من الدرجات الدينية تفرض على المتقدم إليها أن يسهر ستة أيام متواصلة! فبعد تفادي شحة الكهنة أثناء حوادث عديدة ذهب الطاعون الكبير السنة (١٨٣١) بشيوخ الطائفة بسوق الشيوخ (من توابع الناصرية بجنوب العراق) . وقد عالجوا الأمر باستدعاء كهنة من مناطق أخرى ليشرفوا على طقوس تنصيب كهنة جدد[185] . كل هذا جعل الصابئي لا يعتقد بالطلاسم والتعاويذ حسب بل أخذ يعيش حياته مثل طلسم ، يُفرج عن غيظه بسرية تامة .

---

(١٨٠) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، خطبة ٥٧ ص ١٣٠ .

(١٨١) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٥٧ .

(١٨٢) المصدر نفسه .

(١٨٣)أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٤٠ .

(١٨٤) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٥٧ .

(١٨٥)أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٤٦ .

الدين لا السياسة

لم يحصل أن تبنى المندائيون كطائفة أو جماعة، تحت تسمية المندائيين، حزباً أو عملاً سياسياً ما إلا بعد سقوط نظام البعث في ٩ أبريل ٢٠٠٣، حيث تأسس «التجمع الديمقراطي المندائي» كحزب خاص ومغلق للصابئة المندائيين في أغسطس «آب» ٢٠٠٣. وقبلها كانوا مضطرين إلى إصدار بيانات باسم رئاسة الطائفة ومجلسها الروحاني لتأييد النظام السابق. لكنها لاتعني شيئاً. حالهم في ذلك حال الطوائف الأخرى التي تخشى من صولة السلطة عليها، وهذا ما فعله رجال دين مسلمين، سنُة وشيعة، عندما أعلنوا تأيدهم الكامل لما سمي بالحملة الإيمانية. فالشيخ جلال الحنفي كتب هادياً كتابه «شخصية الرسول الأعظم قرآنياً» إلى صدام حسين بالعبارة: «إلى راعي الحملة الإيمانية الرائدة في العراق»[١٨٦]. وكذلك أيد رجال دين شيعة تلك الحملة بنداءات وتصريحات من على شاشات التلفزيون، مثلما فعل بعض آل الصدر بالكاظمية، ورجال دين نجفيون.

لكن لم يمنع عزوف المندائيين الكلي عن السياسة والعمل الحزبي نشاط الكثير من أبنائهم في الأحزاب الأخرى، وعلى وجه الخصوص الحزب الشيوعي العراقي، فكان من أوائل قادة الشيوعيين بالعراق المندائي مالك سيف. ومن المقتولين صبراً في الثامن من شباط ١٩٦٣ عضو اللجنة المركزية صبيح سباهي. واغتيل بعده في أوائل السبعينيات عضو اللجنة المركزية ستار خضير من عائلة آل الصكَر، وغيرهم الكثير.

يفهم من بيان الحزب، أو التجمع، مدى معارضة المرجعية الدينية المندائية ومجلسها الروحاني لأي عمل حزبي وسياسي مباشر بالعراق. جاء في بيان الحزب الصادر في بغداد ٢٥ يوليو «تموز» ٢٠٠٤: «أننا رافد من روافد الطائفة، ولا يتعارض تجمعنا مع رئاسة الطائفة، ولا مؤسساتها، وهذا نابع من رؤيتنا القائمة على الديمقراطية وإحترام الأخر. ولكن مما يؤسف له أن الأخوة القائمين على مجالس الطائفة استخدموا كل أساليب التشويه والتضليل والممارسة في الداخل والخارج ضد التجمع الديمقراطي المندائي تحت ذرائع عفا عنها الزمن، لا تنسجم مع روح العصر، ومتطلباته. وقد رفضوا في الأونة الأخيرة مبادرة تبنتها قيادة التجمع من أجل إيجاد لجنة تنسيق مشتركة تقوم بنشاطات وفعاليات آنية. ومنها عقد مؤتمر مندائي يدعو إلى تثبيت حقوق الطائفة في الدستور الدائم وإشراك ممثلين لهم في مؤسسات الدولة». وحمايتهم من الاضطهاد الذي حاولت فرضه عليهم الجماعات الدينية، وما تعرض له شبابهم من قتل متعمد وملاحقة.

معلوم أن وصايا الدين المندائي لا تقر الولوج في العمل السياسي. أولاً أنه لا يعنى

---

(١٨٦) الحنفي، شخصية الرسول الأعظم قرآنياً، المقدمة.

بالسلطة والدولة عموماً ، فهو إن رجعنا إلى الأصول ، وجدناه لا يعترف بالميراث ولا بالنقود ، إنه دين زهد وتصوف . وثانياً خشية من تقلبات السياسة الحادة بالعراق . لذا يرى شيوخ هذا الدين إنه من الأسلم الابتعاد عن المواجهات التي يقتضيها العمل الحزبي . ولا ندري هل يُكتب لهذا التجمع أو الحزب النجاح وقد بادر رجال الدين إلى معارضته؟ وهل يُعترف به من قبل الآخرين ، وهو يعمل بالضد من رغبة رئاسة الطائفة الدينية ومرجعيتها؟ ما أراه أن من أولويات أي تجمع اجتماعي أوسياسي مندائي هو الحؤول دون تصاعد هجرة المندائيين إلى الخارج ، بحثاً عن حياة أفضل وحرية دينية . فكما هو معلوم أن هجرة المندائيين وإفراغ العراق منهم يشكل ضرراً على الدين المندائي والعراق على السواء . ذلك أن الطقس المندائي والتقاليد المندائية سوف تضمحل في بلدان المهجر . وسيفقد العراق طيفاً حيوياً من أطيافه الاجتماعية والدينية ،له باعه في حرفة تاريخية ، وتخصصات أبنائه الحيوية ، ولا يعني إفراغ العراق من المندائيين والمسيحيين وأطيافه الأخرى إلا التصحر المتعمد .

فمن دون التدخل في السياسة والعمل الحزبي حدث أن صدرت فتوى ، بعد التاسع من أبريل (نيسان) ٢٠٠٣ ، عن مؤسسة مكتب الصدر بالبصرة بإمضاء الشيخ ميثم العقيلي ، ومستهلة بالآية : «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا كفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به المرء وزوجه»[١٨٧] . ويفهم من هذا الاستهلال التكفير الصريح . وإن بقية من بابل مازالت تفعل ما فعله هاروت وماروت . جاء في الفتوى : «اعتادت طائفة من مجتمعنا عموماً وخصوصاً الصابئة منهم ، في مناطق متعددة أشهرها شارع الصياغ ، بممارسة أعمال الدجل ، والشعوذة ، والزنا ، والتفريق بين المرء وأهله ، وغيرها كثير . فنرجو منهم العودة إلى طاعة الله ورضوانه والتمسك بالعروة الوثقى وترك الشيطان وأعوانه والنفس الأمارة بالسوء وخاصة وهم بجوارنا نحن المسلمين . فعليهم احترام مناسك ديننا وألا يتجاهروا بالفسق ونحن مستعدون للتحاور معهم من أجل الصالح العام . وفقكم الله للعلم والعمل للصالحين»[١٨٨] . وخلاف ما ورد من إتهام لهذه الطائفة نأتي ببعض نصوص كتابها المقدس «الكنزاربا» الناهية عن الزنا والسحر ، وكل ماورد في فتوى مكتب الصدر . «لا تعشقوا نساء الآخرين ، ولا تقربوا الزنا . ولا تغنوا غناء السكير . ولا ترقصوا رقص الفجر . أحذروا أن يستحوذ على قلوبكم الشيطان المملوء بأحابيل السحر والخداع والغواية»[١٨٩] . و «لا

---

(١٨٧) سورة البقرة ١٠٢ .

(١٨٨) رسالة موقعة من قبل الشيخ ميثم العقيلي ، المؤسسة الإعلامية لمكتب السيد الشهيد الصدر بالبصرة .

(١٨٩) الكنزا ربا ، القسم اليمين ، الكتاب الأول ، ص ٢٣ ، نسخة استراليا .

تستشيروا العرافين والمنجمين والساحرين والكافرين في أموركم مخافة أن يرمى بكم أسوة بهؤلاء إلى الظلمات»[١٩٠] .

أشار شيخ الطائفة المندائية الكنزبرا ستار جبار حلو إلى مثل هذه التجاوزات في نداء وجهه إلى المجتمع العراقي والدولي . جاء فيه : «يتعرض أبناء طائفة الصابئة المندائيين إلى اعتداءات وانتهاكات بشعة مبرمجة من قتل وسلب واختطاف وهتك أعراض ، وتوزيع منشورات . لقد زاد هذا الأمر من مخاوف ابنائنا وشعورهم بخطر قادم . لذا فإننا نهيب بالسادة الأعلام رؤساء المرجعيات الدينية المحترمة كافة ، والسادة مسؤولي الدولة والأحزاب السياسية والمنظمات الدولية ، وكل من موقعه إلى بذل أقصى الجهود لنزع فتيل التفرقة بشكل جذري ، وزرع بذور المحبة والأخاء بين الأديان . ليتعزز الأمن والاستقرار ، وليشعر المواطنون جميعاً بالأمان والإطمئنان في وطننا العزيز دون تمييز عنصري وقومي وطائفي . ووزع بيان على محلات الصاغة الصابئة فقط في منطقة أبو غريب ، والتي يدعون فيها قول : لا إله إلا الله ، على اعتبار ، وحسب ظنهم ، بأننا لسنا أصحاب كتاب ، ولا نعترف بالله» (بغداد مايو «أيار» ٢٠٠٤) . ولم يمارس التعسف ضد الصابئة من قِبل جماعات شيعية متشددة فقط بل مارسته جهات سلفية سُنّة أغلبها قادم من خارج الحدود . وهذا ما حدا بشيوخ الطائفة إلى اللقاء بهيئة علماء المسلمين برئاسة الشيخ حارث الضاري . ذلك لتأثيرها على الجماعات السلفية .

تم اللقاء في ديسمبر ٢٠٠٤ ، ونشرت الصحف خبراً عن اللقاء المشترك ، مع صورة تجمع بين رئيس وأعضاء الهيئة وبين رئيس الطائفة المندائية وشيوخها بثيابهم الدينية . كذلك تزايدت اللقاءات بين شيوخ الصابئة المندائية وعلماء المسلمين الشيعة . فكان اللقاء بين الشيخ الكنزبرا ستار جبار الحلو والسيد عبد العزيز الحكيم . ثم زيارة ولده عمار الحكيم إلى المندي العام ببغداد . وزيارة الكنزبرا إلى النجف واللقاء مع آية الله علي السيستاني .

يمثل الصابئة المندائيون اليوم طيفاً جميلاً من أطياف الماضي السحيق . ألسنة ما زالت تنطق بالآرامية : لغة إبراهيم الخليل ، وثياب كان يلبسها نوح ويحيى المعمدان ، وأخلاق لم يحسنها غير معروف الكرخي ، إلى صناعة الحبر التي تذكر بالوزير والكاتب ابن مُقلة (ت ٣٢٨هـ) . وهم أهل دين سماوي توجهوا إلى غاية السموات بعقولهم وأفئدتهم . ابتكروا فكرة السفن الكونية وبحارتها الكائنات النورية . ولم يجعلوا الكواكب آلهة بل أمكنة لكائنات النور والظلام . والله لديهم متعال ، عرشه يطوف فوق بحار النور النقية . ومثلما للأديان الأخرى معاريجها لهم معراجهم ، وجنّتهم ونارهم . كل هذا كان مخفياً عن المحيطين ، لم يعرفوا منهم

غير أنهم يعبدون الكواكب كامتداد لصابئة حران ، أو يسجدون إلى كائن نحت اسمه الآخرون ، عن جهل ، من العبارة المندائية المقدسة «بشميهون اد هي ربي» ، وتعني باسم الحي ربي ، مثلها مثل عبارة المسلمين «بسم الله الرحمن الرحيم» . وإذ جعل المسلمون الرحمة صفة الله الأولى ، يطلبونها منه في مستهل كل عمل ، جعل المندائيون الحياة صفة دائمة يذكرونها في مستهل كل عمل وحركة ، فالحياة الأزلية ، حسب كتابهم ، هي الفارق الأكبر بين الله والبشر .

الفصل الثاني

الأيزيـــديـــة

كان العراق ومازال متحفاً ومنهلاً للثقافات الدينية ، وجباله حصوناً للعقائد العجيبة ، لاذ أصحابها بالكهوف والوديان دهراً طويلاً ، حتى صعب على المؤرخين معرفة أيهما ينتسب إلى الآخر . ومن طوائف السهول مَنْ تحوط بالصبر والعلم والفن ومجاراة المحيط ظاهرياً كالصابئة المندائيين . وقيل إن المأمون صرح يوماً معللاً سبب البقاء عليهم قائلا : «لولا مزاياهم العقلية»[1] . والأيزيدية[2] من النوع الأول ، تحصنوا في وادي لالش بشيخان ، وجبل سنجار من الموصل بشمال العراق ، حيث تنتصب أماكنهم المقدسة تعلوها قبب بيضاء مخروطية الشكل ومشوفة ، تكررت عمرانها في مراقد عراقية لأديان ومذاهب أخرى . ترك الأيزيديون الآخرين يقولون فيهم ما يشاءون ، وينعتونهم بأسماء اضطروا أخيرا إلى قبولها . ويعود السبب في ذلك إلى عدم وجود تاريخ مكتوب لديهم . لذا اعتمدوا في تسجيل حوادثهم وعقائدهم على ما يعرف عندهم بـ «علم الصدر» ، أي الرواية الشفاهية ، مع أن هذا العلم بدأ يضمحل في القرن الثاني الهجري عند المسلمين بعد ظهور التدوين . وإلى وقت قريب كان يحرم عليهم تعلم القراءة والكتابة ، ما عدا بيتاً من بيوتات شيوخها لغرض تسهيل المعاملات الدينية وقراءة الأدعية والصلوات .

وربما التقشف في أمور الدنيا ، والتوق إلى عالم الأرواح ، وكره الملاعنة جذب إليهم عدداً من المتصوفة ، ليجدوا مجتمعهم المنشود في وادي لالش المقدس الذي لم تهدأ الأرض

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (طهران) ج٤ ص ٢٩٠ .

(٢) قصدنا هذه التسمية لأنها التسمية التي يطلقونها على أنفسهم ، والتي لا تترك شكا في نفي نسبتهم إلى يزيد ما ، وتركنا ما سمتهم به المصادر المذكورة في الهوامش على ما هي .

إلا بنزوله عليها ، على حد رأي قاطنيه . ومن آثار المتصوفة في الأيزيديين قصة القناة السرية بين عين الماء عند ضريح الشيخ آدي (عدي) وبئر زمزم بمكة . إلا أن العثمانيين ، كمسلمين ، لا يعنيهم معنى هذه الرابطة الحيوية ، فظلوا يطاردونهم بالهجوم الكاسح المدعوم بالفتوى القاتلة . يعتقد الأيزيديون كغيرهم من أهل الأديان الأخرى أنهم شعب الله المختار ، أو الأمة المصطفاة ، لكن بطريقة أخرى وفريدة من نوعها . واعتقدوا أنهم ولدوا من آدم فقط ، من دون حواء . فبعد الجدل بين الزوجين بأيهما يلتحق النسل قررا الاستمناء في جرتين منفردتين ، وبعد تسعة أشهر تمخضت جرة آدم عن (شيت وهورية) ، ومنهما تناسلت الأمة الأيزيدية . أما جرة حواء فتمخضت عن ديدان فقط . وهذا خلاف ما اعتقد الصابئة المندائيون في تقديم المرأة على الرجل ، فطهارتها من طهارة اروح آدم التي منها خُلقت ، كما سلفت الإشارة .

وربما جسدت هذه الأسطورة لدى الأيزيديين أموراً كثيرة بخصوص معاملة المرأة . بيد أن ما نُقل عن اعتقادهم في الخليقة ، بما يختلف عن الأسطورة السالفة الذكر ، جعلهم يفكرون أيضاً بحل ما لمشكل تزويج آدم أولاده من بناته ، ويقلل من شرور المرأة عندهم ، حيث ملأت جرتها ديدان . جاء في الأسطورة عن أحد شيوخهم ما معناه : «أن أصل اليزيدية قديم شريف يتصل بأوائل خلق الإنسان . وذلك أن الله عزً وجل ، بعد أن خلق آدم وحواء ، أوقع بينهما الخصام في شأن ذريتهما ، فآل بهما النزاع إلى أن افترقا في مكان معلوم ، يبعد الواحد عن الآخر مسافة أربعين يوماً ، فرزق آدم بنوع عجيب ولداً قسيماً (جميلاً) . فاستاءت لذلك حواء وانفردت بخلوة وطلبت من الله ألا تكون ذليلة في عيني زوجها فولدت طفلة غادةً أخذ حُسنها في قلب آدم فزوجا الشاب بالطفلة فجاء منهما نسل اليزيدية»[٣] . بهذا تجنب الأيزيديون تهمة الزنا أو الزواج غير الشرعي الأول مثلما فعل المندائيون عندما قالوا بوجود آدمين ، آدم الظاهر وآدم الخفي القادم من عالم كشطا المتسامي .

اختلطت طقوس الأيزيديين بطقوس الأديان الأخرى ، وقد يصعب تعقب هذا التأثير لمعرفة أيهما المؤثر وأيهما المتأثر . لكن الواضح أنهم كانوا متأثرين على الدوام ، بسبب حداثة كتابيهما المقدسين «مصحف رش» و«الجلوة» نسبة إلى قدم الكتب الدينية الأخرى ، بعد فقدان كتبهم الأصلية كما يقال . إضافة إلى تقوقعهم في البيئة الجبلية واستقبالهم لزائرين من أديان مختلفة . بيد أن هذه الطقوس التي تأثروا بها أخضعوها لعقائدهم التي تبدو قديمة جداً . تناقضت الآراء حول تاريخهم وطقوسهم ، رغم أن أغلب الذين كتبوا عنهم قاموا بزيارتهم والاختلاط بهم ، وكثيراً منهم حضر شعيرتهم الكبرى المتمثلة في مهرجان السناجق السبعة . وعند مقارنة معلومات هؤلاء الطارئين ، بزيارة استطلاع أو مهمة رسمية ، بما كتبه

---

(٣) اليزيدية ، مجلة المشرق ١٨٩٩ ، ص ٣٣ .

باحثون أزيديون تبدو تلك المعلومات قاصرة وساذجة . تحمل الأيزيديون مشاق التشويه والملاحقة ، على اعتبارهم طائفة ضالة منحرفة من دين آخر ، ومن حق تلك الديانة ارجاعها إلى جادة الصواب أو القتل بالردة . وتيمناً بالقول المأثور : «أهل مكة أدرى بشعابها» نميل إلى معلومات الباحثين الأيزيديين أنفسهم أكثر من غيرها ، ففي الآونة الأخيرة صدرت كتب ومجلات أيزيدية عديدة . وفيما يخص التسمية يصر الآخرون ، كباحثين ودوائر رسمية ، على تسميتهم باليزيديين ، رغم تأكيد عدم صلتهم بأي يزيد كان : ابن معاوية ، أو ابن أنيسة ، أو ابن عنيزة (قيل أن شيخ عدي كان يمثله) . وتبدو هذه التسمية محرفة عن الأيزيدية لسهولة التلفظ بها من جهة ومن جهة أخرى لرسوخ الاعتقاد الخاطئ حول صلتهم بيزيد بن معاوية بالذات . وتظهر في مصادر الملل والنحل الإسلامية فرقة اليزيدية ، وهم أتباع يزيد بن أنيسة الخارجي ، إحدى الفرق المنشقة عن الإباضية ، ويوهم عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) ، وبعده محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) عن غير قصد بعض المهتمين في اعتبار يزيدية الخوارج هي الديانة المقصودة ، ذلك عند الحديث عن رئيس هذه الفرقة : «وزعم أن الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم ، وينزل عليه كتاباً في السماء . . . ويكون على ملة الصابئة المذكورة في القرآن ، وليست الصابئة الموجودة في حران وواسط»[٤] .

الاسم والأصل

لا تخلو تسميتهم باليزيدية ، وبالتالي نسبتهم إلى يزيد بن معاوية ، من تأثير قومي ومذهبي ، وسعي باحثين على حساب البحث العلمي ، أو وراء ذلك الجهل بتاريخ هذه الديانة وعلاقاتها . لكن لماذا صارت نسبتهم إلى يزيد وليس إلى معاوية بن أبي سفيان نفسه ، أو إلى السفياني مهدي الأمويين المنتظر مثلاً؟[٥] حاول القائلون بنسبة هذه الجماعة إلى يزيد بن معاوية تعزيز رأيهم بما ذكره السمعاني (السادس الهجري) في الأنساب عن الأيزيدية : «جماعة لقيتهم بالعراق يأكلون الحال (ما قيل عنهم في التبرك بتربة الشيخ عدي) . وقل ما يخالطون الناس ويعتقدون بإمامة يزيد بن معاوية»[٦] . ولعل السمعاني أخذ الاسم وبنى عليه قصته . فمَنْ يعرفون باليزيدية لابد أن يكونوا قد عظموا أو عبدوا يزيد ، ومَنْ يكون غير يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؟ وفي نسبتهم إلى يزيد تجاوز النسابون تسميات تاريخية مهمة في حياة الأيزيديين ، التي تظهر علاقتها واضحة كدين أو مكان .

---

(٤) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٣ ، الشهرستاني ، الملل والنحل ١ ص ١٣٦ .

(٥) قيل أبدع فكرته خالد بن يزيد بن معاوية بعد استيلاء المروانيين على الخلافة .

(٦) السمعاني ، الأنساب ، مادة اليزيدي .

منها كلمة يزدان ، أو أيزد . وقيل تعني في الديانة الزرادشتية الإله المقدس «والفعل يزد معناه يعبد ويضحي»[٧] ، و«خليق بالعبادة . وهي تطلق على الملائكة التي تتوسط بين الله والبشر . وفي اعتقاد اليزيديين أنهم من أتباع تلك الملائكة»[٨] .

ففي صلاة الفجر يقولون : «باسم الله (يزدان) المقدس الرحيم الجميل ، إلهي لعظمتك ولمقامك وللملوكيتك ، يارب أنت الكريم الرحيم الإله مَلك مُلك الدنيا مملكة الأرض والسماء ، ملك العرش العظيم»[٩] . أما صلة نسبتهم إلى المكان فيذكر عن مؤرخ يوناني ، عاش في القرن السابع الميلادي ومر بمنطقة الموصل ، زار مدينة تدعى (يزدم) تقع على مقربة من حدياب[١٠] ، وهي أربيل حالياً ، فيكون أسم الأيزيدية نسبة إلى ذلك المكان . وقال آخرون أنه نسبة إلى منطقة يزد الفارسية . ولعل المقبول أن المنطقة عرفت باسمهم ، مثلما يقال ديار ربيعة ، أو الإمارة المزيدية ، وغير هذا كثير . وقد أيد الشيخ علي الشرقي ، الذي نشر حولهم دراسة وافية في مجلة «العرفان» اللبنانية (١٩٢٦) عدم صلة التسمية بيزيد . قال : «اشتهرت هذه الفرقة باسم اليزيدية ، فقيل إنه للأموي يزيد بن معاوية ، وإنهم يقدسونه ، ويمكن أن يكون وهماً نشأ بين جماعة من الكتاب»[١١] .

وهناك مَنْ اعتقد بصلة ما بين اسم الأيزيدية وبين الكلمة السومرية (a-zi-da) ، المكتوبة بالخط المسماري ، كشف عنها أحد خبراء الآثار واللغات القديمة الباحث الكردي (لافار نابو) «وتعني الروح الخيرة والغير (هكذا وردت) ملوثين والذين يمشون على الطريق الصحيح»[١٢] . نظرنا هذه الكلمة في القاموس السومري (جامعة بنسلفانيا الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٤) فوجدناها بمعان عديدة تُقارب ماهية الأيزيدية ، منها الطريق الحق والذراع الأيمن وغيرها ، ومقارنة بما يقولهُ الأيزيديون الحاليون : نحن «على دينِ الحق والطريق الصحيح . . . بيضاء ملابسنا ، الجنة مكاننا»[١٣] ، تكون الصلة واضحة . ولِمَ لا ، فالمنطقة لم تكن بعيدة عن مسرح الحضارة السومرية . والجدير بالذكر أن تسمية أهلِ الحق موجودة في المنطقة الجبلية من غرب إيران ، وتشير إلى مذهب أو دين يتواجد أتباعه بين الأكراد ، تتشابه

---

(٧) بمو فرحان ، الثقافة الجديدة العراقية ، العدد ٢٤٣ .

(٨) قيصر صادر ، اليزيدية عقائدهم وتقاليدهم ، مجلة المقتطف ، مارس (آذار) ١٩٣٦ .

(٩) خدر سلمان ، مجلة التراث الشعبي ، ١٩٧٣/٥ ، الحسني ، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ، ص ١٥٢ .

(١٠) زكي ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١ ص ٢٩٤ .

(١١) الدملوجي ، اليزيدية ، ص ٣٨٧ ، عن علي الشرقي ، مجلة العرفان المجلد الحادي عشر ١٩٢٦ .

(١٢) خليل جندي ، نحو معرفة حقيقة الديانة الإيزيدية ، ص ٢٠ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

معتقداته إلى حد ما مع معتقدات الأيزيدية ، ويتضمن العديد «من الموروثات الإيرانية القديمة»[١٤] ، ويوصف بالعلي إلهية و يعرف بالكاكائية أيضاً .

أما عن تسميتهم بالأمويين ، فتعود إلى علاقتهم بالشيخ عدي أو آدي ، وفي مرحلة متأخرة من تأريخهم ، كما سيأتي لاحقاً . ويبدو أن تسميتهم باليزيديين و ورود اسم مروان في نسب الشيخ عدي بن مسافر جعلت الآخرين يعتقدون بإمامتهم ليزيد بن معاوية وبنسبهم الأموي ، وكأنهم جميعا أحفاد الشيخ آدي . وكان الشيخ آدي ، كما تذكر المصادر ، هو مؤلف كتب الأيزيدية المقدسة ، ومؤمناً بعقيدتهم القديمة في الخلق والتكوين ، كقول مصحف رش (الكتاب الأسود) : «في البداية خلق الله درة بيضاء من سره العزيز ، وخلق طير اسمه أنغر ، وجعل الدرة فوق ظهره ، وسكن عليها أربعين ألف سنة»[١٥] . «والشيخ آدي ، الذي عُرف بعدي بن مسافر الأموي ، هو رمز إله «المطر والخير والبركة . . . وكون الآشوريين كانت لهم محبة خاصة للشيخ آدي فأنهم لم يصوروه في نقوشهم وحسب ، بل ورد عنه الكثير في كتاباتهم . ولهذا تواجد معبده في قلب آشور في لالش . ويوجد في هذا المعبد رسومات ونقوشات ترمز إلى شعائر الأديان السومرية والبابلية»[١٦] . واسم آدي السرياني ، أو الآشوري ، له حضور في المنطقة الجبلية بين المسيحيين قريباً من مضارب الأيزيديين . نذكر منهم أحد المبشرين الأوائل مار آدي . والمطران آدي شير ، صاحب كتاب «الألفاظ الفارسية المعربة» ، و«تاريخ كلدو وآثور» . ولد بشقلاوة ، و«قُتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩٥١ ، خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته»[١٧] .

اعتبر الأيزيدي خليل جندي اكتشاف صلة قومه بالحضارة السومرية «مفتاحاً هاماً لفك غموض العديد من خبايا الديانة الأيزيدية والتقرب من معرفة أُصولها التاريخية والاجتماعية . وبالتالي وضع حداً لمغالطات العديد من الكتاب والمؤرخين الذين حاولوا ويحاولون عن عمد تشويه حقيقة هذه الديانة ، سواء لمصلحة أنظمتهم الشوفينية أو لاغراض دينية وقومية»[١٨] . منها نسبة الأيزيدية إلى الأمويين عن طريق الشيخ آدي . مع أن الأخير ، وفقاً لما تقدم ، لم يثبت أنه أموي ، ولم يثبت أنه عدي بن مسافر المقصود . ولم يكن ذلك إلا عن طريق تسميتهم ونسبتهم الخاطئة إلى يزيد بن معاوية . ولضعف هذه الحجة في تأكيد هذا النسب سعى باحثون آخرون إلى ذلك عن طريق اختلاق قصة لجوء عدد من الأمويين

(١٤) محمد مكري ، ولادة الكون عند الأكراد ، مجلة أصوات ، العدد ١٣ .
(١٥) كتاب رش ، مقتبس من الحسني ، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ، ص ٥٥ .
(١٦) جندي ، نحو معرفة حقيقة الديانة الإيزيدية ، ص٢٠ - ٢١ .
(١٧) بصري ، أعلام الأدب في العراق ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(١٨) المصدر نفسه .

إلى الجبال بعد ملاحقتهم من قبل العباسيين . فعاشوا هناك وانتحلوا هذا الدين . ولكن أين ذهب إسلام هؤلاء الأمويين ، وأين ذهبت لغتهم العربية؟ والمعروف أن ملاحقة العباسيين للأمويين لم تدم طويلا .

لقد سعت الحكومة العراقية إلى تسمية الأيزيديين بالأمويين ، من دون أي ذكر لتسميتهم الشائعة (اليزيديون) . ورد ذلك في بيان صادر عما يسمى بـ«مكتب إدارة شؤون الأمويين في العراق» ببغداد ١٩٦٩ ، الذي نشرته جريدة الثورة العراقية بعددها (١٦٦) . جاء فيه : «أن المكتب يعمل لإدارة الدعوة العربية ، وإظهار عروبة الأمويين في شتى المجالات الرسمية والشعبية» . وشدد البيان الأنف على نسبتهم لقريش عبر صلتهم بيزيد بن معاوية . وورد في تقرير مديرية الأمن العامة ، على ضوء إحصاء ١٩٧٧ ، أن غالبيتهم من العرب . غير أن هذا التعريب ليس بمعزل عن الخلاف مع القيادات الكردية ، وما يتعلق بالحكم الذاتي المفترض . وليس بمعزل عن الخلاف مع الحوزة الشيعية بالنجف ، والشيعة عموماً ، وتأسيس لفتنة طائفية . ومن مظاهرها كانت أحداث التهجير بذريعة التبعية الإيرانية . وكما هو معروف أن اسم يزيد بن معاوية من الأسماء غير المحببة عند الشيعة ، وشريحة كبيرة من سُنّة العراق بسبب ما حصل بكربلاء السنة ٦١ هجرية .

أما تسميتهم بعبدة الشيطان فأساسها رفض الأيزيديين الجمع بين حرفي الشين والطاء . وتحريم البصاق على الأرض علناً . ولعدم التمييز بين ما تعنيه التسميتين ، كما هي واضحة عند الأيزيدية ، أُتهموا بعبادة الشيطان . والحقيقة أنهم يتشاءمون من أي لعن . وفي هذه القضية بالذات للأيزيدية فلسفة خاصة ، مفادها أن الملك المعني برفض السجود لآدم هو أحد الملائكة السبعة لديهم ، وهو(عزرائيل) ، ومعروف بطاووس ملك . وتقديرا لهذا الرفض أنعم الله عليه بمنصب رئيس الملائكة . وهناك أساطير عديدة بشأن هذا الملك لا مجال لذكرها . ولهذا الاعتقاد علاقة مباشرة وغير مباشرة بميثولوجيا الأديان الأخرى ، كما سيأتي لاحقاً . قال الكرملي ، مستبعداً عنهم عبادة إبليس[19] : «إن اليزيدية يعتقدون بإله واحد

(١٩) انعكست تأثيرات توحيد إبليس الخالص لله تعالى على جماعة من المؤمنين الخُلص والمتقدمين في مذاهبهم ، مثل أبي الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الشافعي (ت٥٢٠هـ) ، شقيق أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) ومدرس المدرسة التاجية ، ومن مجالسي السلطان السلجوقي ببغداد ، فـ «كان يتعصب لإبليس ويعذره» (ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧ ص ٢٣٩) .
وقال الشاعر أبو صقر الواسطي (ت٤٩٨ هـ) مادحاً إبليس :

لستُ أرضى من فعْل إبليس شيئاً غير ترك السجود للمخلوق
وأنا قائل واستغفر الله مقالَ المجاز لا التحقيق

ويأتي محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ) الشافعي بمحاورة إبليس ذات السبعة أسئلة مع

ضابط الكل بيده ، كلُّ ما في السماء ، وكلُّ ما في الأرض ، ويسمونه بالكردية خدا (أي الله) وبالعربية رب العالمين ، ودونه الملك طاووس ، والشيخ عادي ويزيد وهؤلاء ثلاثتهم ليسوا إلا إلهاً واحداً من الرتبة الثانية في ثلاثة فروع لا غير»[٢٠] . وهنا يدخل الأب الكرملي التأثير المسيحي عبر مقالة الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس .

ويقال تتجنب الأيزيدية ذكر الشيطان تقاءً لشره ، فذكره يعني حضوره . كذلك يذكر الرحالة نيبور سبباً آخر وهو عدم اعترافهم بوجود الشيطان من الأساس ، وهذا ما سمعته أنا منهم أيضاً . قال : «أكد لي آخرون أيضاً من أن الدواسن[٢١] لا يعبدون الشيطان بل إنما يعبدون الله ، ويقدسونه فقط . لأنه خالق كل شيء ويجلب الخير للبشر . وهم يقولون أنه ليس من شأن البشر أن يتحزبوا أو يتدخلوا في خصام وقع بين الله وأحد ملائكته المغضوب عليه . كمثل الفلاح الذي غضب عليه الباشا ، وأخذ الناس يشتمونه ويلعنونه ويسخرون منه . إن الله لا يحتاج إلى مساعدتنا في معاقبة الشيطان بسبب معصيته إياه ، ويجوز أن يصفح عنه ، ويشمله رحمته»[٢٢] .

تسلمت وأنا أعد للطبعة الثانية من الكتاب كتاباً من حضرة الأمير أنور بن معاوية الأموي ، وهو نجل الأمير الأيزيدي الأسبق ، تحت عنوان «اليزيدية . . . التاريخ ، العقيدة ، المجتمع» . بذل الأمير الأيزيدي جهده فيه متقصياً نسب الملة الأيزيدية إلى الجنس العربي ،

= رب العالمين ، وربما كانت من مخيلته . حسب علمنا ، لم يسبقه إليها أحد من مؤرخي الملل والنحل . قال إبليس : إنه قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر ويحصل مني فلمَ خلقني أولاً؟ ولمَ كلفني بطاعته وهو لا ينتفع بها ولا يتضرر من تركي له؟ ولمَ كلفني بطاعة آدم والسجود له؟ ولمَ لعنني وأخرجني من الجنة بعد قولي : لا أسجد إلا لك؟ ولمَ جعل لي طريقاً إلى آدم وهو في الجنة ، ليخرجه منها؟ ولمَ سلطني على أولاد آدم فأراهم من حيث لا يرونني وتؤثر فيهم وسوستي ، ولماذا لم يتركهم يعيشون طاهرين؟ ولمَ استمهلني (انظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) . وما الحكمة من ذلك . لو أهلكني في الحال لاستراح آدم والخلق مني . وما بقي شر في العالم . أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر (المصدر نفسه ، ص ١٦) . وعدَّ الشهرستاني معصية إبليس لله تعالى «أول شبهة وقعت في الخليقة»(ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، ص ٣٢- ٣٣) . أما الحنبلي أبو فرج جمال الدين ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) فجعل إبليس وراء نشوء الفلسفة والتصوف والعلوم غير الدينية . وصنف كتاباً فيه سماه «تلبيس إبليس» . وأن له أولاداً خمسة هم : ثبر ، والأعور ، ومسوط ، وداسم وزكنبور ، لكل واحد منهم طريقة في إغواء الناس (الشهرستاني ، الملل والنحل ١ ص ١٧-١٨) ، يذكرون بأولاد الروهة ، كائن الظلام الرهيب ، في الميثولوجيا الصابئية المندائية (رودلوف ، النشوء والخلق في النصوص المندائية ، ص ٦٨) .

(٢٠) اليزيدية ، مجلة المشرق ١٨٩٩ ، ص ١٥١ .

(٢١) نسبة إلى جبل داسن ، حيث يقيم الأيزيدية .

(٢٢) نيبور ، رحلة نيبور إلى العراق ، ص ٩٢ .

بداية من بني أمية والهاشميين وانتهاءً بمؤسس الملة ، حسب ما يراه المؤلف ، هو الأمير الأموي إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، «الذي لجأ إلى شمال العراق مع ما تبقى من المقاتلين الأمويين ، للنجاة بأرواحهم من ملاحقة العباسيين لهم ، واستقر بهم في لالش»[٢٣] .

لكن الأمير الأموي المفترض أنه أسس الأيزيدية كان قد استلم الخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد ، ولم يهنأ بها سوى سبعين يوماً . وقتل مع مَنْ قُتل وغرق من آل أمية في معركة الزاب السنة ١٣٢هـ ، في مواجه مع الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن علي . ووصف بعجز وضعف الرأي[٢٤] . وأي مصدر اعتمده المؤلف ليحقق صحة نجاة الأمير الوليد وتأسيسه لملة المفترض أنها ملة مسلمة؟ بينما الأيزيدية ديانة خاصة لا تمت للإسلام بصلة . وهل عجز مؤرخ واحد من تأكيد هذه الحكاية أو في الأقل الإشارة إليها؟ من جهة ثانية لماذا تُنسب الملة التي أسسها أمير مرواني إلى يزيد بن معاوية؟ إن بحث لا يستند إلى مصدر يبقى مجرد تقولات لا تمت للواقع بصلة .

المعتقد

تعرض الأيزيديون إلى محن قاسية ، جعلتهم لا يعترضون على أي رأي حولهم . لهذا اقتحمت تاريخهم افتراءات عديدة ، كان أبرزها عبادة إبليس ، التي استغلها أحد مدعي البحث والكتابة بالأديان ونشر عنهم ترهات فضيعة في مجلة «أخبار الأدب» المصرية . وكانت المناسبة ظهور عبادة الشيطان بأمريكا ولبنان حسب إدعاء المجلة[٢٥] . وربما يعود تاريخ تسميتهم بعبدة الشيطان إلى السنة ١٧٩١م ، يوم غزاهم وزير العراق العثماني سليمان باشا ، واطلق عليهم هذا الاسم[٢٦] . وعنون عبد الرزاق الحسني إحدى طبعات كتابه «اليزيدية . . .» بعنوان عبدة الشيطان .

ويعتبر عيد رأس السنة ، الموافق نيسان من كل عام ، عيداً لملاك طاووس ، الذي يفسره الآخرون أنه بمثابة إبليس . وهو أهم عيد من أعيادهم الموزعة على فصول السنة . فأعياد الربيع هي : عيد سه رسال ، أو رأس السنة . ويعرف بعيد طاووس ملك . وعيد ملك زين ، الأربعاء الأحمر ، ويحتفل به في أول أربعاء من شهر نيسان . وأعياد الصيف عيد أربعانية (ذكره عبد الرزاق الحسني بالمربعانية) الصيف يأتي بعد صيام يبدأ من ٢٥ حزيران وحتى الثالث من

---

(٢٣) الأموي ، اليزيدية ، ص ٧٢ .

(٢٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٣٣٧ ، ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ص ١٠٤ .

(٢٥) أسرار اليزيدية في العراق ، أخبار الأدب ١٦ فبراير (شباط) ١٩٩٧ .

(٢٦) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ج ، ص ١١١ ، حوادث سنة ١٧٩١م .

أغسطس ، ويعم العيد وادي لالش لثلاثة أيام[٢٧] . وأعياد الخريف : عيد الجماعية أو العيد الكبير من ٦ - ١٤ تشرين الأول . وأعياد الشتاء عيد أربعانية الشتاء (٢٦ كانون الأول - ٤ شباط) . وعيد صوم أيزيد ، بعد صيام ثلاثة أيام ، ولابد أن يصادف يوم الجمعة . وعيد خاص بسلالة البير ، وهي طبقة من المجتمع الأيزيدي ، منهم دراويش المعبد ، وخدمته[٢٨] .

يتضح من أدعية وشعائر الأيزيديين الأخرى أنهم موحدون يؤمنون بإله واحد ، كما سبقت الإشارة . فمن دعائهم في صلاة الفجر : «يا رب أنت الكريم الرحيم الإله . مَلك مُلك الدنيا ، مملكة الأرض والسماء . ملك العرش العظيم»[٢٩] . ودعاء آخر يقول : «يا رب أنك أنت الموجود وأنا المعدوم . أنت الغافر للذنوب . أنت الإله الحق مالك الكم والكيف . لا قامة لك ، لكنك رفيع . لا صوت لك ، لكن صوتك معروف»[٣٠] . أما تقديسهم وإجلالهم للشمس فينبع من أهمية هذا الكوكب وعلاقته المباشرة بالحياة والضياء .

يكره الأيزيديون الألوان الغامقة بشكل عام ، ويميلون إلى اللون الأبيض لون النور . إضافة إلى أنهم يعتبرون الشمس نوراً لطاووس ملك . وهذا التقديس له علاقة بعقائد قديمة ، كما أسلفنا ، تأثرت بها الأيزيدية . منها الزرادشتية والشمسية وربما أقدم من ذلك . فالزرادشتيون كانوا يسجدون عند شروق الشمس وزوالها وغروبها ، وهذه الصلوات الثلاث موجود في الديانة الأيزيدية . وقد لا يعني ذلك السجود للشمس بقدر ما يهتدى بحركتها : شروقها وغروبها للتوقيت ، مثلما يفعل المسلمون . مع أن كوكب الشمس هائل التأثير في العبادات كافة . وقال (أوجين بوره) ، أحد الأجانب الذين زاروا المنطقة قديماً ، في الصلة بين الأيزيدية والزرادشتية : «لعمر الحق أن كل شيء فيهم يوضح آراءً يشم منها رائحة ديانة زرادشت ، التي أدخل فيها ماني صاحب الثنوية المانوية بعض التغييرات»[٣١] .

أما صلتهم بالشمسية ، التي أشار إلى علاقتها بالأيزيدية صاحب كتاب «اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم» ، هي ديانة قديمة يتعبد أتباعها في كهوف الجبال بسرية تامة حول منطقة ماردين بتركيا (محاذية للموصل حيث يقطن الأيزيديون) . وهم كالأيزيديين والمندائيين وغيرهم ، يكرهون التعبد أمام الغرباء (بدأ ذلك لتفادي الخطر ثم تحول إلى شرط من شروط الدين) . وصلاة الشمسي عند شروق الشمس ، يتوجه نحوها ويمد «ذراعيه أو كفيه ، كأنه يغترف شيئاً من الهواء . ويركع عند الظهيرة عدة ركعات . وعند الغروب ينتظرها

---

(٢٧) جندي ، نحو معرفة حقيقة الديانة الإيزيدية ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٩) الحسني ، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ، ص ١٥٢ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(٣١) الأب الكرملي ، اليزيدية ، مجلة المشرق ، العام ١٨٩٩ ، ص ٣٥ .

في مكان عال، بحيث يرى مغيبها»[٣٢]. وإن كان هناك شيء من التشابه في الطقوس بين الشمسية والأيزيدية، فيما يخص الشمس، فهناك خلاف بين الديانتين في العقيدة. فالأزيديون اعتبروا الشمس من تجليات طاووس ملك، المخلوق الأول من قبل الله. ويأتي خلق الشمس بعد خلق صورة سبع السموات. جاء في «مصحف رش»: «ملك طاووس جعله رئيساً عليهم بعده خلق صورة سبع سموات والأرض وشمس وقمر فخر دين». بينما عدً الشمسيون الشمس هي الخالق الوهاب للنور والحياة.

وفي سياق مقابلة الأيزيدية مع الأديان الأخرى يلتفت الباحث العراقي الأصل (دل كوفان)، إلى التشابه الكبير بين طقوس واعتقادات الديانتين المندائية والأيزيدية، منطلقاً من كلمة (مند، التي هي أسم لأحد المقدسين القدماء عند الأيزيدية والمعروف بشيخ الأفاعي (مهمته الشفاء من لدغات الأفاعي)، تجلى في شخص الشيخ فخر الدين كتجلي طاووس ملك بشخص الشيخ آدي، وله مرقد يزار. كذلك تشير كلمة مند إلى اسم لقبيلة كردية، يقابلها اسم لعشيرة مندائية (المندوية) بالعمارة جنوب العراق. ويسمى المعبد عند المندائيين المندي، إضافة إلى اشتقاق اسم الديانة من كلمة مند، والتي تعني المعرفة أو العلم. وفي هذه العلاقة يعتقد كوفان أن المندائيين انحدروا من ميديا (كردستان) إلى جنوب العراق، ومن هناك تأتي جذور الصلة بين الديانتين[٣٣]. إضافة إلى اعتقاد المندائيين أنهم أبناء (شيت بن آدم) واعتقاد الأيزيديون أنهم أبناء (شيت بن جرة)، الذي هو ابن آدم من دون حواء حسب أسطورتهم، كما سبقت الإشارة.

أما التشابه في المعتقدات بين الأيزيدية و المندائية فتوجز بمايلي: تحريم الزواج في شهر نيسان. وحبس المرأة النفساء عند المندائية في دائرة من الحصى، وتحبس عند الأيزيديين داخل حبل على شكل دائرة. ووضع حفنة من تراب أول حفرة في فم المتوفى، وعند الأيزيديين حفنة تراب من تربة الشيخ آدي. وتحريم ذرف الدموع على الأموات. وكراهة لبس الثياب الزرقاء. وتفضيل لبس البيضاء منها، اعتقادا أنها ثياب أهل الجنة. والديانتان لا تعتبران المواريث من صلب الشرائع والمهام الدينية.

ومع الإقرار بهذه المماثلة، لكن هناك اختلافات مهمة بين الديانتين، منها تحريم الختان عند المندائيين تحريما باتا، فالجسم حسب اعتقادهم خُلق كاملا فلا يجوز انقاص ما خلقه الله، والختان عندهم يعني الخروج من الدين. وبالمقابل يتشدد الأيزيديون بالختان. كذلك أن التعميد شعيرة رئيسة في المندائية، وله تراتيل خاصة ويشمل أغلب الطقوس، بينما لا

---

(٣٢) الشمسية، مجلة لغة العرب، ١٩٢٩.

(٣٣) دي كوفان، مجلة لالش الإيزيدية ٤/١٩٩٤.

خصوصية له عند الأيزيدية . والتعميد الذي ذكره باحثون أيزيديون وغيرهم لا يتعدى تعميد الأطفال المواليد ، وتغسيل الأموات في العين البيضاء المقدسة . ويمتاز طقس الختان عند الأيزيدية بتقاليد خاصة تختلف عنه عند اليهود والمسلمين ، فهو مناسبة لتعميق علائق جديدة بين أُسرهم أو مع أُسَر الأديان الأخرى ، بما يعرف بالكريف بمعنى الصديق الديني أو«صديق الدم»[٣٤] . فمن التقليد أن يختار أهل المختون كريفاً لمختونهم ، يضعه في حجره عند عملية الختان ، لتنزل قطرات من الدم على ثيابه ، ومن ذلك تنشأ علاقة دم بين الأسرتين يحرم بينهما التزاوج إلى عدة أجيال .

المجتمع الأيزيدي مجتمع مراتبي ، تتوزع المهام الدينية والاجتماعية بين مراتبه الروحية والدنيوية ، وكل مرتبة لا تتعدى صلاحياتها ومهامها إلى صلاحيات ومهام المراتب الأخرى . يجلس على قمة هرم هذا المجتمع (مير ميران) ، أو أمير الشيخان ، الذي يعني بأمور المجتمع الدينية والاجتماعية ، ويتمتع بصلاحيات مطلقة تقريبا . يأتي بعده شيوخ الدين ، ويدعى أكبرهم بابا شيخ . ومن اختصاصه القيام بمهام الدين العليا . يأتي من بعدهم البيرات وهم كهنة متخصصون بأمور محددة من الدين كإدارة أمور الصوم والإفطار . ثم الفقراء القائمون على خدمة ضريح الشيخ آدي أو عدي ، وتعليم الطقوس ، وهم يحتفظون بالخرقة المشهورة بين الأيزيديين كوسيلة للتبرك والقسم ، وتعود بالأصل إلى الشيخ آدي . ثم القوالون ومهامهم إحياء الطقوس الدينية بالعزف وحمل السناجق السبعة . ثم الكواجك ومهامهم معالجة مراسم الجنائز كتلقين الأموات ، والتكفين والدفن ، وكذلك تفسير الأحلام .

يعود الفضل في استمرار وجود الأيزيديين ، ككيان ديني واجتماعي ، إلى جبل سنجار ووادي لالش بشيخان ، حيث احتموا من فتاوى قتل جماعي أصدرتها بحقهم الإدارة العثمانية ، لحقتها مباشرة بغارات عسكرية . وأول هذه الفتاوى وأخطرها فتوى الشيخ أبو السعود العمادي ، مفتي الدولة العثمانية لمدة ثلاثين سنة في عهدي السلطانين : سليمان القانوني وسليم الثاني . صدرت الفتوى بأمر مباشر من دار السلطنة ، بعد اعتبار الأيزيدية طائفة مرتدة عن الإسلام . وصدرت بعدها فتاوى كثيرة ضدهم ، صرحت أنهم كفرة أصليون - هناك كفر مخفف يعرفه الفقهاء المسلمون بكفر النعمة مثل أهل الكتاب ، وكفر أصلي يخير أصحابه بين أمرين : دخول الإسلام أو القتل ، مثل كفر عبدة الأصنام والأوثان - وفي إحدى الهجمات العسكرية في أواخر الدولة العثمانية نبش الغزاة قبر الشيخ آدي وحرقوا عظامه أمام مريديه . وفي العام ١٩٠٦ مُنع الأيزيديون من الصلاة في الضريح ليصبح مدرسة إسلامية . ثم أُعيد لهم من قبل والي الموصل . وقد عقبت هذه الاضطهادات اضطهادات أخرى في عصر الدولة العراقية الحديثة ، اشتركت فيها الطائرات والمدفعية لقصف قراهم .

---

(٣٤) الدملوجي ، اليزيدية ، ص ٦٤ .

ويعتمد رجال الدين والسياسة ، في أغلب الأحوال ، البحوث والأخبار التي يزودهم بها مؤرخ أو باحث عن طريق مؤسسات الدولة الثقافية . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، سبقت أكاذيب الرحالة التركي أولياء جلبي ، الذي زار المنطقة العام ١٦٥٤ميلادية ، بعض الفتاوى والحملات العسكرية ضد مناطق الأيزيدية كتهيئة للتثقيف ضدهم ، حتى أصبح كتابه (ئه مه سي) مصدراً لعدد من المهتمين في أمور هذه الديانة . وصفهم جلبي بكراهية عميقة متنكراً لإنسانيتهم ودماثتهم معه وغيره من الرحالة . قال فيهم : «أكثرهم قصير القامة . وليس لهم رقاب واضحة ، كأن رؤوسهم خرجت من أكتافهم . وأن الأكراد هناك يسمونهم بأهل الشوارب الثمانية . . . وأسنانهم كأسنان الخيل . وأن نساءهم لا يضعن أولادهن قبل مرور سنة كاملة . وللكلاب عندهم حرمة ، فإذا وضعت المرأة أرضعت ابنها بحليب كلبة سوداء»[٣٥] .

دفعت هذه الكراهية ، التي غالبا ما توجهها السلطة ، باحثين عراقيين وأجانب منذ عشرينيات هذا القرن إلى التقصي عن حقيقة ما يثار حول أهل هذا الدين . اسفرت جهودهم عن كشف معلومات تنفي ما قيل عنهم خطأً . أهم ما فيها : أنهم لا يعبدون بشراً ، ولا إبليس . بل يعبدون الله الواحد بطريقة مغايرة . ولا يودون التخلي عن عقائدهم . ويحبون الآخرين . ويكرمون الضيف . ويهتمون بالنظافة . ويعشقون بيئتهم إلى حد يظن به الآخرون أنهم يعبدونها . وهذا ما وجدته فيهم عند زيارة واديهم المقدس والمرور على قراهم .

يحاكي الأيزيديون بصلادتهم صخور واديهم المقدس ، رغم عشرات فتاوى القتل ضدهم ، والتي اسفرت عن هجمات شرسة لم تسلم منها عظام شيخهم الجليل ، التي أُحرقت غير مرة ، كما أسلفنا . في وادي الأيزيدية المقدس يتوقف الزمن عن الجريان ، ليتحول إلى دهر يولد الأيزيدي فيه ويموت مشدوداً للشمس ، بين جرار من الزيت عمرها ألف سنة ، مصفوفة داخل المعبد ، تنبعث منها رائحة الأزل .

زين باب معبدهم الرئيس في وادي لالش تمثال أفعى سوداء ، يعتقد الأيزيديون ببركتها . وتمثال أسدين يحملان شمعدان وطير طاووس . وعبارة تقول : «بسم الله الرحمن الرحيم . خالق السموات والأرض ، .هذا المنزل محل الشيخ عادي ، الموقر ، ٥٦٩هـ» . غير أن هذه العبارة بقية من بقايا الغزو العثماني ، وتحويل المعبد إلى مدرسة إسلامية لمدة خمس سنوات متواصلة ، حرموا خلالها من زيارة معبدهم .

---

(٣٥) الأحمد ، اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم ، ص ٧-٨ ، عن أولياء جلبي ، سياحي ئه مه سي ، القسطنطينية ١٩٠٠ .

الشيخ آدي

مَنْ هو الشيخ المبارك صاحب الضريح، وما قصته مع الأيزيدين؟ مازالت علاقة الأيزيدية بالشيخ آدي، أو عدي أو عادي، بن مسافر الأموي، من المواضيع الشائكة والغامضة. فما أن يجد الباحث رواية أو معلومة قد تضعه على الطريق إلا وترده رواية أو معلومة أخرى إلى حيث بدأ. الروايات حوله كثيرة ومتناقضة. إضافة إلى ما يشوبها من انحياز. فمن الغرابة حقاً أن يقدس الأيزيديون، وهم أهل دين قديم، شيخاً غريباً متصوفاً. وأن تُنسب إليه كتبهم المقدسة: «كتاب الجلوة» و«مصحف رش». وأن يعد ضريحه بمثابة الكعبة عند المسلمين. حدث هذا على الرغم من أن مترجمي الرجال ذكروا للشيخ عدي مناقب إسلامية جليلة، وجاء ذكره في طبقات الصوفية كحبر من أحبار التصوف.

فهل كان الشيخ مبشراً بالإسلام وسط الأيزيديين؟ أم كان متصوفاً معتزلاً بوادي لالش، فلفت أنظار الأيزيدية إليه، ليحل بينهم ويساير عوائدهم الدينية؟ ولكن كيف تمت العلاقة بين الشيخ والدين الغريب عليه؟ وهل هناك من أحفاد الشيخ مَنْ مال عن دين جده ليتزعم أهل ذلك الدين؟ أسئلة عديدة تظهر وسط غموض الروايات وتناقضاتها وغرابتها، التي تحاكي غرابة العلاقة بين الشيخ والدين تماماً. وقبل محاولة كشف العلاقة، وفقاً لوجهات نظر مختلفة، نحاول قراءة شخصية الشيخ، كما تظهرها الروايات الإسلامية، التي تتفق بسلامة موقفه من الإسلام وإخلاصه للمذهب الشافعي، الذي يسود بكردستان العراق، مع إشارة بعضهم إلى علاقته بالمنطقة الأيزيدية، دون ذكر ديانتها.

ذكر ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) الشيخ عدي بالزاهد «المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل. وهو من الشام من بلد بعلبك. فانتقل إلى الموصل. وتبعه أهل سواد الجبال بتلك النواحي. وأطاعوه، وحسنوا الظن فيه. وهو مشهور جداً»[٣٦]. وقال ابن خلّكان (٦٨١هـ): «كان مولده في قرية يقال لها بيت فار من أعمال بعلبك. والبيت الذي ولد فيه يُزار إلى الآن. وتوفي الشيخ سنة سبع، وقيل خمس وخمسين وخمسمائة، في بلدة بالهكارية، ودفن بزاويته، رحمه الله تعالى، وقبره عندهم من المزارات المعدودة، والمشاهد المقصودة. وحفدته إلى الآن بوضعه يقيمون شعاره، ويقتفون آثاره، والناس معهم على ما كانوا عليه. زمن الشيخ من جميل الاعتقاد وتعظيم الحرمة»[٣٧]. وقال ابن المستوفي: «كان مظفر الدين صاحب أربل، رحمه الله تعالى يقول: رأيت الشيخ عدي بن مسافر وأنا صغير بالموصل، وهو شيخ ربعة أسمر، وكان يحكي عنه صلاحاً كثيراً»[٣٨].

---

(٣٦) الكامل في التاريخ ١٠ ص ١٩٠.

(٣٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٣ ص ٢٥٤.

(٣٨) المصدر نفسه، عن تاريخ أربل.

وذكر ابن خلّكان نسب الشيخ عدي الأموي بقوله : «عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان ، كذا أملى نسبه بعض ذوي قرابته . الهكاري مسكناً . العبد الصالح المشهور ، الذي تنسب إليه الطائفة العدوية . سار ذكره في الآفاق ، وتبعه خلق كثير ، وجاور حُسن اعتقادهم فيه الجدَّ حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها ، وذخيرتهم في الآخرة التي يعولون عليها . وكان قد صحب جماعة كثيرة من أعيان المشايخ والصلحاء والمشاهير ، مثل عقيل المنبجي ، وحماد الدباس ، وأبي النجيب عبد القاهر السهروردي ، وعبد القادر الجيلي ، وأبي الوفاء الحلواني . ثم أنقطع إلى جبل الهكاريّة من أعمال الموصل ، وبنى له هناك زاوية ، ومال إليه أهل تلك النواحي كلها ميلاً لم يسمع لأرباب الزوايا مثله»[٣٩] .

وما يجمع ابن خلّكان وابن المستوفي بالشيخ عدي والأيزيدية هو رابطة المكان . فهما كرديان من أربيل وعاشا ودرسا بالموصل ، وعصرهما قريب من عصره ، وجمع الزهد والتصوف الشيخ عدي بصاحبي الطريقتين ، السهروردية والقادرية أو الكيلانية ، وهما الشيخان عبد القاهر السهروردي (ت ٥٦٣هـ) وعبد القادر الكيلاني (ت ٥٦١هـ) . وقال شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) عن أخرين : «الشيخ الإمام الصالح القدوة ، زاهد وقته ، أبو محمد عدي بن صخر الشامي . . . ساح سنين كثيرة . وصحب المشايخ ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات . ثم سكن بعض جبال الموصل ، في موضع صار لا يخاف أحد قطع السبل . وارتد جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته ، وعَمر حتى انتفع به خلق ، وانتشر ذكره ، وكان معلماً للخير ، ناصحاً متشرعاً ، شديداً في الله ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، عاش قريباً من ثمانين سنة ، ما بلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ، ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا ، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم في الجبل ، ويحصدها ويتقوت ، وكان يزرع القُطن ، ويكتسي منه»[٤٠] .

وذكر ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٣١هـ) كرامات للشيخ عدى منها : «إنه إذا ذكر على الأسد وقف . وإذا ذكر على موج البحر سكن . وأن رجلاً خدمه سبع سنين ، وطلب منه أن يحفظ القرآن ، فضرب في صدره فحفظ القرآن كله في الوقت ذاته»[٤١] ، ومن كراماته أيضاً : «كان يأمر الريح أن تسكن فتسكن لوقته»[٤٢] . وجاء شعراً في كراماته :

بجــاه عـدي ذلــك ابـن مسـافــــر

بـه تسـكــن الأمــواج في لجـج البحـر

---

(٣٩) المصدر نفسه .

(٤٠) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٢ ص ٣٤٢ .

(٤١) الحنبلي ، شذرات الذهب ٦ ص ٣٠٠ .

(٤٢) الشعراني ، الطبقات الكبرى ص ١١٩ .

وإن قلتـــه للّيث لـم يخـط خطـوة

ولا الشبر مـن قاع ولا البعض من شبر[٤٣]

وذكر عبد الوهاب الشعراني (ت٩٧٣هـ) علاقة الشيخ عدي بالتصوف بقوله : «أوحد أركان هذه الطريقة ، وأعلى العلماء بها . وكان الشيخ عبد القادر ، رضي الله عنه ، ينوه بذكره ويثني عليه ، وشهد له بالسلطنة . وقال : لو كانت النبوة تنال في المجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر . بالغ في المجاهدة في بدايته ، حتى أعجز المشايخ بعده . وكان إذا سجد ، رضي الله عنه ، سمع لمخه في رأسه صوت كصوت وقع الحصاة في القرعة الناشفة من شدة المجاهدة . وأقام في أول أمره زماناً في المغارات والجبال والصحارى (هكذا وردت) مجرداً سائحاً ، يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات . وكانت الحيّات والهوام والسباع تألفه فيهان . وهو أول مَنْ قصد بالزيارات تربية المريدين الصادقين ببلاد المشرق ، وقصده الناس بالزيارة من سائر الأقطار . . . واستوطن بالس إلى أن مات سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ودفن بزاويته المنسوبة إليه ، وقبره ظاهر يزار»[٤٤] .

ومن كلامه الصوفي حسب الشعراني : «لا يخلو أخذك وتركك أن يكونا بالله عزّ وجل أوله . فإن كانا به فهو مباديك بالقضاء ، وإن كانا له فاسترزقه بأمره . وأحذر ما فيه الخلق . فإنك متى كنت معهم استعبدوك . ومتى كنت مع الله تعالى حفظك . ومتى كنت مع فضل الله كفلك . وإذا كنت مع الأسباب فأطلب رزقك مع الأرض . فإنك لم تعط مَنْ في السماء»[٤٥] .

أشارت المعلومات الأنفة إلى الشيخ عدي ، المبجل عند الأيزيدية ، أنه من شيوخ الإسلام البارزين في زمانه . وليس هناك أدنى شك حول إسلامه . وذكرت بأنه صاحب طريقة ، وكرامات ، وصلات بشيوخ التصوف . كذلك وردت الإشارة إلى أتباعه الأكراد ، ومكان ضريحه ببالس (لالش) . غير أن الشيخ عدي بن مسافر لم يكن العابد أو الفقيه الأول ، الذي نزل بمحيط المنطقة الأيزيدية . فهناك «أبو الحسن الهكاري ، والهكارية جبال فوق الموصل فيها قرى ، ابتنى أربطة . وقدم إلى بغداد ، فنزل في رباط الزوزني . وسمع الحديث مـن أبي القاسم بن بشران ، وأبي بكر الخياط ، وغيرهما . وكان صالحاً من أهل السُنّة كثيـر التعبـد»[٤٦] . ولقب الزوزني بحد ذاته له علاقة بالنار والنور ، الذي كان أصلاً في

(٤٣) الحنبلي ، شذرات الذهب ٣ ص ٣٠١ .

(٤٤) الشعراني ، الطبقات الكبرى ، ص ١١٨ .

(٤٥) المصدر نفسه .

(٤٦) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، وفيات السنة ٤٨٦ .

الزرادشتية ذات الصلة بالأيزيدية . قال ياقوت الحموي في (باب زُوزَن) : «قيل لها زوزن لأن النار التي تعبد (الزرادشتية لا تقر بعبادة النار بل وسيلة في التعبد) حُملت من أذربيجان إلى سجستان ، على جمل . فلما وصل الموضع زوزن (برك)» . ولاحقاً سيأتي ذكر جبال زوزان وما علاقة ذلك بوجود الشيخ عدي .

ظهرت للشيخ عدي زاوية العدوية الصوفيه بالقاهرة ، ويحدد نور الدين السخاوي (ت٩٠٢هـ) مكانها بالقول : «القرافة الصغرى ، تنسب إلى العارف بالله عدي بن مسافر الهكاري العدوي»[٤٧] . ويرتبط تاريخ هذه الزاوية بابن أخ الشيخ عدي زين الدين يوسف بن صخر ، الذي هاجر من الموصل إلى الشام ثم مصر ، تاركاً ولده بالشام موفور النعمة ، بعد أن افتتنت به امرأة ذات ثروة طائلة ، من طائفة تدعى القمرية . وبعدها أصبح صاحب جاه بدمشق . وهناك تردد عليه جماعة من الأكراد ، وأوصلوه بالأموال فحاول الخروج على سلطان مصر والشام الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ) . فقبض عليه نائب الشام الأمير المملوك تنكز (ت ٧٤٠هـ) ، وسُجن أتباع الزاوية العدوية بمصر . وبعد موت الحفيد بسجنه (٧٣٣هـ) تفرق الأكراد العدوية أو الهكارية . أما ابن أخ الشيخ عدي ، ووالد الحفيد المذكور ، فقد استقر به الحال بمصر . وتوفي قبل ثورة ولده بأربعين سنة ، ليدفن بالزاوية العدوية .

قال السخاوي : «ظهر بهذه الحكاية أن الشيخ عدي بن مسافر لم يكن بمصر . ولا بالقرافة . بل هذه الذرية من أولاد أخيه صخر ، والشيخ عدي يعرف بالأعزب»[٤٨] . وليس هناك ما يشير إلى اهتمام أيزيدي بالزاوية العدوية ، المكتوب على جبهتها عبارة : «لا إله إلا الله محمد رسول الله . لا إله إلا الله سيدي عدي ولي الله» . ويُقرأ عليها أيضاً : «سيدي عديَ الوسيلة إلى الله . وصلاة الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم»[٤٩] .

أدت حادثتان مؤلمتان إلى هجرة العدويين من الموصل إلى الشام ثم مصر . كان بطلهما حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ . قتل في الأولى الشيخ شمس الدين الحسن بن أبي المفاخر خنقاً السنة ٦٤٤هـ ، الذي يصفه السخاوي عن ابن شاكر الكتبي : «كان من رجال العلم دهاءً ورأياً وحزماً ، وله فضل وأدب ، وله أتباع ، ومريدون يبالغون فيه»[٥٠] . وفي الثانية ، وكانت أشد من الأولى ، أرسل بدر الدين «طائفة من عسكره إليهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً . فانهزمت الأكراد العدوية . وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسروا منهم جماعة ، فصلب منهم

---

(٤٧) السخاوي ، تحفة الأحباب وبغية الطلاب ، ص ١٩١عن المقريزي .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٤٩) الدملوجي ، اليزيدية ، ص ١١٢ ، عن أحمد تيمور .

(٥٠) السخاوي ، تحفة الألباب ، ص ١٩٠ .

مائة وذبح مائة . وأمر بتقطيع أعضاء أميرهم ، وتعليقها على أبواب الموصل . وأرسل مَنْ نبش قبر الشيخ عدياً من ضريحه ، وأحرق عظامه»[٥١] .

ساعدت هذه الحوادث على انتقال الزعامة أو الإمارة من سلالة إلى أخرى[٥٢] . إذ تبادلت الإمارة ثلاث سلالات هي : القاتانية ، والأدانية ، والشمسانية . وهناك مَنْ يقارب بين القاتانية والأدانية وبين السلالتين العربيتين القحطانية والعدنانية . وبالتالي ارتباط هذه السلالات الثلاث بالشيخ عدي العربي المسلم[٥٣] . لكن كيف تمكنت هذه الأسر العربية المسلمة من زعامة أمة كردية أيزيدية؟ يعطي جورج حبيب ، الذي كتب بحيادية واضحة ، تفسيراً لعلاقة آل الشيخ عدي بن مسافر بالأيزيدية . مع الاعتراف بدينهم القديم . قال : حاول الشيخ كثيراً في تحويل هذه الأمة عن دينها ، ومن آثار هذه المحاولة وجود المظاهر الإسلامية في الطقوس الأيزيدية وعوائدها . منها : عيد القربان ، القريب من عيد الأضحى عند المسلمين . وتسمية الجبل المجاور لمرقد الشيخ عدي بجبل عرفات ، وهذا دليل على أنه حدثهم عن مناسك الحج . وتسمية عين الماء ، التي تنبع من تحت معبدهم ببئر زمزم . وأن «تركيز الشيخ حديثه عن الحج ومناسكه ، ما كان إلا محاولة منه لصرفهم عن تضحية الثور ، التي تعتبر أهم المراسيم المثرائية»[٥٤] .

غير أن زمزم ، حسب مصدر أيزيدي ، «تعني الصلاة بصوت منخفض بالقلب ، وجلا في مناجاة العابد لله الخالق . وجميع معابدنا بنيت في أماكن وجود الماء . وزمزم دعاء يردده الزرادشتيون قبل الطعام ، وهي بمثابة دعاء السفر عند الأيزيديين»[٥٥] . وقبل تناول آراء المهتمين بالبحث في أحوال قدوم الشيخ عدي إلى المنطقة ، نتوقف قليلاً عند تاريخ وأسم المنطقة أو وادي لالش المقدس ، لعلنا نتلمس علاقة ما بين الشيخ والمعبد .

أورد ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) أسم شيخان بقوله : «بلفظ تثنية شيخ ، شيخان ، موضع بالمدينة كان فيه معسكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليلة خرج لقتال المشركين بأحد»[٥٦] . وليس هناك ذكر لشيخان كردستان العراق . لهذا قيل : «إن كلمة شيخ إنما دخلت كمصطلح ديني بتأثير إسلامي ، بعد زمن الشيخ عدي ، لتحل محل كلمة أيزيد المثرائية . وإن كانت صفة الأيزيدية قد بقيت كصفة أساسية للديانة الأصلية»[٥٧] . فمن المستبعد

---

(٥١) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٥٢) حبيب ، اليزيدية بقايا دين قديم ، ص ٥٦ .

(٥٣) المصدر نفسه .

(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٥٥) أبو هوري ، «الإيزيدية قدست الشمس» ، جريدة الإتحاد ، العدد : ٣٧٥ .

(٥٦) الحموي ، معجم البلدان ٣ ص ٣٨٠ .

(٥٧) حبيب ، اليزيدية بقايا دين قديم ، ص ٤٩ .

أن تكون شيخان كردستان قد أخذت التسمية من شيخان المدينة عن طريق الشيخ عدي أو غيره، من أجل إلغاء هويتها المثرائية أو الأيزيدية بداية لتغيير الاسم.

أما وادي لالش، الذي تغنى به أحفاد الشيخ عدي بن مسافر كموطن لهم وهم بمصر حيث زاويتهم العدوية، ذكره الحموي بليلش، وهو «قرية في اللحف من أعمال شرقي الموصل. منها الشيخ عدي بن مسافر الشافعي، شيخ الأكراد، وإمامهم»[٥٨]. قال الشيخ زين الدين يوسف، من ذرية أخي الشيخ عدي، وتمرد ولده على السلطان قلاوون، كما ورد في الخبر:

ورمـوني فـي مصر بالسجن وحدي
ليـس لـي مسعد سـوى أجفـاني
كنـت أرجـو الـوصال منهم دواما
لا بـلى اللــه مسـلماً ما بـلاني
هـل عسى هـل عساك تجمع شملي
في حـمـى لالش وعيـش هاني[٥٩]

وقيل في لالش أنها كلمة كردية فارسية قديمة، مركبة من (لإله) ذات المعاني المتعددة المتقاربة، فهي: زهرة زاهية الألوان، الزنبق، شقائق النعمان، والنار. ومفردة (لاله) مع حرف الشين (الاوه ش) تصبح كالزهرة الزاهية، كالزنبق، كالمصباح. ومع مرور الزمن اختصرت إلى لالش، لتعطي معنى نشر النار والنور أي النوراني[٦٠]. وهذا يوافق الديانة القديمة الزرادشتية، التي كانت سائدة بالمنطقة. غير أن باحثاً أخر يجد للالش أصلاً بابلياً وآشورياً، وتعني في اللغتين العلياء والسمو والرفعة[٦١]. ونقرأ أيضاً أن لالش «كلمة مركبة من أيل السامية الفينيقية وايش، محرفة من اسم الإله آشا إله الأرض لدى الآريين»[٦٢].

ظهرت عدة روايات، أغلبها كان متخيلاً، حول وصول الشيخ عدي البعلبكي إلى الشيخان، حيث الوادي المقدس «لالش»، والمعبد الذي أصبح في ما بعد ضريحاً له. ولعل أقدمها يعود إلى العام (١٤٥٢ميلادية). وصلنا عن طريق مخطوطة، يذكر منها القس سليمان صائغ الموصلي (ت ١٩٦١): أن المعبد أو المرقد الذي بوادي لالش كان ديراً مسيحياً، «أسسه الراهبان يوحنا ويشو عسبران في القرن السابع للميلاد. ذلك استناداً على

---

(٥٨) الحموي، معجم البلدان ٥ ص ٢٨.

(٥٩) الدملوجي، اليزيدية، ص ١١٠.

(٦٠) مزوري، «دارسة لغوية تاريخية في جذور كلمة لالش»، مجلة روش الإيزيدية، نيسان ١٩٩٨.

(٦١) ب ش. دلكوفان، «لمحة عن لالش، مجلة روش، نيسان ١٩٩٧.

(٦٢) أبو الهوري، الأيزيدية قدست الشمس، جريدة الاتحاد، العدد: ٣٧٥.

ما أثبتته منظومة يشو عياب بن المقدم، القرن الخامس عشر، ورسالة خطية باللغة الكلدانية قديمة العهد كتبها راهب نسطوري اسمه راميشيوع سنة ١٧٩٣ يونانية الموافقة ١٤٥٢ ميلادية. وتبحث هذه الرسالة عن هذا المقام أنه كان ديراً أسسه الراهبان المذكوران في القرن السابع .ثم احتله الشيخ عدي، وكان مسافر أبوه الكردي النحلة التيرهي المذهب (زرادشتي) راعياً لأغنام الدير المذكور. وبعد وفاته خلفه ابنه عدي في رعاية الأغنام. ثم تغلب على الرهبان سنة ١٢١٩ (ميلادية) فطردهم واغتصب الدير مع أملاكه. وكان رئيس الدير حينئذ غائباً يسيح في الأراضي المقدسة. فلما عاد ورأى ما حل برهبانه رفع ظلامته إلى أمير المغول باطو. فألقى القبض على عدي سنة ١٢٢٣(ميلادية) وقتله. وبعد قتله بسنين يسيرة عاد أولاده فاستولوا على الدير المذكور ثانية»[٦٣].

ويدعي أحمد تيمور المصري أن كاهناً كلدانياً يدعى ماروثا، وحكيم ببغداد، دفع إليه مقالاً متعلقاً بظهور الشيخ بالمنطقة، وقصة أخذه للدير، كما ذكرها القس سليمان صائغ الموصلي. نشره في مجلة «المقتطف» المصرية. وزاد فيه أن الشيخ عدي نشأ بالدير وتعلم العربية والآرامية، مثل الرهبان. وتزوج من فتاة تترية شريفة شهيرة. فارتفع شأنه عند رئيس الدير، فعهد إليه إدارة الدير، وما يتبعه من أملاك، فأجله الناس[٦٤]. وحسب المقال، الذي حصل عليه تيمور، كان الدير يشرف على ثلاثين قرية. وكانت الماشية تحت رعاية أهل الشيخ عدي. فانتهز الفرصة واستولى على الدير، ليقيم فيه هو وأسرته. بعدها حاول رئيس الدير استرجاع ديره، فلجأ إلى المغول عند دخولهم أربيل، وأُحضر الشيخ عديّ، فردَّ على تهمة قتله للرهبان وسيطرته على الدير بأن الفاعل كان أكراد ترهايا. حينها قتل عدي بأمر الخان المغولي[٦٥]. لكن ابن العبري (ت٦٨٥هـ)، يذكر في أحداث السنة ٦٥١هـ أن الذي قتله المغول كان من أحفاد صخر أخي الشيخ عدي، وهو «شرف الدين محمد بن الشيخ عدي (غير ابن مسافر) من بلد الموصل»[٦٦].

ينتقد القس الموصلي المعلومات الواردة في المخطوطة (لعلها المقال نفسه الذي نشره تيمور)، وثقة الباحث الفرنسي المسيو (نو) فيه، الذي جعل الشيخ عدي كردياً زرادشتياً، مع عدم إنكاره عدي العربي المسلم القادم من الشام إلى الموصل. قال الموصلي: «أفتكر أن الأول هو غير الثاني. والعقبة التي اعترضت هذا البحاثة في طريق أبحاثه خاصة هو الفرق في تاريخ وفاتهما. إذ أن عدي الأموي توفي سنة ١١٦٠ أو ١١٦١ (ميلادية)، وعدي الكردي

---

(٦٣) الصائغ، تاريخ الموصل ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٦٤) أحمد تيمور، القول الفصل في أصل اليزيدية، مجلة المقتطف، يوليو ١٩٢٢.

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) ابن عبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٧.

قتل سنة ١٢٢٣ (ميلادية) . ولعل عدي الذي أحتل الدير المسمى اليوم باسمه هو غير عدي الذي أقبل بنفسه من بعلبك إلى الجبال الهكارية»[٦٧] . ويحتمل الموصلي أن يكون عدي بن صخر بن مسافر هو الذي أحتل الدير ، لقربه من التاريخ الذي يعنيه صاحب المخطوطة[٦٨] . ولدى الموصلي ثقة كبيرة بأن المعبد كان ديراً مسيحياً نسطورياً . لكنه يختم بحثه بالقول : «إلا أننا لا نعلم كيف أصبح هذا الدير زاوية للشيخ عدي الأموي . ولا كيف آل أمره إلى يد أبناء الأمة اليزيدية؟»[٦٩] .

حاول باحث آخر الابتعاد عن حكاية اغتصاب الدير النسطوري بالفرضية الآتية : «أن منطقة الشيخان كانت ولاشك في حالة دمار ، بعد حصار كربوقا (المغولي) . سار إلى الموصل السنة ٤٨٩ هـ . وربما كانت قد خلت من معظم سكانها في ذلك الحين . وليس مستبعد أن يكون مجيء الشيخ عادي والمنطقة خالية من أي ساكن ، مما سهل عليه اتخاذ زاويته قرب معبد مثرائي من دون أن تثار هنالك أي ضجة . ولعل رجوع اليزيدية بالتدريج إلى معبدهم ، وهو يتعبد هناك ، جعلهم ينظرون إليه بشيء من الحرمة والرهبة ، وهو وحيد في ذلك القفر»[٧٠] . تكون هذه الفرضية مقبولة لو عالجت دوافع الشيخ عدي لترك الشام والحياة بين الجبال ، وإقامته وتعبده بمعبد مثرائي . على الرغم من رغم وجود المساجد والربط الصوفية بالمناطق المحيطة ، وتعامل أهل هذا الدين مع شيخ مسلم . إضافة إلى حاجز اللغة ، فالشيخ كان عربياً والقوم كانوا كرداً .

واعتقد الأب أنستاس الكرملي (ت ١٩٤٧) ما ذكر آنفاً من أن المعبد كان بالأصل كنيسة نسطورية ، ونقل عن أيزيديين أن اسم عدي بني على اسم القديس أدّي أو آدي ، أحد المبشرين الأوائل بالمنطقة . «ثم تفرق رهبان الدير بإغواء من الدين ، فظهر الشيخ عادي بدعوته»[٧١] . لكن القس سليمان الموصلي ينقل عن الأب مارتان قوله : «إن معبد الشيخ

---

(٦٧) الصائغ ، تاريخ الموصل ١ ص ٣٠٠ .

(٦٨) المصدر نفسه .

(٦٩) حبيب ، اليزيدية بقايا دين قديم ، ص ٣٠٢ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٧١) الكرملي ، «اليزيدية» ، مجلة المشرق ، مارس ١٨٩٩ . يذكر الكرملي في المصدر نفسه حكاية أيزيدية ، سمعها من أفواه بعضهم ، تفسر تحول الدير إلى معبد أيزيدي وتحول الرهبان وأتباعهم إلى أيزيديين . ونص الحكاية : «كان المزار المدفون فيه اليوم الشيخ عادي ديراً للرهبان النساطرة ، مشهوراً بقداسة ساكنيه . . فيه كنيسة مبنية على اسم القديس أدي أو آدي . فنفث الطاووس الملك في صدور الرهبان ، أن يتركوا الصلوات والأصوام ، والعيشة القشفة . لأن الله تعالى قد غفر لهم سيئاتهم كلها . وأوعد لهم مقاماً سامياً في جنة الخلود . فسول إليهم أن يتزوجوا ، وأن يأكلوا خبزهم بعرق جبهتهم . فبينما كانوا قد خرجوا يوماً من البيعة ، وفي مقدمتهم الصليب ليطوفوا ثلاثة أيام حول

عدي كان قديماً ديراً على اسم مار آدي ، أحد الاثنين والسبعين تلميذاً»[٧٢] .

ويعتقد باحث آخر أن الشيخ عدي بن مسافر الساكن بالالش كان من أحفاد الأمويين ، الذين لاذوا بجبال المنطقة هروباً من البطش العباسي[٧٣] . اعتمد هذا الرأي على تعصب عدد من الأكراد ليزيد بن معاوية ، بعد التوهم بسبب تشابه الاسم بين يزيد وأيزيد اسم الله . ولهذا صحف الاسم من الأيزيدية ، وبسهولة ، إلى اليزيدية . وتنقص الرأي الآنف الروايات المتقدمة حول حياة أو سيرة الشيخ عدي بن مسافر ، الذي ولد ببعلبك وقدم إلى الموصل في ظروف غير معروفة . واللافت للنظر ، أن يعقوب سركيس ، أو محرر مجلة «لغة العرب» ، وضع كلمة «أيزيدي»عنواناً لتعقيب ورد فيه «أن عز الدين بن يوسف الكردي العدوي ، كان أمير حلب ، وأنه كان يزيدياً»[٧٤] . نقول لافت للنظر ، لأن الكل بدون استثناء يدعون أهل هذا الدين باليزيدية ، وكأن رواية العلاقة بينهم ويزيد بن معاوية أصبحت واقعاً .

ويأتي تيمور برواية ، قد تؤيد الرأي السابق ، ملخصها : أن قوم عدي بن مسافر الأموي كانوا يصعدون إلى جبل زوزان صيفاً ، وينزلون منه شتاءً ، ليقيموا في سهل الموصل . وكانوا على صلة بقبيلة كردية تدعى (زدنايا) ، فكانت هذه القبيلة تكرم آل أُمية ، وأن المنتمين إلى الشيخ عديي أكراد ترهايا من المسلمين ، وعددهم يتجاوز الألف بيت[٧٥] . وينقل يعقوب سركيس عن مصدر آرامي رواية شبيهة بالرواية السابقة ، أخذها عن مستند يعود تاريخه إلى ٨٥٥هـ (١٤٥٢م) ، وتتناقض أيضاً مع ما ورد حول سيرة الشيخ عدي في المصادر الإسلامية .

ترجح الرواية وصول الأمويين إلى جبال زوزان السنة ٢٦٦هـ ، بعد مذبحة عظيمة ، فرحلَ مَنْ كان يوالي يزيد إلى الجبال المذكورة وبلاد فارس . وفي هذه الأثناء ظهر شخص

= الكنيسة استدرارا لنعمه تعالى بالشكر ، وتبركا بعيد عظيم يقع بعد ثلاثة أيام ، رأوا طرسا معلقا بأعلى الشجرة التي كانت موجودة في فناء الدار . فوقف الطواف عند ذلك وأمر رأس الدير أن تُنزل تلك الصحيفة وتُقرأ .
فلما أُنزلت رأوا مكتوباً فيها ما يأتي : أيها الرهبان الأتقياء : إن الله قد غفر لكم كبائركم وصغائركم ، فلا تعودوا تقشفون أنفسكم ، بل اهجروا الدير ، فتفرقوا وتأهلوا وأتونا بولدان نجباء والسلام . فلما وقف الرهبان على ما انطوت عليه هذه الرقعة عجبوا كل العجب . فقالت طائفة منهم : إن هذا إلا من الشيطان الرجيم ، وقال آخرون : إن هذا إلا من الرحمن الرحيم . ومن ثم ثارت الشحناء بين الفريقين ، ولما كان الغد وفعلوا ما فعلوه أمس رأوا طرساً آخر وفيه مكتوب ما قرأوه البارحة . ثم رأوا نفس هذه الأشياء في اليوم الثالث ، فأتفق جميع الرهبان على أن يهجروا الدير ، ويفعلوا بما قرأوه . فتفرقوا شذر مذر ، وتزوجوا ودانوا باليزيدية»(مجلة المشرق ، التاريخ المذكور) .

(٧٢) الصائغ ، تاريخ الموصل ١ ص ٢٩٨ عن كلدو ، ص ٢٨ .

(٧٣) الأحمد ، اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم ١ ص ١٠٥ .

(٧٤) المصدر نفسه ، تموز ١٩٢٩ .

(٧٥) تيمور ، «القول الفصل في اصل اليزيدية» ، مجلة المقتطف ، العدد ١٩٢٢/٦١ .

أموي يدعى أحمد (جد الشيخ عدي بن مسافر) فرأسهم في تلك الجبال ، وخلفه بعده ابنه مسافر ثم ابنه عدي . فاهتدى الأيزيديون به إلى الإسلام .«لكنه فرض عليهم أن يؤمنوا بأن يزيد كان إلهاً ، وأنه أيضاً كذلك إله . ثم أضاف شرف الدين وشمس الدين ابنا عادي اعتقادات شتى إلى معتقداتهم ، كما يرويه تاريخهم»[٧٦] . وهذا الرأي ضعيف لسبب بسيط هو أن مطاردة العباسيين للأمويين أنتهت قبل هذا التاريخ بفترة طويلة ، فلم يبق أموي إلا وقتل أو إلتحق بموطنه الجديد الأندلس . ويرى الرأي السابق صديق الدملوجي ، فيعتبر ردتهم عن الإسلام مسؤولية الشيخ شمس الدين (حفيد أخي الشيخ عدي) . «فقد ذهب به الحماس إلى نيل الملك لدرجة أن جعله يضحي بدينه ، فوضع نفسه بمنزلة الآلهة ، ودعا قومه للإيمان به ، فآمنوا به وأتبعوه وعدوه إلهاً وعبدوه . وتفانوا في سبيل دعوته . . . فقد دعاهم إلى عبادة إله الشر ، وهي عقيدة مجوسية . وأوجب عليهم مجاملته ومصانعته ، وأفهمهم أن لا خلاص لهم من شروره وآثامه إلا بتقديم النذور والقرابين»[٧٧] .

غير أن الشيخ شمس الدين حسن بن عدي ، الذي عده الدملوجي مفسداً ، قال عنه ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) : «الملقب بتاج العارفين شمس الدين أبو محمد شيخ الأكراد ، وجده أبو البركات هو أخا الشيخ عدي رحمه الله ، وكان شمس الدين من رجال العلم رأياً ودهاءً ، وله فضل وأدب وشو ، وتصانيف في التصوف ، وله أتباع ومريدون يبالغون فيه»[٧٨] . والشيخ حسن هو الذي قتله أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ السنة ٦٤٤هـ[٧٩] .

وزاد الكتبي بقوله : «وفي الأكراد طوائف إلى الآن (القرن الثامن الهجري) يعتقدون أن الشيخ لا بد أن يرجع»[٨٠] . بيد أن المستشرق مينورسكي ، الذي زار المنطقة ، أشار إلى التناقض بين اعتقاد المسلمين في صلاح الشيخ عدي وبين ممارستهم ضد مرقده . قال : «من الطريف أن المؤرخين المسلمين يعتبرون هذه الشخصية التاريخية ، الذي عاش في القرن الثاني عشر للميلاد مسلماً صالحاً ، ولا يعتبرونه من دين آخر ، أو عقيدة أخرى . ولكن بالرغم من هذا أن السكان المسلمين قد هدموا مرقده في ١٤١٥ الميلادي»[٨١] .

ليس هناك شك في أن عدي بن مسافر كان مسلماً على المذهب الشافعي ومتصوفاً . والصلة بين التصوف والمذهب الشافعي معروفة . لكن عدي الأيزيدية كان شخصاً آخر . أما

---

(٧٦) «اليزيدية» ، مجلة لغة العرب ، يونيو ١٩٢٩ ، عن المستند الأرامي ، ص ٦٧ .

(٧٧) الدملوجي ، اليزيدية ، المقدمة : ل .

(٧٨) الكتبي ، فوات الوفيات ١ ص ٣٣٥

(٧٩) المصدر نفسه .

(٨٠) المصدر نفسه .

(٨١) مينورسكي ، الأكراد ملاحظات وانطباعات ، ص ٥٥ .

هدم السكان المسلمين لمرقده فهذا ليس دليلاً على ما ذهب إليه مينورسكي . فالمرقد المذكور سواء كان فيه عدي المسلم أو آدي المسيحي فهو كان ولا زال مكاناً مقدساً عند الأيزيدية . وأن اعتداء المسلمين عليه كان ضد ديانة ، وليس ضد صاحب المرقد! وفي العلاقة بين يزيد بن معاوية والمنطقة الكردية ، نذكر برواية السمعاني السالفة .

توكد إشارة مصحف «رش» (كتب الأيزيديين المقدسة لا تنسجم مع ماهية الديانة ، ولابد أن تعرضت إلى تبديل وتغيير) إلى معاوية أن أموياً دخل عرضاً على الأيزيدية ، فحول ما لأيزيد الإله إلى يزيد بن معاوية . وعن طريقه دخلت الخرافة الآتية ، كما تصرف بها أحمد تيمور عن المصحف المذكور : «أن معاوية أباه (أبا يزيد) كان خادماً لنبي الإسماعيليين ، وحلق رأسه يوماً فجرحه ، واكب عليه الدم ، فلحسه بلسانه ، لئلا يسيل على الأرض . فقال له النبي : أخطأت ، وستكون ذريتك أعداءً لأمتي ، فعاهده على أن لا يتزوج أبداً . ولم يكن له بنون من قبل . ولكن الله سلط عليه عقارب لدغته في وجهه ، وجزم الأطباء بموته إن لم يتزوج . فتزوج امرأة في الثمانين ليأمن حملها ، فلما أصبحت إذا هي ابنة خمس وعشرين ، فحملت وولدت يزيد ، أحد آلهتهم السبعة»[٨٢] .

كذلك يرى القس سليمان الموصلي ، القريب من مضاربهم ، أن لا صلة للأيزيديين بيزيد بن معاوية ، أو أي يزيد غيره ، و«الأصح أن ينسب تعليل تسميتهم بذلك إلى إله كانوا يعبدونه أسمه يزد أو يزدان»[٨٣] . ولا يقرون اليوم بيزيد بن معاوية ، ولا بما صدر عن مركز الأمويين ببغداد ، الذي تأسس بعد تموز ١٩٦٨ . غير أن دعوة أصلهم العربي لم تكن حديثة فقد نقلها أنستاس الكرملي ، عن آخرين ، في نهاية القرن التاسع عشر ، بالقول : «إن أصل اليزيدية من عرب العراق والجزيرة ثم أنضم إليهم عدد عديد من أهل العجم حتى تغلّب العنصر العربي ، وسحناتهم وتقاطيعهم تؤيد هذا القول»[٨٤] . ثم يعود الكرملي ليجعلهم متشابكي الأُصول تغلب عليهم التقاطيع الهندية الأوروبية ، ممتزجة بتقاطيع عربية وأخرى كردية . غير أن اعتزازهم بلغتهم الكردية القديمة إذ يعتبرونها لغة أهل الجنة ، وما جاء في تقرير عصبة الأمم المتحدة ١٩٢٥ بأنهم يجلون هذه اللغة إلى حد التقديس ، قد يحول دون القول بأصولهم العربية أو الآشورية .

قال الشيخ علي الشرقي حول أصلهم ، بما يبعدهم عن الأصل الأموي وكل ما يتعلق بيزيد بن معاوية : «يظهر أن جنسيتهم كردية ، ويمكن أن يقال إنهم قوم كردي خاص باق

---

(٨٢) «اليزيدية وبحث في منشأ معتقدهم» ، مجلة المقتطف ، المجلد ٤٨ ، ١٩١٦ .

(٨٣) الصائغ ، تاريخ الموصل ، ص ٢٩٥ ، ٣٠٠ .

(٨٤) اليزيدية ، مجلة الشرق ، ١٨٩٩ .

على قدمه ، وأكثرهم عاداتهم وتقاليدهم عين العادات والتقاليد الكردية . وقد أُشير لهم في خريطة الألوان البشرية بلون غير اللون الكردي . لكن الخريطة التي أصدرتها جمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩١٠ تشير إليهم وإلى الأكراد بلون واحد . إلا أن الاختلافات السياسية حول الموصل بناء على أساس القوميات أدت إلى أنهم يشكلون جسماً مدمجاً من الأكراد والأتراك . وجاء في النسخة القديمة أن مبادئ هذه الفرقة كانت معروفة قبل الشيخ عدي ، في قبيلة كردية من القبائل القاطنة شمال العراق ، وهي قبلية ترهايا»[٨٥] .

ويرى يعقوب سركيس في رده على أحمد تيمور : أن الأيزيديين كانوا على الديانة المانوية ، فاسلموا زمن عدي بن مسافر ، وفيهم التراهية ، وكانوا مسلمين زمن القاضي والمؤرخ الأربيلي ابن خلِّكان (ت ٦٨١هـ) بشهادته . لكنهم ارتدوا إلى دينهم القديم ، وظلوا على تعظيم عدي بَن مسافر ، تعظيماً لا يليق بمخلوق ، إضافة إلى ما أنتجته مخيلتهم الشعبية[٨٦] .

وخلاف ما ورد في الروايات الآنفة ، من التي تعرضت إلى المعبد على أنه كان ديراً مسيحياً نسطورياً ، أو التي تعرضت إلى إسلام الأيزيديين ثم ردتهم ، يأتي جورج حبيب بأدلة نقيضة ، تؤكد قدم هذه الديانة وصلتها بالمثرائية . من هذه الأدلة أن طراز بناء المعبد ، الذي يضم رفات الشيخ عادي ، يحوي محاريب سبعة . ويقع على كهف ذي ينبوع مائي . ومعنى هذا أنه معبد مثرائي ، فالمحاريب تشير إلى الدرجات المثرائية السبعة ، وأن المعابد المثرائية الأولى كانت كهوفاً تقع على ينابيع مائية[٨٧] . كذلك أن المعبد الحالي لم يكن في يوم من الأيام ديراً مسيحياً ، أو مسجداً إسلامياً بدليل أن منطقة باعذرى ، التي يقع فيها المعبد «كلمة آرامية مختصرة من بيت عذرى ، أي دار الأعوان . فهي إذن دار الأيزيدا ، الآلهة الأعوان . ولعل الاسم يشمل المنطقة المحيطة بالقرية ، فاختص بالقرية وحدها . وإننا نجد نفس التعبير اليوم بلغة عربية كردية تشمل المنطقة ، هي كلمة شيخان . فكلمة شيخ عربية ، ولكنها جمعت بالصيغة الكردية ، بإضافة ألف ونون ، حيث أصبحت شيخان ، فهي منطقة الشيوخ ، أي الأعوان ، وهي الآن موطن دار الإمارة اليزيدية»[٨٨] .

كذلك يجد حبيب في تاريخ الإمارة الأيزيدية دليلاً على أصالة الدين الأيزيدي ، فيجيب على سؤال : لمن كانت الزعامة قبل أن يأتي الشيخ عدي إلى لالش؟ بقوله : «ليس

(٨٥) االدملوجي ،ليزيدية ، ص ٣٨٩ ، عن مجلة العرفان ، المجلد الحادي عشر ، ١٩٢٦

(٨٦) اليزيدية ، مجلة لغة العرب ،يونيو ١٩٢٩ .

(٨٧) حبيب ، اليزيدية بقايا دين قديم ، ص ٤٩ .

(٨٨) المصدر نفسه .

من شك أن أسم الشمسانية يشير بوضوح إلى الشمس ، أيزيد ، الذي ينتسب إليه الأيزيدية . ومن هنا يتضح أن الزعامة ، قبل مجيء الشيخ عدي ، كانت دائماً تتمثل في الزعيم الديني ، الذي يمثل الإله الشمس ، والتي لم تكن وراثية في النظام المثرائي . ولعلها أصبحت وراثية بعد امتزاجها بالديانات البابلية ، في عهد متأخر نسبياً . أما وقت أزيحت الزعامة من العائلة الشمسانية بعد أن استلم القيادة خلفاء الشيخ عدي ، فقد جرى استرضاء هذه العائلة الشمسانية ، بأن جعلوا زعيمها وزيراً ، فأصبح الشيخ الوزير هو لقب الشمساني»[٨٩] .

نجد في بحث للأيزيدي حسو أمريكو أن للأصول المانوية والزرادشتية (التراهية أو الميثرائية) علاقة بدين رئيس الملائكة . قال : «وفقاً للأيزيدية فأن الملاك سن أو (الشيخ سن) ، حسب التعبير الدارج ، هو المسؤول عن العلم والقلم والمعرفة . وهو نورائيل ، الذي يقابل يوم السبت . وهو ناقل الوحي إلى كل الأنبياء . وأطلقت الأيزيدية تعظيماً له اسم فخر الدين ، أي أنه افتخار للدين ومصدر له ، بصفته ناقلاً للوحي ، وتقر الأيزيدية بأن القمر هو مسكن فخر الدين»[٩٠] .

ومن أثار الداسنية نسبة إلى الملاك سن ، أن اسم زعيم الأيزيدية العام ١٥١٦ (ميلادية) كان حسين بك الداسني[٩١] . وأن المسيحيين ، «الذين يتكلمون بالسريانية الدارجة في القرى التي قرب الموصل ، فيسمونهم ديصانية وديسانية»[٩٢] . لكن أحمد تيمور بعد أن ينسب تسمية الديسانية إلى ابن ديصان المنجم المسيحي يستدرك بالقول : «ولعلهم سموا كذلك لعبادتهم الشمس والقمر والنجوم»[٩٣] . ويُعتقد أن دين رئيس الملائكة ، حتى العهد البويهي ، كان شائعاً بسوران . لكن البويهيين «من موقعهم الديني هذا مارسوا التأثير على سوران ، فتحولوا عن دين رئيس الملائكة»[٩٤] . ورئيس الملائكة هو عزرائيل المعروف بطاووس ملك . وهو أول مخلوقات الله يوم الأحد . والملائكة الستة هم : دردائيل ، إسرافيل ، ومكائيل ، وجبرائيل ، وشمنائيل ، ونورائيل[٩٥] .

كان طاووس ملك ، الذي يرفع الأيزيديون تمثاله في طقوسهم ، معروفاً في الأديان العراقية القديمة . فالطيور المقدسة «من خصائص ديانة البابليين . وقد تكون من خصائص

(٨٩) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .
(٩٠) دين رئيس الملائكة المنانية ، روش ، أيلول ١٩٩٧ .
(٩١) المصدر نفسه .
(٩٢) أحمد تيمور ، «اليزيدية أو عبدة إبليس» ، مجلة المقتطف ، أكتوبر ١٩١٦ .
(٩٣) المصدر نفسه .
(٩٤) دين رئيس الملائكة ، مجلة روش ، أيلول ١٩٩٧ .
(٩٥) الدملوجي ، اليزيدية ، ص ١ - ٢ .

ديانة الأشوريين أيضاً . وكانت عندهم بمثابة أرواح ، ذات سلطة على أعمال الناس . . . وكان لها في قصر ملك بابل صور من الذهب على ما قاله فيلوسترانس . ووصلت عبادة الطيور من أشور إلى الإسرائيليين . فقد جاء في سفر تثنية الاشتراع (٤ و١٧) : لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً شبه طير ما ذي جناح مما يطير في السماء»[٩٦] .

عقب تيمور على الاقتباس الآنف بقوله : «أفلا يحتمل أن تكون صورة الطاووس من بقايا الديانة البابلية»[٩٧] . ونحن نتساءل بدورنا ألا يُخالف هذا رأي تيمور القائل : «إن اليزيدية إلا طائفة من الصوفية ، ثم صاروا من غلاتهم ، وما زالوا يتمادون في الغي ، حتى باينوا جميع الفرق الإسلامية ، وخرجوا من الإسلام جملة»[٩٨] . نقول : إذا كان الشيخ عدي بن مسافر صوفياً فالأيزيدية ديانة مستقلة . احتضنت الشيخ المذكور لأسباب غير معروفة ، وظلت على ما هي عليه ، مع تأثرها بالمحيط . فالشباب الأيزيدي المتعلم يدرك اليوم أن الشيخ عدي كان طارئاً على تاريخ ديانتهم ، ويقرون بإسلامه ، مثلما يقرون بمرتكزات دينهم . ويحاولون أن ينزعوا عن تاريخهم ما كتبه الآخرون . وإذا فات أسلافهم الدفاع عن دينهم بالخطاب والجدل ، واكتفوا بالتحصن بالجبال والوديان ، والانغلاق على النفس ، فأن الجيل الحاضر يكتب ويجادل ويرد الحجة بالحجة . وقد تولت هذه المهمة مجلتا : «لالش» ، الصادرة بدهوك عن مركز لالش الثقافي الاجتماعي ، و«روش» ، التي يصدرها بألمانيا أيزيديون متنورون .

وإذا كان «طاووس ملك»مقدساً لدى الأيزيديين ، فأي ديانة خلت من تقديس أو احترام حيوان ما . فالخنزير المحرم لحمه عند المصريين القدماء واليهود والصابئة والمسلمين كان مقدساً في فترة ما . وعلة تحريمه الأولى لأنه كان طوطماً . ثم تحول تعليل هذا التحريم إلى أسباب ميثولوجية ، كعدم اجتراره ، مثل المواشي ، كما فسر ذلك اليهود ، أو لأنه بالأصل كان إنساناً مسخ إلى خنزير كما هو الحال عند المسلمين . ولينظر إلى الهدهد ، كيف جعل منه النبي سليمان رسولاً ، وحُرم أكل لحمه في الشريعة اليهودية . و ورد في القرآن الكريم «وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهُدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مُبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تُحط به وجئتك من سَبَإٍ بِنَبَإٍ يقين»[٩٩] . لذا أكثر الناس القول في الهدهد حتى عدوا عظمه مفيداً للسحر .

---

(٩٦) أحمد تيمور ، «اليزيدية أو عبدة إبليس» ، مجلة المقتطف ، أكتوبر ١٩١٦ ، عن السرهنري ليرد .

(٩٧) المصدر نفسه .

(٩٨) المصدر نفسه ، مجلة المقتطف ، يناير ١٩١٦ .

(٩٩) سورة النمل ، الآيات : ٢٠ - ٢٢ .

ولفت الطاووس، الذي يضرب المثل بكبريائه وجماله، نظر الإمام علي بن أبي طالب، فقال وهو يصف الطيور: «ومن أعجبها الطاووس، الذي أقامه في أحكم تعديل. ونضد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه، وذنب أطال مسحبه. إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسما به مطلاً على رأسه. كأنه قلع داريٌ عنجه نوتيُه. يختال بألوان (إلى قوله) فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلتَ: جنيٌ جُني من زهرة كل ربيع. وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشى الحللِ، أو كمونق عصب اليمن. وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان، قد نطقت باللجين المكلل. يمشي مشي المرح المُختال. ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله، وأصابيغ وشاحه. فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقاً مُعولاً بصوت يكاد يبين عن استغاثته... فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن، أو تبلغه قرائح العقول، أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين. وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه. والألسنة أن تصفه»[١٠٠]. فما الغريب إذاً في أن يكون للطاووس تمثال عند الأيزيدية، كرمز للعبادة! قال أحد الأيزيدية: «الطاووس عندنا هو الراية السماوية. رمز الإله ناشر السموات السبعة. والمسيطر على الأرض، التي يحكمها بالعدل والمعرفة»[١٠١].

معبد لالش

في الطريق إلى زيارة معبد لالش (أكتوبر ٢٠٠٠)، حيث تعلو القباب المخروطية[١٠٢] البيضاء فوق المعبد، تحدث الأيزيديان درمان خلف حيدو، مسؤول مالية مركز لالش بدهوك، ومشير شمو حاج، مسؤول العلاقات بالمركز، والمشغول بقيادة السيارة عبر الطرق الملتوية، عن العلاقة بين الأيزيديين المتنورين أو المتعلمين وبين أميرهم تحسين بك بن سعيد بك، الذي يحاول المحافظة على عرشه الأميري. وقد تحكم هذه العلاقة ظروف المنطقة السياسية. فالأيزيديون موزعون بين حكومة إقليم كردستان والحكومة المركزية ببغداد، والأمير مقيم بسنجار، ولم يأت إلى لالش إلا في المواسم، عند ظهور تمثال طاووس ملك والسناجق، فهي أيام مربحة فهو موسم النذور والتبرعات.

---

(١٠٠) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٣

(١٠١) أبو هوري، «الأيزيدية قدست الشمس»، جريدة الإتحاد، العدد: ٣٧٥.

(١٠٢) تعلو القباب المخروطية العديد من أضرحة ومقامات الأولياء بالعراق، مثل: مقام الحسن البصري بالزبير من البصرة، والإمام محمد الدري بمدينة الدور من سامراء، والشيخ حديد بمدينة حديثة من الأنبار، و ضريح ذي الكفل قريباً من بابل وغيرها. لاندري لماذا أهمل مؤلفا كتاب القباب المخروطية بالعراق قباب معبد لالش، وربما كان لها السبق في هذا النوع من القباب. راجع الحديثي وهناء عبد الخالق، القباب المخروطية في العراق، وزارة الإعلام، مديرية الآثار العامة-بغداد.

ولعله ينظر إلى الأمور بمنظار آخر، فهدية إقليم كردستان السبعمائة ألف دينار سويسري (٤٠ ألف دولار أمريكي)، وتأسيس دائرة الشؤون الأيزيدية، وتعمير البناء والحياة في المعبد التي سيتولاها الشباب الأيزيدي المتنور ستهز مكانته، وقد تضعف من سطوة الأمير الأيزيدي في المناطق التابعة للحكم المركزي، مثل سنجار، وبعشيقة، وقسم من الشيخان. ورغم العوائق، التي يحاول الأمير وضعها أمام شباب ملته، إلا أن مركز لالش الثقافي والاجتماعي، ومجلته الفصلية «لالش»، وتجمع الشباب الإيزيدي خارج العراق وإصدار مجلتهم «روش» بالمانيا سينقل الأمة الأيزيدية إلى حياة جديدة، تتفق مع متطلبات العصر، فيظهر دينهم إلى الآخرين، وأن كفوا عن الانزواء.

يتذكر الشباب الأيزيدي جيداً ما حاولته الحكومة العراقية في نهاية الستينيات عبر أحد أمراء الأيزيديين والمعروف ببايزيد الأموي يوم أعلن عن نفسه أنه عربي أموي الأصول. وفعلاً فتحت الدولة مركزاً ببغداد عنوانه المركز الأموي، بإدارة الأمير المذكور. وحينها كتب في مجلة «التراث الشعبي» البغدادية العام ١٩٦٩ مقالاً يعقب فيه على ما كتبه عبد الرزاق الحسني حول أعياد الأيزيدية، موقعاً مقاله ببايزيد الأموي. وعند السؤال عن موقفه في ما بعد قيل: إنه ادعى في ما بعد أن الأيزيديين من أصل آشوري. ونقرأ في مجلة أو نشرة آشورية تصريحاً وقعه ولده أنور معاوية إسماعيل، جاء فيه «إن للشعب اليزيدي والآشوري مصيراً واحداً على أساس تاريخ واحد وأرض واحدة وعلم واحد، بعد أن علمنا تاريخياً بأن اليزيديين والآشوريين من بقايا الامبراطورية الآشورية، وتجمعهم قومية واحدة مشتركة»(١٠٣). ومع ذلك كل الاحتمالات واردة، فالأصول متشابكة ومتداخلة في المنطقة.

كانت السيارة تنهب الطريق بين دهوك والشيخان، رغم عوائق الطريق من حفريات وقطعان الأغنام والماعز التي يرعاها العرب الرحل اللاجئون إلى المنقطة بحثاً عن الكلأ. واصل درمان الحديث راداً على استفساراتي التي استرجعت فيها قراءاتي حول هذه الديانة، وكل ما تمنيته أن يكون كل ما قرأته وكتبته عن الأيزيدية صحيحاً، أو مقارباً للصحة. وكلما دنونا من المعبد تزداد شكوكي في معلوماتي. ولعل مصدر الشك هو الخوف من التباين بين أنباء الكتب، وكذب الرواة وأغراض المغرضين، وبين الواقع المعاش.

قبل الوصول إلى المعبد لفت نظري خان قديم مهجور، أصبح مأوى للكلاب السائبة، التي ولت هاربة باتجاه الوادي، دون أن تُبدي أي اعتراض على دخولنا إلى مأواها وسط الوادي. يشير طراز البناء إلى عمارة عباسية أو أقدم من ذلك، ترفع سقفه سبعة أعمدة ضخمة من الطابوق، وهو مكان قديم لنزول الحجاج الأيزيديين في مواسم الأعياد، ومن مشاريع الأيزيديين المستقبلية الاهتمام بهذا الخان كأثر من آثارهم التاريخية.

---

(١٠٣) حويودو الآشورية، السويد، العدد ٥٠، سبتمبر (أيلول) ١٩٩٢.

بدا الوادي المقدس خلف الخان المحصور بين الجبال الثلاثة : عرفات ، خررت ومشت . لاحت على مسافة ميل القباب المخروطية البيضاء ، تتوسطها قبة كبيرة تتألف من أربعة وعشرين خطاً منحوتاً بالحجر ، كل خط يشير إلى ساعة من الزمن . أما القباب الأخرى فتتألف من اثني عشر خطاً ، كل خط منها يشير إلى شهر من الزمان . كان سؤالي مفاجئاً لخادم المعبد الفقير جندي . فلم يخطر على باله أن يعد خطوط القباب المخروطية . تكفل درمان في الصعود إليها لعدها ، وأعتقدت حينها أن هذا الطراز من القباب له علاقة بحساب الزمن . وافقني درمان مجاملة ، ومضينا بالحديث حول تفاصيل المكان الأخرى . لحظة الوصول إلى المعبد هطل مطر غزير ، وعلا السماء قوس قزح ، فقلت هذه من بركات الشيخ آدي ، فتمتم من كان معي استحساناً .

يُعد خلع الحذاء عند عتبة دار الضيافة ، التي تؤدي إلى المعبد ، من مستلزمات الزيارة ، التي يتقيد بها الجميع . لم يفارقني ما قرأته حول هذا المكان ، وما احتفظت به من صوره الملتقطة في بداية القرن العشرين . وكنت أتحدث مع نفسي هل سأرى ما يطابق المشهد كما هو في الكتب ، وأن ألتقي بالناسك الشاويش ، كما يعرف عند الأيزيديين ، الذي تنسك بالمعبد منذ ١٩٤٩ ، وانتشرت صوره عبر كامرات الرحالة الأجانب ، بظفائره وغطاء رأسه المميز؟ وعند السؤال عن هذا الرجل قيل لي : نُقل إلى المستشفى قبل أيام ، بيد أن جيلاً جديداً من الشواويش ستراهم حالاً . وهل سيصمد لساني ولم تخرج منه كلمة الشيطان المحظورة . ولو حصل ذلك عفوياً ماذا ستكون العاقبة وأنا وسط أيزيديين متدينين؟ كل هذه الأسئلة دارت بخلدي ، ولم أبادر إلى السؤال إلا بعد أن أنظر جيداً في وجوه مَنْ حولي . الحقيقة ، ليس هناك ما يهددني . لكن مبالغات مَنْ كتبوا عن هذا الدين زرعوا الحذر الشديد في نفسي .

كانت الأرض ندية باردة ، فالشتاء على الأبواب ، ولا مفر من التجوال في مساحة تقدر بألفي متر مربع حافياً ، وفيها مغارة تنبع داخلها عين ماء ، شديد البرودة ، ومقدس عند الأيزيديين . وقبل التوجه إلى بوابة المعبد جلسنا في المضيفة أمام لوحة فنية كبيرة لوادي لالش ، تظهر فيها القباب المخروطية الثلاث . وبين الحين والآخر يمر أمامنا شاب ملتحٍ ، يرتدي الثياب الدينية البيضاء ، ويتكلم العربية بحياء . سألت عنه ، قالوا : هذا معتكف في المعبد منذ ١٩٩٥ . وهو من عشيرة البير ، الذين يحق لهم أن يكونوا شواويش ، حالهم حال الرهبان المسيحيين بالأديرة ، لا يتزوجون ولا يعرفون طريقاً للذة دنيوية . سألت الشاويش هل تنتظر الدخول إلى الجنة والفوز بملذاتها الأبدية مقابل خدمتك في الضريح؟ قال : «جنتنا لا نساء فيها ولا لذات دنيوية ، فيها فواكه وطعام نظيف . ستتحول روحي إلى كائن آخر . يتم ذلك

حسب أعمالي . وأنا لا أتزوج خدمةً للشيخ عادي ، فقد مات عازباً» . أثناء حديثنا مر شاب آخر مبتسم ونشيط الحركة ، يحمل الوقود ، قال الشاويش : «إنه زميلي ، أتينا في وقت واحد ، ونعيش في مكان واحد ، وسنظل هكذا» .

طلب الفقير منا أن دخول المعبد ، ولسرعة الحركة والحذر من الوقوع في الخطأ لم أُدقق في تفاصيل باب المعبد ، قلت أترك الحديث فيها لدرمان بعد انتهاء الزيارة . في لحظة الدخول إلى بوابة المعبد لم أجد درمان بجانبي فقد أسرع إلى السجود على الأرض لتقبيل عتبة الباب . وكذلك فعل الآخرون . أما أنا فاكتفيت بالانحناء أمام الباب على هيئة الركوع ، متشاغلاً بكامرتي وأوراقي . وبعد الانتهاء من مستلزمات الدخول دلفنا إلى داخل المعبد ، فواجهتنا من داخله رائحة تشبه رائحة الملابس العتيقة ، وظلام لم تفرجه الفوانيس الكهربائية الضئيلة ، التي فرضها الشباب كمحاولة من محاولات التجديد . تُنبيء تلك الرائحة عن تفاصيل زمن غابر لم ترحل بعد ، وعن قوم قد لا يضاهيهم قوم هود وصالح بالقدم ، إنهم قوم إبراهيم الخليل . هذا ما قاله لي الشيخ علو خلف علو في مركز لالش الثقافي بدهوك : «إن كتابنا «مصحف رش» نزل على إبراهيم» . ولكن يا شيخ علو : أن كتابكم فيه اسم معاوية وإسماعيل ومحمد؟ فكيف عرف إبراهيم بمعاوية ومحمد قبل أن يخلقوا؟ قال : «الذي لديك عدد من صفحاته ليس كتابنا . هذا مزور علينا . إن كتابنا محفوظ بالصدور . وأن اليهود أحرقوه لأننا من جماعة نبوخذنصر الملك العظيم ، الذي رحلهم إلى بابل» .

عبارة الشيخ علو الأخيرة لها أكثر من دلالة . أولا أنهم ديانة قديمة تتصل أصولها بتاريخ بلاد الرافدين القديم . وثانياً وهي الأهم والمطروحة اليوم من جهات آشورية وأيزيدية أن قومه من شعوب بابل وآشور . وأنا أضع اللمسات الأخيرة على هذا الفصل وصلني كتاب «اليزيدية في ما بين النهرين» لآشور نصيبينويو ، هدية من شمعون دنحو المقيم بالسويد ، يوكد لي كثرة الحديث عن أصل الأيزيديين الآشوري . غير أني وجدته متعلقاً بعبارة لأمير الأيزيدية السابق بسنجار (فترة الثلاثينيات) تقول : «وقبل يزيد بن معاوية قام لنا ملك اسمه يزيد الجعفي بين حدود إيران والكرد . وأن أغلب الأكراد هم يزيدية من نسله والباقي من الآشوريين»[١٠٤] . فسرها نصيبينويو بالتالي : «يقصد أن بعض اليزيديين أكراد والباقي من الآشوريين»[١٠٥] . وفي التفسير هناك اعتراف بأيزيديين أكراد . ويسند الأمير الأيزيدي ما قاله الشيخ علو حول صلتهم بنبوخذنصر . ولا أدري إن كان أخذ عبارته من كتاب أميره أو نُقل

---

(١٠٤) إسماعيل بك جول ، اليزيدية قديماً وحديثاً ، ص ٧٧ .

(١٠٥) آشور نصيبينويو ، اليزيدية في ما بين النهرين ، ص ٦٨ .

إليه شفاهة بما يسمى عندهم بعلم الصدر . لكن من المؤكد أن الأمير سمعه عن طريق علم الصدر بالتواتر بين أجيال دينه . قال الأمير إسماعيل : «وكان مننا (هكذا وردت فناشر الكتاب الدكتور قسطنطين زُريق ترك كلام الأمير على ما هو) ملوك منهم أحاب الملك . وكانوا يسمون ملك احاب بلعزبوب ، والآن يسمى عندنا بيربوب . وكان لنا ملك في بابل اسمه بختنصر (نبو خذنصر) ، وفي العجم احشويرش ، وفي استانبول اغريقولاوس»[١٠٦] .

غير أن الأمير نفسه قال في مكان آخر : «إن الله تكلم بلسان كردي مع آدم ومع طاوس مَلَك . ولهذا كتاب مصحف رش الذي هو عايد للملك شمس الدين وزبور داود هو بالكردي»[١٠٧]! والسؤال : هل الانتساب إلى الملك أو الاعتراف به يعني آشورية الأيزيديين ، كما يريد آشور نصيبينويو إثباته؟ وهل الملوك يحددون أُصول الشعوب الدينية والقومية؟ ومجرد سؤال لا غير هل أن الآشوريين والأكراد والتركمان بالعراق أصبحوا عرباً لأن الملك فيصل الأول كان عربياً؟ لم أُطل النقاش مع الشيخ علو ، فأي دين لا يدعي وصلاً بإبراهيم ، فهو أكثر من ليلى بالنسبة إلى العاشقين ، فالكل يدعي وصلاً به . فلماذا لا يدعيه الأيزيديون أيضاً؟ قلت ذلك لنفسي وأغلقت باب النقاش في هذه المسألة بالذات . فلإبراهيم الخليل ضريح لا يبعد عن مقامات الأيزيدية كثيراً . فقبل الوصول إليه من جهة فيشخابور تلوح قبة أيزيدية يتيمة في بطن الوادي . بعد المرور بعدة أضرحة ، وأعمدة داخل المعبد ، مثل التي ترفع سقف الخان المهجور ، وصلنا إلى سجادة الشيخ عادي ، كانت مفروشة أمام متكأ ، يجلس عليها الباحث عن الشفاء من مرض عصي . أوحى لي قدم المكان وسكون الزمان بالسؤال . هل هي نفسها سجادة الشيخ أم تستبدل بين حين وآخر؟ إبتسم الفقير جندي ، وكأنه أراد أن يشعرني بسذاجة السؤال . قال : «نعم نستبدلها بسجادة جديدة بين الحين والآخر» .

تبدو السجادة وأغطية الأضرحة هي الوحيدة التي تتغير ، بعد أن تصبح رثة لا تترك أملاً لدى طالب شفاعة . طلب درمان ومشير من الفقير خادم المعبد أن يبتهل لنا ، ويمارس بعض طقوس الشفاعة . تقدم أمامنا ، وأخذ يدور مهرولاً ونحن ندور خلفه ، كان يتلو من الأدعية الأيزيدية . قيل لي : إنها باللغة الكردية القديمة . كنت أقلب ناظري في فضاء الضريح ، الذي شغلني صاحبه لسنوات . أقول لنفسي كيف يكون عدي بن مسافر الشافعي الصوفي إماماً أو ولياً لدى الأيزيدية؟

لم تتأكد لي المعلومة التاريخية من أن للأيزيديين عاديهم غير عدي المسلم إلا بعد أن

---

(١٠٦) إسماعيل بك جول ، اليزيدية قديماً وحديثاً ، ص ١٠٣ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

صرح لي الشيخ علو : «أن عدي بن مسافر ليس عادينا ، الذي صنعه الله من نوره!» والأمر ليس بسيطاً ، أن يتم التمييز بين عادي الأيزيدي وعدي المسلم وآدي المسيحي ، مبشر المسيحية الأول بكردستان العراق . ففي النطق الكردي تتقارب الأسماء الثلاثة فتصبح آدي . والخلاف لم يتوقف عند شخص آدي بل يمتد إلى الضريح أو المعبد ، هل أصله كنيسة أم معبد زرادشتي ميثرائي أم تكية صوفية؟ كل هذا كان يدور برأسي وأنا أتفحص تفاصيل المكان بدهشة . وأثناء الدوران خلف الفقير رفعت رأسي إلى أعلى الضريح فرأيت قطة رمادية ، تفترش غطاءه السندسي . كان لونها المغبر يوحي بالقدم أيضاً . ظلت هادئة ، لم تكترث لترتيل الفقير ، ولا لضوء عدسة الكاميرا . تركت الاستفسار عن وجود القطة فوق قدس أقداس الأيزيديين إلى ما بعد الانتهاء من مراسيم الزيارة . لكن التفاصيل الأخرى شغلتني عن ذلك . ليس أمامي غير درمان أستفسره ، فقال : لا أدري! حتى أخذ يشكك بروايتي ، وأنا الذي بنيت عليها قصة ، قد ترتبط بعاطفة الشيخ عدي تجاه الحيوان!

يصل الزائر بعد المرور بأضرحة عدد من الشيوخ إلى عمق المعبد حيث ضريح الشيخ آدي أو عدي ، وسجادته التي يعتقد فيها الشفاء لكل مريض يجلس عليها . ومثل رهبان وراهبات الأديرة المسيحية ، وسدنة في خدمة المزارات الإسلامية ، ومتصوفة يلوذون في زوايا المساجد ، ينقطع الجواويش والدايات إلى العبادة بمعبد لالش ، فلا زواج ولامتعة دنيوية ، غير سد الرمق والعبادة ، والتمثل بأخلاق الشيخ آدي العازب الطاهر .

سألتُ سادن المعبد الشيخ الفقير جندي عن ماء زمزم ، وهو ينبع داخل المعبد ووسط ظلام المغارة : من أين ينبع هذا الماء المبارك؟ أجاب بثقة : «انفجرت عين زمزم بعد أن زار الشيخ عبد القادر والشيخ الرفاعي وشيوخ آخرون الشيخ آدي ، وحجوا جميعاً إلى جبل عرفات (الجبل المحيط بالمكان وليس الذي بمكة) ، ولم يكن هناك ماء ، فضرب الشيخ آدي باطن الجبل بعكازه فأنفجر هذا الماء» . وإذ قال المؤرخون المسلمون : إن بئر زمزم بمكة حفرته الملائكة قبل آلاف السنين ، فماذا يمنع الأيزيديين من نسبتها إلى عكاز الشيخ! حاولت متابعة جريان الماء الأزلي إلى ردهات ضيقة ومنخفضة أخرى ، لكن الطريق إليها كان أخطر مما قدرت . لذا اكتفيت بجواب الفقير عن مصدر وغاية جريان الماء المقدس ، وأقفلت راجعاً . كان الاعتقاد عند الأيزيديين أن هذه العين موصولة عبر قناة سرية ببئر زمزم بمكة ، كما أسلفنا ، إلا أن هذا الاعتقاد لا وجود له بين الأيزيديين حالياً ، أو الذين التقيت بهم في الوادي المقدس في الأقل .

أُطلق على العين اسم زمزم بتأثيرات إسلامية ، شأنها شأن جبل عرفات المحيط بالمعبد . أما التأثير المسيحي فكان عماد الأطفال في ماء زمزم . أخذت حفنة من الماء البارد وتهيأت

للنزول في المجرى ، بعد نزول درمان ومشير والشيخ الفقير جندي . قال الفقير : لا يسمح لغير الأيزيدي النزول إلى الماء المقدس . لكن ذلك مسموحاً للضيوف المحبين فقط . شكرته ، و نزلت في الماء ، وهو يجري بقوة إلى منخفض في داخل المغارة . يُذكر المشهد بالصابئة المندائيين وبحثهم عن مثل هذه العذوبة الخالصة ، فهي الماء الحي! وهم يؤدون طقوسهم بمكانهم التاريخي الأهوار ، وعلى ضفاف دجلة والفرات ، ثم تحولوا إلى أدائها بأحواض ماء مصطنعة ، أو مسابح تنبعث منها رائحة المواد المعقمة ، كما هو الحال بأوروبا . فترى شيوخهم يؤدون الطقوس بأقل جدية ، لأن الماء ليس هو الماء المطلوب للعبادة .

يتكون معبد من عدة ردهات مفتوحة على بعضها عبر ممرات ضيقة ومنخفضة . لم ينس الفقير عند تجاوز كل ممر التنبيه بقوة ، فالصخور قاسية ومسننة! لذا لا يتم المرور إلا بوضع الركوع ، وربما كان الأمر مقصوداً ، ليجبر الزائر على اتخاذ هذا الوضع في الحضرة المقدسة ، مثلما يفعل بعض الملوك مع خصومهم الأقوياء ، إذ يمرون إلى مجالسهم عبر أبواب تفرض هيئة الانحناء أو الركوع . مررنا من ردهة عين الماء إلى ردهة الجرار السود ، المنصوبة على الجانبين بشكل مائل . ويكسو دخان نيران الزيت القديمة المكان تماماً . قيل لي : إن تاريخ هذه الجرار يعود إلى ألف عام . وبلا شك أن عشرة قرون من الزمان ، قياساً بعمر المعبد الذي بدأ سقفاً لعين الماء المقدسة وأحتوى على ميثولوجيا كل العصور ، التي مرت عليه واستقرت في رحمه ، لا تبدو كثيرة . فلو عثر على أحدها خارج المعبد لعدت أثراً سومرياً أو آشورياً . يجمع الزيت في تلك الجرار من النذور والهدايا ، ليستخدم في إضاءة المعبد قبل وصول فوانيس الكهرباء غير القادرة على قهر الظلام وسواد الجدران .

سألت عن مرتفع من الحجر يعلو مقدمة ردهة الجرار ، تستقر فوقه قطعة قماش خضراء مكورة . قالوا : إنه لاختبار الحظ ، الذي يعرف بالخيرة . جرب درمان حظه برمي كرة القماش ، فاستقرت حالاً على رأس المرتفع ، وقد بانت عليه علامات الفرح . طلب مني الرمي مع النية على شيء ، رميت بدون نية فلم أتمكن إلا في الرمية الثانية . أصبحت الجرار المائتان جزءاً من تاريخ المعبد وتراثه ، ووجودها بهذه الهيئة يضفي على الطقوس زمناً غابراً . امتزجت رائحة الزيت المحترق التي تنبعث من الجرار بعفونة القماش القريبة من رائحة ورق الكتب القديمة ، تملأ مغارة المعبد وتلاحق الزائر إلى فضاء الصحن ، لتبقى عالقة في الثياب حتى الخروج من الوادي المقدس .

لم يكن مصدر العفونة بالمعبد بسبب إهمال الأيزيديين للنظافة ، كما دأب على قول ذلك زائرون سابقون ، فالأيزيدي نظيف البدن والثياب والقلب ، وعيون الماء العذب تملأ رحاب الوادي ، تتجمع حولها فتيات جميلات يلبسن ألوان الطبيعة ثياباً زاهية ، يغسلن الثياب

والأواني ، وينظرن من بعيد بعيون مرحبة إلى الغرباء الذين يزورن المعبد بين حين وآخر . لم نجد أثراً لتقولات عدد من الغرباء عن ابتعاد الأيزيدي عن الماء ، وانه لا يعرف مكان الخلوة ، فيرمي فضلاته في عرض الوادي .

بعد اتمام الزيارة والطواف وقفت أمام باب المعبد متأملاً تفاصيله ، قارئاً ما كتب على واجهته . فساعات زيارة المعبد كانت كافية للاطمئنان ، وتسهيل طرح الأسئلة ، لا سيما وأن كلمة الشيطان لم تعد مخيفة . الباب كما هو ، مثلما رسمه الرحالة الأوائل ، ونشرت صورته مجلة «المقتطف» المصرية العام ١٩١٦ ، وصورته عدسات الأجانب في العشرينيات . فلا نقوش أو رقوش مضافة ، ولا زينات كهربائية ، فمازال التجديد يعد غريباً في بطن وادي لالش . ما زال تمثال الأفعى السوداء يزين الجانب الأيمن من الباب ، يعلوه أسدان يرفعان شمعداناً يجلس عليه طير طاووس ، وهو مجسد رئيس الملائكة أو نائب يزدان . والأفعى السوداء ، حسب الأيزيديين ، ترمز إلى السلام والمحبة ، ومنام الأفعى يعني خيراً ، كما سلفت الإشارة ، ويعلو ذلك عبارة مكتوب عليها النص السالف الذكر .

في فناء الصحن عدة نماذج لقبة المعبد المخروطية ، عليها آثار شموع ودخان ، أبرزها قبة بير مند ، وهو أحد الوشائج المفترضة مع الصابئة المندائيين . وعلى بعد أمتار تبدو العين البيضاء ، داخل مزار ضيق نسبياً ، جلست أمامه امرأتان عجوزان : بيركَوله (كولى) متعهدة المزار وزميلتها . تجمع كولى ما يتركه الزوار أمام العتبة من قطع نقدية . ينبع الماء من العين بهدوء ، ليجتمع في حوض يقضي فيه حجاج المعبد أغراضهم ، فهناك مساكن معدة لاستقبالهم . ورغم الاختلاط بين الجنسين ، البائن في العلاقات الاجتماعية ، إلا أن احترام المعبد يتوجب فصل النساء عن الرجال ، مع تغطية رؤوسهن بمنديل خفيف .

وهناك نساء دايات (راهبات) نذرن حياتهن ، مثل الشواويش ، لخدمة المعبد ، اشتهرت منهن : داي شيرين وداي كوليه ، يلبسن عادة الملابس البيضاء . حاولت اللقاء بهن ، لكن خروجهن في ذلك اليوم إلى خارج المعبد حال دون ذلك . والأيزيديون لا يمنعون تولي المرأة سلطة دينية أو دنيوية إذا اقتضت الضرورة ، فقد أصبحت ميان خاتون زوجة علي بك الأمير ، وصية على أبنها سعيد بك ثم ابنه تحسين . وكانت تتصرف في شؤون الديانة مثلها مثل الأمير ، فلها منزلة الوصي المعروفة بالعراق في العهد الملكي . قال لي حجي ماخسو حسو مدير مدرسة خانك الأيزيدية الجديدة ، الذي حضر اللقاء بمركز لالش الثقافي والاجتماعي بدهوك : إن فرصة وجود حكومة أقليم كردستان تعد فرصة ذهبية في حياة الأيزيدية ، فهناك ست مدارس أيزيدية بدهوك وحدها ، يدرس فيها منهاج ديانتهم (أيزيدي) ، ولا تتمتع المدارس الأيزيدية التي ببعشيقة وسنجار والقسم الآخر من شيخان بهذا الامتياز . إذ جرت

محاولة في الثمانينيات ، من قبل الحكومة العراقية ، لتدريس القرآن في المدارس ذات الكثافة الأيزيدية والمسيحية . لكنها تراجعت عن ذلك قبل التنفيذ . وللمناطق ذات الكثافة الأيزيدية حالياً بكردستان قاضي شرع أيزيدي ، يدعى نمر كجو . ويأملون أن يتمتعوا بيومهم المقدس يوم الأربعاء كعطلة رسمية .

قبل السفر إلى معبد لالش بيوم قضيت نصف نهار اليوم الثاني والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٠ بمركز لالش الثقافي في وسط دهوك . كان اللقاء أولاً مع خيري بوزاني ، مسؤول لجنة المركز الثقافية ، وأمين المكتبة صالح حسن . قال بوزاني رداً على استفساراتي الأولية ، قبل الشروع في البحث بوثائق المركز الدينية : نحن نعتبر الشيخ عادي خارج القومية ، ونعتقد أنه من نور الله ، وأن ديانتنا ، حسب ما يحمله شيوخنا من حفظ في الصدور ، من أقدم الديانات .

سألتُ بوزاني بحذر عن إبليس ، وما قصة ما يشاع عن احترام الأيزيديين له ، قلتها دون أن أتلفظ حروف الكلمة الصريحة الأخرى ، وذلك تحفظاً من أي ردة فعل . لكن خيري بدد تحفظي ، ونطق أمامي كلمة الشيطان ، وتدخل الشيخ علو معلقاً : لا نؤمن بوجود الشيطان ، ولا نعرف للشر إلهاً ، ولا للظلام إلهاً . إنه يزدان إله واحد أحد . تدخل خيري مفسراً كراهية الأيزيديين للفظ الشيطان : إن عدم اعترافنا بالشيطان دفع الفضوليين من الجيران بالإشارة إلينا بلفظ الشيطان ، وتكرار ذلك خلق صدامات شديدة ولدت عند الأيزيديين كراهية سماع هذا اللفظ ، حتى حتمت العادة أن نظهر بمظهر المقدسين لهذا الكائن الخرافي .

وبهذا تفترق الأيزيدية عن الزرادشتية ، التي يعتقد أنها ملة من مللها ، أنها ليست ثنوية ، وربما هذا اختلافها أيضاً مع الأديان المجاورة الأخرى ، ومنها الديانات السماوية الثلاث . قال الشيخ علو : نحن أكراد فرض علينا لبس العقال والكوفية الحمراء ، حتى لا نبدو غرباء في الجزيرة وسنجار ، مثلما فرض علينا يزيد بن معاوية والشيطان . نحن لا نكره الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولم نشارك في ضرب ضريحه كما شاع عنا ، ولم نفرح في ذكرى مذبحة عاشوراء قط . ولم نساهم بضرب ضريحه إثر انتفاضة الربيع ١٩٩١ .

تواجدهم

يتوزع الأيزيديون على مناطق عديدة في شمالي العراق مثل سنجار وشيخان وبعشيقة ودهوك وتلعفر وزاخو وتلكيف وغيرها . وخارج العراق لهم تواجد بسوريا وتركيا وعلى الحدود

الروسية القفقاسية . وعدَّ الدليل العراقي ، لعام ١٩٣٦ ، أيزيدية سنجار وشيخان فقط بـ (١٩٠٠٠) نسمة . وورد عددهم في كتاب «خلاصة تاريخ كردستان» بـ (٣٠٠٠٠) . وفي الإحصاء العراقي لعام ١٩٤٧ عدوا جمعا مع طائفة الشاباك بـ (٣٣٠٠٠) . وفي الموسوعة العراقية الحديثة عدوا بـ (٧٢٠٠٠) . وورد عددهم في كتاب «الملل والنحل والأعراق في الوطن العربي» لسعد الدين إبراهيم جمعا مع الشبك بـ (١٢٥٠٠٠) .

ويدل عدم التفريق ، في الكتاب الأخير ، بين الأيزيدية والشبك في المصدر الأخير على جهل واضح بطبيعة الكيانين . الأول كدين والثاني كعشيرة مسلمة منهم السنّة ومنهم الشيعة ، مع أن الكتاب صدر العام ١٩٩٤ . وهناك من المعطيات المفيدة في التمييز بين الكيانين ، لكن الباحث لم يأت بشيء منها . وكان الكتاب كثير الأخطاء وخاصة في الأديان العراقية . فمثلما أخطأ في عدد الصابئة واعتماده على فيليب حتي في اعتبارهم ملة يهودية مسيحية أخطأ في الأيزيدية . قال : «يتركزون في منطقة الشيخ عادي بالقرب من الموصل ، ولا يعدون في الوقت الحاضر (التسعينيات) بضعة آلاف»[١٠٨] . ولا ندري كيف عدهم سوية مع الشبك بـ ١٢٥٠٠٠ نسمة ، ثم يذكرهم ببضعة آلاف ، هذا من جانب ومن جانب آخر ليست هناك منطقة باسم الشيخ عادي ، وإنما هناك مرقد داخل معبد .

وظهر عددهم حسب تقرير مديرية الأمن العامة الخاص بالتوزيع السكان الديني في إحصاءات (١٩٤٧ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧) على التوالي : (٣٢٤٣٣) ، (٥٥٨٢٨) ، (٦٩٦٥٣) ، (١٠٢١٩١) نسمة . وحسب التقرير المذكور ، كانت نسبة الخصوبة بين هذه الجماعة عالية ، لذا لا يستبعد أن يصل عددهم حالياً إلى نصف مليون نسمة .

والأيزيديون الذين كانوا يخشون القراءة والكتابة ، وأن طبقة اجتماعية واحدة لها حق التعلم فقط ، طرق شبابهم اليوم معظم حقول المعرفة ، فإضافة إلى الباحثين من أصحاب الشهادات الذين وردت أسماؤهم كمؤلفي كتب وكُتاب مقالات . أذكر على سبيل المثال وظائف واختصاصات أعضاء الهيئة التأسيسية لمركز لالش الثقافي بدهوك ، وردت في رسالة موجهة إلى وزير داخلية أقليم كردستان العراق (١٢ أيار ١٩٩٣) لغرض الاعتراف رسمياً بمركزهم . وهم : المحامي عادل ناصر حجي (معاون محافظ دهوك) . والطبيب خيري نعمو علو . والمحامي شامو شيخو نعمو . والمهندس باسل شرو درويش . وعميد الجيش حسين مرغان علي . والقاضي نمر كجو . وبعدها زار مسعود البارزاني المركز الأيزيدي فمنحهم حق تملك البناية التي كانت قبل ١٩٩١ مشغولة من قبل إتحاد الجمعيات الفلاحية التابع للسلطة المركزية ببغداد .

---

(١٠٨) إبراهيم ، الملل والنحل والأعراق ، ص ٨٢ .

ختاماً ، الديانة الأيزيدية غير تبشيرية ، أي لا تتجاوز على ديانات الآخرين . ومحافظة على الكيان أن لا يتزوج الأيزيدي بغير المرأة الأيزيدية ، ولا هي بغير الرجل الأيزيدي . وليس من حق الآخرين أن يصبحوا أيزديين .

الفصل الثالث

اليهــــوديــــة

أعاد التاريخ نفسه في أحوال يهود العراق ، إذ قدم أغلبهم إلى أرض الرافدين ، قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام ، بعمليات تهجير جماعية ، السبي البابلي : الأول والثاني ، والسبي الأشوري . واشتهرت هجرتهم بالسبي البابلي . وقبل نصف قرن هجروا تهجيراً جماعياً أيضاً ، تاركين خلفهم دهراً لا يُقاس بوحدات الزمن ، عرف حقاً بالسبي الإسرائيلي . فهل مصادفة أن يستوطن اليهود العراق ويهجرونه مضطرون في الحالتين؟ فالأقوام تهاجر عادة لجوع وظمأ ، أو هروب من كارثة طبيعة أو عدو متربص .

لكن هجرة يهود العراق تبدو قضية أخرى . ولعل هذا ما يميز بينهم وبين الأديان والمذاهب التي استوطنت العراق في مختلف الحقب التاريخية . استوطنته بفتح ، أو تبشير ، أو نبعت فيه متفرعة من أديانه القديمة . فلم يجر الحديث عن هجرة مسيحية ، أو إسلامية ، أو أيزيدية ، أو صابئية مندائية ، إلا بحدود ضيقة بالنسبة للديانة الأخيرة . غير أن التوافق بين الديانات السومرية والبابلية والمندائية ، في الطقوس والمثيولوجيا ، قد يبطل الحديث عن هجرة مندائية إلى العراق ، ويختلف الأمر مع اليهودية وعلاقتها بالبابلية ، سواء كان في القصص الدينية أو فيما يتعلق بالشريعة .

يجري الحديث عن ذلك وكأن التوراة لا وجود لها قبل السبي البابلي . وبالتالي لم يستلمها موسى من الله مباشرة ، وهو يناجيه من على ظهر الطور . اقتبس هذا المشهد الرهيب الشاعر أبو العلاء المعري ، أو نسب إليه ، ليحوله إلى أقصوصة تجري على الألسن عبر القرون لمغزاها العميق . والحكاية أن أبا العلاء المعري تسلق الجبل الذي كلم موسى الإله من على قمته ، وطلب الكلام في مشهد مماثل ، وكرر الطلب ثلاثة أيام ولم يجبه أحد . قال :

لقـد اسمعت لـو ناديـت حياً ... ولكــن لا حيــاة لمـن تنــادي

ولــو نـار نـفخـت بها أضاءت ... ولكـن أنت تنفخ في الرمـاد [1]

والشك يكتنف الرواية السالفة فمكان جبل موسى بسيناء من أرض مصر ، وكان أبو العلاء أعمى حبيس منزله مدة أربعين سنة بمعرة النعمان بالشام ، فكيف تسلق الجبل البعيد؟ وكيف فك حبسه المتفق عليه في الرواية التاريخية؟ إلا أنه لا يستبعد منه مثل هذه الأبيات ، ليس في نظمها بل في معناها ، فقد قال أكثر من ذلك . ولأنه يكسر يجبر وصفه شيوخ حنابلة كبار بالملحد البارد ، وربما لا تتعدى حكايته مع الطور قد حكايات المعراج الصوفي ، إذ عرج أبو يزيد البسطامي بروحه إلى السماء مثله مثل الأنبياء .

إن وجود التوراة واليهودية كدين ، قبل السبي البابلي ، قد لا يزيد شأناً عما نسب لأبي العلاء المعري من محاولة الكلام مع إله موسى . فهل اليهود استلموا رسالة من السماء جاء فيها أنهم «شعب الله المختار»؟ وكيف يسمح الله أن يسبى شعبه ، مرة إلى العراق وأخرى إلى فلسطين ، تحت ذريعة أرض الميعاد؟ وإذا كان سبيهم موكداً من أورشليم فإن باحثين استندوا على آثار وأسماء قرى ومدن ووديان وجبال تفيد أن أصولهم من الجزيرة العربية واليمن [2] . وهم أيضاً لم يصيبوا كبد الحقيقة . فالأسماء تتكرر والأديان تنتشر . وهذه عشتار البابلية لها في كل بلد من بلدان العالم اسم وطقس [3] . إنه تاريخ ملتوي الطرق والشعاب لا ندخل فيه لوعورته وبعده عن موضوعنا ، والمختصون اعرف بشعابه .

لم يشغل اليهود العراقيين ، ولا مواطنيهم من الأديان الأخرى ، خبر هجرتهم القسرية إلى العراق ، مثلما يجري الحديث عن هجرتهم القسرية عنه . وأصل التوراة والتلمود قبل قيام دولة إسرائيل . قاد الحدث إلى النبش عن أصل اليهود وأصل توراتهم ، والعودة بقوة إلى الحديث عن توراة أصلية وأخرى مزيفة . كذلك لولا تقاطعهم مع الإسلام ، في بداية الدعوة بمكة والدولة بيثرب ، ما كان يشك بأصالة كتابهم ، أو تمييزهم عن المسيحيين بعداوتهم . ورد في الآية : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وهم لا يستكبرون» [4] .

ويبقى السؤال كيف نعرفهم بأهل كتاب وكتابهم مزيف؟ وكيف شرعت لهم الذمة وقد

---

(1) ابن نباتة ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص ٤٦٦ .

(2) راجع كمال صليبي ، التوراة جاءت من الجزيرة العربية ، وخفايا التوراة وأسرار بني إسرائيل . وفرج الله صالح ديب ، التوراة العربية وأورشليم اليمنية .

(3) راجع السواح ، لغز عشتار .

(4) سورة المائدة ٨٢ .

زيفوا كلام الله؟ وبالتالي مَنْ يستجريء على تزييف كلمات الله ذات اللفظ الكوني المقدس، والنازلة من اللوح السماوي المحفوظ؟ وكيف يحوي القرآن قصصاً وشرائع من هذا الكتاب، وهو موصوم بالتزييف؟

أسئلة عديدة يقف عندها متأمل العلاقة بين الديانات الثلاث المعروفة بالسماوية، قد لا يجيب عليها غير البحث في خلفية الصراعات، وصراعات اليوم بالذات. فدولة يشرعها الله، حسب الرؤية اليهودية، كيف يخالفها البشر؟ ولماذا تشريع دولة لنخبة من الناس وهو رب العالمين؟ وكيف تسوغ فكرة المختارين والمنبوذين عند الله؟ وهل أن «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون»[٥] جاءت لتكذيب إدعاء نخبة بني إسرائيل؟ لتكون لله نخبة جديدة؟ لم أجد لهذه الأسئلة تفسيراً مريحاً غير ما قاله، أو نسب إلى أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج (قتل ٣٠٩هـ):

تفكـرت في الأديان جـداً محـقق
فـألفيتـهـا أصـلاً لـه شُعبـاً جما
فـلا تـطلبـن للمـــرء ديـنـاً فإنـه
يصـد عـن الـوصـل الـوثيـق وإنمـا
يـطـالبـــه أصـل يـعـبـر عنـده
جميـع المعــالي والمعــاني فيهـمـا

تتعلق قصة هذه الأبيات بيهودي عراقي، أهانه شخص يدعى عبد الله بن طاهر الأزدي أمام عين الحلاج بسوق بغداد. قال له: «يا كلب»! فقال له الحلاج من بعض ما قال: «يا بُني الأديان كلها لله عز وجل، شغل بكل دين طائفة لا اختياراً فيهم، بل اختياراً عليهم... وأعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام، وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسام متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف»[٦]. وقال شيخ الأشاعرة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٢١هـ) لصديقه البيهقي، في لحظة تجرده عن التعصب لرأيه وهي لحظة احتضاره: «اشهد عليَّ أني لا أكفر أحداً من أهل القبلة. لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات»[٧]. أشار هذا إلى المشترك بين المذاهب، وبالتالي يصلح أن يكون إشارة واضحة إلى المشترك بين الأديان فـ«الكل يشيرون إلى معبود واحد».

---

(٥) سورة آل عمران ١١٠.

(٦) ماسنيون، كتاب أخبار الحلاج، ص ٦٩.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥ ص ٨٨.

تاريخ ومقالات ، وشرائع تبدو واحدة فرقتها العبارات . لا زالت كلمات أنليل السومري ومردوخ البابلي مسموعة . ولا أجد حرجاً في ذكر مقالة المهاتما غاندي في أصل الأديان ، فما بينه وبين الحلاج صلة التصوف والثورة ، وما بينه وبين الأشعري صلة الفكر . قال غاندي بتوارد خواطر عجيب بينه وبين السابقين . أقول توارد خواطر لأن قراءة غاندي للأشعري والحلاج لن تتحقق حتى بالأحلام . قال : «الديانات دروب تختلف ، تتقارب حول الرأي ذاته ، ماذا يهم أن نسلك دروباً تختلف ، طالما سنصل إلى الهدف نفسه»[٨] . هذا ولأبي العلاء المعري في لزومياته ، حول هذا الموضوع ، أكثر من قول وشاهد .

الصلة ببابل

كان سكان بابل حسب المؤرخ الكلداني بيروس ، الذي عاش بعد ٣٠٠ ق . م ، «مؤلفاً من عناصر مختلفة سكنوا بلاد الكلدان»[٩] . وفيها عنصران : شمري (ربما سومري) يقطن جنوب بابل ، وأكدي يقطن شمالها . «وكان هذان الشعبان يتميز بعضهما عن بعض بالملامح والعادات والحضارة واللغة . ولا يبت العلماء في أيهما أعرق من أخيه في هذه الديار . وأن أغلب الظن عند بعضهم أن الشمريين أقدم من الأكديين . وقال فريق : إن الشمريين تورانيون جاؤوا بابل من الشرق ، ومروا في طريقهم بتخوم بلاد فارس ، واستندوا في قولهم هذا إلى المشابهة الموجودة بين لغتهم واللغة التركية وسائر اللغات المغولية في آسيا الوسطى ، وإلى بقايا حضارتهم المكتشفة في حفريات بنبلي في تركستان (١٩٠٣ - ١٩٠٤) . وأن الساميين الأكديين الذين كانوا يسكنون شمالي بابل وينسبون إلى سام بن نوح هم الآثوريون والعبريون والفينيقيون والآراميون والعرب والأحباش ، إذ كلهم من نجار واحد ، والأرجح أنهم نزحوا من بلاد العرب»[١٠] .

أشارت خارطة بابل السكانية إلى «تاريخ أول مجموعة يهودية في العراق في أواخر القرن السادس ، أو أوائل القرن السابع قبل الميلاد ، وأن هذا التاريخ مطابق مع تاريخ السبي الأشوري إلى شمال العراق ، بحدود ٦٢٦ ق .م»[١١] . ومن نتائج هذا السبي أن استقر اليهود شمال العراق ، وكونوا «لهم قرى خاصة بهم ، حالهم في ذلك حال بقية السكان الأكراد في المنطقة التي قطنوها»[١٢] . وظلوا هناك حتى السبي الأخير في الخمسينيات من القرن

---

(٨) حكمة غاندي ، مجلة أدب ونقد ١٩٤/ ٢٠٠١ .

(٩) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ٤٢ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

(١١) كوريه ، يهود العراق تاريخهم أحوالهم هجرتهم ، ص ٨ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٦ .

الماضي . أما اليهود البابليون فمصدرهم السبي البابلي الأول والثاني «تم تجميعهم في مركز مدينة بابل (بعد أن) توج نبوخذنصر ملكاً على بابل في اليوم الثالث والعشرين من الشهر التاسع العام ٦٠٤ ق . م»[١٣] . وقيل أن أول تجمع لهم كان بالأنبار[١٤] . غير أن أحمد سوسه ، وهو يهودي عراقي أعلن إسلامه (١٩٣٦) واستبدل اسمه نسيم بأحمد ، لا يرى أي تاريخ لليهود قبل السبي البابلي . قال : «تبدأ الديانة اليهودية الحالية بكتابة التوراة على يد الكهنة في الأسر في بابل ، وما بعد الأسر في اللغة التي صارت تعرف بالعبرية (آرامية التوراة/سوسه) وهذه هي التوراة التي بين أيدينا اليوم»[١٥] . وبالتالي فهو يرى ما يراه الإخباريون المسلمون أو أكثر تطرفاً . قال : «إن التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم ، وقصص القرآن التاريخية مطابقة لها هي غير التوراة التي نزلت على موسى باللغة المصرية قبل ثمانمائة عام من عصر اليهود اليوم»[١٦] . ويربط سوسه بين تسمية اليهود ومملكة يهوذا المنقرضة ، على حد قوله ، وسكانها هم «الذين سباهم نبوخذنصر إلى بابل في القرن السادس ق .م»[١٧] . وخلاف ما يرى سوسه فالقصص القرآنية جاءت مطابقة لما ورد في التوراة المعروفة بين أيدي الناس .

حاولت الأديان كافة ، وخصوصاً بنطقة الشرق الأوسط ، جاهدة التعلق بشخص إبراهيم . ولهذا انتسب بنو هاشم بعد النبوة على لسان علي بن أبي طالب إلى كُوثى ببابل «أراد كُوثى السواد التي ولد بها إبراهيم الخليل» ليقول : «إن أبانا إبراهيم عليه السلام كان من نبط كُوثى ، وأن نسبنا ينتهي إليه»[١٨] . وعد النسابون المسلمون إبراهيم الأب الثلاثين للنبي محمد . هو «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن أد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم»[١٩] . مع أن إبراهيم لم يكن عربياً ، واسمه من الممنوعات من الصرف لأعجميته . فكيف كان جداً لنبي عربي؟ وقبل ذلك نسب مدونو «الإنجيل» المسيح

---

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٧ .

(١٤) ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٩١ ، عن ابن المستوفي . تقع الأنبار على طريق الشام - بابل فليس بعيداً أن اتخذت محطة لجلاء اليهود من القدس إلى بابل ، فقد حصل أن أتخذها البابليون معسكراً لأسرى العرب أيضاً (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١ ص ٣٢٦) .

(١٥) سوسه ، العرب واليهود في التاريخ ، ص (ث) من المقدمة .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) المصدر نفسه ، ص (ر) من المقدمة .

(١٨) الحموي ، معجم البلدان ٤ ص ٤٨٨ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ١ ص٣ - ٥ .

إلى إبراهيم الخليل عن طريق يوسف النجار، فورد في نسبه «يسوع بن داود بن إبراهيم: إبراهيم وَلَدَ إسحاق وَلَدَ يعقوب . . . ومتان وَلَدَ يعقوب ويعقوب وَلَدَ يوسف زوج مريم التي وَلَدَ منها يسوع وهو الذي يقال له المسيح»[٢٠] .

وللصابئة المندائيين متعلقهم بإبراهيم أيضاً، فقد ورد في صلاتهم: «بسم الحي ربي اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير ابن القدرة صبغتي تحرسني وتسمو بي إلى العلا»[٢١] . مع أن رجال الدين الصابئة، كما سلف ذكر ذلك، أشاروا إلى برهم ربه الملاك، وليس إبراهيم المرفوض من قبلهم لإنه مارس الختان. وأن ابن القدرة يعني تماماً أنه الكائن النوراني وليس الإنسان (راجع الفصل الأول من الكتاب). ويزعم الأيزيديون أن كتابيهم «مصحف رش» و«كتاب الجلوة» قد هبطا على صدر إبراهيم. وهنا لابد أن يكون إبراهيم كردياً، حتى يتناسب مع أصل ولغة الأيزيديين. ولإبراهيم بين الكرد مقام هو مقام إبراهيم الخليل بزاخو. وربما كان من آثار الديانات الأخرى هناك. فعلى حد علمنا لم تألف الزرادشتية، التي كان الكرد على دينها قبل الإسلام، إبراهيم، أو أي شخصية سامية أخرى. وحال إبراهيم مع الأديان ذات الأصول المختلفة حال أيقونات السيد المسيح ووالدته العذراء. بأفريقيا سوداوان وبآسيا وأوروبا بيضاوان! إنها محاولة لخلق حالة من التناغم بين المعتقد والبيئة.

بعد هذا لماذا يستكثر على اليهود تعلقهم بإبراهيم الإنسان، أو برهم ربه الملاك، وتخيله بما يتناغم مع معتقدهم فيه؟ ولماذا يعد هذا التعلق تلفيق أصل لنسبهم (المجهول)؟. قال سوسه: «إن أهم ما كان يهدف إليه كتبة هذه الديانة (ديانة أجداده وآبائه) هو إرجاع نسبهم المجهول إلى إبراهيم الخليل الذي يمثل أقدس، وأقدم شخصيات العصر القديم. ثم تثبيت عقيدة الأرض الموعودة وعزوها إلى إبراهيم ويعقوب وموسى، وهؤلاء بريؤون منها»[٢٢] . ولا ندري كيف اهتدى سوسه إلى براءة الأنبياء من القول بأراض موعودة، ومنقذين سيظهرون الحق ويزهقون الباطل؟ مع أن الأديان كافة تتحدث عن أرض الله والمنقذين الأملة.

إن شخصية إبراهيم، التي تعلقت بها أديان الشرق كافة، ما زالت قلقة من الناحية التاريخية والأثرية. فلم يعثر على دليل واحد لا بأور الكلدانيين، ولا بالمدن التي مر بها إثناء رحلته إلى كنعان، ولا أثر أيضاً لما تحدث فيه الإخباريون المسلمون. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى ما كتبه طه حسين في «الشعر الجاهلي»: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم

(٢٠) إنجيل متى ١/١ - ١٧ .

(٢١) المراني، مفاهيم صابئية مندائية، ص ١١٢ .

(٢٢) سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص(ن) من المقدمة .

وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا أيضاً . بيد أن ورود هذين الاسمين في التوراة لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي . . . ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة ، في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى»[٢٣] . ويعلق سيد قمني على النص المذكور بقوله : «يشبه إلى حد بعيد ما ذهب إليه (الألماني) فلهلم رودلف (في صلة القرآن باليهودية والمسيحية)»[٢٤] . وحسب التوراة كانت هجرة إبراهيم من أور الكلدانيين . وللكرملي رأي ملخصه أن أور تعني النار ، فإبراهيم لم يقدم من مدينة أور ، وإنما أتى من نار الكلدانيين عندما أرادوا حرقه فيها وخلصه الله منها فكانت برداً وسلاما[٢٥] . وأور عند الصابئة هو أحد أولاد كائن الظلام الروهة . وما أشارت كتب التاريخ إلى صابئية إبراهيم يطابق النص القرآني «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٢٦] . وإنه ابن القدرة لا ابن الإنسان ، حسب الدعاء المندائي . وربما يقود هذا إلى الاعتقاد بالملاك النوراني المندائي برهم أصل لشخصية إبراهيم الخليل لدى بقية الأديان .

لم يأت سوسه بجديد حين اعتبر تعاليم اليهودية ، بشكلها الحالي ، خارجة من الفكر البابلي . «ففي بابل مارس اليهود شعائرهم الدينية ، وواصل كهنتهم أعمالهم الدينية بتحرير فصول التوراة ، والتمهيد لتدوين التعاليم اليهودية المعروفة باسم التلمود البابلي ، حتى ليقال : إن السبي البابلي كان عاملاً قوياً في تطوير الديانة اليهودية»[٢٧] . فما قاله سوسه قاله الكثيرون من قبل ، وفي مقدمتهم (ول ديورانت) في «قصة الحضارة» . وقد أثبت آخرون هذا التوافق من خلال مقابلة الألواح البابلية بصفحات التوراة والتلمود . غير أن الذي يؤخذ على سوسه وهو الأكاديمي الرصين ، ولم يكن كذلك في كتابه «العرب واليهود في التاريخ» ، هو افراطه في الحماس ضد اليهودية .

قلل حماس سوسه ضد ديانة أجداده وآبائه بهذه الطريقة من شأن دراسته ، وكأنه كتب كتابه بدافع البراءة والتعلق بأذيال انتساب قومي وديني جديدين . وحسب يهود عراقيين أنه فعل ذلك من أجل منصب مدير عام ، الذي حُرم على اليهود منذ ذلك التاريخ . وإلا ما علاقته ، وهو المختص بالري والحضارة ، بالبحث في شأن مثل هذا؟ وبطبيعة الحال ، لا يتردد منصف بالإشارة إلى نسيم أو أحمد سوسه بالعالم ، فهو صاحب دراسات رائدة مثل :

---

(٢٣) القمني ، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول ، ص ١٩ ، عن طه حسين ، الشعر الجاهلي ، ص ٢٧ .

(٢٤) سوسه ، العرب واليهود في التاريخ ، ص(ن) من المقدمة .

(٢٥) مجلة المشرق ، أيلول ١٩٠٠ .

(٢٦) سورة آل عمران ، ص ٦٧ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

«الري في حضارة وادي الرافدين» ، و«فيضانات بغداد» ، و«خارطة بغداد» وغيرها . لكن بعد قراءة كتابه «العرب واليهود في التاريخ» يثور السوال الآتي : لماذا زيف اليهود توراة موسى وقد نزلت من السماء ، وكيف يمكن للبشر تزييف كلام الله؟ ومعلوم أن كتاب التوراة في الذهنية الإسلامية كُتب بيد الله!

ما يعترض عليه أهل الأديان السماوية هو محاولة اثبات انحدار موسى من الأسرة الفرعونية بمصر ، لأن كشف مثل هذا الأمر لا يصيب اليهود بالضرر حسب ، مثل القول بتزوير كتابهم . أشار إلى ذلك ما «كشف في مقابر أريحا الملكية (من) أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته في عام ١٥٢٧ق .م الأميرة حتشبسوت . وأنه تربى في بلاطها وبين حاشيتها . وأنه فرَّ من مصر حين جلس على العرش عدوها تحمتس الثالث»[٢٨] . وأن قصته ، حسب التوراة ، جاءت مطابقة لقصة سرجون الأكدي[٢٩] ، كتبت بالعراق بتأثير أكدي . وما تقدم يختلف اختلافاً كلياً عن قصة موسى التوراتية والقرآنية ونسبه كما ورد عند الاخباريين المسلمين . فهو حسب ابن كثير «موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم»[٣٠] .

جاء في «قاموس الكتاب المقدس» حول تسمية اليهود : أنها أُطلقت «أولاً على سبط أو مملكة يهوذا ، تمييزاً لهم عن الأسباط العشرة ، الذين سموا إسرائيل ، إلى أن تشتت الأسباط ، وأُخذ يهوذا إلى السبي ، ثم توسع معناها فصارت تشمل جميع مَنْ رجعوا من الأسر من الجنس العبراني . ثم صارت على جميع اليهود المشتتين في العالم . ولفظة يهود أعم من عبرانيين . لأنها تشمل العبرانيين الأصليين والدخلاء»[٣١] . وحسب القاموس المذكور أن يهود اسم عبري «معناه المدح» ، وإن إسرائيل معناه «يجاهد مع الله» . لذا أُطلق الاسم على يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . ويفيدنا «قاموس الكتاب المقدس» بمعلومة أخرى تقول : إن «مملكة إسرائيل تختلف عن مملكة يهوذا . فإسرائيل كانت تميل إلى الوثنية والأصنام ، بينما يهوذا مستقرة على التوحيد»[٣٢] . نفهم مما تقدم جاء تعميم اسم اليهود بعد السبي ، وأنهم قدموا إلى بابل وهم موحدون .

أضاف المؤرخون العرب إلى ما سبق أن اشتقاق التسمية من الفعل هدى «من هدى الرجل إذا رجع وتاب ، وإنما لزمهم هذا الاسم خاصة لقولهم لموسى : إنا هدنا إليك ، أي

---

(٢٨) ول ديورانت ، قصة الحضارة ١ ص ٣٢٦ ، قمني ، النبي موسى وآخر أيام العمارنة ١ ص ١٦٨ .

(٢٩) قاشا ، أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣٠) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٢٩٦ .

(٣١) قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٠٨٤ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٠ .

رجعنا وتضرعنا . وقيل من الهيد ، وهو الحركة . لأنهم يتحركون عند قراءة التورية برؤوسهم ، وصدورهم فلزمهم هذا الاسم»[٣٣] . وجاء في «القاموس المحيط» الهود : «التوبة والرجوع إلى الحق» ، و«هوده : حوله إلى ملة اليهود» .

وخلاف مَنْ اعتقد أن اليهود لا تاريخ لهم ، ولا نقاوة في جنسهم ، قال ول ديورانت : «لم يوجدوا تاريخهم بل تاريخهم هو الذي أوجدهم . وإنا لنراهم من بداية ظهورهم خليطاً من سلالات كثيرة . والحق أن وجود جنس نقي في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل ، على أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية . لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم مع الأجناس إلا كارهين . من أجل هذا حافظوا على جنسهم ، واستمسكوا به استمساكاً عجيباً . فالأسرى العبرانيون الذين نرى صورهم في النقوش المصرية والآشورية يشبهون كل الشبه يهود هذه الأيام»[٣٤] .

أوردَ ول ديورانت نصاً يفيد في صلة اليهود ببابل ، قاله أرميا على لسان ربه : «إني صنعت الأرض والإنسان والحيوان ، الذي وجه الأرض بقوتي العظيمة ، وبذراعي الممدودة ، وأعطيتها لمن حسن في عيني . والآن وقعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدي . . . فتخدمه كل الشعوب . . . ويكون أن الأمة أو المملكة التي تخدم نبوخذنصر ملك بابل ، والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إني أُعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء ، يقول الرب : حتى أفنيها بيدي»[٣٥] .

أشارت الدراسات إلى التشابه بين التشريع اليهودي والتشريع البابلي ، وخاصة في الوصايا العشر . وهي جوهر الدين اليهودي ، التي أوحى الرب بها إلى موسى ، حسب التوراة . وملخصها عن سفر «الخروج» (٢٠/١ - ١٧) : لا يكن لك آلهة أخرى . لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء . لا تلفظ اسم ربك باطلاً . أذكر يوم السبت لتقديسه . أكرم أباك وأمك . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد شهادة زور . لا تشته بيت قريبك ، ولا امرأته ، ولا خادمه ، ولا خادمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً له . تتبين صلة هذه الوصايا ، التي لم تخل ديانة منها ، بشريعة حامورابي ، فالوصية الأولى هي الأساس . وقبل ذلك «فعل حامورابي في مقدمة شريعته عندما أطرى في تمجيد آلهة المدن وتعظيمها . وذكر الآلهة العظام التي فوضت الأمر إلى الإله مردوخ ، إله مدينة بابل القومي ، لكي ينشر العدل في

---

(٣٣) الفخري ، تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان ، ص ١٩٩ .

(٣٤) ول ديورانت ، قصة الحضارة ١ ص ٣٢٨ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .

البلاد»[٣٦] . غير أن الأب سهيل قاشا ، الذي بحث في المتشابهات بين شريعتي اليهود وحامورابي بعناية ، نراه لم يوفق في مشابهة الوصية الثانية التي تقول : «لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما» مع ما جاء في خاتمة المسلة البابلية «حيث بينَ المشرع أهداف هذه القوانين ، وكيفية الاستفادة منها مع التأكيد على اتباعها»[٣٧] . هدفت الوصية المذكورة إلى توحيد الرب ليس إلا ، وهذا ما لم يكن واضحاً في الديانة البابلية المتعددة الآلهة ، مع وجود إله عظيم بينها هو الإله مردوخ .

وتتشابه الوصية الثالثة «لا تنطق اسم الرب باطلاً» مع نص المسلة الآتي : «كتبت كلماتي القيمة على مسلتي وثبتها أمام تمثالي . أنا الملك البارز بين الملوك : كلماتي مختارة وثورتي ليس لها مثيل بإرادة الإله شماش (إله الحق والعدل والشرائع/الأب قاشا) قاضي السماء والأرض العظيم ، عسى أن تسود عدالتي البلاد ، وبإرادة الإله مردوخ سيدي عسى أن لا يشوه أحد تعليماتي»[٣٨] . وكان البابلي والآشوري يقدسان يوم السبت أيضاً ، فيحظر في ذلك اليوم الطبخ وتغيير الثياب . ويحظر على الملك أن يكلم رعيته ، أو يركب مركبة ، أو يقوم بواجب عسكري ، أو مدني ، أو أن يأخذ دواء[٣٩] .

وتظهر وصية «أكرم أباك وأمك» جلية في المسلة أو الشريعة بالحكم التالي على مَنْ قال لأبويه : «أنت لست والدي أو أنت لست والدتي عليهم أن يقطعوا لسانه» ، أو «إذا ضرب أباه فعليهم أن يقطعوا يده»[٤٠] . وحسبَ ما جاء في الوصية السادسة (المواد ١٩٥ - ٢١٤)[٤١] حرمت المسلة القتل بالقصاص الصارم . وتتشابه الشريعتان في تحريم الزنى وتحديد عقوبته بالموت ، وتحريم السرقة ، وشهادة الزور ، والحث على الأمانة . غير أن الحكم النهائي يبقى للتاريخ في أيهما أخذ من الثاني . فإن ثبت أن شريعة حامورابي التي مازالت محمولة على مسلته قد سبقت الشريعة اليهودية «بأكثر من خمسمئة عام»[٤٢] فإنها صاحبة الفضل في وجود الوصايا العشر ، أو ما يتعلق بالنصوص التوراتية الأخرى . لكن من الصعوبة بمكان أن يجري الحديث عن توراة قديمة طمرت أو زورت فعاد اليهود إلى خلق توراة جديدة مستقاة من الشريعة البابلية ، كما ذهب إلى ذلك أحمد سوسه وآخرون .

---

(٣٦) قاشا ، اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية ، ص ٥٦ عن فوزي رشيد ، الشرائع العراقية ، ص ٨١ .

(٣٧) ول ديورانت ، قصة الحضارة ١ ص ٥٧ .

(٣٨) قاشا ، اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية ، ص ٥٨ .

(٣٩) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ٤٦ .

(٤٠) قاشا ، أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية ، ص ٦٠ .

(٤١) المصدر نفسه ، عن الشرائع العراقية القديمة ، ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

يبقى الاقتباس المتبادل حالة مشتركة بين الأديان ، ليس هناك ديانة أو شريعة نزلت نقية من السماء . فالشريعة البابلية نفسها «كما يبدو من موادها ، هي عبارة عن جمع منقح لمواد الشرائع التي سبقتها . إذ أن حامورابي قد حذف من مواد الشرائع السابقة ما كان لا يتفق وطبيعة عصره . وأضاف إلى شريعته مواد اقتضتها مصلحة الدولة آنذاك . ولا سيما القوانين الصارمة الخاصة بعقوبة الموت والقصاص بالمثل . لأن القوانين السومرية كانت تتجنب مبدأ القصاص ، وترجح التعويض والغرامة المادية»[٤٣] . وهذا ما تنهجه الدول المتحضرة وذات النظام المدني في العصر الحاضر .

عموماً اتفقت الديانتان ، البابلية واليهودية ، في العديد من الشرائع وقصتي الخليقة والطوفان ، بعد أن تحول السبي إلى استيطان دائم . «فإن الذين اختاروا السكنى في بابل (بعد السماح لهم بالعودة إلى أورشليم) وبلاد مادي (شمال العراق) أصبحوا في رخاء من العيش في عهد خلفاء كورش ، لا بل حازوا المناصب الرفيعة في قصر شوشن»[٤٤] . ويعود الفضل في رخاء العيش إلى زوجات الملوك من اليهوديات ، اللواتي لعبنً دوراً في حماية طائفتهن من القتل والهوان . منهن «استير اليهودية امرأة حشويروش الذي تبوأ عرش ماذي سنة ٤٨٥ ق .م . توسطت في خلاص شعبها من القتل ، وحصلت على أمر ملكي يجيز لليهود أن يدافعوا عن نفوسهم إن أقام عليهم الفرس»[٤٥] .

غير أن الاسكندر المقدوني بعد دخول بابل دفع اليهود خلافاً لعقيدتهم إلى «بناء هياكل للآلهة لا يقرونها ، وقد صالحوا الاسكندر ودخلوا جيشه وفي خدمته»[٤٦] . بعدها استفادوا من حكم الفرثيين ليتحكموا في مناطقهم مقابل دفع الضرائب . «لم يكن للدولة الفرثية (القرن الثالث قبل الميلاد) نظام حكم واحد تحكم به كل الأقطار ، وتسوس كل الشعوب الذين دخلوا في حوزتها . بل كان نظامها يختلف باختلاف الأصقاع والأقوام ، حتى أن بعض المدن كانت مستقلة استقلالاً إدارياً وسياسياً ، ولم يكن للفرثيين عليها إلا خراج تتقاضاه»[٤٧] . ومنحت اللامركزية في الحكم أمير حدياب (أربيل حالياً) ايزاط حرية أن يشهر يهوديته في القرن الأول للميلاد . فأرسلت «أمه هيلانة بقمح إلى أورشليم مساعدة لليهود من مجاعة حلت بهم»[٤٨] .

---

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ١٧ .
(٤٤) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ٦٤ .
(٤٥) المصدر نفسه .
(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .
(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

ويجدر التذكير بصلة أخرى نقلت من بابل إلى فلسطين ، وهي أن تل أبيب تسمية ذات أُصول بابلية . جاء في «قاموس الكتاب المقدس» : «اسم بابلي معناه كومة أو تل سنابل القمح ، قرية في بابل عند نهر خابور أو كبار سكنها حزقيال النبي مع اليهود المسبيين»[٤٩] . قال النبي حزقيال : «فوصلت إلى المَجلّوين في تل أبيب ، إلى الساكنين على نهر كبار ، حيث كان سكناهم ، فأقمت هناك سبعة أيام وأنا مدهوش بينهم»[٥٠] . وردت تل أبيب في ترجمة أخرى للكتاب المقدس بتل السنبلة[٥١] . وبهذا المعنى ذكر أبو الحسن المسعودي مفردة أبيب أيضاً : «قال فريق من العنانية ، أصحاب عنان بن نبدود (داود) ، وكان رئيس الجوالي بأرض العراق والفراتية ، إنهم يوقعون الفصح حتى يكتمل إدراك السنبل ، ويسمونه أبيب ، ومنهم مَنْ يقول بالفصح عند إدراك البعض منه ولا يراعي الكل»[٥٢] .

مع الإسلام

توزع يهود العراق على بلدان العالم ، فهم يشكلون ، رغم قلة عددهم ، وجوداً حيوياً بالبحرين . ولعل البحرين هي البلد الخليجي الوحيد الذي مازال يقطنه يهود ، بعد تهجيرهم القسري من الجزيرة العربية بقرار من عمر بن الخطاب . ومنهم مَنْ وفد إلى العراق . لذا هناك مَنْ عد الجزيرة العربية مصدراً آخر ، إضافة إلى السبيين الآشوري والبابلي ليهود العراق[٥٣] . طرد عمر بن الخطاب اليهود من الجزيرة ، مع أن أهل الكتاب ميزوه بلقب الفاروق . وأكثر الظن أنهم اليهود . وربما أصل المفردة كان (بروت) العبرية ، ومعناها العهد أو الميثاق . وملاك بروت يعني رسولاً مسيحاً . والصلة بين الفاروق والفرقان ، الذي هو «القرآن» واضحة . وحسب فلهلم رودلف «كلمة فرقان مشتقة مباشرة من الآرامية حيث لا تأتي . . . البتة بمعنى التنزيل ، بل يكون معناها خلاصاً أو نجاة»[٥٤] . ورد في الرواية الإسلامية : «بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول مَنْ قال لعمر الفاروق . وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم ، ولم يبلغنا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذكر من ذلك شيئاً»[٥٥] . وقبل ذلك كان للعرافة اليهودية ،

---

(٤٩) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٢٢١ .

(٥٠) الكتاب المقدس ، العهد القديم ، سفر حزقيال : ١٥/٣ ص ١٧٨٠ .

(٥١) الكتاب المقدس ، العهد القديم ، سفر حزقيال : ١٥/٣ المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٠ .

(٥٢) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٨٧ .

(٥٣) كورية ، يهود العراق تاريخهم أحوالهم هجرتهم ، ص ٨ .

(٥٤) رودولف ، صلة القرآن باليهودية والمسيحية ، ص ٦٣ .

(٥٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٣ ص ٢٧٠ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ٤٤ ص ٥١ .

من أهل خيبر ، فضل في البقاء على حياة والد الرسول ، عبد الله بن عبد المطلب ، أو عبد اللات حسب ما قيل حول اسمه الحقيقي . وبالتالي كانت لها صلة في حياة الرسول وظهور الإسلام . أشارت الكاهنة على عبد المطلب بن هاشم ، يوم عزم على ذبح ولده عبد الله ، فداء لحفره بئر زمزم بضرب القداح والزيادة في الإبل . قالت : «فإن خرج القداح على عبد الله زيدوا في الإبل ، وإن خرجت على الإبل فانحروها»(٥٦) .

ولصلته باليهود أشار عمر إلى نفر منهم ، أخذ منه صفحات من التوراة ، بأخٍ لي من بني قريظة ، كما سيأتي تفصيل ذلك . وأن الرسول كان يقوم إحتراماً إن مرت به جنازة يهودي ، فأصبح ذلك سُنَّةً . وكان «سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدَين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما ، فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة . فقالا : إن النبي صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام ، فقيل له : إنها جنازة يهودي . فقال : أليست نفساً»!(٥٧) . وحصل في حياة الرسول أن «استب رجلان ، رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين . فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي (ولما عرضت القضية على الرسول قال) لا تخيروني على موسى! فإن الناس يُصقعون يوم القيامة فأُصقع معهم فأكون أول مَنْ يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صُقع فأفاق قبلي ، أو كان مَمْنْ استثنى الله»(٥٨) .

فماذا حصل ليُهجَّر اليهود من ديارهم ، بعد أن أقرهم الرسول فيها ، وتزوج صفية بنت حُيَيّ بن أخطب ، بعد قتل ذويها في يوم خيبر (السابعة هجرية)؟ ولماذا تغير الموقف فجأة ضدهم؟ هل يا ترى جاء قرار تهجيرهم الجماعي من قبل عمر بن الخطاب ارتباطاً بما حدث لولده عبد الله بن عمر ، إذ «ألقوه من فوق البيت وكسروا له مفصلاً»؟ جاء برواية البخاري : «لما فدع (كسر أو ميل في المفصل) أهل خيبر عبد الله بن عمر بن الخطاب قام عمر خطيباً فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان عامل يهود خيبر على أموالهم . وقال : نقركم ما أقركم الله . وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هنا فعدي عليه من الليل ، ففدعت يداه ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم . هم عدونا وتهمتنا . وقد رأيت إجلاءهم . فلما اجمع عمر على ذلك أتاه أحد بني أبي الحقيق ، فقال : يا أمير المؤمنين أتخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا؟ فقال عمر : أظننت أني

---

(٥٦) ابن اسحاق ، السير والمغازي ، ص ٣٦ .

(٥٧) البخاري ، صحيح البخاري بشرح الكرماني ، كتاب الجنائز٧ ص١٠٢-١٠٣

(٥٨) المصدر نفسه ، كتاب الخصومات ٩ ص ٢١١-٢١٢

نسيت قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : كيف بك إذا خرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟ فقال : كان ذلك هُزيلةً (مزحة) من أبي القاسم . فقال : كذبت يا عدو الله . فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر : مالاً وإبلاً من أقتاب (أثاث أو سروج) وحبال وغير ذلك»[٥٩] .

لم تحضر هذه القصة عند الحديث عن جلاء اليهود من الجزيرة العربية . حل محلها خبر منقول عن الرسول أنه قال : «لا يبقى دينان بأرض العرب»[٦٠]! غير أن هذا الحديث من الأحاديث التي نُسبت إلى لحظة احتضار الرسول ، وهو على فراش الموت في حجرة عائشة . ورد في حديث الجلاء : «إنه كان آخر ما تكلم به أن قال : أخرجوا اليهودَ من الحجاز ، واخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب»[٦١] . وأخرج أبو داود في سننه وعنه نقل ابن تيمية حديثاً آخر له المضمون نفسه ، وهو «لا تصلح قبلتان بأرض ، ولا جزية على مسلم»[٦٢] . لكن المشهور أن كلاماً آخر ، لا يوافق الفاروق والصديّق ، أرادَ الرسول قوله في تلكَ الساعة لم يسمع عنه من قبل ، وهو :«أتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي» ، رده عمر بقوله : «قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله»[٦٣] ، وقالوا : «ما له أهجر؟ استفهموه»[٦٤] . بعدها قال عبد الله بن عباس : «الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٦٥] . فكيف شمعوا والتزموا حديثاً في شأن جلاء اليهود عن خيبر ، والنصارى عن نجران؟ أو «الأئمة من قريش» ، بينما لم يسمعوا ما أومأ إليه عبد الله بن عباس وهو وصية الخلافة؟

وردَ في طرد الخليفة عمر لليهود ، والعهدة على الراوي أبي العلاء المعري ، أن شاعرهم بخيبر سمُير بن أدكن قال في تهجير قومه :

يصــول أبــو حـفـص علينـا بدرةٍ
رويــدك أن المَــرء يطفـو ويـرسب
فلـو كـــان مـوسى صادقاً ما ظهرتم
عـليـنا ولـكـــن دولـة ثم تذهـب

---

(٥٩) المصدر نفسه ، كتاب الشروط ، الحديث ٢٥٤٦ ، ١١ ص ٣٧ .

(٦٠) هارون ، الألف المختارة من صحيح البخاري ، باب إذا أشترط في المزارعة ١ ص ٤٣٦ - ٤٣٨ الهامش .

(٦١) ابن سلام ، كتاب الأموال ، ص ١٢٩ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٤٨٧ .

(٦٢) ابن تيمية ، مسألة في الكنائس ، ص ١٠٣ .

(٦٣) الشهرستاني ، الملل والنحل ١ ص ٢٢ .

(٦٤) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة١ ص ١٧٦ .

(٦٥) المصدر نفسه .

ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا
لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا
وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا[٦٦]

اختلفت المذاهب الفقهية حول حديث الجلاء وممارسة عمر، فالمذهب الحنبلي ما زال يمنع اليهود والنصارى من الدخول إلى الحرم المكي ومكة عامة. وهذا ما يُطبق في المملكة العربية السعودية اليوم. بينما أجاز لهم المذهب الحنفي «دخول الحرم حتى الكعبة نفسها، ولكن لا يستوطنون به»[٦٧]. ويلمز الإمام الحنبلي ابن قيم الجوزية في هذه المسألة إنسانية أبي حنيفة الفقهية بما هو مذموم عند الحنابلة أو الشافعية وهو مبدأ القياس: «وكأن أبا حنيفة، رحمه الله تعالى، قاس دخولهم مكة على دخولهم مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا يصح هذا القياس، فإن لحرم مكة أحكاماً يُخالف بها المدينة، على أنها ليست عنده حرماً»[٦٨].

عاد اليهود بعد ثلاثة عشر قرناً من طردهم إلى الجزيرة ثانية، وكانت محطتهم هذه المرة البحرين. فقد بلغ عددهم فيها، العام١٩٤٧، (٤٢٢) نسمة. إلا أن العدد تقلص في ما بعد بسبب حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧. يقول اليهودي البحريني، العراقي الأصل، فريد روبين: «جدي مير داود روبين الذي ولد في الموصل بالعراق كان يعمل في تجارة الأقمشة. جاء إلى البحرين عام ١٩١٠ بغرض جلب بضاعة من العراق وبيعها والعكس، وقرر أن يقيم في البحرين. وكان الإنكليز يحكمون البلاد. وفي عام ١٩١٩ أخذ زوجته وذهب بها للبصرة. ثم عاد مرة أخرى للبحرين. وولد والدي هناك، وكذلك أعمامي وعماتي»[٦٩]. لم يبق مكان في العالم إلا ووطئته أقدام يهودي عراقي، وأي مكان يحلون فيه يتقدمون في المناصب، والريادة في التجارة ومختلف المهن. حل ببريطانيا اليهودي العراقي أدوارد شيلدون، ووصل إلى منصب وزير ونائب في البرلمان. وكان آل ساسون من أهم تجار آسيا. وأصبح آل خضوري من أغنياء هونغ كونغ. وآل زلخا أصحاب أكبر شركة عالمية للوازم الأطفال. ومنهم رونيت زلخا مصممة الأزياء العالمية. ووصل اليهودي العراقي ديريك عزرا إلى عضوية مجلس اللوردات البريطاني. وكان وزير الدفاع الإسرائيلي إسحاق مردخاي من الكرد العراقيين، وغيرهم كثير[٧٠].

---

(٦٦) المعري، رسالة الغفران، ص ٢٧٤.
(٦٧) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ١ ص ١٨٨.
(٦٨) المصدر نفسه.
(٦٩) مجلة «الجديدة»، العدد ٦٨٤ تاريخ ٤ آب ١٩٩٩.
(٧٠) الشرق الأوسط ١٢ أيار ١٩٩٨.

كان العهد الساساني ، الذي افتتحه الملك أردشير العام ٢٢٤م ، ضيّق على اليهود ، إذ أمر «باضطهادهم ، وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم»[٧١] . وحالتهم ، حسب نولدكه ، مع خلفاء أردشير كانت متقلبة[٧٢] . ولليهود ، في ذلك الوقت ، رئيس سياسي يدعى رأس الجالوت ، «ويعد من أقطاب المملكة الفارسية وله الرتبة الرابعة بعد الملك»[٧٣] . وقد ظلت هذه الرتبة قائمة في العصور الإسلامية ، التي تراوحت معاملة اليهود فيها بين التقيد بشروط الذمة ، توفير الحماية وحرية ممارسة الدين طقوساً وشريعة ، وبين التضييق الشديد عليهم ، مثل فرض لباس خاص وتعاليم توحي بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية . وقيل توقف التعامل مع لقب رأس جالوت في «خلافة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ) ، ففي أيامه استفحل شأن الأمراء واضطربت أحوال الخلافة ، واختل توجيه منصب رأس الجالوت . وكان آخر الرؤساء في عهد القادر هو الغاؤون شريرا . (بعدها) أمر الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) بإحياء مراسيم رئاسة الجالوت وإعادتها إلى ما كانت عليه ، ووجه العهدة بهذا المنصب للعالم الثري سليمان بن حسداي»[٧٤] . ومعلوم أن القادر ، الذي حكم أكثر من أربعين سنة ، كان متعصباً ضد الأديان والمذاهب الأخرى ، وهو شافعي المذهب أشعري الفكر .

وذكر الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الأندلسي (٥٦١ - ٥٦٩هـ) ، الذي زار بغداد في عهد الخليفة المستنجد بالله (٥٦٦هـ) ، رئاسة الجالوت ، التي أصبحت وراثية في عائلة حسداي بقوله : «رئيس هؤلاء العلماء جميعهم فهو الربي (الرباني) دانيال بن حسداي الملقب سيدنا برأس الجالوت . ويسميه المسلمون سيدنا ابن داود ، لأن بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى الملك داود ، وهو يستمد سلطانه من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة أمير المؤمنين ، عملاً بالشرع المحمدي ، وينتقل هذا المنصب إلى ذريته بالوراثة . وعند تنصيب الرئيس يمنحه الخليفة ختم الرئاسة على أبناء ملته كافة . وتقضي التقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين وسائر أبناء الرعية بالنهوض أمام رأس الجالوت وتحيته عند مروره بهم ، ومن خالف ذلك عوقب بضربه مائة جلدة»[٧٥] .

كان الخلاف «حول ولاية منصب رأس الجالوت»[٧٦] سبباً لظهور فرقة القرائين أو

---

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٧٤) بنيامين ، رحلة بنامين ، ص ١٣٦ الهامش .

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٧٦) المصدر نفسه ، الملحق ٢ ، ص ١٩١ . وهناك منْ أشار إلى لقاء تم بين الإمام أبي حنيفة النعمان

العنانية ، بزعامة عنان بن داود (ت٧٩٠ - ٨٠٠م) في عهد أبي جعفر المنصور ، يوم «خالف جماعة من الربانيين في كثير من شرائعهم ، واستعمل الشهور برؤية الأهلة على مثل شرع الإسلام»[٧٧] . و«كان من رؤساء الجوالي (رأس جالوت) بأرض العراق ، والقرائية»[٧٨] .

والعنانية ، حسب المسعودي ، كانوا متأثرين بالمعتزلة ، فهم «ممن يذهب إلى العدل والتوحيد»[٧٩] . وقال : «شاهدنا أكثرهم»[٨٠] ، مثل : أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني (ت٣٢٠هـ) ، وسعيد بن يعقوب الفيومي (ت بعد ٣٣٠هـ) . «كانت له قصص بالعراق مع رأس الجالوت داود بن زكي من ولد داود ، واعتراض عليه ، وذلك في خلافة المقتدر ، وتحزب من اليهود لأجلهما ، وحضر في مجلس الوزير علي بن عيسى وغيره من الوزراء والقضاة»[٨١] . وداود المعروف بالقومسي . وإبراهيم البغدادي . وقد ناظر المسعودي جماعة منهم بالقدس والأردن[٨٢] . ومن متكلمي العنانية أو القرائين ببغداد : يعقوب بن مردويه ويوسف بن قيوما .

= وعنان بن داوود . كتب عزرا حداد مترجم «رحلة بنيامين» الآتي : «يروي مؤرخو الفرقة العنانية أن زعيمهم عنان بن داود ، أثناء مكوثه في السجن ، تلاقى مع الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت . وكان يومئذ سجيناً مثله لأسباب لا محل لشرحها . فقص عليه عنان قصته . فأشار عليه الإمام بأن يدعي أنه ليس ثائراً على رأس جالوت ، وإنه صاحب دين قائم بنفسه لا علاقة له بدين اليهود . لذلك فأن من حق جماعته أن تتمتع بحرية المعتقد شأن سائر أهل الذمة في المملكة الإسلامية»(رحلة بنيامين ، الملاحق ، ص ١٩٢) .

ويسند عزرا حداد روايته إلى أحمد أمين في «ضحى الإسلام» (٣ ص ٣١٦) . إلا أنه لا أثر للرواية المذكورة في كتاب أحمد أمين بل ولا أثر لاسم عنان بن داوود فيه . وأخذ نسيم رجوان ، حكاية لقاء أبي حنيفة وابن داوود لكتابه «موجز تاريخ يهود العراق» ، مع إضافة القول : «نصح (أبو حنيفة) عنان بالتوجه إلى الخليفة والإعلان عن نفسه وعن أتباعه كأبناء ديانة منفردة قريبة جداً من الديانة الإسلامية (ص ٥٨) . ثم نقل جعفر هادي حسن الرواية المذكورة عن L. Nemoy, Karaite Anthology, pp 4-5 .

جاء فيها : أن عنان «التقى بعالم مسلم كان سجيناً معه ، واقترح هذا العالم على عنان أن يلتقي أبا جعفر المنصور ، ويشرح له بأنه لم يخرج عن اليهودية ، ولم يذكرها أو يرتد عنها ، وإنما هو صاحب مذهب فيها» (فرقة القرائين اليهود ، ١٧ - ١٨) . وبعد مراجعة المصدر المذكور (ليون نيموي) وجدناه يحيلها إلى مصادر القرائين القديمة ، ولا ندري ما منعه من ذكرها . فيعقوب القرقزاني ، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي ، في كتابه المخطوط «الأنوار والمراكب» مع ما ذكره من أخبار وعقائد العنانية لم يشر إلى شيء من هذا القبيل .

(٧٧) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٥٩ .

(٧٨) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٨٧ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

(٨١) المصدر نفسه .

(٨٢) المصدر نفسه .

قال المسعودي : «وآخر مَنْ شاهدنا منهم ممن تقدم إلينا من مدينة السلام بعد الثلاثمائة إبراهيم اليهودي التستري . وكان أحذق مَنْ تأخر منهم في النظر وأحسنهم تصرفاً فيه»[٨٣] .

وصف بنيامين ، كشاهد عيان ، مراسيم استقبال رأس الجالوت بدار الخلافة بالقول : «عندما يخرج رأس الجالوت لمقابلة الخليفة يسير أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين ، ويتقدم الموكب مناد ينادي بالناس : أعملوا الطريق لسيدنا ابن داود ، ويكون الرئيس ممتطياً صهوة جواده وعليه حلة من حرير مقصب ، وعلى رأسه عمامة كبيرة تتدلى منها قطعة قماش مربوطة بسلسلة منقوش عليها شعار الخليفة . وعندما يمثل في حضرة الخليفة يبادر إلى لثم يده ، وعندئذ ينهض الخليفة وينهض معه الحجاب ورجال الحاشية ، فيجلس الرئيس فوق كرسي مخصص لجلوسه قبالة الخليفة»[٨٤] . وإلى جانب رأس الجالوت (رئيسهم السياسي الذي يمثلهم عند الخليفة)[٨٥] هناك منصب رأس مثيبة[٨٦] . ورد ذلك في المرسوم الذي تبوأ بموجبه ابن هبة هذه الوظيفة العام ٦٠٥ هجرية ، في خلافة الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) . ويبين مرسوم العهد ، الذي يقرأ عادة على اليهود في كنيسهم ، حقوق وواجبات اليهودي ، ويذكره بنبوة محمد ، وشريعته وبنسخها لديانتهم . وأدناه نسخة المرسوم كاملة كما أوردها علي بن أنجب المعروف بابن الساعي :

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الواجب شكره . الغالب أمره . العلي شأنه . القوي سلطانه . السابغة نعمته . البالغة حكمته . المتفرد بالجلال والاقتدار . المصرف على مشيئته مجاري الاقضية والأقدار . الدال على وحدانيته ببديع فطرته . المانع لعجائب صنعته من أن يتقدر في الأوهام كنه معرفته . الهادي إلى سبيل الرشاد من يشاء من خلقه الهامي سحاب فضله على كل مقر بربوبيته عارف بحقه ، الذي اصطفى محمداً (ص) وآله من أكرم أرومة وأعلى محتد وجرثومة . وأشرف العرب منصباً وأعزها قيلاً . وأوضحها في المكارم سبيلاً . وأرسله إلى الأحمر والأسود نبياً . واختاره من أصناف الأمم عربياً وأيده بالحكم أُمّيّاً . وجعله منصوراً بملائكته محمياً . وابتعثه بالبرهان الساطع والدليل القاطع . ونسخ بشريعته المطهرة الملل السالفة والشرائع .

فلم يزل (ص) وآله بأمر الله صادعاً ولأنف الباطل جادعاً . ولما انزل الله مبلّغاً ولجهده في نصح الأمة مستفرغاً ، فصلى الله عليه ، وعلى آله وعلى سلالة عمه (العباس بن عبد

---

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٨٤) بنيامين ، رحلة بنيامين ، ص ١٣٧ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ ، الهامش .

(٨٦) ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ص ٢٦٦ ، ورد في الهامش : «معنى رأس المشية (مثيبة) أي رأس الجمع ، كانت مستعملة في اواسط القرون الوسطى والكلمة من الآرامية واصل معناها الجمع واللم والضم» .

المطلب) ، ووارثه وصنو أبيه ، العباس الذي طهره الله من الادناس . وفرض مودتهم وطاعتهم على جميع الناس ، الخلفاء الراشدين ، وأئمة الحق المجتهدين صلاة لا انقشاع لغمامها . ولا انقطاع لتواصل دوامها . والحمد لله الذي صار إلى خليفته في أرضه ، ونائبه في خلقه الإمام المفترض الطاعة على سائر الأنام الناصر لدين الله أمير المؤمنين .

وارث الأنبياء والمرسلين حجة الله على الخلق أجمعين من مواريث أنبيائه ومآثر خلفائه في أرضه وأُمنائه ، ما هو أحق بحيازة مجده وارتداء علائه ، أخذ ميثاق طاعته على الأمم في الأزل ، وألزم الأواخر منهم ما ألزم الأول ، وفرض على خلقه الاقتداء به والائتمام ، وجاز له وراثة الخليفة عن الخليفة والإمام عن الإمام زاده الله شرفاً إلى شرفه وأدام على العالمين ما منحهم به من شمول عدله وحصانة كنفه . فالمسلم والذمي والمعاهد في ظل أياديه الشريفة وادعون ، وفي رياض الأمانة راتعون ، وبما يكلؤهم من عين رأفته اليقظى هاجعون ، لا يكدر لهم شرب ولا يذعر لهم سرب ، وحكم عدله يوجب النظر العام في مناظم أمرهم وجوامع مصالحهم ورعاية جمهورهم ، لما وكله الله تعالى إليه من سياسة عباده وناطه بشريف آرائه واجتهاده .

ولما ضرع دانيال بن العازر بن هبة الله في ترتيبه رأس مثيبة اليهود عوضاً عن العازر بن هلال بن فهد الدارج على قاعدته ، وجاري عادته ، وانتهى ما يتحلى به عند أهل نحلته ، ويتصف به استحقاقه ، لما ضرع فيه بحسن طريقته فيهم ، وسلامة مذهبه . رسم أعلى الله تعالى المراسم الشريفة المقدسة المعظمة الممجدة المكرمة النبوية الإمامية الطاهرة الزكية الناصرة لدين الله ، زادها الله جلالاً ممتد الرواق ، ونفاذاً في الأقطار والآفاق : ترتيبه رأس مشية (والصحيح مثيبة) اليهود على عادة الدارج المشار إليه . حيث كان ابن الدستور رأس مشية (مثيبة) أيضاً ، وأن يكون له النظر فيه ، والولاية عليه من جميع الأماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها .

وأن يتميز عن نظرائه وأشكاله باللبسة التي عهدت لأمثاله . وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة الشام ، وأكناف العراق . والانتهاء في ذلك إلى المأمور به والرجوع إلى قوله في توسط أمورهم والعمل بموجبه . وأن يخرجوا إليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالأماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك . مع قيامه في ما يأتيه . ويدره بشرائط الذمة والتزامه ، ومحافظته بالامتثال وبواجب الاعتصام والإجلال . إن شاء الله تعالى وبه الثقة . وكتب في تاسع ذي القعدة من سنة خمس وستمائة ، والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله ، الذي ختم النبيين ، وهو سيد المرسلين المصطفى على سائر الخلق أجمعين صلاة دائمة إلى يوم الدين»[٨٧] .

---

(٨٧) ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

وجاء في تعيين دانيال بن شمويل رأس مثيبة ليهود العراق ، في عهد المستعصم بدين الله (قتل ٦٥٦هـ) ، على لسان قاضي القضاة ما نصه : «رتبتك زعيماً على أهل ملتك ، من أهل دينك المنسوخ الذي نسخته الشريعة المحمدية . لتأخذهم بحدود دينهم ، وتأمرهم بما أُمِروا به في شريعتهم ، وتنهاهم عما نهوا عنه في شريعتهم ، وتفصل بينهم في وقائعهم ، وخصوماتهم بموجب شريعتهم ، والحمد لله على الإسلام»[٨٨] . يظهر في الكتابين التوجه الرسمي لإشعار أهل الذمة ببطلان دياناتهم ، ونسخها بالإسلام . ويبدو الاعتراف بها منقوصاً ، لا يعبر عن التسامح الديني والاجتماعي . ففيهما هناك أكثر من إشارة تُستغل ضدهم .

من الروايات التي أشارت إلى حسن معاملة المسلمين لليهود ، لاعتبارات إنسانية ، ما رواه قاضي القضاة أبو يوسف أن الخليفة عمر بن الخطاب مرَّ «بباب قوم وعليه سائل يسأل : شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال : يهودي . قال : فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال : أسألْ الجزية والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله ، فرضخ له بشيء من المنزل . ثم أرسل إلى خازن بيت المال ، فقال : أنظر هذا وضرباءه ، فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه»[٨٩] .

وروى أبو الحسن المسعودي أن سفير علي بن أبي طالب إلى الخوارج بالنهروان كان يهودياً عراقياً ، فبعد قتلهم لأميرها عبد الله بن خباب ، ورسوله إليهم الحارث بن مُرَّة العبدي كلف بالسفارة إليهم «رجلاً من يهود السَّواد»[٩٠] . وورد في الأخبار أن الإمام علي جلس نداً لخصمه اليهودي . وأنه لم يذكر اليهود بسوء في خطبه ووصاياه ، التي شغل موقفه من معاوية والخوارج حيزاً كبيراً منها . والعبارة الوحيدة ، على حد علمي ، التي تمس اليهود وردت في قوله في مروان بن الحكم بعد معركة الجمل : «لا حاجة لي في بيعته أنها كف يهودية لو بايعني بكفه لغدر بسبته»[٩١] . غير أن هناك مَنْ ينسب إلى عمر بن الخطاب الشدة ضد أهل الكتاب . بينما روايات أخرى تنسبها إلى عمر بن عبد العزيز ، مع أنه أوصى عماله : «لا تهدموا كنيسة ولابيعة ، ولابيت نار ، ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ، ولا بيت

---

(٨٨) ما عُرف بالحوادث الجامعة ، ص ٢١٨ .

(٨٩) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١٢٦ .

(٩٠) المسعودي ، مروج الذهب ٣ ص ١٥٦ .

(٩١) نهج البلاغة ، شرح محمد عبدة ، خطبة ٧٢ (من كلام له عليه السلام) ص ١٤٩ .

نار»[٩٢] . وروي عنه أنه «أمر أن يقتل مسلم بيهودي فقتل»[٩٣] .

وينسب بعض المحدثين الشدة ضد أهل الكتاب إلى النبي محمد ، كي تأخذ مداها في التنفيذ . كما صرح بذلك ابن الأخوة ، بالقول : «وقد ورد في الحديث عن النبي صلعم أنه قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع بها إلا مسلماً . وقال : لا تساكنوا اليهود والنصارى في أمصاركم إلا أن يسلموا ، ومَنْ يرتد بعد إسلامه فأضربوا عنقه»[٩٤] . ويتمادى بعض المشرعين إلى القول : أن «لا تجاور قبورهم بيوت المسلمين ولا قبورهم ، بل تنفرد عنهم لأنها محل عذاب والغضب ، فلا تكون هي ومحل الرحمة في موضع واحد»[٩٥] .

ويبرز العهد العباسي الخليفة جعفر المتوكل في اضطهاده العلني لأهل الكتاب . ميزهم بالملابس الخاصة وبالركوب وبالمعاملة . وتزامن ذلك مع اضطهاد الفرق الإسلامية المخالفة لأهل الحديث ، وفي مقدمتهم المعتزلة والشيعة . ففي السنة ٢٣٥هـ أمر «بلبس أهل الذمة الطيالسة العسلية ، وركوبهم البغال والحمير برُكب الخشب والسروج التي فيها الأكر . وأن لا يركبوا الخيل والبراذين . ويصيروا على أبوابهم خُشباً فيها صور الشياطين»[٩٦] . وقد تزامن هذا مع قرار عدم الاستعانة «بأحد من أهل الذمة في شيء من عمل السلطان . وأن تهدم الكنائس والبيّع المحدثة ، ومنعوا العمارة . وكتب ذلك بالآفاق»[٩٧] . غير أن بعض المؤرخين مثل ابن تغرى بردى يذكر التمييز بالملابس قد خص المسيحيين فقط[٩٨] . إن لرواية تكليف الديزج ، وهو يهودي شهر إسلامه ، لهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب بكربلاء[٩٩] أكثر من مغزى . الأول تحقيق هدم ضريح تعجز يد مسلمة عن هدمه ، في وقت تصاعد المد الشيعي ، وتكررت ثوراته العلوية . لكن لم تتأخر اليد المسلمة عن ضرب الكعبة بالمنجنيق من قبل ، مثلما فعل يزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفي . والثاني لزرع روح البغضاء في المجتمع ، فهدم قبر الحسين لم يكن هيناً على طائفة كبيرة من سكان العراق وهم الشيعة . جاء في الرواية : «فلما بلغ قبره لم يتقدم إليه أحد ، فأحضر قوماً من اليهود فكربوه ، وأجرى

(٩٢) كتاب الأموال ، ص ١٢٣ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٦٩٠ .

(٩٣) زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٩٤) ابن سلام ، كتاب الأموال ، ص ١٢٨ ، ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ٣٨ .

(٩٥) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٧٢٦ .

(٩٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٤٨٧ .

(٩٧) المصدر نفسه .

(٩٨) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ٢ ص ٢٨٠ .

(٩٩) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

الماء حوله . ووكل به مسالح (نقاط تفتيش) بين كل مسلحتين ميل . لا يزوره زائر إلا أخذوه ووجهوا به إليه»[١٠٠] .

أعاد التاريخ نفسه ، السنة ١٩٩١ ، يوم اعتصم المنتفضون وسط الحائر الحسيني بكربلاء . وبالتأكيد هناك مَنْ اعتقد أن لا تجرؤ السلطة على ضرب المكان المقدس بالمدافع والدبابات . وأن السلطة نفسها كانت تعتقد صعوبة ذلك . لذا شاع عن هوية الجنود المهاجمين أنهم من الكرد الأيزيديين ، الذين حاولت السلطة أن تجعل منهم طائفة أموية في جبال سنجار وشيخان من شمال العراق . وحسب شيخ أيزيدي أن المهاجمين لبسوا ما يشبه اللباس الأيزيدي بسنجار . أي العقال والكوفية الحمراء . ترددت مثل هذه الرواية في مجالس الشيعة بغضب دفين على الأيزيديين . مع أن الأخيرين نفوا مشاركتهم بالحادث . وأنه كان مجرد اختلاق . ويبدو كانت رواية مشاركة اليهود في هدم قبر الإمام الحسين تنطوي على الغرض نفسه .

بيد أن معاناة أهل الذمة تعمقت مع تقدم الأيام ، لسطوة المذاهب الشديدة عليهم ، حتى وصل الحال إلى وصفهم بالبهائم من قبل وزراء الدولة . جاء في الرواية أن الطبيب الصابئي سنان بن ثابت كتب إلى وزير المقتدر علي بن عيسى يستأذنه في تداوي يهود السواد ، القاطنين على نهر الملك . أجابه الوزير بكتاب شديد اللهجة : «فهمت ما كتبت به أكرمك الله ، وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب . ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة أهل الذمة قبل البهائم ، والمسلمين قبل أهل الذمة ، فإذا أفضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه ، صرف في الطبقة التي بعدهم . فأعمل أكرمك الله على ذلك ، اكتب إلى أصحابك به ، ووصهم بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة ، والأمراض الفاشية»[١٠١] .

أخذت ممارسة جعفر المتوكل (ت٢٤٧هـ) ضد أهل الذمة طابع السُنَّة . اقتدى بها خلفاؤه من بعده ، فقد قرر المقتدر بالله (ت٣٢٠هـ) ، بعد فشل انقلاب ابن عمه الشاعر عبد الله بن المعتز ضده ، «ألا يُستخدم أحدٌ من اليهود والنصارى إلا في الطب والجهبذة فقط ، وأن يطالبوا بلبس العسلي ، وتعليق الرقاع المصبوغة بين أظهرهم»[١٠٢] . وتصاعد اضطهاد اليهود زمن المقتدي بأمر الله العباسي (ت ٤٨٧هـ) . إذ تبنى وزيره أبو شجاع محمد بن حسين (ت٤٨٨هـ) حملة ضد اليهود منع فيها عطلة السبت . «أمر محتسبه ابن الخرفي «أن

---

(١٠٠) المصدر نفسه .

(١٠١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص ٢٠٢ .

(١٠٢) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ٣ ص ١٦٥ .

يؤدب كل من فتح دكانه يوم الجمعة ، ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم . وقال : هذه مشاركة لليهود في حفظ سبتهم»[١٠٣] . و«ألبس أهل الذمة الغيار» .

وتحدثت الروايات عن اضطهادات عنيفة ضد الذميين جرت في أماكن أخرى من العالم الإسلامي . فأمير مصر العباسي ، أحمد بن طولون ، أمر بحرث «قبور اليهود والنصارى واختط موضعها قصراً عظيماً»[١٠٤] . وأن الحاكم بأمر الله الفاطمي (السنة ٣٨٦هـ) أمر اليهود باعتمار العمائم السُود . «وأمر أن لا يركبوا مع المسلمين في سفينة . ولا يستخدموا غلاماً مسلماً . ولا يركبوا حماراً لمسلم . ولا يدخلوا مع المسلمين حماماً ، وجعل لهم حمامات على حدة[١٠٥] .

وأبطل حاكم مراكش عبد المؤمن بن علي السنة ٥٤٣هـ العمل بالجزية ، ليلغي الذمة التي بعاتقه لليهود والنصارى ويجبرهم على الإسلام . وجاء في خطابه في جمع من أهل الكتاب : «إن الإمام المهدي أمرني ألا أُقرَّ الناس إلا على ملة واحدة وهي الإسلام . وانتم تزعمون أن بعد الخمسمئة عام يظهر مَنْ يعضد شريعتكم ، وقد انقضت المدة (يعتقد أن اليهود قالوا ذلك أيام الرسول) . وأنا مخيركم بين ثلاث : إما أن تسلموا ، وإما تلحقوا بدار الحرب ، وإما أن أضرب رقابكم ، فأسلم منهم طائفة ، ولحق بدار الحرب أخرى . وأخرب عبد المؤمن الكنائس والبيع وردها إلى مساجد . وابطل الجزية . وفعل ذلك في جميع ولاياته»[١٠٦] .

غير أن الجزية أصبحت ويلاً على دافعيها لما يصاحب جبايتها من إذلال وتمييز اجتماعي . فرغم أنها تعصم مؤديها من القتل ، وبها يحتفظ الكتابي بدين آبائه ، إلا أن نيرها دفع يهودي بغدادي (القرن الخامس الهجري) إلى تلفيق كتاب أو حديث نبوي يقضي بإعفاء يهود خيبر من ضريبة الجزية . وبالقياس يعفى منها باقي اليهود . غير أن واضع الحديث لم يختر السند أو الشاهد المناسب ، وأنه وضعه في زمن سطوة الشافعية ، غير المتساهلين مع أهل الذمة . جاء في الرواية : «أن بعض اليهود أظهر كتاباً ، وادعى أنه كتاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، رضي الله عنهم . وذكروا أن خط علي (ابن أبي طالب) فيه . فعرض على الخطيب (البغدادي صاحب كتاب بغداد) فتأمله ، وقال : هذا مزوَّر . لأنه فيه شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، وخيبر

---

(١٠٣) ابن الجوزي ، المنتظم ١٧ ص ٢٤ .

(١٠٤) المصدر نفسه ١ ص ٣٢٧ .

(١٠٥) المصدر نفسه ٤ ص ١٧٨ .

(١٠٦) المصدر نفسه ٥ ص ٢٨١ .

فتحت قبل ذلك ، ولم يكن مسلماً في ذلك الوقت ، ولا حضر ما جرى . وفيه شهادة سعد بن معاذ ، ومات في بني قريظة بسهم أصابه في أكحله يوم الخندق ، وذلك قبل فتح خيبر بسنتين»[(١٠٧)] .

لا ندري إن فكَّر الأقباط المسيحيون الاستفادة من أحاديث ربما ترحمهم وطأة من الجزية لأجل ابن أختهم إبراهيم ابن النبي محمد؟ وهل التزمها الخلفاء والولاة المسلمون مثلما إلتزموا بأحاديث مؤذية لأهل الذمة؟ . جاء في «الاستيعاب» : أن النبي قال عند وفاة ولده : «لو عاش إبراهيم لأعتقت أخواله ، ولوضعت الجزية عن كل قبطي»[(١٠٨)] . وقال أيضاً : «إذا دخلتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً»[(١٠٩)] . والمعروف في الروايات أن النبي تنبأ بالاستيلاء على بصرى الشام ، ومدائن كسرى وهو يحفر الخندق . لكن ، لم يعرف عنه أنه تنبأ بالاستيلاء على مصر ، مثلما لم يتنبأ بالاستيلاء على الحبشة . وحاكما البلدين من الذين أعانوا الإسلام ولم يخذلا محمداً!

كانت آخر ممارسة عباسية ضد أهل الذمة ، والعباسيون خارج الحكم ، قام بها المستنصر بن الظاهر ، الناجي من مذبحة هولاكو السنة ٦٥٦هـ . فبعد استقباله بمصر كخليفة عاد إلى العراق العام ٦٥٨هـ على رأس جيش لاستعادة العرش العباسي . فدخل عانة وحديثة وهيت التي «أغلق أهلها الباب دونه ، فنزل عليها وحاصرها حتى فتحها ، ودخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجة ، ونهب مَنْ فيها من اليهود والنصارى»[(١١٠)] .

وفي السنة ٦٩٠هـ أُتُهم اليهود بقتل ملك التتار أرغون بن أبغا بن هولاكو بالسم «فمالوا عليهم بالسيوف فقتلوهم ونهبوا أموالهم»[(١١١)] . وفي السنة ٧١٠هـ تمثلت سلطة بغداد بإجراءات سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون ضد أهل الذمة . فألبس حاكمها اليهود العمائم الصفراء ، والنصارى العمائم الزرقاء[(١١٢)] . و لم يختص أمراء وحكام المسلمين باضطهاد اليهود بل أن أمراء الفرنج المسيحيين لما أخذوا القدس السنة ٤٨٨هـ «جمعوا اليهود في الكنيسة واحرقوها عليهم ، وهدموا المشاهد وقبر الخليل وتسلموا محراب داود بالأمان»[(١١٣)] .

---

(١٠٧) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٤ ص ٣٥ ، أحكام أهل الذمة ٢ ص٦ -٨ .

(١٠٨) ابن عبد البر ، الإستيعاب في معرفة الأصحاب ١ ص ٥٩ .

(١٠٩) المصدر نفسه . ومارية القبطية هي أم إبراهيم التي أهداها مقوقس الأسكندرية وأختها سيرين إلى النبي محمد ، فأحتفظ بها ، وأجعل أختها لشاعره المسيحي السابق حسان بن ثابت .

(١١٠) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ٧ ص ١١٦ .

(١١١) المصدر نفسه ٨ ص ٢٩ .

(١١٢) المصدر نفسه ٩ ص ١٠٩ .

(١١٣) المصدر نفسه ٥ ص ١٥٠ .

ما ذكرناه في هذا الفصل ، وما سنذكره في الفصل الخاص بالمسيحية من اضطهادات طالت أهل الذمة عموماً ، كان مجرد نماذج قد تعطي تصوراً عاماً حول حالة الآخر والتعامل معه ، وإصراره على التمسك بدين الأجداد والآباء . والجانب الأهم أنها تبرز كيفية اعتماد الدين ، الذي من المفروض أن يكون بعيداً عن الإكراه ، كأداة لقهر الآخر . ومع ذلك نجد عند اليهود ، في المحصلة العامة ، شهادات إيجابية تجاه المسلمين .

يخبرنا الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين بالمعاملة الحسنة التي لاقاها يهود العراق في ظل الخليفة المستنجد بالله (القرن السادس الهجري) ، قال : «في هذا القصر (قصر الخلافة) يعقد الخليفة العباسي الكبير الحافظ مجلس بلاطه ، وهو حسن المعاملة لليهود ، وفي حاشيته عدد منهم . وهو عليم بمختلف اللغات ، عارف بتوراة موسى ، يحسن اللغة العبرية قراءة وكتابة . وهو كذلك على جانب عظيم من الصلاح والتقوى ، يأكل من تعب يديه ، إذ يصنع الشال المقصب ويدمغه بختمه فيبيعه رجال بطانته من السراة والنبلاء فيعود عليه بالأموال الوافرة»[١١٤] .

ليس لنا غير تقدير معرفة الخليفة العبرية ، ولغات أخرى ، وأكله من تعب يديه . ويطرح السؤال نفسه إذا كان الخليفة يعيش مما تصنعه كفاه ، فمتى وكيف يصرف أمور دولته؟ وخلافته كانت خلافة فعلية ليست تحت هيمنة بويهية أو سلجوقية . عموماً ، يُذكر للخليفة المستنجد بالله مناقب أخرى كثيرة فمن غير تسامحه الديني إنه ألغى الضرائب والمكوس ، وألغى نظام المقاطعات ، ومن مباهج خلافته أن رخص الورد ببغداد[١١٥] . يذكر بنيامين يهود بغداد ، وهم الأربعون ألفاً في زمانه ، بالقول : «يعيشون بأمان وعز ورفاهة في ظل أمير المؤمنين الخليفة ، وبينهم عدد من رؤساء المثيبة وعلماء الدين ، ولهم ببغداد عشرة مدارس مهمة»[١١٦] .

---

(١١٤) بنيامين ، رحلة بنيامين ، ص ١٣٢ .

(١١٥) كان نقش خاتمه «مَنْ أحب نفسه عمل لها» ، وتبنى سياسة حاسمة ضد السلاجقة ، وهيأ لإلغاء سلطنتهم ، فانتهى خنقاً في الحمام من قبل أكابر دولته ، وربما لقتله صلة بإلغاء مرسوم المقاطعات الذي سنه وزير السلطنة السلجوقية نظام المُلك ، وتقرر عودتها إلى ديوان الخراج ، مثلما فعل الخليفة عمر بن الخطاب عند فتح العراق . أقول : لا بد لرخص الوَرْد من صلة بإزالة المكوس والمظالم عن كاهل الناس ، وهي أهم ما وصف فيه عهد المستنجد بالله . وواحدة من علامات عودة تبغدد العراقيين طالما تبادلوا الوِرد تحايا في المناسبات والمجالس ، فمنظره يُلين القلوب ويفتح العقول ، ويقلل من تصادم الأراء . وربما القلة من العراقيين تعرف ما أشتهر على لسان مغنيهم الأثير ناظم الغزالي من شعر للمستنجد بالله العباسي ، قال :

عيـرتني بالشـيب وهـو وقار ... ليتهـا عيـرت بمـا هـو عـار

إن تـكن شـابت الذوائب مني ... فالليـالي تُـزينهـا الأقـمـار

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

ابن كمونة

يذكر مَنْ صنف الكتاب الذي عُرف بـ «الحوادث الجامعة» مداراة الدولة لسعد بن منصور المعروف بابن كمونة، صاحب لقب عز الدولة ووزير المالية في العهد المغولي، يوم صنف ببغداد العام ٦٨٣هـ كتاباً بعنوان «تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث»، الذي سبب ثورة العوام ضده، فتجمعوا لقتله. لأنه «تعرض فيه بذكر النبوات. وقال ما نعوذ بالله من ذكره، فثار العوام وهاجوا واجتمعوا لكبس داره وقتله، فركب الأمير تمسكاي شحنة بغداد ومجد الدين ابن الأثير، وجماعة الحكام إلى المدرسة المستنصرية. واستدعوا قاضي القضاة والمدرسين لتحقيق هذه. ولما طلبوا ابن كمونة سارع إلى الاختفاء عن الأنظار، واتفق ذلك اليوم يوم جمعة فركب قاضي القضاة للصلاة فمنعه العوام، فعاد إلى المستنصرية. فخرج ابن الأثير ليسكن العوام، فاسمعوه قبيح الكلام، ونسبوه إلى التعصب لابن كمونة والذب عنه، فأمر الشحنة بالنداء في بغداد بالمباكرة في غد إلى ظاهر السور لإحراق ابن كمونة، فسكت العوام، ولم يتجدد بعد ذلك له ذكر. وضع ابن كمونة داخل صندوق مجلد وحمل إلى الحلة، وكان ولده كاتباً بها، فأقام أياماً وتوفي هناك»[١١٧].

نبه النص السابق إلى أن كتاب «الحوادث الجامعة» ليس لابن الفوطي. لأنه مختلف تماماً عن رأي ابن الفوطي الإيجابي في ابن كمونة، مثلما صرح به في «تلخيص مجمع...». قال: «عز الدولة أبو الرضا سعد بن نجم الدولة منصور بن سعد بن الحسن بن هبة الله بن كمونة الإسرائيلي البغدادي الحكيم الأديب، كان عالماً بالقواعد الحكيمة والقوانين المنطقية، مبرزاً في فنون الآداب، وعيون النُكت الرياضية والحساب. شرح كتاب «الإشارات» لأبي علي بن سينا. وقصده الناس للاقتباس من فوائده. ولم يتفق لي الاجتماع بخدمته، للمرض الذي عرض لي، وكتبت إلى خدمته ألتمس شيئاً من فوائده لأطرز بها كتابي، فكتب لي مع صاحبنا وصديقنا شمس الدين محمد بن أبي الربيع الحاسب المعروف بالحشف سنة ثلاث وثمانين وستمئة:

صُن العلم عن أهل الجهالة دائماً ... ولا توله مَنْ لا يكون له أهلا

فيورثه كبراً ومقتاً وشره ... ويقبله النقصان من عقله جهلا

فكن أبداً من صونه عنه جاهداً ... ولا تطلبن الفضل من ناقص أصلا

توفي بالحلة سنة ثلاث وثمانين وستمائة»[١١٨]. لم يكن ابن الفوطي معجباً بابن

---

(١١٧) الحوادث الجامعة، ص٤٤٠ - ٤٤١.

(١١٨) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ١/٤ ص ١٥٩ - ١٦١.

كمونة اليهودي فحسب ، رغم ما أثاره الفقهاء والعامة ضده ، بل عبر عن إعجابه بولده غرس الدولة أيضاً . قال فيه : «الكاتب من بيت العلم والكتابة . وله أخلاق حميدة وسعة صدر . وقد تقدم ذكر والده . وغرس الجولة كريم الأعراق . إذا قُصد وُجد . وعنده مروءة وأهلية وكتابة ورياسة وكياسة ، اجتمعتُ به واقتبستُ من فوائده»[(١١٩)] .

وجدنا في كتاب ابن كمونة «تنقيح الأبحاث للملل الثلاث» ، نشره موسى برلمان من جامعة كاليفورنيا ، نقداً للديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلامية . استخدم المؤلف الحيلة في تقديم نقده ، وهي أن يسأل السؤال ، وكأنه ورد من معارض ليظهر نفسه في الإجابة مدافعاً عن الملل الثلاث ، وخاصة فيما يتعلق بالإسلام . كانت الأسئلة مثيرة جداً ، رغم أنه قال في مقدمة كتابه : «لم أقل في شيء من ذلك مع الهوى ، ولا تعرضت لترجيح ملة على أخرى ، بل قررت مباحث كل ملة إلى غايتها القصوى»[(١٢٠)] .

لم يفت ابن كمونة استهلال كتابه بعبارة : «بسم الله الرحمن الرحيم» . ومن أمثلة حيله طرح أسئلته السؤال التالي : «لِمَ لا يجوز أن يكون القرآن أُنزل على نبي آخر دعا محمداً أولاً إلى دينه ، إلى هذا الكتاب ، فَأخذه محمد؟ منه وقتله ، فلا جرم لم يظهر اسم ذلك النبي ، وبقي الكتاب في يد محمد» . وربما هذا السؤال ليس من أفكار ابن كمونة ، فقد سبق أن أشرنا إلى كلام يتردد بين شيوخ الصابئة حول قتل أنوش دنقا وجعله محلاً للرجم في موسم الحج . أجاب ابن كمونة على سؤاله بالقول : «إن كل عاقل رجع إلى نفسه وانصف علم أن هذا لم يقع . ثم في القرآن عدة مواقع تدل أنه عليه السلام هو المختص به دون غيره»[(١٢١)] .

تعرض ابن كمونة في كتابه إلى عبادة الأصنام واعتبر الحجر الأسود من بقاياها . وتحدث عن الدخول في الإسلام بعد الفترة النبوية . قال : «لا نرى أحداً إلى اليوم يدخل في الإسلام إلا أن يكون عليه خوف ، أو في طلب العز ، أو يؤخذ في خراج ثقيل ، أو يهرب من الذل ، أو يؤخذ في سبي ، أو يعشق مسلمة ، أو ما أشبه ذلك . ولم نر رجلاً عالماً بدينه وبدين الإسلام هو عزيز موسر متدين انتقل إلى دين الإسلام بغير شيء من الأسباب المذكورة ، أو ما ماثلها»[(١٢٢)] . وفي هذا المضمار سبق أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) ابن كمونة حين قال :

---

(١١٩) المصدر نفسه ٢/٤ ص ١١٥٤ - ١١٥٥ .

(١٢٠) ابن كمونة ، تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث ، ص ١ .

(١٢١) المصدر نفسه ، ص٧٠ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص١٠٢ .

قـد اسـلم الرجل النَّصران مرتغباً
وليس فـي ذلك حـــبٌ لإسـلامِ
وإنمـا رام عـــزاً فـي معيشـتـــه
أو خاف ضربة ماضي الحدِّ قلاّمِ
أو شاء تـزويج مثل الظبي مُعلمة
للنـــاظريـــن بـأسـوار وعُـلام[١٢٣]

وتحدث ابن كمونة عن تثليث النصارى ، واعدهم من القائلين بالحلول والإتحاد . ولم تسلم منه أيضاً ديانته اليهودية . لكنه دافع عن التوراة ، واعترض على القول بتحريفها . واجه المسيحيون كتاب ابن كمونة بكتاب «حواشي ابن المحرومة» ، صنفه إبراهيم بن يعقوب بن نختوما الخباز المعروف بابن المحرومة ، بعد ٧٤ عاماً من تصنيف التنقيح ، وهو من أهل ماردين ، انتقد فيه ابن كمونة ، وبعض مقالات اليهودية ، ولم يتطرق إلى الإسلام . قال المصنف : «وقعت واقعة اقتضت أن أكتب هذه الحواشي في أثناء الكلام على ملتي اليهود والنصارى دون غيرهما من هذا الكتاب»[١٢٤] .

إضافة إلى ما أثارته العامة من اضطراب ضد ابن كمونة ، لتنتهي حياته مختفياً بالحلة ، صنف الكُتاب المسلمون عدة كُتب في الرد عليه منها : «الدر المنضود في الرد على فيلسوف اليهود» لمظفر الدين الساعاتي (ت ٦٩٤هـ) ، وهو ابن «واضع الساعات في واجهة المدرسة المستنصرية»[١٢٥] . و«نهوض حثيث النهود إلى خوض خبيث اليهود» لسريجة زين الدين محمد الشافعي (ت ٧٨٨هـ) . وكتاب «إثبات النبوة» لم يعرف مصنفه في تلك الحقبة بالذات . خلا ذلك هناك عدة كُتب نُشرت تحت العنوان نفسه أو ما يشابهه .

وصف مسلمون ، مثل ابن الفوطي ، ابن كمونة بالفيلسوف والمتكلم المنفتح على الغير . إضافة إلى شهرته بإدارة الشؤون المالية في عهد السلطان الإيلخاني أراغون . ومن نفوذه أن أقنع السلطان على قتل مَنْ أهان اليهود . ويومها سطر محضر ببغداد ضده . جاء في الرواية : «كُتب فيه أعيان الناس يتضمن الطعن على سعد الدولة ، ويتضمن آيات من القرآن وأخباراً نبوية : أن اليهود طائفة أذلهم الله تعالى ، ومن حاول إعزازهم أذله الله عز وجل»[١٢٦] .

يخبرنا ابن كمونة بانفتاح حقبة الإسلام الأولى قياساً بتشدد الحقبة التي عاشها

(١٢٣) المعري ، لزوم ما لا يلزم٢ ص ٣٥٠ .
(١٢٤) ابن المحرومة ، حواشي ابن المحرومة على كتاب تنقيح الأبحاث على الملل الثلاث ، ص ٧٨ .
(١٢٥) المصدر نفسه ، مقدمة المطران حبيب باشا ، ص٥٠ .
(١٢٦) المصدر نفسه ، ص٤١٦ .

(القرن السابع الهجري) وامتدت إلى عصرنا الحاضر (القرن الخامس عشر الهجري) قال: «نُقل أن ابن مسعود كان ينكر كون الفاتحة والمعوذتين من القرآن، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، وكان معظماً عندهم، وفي زماننا لو أن أنكر واحد كون سورة الكوثر من القرآن لوجب تكفيره وقتله»[١٢٧]. ونضيف: ماذا يحل بمَنْ يسمح اليوم لمسيحيين بأداء صلاتهم بالمسجد النبوي، مثلما فعل الرسول مع مسيحيي أو نصارى نجران، وماذا يحل بحاكم مسلم يستعمل يهودياً سفيراً بينه وبين جماعة مسلمة خرجت عليه، مثلما فعل الإمام علي بن أبي طالب؟

ترجمة التوراة

شعر اليهود العراقيون أوان العصر العباسي بالحاجة إلى ترجمة كتاب «التوراة» إلى العربية. ولم يتحقق لهم توراة كاملة بالعربية، بين دفتين، يوم كانوا بالجزيرة. لكن الروايات أشارت إلى وجود نصوص منها بالعربية. جاء في الخبر أن الرسول نهى صحابته من قراءة التوراة. قال لعمر بن الخطاب وشاهد في يده صحيفة: «ما هي؟ فقال: من التوراة، فغضب عليه ورماها من يده، وقال: لو كان موسى وعيسى، عليهما السلام، حيين لما وسعهما إلا إتباعي»[١٢٨].

وردت هذه الرواية عند ابن الأثير بالصيغة الآتية: «جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال عبد الله: فقلت ألا ترى ما بوجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً. قال: فسرى عن النبي، صلى الله عليه وسلم. ثم قال: والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لظللتم. إنكم أحظى الأمم، وأنا أحظكم من النبيين. رواه خالد وحريث بن أبي مطر وزكريا بن أبي زائدة عن الشعبي عن ثابت بن يزيد، ورواه هشيم وحفص بن غياث وغيرهما عن مجالد عن الشعبي عن جابر أخرجه ابن منده، وأبو نعيم»[١٢٩]. وورد الحديث كالآتي: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا. اما أن تصدقوا بباطل وتكذبوا بحق، وإلا لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»[١٣٠].

---

(١٢٧) ابن كمونة، تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث، ص ٧١.

(١٢٨) النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ١٦ ص ٣٢١.

(١٢٩) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(١٣٠) الهندي، كنز العمال ١ ص ٢٠٠ رقم الحديث: ١٠٠٧. بطبيعة الحال من الصعب تأكيد صحة

وجاء في باب «تعلم السريانية» من جامع الترمذي : أن الرسول أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة أهل الكتاب . جاء في الرواية عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه : «أمرني رسول الله (ص) أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود ، وقال : إني أخاف والله ، ما آمن يهود على كتابي (القرآن) . قال : فما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته له . قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبتُ إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له كتابهم»[١٣١] . علق الترمذي على الحديث بالقول : «هذا حديث حسن صحيح»[١٣٢] . غير أن أول ترجمة ، كما سلفت الإشارة في الفصل الأول من الكتاب ، كانت في زمن هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ) . قال أحمد بن عبد الله بن سلام : «ترجمتُ صدر هذا الكتاب (كتاب الصابئة) والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلامذة ، من لغة العبرانية واليونانية والصابية ، وهي لغة أهل كل كتاب إلى العربية حرفاً حرفاً»[١٣٣] .

لا أظن أن أحمد سوسه كان على صواب لقوله : «لعل أحمد هذا هو ابن عبد الله بن سلام» ، الذي أسلم في حياة الرسول[١٣٤] . فما بين زمن الرسول والرشيد أكثر من قرن ونصف القرن . ويصدق القول حين نقيس ذلك بما بين أبي جعفر المنصور وجده الثالث العباس بن عبد المطلب الذي عاصر عبد الله بن سلام ، فهو المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فكيف يكون الحال لو عرفنا أن المنصور هو جد الرشيد!

أما الترجمات العربية للكتاب المقدس عامة ، فهي : ترجمة يوحنا أسقف أشبيلية (٧٢٤م) . وإسحاق فالكيز (٩٤٦م) بقرطبة . وترجم التوراة سعديا جاون أو سعيد الفيومي (٨٩٢ - ٩٤٢م) ، من العبرية إلى العربية مباشرة «لمنفعة يهود المشرق» . وترجم هبة الله بن العسال الكتاب المقدس من القبطية إلى العربية (١٢٥٠م) . وأول طبعة للكتاب المقدس ظهرت باللغة العربية (١٦٤٥م) و(١٦٥٧م) ، وهما مجموعتا باريس ولندن ، ترجمتا عن العبرية والسريانية واليونانية . ونشرت في روما الترجمة العربية (١٦٧١م) تحت إشراف هيئة برئاسة الأسقف سركيس بن موسى الرزي[١٣٥] .

= مثل هذا الحدث . مع ما ذكره النبي محمد من منزلة وتشريف لموسى وعيسى . نذكر هنا ما هو أعجب ، قال الشاعر الحلي عند الصلح بين الملك الكامل أبا المعالي الناصر وبين ملوك الأفرنج (ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة) :

أعُبَّاد عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعاً يخدمون محمداً

(١٣١) الكتب الستة ، جامع الترمذي ، كتاب الاستئذان ٢٢ ، ص ١٩٢٥ .

(١٣٢) المصدر نفسه .

(١٣٣) النديم ، الفهرست ، ص ٢٤ .

(١٣٤) سوسه ، العرب واليهود في التاريخ ، ص١٦٣ .

(١٣٥) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٧١

وجاء في كتب الملل والنحل الإسلامية ما يؤكد قدسية التوراة، مع الاعتقاد السائد أنها ليست الحالية. قال النبي محمد: «إن الله خلق آدم بيده، وخلق جنّة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وأنزله عليه(موسى)»[١٣٦]. ويذكر الشهرستاني ادعاء اليهود بنقاوة كتابهم، فلا اقتباس من سابقين ولا كتاب صحيح يأتي بعدهم. جاء ذلك بقولهم: «الشريعة لا تكون إلا واحدة، وهي ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به. فلم تكن قبله شريعة أصلاً. لأن النسخ في الأوامر بداء، ولا يجوز البداء على الله تعالى»[١٣٧].

غير أن أخبار تحريف التوراة، أو كتاب موسى، قد وردت في القرآن بالآية: «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا»[١٣٨]. جاء في أسباب نزول هذه الآية ما يتعلق بمطالبة اليهود في الكشف عن صفات النبي محمد في كتابهم[١٣٩]. إن القول في تحريف التوراة ليس قولاً إسلامياً فقط، بل اختلف اليهود بينهم في هذا الأمر، يتضح ذلك من رد الحبر اليهودي يعقوب بن إسحق القرقزاني (٣٤٩هـ) على جماعة من اليهود لقولهم في التوراة إنها ليست التي نزلت على موسى.

قال القرقزاني: «زعموا أن هذه التورية التي هي في يد الأمة ليست التورية التي أتى بها موسى عليه السلام، بل هي مما ألفه (كلمة بالعبرية). لأن تلك التي أتى بها موسى زعموا أنها زالت وسقطت، وذهبت، وهذا إسقاط الدين جملة. ولو وقف المسلمون على هذا من قولهم لما احتاجوا إلى شيء يعيرونا به، ويحتجون به علينا غيره، إذ كان قوم من متكلميهم قد يدعون علينا بأن يقولوا أن التورية التي معكم ليست التورية التي أتى بها موسى. ونحن ننادي على مَنْ ادعى منهم ذلك بأنه قد باهت وناقض»[١٤٠]. وهذا ما قيل عن الإنجيل والقرآن أيضاً من قبل مسيحيين ومسلمين، وأُتخذت ضدهم عقوبات قاسية وصلت إلى الحرق والقتل.

ورغم الإقرار بأن تحريف كلام الله، أو ما كتبه الله بيده، يُعد جريمة ما بعدها جريمة، إلا أن المسلمين ظلوا يتعاملون مع اليهود كأهل كتاب، ويحثون أحبارهم في العهود التي ترسم لهم بالحكم بين أتباعهم بالكتاب الذي بين أيديهم، وربما لم تظهر تهمة التحريف إلا في وقت الخلاف. بمعنى هل لهذه التهمة علاقة بانتزاع البشارة المزعومة من التوراة والإنجيل؟ والتي ظهرت واضحة في إنجيل «برنابا»، المكتوب في القرون المتأخرة، أم لها علاقة بتحقيق

---

(١٣٦) الشهرستاني، الملل والنحل ١ ص ٢١١.

(١٣٧) المصدر نفسه.

(١٣٨) سورة النساء ٤٦.

(١٣٩) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٣ ص ٨٥.

(١٤٠) القرقزاني، الأنوار والمواكب ١ ص ١٥.

نسخ الأديان السابقة على الإسلام؟ ترد هذه الأسئلة في زمن ترفع فيه الأديان صحفها السماوية، لتقترب من بعضها البعض.

وكيف سيتم التعامل مع مَنْ نشير إليهم بتزوير كتابة الله؟ وما مستقبل التعايش مع مزيفين؟ وما الحجة في قبول الأنبياء ورفض أتباعهم؟ وقد جرت العادة أن كل رسالة تعترف بالتي قبلها وترفض التي بعدها. فاليهود لا يعترفون بعيسى، وما زالوا ينتظرون مخلصهم. وقد كثر مَنْ وصفوا بالكذابين والمتنبين بعد الإسلام. والمسلمون كذلك ينتظرون مهديهم الذي اختلفوا بأوصافه وزمان خروجه! غير أن أفضل ما فعله المسلمون أن جعلوا لغيرهم من أهل الأديان مكاناً بينهم، وغضوا النظر عن تحريف أو تزوير ما نزل عليهم من الكتب، تاركين ذلك إلى «الله يفصل بينهم يوم القيامة»[١٤١].

مع العثمانيين

وصف حال اليهود في العهد العثماني أنه «كان هنيئاً»[١٤٢]. وشجعت هذه الحال دعوة يهود أوروبا للهجرة إلى البلاد العثمانية. ورد في رسالة اليهودي إسحاق زرقاني إلى يهود ألمانيا والمجر: «أن بلاد الأتراك أرض لا يعوزكم فيها إلى شيء، وإن شئتم وافتكم الأحوال وفق مرغوباتكم، فمنها تصلون إلى الأرض المقدسة سالمين. أو ليس الأفضل أن تسكنوا في حكم المسلمين من أن تسكنوا في حكم النصارى؟ فإنكم تتمكنون هنا من لبس أفخر الأقمشة... ويتمكن كل واحد هنا من الجلوس تحت كرمته وشجرة تينه»[١٤٣]. ويفيد خبر انضمام عشرة آلاف يهودي إلى جيش السلطان مراد الرابع، وهو يتوجه إلى بابل، أن منزلة اليهود كانت كما قيل عنها (هنيئة). ولم يكن هؤلاء جنوداً عاديين بل كانوا «كتبة وسعاة ورؤساء جيش»[١٤٤]. وذكر سائح دانماركي أن ١٥٠ بيتاً من اليهود يعيشون بالموصل «بحرية تفوق الحرية التي لهم في أوروبة (لكنه من جانب آخر) لا يجسرون على السير في الطرق في بعض مدن الأتراك إلا مضطرين هرباً مما يصيبهم من الإهانة من الأولاد»[١٤٥].

صلة بما سلف أن هناك معلومات عن أرض ميعاد أخرى، وهي منطقة جنوبي العراق،

(١٤١) سورة الحج ١٧.

(١٤٢) غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ١٥٦.

(١٤٣) المصدر نفسه، ص١٥٧، عن وثيقة محفوظة في الخزانة الوطنية بباريس، رقم ٢١٩ المعلمة اليهودية، ٢ ص ٢٨٠.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

حيث عاش إبراهيم الخليل ، حسب معلومة التوراة وأخبار الصابئة المندائيين ، وما ورد في تواريخ وروايات المورخين والإخباريين المسلمين . وقيل إن هذا المشروع أقترحه «الكاتب اليهودي (ZANGWILL) ، الذي يقضي بإسكان اليهود المنتمين إلى الأقطار الأوروبية المختلفة في تلك المنطقة العثمانية . ولد هذا المشروع بالارتباط مع بناء سكة حديد بغداد ومشروع إحياء قنوات الري القديمة في العراق الجنوبي»[١٤٦] . وإن صح ذلك فإن مقترح هذا المشروع يعود إلى ما قبل القرن العشرين . فصاحب الرواية القنصل الروسي بالبصرة شغل هذا المنصب في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وأصدر كتابه «ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها» العام ١٩١٢ ببطرسبورغ . أي سبق وعد بلفور بسنوات .

لم تذكر المصادر شيئاً عن إلغاء السلطات العثمانية الجزية بالعراق ، قبل ١٨٥٥ميلادية ، أسوة بمعاملتها لأهل الذمة بمصر مثلاً ، إذ رفعت الجزية (تعرف هناك بالوريكو) عنهم كلية . وكانت قد خصصتها من قبل لفقراء مكة والمدينة[١٤٧] . وما يخص الجزية بالعراق أن العثمانيين ، في فترة من الفترات ، جعلوها وقفاً لأُسر معروفة ، مثل أُسرة الحيدرية الشافعية ببغداد . قال حفيد هذه الأسرة إبراهيم صبغة الله الحيدري ، الذي عاش في العهد العثماني (ت ١٨٨٢م) : «كانت أجدادنا تأخذ جزية اليهود والنصارى والصبة (الصابئة المندائيين)»[١٤٨] .

تأخر العثمانيون في قرار إلغاء الجزية ، لا سيما وأنها لا تتناسب مع دعوات التحديث ، ونشد حياة دستورية لا تميز بين المواطنين ، حتى ١٨٥٥م . إذ «صدر مرسوم يقضي بإلغاء ضريبة الجزية وبالسماح لغير المسلمين أداء الخدمة العسكرية إن رغبوا بذلك ، وإلا دفعوا البدل العسكري . وبعد أن جاء الاتحاديون إلى الحكم في سنة ١٩٠٨ قرروا وجوب الخدمة العسكرية من قبل المسلمين وغير المسلمين على حد سواء وإلغاء البدل العسكري»[١٤٩] .

ورغم تصدر اليهود المجال التجاري والمالي والمصرفي والحِرفي بشكل عام ، إلا أن طبقة كبيرة منهم عاشت بفاقة وعوز . قال الضابط البريطاني ستيفن لونكريك ، ذاكراً طاعون ١٨٣٠ ببغداد : «كان أول حدوث الإصابات في البيوت القذرة من محلات اليهود»[١٥٠] .

---

(١٤٦) آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣٧ .

(١٤٧) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ٩ ص ٤٤١ الهامش .

(١٤٨) الحيدري ، عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد ، الباب الثالث : البيوت القديمة من ذوي العلم والسيف والقلم .

(١٤٩) حارث يوسف غنيمة ، الطوائف الدينية في القوانين العراقية ، مجلة بين النهرين ، العدد ١٩٨٩/٦٨ .

(١٥٠) لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ٣١٩ .

وأشار إلى فقر السواد الأعظم من اليهود أيضاً السائح تكسرا (١٦٠٤ - ١٦٠٥) بقوله : «في بغداد من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بيت من اليهود ، ومنهم ١٢ أو ١٥ بيتاً يرقون إلى الأسرى الأولين (الأسر البابلي) . وعدد من هذه الطائفة أغنياء ، ولكن أغلبهم في فقر مدقع . وجميعهم يسكنون محلة واحدة . ولهم كنيس أو مصلى . ويقومون بشعائرهم بكل حرية»[١٥١] . وخلاف ما جرى الحديث عن هناء اليهود في العهد العثماني ، وعلاقتهم الجيدة بالسلطان مراد الرابع وما يتمتعون به من حرية دينية ، يذكر أحد السياح الأجانب ، حسب مشاهدته أو سماعه ، أنهم يسكنون «في محلة واحدة في زاوية من مدينة بغداد والأتراك يحتقرونهم ويبغضونهم في آن ، وحالتهم السياسية والعمرانية منحطة كل الانحطاط . ومع هذا كله فإنهم كانوا يتوصلون إلى دخول السراي ودار المكوس وبيوت الوجهاء ، حيث يجدون مَنْ يستخدمهم في خدم مختلفة»[١٥٢] .

العراق الحديث

يربط اليهود بعراقهم أكثر من أرض ميعاد أو جنة موعودة ، فما حصل كان سبياً صهيونياً ، واقتلاعاً من الجذور تحقق بفعل قوانين وممارسات لم تكن دولة إسرائيل بعيدة عنها . تكللت بما عرف بالفرهود وإسقاط الجنسية . وبهجرتهم تضرر العراق وتضرروا هم روحياً واجتماعياً ، فتحولوا إلى كتل من الحنين المؤذي ، يعيشون على الماضي وذكرياته . وبالنسبة للعراق كانوا طائفة منتجة في مجال الصناعة والمال والفن ، وكان وجودهم يحقق التوازن الاجتماعي . لقد بدأ هذا البلد متنوعاً ، وظل هكذا رغم الهزات العنيفة التي تعرضت لها طوائفه كافة . وتبدو تسمية مخلفات اليهود المالية بالأموال المجمدة نافعة في الإشارة إلى تجميد نشاط حرفي وفني عمره آلاف السنين . جمد بالعراق ليتحرك بإسرائيل أو بلدان العالم الأخرى ، وإن تحسن الحال سيعود سائلاً بأرض العراق .

قد يثير الحديث عن يهود العراق ، وعددهم ضمن البنية الدينية العراقية ، التساؤل لدى البعض ، لأنهم طائفة منقرضة . لكن ما يبرر ذلك هو أثرهم الباقي ، وروابطهم الممتدة ، وعيونهم الشاخصة صوب العراق رغم اليأس الكامل من العودة . فإضافة إلى أموالهم المجمدة ، هناك ديارهم والذكريات . فمهربو الآثار جمعوا ثروات من المتاجرة بمخلفات كتبهم الدينية هناك . وأن الأثر الذي لا يمكن إزالته هو بابليات توراتهم وتلمودهم . ظلت بقيتهم الباقية ، التي تخلفت عن السبي الصهيوني ، تستنشق عبق تاريخهم الموغل بالقدم ، ولم يهزها تفجير

---

(١٥١) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ١٦٠ .

(١٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

كنيسها السنة ١٩٩٨ . مجموعة من العجائز اعتصمت ببغداد اعتصام هند بنت النعمان بدير والدها بالحيرة بعد الفتح الإسلامي . فكم يشير هذا التواجد إلى متانة العلاقة بالأرض . كانت نتيجة هذا الانفجار ، الذي يذكر بتفجيرات الخمسينيات ، تحت رعاية رموز من السلطة ، قتل شخصين من وجهائهم مع آخرين مسلمين من العاملين معهم[١٥٣] . ما زالت البقية الباقية منهم تعيش بسلام وحذر ببغداد ، يؤدون صلاتهم ، ومنهم المهندس والمحامي والطبيب والخياط وصاحب المطعم ، وبضعة أطفال هم أمل الطائفة للتجدد بأرض الأجداد .

كان القاتل فلسطينياً ، وكأنه جاء يكمل ما ارتكبه أمين الحسيني في شد عضد إسرائيل بالمساهمة بافتعال حوادث الفرهود كما سيأتي ذكر ذلك . تحدثت الصحف عن مقتل أبوي القاتل بلبنان فأراد الانتقام لهما من عجائز وأطفال ، رفضوا إعانة قيام دولة إسرائيل بشكل من الأشكال . لم يفهم الفلسطيني المنتقم لغة التعلق بالأوطان ، وما تعانيه بقية السبي البابلي من ذل يومي ، وتحمل مسؤولية ما يحدث بإسرائيل . ففي أغلب البلدان يجري الاحتجاج بمظاهرات تدور حول مساكن هؤلاء . وما يحدث في لحظة الحماس الجماعي من نهب وسلب واعتداء على الأعراض ، مثلما حدث في فرهود ١٩٤١ ببغداد . لم يفهم هذا الفلسطيني ، إن لم يكن يلعب لعبة الخصم ، أن ما فعله وجه الأنظار إلى التضامن مع عدوه بكل قوة . وهو لا يقل حماقة وعوناً لإسرائيل من مذبحة ١٩٦٩ ، وصلب الجثث تحت نصب الحرية في ساحة التحرير من الباب الشرقي ببغداد ، وما حدث قبلها من حوادث مريعة . أعلنت الحكومة البعثية في صحفها ووسائل إعلامها الأخرى بالحرف الواحد «إعدام وجبة جديدة من الجواسيس وتعليق جثثهم في ساحة التحرير»[١٥٤] . ومن بين هؤلاء (الجواسيس) يهود ومسيحيون ومسلمون . إذاً ما هي درجة الخوف التي كان يعاني منها اليهودي بالعراق . وما هي درجة اطمئنان إسرائيل عندما يكون الموت ببغداد والحياة بتل أبيب؟ .

من محن اليهود المتخلفين عن الهجرة الجماعية ، رغم الظروف القاهرة ، نقرأ ما كتبه أنور شاؤول تحت عنوان «رباعية شعر تجند في عملية إنقاذ» . قال : «لم تعد العرائض والشكاوى ذات مفعول أو مدلول . ولم يعد بمقدور رئيس الطائفة ملاقاة المسؤولين بسهولة ليعرض عليهم ما يتحتم عرضه من شؤون الطائفة . وراح وضع اليهود يتدهور بسرعة وساد أبناء الطائفة قاطبة جو من الهلع والفزع! وكيف لا تهلع القلوب وتفزع النفوس وزبانية مدير الأمن العام (ناظم كزار) أتبع لليهودي من ظله والاعتقالات مستمرة والتحقيقات على قدم

---

(١٥٣) الشرق الأوسط ٧ أكتوبر ١٩٩٨ ، الحياة ٦ أكتوبر ١٩٩٨ ، القدس ٨ أكتوبر ١٩٩٨ .

(١٥٤) جريدة الثورة العراقية ، العدد ١٥٨ تاريخ ٢١ شباط ١٩٦٩ .

وساق . وأخبار قصر النهاية ، الذي كان في زمن مضى قصراً ملكياً ، يعرف بقصر الرحاب ، تتحدث كل يوم برواية جديدة وبمأساة جديدة»[١٥٥] .

تحدث شاؤول عن واحدة من هذه القصص ، وهي اعتقال الأديب مير بصري . وبما أن جهود رئيس الطائفة ساسون خضوري لم تفلح في إطلاق ولده من قصر النهاية ، لجأ شاؤول إلى صديقيه المسلمين أحدهم اللغوي مصطفى جواد . وقد أعتذر جواد لخوفه من تفسير ذلك بتقاضي رشوة من يهودي ، على حد عبارته . قال عنه شاؤول «كان عملاقاً في التحقيق اللغوي والبحث التاريخي ، ولكنه لم يكن كذلك في السماحة والنجدة والوفاء» ، فمير بصري كان من أصدقائه القدماء . وصديق آخر وهو سلمان بيات ، رمز له شاؤول بحرف (س)[١٥٦] ، طلب منه رباعيته الشعرية «يهودي في ظل الإسلام» ليتوجه بها إلى المسؤولين ، وهي :

إن كنت من موسى قبست عقيدتي
فــأنا المقيــم بظــل ديــن محمد
وسمــاحــة الإسلام كانت موئـلي
وبــلاغـة القــرآن كــانت مــوردي
مــا نـال مـن حـبي لأمــة أحـمد
كــوني عـلى ديــن الكليم تعبدي
ســأظل ذيـاك السمــؤال في الــوفا
أسعدت في بغـداد أم لـم اسعــد!

سلم سكرتير وزير الداخلية صلاح بيات ، أخو سلمان بيات ، الرباعية إلى وزير الداخلية صالح مهدي عماش ، فأعجب بها ، وأمر أن تنشر في جريدة «الجمهورية» شباط ١٩٦٩ ، مع ملاحظة تغيير الشطر «أسعدت في بغداد أم لم أسعد» لأن فيها شكوى من الوضع . لكن بيات قال للوزير : «إن هذا الشطر هو بيت القصيد» و «هل تعلم يا سيدي أن هناك شاعراً آخر يهودياً يحمل مثل هذه الوطنية ، وهذا الحب للغة العربية والإسلام هو مير بصري . قال عماش : إني سمعت باسم مير بصري وقرأت له فأين هو الآن؟» . قال شاؤول : بتوجيهات من عماش «نشرت جريدة الجمهورية رباعيتي تحت عنوان يهودي في ظل الإسلام ، وتم إطلاق سراح مير بصري بكفالة مالية ، وقعتها أنا في زيارة فريدة قصيرة ، قمت بها شخصياً لزنزانات مديرية الأمن العامة»[١٥٧] .

---

(١٥٥) شاؤول ، قصة حياتي في وادي الرافدين ، ص ٣٢٩ .

(١٥٦) بعد الإستفسار من الأديب مير بصري بداره بلندن قال : (س) هو سلمان بيات أخو صلاح بيات سكرتير وزير الداخلية صالح مهدي عماش آنذاك .

(١٥٧) المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ .

يبدو أن الضغط على يهود العراق لدفعهم محو المهجر قد بدأ منذ الثلاثينيات ، فقد صدرت أوامر ، وصفت بالخفية ، أن لا يرتقي اليهود إلى درجة وظيفة عليا ، مدير عام مثلاً . وربما هذا ما دفع بعضهم أن يعلنوا إسلامهم ، ففي ١٩٣٦ أعلن نسيم سوسه إسلامه ليعرف بأحمد سوسه . وسرى هذا الأمر على اليهود المنتظمين في الحزب الشيوعي العراقي ، والذي هو من المفروض أن يكون أبعد عن هذا بكثير . تحدث حسقيل قوجمان - وهو شيوعي غير منتظم على حد قوله - عن ضغط واجهه اليهود الشيوعيون من قبل حزبهم ، ينسبه إلى القائد الشيوعي السوري خالد بكداش . ففهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي ، حسب قوله : كان «ماركسياً حقيقياً ، ولذلك لم يكن يحكم على الشخص وفقاً لديانته بل وفقاً لسلوكه ولاخلاصه للحزب والطبقة العاملة . لذلك لم يكن يميز بين الشيوعي اليهودي والشيوعي غير اليهودي . واستمرت سياسة فهد هذه في الحزب وداخل السجن حتى مجزرة الكوت سنة ١٩٥٣ ، وبعد المجزرة قامت الحكومة بفصل اليهود عن غير اليهود ، فأرسلت جميع اليهود إلى نقرة السلمان»[١٥٨] .

قال قوجمان حول تأثير السوري خالد بكداش في القضية :«إن الخلاف حول قبول اليهود أو عدم قبولهم في الأحزاب الشيوعية كان موضع نقاش منذ الثلاثينيات بين فهد وخالد بكداش . (وكان الأخير) يعتبر أن اليهودي خائن بطبعه ، ولذلك لا يمكن أن يكون شيوعياً . . . اعتقد أن الشيوعيين العراقيين الذين لجأوا إلى سورية هرباً من اضطهاد النظام العراقي تأثروا بسياسة الحزب الشيوعي السوري فأصابتهم عدوى هذا المرض الخطير»[١٥٩] . وحسب قوجمان ، أن الحكومة العراقية ، في الخمسينيات ، كانت ترسل قسراً كل يهودي تنتهي محكوميته إلى إسرائيل[١٦٠] . وأكد ذلك تقرير اللجنة الحكومية الخاصة بالتحقيق في مذبحة سجن الكوت السنة ١٩٥٣ بالقول : « تليت على السجناء قائمة بأسماء ٥١ سجيناً يهودياً طالبة منهم اخراجهم لغرض تسفيرهم»[١٦١] .

كتب مكرم الطالباني حول مذبحة سجن بغداد في حزيران ١٩٥٣ ، والتي لا توصف إلا بممارسة تنظيف السجون التي أخذ النظام الملكي يمارسها بشراهة ، إن معاون الشرطة إبراهيم حسن كان يحث الشرطة على القتل واقتحام السجن بقوله : «هؤلاء يهود ، تريد الحكومة إرسالهم إلى إسرائيل ، ولكنهم عصوا ، اقتلوهم واضربوهم بقوة»[١٦٢] . أما بعد ثورة

(١٥٨) قوجمان ، ذكرياتي في سجون العراق السياسية ، ص ٥٢ .

(١٥٩) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(١٦٠) المصدر نفسه .

(١٦١) الطلباني ، دماء وراء القضبان مذبحة سجني بغداد والكوت عام ١٩٥٣ ، ص ٧٩ عن جريدة الدفاع ، العدد ٣٠٦ ، ٢٣ أيلول ١٩٥٣ .

(١٦٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

تموز فأخذ الأمر أسلوباً آخر، وهو الطلب من الشيوعيين اليهود، ممَنْ لا يودون ترك وطنهم وحزبهم، التحول إلى الإسلام وبتوجيه من قيادة الحزب الشيوعي العراقي.

قال قوجمان: بعد ثورة (تموز ١٩٥٨) «حضر عضو المكتب السياسي للحزب هادي هاشم[١٦٣] لزيارتنا نحن السجناء اليهود، رغم أن كوادر الحزب القيادية كانت في تلك الأيام تعمل ليل نهار، ولا يستطيع الكادر منهم أن يزور حتى عائلته. والغريب أن هادي هاشم اشترك في اجتماع الثلاثة داخل السجن. وبعد نصف ساعة أو أكثر عاد يعقوب مصري وقال لي: إننا قررنا بالإجماع أن نعلن إسلامنا وعليك أن تخضع لقرار الأغلبية. فقلت له أن هذا الموضوع مبدئي ولا تنطبق عليه قاعدة خضوع الأقلية للأغلبية».

استغرب قوجمان الأمر بالقول: «إن هادي هاشم الذي أجاب على قولي في الاجتماع: إذا شئتم (يعني قيادة الحزب) أن نعلن إسلامنا ونسافر إلى النجف لكي نبقى في الحزب! (قال): إننا لا نقبلكم في الحزب في هذه الحالة، جاءني في ذلك اليوم وحاول إقناعي بذلك، ونسي ما قاله في الاجتماع السابق. قلت له: هادي أنا درستكم الماركسية والمادية الديالكتيكية ألا تبصق في وجهي إذا وقعت وثيقة أقول فيها: لقد آمنت أن الدين الإسلامي خير الأديان وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، وأوقع مثل هذه الوثيقة؟ فخجل من نفسه وعاد خائباً فاشلاً في تحقيق المهمة التي كلفه بها الحزب»[١٦٤].

لكن يعقوب مصري، وهو سكرتير عصبة مكافحة الصهيونية، أصبح مسلماً، بعد أن ذهب إلى الجامع، وعاد قائلاً: «هاي هم خلصنا منها». غير أن شرطة مركز البتاوين ببغداد ظلت تعامله كيهودي عند إطلاق سراحه، فأرسل الحزب كفيلاً له، ولم يرسل كفيلاً للذي ظل على يهوديته مثل حسقيل قوجمان[١٦٥]. وما يستغرب له أيضاً أن الحزب الشيوعي العراقي ظل منذ ١٩٤٩ولحد هذه اللحظة يذكر إعدام يوسف سلمان يوسف فهد (مسيحي) وحسين محمد الشبيبي (مسلم شيعي) وزكي بسيم (مسلم سُنِّي) ويهمل رابعهم يهودا صدِّيق (اليهودي). مع أنهم أُعدموا في القضية نفسها وفي الفترة نفسها مع تأخير زكي بسيم إلى اليوم التالي. وأن القول بضعفه في التحقيق، والاعتراف على رفاقه لا يكفي مبرراً! ويكفي أنه أعدم. وبهذا أصبحت اليهودية حاجزاً بين اليهودي ورفاقه وبين اليهودي ووطنه، فكل الأجواء تعين على الهجرة. فماذا عساه أن يفعل الذي يحرم أولاده من دخول المدارس، وتسد بوجهه وظائف الدولة، وتلاحقه الشرطة بقضايا ملفقة؟

---

(١٦٣) الأعظمي الذي أنهار في لحظة اعتقاله في٨ شباط ١٩٦٣ ودلّ الحرس القومي على مكان اختفاء سلام عادل وأعضاء القيادة الآخرين مما أدى إلى قتلهم جميعاً.

(١٦٤) قوجمان، ذكرياتي في سجون العراق السياسية، ص ٧٣-٧٤.

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.

كان تأسيس «عصبة مكافحة الصهيونية» من قبل اليهود الأعضاء في الحزب الشيوعي العراقي، محاولة لمواجهة الهجرة والتهجير، وتأثير المنظمات الصهيونية. وقد جاء في طلب إجازة العصبة (أيلول «سبتمبر» ١٩٤٥) ما نصه: «إن الصهيونية خطر على اليهود مثلما هي خطر على العرب، وعلى وحدتهم القومية. ونحن إذ نتصدى لمكافحتها علانية وعلى رؤوس الأشهاد إنما نعمل ذلك لأننا يهود، ولأننا عرب بنفس الوقت»[١٦٦]. وقد اجيزت العصبة في آذار «مارس» ١٩٤٦. ولكن سرعان ما أغلقت وإحيل إعضاؤها إلى المحاكمة بسبب إصدارها بيان ضد وعد بلفور[١٦٧]. وأعضاء العصبة، الذين تقدموا بطلب الإجازة هم: سليم منشي، نسيم حسقيل يهودا، مسرور قطان، إبراهيم ناجي، يعقوب مصري، مير يعقوب كوهين، يعقوب إسحق وموشي يعقوب. وبعد اصدار قانون اسقاط الجنسية من قبل الحكومة العراقية، في آذار «مارس» ١٩٥٠، لمن يرغب ترك العراق نهائياً تزايدت أعمال العنف في محلات سكن ومعابد اليهود.

شكل «يهود العراق وحدة متجانسة، عكس الطوائف اليهودية، فلم تكن هناك هجرات يهودية إلى المنطقة عدا ما كان يأتي من فارس. وحتى موجة السفارديم، التي غطت الإمبراطورية العثمانية، وقفت عند أبواب العراق. وهذا ما أدى إلى محافظتهم على أصالتهم وتقاليدهم الحضارية مدة طويلة»[١٦٨]، بعد أن أسسوا في أرض بابل فكرهم الديني وأساطيرهم.

جعل التاريخ الضارب بالقدم من اليهود «وحدة متجانسة» ومنسجمة، ولم يسمح لهم بالتفكير بجدية بما يسمى بأرض الميعاد، إلا بحدود تفكير أي مسيحي أو مسلم يحج إلى القدس. لذا لم يجد وعد بلفور قبولاً بين يهود العراق، بل العكس من ذلك تم رفضه من قبلهم، إذ يأتي أحد وجهاء يهود العراق، الأديب مير بصري، بأدلة على موقف طائفته السلبي من وعد بلفور. وقبلها رفضوا ما عرف بالجمعية الصهيونية بأوروبا. كتب البصري في ملحق «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» (الطبعة الحديثة) الآتي: «جرت مقابلة مع ساسون حسقيل النائب في مجلس المبعوثان في إستانبول، نشرت في آذار ١٩٠٩ في جريدة «العالم» العبرية، الصادرة في ويلنا من أعمال بولندا آنئذ. وقد سئل نائب يهود بغداد عن الحركة الصهيونية الجديدة في بولندا وروسيا، فقال: إنه ليست له معلومات معينة عن الموضوع. وأن اللغة العبرية لغة دينية محضة ولا فائدة من اتخاذها لغة الكلام اليومية. واقترح إذا أمكن تأسيس مركز روحاني يهودي في فلسطين»[١٦٩].

---

(١٦٦) الصافي، كفاحنا ضد الصهيونية، ص٣٣. عن المنهاج الداخلي لعصبة مكافحة الصهيونية ١٩٤٦.

(١٦٧) المصدر نفسه.

(١٦٨) معروف، الأقلية اليهودية في العراق، ص ٨٨.

(١٦٩) المصدر نفسه، الملحق، ص ٣١٧.

لا يُعني المركز الروحاني ، كما هو متعارف عليه ، بالسياسة ولا الدولة . وليس هو تنظيماً ، وإنما هو شأن ديني صرف . فأغلب الطوائف الدينية لها مراكز روحانية ، ومنها الصابئة المندائيون بالعراق ، وللبابيين والبهائيين مراكز في شتى الدول ، وكذلك للمذهب الإسماعيلي ، وللدروز مراكزهم . وحين دعا السر أرنولد ولسن ، وكيل الحاكم الملكي العام بالعراق ، وجهاء اليهود ليبشرهم بوعد بلفور «رأهم واجمين ، وقالوا له : إن فلسطين مركز روحي لنا ، ونحن نساعد المعابد ورجال الدين فيه مالياً . لكن وطننا هذه البلاد ، التي عشنا في ربوعها آلاف السنين . وعملنا بها . وتمتعنا بخيراتها . فإذا رأيتم أن تساعدوا هذه البلاد وتحيوا اقتصادياتها وتسندوا تجارتها وماليتها ، فإننا نشارك في الرخاء العام»[١٧٠] .

فمن أين لفاضل البراك ، مدير الأمن العام ورئيس جهاز المخابرات السابق ، وهو يتحدث عن يهود العراق ومدارسهم ، الإدعاء بالقول : «كانت التوجهات تستهدف بالأساس شد اليهود بعضهم إلى بعض . وتنمية تطلعهم الدائم إلى أرض الميعاد فلسطين . والتأثير سلباً في المجال الذي يعيشون فيه بغية إضعافه لصالحهم . وتهيئة وسائل تحقق أهدافهم فيه ومن خلاله . وكانت المدارس إحدى الوسائل البارزة التي أهتم بها لهذا الغرض»[١٧١] . وإن جمع البراك بين المدارس اليهودية والإيرانية إشارة إلى عدم عراقية مدارس اليهود ، من أن المدارس الإيرانية تابعة رسمياً للحكومة الإيرانية ، وتصرف شؤونها سفارتها هناك ، دون أن يلتفت إلى تاريخ المدرسة اليهودية ووجودها منذ عهود قديمة ترقى إلى القرن الثالث الميلادي .

وفي الوقت نفسه أراد البراك مساواة إيران بإسرائيل ، لخلق حالة من العداء تعادل العداء لإسرائيل . وفي كتابه هذا تحدث مدير الأمن العام عن المجازر الرهيبة المشروعة من وجهة نظره ، التي طالت اليهود والمسيحيين والمسلمين بما عرف بتصفية شبكات (التجسس) . وكانت حسب زعمه الرد بالحزم الثوري على تطلعات مواطنيه اليهود إلى أرض الميعاد في «القصاص من الصهاينة والجواسيس والمخربين (الذي) كان مفقوداً في ذلك العهد ، وظل كذلك في سنوات طويلة في ظل أنظمة الحكم الدكتاتورية والرجعية المشبوهة ، حتى جاءت ثورة ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ، لتجتث شبكات التجسس الصهيونية... وتمت تصفية هذه الشبكة أيضاً في أوائل ١٩٦٩»[١٧٢] . غير أن الحزم الثوري المزعوم قد طال مدير الأمن العام ، فاعتقل بتهمة الجاسوسية وإعدم في ما بعد؟!

استقبل يهود العراق ، حالهم حال الطوائف الأخرى ، الأمير فيصل بن الحسين ليكون

---

(١٧٠) المصدر نفسه ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(١٧١) البراك ، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق ، ص ١٦٤ .

(١٧٢) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

أول ملك بالعراق الحديث . فأقاموا له حفلاً خاصاً في ١٨ تموز ١٩٢١ . وجاؤوا بالتوراة «مكتوبة على درج من الرق مصوناً في غلاف من ذهب فلثمها جلالته»[١٧٣] . لم يضع فيصل وهو من بيت هاشمي النسب أمامه في تلك اللحظة قصة تحريف التوراة ، أو روايات تجنب قراءتها أو عدم احترامها ، فقد تعامل مع كتاب سماوي منزل ، في لحظة أقبل فيها على إعادة تأسيس الدولة العراقية ، بعد أن فقد كيانها منذ الهيمنة الساسانية وحتى جلاء الإنكليز عنها ، يعيد تأسيسها ببلد معروف بموزائيكه الاجتماعي والديني . خاطب فيصل مجتمع اليهود بالقول : «ولا شيء في عرف الوطنية اسمه مسلم ومسيحي وإسرائيلي . . . إني أطلب من أبناء وطني العراقيين أن لا يكونوا إلا عراقيين ، لأننا نرجع إلى أرومة واحدة ودوحة واحدة ، هي دوحة جدنا سام ، وكلنا منسوبون إلى العنصر السامي ، ولا فرق بين المسلم والمسيحي واليهودي»[١٧٤] .

كان الوجيه اليهودي ساسون حسقيل أول وزير مالية في أول حكومة عراقية (١٩٢٠) ، وظل وزيراً حتى ١٩٢٥ حيث أول وزارة لياسين الهاشمي ، وكان نعمَ القرار . قال نائب رئيس حزب الاستقلال فائق السامرائي ، بعد حين ، في فضله : «لقد كان إصرار المرحوم ساسون حسقيل في مفاوضاته مع شركة النفط البريطانية عام ١٩٢٥ على وجوب دفع الشلن بالعملة ذهبية كان يبدو غريباً في وقته . لأن الباوند الاسترليني كان يستند إلى قاعدة الذهب آنذاك . ولكن هذا النص بعد خروج بريطانية على قاعدة الذهب أفاد العراق فائدة كبيرة ، وضاعف كثيراً من أرباحه»[١٧٥] . ولم يتأخر معروف الرصافي عن رثاء الوجيه العراقي في قصيدة ، منها :

لقد كان في الأوطان يرأب صدعها	فيسعى إلى الاصلاح فيها ويدأب
فأصغـى لشكواها وزيـراً ونائـباً	وعالجهـا منه الطبيـب المجـرِّب
وأبعد مرمـى حبهـا في شبـابه	وجاهد في إسعادهـا وهو أشـيب
لئن كان ، يا ساسون ، غيبك الردى	لذكـراكِ بالعـليـاء لا تتغيـب

الدور القومي

بالغ الاتجاه القومي بالعراق بالإساءة لليهود ، فقد تبنت جريدة حزب الاستقلال التحريض وتهييج العامة ضدهم . وطالبت بهدر دم التاجر اليهودي شفيق عدس ، الذي أُعدم

(١٧٣) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ١٨٧ .
(١٧٤) معروف ، الأقلية اليهودية في العراق ، ص ٨٤ ، عن فيليب ويلارد آيرلند ، العراق ، ص ١٢٧ .
(١٧٥) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ملحق يهود العراق لمير بصري ، ص ٢٦٩ .

بتهمة تصدير الأسلحة إلى إسرائيل، مع أن للرجل شركاء مسلمين في تجارته البعيدة عن هذا الصنف من البضاعة. والكل يعرف مدى تلفيق التهمة، التي رمي بها التاجر عدس بعد إعلان الأحكام العرفية «لصيانة الجبهة الداخلية». نُفذ الحكم في الساحة العامة بالبصرة (٢٣ أيلول ١٩٤٨). أقلق هذا الحادث وغيره من الأحكام التي كان يصدرها رئيس المحكمة عبد الله النعساني مضاجع اليهود، وعاشوا الخوف والقلق من تلفيق التهم الكاذبة لهم. وبعد صحيفة الاستقلال القومية يأتي دور صحيفة «اليقظة» المتعصبة قومياً أيضاً، ورئيس تحريرها سلمان الصفواني. لقد أضرت هذه الصحيفة ضرراً كبيراً في الوحدة العراقية، وأخذت على عاتقها تشويه اليهود العراقيين من فنانين وتجار ومسؤولي دوائر في الدولة العراقية، تدفع بهم إلى إسرائيل دفعاً.

تعرض اليهود في ظل تلك المحاكم العرفية، والصحافة القومية المتعصبة، إلى إيذاء وصل إلى حد التعدي على أعراضهم وأموالهم. جرت العادة أن تطلب المحكمة كفالة باهظة تدفع مقدماً، وتذهب إلى جيب رئيس المحكمة وأعوانه، ومَنْ لا يتمكن من دفعها لا يبقى عنده غير التخلي عن داره، أو أن تحاصر زوجته أو أخته فتضطر الى قبول ما يفرضه عليها موظفو السلطة من ممارسات مشينة. كل هذا كان اعداداً لهجرة اليهود الجماعية من العراق، ساهمت فيه القومية الفاشية التي تبنى دعوتها الطبيب سامي شوكت، والذي ما أن عُين مديراً للمعارف حتى أسس تنظيم الفتوة على غرار الفتوة النازية بألمانيا. وقد كشفت صحيفة «الأهالي» محاولات شوكت في بعث الفاشية عبر سلسلة مقالات بعنوان «بعث الفاشية في العراق» كتبها كامل الجادرجي، موضحاً فيها خطورة مثل هذه الشخصية[١٧٦]. وهو صاحب مقولة «اخشوشنوا فأن الترف يزيل النعم» التي جعلها شعاراً لكتائب الفتوة.

لكن مير بصري، وهو يتحدث عن ضيم اليهود وفزعهم في تلك الأيام، لم ينس مواقف زعماء المسلمين من الطائفتين الشيعة والسُنَّة الإيجابية، فقد دعا آية الله السيد محسن الحكيم إلى «لزوم حسن معاملة اليهود ورفع الظلم والغبن عنهم». ودعا مفتي بغداد السيد نجم الدين الواعظ إلى الرفق بالقول: «إن اليهود العراقيين مواطنون في هذا البلد، فإذا كنا مسلمين فعلينا حمايتهم بصفتهم من أهل الذمة، وإذا كانت دولتنا مدنية فإن لهم حقوق المواطنة»[١٧٧].

ولا يُنسى في هذا السياق موقف متصرف الحلّة أمين الخالص (ت ١٩٦٥) في أحداث ١٩٤١، يوم «انتشرت دعاية واسعة في المجتمع الحلي: أن اليهود يقومون بالتجسس على

---

(١٧٦) راجع كامل الجادرجي، افتتاحيات جريدة الأهالي.

(١٧٧) غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ملحق لمير بصري، ص ٣٢٩.

العراقيين ، وقد قتل أحد الحليين يهودياً عصر يوم بالقرب من محطة القطار . فاضطرب اليهود ، واختبأوا في دورهم ، وأخذت الشرطة تحرسهم . وقد تناهى إلى مسامع المتصرف أن جماعة من أهل الأطماع ينوون الغارة على بيوت اليهود لينهبوها في ليلة معينة . فاهتم المتصرف وأحضر مَنْ كان يشتبه بهم ، أو شك أنهم محرضون على القيام بهذه الحركة . فأوقفهم . . . وأمر بمنع التجوال ليلاً في الحلة»(١٧٨) . وقد علق صاحب «تاريخ الحلة» الشيخ يوسف كركوش ، وهو أحد شيوخ الدين بالحلة ، على هذا الفعل بالقول : «والحق أنه عمل يستحق الثناء»(١٧٩) . للخالص موقف إيجابي آخر بشأن الصابئة المندائيين عندما كان متصرفاً ببغداد ودعم قضيتهم في المحكمة ضد تشويهات المؤرخ عبد الرزاق الحسني العام ١٩٣١ .

الفرهود

لم يذكر حتى فرهود ١٩٤١ حادث يميز اليهود عن النسيج العراقي . وما تعرضوا لاضطهادات على مدى القرون كان قد تعرض لها المندائيون والمسيحيون والأيزيديون والمسلمون أنفسهم على يد المسلمين من الأمراء والولاة . إلا أن هذا الحادث كان من القسوة والمرارة أن هدف إلى قلعهم من البلاد ، واشعارهم بالغربة عنها . والفرهود كلمة بحد ذاتها تعبر عن التمادي في الاعتداء . كان المتهم الأول في حوادث الفرهود النازيين ودعايتهم التي نشطت بالعراق أوان التقارب العراقي الألماني . وتبقى أيادي النشاط الصهيوني الخارجي ملوثة في الأحداث . والشاهد على ذلك كلمة أول رئيس وزراء إسرائيلي بن غوريون السالفة الذكر . وكان من المتهمين في الأحداث مباشرة ، حسب تقرير لجنة التحقيق ، مفتي القدس أمين الحسيني الذين كان مقيماً ببغداد حينها ، والمعلمون الفلسطينيون والسوريون ، ومحطة الإذاعة الألمانية باللغة العربية ، والإذاعة العراقية خلال شهري نيسان وأيار ١٩٤١ ، وتنظيمات الفتوة والكتائب والشباب(١٨٠) .

جاء في تقرير اللجنة ما خلاصته : عند عودة الوصي على العرش عبد الإله إلى بغداد ، بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني ، صادف ذلك اليوم عيد النبي يشوع ، الذي يحتفل اليهود عادة به . وحصل أن جماعة من اليهود كانوا قد وصلوا جسر الخر في الجانب الغربي من بغداد ، ولما شاهدهم جماعة من الجنود اعتدوا عليهم بالضرب والطعن

---

(١٧٨) كركوش ، تاريخ الحلة ١ ص ١٨٩ .

(١٧٩) المصدر نفسه .

(١٨٠) معروف ، الأقلية اليهودية في العراق ، ص ٢٣١ ، عن عبد الرزاق الحسني ، الأسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية ، ص ٢٤٦-٢٥٦ .

بالسكاكين ، وقتلوا واحداً وجرحوا آخرون . كانت هذه الحادثة هي شرارة ما عرف بالفرهود ، الذي عم جانبي بغداد ، الكرخ والرصافة ، واشترك فيه الجنود والشرطة والأهلون ، وكانت نتائجه نهب محلات اليهود وقتل ١١٠ يهودياً ومسلماً (من العاملين في محلات وبيوت اليهود) . غير أن رئيس الطائفة اليهودية عد القتلى بأكثر من العدد المذكور ، وأن خسارة الحوادث كانت أكثر من ٢٧١ ألف دينار نهبت من ٩١١ داراً[١٨١] . وحمل تقرير لجنة التحقيق الضباط القوميين المسؤولية المباشرة في الحادث المريع ، فذكر أن يونس السبعاوي قد أخبر رئيس الطائفة اليهودية أن لا يخرج أحد من اليهود في أيام الجمعة والسبت والأحد المصادفة ٣٠ و٣١ أيار والأول من حزيران ، وأن لا يتصل أحد منهم تلفونياً ، لكي يتمكن جنوده من المداهمة[١٨٢] .

وحسب مير بصري لم تكن أحداث ١٩٤١ هي الأولى من نوعها ضد اليهود والدولة بيد رشيد عالي الكيلاني ، وإن كانت هي الأكثر ضراوة في تاريخهم المعاصر . لقد حصل ما يشابهها السنة ١٩٣٦ يوم كان الكيلاني وزيراً للداخلية ووكيلاً لوزارة العدل في وزارة ياسين الهاشمي ، فاستولى حينها «على الأوقاف القادرية ، التي تُعهد منذ القديم إلى نقيب أشراف بغداد. وكان جماعة من التجار والوجهاء اليهود قد تعاقدوا على استئجار قطعة أرض في محلة السنك من الأوقاف القادرية لمدة ٢٥ سنة ، وشيدوا عليها نادياً اجتماعياً عرف باسم نادي الزوراء. واستدعى رشيد عالي رئيس النادي ، وقال له : إن بدل الإيجار قليل ، ويجب زيادته ، فرفض الرئيس مستنداً إلى عقد الإيجار الساري . وعلى إثر ذلك بدأت حملة ضد اليهود في بغداد . أطلقها بعض السفلة من أعوان رشيد عالي ، كان أول ضحاياها سكرتير نادي الزوراء ، واستمرت أشهراً ، جرح خلالها عدد من اليهود . ولم تفد مراجعات الطائفة في قطع دابر هذه الاعتداءات والقبض على المجرمين ، حتى حصل إنقلاب بكر صدقي في ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ وسقطت الوزارة الهاشمية ، وسُفر رشيد عالي إلى خارج العراق ، فانقطعت الاغتيالات نهائياً»[١٨٣] .

لا يستغرب ذلك فوطنية وثورية رشيد عالي وضعت بالميزان عندما حاول ربط مصير العراق بالنازية الألمانية . وأن الضباط القوميين ومفتي القدس كانوا من السذاجة بمكان في طريقتهم للرد على مقدمات إعلان دولة إسرائيل . وبالتالي كان حماسهم للفرهود لا يقل خدمة لتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين ، من أجل إقامة دولة إسرائيل ، أسوة بعمليات أُخر

---

(١٨١) المصدر نفسه .

(١٨٢) المصدر نفسه .

(١٨٣) أعلام السياسة في العراق الحديث ٢ ص ٢٥٢-٢٥٣ .

مثل عملية البساط السحري لتهجير يهود الجنوب العربي . فقد تزامن وجود البواخر بميناء عدن مع حرائق وفرهود في بيوت اليهود ، وبفعل هذه القسوة لم يبق يهودي واحد في ذلك المكان . عموماً أن البريطانيين لم يكونوا بعيدين عن الحادث ، وإن لم يكن بالمساهمة المباشرة ، وإلا لماذا لم تحدث الهجرة الجماعية ، لليهود من المناطق الخارجة عن سلطان بريطانيا وقتذاك ، مثل اليمن (صنعاء وملحقاتها) والمغرب العربي؟ ولماذا ، على حد عبارة حسقيل قوجمان ، لم يحصل الفرهود بالبصرة مثلاً ، رغم أن الجيش البريطاني حاول المبادرة إلى نهب محلات اليهود؟

تجاوز يهود العراق فاجعة الفرهود رغم الفزع الذي ظل يساورهم ، وهم في دورهم وفي محلاتهم . ساعدهم موقف مواطنيهم المسلمين الذين سعوا إلى حمايتهم وحماية أموالهم ، وشجب الحادث بقوة . قال شاهد عيان : إن أحد وجهاء محلة صبابيغ الآل ، وسط بغداد ، المعروف بالسيد صالح ، لما رأى اللصوص مقبلين على دار جاره اليهودي أمر أولاده بصوت عال : «أذهبوا إلى بيت أختكم لعلها تحتاج إلى شيء» . والحقيقة أنه أراد اشعار اللصوص أن الدارَ محمية من قبله . وبهذا كفوا عن اقتحامها . غير أن سذاجة الشعارات السياسية ووالمغررين بها جعل الشيخ اليهودي الذي تخلف بمدينة الشامية ، وسط العراق ، عن ركب الهجرة وظل وحيداً ملتصقاً بالأرض ، ويعمل راعياً لمحل المراحيض العامة ، هدفاً لتظاهرات السنة ١٩٦٧ ، وعاملوه وكأنه نائب موشي ديان في حربه مع الجيوش العربية[١٨٤]!

واجه اليهود ، بعد حوادث النهب والسلب ، اجراءات وممارسات قضت بمنع توظيفهم ودخول أبنائهم المدارس ، ومطاردة شبابهم واختفائهم القسري . ثم توجت هذه الاجراءات بإسقاط الجنسية ، فكانت الهجرة الكبيرة ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، التي أطلق عليها شموئيل موريه اسم «الهجرة الجماهيرية ليهود العراق»[١٨٥] . يذكر مير بصري في كتابه «رحلة العمر» أحداثاً مريعة تعرض لها وأبناء طائفته ، من الذين حاولوا الصمود بالعراق حتى السبعينيات . لقد

---

(١٨٤) هناك قصص ومآثر لمسلمين وقفوا بوجه مَنْ حاول الإعتداء على مواطنيهم اليهود ، يذكر واحدة منها الطبيب سلمان درويش ، أنه عندما حصلت حرب الأيام الستة ، حزيران ١٩٦٧ ، دخل الخوف إلى قلوب اليهود العراقيين ببغداد ، وقف أحد أصدقائه على باب عيادته وداره قائلاً : «والله العظيم إن تقدم أحد للأعتداء على الدكتور فأنا وأخوتي الذين أمرتهم بالحضور حالاً سنفديه بأرواحنا ، فحذار التقرب من داره»(كل شيء هادئ في العيادة ، ص ٩١) . وسيجد القارئ في هذا الكتاب قصصاً أخرى تروي كيف أنقذ الجنود الإسرائيليون من أصل عراقي القنصل العراقي بالقدس ، الذي عاد إلى بغداد وتحدث عن مأثرة اليهود العراقيين معه . لكنه لما ظهر في وسائل الإعلام تكلم خلاف ذلك ، وظهر أن السلطة وضعت له الأسئلة والأجوبة أيضاً .

(١٨٥) شاؤول ، قصة حياتي في وادي الرافدين ، ص ٨ .

سجن هو عدة شهور أثناء ما سمي بمحاكمة الجواسيس برئاسة الضابط علي هادي وتوت، لمنعه من مراجعة الدوائر، باعتباره رئيساً للطائفة الموسوية بالعراق، لمتابعة مَنْ زجوا في السجون ومن خطفوا من الشوارع والمحلات. وكانت ذريعة الاعتقال أن صحفية أمريكية اتصلت به! وفعلاً حصل هذا. لكنه كان بموافقة السلطات العراقية. قال البصري: «تعاقب فقدان الأشخاص والقبض عليهم حتى بلغ عددهم إلى شهر نيسان من السنة التالية (١٩٧٣) ٢٥ شخصاً، يضاف إليهم ثلاثة اعتقلوا واستطعت إنقاذهم من السجن والتعذيب والموت. وقد راجعت السلطات وكتبت العرائض والبرقيات إلى رئيس الجمهورية ونائبه والوزراء، ولم يظهر لأحد من أولئك المخطوفين والمعتقلين أثر، بل نهبت دورهم، واستولت سلطات الأمن على أموالهم»[١٨٦].

تذاكر مير بصري وفاضل الجمالي عبر رسائل متبادلة، وكل منهما يقطن بمنفاه، قضية تهجير اليهود. لام بصري الجمالي على ما فعلته الدولة العراقية وما خططت له وزارة المعارف وسياسة الدولة في الضغط على يهود العراق للتخلي عن جنسيتهم، وهجرة موطنهم الذي عاشوا فيه زهاء خمسة وعشرين قرناً. أجابه الجمالي بالقول: «ربما كان خطأنا الأساسي في الثلاثينيات من هذا القرن أننا لم نؤكد على الوحدة العراقية في سياستنا التربوية قدر التأكيد على القومية العربية»[١٨٧]. تغيرت الأحوال، خلال الأربعة عقود التي تلت سقوط الحكم الملكي، حتى كتب الجمالي مقالاً في الصحف الأمريكية تحت عنوان «أبناء عمي اليهود».

يشهد مير بصري لعهد عبد الكريم قاسم في التخفيف من آلام اليهود العراقيين. ماعدا إيذاءهم بإزالة مقبرة لهم، كانوا قد أُشعروا لنقلها إلى مكان آخر. قال: «لعل العهد الذهبي للطائفة اليهودية الضئيلة المتبقية في العراق بعد الهجرة الجماعية لسنة ١٩٥٠/١٩٥١ كان في عهد عبد الكريم قاسم قائد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. ذلك العهد الذي دام ٤ سنوات ونصف السنة، تمتع اليهود بكل حقوقهم المدنية والدينية والطائفية»[١٨٨]. ذكر أحد اليهود لعبد الكريم قاسم إلغاء الكفالة المالية على مَنْ يريد السفر من اليهود، وأصدر قانوناً العام ١٩٦٠ ألغى بموجبه قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين، وكانت له محاولة لإعادة الجنسية لِمَنْ أسقطت عنهم[١٨٩].

---

(١٨٦) بصري، رحلة العمر من ضفاف دجلة إلى وادي التيمس، ص ١٥٣.

(١٨٧) أعلام السياسة في العراق الحديث ٢ ص ١٤.

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(١٨٩) درويش، كل شيء هادئ في العيادة، ص ٩٠.

آثارهم

هجر اليهود العراقيون مزارات شيدوا قببها ، ومنحوها أكرم ما لديهم من مشاعر وتراتيل ، ومنها ما ضم رفات أنبياء ، أو اعتُقد أنها لرفاتهم ، ومنها لكبار رجال الدين مثل : ذي الكفل أوحزقيال ، وعزرا أو العزير الكاتب . وحزقيال أو حسقيل كان ضمن المسبيين إلى بابل . ورد اسمه في القرآن باسم ذي الكفل ، وهي تسميته بالعربية . جاء في الآية : «وإسماعيل وإدريس وذا الكفلِ من الصابرين»[١٩٠] ، و «واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكلٌ من الأخيار»[١٩١] . وقيل عُرف بذي الكفل «لأنه كفل شعب إسرائيل بالنجاة من أسر البابليين»[١٩٢] . وقيل : إنه كفل الجنة للملك البابلي ، وغيرها من الأقاويل .

ذكر بنيامين في رحلته مرقد ذي الكفل أو حزقيال بالقول : «على شاطئ الفرات بناء جسيم يحتوي على ستين صومعة ، لكل منها برج ، وهو مرقد حزقيال بن بوزي الكاهن»[١٩٣] . ويتردد اليهود على هذا المرقد في عيد الكفارة ورأس السنة ، وأيام السنة الأخرى من غير مناسبة . وقديماً كان يقصد المكان رأس الجالوت ورؤساء مدارس بغداد اليهودية[١٩٤] . ويقع مرقد عزرا أو (العزير) على حافة دجلة ، بين القرنة والعمارة ، قريباً من قلعة صالح . ويعرف عند اليهود «بكاتب الشريعة ورائد بني إسرائيل في رجوعهم إلى مسقط رأسهم وبيت عزهم وقدس أقداسهم»[١٩٥] . وذكر المرقد أكثر من مؤرخ ورحالة ، منهم ياقوت الحموي (القرن السابع الهجري) ، وبنيامين (القرن السادس الهجري) . قال غنيمة : «زرت هذا المرقد سنة ١٨٩٣ فكانت ترد إليه جماعات اليهود من كل أطراف العراق للتعفر بثرى الراقد الصالح وزيارة ضريحه في عيد الأسابيع»[١٩٦] .

وتضم بغداد رفات عدد من أئمة وأولياء اليهود ، منهم : يوشع كوهين كادول ، ويقع في جانب الكرخ قريباً من مقبرة المتصوف الشيخ معروف الكرخي ، بمحلة عباسية تعرف بمحلة باب البصرة ، وقد عرف بين الناس ، من غير اليهود ، بضريح النبي يوشع . ومن أقدم معابد اليهود كنيس الشيخ إسحاق الغاؤوني ، يقع في إحدى محلات الرصافة ، عرفت بمحلة الشيخ إسحاق . ويشاع بين اليهود أن إسحاق كان صيرفياً عند الإمام علي بن أبي طالب . ولا ندري

---

(١٩٠) سورة الأنبياء ٨٥ .

(١٩١) سورة (ص) ٤٨ .

(١٩٢) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ١٩٦ .

(١٩٣) بنيامين ، رحلة بنيامين ، ص ١٤٣ .

(١٩٤) غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص ١٩٧ .

(١٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(١٩٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

ما حمله على الإقامة ببغداد ، قبل اتخاذها عاصمة من قبل أبي جعفر المنصور بزمن طويل؟ وقرأ غنيمة على باب الضريح بالعبرية ما نصه : «تاريخ الراقد الصالح الربان إسحاق الغاؤوني المتوفي سنة ٦٢٠ لخراب بيت المقدس»[١٩٧] . إذ خربت القدس بحدود ٧٠ ميلادية فمعاصرة الشيخ إسحاق لعلي بن أبي طالب واردة . وكان لليهود العراقيين مزار عامر بمنطقة القوش التابعة للموصل ، وهو مزار ناحوم الألقوشي ، الذي يعد من الأنبياء .

اشتهر اليهود بعنايتهم بالتعليم منذ عهدهم البابلي ، ومن مدارسهم القديمة مدرسة سوارا ببابل العام ٢١٩م[١٩٨] . وقيل بين أركان هذه المدرسة دوّن التلمود اليهودي ، أي تفاصيل الشريعة . وتعتبر المدرسة المذكورة أساساً لمعاهد علمية جمعت بين الدراسة الدينية والدنيوية . وفي الوقت الذي ليس بالعراق غير مدرسة ثانوية واحدة . وفي الوقت الذي أهتمت فيه المدارس الإسلامية والمسيحية بالجانب الديني والفقهي فقط ، فتحت المدارس اليهودية أبوابها للتعليم المدني العام .

حتى العام ١٩٥٠ كان لليهود تسع عشرة مدرسة أهلية : مدرسة البير ساسون الابتدائية ، والمتوسطة للبنين (١٨٦٤) ، كان عدد طلابها في (١٨٩٩) ٢٥٤ طالباً . فلنا أن نتخيل التقدم الذي احرزته هذه الطائفة في الزمن العثماني البائس . ومدرسة لورة خضوري الابتدائية والمتوسطة للبنات (١٨٩٣) ، وهي أول مدرسة لتعليم الإناث بالعراق ، بلغ عدد طالباتها في (١٨٩٩) ١٣١ طالبة . كان هذا العدد من البنات المقبلات على التعلم في وقت اختلف فيه المسلمون على تعليم البنت ، وقصائد الشعراء المتحررين كانت تصدح ببغداد والنجف من أجل تعليمها . ومدرسة راحيل شحمون (١٩٠٩) للبنين التي عرفت باسم مدرسة التعاون . والمدرسة الوطنية (١٩٢٣) ، ومدرسة شماش الأعدادية للبنين (١٩٢٨) . ومدرسة مسعودة سلمان (١٩٣٠) . ومدرسة منشي صالح الابتدائية (١٩٣٥) ، وكانت الأخيرة خاصة بالفقراء مع اشتراط مؤسسها تعليم العلوم الدينية . والثانوية الأهلية المسائية (١٩٤١ - ١٩٤٢) للبنات . ومدرسة فرنك عيني المتوسطة للبنين (١٩٤٢) ، والأخيرة كانت تعد طلابها لنيل شهادة صفوف المتريكوليشن البريطانية . ومدرسة مسعودة يوسف شطوب الابتدائية للبنين (١٩٤٦) . والمدرسة المتوسطة الأهلية (١٩٤٨ - ١٩٤٩) ، وغيرها . أما المدارس الدينية في العصر الحديث فكان أبرزها مدرسة تلمود توراة (١٩٣٢) ، ومنداتي (١٩٠٧)[١٩٩] . ولليهود بجنوبي العراق : البصرة والعمارة والناصرية مدارس عديدة[٢٠٠] .

---

(١٩٧) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .

(١٩٨) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٩٩) معروف ، الأقلية اليهودية في العراق ، ص١٥٠ - ١٥٩ .

كذلك ليهود العراق مجالسهم الاجتماعية منها : مجلس عضو مجلس الأعيان مناحيم دانيال (ت ١٩٤٠) . ومجلس ولده عزرا مناحيم دانيال (ت ١٩٥٢) بمحلة السنك . ومجلس الحاخام ساسون خضوري بمحلة تحت التكية وسط بغداد . ومجلس الشاعر أنور شاؤل المحامي . ومجلس مير بصري . ومجلس رئيس محكمة التمييز داود سمرة . ومجلس يوسف الكبير وغيرها[٢٠١] .

نتقصى عواطف ومشاعر اليهود العراقيين من خارج العراق ، فالصورة تبدو قاتمة من داخله حيث يقيم البقية الباقية منهم وعددهم ٣٨١ حسب إحصاء ١٩٧٧ . وهو آخر إحصاء على ما اعتقد ، قد يقلون وقد يزيدون . أشارت تلك العواطف إلى أن العراق محمول في أفئدة يهوده ذكريات مشبوبة بالحنين ، يعبرون عنها بالكتابة والحفاظ على التراث العراقي ، وبامتداد الصداقات مع العراقيين الآخرين . من الذين تعرضوا إلى المصير نفسه ، وهو التشريد إلى خارج الحدود . كتبت مواطنة عراقية إلى أحد السياسيين المعارضين ، وهو ابن وزير داخلية ورئيس وزراء سابق له علاقة مباشرة بإصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود المهاجرين ، هو سعد صالح جبر . قالت : «أتمنى الوقوف دقائق على شاطئ دجلة»[٢٠٢] . وأديب عراقي يهودي ، سامي ميخائيل ، يحشد مظاهرة داخل إسرائيل ضد ضرب العراق ١٩٩١ . قال في ندوة عقدت له بلندن حول ذكرياته بالعراق : «هم يضربون الجسر الذي أودعت تحته ذكريات طفولتي»[٢٠٣] .

قال الأديب والروائي سمير نقاش (توفي في تموز ٢٠٠٤) معللاً سبب استمراره في الكتابة بالحرف العربي : «إنني أعشق هذه اللغة ، التي نطقت بها أول ما نطقت ، وأستطيع بواسطتها التعبير عن دواخلي بشكل أفضل ، فلماذا أُقيد نفسي بلغة أعرف عنها أقل ، وهي العبرية؟ ثم أنها تؤكد انتمائي العضوي إلى أصلي العراقي»[٢٠٤] . وحبر نقاش مقالاً معلناً فيه انتماءه العراقي بقوة ، مع أنه غادر العراق وعمره ثلاثة عشر عاماً . رد فيه على مَنْ أتهم طائفته بالعمالة لإسرائيل . نُشر المقال تحت عنوان : «لا ، ليس يهود العراق صهاينة ولا هم بالجواسيس»[٢٠٥] .

استعرض في المقال تاريخ الطائفة منذ القدم بأرض العراق ، واستقبال تسعين ألف

---

(٢٠٠) آداموف ، ولاية البصرة في ما ضيها وحاضرها ، ص ٢٣٦ .

(٢٠١) دروبي ، البغدادون أخبارهم ومجالسهم ، ص ٢٣٨-٢٤٣ .

(٢٠٢) جريدة العراق الحر ، ١٧ حزيران ١٩٩٨ .

(٢٠٣) ندوة بديوان الكوفة ١٩٩٦ .

(٢٠٤) مجلة الوسط ، ٦ شباط ١٩٩٨ .

(٢٠٥) جريدة الحياة ، ٩ آذار ١٩٩٥ .

يهودي للإمام علي بن أبي طالب، وهو يتخذ من الكوفة عاصمة للإسلام. وكأن خطوته بنقل العاصمة من الحجاز إلى العراق جاء تصديقاً لما نقل عنه: «مَنْ كان سائل عن نسبنا فإننا نبطٌ من كُوثى»[٢٠٦]. وكُوثى حاضرة من حواضر بابل. كتب نقاش متأملاً من عبارة «خيانة يهود العراق» التي قذفها أحدهم في الصحافة العربية، مذكراً بأماني بن غوريون في هجرة اليهود العراقيين، إذ علق الأخير على الحوادث بقوله: «يُقتل عشرة يهود عراقيون ليأتي عوضهم مائة ألف يهودي». ومذكراً بإدعاء نوري السعيد، رئيس وزراء العراق السابق، حين قال مبرراً تهجير اليهود: «أني سأبعث للدولة الصهيونية بمائة وخمسين ألف يهودي، وبذلك ستتقوض الدولة الصهيونية دون حروب». علق النقاش على عبارة السعيد بالقول: «كان يعرف أن يبعث لصاحبه بن غوريون بحطب للمدافع، وبعبيد يشيدون المباني ويعبدون الطرق». ومن الأهمية بمكان أن يختم النقاش مقاله بالأسئلة التالية: «مَنْ الذي أقام الدولة الصهيونية؟ وهل كانت هذه الدولة لتقوم أصلاً لولا اضطهاد اليهود في مواطنهم وقتلهم والتنكيل بهم»؟ وفي مكان آخر علق اليهودي حسقيل قوجمان، المهتم بتاريخ الموسيقى بالعراق، على هجرة طائفته بالقول: «إن هجرة اليهود من العراق كانت مؤامرة مدبرة ومحبوكة، ساهمت فيها قوى هائلة أجنبية وصهيونية وعراقية»[٢٠٧].

إحصاء

بلغ عدد اليهود في أنحاء العراق، حسب تقديرات بنيامين التطيلي، كالآتي: بخرائب بابل، حسب عبارته، عشرون ألفاً، ولهم كنيس منسوب إلى النبي دانيال. وبالحلة يقيم عشرة آلاف، لديهم أربعة كنائس. وبالكوفة سبعة آلاف، وكان فيها قبر ملك يهوذا حوله كنيس. وبواسط عشرة آلاف. وبالبصرة عشرة آلاف. وبمنطقة نهر سمرة «المتاخمة لبلاد العجم» نحو ١٥٠٠، حيث قبر عزرا (العزير) «الكاهن الكاتب (ع) الذي توفي فيها أثناء قدومه من القدس لمقابلة الملك أرتحشت (ملك فارسي ٤٦٥ - ٤٢٥م/ المترجم)»[٢٠٨]. وبالأنبار (الرمادي) ألف شخص. وبخوزستان أو الأهواز يقيم سبعة آلاف يهودي (جغرافياً كانت منطقة عراقية حتى عشرينيات القرن العشرين). وكان فيها أربعة عشر كنيساً، وفيها قبر النبي دانيال. وبنفاحة (يقال هي كفري) مائتان[٢٠٩]. وبالموصل وجزيرة عمر (٤٧٠٠)

(٢٠٦) الحموي، معجم البلدان ٤ ص ٤٨٨.
(٢٠٧) جريدة الشرق الأوسط، ١٧أيلول ١٩٩٩.
(٢٠٨) بنيامين، رحلة بنيامين، ص ١٥٠.
(٢٠٩) المصدر نفسه، ص ١٤٠ - ١٤٢.

شخص . وفي العمادية يقيم خمسة وعشرون ألف يهودي «من بقايا الجالية الأولى التي أسرها شلمناصر ملك آشور ، ويتفاهمون بلسان الترجوم (يقصد اللغة الأرامية التي ما زال يهود كردستان يتفاهمون بها حتى اليوم/المترجم)[٢١٠] . وعند الخابور يقيم ١٢٠٠ شخص[٢١١] . إضافة إلى أربعين ألفاً يقيمون ببغداد . وورد عددهم حسب النشرة العثمانية الرسمية (١٨٩٨ - ١٨٩٩) بالبصرة والناصرية والعمارة فقط (٥,٠٠٠) نسمة[٢١٢] .

أما الإحصاءات العراقية الرسمية في القرن العشرين فأشارت إلى عددهم كالآتي : ١٩٢٠ : (٨٧,٤٨٨) ألف نسمة . و١٩٣٠ : (١٢٠,٠٠٠) ألفاً . و١٩٤٧ : (١١٨,٠٠٠) ألفاً . والعدد الأخير موزع على المدن والنواحي العراقية كالآتي : بغداد : (٧٧,٥٤٢) . والموصل : (١٠,٣٤٥) . والبصرة : (١٠,٥٣٧) . وديالى : (٢,٨٥١) . والديلم (الرمادي) : (١,٤٤٢) . والحلة : (١,٨٦٥) . والكوت : (٣٤٥) . وكربلاء (٣٩) . وكركوك (٤,٠٤٢) . والسليمانية (٢,٢٧١) . وأربيل (٣,١٠٩) . والمنتفك (الناصرية) : (٦٥٢) . والعمارة : (٢,١٣١) . والديوانية : (٨٢٥) .

تضاءل عدد يهود العراق ، بعد قانون إسقاط الجنسية السنة ١٩٥٠ ، إلى (٥٠٠٠) نسمة ، يقيم معظمهم ببغداد ، وقد بلغ عددهم حسب إحصاء ١٩٥٧ (٤٩٠٦) نسمة[٢١٣] . وحالياً لم يبق منهم غير ٣٨١ نسمة ، ذلك حسب تقرير مديرية الأمن العامة[٢١٤] . وورد في التقرير المذكور أن عددهم أخذ بالتنازل بسبب الهجرة المستمرة ، والتي تصاعدت جداً في ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، وبين سنوات (١٩٦٥ - ١٩٧٧) . بعد أن أستقر في عهد عبد الكريم قاسم . وحسب الإحصاءات : (١٩٤٧ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧) تضاءل عددهم إلى الآتي : (١١٨,١٦٩) ، (٤,٣١٩) ، (٣,١٧٨) ، (٣٨١) . وعلى العموم قسم حاييم كوهين في دراسته للتغيرات الاجتماعية خلال ١٩١٧ - ١٩٥١ يهود العراق إلى ثلاث مجموعات هي : اليهود ببغداد والبصرة ، وكانوا يشكلون حتى العام ١٩٥٠ حوالى ٧٥٪ من مجموع عدد الطائفة . والقاطنون كردستان يشكلون ١٥٪ من المجموع الكلي ، وقد بدأوا مبكراً بالهجرة إلى المدن الكبرى ، ثم الهجرة إلى إسرائيل[٢١٥] .

---

(٢١٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

(٢١١) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٩ .

(٢١٢) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ١٣٠ .

(٢١٣) راجع معروف ، الأقلية اليهودية في العراق .

(٢١٤) التوزيع الديني للسكان العراقيين ، ص ٢٦ .

(٢١٥) معروف ، الأقلية اليهودية في العراق ، ص ٧٨ .

بعد التاسع من أبريل ٢٠٠٣ أخد عدد من يهود العراق ينظرون في أمر عودتهم ، شأنهم شأن المنفيين والمهجرين الأخرين . وإن استقر السواد الأعظم منهم استقراراً نهائياً ، وهم يتوزعون بين شباب لا يعرفون عن العراق إلا الاسم وبين كهول وعجائز تحمل العراق في دواخلها ، وتتوق إلى زيارته في أقرب فرصة . وبين الفئتين هناك مَنْ يفكر ويخطط للعودة . لكنه يترقب تحسن الأحوال ، ويتطلع إلى صدور قوانين تشملهم كبقية المهاجرين . وهم مازالوا يحتفظون بجنسيتهم العراقية ودفاتر خدمتهم العسكرية إلى جانب احتفاظهم بجواز السفر المؤقت ، النافذ لسفرة واحدة ، أي مغادرة العراق دون عودة إليه . وقد استخدم العديد منهم هذه الوثائق للمشاركة في الانتخابات العراقية في الثلاثين من كانون الثاني «يناير» ٢٠٠٥ . يعتمد هذا الأمر بطبيعة الحال على ما ستقرره السلطة العراقية في شأنهم ، فالجانب القومي والسلفي مازال وكأنه يعيش في الأربعينيات من القرن الماضي . تراه لا يفرق بين يهودي عراقي شغل عمره بالحنين لوطنه وبين إسرائيل الدولة والفكر .

والجدير بالذكر أن حكومات عربية ، كانت تتظاهر بالتعنت في يوم ما ، دعت علانية إلى تطبيع علاقة مواطنيها اليهود من المهاجرين بوطنهم . وهذا ما نراه في الموقف الليبي مؤخراً . فقد حضرت السلطة الليبية ممثلة بوزارة الخارجية مؤتمر يهود ليبيا بلندن (٢٨ نوفمبر ٢٠٠٤) . وجه وزير الخارجية سليمان الشحومي رسالة إلى أعضاء المؤتمر ، جاء فيها : «إننا في الجماهيرية العظمى ، وبتوجيه من الأخ القائد معمر القذافي نؤكد على القيم الإنسانية للأمة العربية ودينها الإسلامي الحنيف في التعايش بين الشعوب المحبة للسلام . ومن هذا المنطلق فإننا نجدد الرغبة في مواصلة الحوار مع أبناء الجالية اليهودية الليبية المقيمة في الساحة البريطانية» (ليبيا ، الشؤون الخارجية بمؤتمر الشعب العام ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٤) . سيعود مَنْ يرغب من يهود العراق مستفيداً من أجواء الديمقراطية والمساواة بين العراقيين ، فهناك قانون أصدره النظام السابق في ٢٦ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٧٥ سمح بموجبه عودة يهود العراق إلى وطنهم الأم . لكن طبيعة النظام السابق الدموية ، وذاكرة مشاهد تعليق الجثث في ساحة التحرير ، السالفة الذكر ، منعت الاستفادة من مثل هذا القانون .

الفصل الرابع

المسـيحيـة

للمسيحية تاريخ قديم بالعراق ، يعود إلى إرهاصات الديانة الأولى . وربما بدأ التبشير في ربوعه عقب سقوط أورشليم على يد طيطس السنة ٧٠ ميلادية مباشرة . وهناك مَنْ أشار إلى بدايات هذه الديانة بالعراق بعد ثلاثة عقود من غياب عيسى المسيح . وهناك مَنْ اعتقد أن حدياب (أربيل) قد تنصرت العام ٥٩ ميلادية . أشارت هذه الروايات بوضوح إلى تنصر بلاد الرافدين بفعل حركة تبشيرية هادئة ، بعيداً عن فتوحات الروم البيزنطينيين . لكن ليس هناك مَنْ ينفي دور الخلافات الرومانية الساسانية في نشوء وصراع المذاهب المسيحية : النسطورية واليعقوبية . لقد شجع الساسانيون النسطورية ، المرفوضة لدى الرومان ، في أن تسود ببلاد المشرق . وإذا كانت سيادة المسيحية التامة بالشام بفعل أباطرة الرومان المسيحيين فإن انتشارها وانحسارها بالعراق له صلة مباشرة بتقلب الأحوال بين الدولتين . استفاد المسيحيون العراقيون من أجواء السلم والحرب على السواء . ففي السلم يطلب الرومان حمايتهم كشرط من شروط المهادنة ، وفي الحرب يدفعهم الساسانيون إلى المزيد من الخلاف المذهبي مع الكنيسة البيزنطية مقابل تسهيلات دينية .

ارتبطت المسيحية بمختلف أقوام العراق القدماء : كلدان وسريان وآراميون وعرب . أما الكرد فقيل كان الغالب منهم على الدين الزرادشتي . وامتدت المسيحية من أبرشية فرات ميسان (البصرة) إلى الصين ، والهند ، وسوقطرة في عرض المحيط الهندي بين الصومال وعدن ، وامتدت إلى قطر والبحرين . لم ينافسها بجنوبي العراق غير المندائية والمجوسية . والأخيرة كانت ديانة الدولة الساسانية الرسمية آنذاك . مع أن مؤرخي المسيحية عَدَّوا المندائيين فرقة مسيحية منحرفة ، وأن التبشير بينهم يعني عودة بعد ردة .

عشرون قرناً هو عمر المسيحية ببلاد ما بين النهرين ، واجه خلالها أهل هذا الدين العسر ، وتهنوا باليسر ، تبعاً للظرف السياسي ، وشخصية الحاكم الفارسي المجوسي أو العربي المسلم . وكثيراً ما كان للنساء والجثالقة دور في سريان التسامح الديني معهم . فما عدا ملوك الحيرة ، وعدد من الإمارات في الشمال ، لم يحصل أن تبوأ مسيحي الحكم في جهة من جهات العراق . وإلى جانب فترات الانفراج التي يُعاد خلالها عمران الكنائس ، وتقام الطقوس بحرية ، تعرض المسيحيون لدورات دموية ، فقدوا فيها القساوسة والأتباع ، بين القتل والردة عن الدين بالقوة ، وما تبع ذلك من فقدان وثائق تاريخية ، وممتلكات كنسية نفيسة . ويكاد لا يخلو عصر من العصور من حوادث مريعة ضدهم . وهذه الحال دفعت بالأب إسحاق أرملة السرياني (ت ١٩٥٤) أن يجمع نكبات أهل ملته في القرون المتأخرة على يد أمراء أتراك وأغوات كرد بين دفتي كتاب وسمه بـ «القصارى في نكبات النصارى» .

لم يتخلف السريان والكلدان العراقيون عن اعتناق المسيحية ، بعد أن كانت الديانتان البابلية والآشورية هي السائدة بينهم ، اللتان عرفتا بالوثنية . فبعد سقوط بابل ونينوى لم يبق لديانتيهما ما يبرر وجودها ، بعد أن كانت ديانة دول عظمى لها معابدها وطقوسها الرسمية . لذا هوت مع تماثيل آلهتها وعروش ملوكها . ولم تجد المسيحية محلاً أخصب من المجتمع السرياني والكلداني للتبشير بدعوتها . فالمندائية واليهودية لهما وجودهما أيضاً ، رغم أن تعاليم الأخيرة وطقوسها انتقلت إلى الديانات التي اعقبتها . يضاف إلى ذلك أنهما ديانتان غير تبشيريتين إلا في حدود ضيقة ، ليس كمثل المسيحية والإسلام . فمن تعاليم السيد المسيح المثبتة في الأناجيل الأربعة ، وأعمال الرسل التبشير بين الوثنيين من جميع الأمم ، ومن تعاليم الإسلام أيضاً الدعوة إلى الناس كافة .

بداية التبشير

هناك روايات وآراء عديدة حول كيفية دخول المسيحية إلى العراق . منها : «أن أول جماعة نصرانية قامت في بلادنا ، وفي مملكة حدياب بالذات كانت تتألف من اليهود ، وسرعان ما أنظم إليهم بقية الأقوام والأجناس الوثنية وازداد عددهم»[1] . وهناك مَنْ أعتبر مار توما الرسول هو أول المبشرين بالمسيحية في العراق . وتبشير توما كان «بشرق بلاد الفرثيين

---

(١) نباتي ، تاريخ عينكاوة ص ٣٨ ، عن أدي شير ، شهداء الشرق ، ١ ص ١٨١ . وحسب هامش المصدر المذكور ، تعني حدياب بلاد الأكراد ، وبالسريانية تعني بيت قراتواي ، وهو أقليم يمتد من الزاب الكبير إلى الزاب الصغير ، وسلسلة جبال زاكروس الموازية لنهر دجلة ، وقاعدته أربل .

لدى اجتيازه لها في طريقه إلى الهند، حيث قضى شهيداً. وكانت أربل آنذاك العاصمة الثانية للفرثيين، وتقع على طريق الهند أيضاً»[٢]. ويعتقد الأب ميخائيل الجميل أن المبشر الأول في العراق هو آدي السليح العبراني، أحد حواري المسيح السبعين، الذي أرسله توما، أحد التلامذة الاثني عشر، إلى الشرق. ثم تبعه تلميذه ماري بعد صلب السيد المسيح بثلاثين سنة[٣].

قال الأب اليسوعي: إن «انتشار النصرانية في العراق ونواحي آشور وبابل، تم على يد الرسولين توما وبرتلماوس، وبدعوة ثلاثة من المبشرين الأولين. أعني آدي أو تداي أحد السبعين، وتلميذيه آجي وماري»[٤]. وأكد على ما ذهب إليه قائلاً: «إن الاكتشافات الحديثة في السريانية لم تبقِ ريباً في الأمر إذ تثبت أن آدي الذي يعتبره الكلدان رسولاً لهم كان حقاً من تلامذة السيد المسيح. وأن بشارته في جهات العراق لا يجوز نكرانها. وإن أقدم التواريخ الكلدانية من القرن الخامس إلى التاسع التي نُشرت مؤخراً، كتاريخ برحد بثايا عربايا، وتاريخ مشيحا زحا، وشعر نرساي في القرن الخامس، وشهادة آباء مجمع المدائن المنعقد في بلاط الملك كسرى سنة ٦١٢ (ميلادية)، وأعمال الشهداء والكتب الطقسية القديمة كلها تشير إلى بشارة الرسول آدي»[٥].

هنا يُدخل المؤرخون المسيحيون المعجزات والكرامات في تبني المسيحية من قبل الأمراء والحكام المحليين، فيذهب أحد المؤرخين إلى القول: «كان ملك أربل مبتلى بداء الجرب، ومخلع اليد اليسرى، وبعد حوار جرى بينهما يشفي مار ماري الملك من علته، وكان زرادش قائد جيشه حاضراً هناك، فلما عاين شفاء مولاه اعترته الدهشة والاندهال، فطلب من ماري أن يشفي ابنه الوحيد المدعو دادي الموسوس بروح نجسة فيبرئه، وبهذه المعجزات وغيرها آمن الملك وقائد جيشه والأشراف وكثيرون من الأهالي»[٦].

قال المؤرخ آدي شير في هذه الكرامات: «إن اللسان عاجز عن التعبير عن كل ما عمله المسيح على يدي مار ماري من العجائب والآيات الخارقة في البلاد الواقعة بين الزابين»[٧]. وبهذا يعد مار آدي «الأب الحقيقي لكنيسة أربل»[٨]. ترك آدي خليفة له في أربل بعد

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.
(٣) الكنيسة السريانية بين انطاكيا وسلوقيا - قطيسفون، مجلة بين النهرين، ١٨ - ١٩، ١٩٧٧.
(٤) اليسوعي، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ٧٤.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) نباتي، تاريخ عينكاوة، ص ٤٤، عن ادي شير، شهداء المشرق ١ ص ١٨.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه، ص٤٢.

تنصيره لشخص يدعى بقيذا . وكان الأخير قد واجه الاضطهاد من قبل أسرته بسبب تنصره . وبعد خمسة أعوام من التلمذة على يد آدي أصبح بقيذا أسقفاً لحدياب في الأعوام ١٠٤ - ١١٤[٩] . وأشارت الروايات إلى تنصر آزاد الحدياببي العام ٥٩ ميلادية . وبهذا تتفق الروايات على أن حدياب وعاصمتها أربل كانت القاعدة الأولى لإعلان المسيحية بالعراق . والمبشرون الأوائل هم : مار توما ، مار ادي ومار ماري .

لكن هناك رواية تنسب التبشير بالمسيحية إلى موبذات المجوس . ورد في حكاية تغلب عليها العاطفة الدينية : «أن المجوس الذين انطلقوا من بلداننا هذه ، أو البلاد الفارسية إلى بيت لحم ليكرسوا المسيح في ميلاده ، اصبحوا رسلاً ، وبشروا بهذا الحدث الفريد لدى عودتهم إلى أوطانهم ، بعد أن تزودوا ببعض قطع من قمط يسوع الطفل لليمن والتبرك»[١٠] . وبسهولة أصبحت حكاية تبشير المجوس بالمسيحية بالعراق تقليداً متداولاً بالكنيسة . كان أساس ذلك ما ورد في «إنجيل متّى» : «ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية ، في أيام الملك هيرودس ، إذا مجوس قدموا أورشليم من المشرق ، وقالوا : أين ملك اليهود الذي ولد؟ فقد رأينا نجمه في المشرق»[١١] .

يقول التقليد الديني : «إن المجوس الذين قدموا من المشرق يقودهم نجم ليسجدوا للمسيح المولود في بيت لحم كانوا منجمين . قدموا من بلد الكلدانيين ، أو بلاد فارس . لأن بلد الكلدانيين القدماء كان دخل تحت حكم الفرس منذ الفتح الكورشي . فهولاء المنجمون نقلوا البشرى السارة إلى مواطنيهم من بلاد ما بين النهرين وفارس»[١٢] . وفُسر قدوم المجوس من أجل التبشير بدين منافس بالقول : إنه أمر رباني جعلهم غير قادرين على إخفاء ما شاهدوه من المعجزات . ويستبعد الأب يوسف حبي (ت٢٠٠٠) فكرة التأثير الروماني والغربي عموماً في دخول وانتشار المسيحية وتنظيم الكنيسة في العراق . قال : إن ذلك جرى «في القرن الأول للميلاد ، وأن مار أدي ومار ماري هما رسولا كنيسة المشرق ، وأن تنظيم هذه الكنيسة اكتمل في عهد الساسانيين ، وقد انتهى حكمهم (٦٢٤م) . ولا صحة لرسالة الأباء الغربيين المزعومة . وكل ما في الأمر أن مطران ساليق وقطيسفون (المدائن) مطرافوليط أراد توحيد كنيسة العراق . وتزعم الأبرشيات كافة ، فاحتاج لتبرير ذلك دعماً من الخارج . كما أن

---

(٩) المصدر نفسه ، عن ميشخا زحا ، تاريخ أربل (النص السرياني) .

(١٠) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ، ١ص٨ عن سليمان البصري ، دورثيا (النخلة) ص٣٩ . والبصري ، حسب البير أبونا ، كاتب سرياني شرقي ، من أعلام القرن الثاني والثالث عشر الميلاديين ، وكان مطراناً بالبصرة .

(١١) إنجيل متي ١/٢ - ٣ .

(١٢) الأب الجميل ، الكنيسة السريانية بين انطاكيا وسلوقيا - طيسفون ، بين النهرين ١٨ - ١٩ ، ١٩٧٧ .

الصلات بين كنيسة المشرق والكنائس المجاورة، ولا سيما الأنطاكية، كانت معدومة. لأن الأسقف والكنيسة متلازمان، والأسقف والأساقفة جسد واحد. ومهما يكن من أمر فأن كنيسة المشرق كانت تتمتع بتنظيم مركزي ورئاسي خاص في مطلع القرن الرابع، بحيث اتخذ أساقفتها لقب جاثليق، وأخذ يعقد المجامع، ويشرف على تنظيم شؤون كنيسته»[١٣].

لم يتحقق التبشير بحدياب بلا عوائق، ففيها «جالية يهودية تتمتع بكيانها الخاص، وقد بلغت هذه الفترة مبلغاً من القوة، ظهرت آثارها في أن مجموعات كبيرة من الأمراء والأهالي الأصليين لمملكة حدياب، ومدينة أربل بالذات مع جميع أتباعهم اهتدوا إلى الديانة اليهودية بحكم البنية الاجتماعية لذلك الزمان»[١٤]. وقد وشى اليهود، نتيجة للموقف السلبي من الدين الجديد، بالمسيحيين «لدى الدولة المجوسية»[١٥]. كذلك أثرت المواجهات المستمرة بين الدولة الفارسية وبين الدولة البيزنطية على تحجيم التبشير المسيحي. فليس هناك عامل ديني معرقل للحرية الدينية. قال جواد علي في تسامح الفرس بسبب طبيعة ديانتهم غير التبشيرية: «لم يكونوا يبشرون بدينهم، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم. وهذا مما صرف الحكومة (المجوسية) عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها»[١٦]. لذا كان الفرثيون الزرادشتيون، أو المجوس، بعيدين عن القهر الديني، فلم يفرضوا ديانتهم على الممالك التابعة لهم «بل تركوا لكل ولاية حريتها في العبادة، وساعدوا بعضها في إعادة بناء معابدهم، التي كانت الحروب قد دمرتها»[١٧].

بعد أربل، تحدثت المصادر حول وصول المسيحية إلى مناطق العراق الأخرى. دخلت الموصل بواسطة «ما لا يقل عن ثلاثة من الرسل الأثني عشر، وهم: بطرس وتوما وبرتلماوس، يصحبهم أربعة من التلاميذ السبعين، وهم أدي وماري وبنيامين وسمعان»[١٨]. بينما تأخر دخولها جنوبي العراق إلى عهد الملك الساساني شابور الأول (ت ٢٧٢م). انتشرت هناك عن طريق سبايا الرومان «الذين أتى بهم من المنطقة الرومانية في حروبه الكثيرة وغزواته الموفقة. فقد غزا إنطاكية مرتين، واجلى العديد من سكانها إلى البلاد

---

(١٣) المشرق كنيسة أصلية شاهدة، مجلة بين النهرين، ٢٥، ١٩٧٩.

(١٤) نباتي، تاريخ عينكاوة، ص٣٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص٣٦، عن عدة مصادر.

(١٦) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٥٩٥.

(١٧) نباتي، تاريخ عينكاوة، ص٣٥، عن إبراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام ٢ ص٢٠٣.

(١٨) الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ص ١١.

البابلية ، وإلى سائر المناطق الفارسية . وكان من بين السبايا ديمترياس مطران إنطاكية نفسه»[١٩] ، الذي نفي إلى الأهواز السنة ٢٥٧ميلادية .

ظلت أنطاكية مركزاً لكنيسة الشرق حتى القرن الخامس الميلادي . ففي بداية هذا القرن عقد مجمع سلوقيا و «انتخب مار إسحاق على كرسي سلوقيا - حيث قطيسفون (المدائن)- بحضور مار ماروثا ممثل فرفيريوس بطريرك إنطاكية والآباء الغربيين . وبقيت سلوقيا مركز الكرسي البطريركي لكنيسة ما بين النهرين حتى عام ٧٧٩م»[٢٠] . وأشارت رواية أخرى إلى قدم تأسيس كنيسة المدائن إلى القرن الأول والثاني الميلاديين ، أي في الأعوام (٧٩ - ١١٦م)[٢١] . غير أن هناك مَنْ أشار إلى التبشير المبكر بجنوبي العراق ، متزامناً مع شماله بحدياب . قال الأب اليسوعي : «إن الكتب الطقسية النسطورية وأعمال المجامع أشارت إلى دعوة أدي «بين العرب في بلاد ميشان (ميسان) وسواد العراق وسكان الخيام»[٢٢] .

ظهر العائق المجوسي أو الزرادشتي أمام نشر المسيحية بعد إعلان الرومان التسامح مع المسيحية ، وتبنيها كديانة رسمية إثر اضطهادات عنيفة . فقبل ذلك «لم يتعرض المسيحيون القاطنون في الإمبراطورية الفارسية للاضطهاد العنيف طالما كانت الإمبراطورية الرومانية تدين بالوثنية . ولم يحصل ذلك إلا بعد إعلان ميلانو (٣١٣ ميلادية) ، من قبل الملك قسطنطين الكبير ، القاضي بشرعية المسيحية في عموم الإمبراطورية الرومانية[٢٣] .

وخلاف ذلك يدلنا المصدر نفسه إلى تعرض المسيحيين لاضطهاد ملوك الفرس[٢٤] قبل إعلان ميلانو بعقود . ففي زمن هرمز الأول (٢٧٢ - ٢٧٣) رقي رجل الدين المجوسي المتشدد ضد المسيحيين كرتير إلى درجة موبذ موبذان أي رئيس الكهنة . وأخذ ينفذ «خططه العدوانية ضد المسيحيين ، وقد شن في الملة الأولى اضطهاداً سافراً على المانويين»[٢٥] . عاشت المسيحية قرنها الأول في ظل السيطرة الفرثية تمارس التبشير بحرية . وبعد تأسيس السلالة الساسانية العام ٢٢٦ميلادية ، على انقاض الفرثيين ، «فوجئ الساسانيون بانتشار المسيحيين في شتى أرجاء بلادهم ، وبتغلغلهم في مختلف ميادين الحياة ، واضطروا إلى

---

(١٩) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ١ ص٢٧ .

(٢٠) الكنيسة السريانية بين انطاكيا وسلوقيا - قطيسفون ، بين النهرين ١٨ - ١٩ ، ١٩٧٧ .

(٢١) نباتي ، تاريخ عينكاوة ، ص٣١ .

(٢٢) الأب اليسوعي ، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، ص ٧٥ .

(٢٣) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ١ ص٣٧ .

(٢٤) حكمت العراق ثلاث سلالات فارسية أو إيرانية هي على التوالي : الأخمينية (٥٥٠-٣٣١ ق م) ، والفرثية (٢٢٦-١٣٩ ق م) ، والساسانية (٢٢٦ ق م-٦٣٧ م).

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

اتخاذ موقف تجاه هذه الديانة الجديدة»[٢٦] .

مع الساسانيين

تابع الأب البير أبونا ، بتفاصيل وافية ، سياسة الملوك الساسانيين تجاه المسيحية ، يمكن إيجازها بالتالي : كان مؤسس السلالة الساسانية أردشير الأول (٢٢٦ - ٢٤١م) يحترم كنيسة كوخى (الكنيسة الرئيسة بالعراق) ، التي ضمها إلى مدينته الجديدة بالقرب من المدائن . وتسامح خليفته شابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م) مع المسيحية دون أن يصدر مرسوماً بشرعيتها . مع أنه قتل زوجته اسطاسا لتنصرها . وأبعد زوجته الأخرى شيراران إلى مرو لميلها للمسيحية ، ثم اعتناقها بتأثير طبابة أحد الرهبان ، وآزرت بناء الكنائس في منفاها ، عبر زوجها الجديد من الأسرة المالكة .

وفي زمن هرمز الأول (٢٧٢ - ٢٧٣م) وبهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦م) تصاعد جبروت عدو المسيحية رجل الدين المجوسي كرتير . وبتأثير زوجته قنديرة الرومانية تعلم الملك بهرام الثاني (٢٧٦ - ٢٩٣م) على يد معلمين مسيحيين . لكنه سرعان ما انقلب تحت تأثير كرتير ، الذي «حصل منه على مرسوم يقضي بملاحقة المسيحيين ، وكل الذين يدينون بمذاهب مناوئة للديانة الزرادشتية»[٢٧] . وبعد وفاة بهرام الثاني ثم الثالث ، وقد تولى الأخير الملك فترة قصيرة جداً ، أعفى خليفتهما الملك نرسي(٢٩٣ - ٣٠٣ م) كرتير من مهام الرئاسة الدينية ، وسمح بتعمير الكنائس المهدمة ، وإقامة الشعائر الدينية بحرية . أما هرمز الثاني (٣٠٣ - ٣٠٩ م) فقد ترك المسيحيين وانشغل باضطهاد المانويين .

لكن مرسوم ميلانو الروماني القاضي بشرعية المسيحية ، ثم تبنيها كديانة رسمية لبلاد الرومان ، حفز شابور الثاني ، الذي حكم سبعة عقود (٣٠٩ - ٣٧٩ م) ، على تصعيد اضطهاد المسيحيين ، ومعاملتهم كرعايا دولة مناوئة . ضاعف عليهم ضريبة الجزية في رسالة ورد فيها : «إنهم يقطنون بلادنا وهم موالون لقيصر عدونا»[٢٨] . وكانت المواجهة حادة مع الجاثليق مار شمعون برصباعي ، الذي أعلن استعداد المسيحيين «تلبية رغبة الملك» في تحمل الجزية الباهظة . ونقل في سياق المواجهة بين الجاثليق المذكور والملك الساساني أن اليهود حرضوا الملك بقولهم : «إن أرسلت أنت ملك الملوك ، وسيد الأرض كلها ، رسائل جليلة وحكيمة إلى القيصر مع هدايا فاخرة ومواهب نفيسة ، فإنها لا تلقى استحساناً في نظره . أما

---

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٣٨ ، عن سير الشهداء والقديسين .

إذا وجه إليه شمعون رسالة في قصاصة ورق حقيرة فإنه يتناولها بكلتا يديه راكعاً، وينجز أمـره بكل اهتمام. إضافة إلى ذلك فليس هناك سر في مملكتك ما لم يُطلع شمعون قيصر عليه»[٢٩].

حدث في عهد شابور المذكور السنة ٣٤١ ميلادية ما عرف بالاضطهاد الأربعيني. كان أول المقتولين فيه هو الجاثليق مار شمعون برصباعي، ومئة وثلاثين قساً وكاهناً. واستمرت المذبحة عشرة أيام. وفي مذبحة مريعة أخرى، نفذت في ربيع السنة ٣٤٥ ميلادية، قتل ١٢٠ رجل دين بقطيسيفون (المدائن)، بعد سجن ستة أشهر. واستمرت وتيرة الاضطهاد في عهد خليفة شابور اردشير الثاني (٣٧٩ - ٣٨٣)، الذي قتل الكثير من مسيحيي حدياب يوم كان والياً عليها. وبعد هذه العقود المروعة نهج شابور الثالث (٣٨٣ - ٣٨٨) سياسة سلمية في حل خلافاته مع الرومان. مما أدى إلى تحسن وضع المسيحيين نسبياً. وخف اضطهادهم في عهد خليفته بهرام الرابع كرمنشاه (٣٨٨ - ٣٩٩ م)، فأُتيحت فرصة للكنيسة أن تنظم نفسها.

بعدها تحسن وضع المسيحيين تماماً في عهد يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠م) عند استقرار الصلح مع الرومان. وأعلن الملك بمناسبة مئوية إعلان ميلانو الروماني مرسوماً منافساً يقضي بتجديد الكنائس. وأن يطلق سراح السجناء بسبب عقيدتهم المسيحية. وأن تتاح حرية العبادة للمسيحيين. والأهم من هذا «وافق على عقد مجمع شامل لأساقفة الكنيسة الشرقية العام ٤١٠م، من جميع مناطق العراق ونصيبين»[٣٠]. هو مجمع الجاثليق إسحاق، الذي تحقق إثر سفارة القديس ماروثا الروماني الثانية إلى المدائن مبعوثاً من ملك الروم. وأصدر الملك عقب ذلك مرسوماً أعتبر فيه الديانة المسيحية ديانة مشروعة لا يعاقب القانون عليها. وخاطب، حينها، القديس ماروثا المسيحيين الشرقيين بقوله: «كنتم سابقاً مضطهدين، تعيشون في الخفية. ولكن الآن وصاعداً يمنحكم ملك الملوك السلام والأمان»[٣١]. وهناك مَنْ يذكر إشفاء القديس ماروثا لابنة الملك من مرض عضال «فنالت من أبيها الحرية التامة لنشر النصرانية في العجم»[٣٢]. وتراجع بتحريض رجال الدين المجوس الملك عن سياسة التسامح الديني في آخر عهده. وكان حادث تدمير معبد للنار من قبل أحد الكهنة، بمقاطعة خوزستان ذريعة لتجدد الاضطهاد.

عاد الاضطهاد من جديد بعد وفاة يزدجرد الأول، إذ أجبر خليفته بهرام الخامس

---

(٢٩) المصدر نفسه.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٣١) سايكو، آباؤنا في الإيمان، ص٤٢.
(٣٢) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ٨٣.

(٤٢١ - ٤٣٨م) المسيحيين على ترك دينهم ، إو اللجوء إلى الدولة الرومانية . وأوغل في قتل القساوسة والرهبان . وكان ذلك سبباً كافياً في إعلان الحرب بين الدولتين . وإن بدأ عهد يزدجرد الثاني (٤٣٨ - ٤٥٧م) باتباع سياسة التسامح إلا أن هذا الملك دشن اضطهادهم بقتل زوجته المسيحية ، وإبعاد المسيحيين من وظائف الدولة والرتب العسكرية . ثم وجه حملة شرسة إلى كرخ سلوخ (كركوك حالياً) لإجبار المسيحيين على السجود للشمس والنار والماء . وأعدم في آب ٤٤٦ ميلادية عدداً من الأساقفة . وسار الملك فيروز الملك الفارسي(٤٥٩ - ٤٨٤م) على خطوات اليزدجرديْن ، الأول والثاني ، متسامحاً في بداية عهده متعصباً في ما بعد . أمر أن «يسمي النصارى الشمس إلهاً والماء والنهر والكواكب أولاد الآلهة»[٣٣] . وكان جاثليق الكنيسة الشرقية أحد ضحاياه . وخلاف سياسته نهج خليفته الملك بالش (٤٨٤ - ٤٨٨م) سياسة معتدلة تجاه المسيحيين ، وهادن الروم ، وبعث الجاثليق آقاق سفيراً إلى الإمبراطور زينون .

اتسمت عهود الملوك الساسانيين الآخرين حتى دخول العرب المسلمين (٦٣٧ميلادية) بالتسامح والانفتاح على المسيحيين ، وأهل الملل الأخرى . فينسب إلى هرمزد الرابع (٥٧٩ - ٥٩٠ميلادية) كلمة وجهها إلى أبناء دينه . جاء فيها : «لا قوام لسرير ملكنا بقائمتيه المقدمتين دون قائمتيه المؤخرتين ، فكذلك لا قوام لملكنا ولا ثبات له مع استفسادنا(هكذا وردت) مَنْ في بلادنا من النصارى ، وأهل سائر الملل المخالفة لنا . فاقصروا عن البغي على النصارى ، وواظبوا على أعمال البر ، ليرى ذلك النصارى ، وغيرهم من الملل ، فيحمدوكم ، وتتوق أنفسهم إلى ملتكم»[٣٤] .

لم تُنس سياسة التسامح التي نهجها هرمزد الرابع وخلفاؤه المسيحيين دورات الاضطهاد المريع : قتل ، وتحريم ممارسة طقوس ، وفرض الجزية الباهظة ، اوقد مارسها معظم ملوك بني ساسان ، منذ إعلان المسيحية ديانة رسمية ببلاد الروم . لهذا كان المسيحيون متفائلين بدخول العرب المسلمين ، فأعلنوا الحياد ثم اظهروا الولاء . وكانوا قبلها ، ومنذ القرن الأول يستقبلون الاضطهادات بوصية أسقف أزمير (٦٩ - ١٥٦م) التي تقول : «صلوا من أجل الملوك والرؤساء والسلاطين ، ومن أجل الذين يضطهدونكم»[٣٥] .

قال الأب البير أبونا في ختام عرضه لوضع المسيحيين في العهد الساساني : «لاعجب إذا اتسم موقف المسيحيين بارتياح لمجيء العرب . ذلك أن المسيحيين ملوا من الظلم الذي

---

(٣٣) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ١ ص٨٣ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص١٣٣ ، عن التاريخ السعردي ، ٢ ص٢٨١ - ٢٩٧ .

(٣٥) ا ساكو ، آباؤنا في الإيمان ، ص ٤٢ عن رسالة أسقف أزمير بوليكربوس إلى كنيسة فيليبي .

تعرضوا له في فترات عديدة من العهود الفارسية . فلعل الفاتحين الجدد يكونون أكثر إنسانية ورحمة تجاههم . وقد رحب المسيحيون بمجيء العرب للتقارب الكبير بين لغتهم السريانية ولغة الفاتحين العربية ، لكون اللغتين تنتميان إلى دوحة واحدة هي الآرامية»[٣٦] . ولا ندري ، إن كان المسيحيون آنذاك قد فكروا في الأصول اللغوية ، أم هو مجرد توقع من الأب أبونا؟ ومن مظاهر التأييد وتجنب غضب الفاتحين قيل إن أميراً نجرانياً مسيحياً قد توسط لمسيحيي العراق عند خليفة المسلمين عمر بن الخطاب «ونال عهداً يكفل لهم حسن المعاملة» . وان الجاثليق ايشوعياب بذل جهداً في إظهار التأييد مع أنه هرب من المدائن بعد نهبها على يد العرب ، وقلع أبوابها ونقلها إلى العاقولاء (الكوفة) . وان مطران تكريت فتح قلعتها خشية من حدوث مجازر ، وزود أسقف نينوى «الجيوش العربية بالمؤونة الضرورية»[٣٧] .

فعل المسيحيون العراقيون ذلك رغم أن الرومان كانوا مسيحيين . لكن اختلاف المذهب وقسوة الرومان في معاملة النساطرة من جهة وتعرضهم للأذى في الحروب المستمرة بين الدولتين ، الرومانية والساسانية ، من جهة أخرى جعلهم يتطلعون إلى الاستقرار وحرية العبادة والتمذهب ، على أمل أن يتحقق ذلك في ظل الحكم الجديد . فقد جاء على لسان أحد الرهبان : «إن إله النقمات إذ رأى شر الرومان ، الذين حيثما سيطروا نهبوا كنائسنا وأديرتنا بهمجية ، وعاملونا دون شفقة ، فأرسل من الجنوب بني إسماعيل لينقذونا منهم . فلم تكن فائدة قليلة إننا نجونا من قساوة الرومان ومن شرهم ، وغضبهم وحسدهم العاتي ، وإننا حصلنا على الراحة والسلام»[٣٨] . وقيل إن قائد الجيوش العربية في الموصل ابلغ المسيحيين هناك : «أنتم منا فما الذي يربطكم بيونان»[٣٩] ، ويقصد الرومان .

الحيرة المسيحية

كان للحيرة ، عاصمة المناذرة القريبة من المدائن ، دورها في توطين وتوطيد المسيحية بالعراق ، ذلك عن طريق عدد من ملوكها وزوجاتهم . فالنسطورية السائدة هناك والمخالفة للكنيسة الرومانية كانت مريحة للساسانيين ملوك ملوك الحيرة . وقبلها كان الحيريون يدينون بأديان مختلفة ، فلملكهم جذيمة الأبرش الضَيرسان ، وهما صنمان ، ولديهم أصنام أخرى : اللات والعزّى وسيد والمحرق . وعرفوا عبادة القمر . ووجدت المزدكية (فرقة مجوسية)

---

(٣٦) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ١ ص ١٦٢ .
(٣٧) الدومنيكي ، الآثار المسيحية في الموصل ، ص ١٧ .
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) المصدر نفسه .

واليهودية لهما موضع قدم بالحيرة[٤٠] . ولا ندري ، ما يعنيه صاعد الأندلسي (ت٤٦٢هـ) بزندقة الحيرة حينما قال : «كانت الزندقة في قريش أخذوها عن أهل الحيرة . وكانت عبادة الأوثان فاشية في العرب حتى جاء الإسلام»[٤١] .

وهل الزندقة التي أشار إليها الأندلسي هي المزدكية ، كبدعة في الديانة المجوسية ، أم هي المانوية أم هي الدهرية : منكرو الله ومثبتو الدهر إلهاً؟ ولا يستبعد أنه كان يرمي إلى الفترة العباسية ، يوم شاع مصطلح الزندقة ، وحاربه المهدي بن المنصور بقسوة ، حتى قيل إنه استحدث منصب «صاحب الزندقة» . وعرفت بالحيرة وأطرافها فئة اجتماعية ، زاهدة متنسكة ، باسم العباد أو العبادين ، ذكرهم ابن أبي أصيبعة في سياق ترجمة الطبيب والمترجم حنين بن إسحاق : أنهم من «قبائل شتى من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية بالحيرة ، والنسبة إليهم عبادي»[٤٢] . قال الشاعر :

يسـقي كمـا مـن بني العباد رشا
منتسـب عبـده إلـى الأحـد

وحسب البير أبونا كان العباديون «قوماً من النصارى ، من قبائل شتى ، انفردوا من الناس في قصور شيدوها لأنفسهم بظاهر الحيرة . وسموا هكذا لأنهم كانوا يعبدون الله متزهدين . . . ولأن خمسة منهم وفدوا على كسرى الأول أنو شروان ، وكانت أسماؤهم تبتدئ بكلمة عبد ، وهم : عبد المسيح ، عبد ياليل . وقد اشتهر العباد بنصرانيتهم ، ومعرفتهم القراءة والكتابة ، في عهد جهلها أكبر الشعراء النوابغ . وكان في الحيرة أيضاً أقوام أخرى ، منهم النبط واليهود والفرس»[٤٣] .

بحث جواد علي في ظاهرة عباد الحيرة فتوصل إلى «أن هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة أو بطناً ، وإنما يعني جماعة من قبائل شتى جمعت بينها وحدة الدين ووحدة الموطن . لذلك لم يطلق إلا على النصارى العرب من أهل الحيرة . أما غيرهم من نصارى العرب فلم يشملهم اسم العبادين . ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الإخباريين في تحديد مدلول الكلمة واقتصارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب : إن هذه الكلمة أطلقت في الأصل على مَنْ تنصر من أهل الحيرة ، ليميزهم عن غيرهم من سكان المدينة من الوثنيين . ولم يكن أولئك النصارى في بادئ أمرهم بالطبع إلا فئة قليلة ، ثم توسعت من بعد . فلما

(٤٠) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص٣٠ .
(٤١) ابن صاعد ، طبقات الأمم ، ص١١٦ .
(٤٢) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص١٣٩ .
(٤٣) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ،٢ ص٢٥ عن ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ١٩٩ .

انتشرت النصرانية في الحيرة لازمت هذه التسمية جميع نصاراها ، كائناً مَنْ كانوا ، وصارت علماً لهم ، لم تميزهم عن الوثنيين حسب وإنما ميزتهم أيضاً عن بقية النصارى العرب من غير أهل الحيرة ، فلما مضى زمان طويل على هذا الاستعمال ظن المتأخرون أنه علم ، ثم حار في تعليله ، فأوجدوا على طريقتهم تلك التعديلات»[٤٤] .

وإذا كان الأمر يتعلق بالزهد ، ولنقل التصوف المسيحي ، فليس بالضرورة أن تعني هذه التسمية مسيحيي الحيرة كافة ، فالزهاد في كل ديانة هم مجموعة صغيرة . وربما أُطلقت هذه التسمية على بدايات المسيحية التي بدت مميزة وشاذة وسط سكان المنطقة من الوثنيين والمجوس .

دخلت المسيحية الحيرة في وقت مبكر ، وسرعان ما اصبحت الديانة السائدة فيها ، قبل تَنصّر ملوكها . وربما قبل أن تكون عاصمة للمناذرة . أما تنصر ملوكها فيخبر الطبري أن امرأ القيس الأول (٢٨٨ - ٣٢٨م) كان أول الملوك المسيحيين بالحيرة من اللخميين . وقال آخرون : إنه النعمان الأعور المعروف بالسائح (٤٠٣ - ٤٣١م)[٤٥] . ويرى البير أبونا أن معظم الملوك تأرجحوا بين الوثنية والمسيحية ، فبسهولة كان «يعود بعض منهم إلى الوثنية من جديد . وهكذا تأرجح الدين المسيحي في البلاط الحيري ، في حين أن معظم السكان انضموا إلى المسيحيين مع كثيرين من أهل البلاط والأشراف ، وذلك منذ غروب القرن الرابع ، وفي مطلع القرن الخامس تظهر الديانة المسيحية منظمة تحت رئاسة أسقف»[٤٦] .

إن اضطر ملوك الشام (الغساسنة) إلى تبني النصرانية خضوعاً لأباطرة الروم ، فإن المجوسية لم تكن رسمية بالعراق حتى يضطر إلى تبنيها ملوك الحيرة . على الرغم من انتشارها بين سواد الشعب[٤٧] . ومع ذلك ، «كانت الحيرة من المراكز المهمة في حركة التبشير بالنصرانية بين العرب . ومن الحيرة ذهب قسم من المبشرين إلى اليمن والأجزاء الأخرى من جزيرة العرب لنشر النسطورية ، والمذاهب النصرانية الأخرى هناك . وفيها انعقد مجمع (داد) يشوع في سنة ٤٢٤ (ميلادية)»[٤٨] .

قيل حول تأرجح ملوك الحيرة في مسيحيتهم : أصبح عمرو بن هند الكبرى والمنذر

---

(٤٤) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،٣ ص١٧١ .

(٤٥) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص٣١ ، عن تاريخ الرسل والملوك ٢ص٦٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢ ص٢٧١ .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٥٩٦ .

(٤٨) المصدر نفسه ٣ ص١٧٢ .

الثالث (ابن ماء السماء) «مسيحياً . إلا أن خلفاءه عادوا إلى الوثنية»[٤٩] . ومع ذلك فلثقل المسيحية بالحيرة أن المنذر الرابع (٥٨٢ ميلادية) لم يتمكن من الاستواء على العرش الحيري لكونه وثنياً لا يرغب فيه المسيحيون[٥٠] . ومنها «انطلقت إرساليات مسيحية على الطرق التجارية نحو البحرين وعُمان وغيرهما من البلدان الواقعة على الخليج الفارسي . وفي الحيرة عقدت بعض مجاميع كنيسة المشرق»[٥١] .

اصبحت الحيرة ، لمنزلتها المسيحية ، داراً أبدية لرفات عدد من الجثالقة العظام في تاريخ الكنيسة الشرقية ، منذ القرن الخامس الميلادي وحتى بعد دخول العرب المسلمين إلى العراق بفترة طويلة . منهم : داد يشوع (٤٥٦) ، بابوي (٤٨٤) ، آقاق (٤٩٦) ، حزقيال (٥٨١) ، ايشوعياب (٥٩٥) ، كوركيس (٦٨١) وإبراهيم (٨٥٠) . كذلك أصبحت الحيرة ملجأ للجاثليق الذي كان مركزه المدائن غالباً . ففي الأزمات الطارئة بين المسيحية والملوك الساسانيين يضطر إلى تركها . وبسبب ذلك غادر العاصمة «ايشوعياب الأول الأرزني (٥٨٢-٥٩٥م) والاجتماع بالملك النعمان بن المنذر ، وهو أبو قابوس . وكان المنذر قد تنصر حديثاً سنة ٥٩٣م ، وصار يعد نفسه من حماة المذهب النسطوري ، وأصبحت الحيرة ، حاضرة ملكه ، من معاقل هذا المذهب . وهناك وافت المنية الجاثليق فتولت شؤون دفنه هند الصغرى أخت النعمان»[٥٢] .

ومن المفارقة بمكان أن أختيَ المنذر الثالث (٥١٢ - ٥٥٤م) هند الصغرى ومريم كانتا مسيحيتين مع والدتهما ، و«تعاون جميعهن في تأسيس دير شهير»[٥٣] . بينما ظل الملك «لا يتردد في أن يقدم للآلهة ضحايا بشرية . ففي إحدى صولاته ضد الروم استولى على ٤٠٠ راهبة في منطقة حمص السورية ، وقدمهن قرابين دون رحمة»[٥٤] . وإن المنذر الثالث ، على الرغم من وثنيته ، سمح للراهب يوحنا الديلمي بالتبشير العلني ، وبناء الأديرة والكنائس . وأن صاحبه الحجاج بن قيس الحيري «زود يوحنا بكتاب توصية إلى ولاة البلاد بمساعدته ، وإسعاف طلبه . ولم يعارضه أحد حتى بلغ قرية باخديدا شرقي نينوى»[٥٥] .

وأثناء الصراع بين المذهبين : النسطوري واليعقوبي «تبنت الحيرة المذهب الشرقي أسوة

---

(٤٩) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص٢٩ .

(٥٠) المصدر نفسه .

(٥١) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ص٣٢عن كلدو وأشور ٢ ص ١١٩ .

(٥٢) المصدر نفسه ،١ ص ١٣٦ .

(٥٣) المصدر نفسه٢ ص ٢٩ .

(٥٤) المصدر نفسه .

(٥٥) بهنام ، قرقوش في كفة التاريخ ، ص٥٦ .

بكنيسة فارس كلها . إلا أن المنوفيزيين (اليعاقبة) حاولوا الانتشار فيها . وقام سمعان الارشمي بجهود كبيرة في هذا الشأن ، واكتسب عدداً من الموالين للمنوفيزية ، حتى صار لهم أسقف هناك باستمرار بين سنة ٥٥١ و٦٥٠ ميلادية . إلا أن المنفوفيزيين ظلوا في الحيرة الأقلية إزاء الأغلبية النسطورية الساحقة»[٥٦] . ظل تأثير الاختلاف المذهبي فاعلاً ، إلى حد ما ، في الخلافات بين مملكتي المتاذرة النسطورية والغساسنة اليعقوبية مع أنهما يتبعان سياسة الدولتين الساسانية والرومانية في الحرب وفي السلم .

أهلت المسيحية ، وهي خارج السلطة ، الحيرة أن تتخلى عن شريعة سلفها اليهودية والأديان المحيطة بها ، التي تقر قطع اليد ، ورجم النساء ، وقتل المرتد ، واخذ الجزية ، والتدخل في شؤون الناس الخاصة : تحريم وتحليل المشارب والأطعمة . وأرادت لها أن تكون دوحة للعلم والثقافة والعمران . يضاف إلى ذلك ما ورثته من حضارة بابل . لذا «كان العباديون أكثر أهل الحيرة ثقافة ، حذق بعضهم الصناعات ، ودرس بعض العلوم ، وفاق بعض آخر في اللغات ، فحذق العربية وتعلم الفارسية . وكانوا يتقنون في الغالب لغة إرم (الأرامية) ، بحكم تنصرهم ، واعتبار النصارى لها لغة مقدسة ، لأنها لغة الدين . لذلك كان لهم وجه ومقام في الحيرة ، ولهذا السبب اختار الفرس تراجمهم ، ومَنْ كان يتولى المراسلة بينهم وبين العرب من مسيحيي الحيرة»[٥٧] . ومن الحيرة امتدت الصلات بين قريش والعراقيين ، فانعكس ذلك في ما بعد على ما بين الإسلام والمسيحية ، عبر الصلات التجارية . فكان بالحيرة «سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التجارية ، مثل كعب بن عدي التنوخي ، وهو من سراة نصارى الحيرة ، وكان أبوه أسقفاً على المدينة ، وكان يتعاطى التجارة ، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع عمر بن الخطاب في تجارة البز ، وكان عقيداً لهم»[٥٨] .

في الإسلام

تشرف العرب بالنصرانية ، قبل الإسلام ، فكانوا يقسمون بالكعبة والصليب معاً . قال عدي بن زيد :

سعى الأعداء لا يألون شراً

عليك وربِّ مكة والصليبِ

---

(٥٦) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص٣٢ .

(٥٧) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٣ ص١٧٢ .

(٥٨) المصدر نفسه ٦ ص٥٩٦ .

وقال الأعشى :

حلفتُ بثوبي راهب الدير والتي
بناها قصيٌ والمضاف بن جرهم

وقال الزبرقان بن بدر ، يوم وفد على النبي محمد مع تميم ، مفاخراً شاعر الرسول المسيحي السابق حسان بن ثابت :

نحن الكرام ولا حيٌ يعادلنا منّا الملوك وفينا تُنصب البيعُ[٥٩]

الأبيات السابقة وغيرها شواهد موثوقة على انسجام العرب مع مسيحيتهم ، فمن غير مسيحية الحيرة وملوكها العرب أجلّ عرب الحجاز الصليب مثلما أجلوا الكعبة . وقصة صورة مريم والمسيح التي وجدها المسلمون يوم فتح مكة معلقة على جدران الكعبة مشهورة . وما يتعلق بالإسلام أشارت المصادر المسيحية ، التي أهملها المؤرخون المسلمون لأسباب عديدة ومنها كتابتها باللغة السريانية ، إلى صلات بين الكنيسة الشرقية والنبي محمد . وقبل أن نأتي على طبيعة هذه الصلات نُذكّر بما حدث بين الإسلام والمسيحية في أيام الدعوة الأولى .

بعد التوطد بيثرب وصلت رُسل النبي إلى الملوك والأباطرة . حمل دحية الكلبي (كان الوحي يأتي النبي على صورته) (ت ٤٥هـ) رسالة إلى قيصر الروم . وحمل حاطب بن بلتعة (ت٣٠هـ) رسالة إلى مقوقس مصر . وحمل عمرو الضمري (ت٥٥هـ) رسالة إلى نجاشي الحبشة . ولم يرفض الرسالة من الملوك المسيحيين أحد مثلما رفضها كسرى المجوسي بقوة .

واستقبل النجاشي المسلمين الفارين من قريش ، كلاجئين في مملكته ، ورفض تسليمهم إلى موفد قريش عمرو بن العاص ، الذي أصبح من أبرز أمراء المسلمين في ما بعد . وكان في مقدمة اللاجئين إلى الحبشة ابن عم النبي جعفر بن أبي طالب ، المعروف بجعفر الطيار ، (فقد ساعديه في معركة اليرموك مع الروم ليكون له جناحان في الجنة) . واستقبل مقوقس مصر رسول النبي محمد ، وبعث بهديته إليه ومنها الجارية مارية التي أصبحت زوجة له . وقبل هذا تقدم المسيحي عداس ، وهو غلام من نينوى يعمل بخدمة نفر من ثقيف ، يشد من أزر النبي محمد بعد أن لاقى ما لاقى من صد ثقيف وإيذائهم وسخريتهم . وتبسط معه في قصة النبي يونس أو يونان ليصبره على العذاب والخذلان[٦٠] .

كذلك أيد مسيحيو نجران الدعوة وكُتب عهد لهم ، لم يلتزمه عمر بن الخطاب في ما

---

(٥٩) ابن سيد الناس ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ٢ ص ٢٦٢ .

(٦٠) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١ ص ٥٥٤ .

بعد ، فقد أمر بتهجيرهم عنها . ولما قدم وفدهم برئاسة الأسقف أبي الحارثة «اظهروا اليباج والصلُب ودخلوا بهيئة لم يدخل بها أحد ، فقال الرسول : دَعوهم»[٦١]. وجرى حوار بينهم وبين النبي انتهى بالدعوة إلى المباهلة . وقيل نزلت فيهم الآية : «فمَنْ حاجك فيه من بَعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين»[٦٢] . لكن المباهلة أو الملاعنة لم تتم . قال أبو الحارثة للنبي : «يا أبا القاسم لا نباهلك ، ولكنا نعطيك الجزية ، فصالحهم»[٦٣] . وورقة بن نوفل ، المتكهن بنبوة محمد ، كان مسيحياً ، وقيل إنه عاش ومات على المذهب الآيروسي ، الذي تجاوب معه الإسلام في صفات المسيح ، وما يتعلق بالأقانيم الثلاثة . وهذا ما سيأتي . ولا نعرف ديانة خديجة بنت خويلد ، قريبة ابن نوفل ، وزوجة النبي الأولى ، فربما كانت قبل الإسلام مسيحية أيضاً .

من أخبار تلك المصادر أن بعث الجاثليق ايشوعياب ، رئيس الكنيسة الشرقية في بدايات الإسلام ، رسالة وهدايا إلى النبي ، حملها إليه أسقف ميسان . لكنه وصل بعد وفاته ، فسلم ما كان معه إلى الخليفة أبي بكر الصديق[٦٤] . ظل هذا الخبر ، الذي لم توثقه المصادر الإسلامية ، محط شك عند مؤرخي الكنيسة المعاصرين . فيرى الأب البير أبونا أنه بعيد الاحتمال . «ذلك لأن خبر الرسول لم ينتشر خارج الجزيرة العربية إلا بعد موته ، وإرسال ايشوعياب وفداً ذا صبغة سياسية أمر سابق لأوانه . ثم أن المسيحيين في البلاد الفارسية ، بعد موت كسرى الثاني ، عاشوا في أمان وسلام ، وكان من عدم الفطنة أن يعرضهم ايشوعياب لنقمة الفرس الحاكمين»[٦٥] .

لكن ما المانع من سعي النبي محمد إلى صلات دينية وسياسية مع جاثليق المشرق ، الذي مقره بالعراق ، موازية للصلات بالملوك والأباطرة؟ فالتاج الفارسي أو الساساني كان يخيم على نجران ، يوم أرسل النجرانيون وفدهم وسمح لهم الرسول أن يصلوا صلاتهم ، وإلى قبلتهم بالمسجد النبوي . وكان جاثليق المشرق نسطورياً تتفق تصوراته مع تصورات الإسلام إلى حد ما حول شخصية عيسى بن مريم . ويمتد سلطانه الروحي إلى ما وراء حدود الدولة الساسانية . فليس مستبعداً أن يحاول صاحب الدعوة الجديدة استطلاع موقفه كرئيس قوة دينية على امتداد العراق وبلاد فارس وقطر والبحرين حتى الهند والصين . وما زال ملايين

---

(٦١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٨٢ .
(٦٢) المصدر نفسه .
(٦٣) المصدر نفسه ٢ ص ٨٣ .
(٦٤) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ،٢ص ٥٥ عن تاريخ السعردي ٢ ص ٦١٨ - ٦١٩ .
(٦٥) المصدر نفسه .

الهنود يدينون بمذهب الكنيسة الآشورية، ويتبعون أسقفها بالعراق. ولم يستلم رعاية الكنائس النسطورية هناك من الهنود إلا الأسقف الحالي. فما قبل ذلك ومنذ القرون الأولى للميلاد كان الأسقف آشورياً عراقياً أو شامياً.

قصدت الآية «ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون»[٦٦] مسيحيي الشرق النساطرة واليعاقبة، وكل مَنْ اقترب من مفهوم القرآن عن عيسى، بل وسبق إليه. وقيل: إن النصارى هم «فئة اليهود المتنصرين التحقوا بالمسيح، ورأوا فيه نبياً عظيماً من الأنبياء. ولا يعترفون بألوهيته. ولا ببنوته لله. بل يقولون بأنه رجل كسائر الرجال، جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان. وتقوم رسالته على التعليم والتبشير دون الفداء والخلاص. وكانوا يقيمون إنجيل متّى بحسب العبرانيين، وهو إنجيل متّى الآرامي»[٦٧]. وهم الأبيونيون أنفسهم. وإن وردت في القرآن تسمية عيسى بالمسيح في عدة مواضع، لم ترد تسمية النصارى بالمسيحيين، وكأن القرآن لا يعترف إلا بالنصارى.

ولعل الأب أبونا أهمل جوانب أخرى قد تفيد في تأكيد هذه الصلات بقدر ما أفاد في نفيها. منها أن مسيحيي نجران كانوا نساطرة ثم اصبحوا يعاقبة. ومن المعروف وصل وفدهم لمباركة الدعوة، وأن القرآن قد ذكر قتلاهم من القساوسة كمؤمنين في آية تقول: «قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»[٦٨]. فالمذبحة، آنذاك، كانت حاضرة في ذاكرة المنطقة، إذ حدثت في القرن السادس الميلادي (السنة ٥٢٣ ميلادية)، أي القرن الذي ولد فيه النبي محمد (العام ٥٧٠م). ويذكر ماري بن سليمان (القرن الثاني عشر الميلادي) أن النبي محمداً تسلم رسالة من رأس الكنيسة الشرقية، مع استنكار ملك الفرس. ورد في الرواية: كان الجاثليق أو الفطرك «يكاتب صاحب شريعة الإسلام، ويهدي له ويسأله الوصاة (هكذا وردت) برعيته في نواحيه، فأجابه إلى ذلك. وكتب إلى أصحابه كتباً بليغة مؤكدة، وبرّه صاحب الشريعة، عليه السلام، ببرٍّ كان فيه عدة من الإبل وثياب عدنية، وتأتى ذلك إلى ملك الفرس، فأنكر على الفطرك فعله ومكاتبته، وخاصة عند ورود هداياه، فداراه (الجاثليق) إلى أن سلم منه. وعاش إلى أيام عمر بن الخطاب عليه السلام (هكذا وردت)، فكتب له كتاباً مؤكداً بالحفظ والحياطة. وأن لا يؤخذ من إخوانه وخدمه الجزية وأشياعه أيضاً. وهذا الكتاب محتفظ به إلى هذه الغاية»[٦٩].

---

(٦٦) سورة المائدة ٨٢.

(٦٧) المر، الإسلام بدعة نصرانية، ص ٨٦.

(٦٨) سورة البروج ٤ - ٨.

(٦٩) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص ٥٤ عن المجدل، أخبار بطاركة الشرق، ص ٦٢، مجلة المشرق،

أما تاريخ السعردي (القرن الثاني عشر الميلادي) فيذكر أن رسول الجاثليق قد التقى أبا بكر وعمر بن الخطاب ، وأخذ من الأخير العهد لأهل دينه . ويذكر مؤرخ آخر ، يدعى صليبا بن يوحنان الموصلي (القرن الرابع عشر الميلادي) ، في سياق تعرضه لسيرة الجاثليق ايشوعياب «في أيامه...كان قد بدأ يظهر أمر العرب بني إسماعيل ، سنة خمس وثلاثين وتسعمائة للاسكندر . ولما كشف الله لهذا الأب ما يؤول إليه هذا الظهور من السلطان والملك والقوة وفتح البلاد جمع رأيه ، وسابق بعقله وحكمته إلى مكاتبة صاحب شريعتهم ، وهو بعد غير متمكن ، وأنذره بما يصير إليه أمره من القوة ، وسيّر ذلك له مع هدايا جميلة . فلما قوي أمره وتمكن عاد كاتبه ، وأخذ منه العهد والزمام لجميع النصارى في كافة البلدان ، التي يملك عليها هو وأصحابه من بعده ، وأن يكونوا في حمايته ، آمنين على جاري عادتهم في إقامة الصلوة والبيع»[٧٠] .

يرى البعض أن المؤرخين المسيحيين اختلقوا مثل تلك الصلات ، محاولة منهم للتخفيف من وطأة الجزية (ضريبة الرأس) ، والضغوط الأخرى عليهم . ومنها ما شرعه عمر بن الخطاب ، ونسب إلى عمر بن عبد العزيز ، أو بالعكس في شأن لباسهم وكنائسهم ومعاملتهم . فاعتبر الأب أبونا العهود المحفوظة في الكنائس الشرقية ، التي تذرع بها المسيحيون ، عهوداً «خيالية يستنبطونها للذود عن كيانهم والحفاظ على دينهم وتقاليدهم»[٧١] . وأهمها : عهد النبي محمد ، وفحواه : أن من واجب المسلمين حماية المسيحيين ، ولا يضطهدونهم إلى الحرب معهم . ولهم حرية العبادة في كنائسهم وأديرتهم ، ولا يضطرونهم إلى اعتناق الإسلام . وجاء في عهد عمر بن الخطاب : «لا يغير لكم أسقف من أساقفتكم ، ولا رئيس من رؤسائكم . ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم ، ولا بيعة من بيعكم . ولا يدخل شيء من بنائكم إلى بناء المساجد ، ولا منازل المسلمين . ولا يعرض لعابر سبيل منكم في أقطار الأرض . ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب . ولا يجبر أحد مما كان على ملة النصرانية على الإسلام كرهاً . لما أنزل إليه في كتابه إذ يقول : لا إكراه في الدين»[٧٢] .

ومن قصص العهود أن عهداً خاصاً بمسيحيي نجران عثر عليه منسوخاً في دفتر لحبيب الراهب ، العام ٢٦٥هـ (٨٧٨م) ، فشهد صاحبه الراهب أنه عثر عليه ببيت الحكمة ببغداد ، وأنه كان يتولى حفظه قبل أن يترهب ، وأنه مغلف في جلد ثور ، ومختوم بخاتم النبي

= أذار ، ١٩٠٩ ، ص ٦٠٩ - ٦١٨ و٦٧٤ - ٦٨٣ .

(٧٠) المصدر نفسه ، عن المجدل ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ - ٥٧ .

محمد[٧٣] . وما يميز نسخة هذا العهد في المصادر المسيحية عنها في المصادر الإسلامية عبارة «لأهل نجران وسائر مَنْ ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض» ، وتأييده بالشهود من كبار صحابة المسلمين . وللإيضاح نأتي بصيغتي العهد السريانية والعربية ، أو الصيغة المسيحية والصيغة الإسلامية . والأولى مقتبسة من تاريخ السعردي ، المترجم إلى العربية العام ١٠٢٠م ، والثانية عن كتاب «الخراج» لأبي يوسف ، المصنف بطلب من هارون الرشيد .

«نسخة عهد وسجل من محمد بن عبد الله عليه السلام لأهل نجران وسائر مَنْ ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب أمان من الله ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصارى ، مَنْ كان منهم على دين نجران أو على شيء من نحل النصرانية . كتبه لهم محمد بن عبد الله ، رسول الله إلى الناس كافة ، ذمة لهم من الله ورسوله وعهداً عهده إلى المسلمين من بعده . عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم . ليس لأحد من الولاة ولا لذي شيعة من السلطان وغيره نقضه ، ولا تعديه إلى غيره ، ولا حمل مؤنة من المؤمنين عليهم سوى الشروط المشروطة في هذا الكتاب . فمن حفظه ورعاه ووفى بما فيه فهو على العهد المستقيم والوفاء بذمة رسول الله . ومَنْ نكثه وخالفه إلى غيره وبذله فعليه وزره ، وقد خان أمان الله ، ونكث عهده وعصاه ، وخالف رسوله ، وهو عند الله من الكاذبين . لأن الذمة واجبة في دين الله المفترض ، وعهده المؤكد ، وبرى الله المؤمنين منه وصالح المؤمنين . . . .»[٧٤] .

نكتفي بهذا القدر من نسخة العهد النبوي السريانية فهي طويلة ، ولها عدة نسخ مختلفة عن بعضها البعض في بعض الفقرات . فنقرأ في نسخة أخرى منها أن العهد كان موجهاً إلى «سيد بن الحارث بن كعب وأهل ملته والجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها ، قريبها وبعيدها ، فصيحها وأعجمها ، معروفها ومجهولها»[٧٥] . ختم هذا العهد أحد وثلاثون صحابياً من بينهم الخلفاء الأربعة الأوائل : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم العباس بن عبد المطلب وولده الفضل ، وأبو ذر الغفاري ، وجعفر بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وأبو هريرة وغيرهم . وكتب حروفه معاوية بن أبي سفيان .

أما النسخة العربية أو الإسلامية فوردت كالآتي : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأهل نجران . إذ كان عليهم حكمه ،

---

(٧٣) مجلة بين النهرين ، العدد ١٩٧٦/٤ ، ص١٨٢ .

(٧٤) مجلة بين النهرين ، عدد خاص ، ١٩٧٦/٤ .

(٧٥) المصدر نفسه .

محمد[٧٣] . وما يميز نسخة هذا العهد في المصادر المسيحية عنها في المصادر الإسلامية عبارة «لأهل نجران وسائر مَنْ ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض» ، وتأييده بالشهود من كبار صحابة المسلمين . وللإيضاح نأتي بصيغتي العهد السريانية والعربية ، أو الصيغة المسيحية والصيغة الإسلامية . والأولى مقتبسة من تاريخ السعردي ، المترجم إلى العربية العام ١٠٢٠م ، والثانية عن كتاب «الخراج» لأبي يوسف ، المصنف بطلب من هارون الرشيد .

«نسخة عهد وسجل من محمد بن عبد الله عليه السلام لأهل نجران وسائر مَنْ ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب أمان من الله ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصارى ، مَنْ كان منهم على دين نجران أو على شيء من نحل النصرانية . كتبه لهم محمد بن عبد الله ، رسول الله إلى الناس كافة ، ذمة لهم من الله ورسوله وعهداً عهده إلى المسلمين من بعده . عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم . ليس لأحد من الولاة ولا لذي شيعة من السلطان وغيره نقضه ، ولا تعديه إلى غيره ، ولا حمل مؤنة من المؤمنين عليهم سوى الشروط المشروطة في هذا الكتاب . فمن حفظه ورعاه ووفى بما فيه فهو على العهد المستقيم والوفاء بذمة رسول الله . ومَنْ نكثه وخالفه إلى غيره وبذله فعليه وزره ، وقد خان أمان الله ، ونكث عهده وعصاه ، وخالف رسوله ، وهو عند الله من الكاذبين . لأن الذمة واجبة في دين الله المفترض ، وعهده المؤكد ، وبرى الله المؤمنين منه وصالح المؤمنين . . . .»[٧٤] .

نكتفي بهذا القدر من نسخة العهد النبوي السريانية فهي طويلة ، ولها عدة نسخ مختلفة عن بعضها البعض في بعض الفقرات . فنقرأ في نسخة أخرى منها أن العهد كان موجهاً إلى «سيد بن الحارث بن كعب وأهل ملته ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها ، قريبها وبعيدها ، فصيحها وأعجمها ، معروفها ومجهولها»[٧٥] . ختم هذا العهد أحد وثلاثون صحابياً من بينهم الخلفاء الأربعة الأوائل : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم العباس بن عبد المطلب وولده الفضل ، وأبو ذر الغفاري ، وجعفر بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وأبو هريرة وغيرهم . وكتب حروفه معاوية بن أبي سفيان .

أما النسخة العربية أو الإسلامية فوردت كالآتي : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأهل نجران . إذ كان عليهم حكمه ،

---

(٧٣) مجلة بين النهرين ، العدد ١٩٧٦/٤ ، ص١٨٢ .

(٧٤) مجلة بين النهرين ، عدد خاص ، ١٩٧٦/٤ .

(٧٥) المصدر نفسه .

في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق ، فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الاواقي في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الاواقي فبالحساب ، وما قضوا من دروع أوخيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ، ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تحبس رسلي فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة . وما هلك ما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى يؤدوه إليهم . ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم ، وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . لا يغير أسقف من أسقفيته (هكذا وردت) ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته وليس على دينه . ولا دم جاهلية ، ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش . ومَنْ سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر . وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله أبداً حق يأتي الله بأمره ، ما نصحوا وما صلحوا ما عليهم غير متغلبين بظلم ، شهد أبو سفيان بن حرب (قيل كان أميراً على نجران من قبل الرسول) ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بني نصر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة . وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر»[٧٦] .

بعد هذا العهد صدرت عهود كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب . إلا أن عمر لم يلتزم عهد الرسول ولا عهده فيهم ، فأجلاهم عن نجران أسوة بجلاء اليهود عن خيبر بحجة أن لا يبقى دين غير دين الإسلام بالجزيرة . ونقل عن الرسول أنه قال : «لا يجتمع في الجزيرة دينان» ، كما سبقت الإشارة . وقيل في تبرير إجلائهم : إن عمر «خافهم على المسلمين ، وقد كانوا اتخذوا الخيل والسلاح في بلادهم ، فأجلاهم عن نجران اليمن»[٧٧] إلى العراق . وهم أسلاف عدد من مسيحيي عرب العراق اليوم (راجع الملحق ، التوزيع الديني للسكان العراقيين ، التوزيع حسب القومية) .

وهناك مَنْ ميز في جلاء النصارى ، وهم المسيحيون من أصل يهودي ، فأصاب الجلاء من المبشرين من غير اليهود[٧٨] . وقد ناشد أسقفهم علي بن أبي طالب العودة إلى ديارهم

---

(٧٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص٧٢ - ٧٣ . راجع نسخة العهد النبوي وعهود الخلفاء من بعده بنصارى نجران أيضاً عند أبي الحسن البلاذري في فتوح البلدان ، ص ٧٥-٧٩ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

(٧٨) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ص ١٨ و٤٨ - ٤٩ .

بقوله: «أسألك يا أمير المؤمنين خط يدك وشفاعة لسانك»[79]. أو قالوا له: «شفاعتك بلسانك، وكتابك بيدك، أخرجنا عمر من أرضنا، فردها إلينا صنيعة»[80]. غير أن علياً رد طلبهم بالقول: «ويلكم، إن عمر كان رشيد الأمر، فلا أغير شيئاً صنعه عمر»[81]. وعلى العموم ظل التعامل في زمن الخلفاء الراشدين وفقاً للعهد النبوي، ولعهد كل خليفة.

تولى الخلافة الإسلامية حتى سقوطها ببغداد السنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) سبعة وخمسون خليفة عباسياً. عاش المسيحيون العراقيون في ظلهم ظروفاً متفاوتة بين العسر واليسر. كان هناك اعتراف بشرعية الديانة، مصدره القرآن والسُنَّة. لكنه اعتراف خاضع لثقافة وسياسة الخليفة أو الوالي. ولولا الاعتبارات العلمية والمهنية، التي يحتمي بها أهل الذمة عادة، لكان الوضع مختلفاً تماماً، فللذمة مفهوم واسع، يسر في حين وعسر في أحيان.

لم يصدر عهد خاص بمسيحيي العراق، فعهد النجرانيين، حسب صيغته في المصادر السريانية، شمل المسيحيين كافة. وظلت الجزية مفروضة منذ زمن عمر بن الخطاب بمقدار ٤٨ درهماً على الغني، و٢٤ درهماً على المتوسط الحال، و١٢ درهماً على الفقير، وإعفاء المعدم والمزمن (المريض أو المعوق)، والشيخ والطفل والمرأة والعبد والأعمى والراهب. مع وجوب استضافة مَنْ يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام. وقد أشار أبو يوسف إلى وصايا عمر بن الخطاب في أهل الذمة عامة، وتعامل فيها الخلفاء من بعده مع مسيحيي العراق وغيرهم. منها «أنه مرَّ بطريق الشام، وهو راجع من سيره من الشام، على قوم أُقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت، فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا: عليهم الجزية لم يؤدوها، فهم يعذبون حتى يؤدوها، فقال عمر: فما يقولون هم، وما يعتذرون في الجزية؟ قالوا: يقولون لا نجد، قال: فدعوهم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون، فأني سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: لا تعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله في يوم القيامة، وأمر بهم فخلي سبيلهم»[82].

ناشد قاضي القضاة أبو يوسف هارون الرشيد، وهو يسأله بشأن أهل الذمة بالقول: «ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد، صلى الله عليه وسلم، والتفقد لهم حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم، فقد روى عن رسول الله، صلى الله عليه

---

(٧٩) أبو يوسف، الخراج، ص ٧٤.

(٨٠) ابن سلام، الأموال، ص ١٢٨.

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٥.

وسلم ، أنه قال : مَنْ ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ، وكان يتكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته ، لأوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم»[٨٣] .

ولخص أمير المدائن سلمان الفارسي ما يجب لأهل الذمة على المسلم بالآتي : «ثلاث من عماك إلى هداك ، ومن فقرك إلى غناك ، وإذا صحبت الصاحب منهم تأكل من طعامه ، ويأكل من طعامك ، ويركب دابتك ، وتركب دابته ، في أن لا تصرفه عن وجه يريده»[٨٤] . ويذكر أبو يوسف ، في كتاب «الخراج» ، وصية للنبي محمد لوالي الجزية عبد الله بن الأرقم ، جاء فيها : «ألا مَنْ ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»[٨٥] . و أوصى الإمام أبو حنيفة النعمان تلميذه خالد السمتي ، بالقول : «عاشر أهل الأديان بمعاشرتهم»[٨٦] .

غير أن أبا يوسف ، وهو فقيه الدولة الأول وسبق أن حث الرشيد على معاملة أهل الذمة بالاحسان ذكراً له وصايا الرسول وعمر فيهم ، شرع بشأن الجزية وشروط لباس الذميين بالآتي : «ينبغي مع هذا أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم . ثم تكسر الخواتيم ، كما فعل . عثمان بن حنيف (والي البصرة لعلي بن أبي طالب) إن سألوا كسرها . وأن يتقدم في أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ، ولا في مركبه ، ولا في هيئته . ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات ، مثل الخيط الغليظ ، يعقده في وسطه كل واحد منهم . وبأن تكون قلانسهم مضرّبة . وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس ، مثل الرمانة من خشب . وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية . ولا يحذوا على حذو المسلمين . وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل . ويمنعوا أن يحدثوا بناء بيعة لهم أو كنيسة ، فما كان كذلك تركت لهم ولا تهدم . وكذلك بيوت النيران . ويتركون يسكنون في أمصار المسلمين وأسواقهم يبيعون ويشترون ولا يبيعون خمراً ولا خنزيراً . ولا يظهرون الصلبان في الأمصار . ولتكن قلانسهم طوالاً مضربة ، فمر عمالك (يعني الرشيد) أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي . هكذا كان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي . وقال : حتى يعرف زيهم من زي المسلمين»[٨٧] .

ينسب أبو يوسف ، في مكان آخر ، التشدد ضد أهل الذمة ، الذي يصنف في العصر

---

(٨٣) المصدر نفسه .

(٨٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٨٦) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٣٦٧ .

(٨٧) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٧ .

الحديث بخانة إهدار حقوق الإنسان، إلى الخليفة الأموي الثامن عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ)، وإن صح ذلك فللخليفة الزاهد سابقة في التشدد والقسوة، إذ قتل صديقه خُبيب بن عبد الله بن الزبير بحادثة معروفة يوم كان أميراً على المدينة[٨٨]. أظهره هذا الحدث خلاف الصورة المرسومة له في الذاكرة الإسلامية. فمن وصاياه إلى عماله بشأن أهل الذمة: «أما بعد، فلا تدعن صليباً ظاهراً إلا كسر ومحق. ولا يركبن يهودي ولا نصراني على سرج، وليركب على أكاف (كساء). ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة، وليكن ركوبها على أكاف، وتقدم في ذلك تقدماً بليغاً. وامنع من قبلك فلا يلبس نصراني قباء، ولا ثوب خز ولا عصب. وقد ذكر لي أن كثيراً ممن قبلك من النصارى، قد راجعوا لبس العمائم، وتركوا المناطق على أوساطهم، واتخذوا الجمام الوفر، وتركوا التقميص والعمري لئن كان يضع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة، وإنهم حين يراجعون ذلك ليعلموا ما أنت، فأنظر كل شيء نهيت عنه»[٨٩].

لكن تشدد أو تزمت عمر بن عبد العزيز ضد أهل الذمة عامة قابله موقف آخر أتخذه فيما أتخذ من تصفية آثار خراب الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) بالعراق، فقد كان سبب عزله الجراح بن عبد الله الحكمي عن خراسان هو استمرار الأخير في سياسة الحجاج مع أهل الذمة، من الذين اسلموا. إذ واصل، رغم إسلامهم، فرض الجزية عليهم، فكتب إلى الجراح ما نصه: «أنظر مَنْ صلى قِبَلك إلى القبلة فضع عنه الجزية»[٩٠]. قال الطبري: «فسارع الناس إلى الإسلام فقيل للجراح أن الناس قد سارعوا إلى الإسلام، وإنما ذلك نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان، فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن الله بعث محمداً، صلى الله عليه وسلم، داعياً ولم يبعثه خاتناً»[٩١]. (راجع الفصل الثالث، ما قاله ابن كمونة وأبو العلاء المعري في أمر الداخلين في الإسلام من أهل الذمة). وفي رواية أخرى قال: «ولم يبعثه جابياً». ويضاف إلى ما ذكرناه من حسنات عمر بن عبد العزيز، وربما أهمها هو وقف الفتوحات حينما «اقتصر الجهاد على معارك محدودة، آنية أو موسمية على حدود دار الإسلام»[٩٢]. وبشكل عام أدى التشدد في فرض الجزية وجبايتها، وممارسة الحط من أهل الأديان الأخرى، إلى اضطرار الناس الدخول في الإسلام. وهنا ينتفي دور عامل الإقناع والإيمان، فمن أصبح مسلماً لأي ظرف كان لا يمكنه الرجعة خشية من حد الردة، وهو القتل.

---

(٨٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ص

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٩٠) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥ ص٣١٤، أحداث سنة ١٠٠هـ.

(٩١) المصدر نفسه.

(٩٢) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٣٥.

حاول الأب البير أبونا، في «تاريخ الكنيسة الشرقية»، نسبة بداية القسوة ضد أهل الذمة إلى عمر بن عبد العزيز، إلا أن وصايا عمر بن الخطاب المتشددة وردت واضحة في المصادر الإسلامية الأولى. ويضاف إليها أنه كان يختم رقابهم عند تحصيل الجزية[٩٣]. أجد في تأكيد نسبة هذه الوصايا إلى ابن عبد العزيز محاولة للتقليل من شرعيتها، فوصايا وممارسات الخليفة الأموي ليست كوصايا وممارسات الخليفة الراشدي، مثل عمر بن الخطاب، لدى الأنظمة الإسلامية المتعاقبة.

جعل الفقيه الحنبلي ابن قيم الجوزية رسالة نصارى أهل الجزيرة (الجزيرة العراقية) إلى عامل عمر بن الخطاب عليهم، عبد الرحمن بن غَنيم، مادة لمعظم كتابه «أحكام أهل الذمة»، فأظهر التشدد في معاملتهم وكأنه ورد بطلب منهم. وإن صحت هذه الرسالة فلا شك أن مصدر أحكام أهل الذمة المتشددة في الشريعة الإسلامية هو ابن الخطاب لا ابن عبد العزيز. ولأهمية المعلومات الواردة فيها نأتي بنصها: «إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا، وأهل ملتنا. على أنا شرطنا لك على أنفسنا ألا نُحدث في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها ديراً، ولا قلاية، ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلونها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً. وألا نكتم غشاً للمسلمين. وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا. ولا نظهر عليها صليباً. ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون. وألا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين. وألا نخرج باعوثاً - قال: والباعوث (بعث المسيح) يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر - ولا شعانين. ولا نرفع أصواتنا مع موتانا. ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين. وألا نجاورهم بالخنازير ولا بيع الخمور. ولا نظهر شركاً. ولا نُرغّب في ديننا. ولا ندعو إليه أحداً. ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين. وألا نمنع أحداً من أقاربنا أرادوا الدخول في الإسلام. وأن نلزم زِيّنا حيثما كنا. وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم. وأن نجز مقادم رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا. ونشد الزنانير على أوساطنا. ولا ننقش خواتمنا بالعربية. ولا نركب السروج. ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف. وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحد منا مسلماً في تجارة، إلا أن يكون إلى

---

(٩٣) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٨.

المسلم أمر التجارة . وأن نُضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أوسط ما نجد . ضمنا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا . وإن نحن غيَّرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا ، وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا . وقد حل لك ما يحل لأهل المعاندة والشقاق»[٩٤] .

بعد أن قرأ عمر بن الخطاب الرسالة ، التي كانت بمثابة عهد من المسيحيين ، كتب إلى عامله على الجزيرة قائلاً : «أمض لهم ما سألوا ، والحق فيهم حرفين ، أشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم : ألا يشتروا من سبايانا . ومَنْ ضرب مسلماً فقد خلع عهده»[٩٥] . ولعل عدم التزام يهود خيبر بالشرط الأخير هو الذي جعل عمر لا يلتزم بما عهد لهم الرسول ، فالمضروب هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، حسب ما ورد في رواية البخاري! كان تعهد نصارى الجزيرة ، بالصورة المذكورة ، مذلاً ، ويكاد يلغي ديانتهم من الأساس ، فلا يمنعون مسلماً من رغبة ، وليس لهم الاحتفاظ بمقومات استمرار ديانتهم ، فلا كنيسة تُبنى ولا كنيسة يُعاد عمرانها ، ولا إعلان عيد أو مناسبة دينية . وكم من الولاة والمتنفذين مَنْ أتخذ هذا التعهد ذريعة لأخذ المال ، وهو الإكراه بالدين بعينه! فأين هذا التعهد من صلاة نصارى نجران إلى قبلتهم في المسجد النبوي؟

لقد تعاملت الكنيسة بالعراق ، فترة العهد الأموي ، مع ولاة لا مع خلفاء ، يتشددون ويتسامحون حسب أمزجتهم ، ومستوى ثقافتهم وإنسانيتهم . ليس هناك مراعاة لعهد أو ذمة . غير أن المصادر المسيحية أشارت إلى انفتاح نسبي أيام معاوية بن أبي سفيان . فمن أخبار المؤرخ السرياني يوحنا برفنكابي (القرن الثامن الميلادي) «أن المسلمين قاموا بحق النصارى والرهبان ، فكانوا يطالبونهم بالجزية . ويطلقون لهم الحرية التامة في أمور دينهم»[٩٦] . ولعل أهم الأسباب التي دعت معاوية أن يكون متسامحاً ، إضافة إلى عدم تزمته الديني ، مع المسيحيين هو مواجهة الروم ، وتعاونهم معه في حربه ضد علي بن أبي طالب . عقد معهم هدنة لفترة طويلة ساعدته كثيراً في مواجهة جيش الخلافة القادم من العراق ، مع الاحتفاظ بمواقع الثغور مع الروم . كذلك كانت زوجته ميسون وأم ولده يزيد مسيحية على المذهب اليعقوبي من قبيلة كلب . وأن طبيبه آثال طبيب معاوية كان مسيحياً أيضاً ، وينسب إليه تركيب السموم القواتل ، التي كثيراً ما استخدمها معاوية في تصفية خصومه ، ومن المقتولين فيها الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب . وقيل كان هذا الطبيب والياً على خراج حمص .

(٩٤) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٦٥٨ - ٦٦٠ .

(٩٥) المصدر نفسه ٢ ص٦٦١ .

(٩٦) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص٥٣ .

يضاف إلى ذلك أن معاوية لم يكن متديناً فيتعصب ضد دين آخر ، ولو كان هناك خطر من المسيحيين لعاملهم بالقسوة التي عامل الشيعة فيها ، ومن رفض خلافته من شخصيات الإسلام الأول .

كانت ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥ - ٩٥هـ) أطول ولاية أموية على العراق . أتخذ فيها قرارات مجحفة بحق الموالي وأهل الذمة العراقيين . وقلده في هذه السياسة الوالي يوسف بن عمر ، الذي خلف خالد بن عبد الله القسري-كانت أم الأخير مسيحية ، فقيل إنه ابتنى لها كنيسة بصحن داره ، وقد اتهمه هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) في قضية مالية ، فكتب إليه متوعداً : «وستعلم يا ابن النصرانية أن الذي رفعك سيضعك»[٩٧]- وفي أيام الحجاج وغيره كان أهل الذمة أضعف الطبقات ، ويأتي بعدهم الموالي ، وحتى الذين أسلموا منهم ظل الحجاج يجبي منهم ضريبة الجزية . ففي رواية يرويها الطبري عن تلك الفترة قد تكفي لتفهم موقف المسيحيين الحرج بين الأطراف المتنازعة من المسلمين . ذلك أنهم طلبوا من شبيب بن يزيد الخارجي ترك كنيستهم ، بعد أن التجأ إليها وهو يتنقل بين قرى النهروان في أطراف بغداد ، وهي من الديار المسيحية آنذاك . قالوا له : «أصلحك الله ، أنت ترحم الضعفاء ، وأهل الجزية ، ويكلمك مَنْ تلي عليه ، ويشكون إليك ما نزل بهم ، فتنظر لهم ، وتكف عنهم ، وأن هؤلاء القوم جبابرة (الحجاج وأعوانه) لا يكلون ولا يقبلون العذر ، والله لئن بلغهم أنك مقيم في بيعتنا ليقتلننا ، أن قضى لك أن ترحل عنا ، فإن رأيت فانزل جانب القرية ، ولا تجعل لهم علينا مقالاً ، قال : فإني أفعل ذلك بكم ، ثم خرج فانزل جانب القرية»[٩٨] .

انتقل مركز الخلافة في العهد العباسي إلى العراق ، فأصبح التعامل مع الخلفاء مباشرة . يومها اقترب المسيحيون من دواوين الدولة التي كانت بحاجة إلى «مثقفين يقومون بأعباء الإدارة والدواوين والجباية والشؤون المالية ، وكان المسيحيون وحدهم يمتازون في ذلك الوقت بثقافة عالية ، فكانوا من أهل العلوم والحرف ، كالفلاسفة والأطباء والفلكيين»[٩٩] . ومع تأثر وضعهم بحاجة الدولة إلى مهاراتهم ومزاياهم الفكرية إلا أن الخلفاء كانوا يتدخلون في شؤون الكنيسة ، مثلما كان الوضع في أيام الدولة الساسانية . فانتخاب الجاثليق والمطارنة لا يتم إلا بموافقتهم ، وفي أحيان عديدة يعين رأس الكنيسة بمرسوم الخليفة ، وإن كان الأمر مخالفاً لإرادة المجمع الكنسي .

---

(٩٧) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص٣٢٢ .

(٩٨) دلو ، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، ص١٥ ، عن الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٥ ص٨٠ .

(٩٩) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص١٠٥ .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، كانت المنافسة على أشدها بين شخصين لتولي رئاسة كنيسة المشرق ، هما : سورين ويعقوب الثاني ، «وكان سورين مطراناً لنصيبين ، ثم انتقل إلى حلوان ، وكانت حياته مليئة بالمشاغبات والفتن ، وتوصل إلى أن يعينه أمير المدائن بطريركاً على كنيسة المشرق سنة ٧٥٤م ، إلا أن الأساقفة رفضوه ، والتمسوا من الخليفة العباسي الأول عبد الله السفاح أن يعزله عن هذا المنصب ، وتم لهم ذلك . وأُرسل سورين مطراناً إلى البصرة ، ورفضه أهل المدينة أيضاً فأنهى حياته في السجن . أما منافسه يعقوب فقد زجه المنصور في السجن مدة ، ثم أُعيد إلى الكرسي البطريركي الذي شغله حتى وفاته ٧٧٣ميلادية ، وخلفه سنة ٧٧٥ البطريرك حنانيشوع الثاني ، الذي مات مسموماً سنة ٧٧٩ بيد حجام الخليفة»[١٠٠] .

كان الجاثليق طيمثاوس الأول أو الكبير (ت٨٢٣م) أبرز جثالقة الكنيسة الشرقية في العهد العباسي ، فقد امتدت «كنيسة المشرق في عهده إلى الهند والصين والتبت»[١٠١] . انحدر من أربيل ، وتدرج في المهام الدينية حتى حل محل الجاثليق حنا نيشوع الثاني . ومن أعمال طيمثاوس أنه «سعى كثيراً بتربية اكليروسه تربية صحيحة ، وبنى لهم مدارس ومعاهد يتلقون فيها إلى جانب علوم الكنيسة العلوم المدنية بجميع فروعها وفنونها . لأنه أدرك جيداً أن مستقبل كنيسته منوط بنوع التربية والثقافة التي يتلقاها اكليروسه . ووجههم نحو الرسالة الإنجيلية وواجب نقلها إلى الشعوب التي لم تصلها بعد . فقد أنفذ بعثات تبشيرية إلى تركستان والهند والصين وبلاد أخرى نشروا فيها المسيحية ، وأسسوا فيها كنائس جديدة»[١٠٢] .

ولعل تنصر المغول يعود إلى تلك الإرساليات بين الوثنيين والبوذيين والمجوس في تلك المناطق . وفي بداية رئاسته للكنيسة الشرقية نقل طيمثاوس كرسي البطريركية من المدائن إلى بغداد ، ليكون قريباً من بلاط الخلافة العباسية . وكتب مشدداً على استنفاذ كل إمكانية ومجال للتعايش مع المسلمين ، فقد كتب يقول : «إنهم لم يكرهوننا قط على عمل شيء يمس الدين»[١٠٣] . مستشهداً بالآية القرآنية : «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وهم لا يستكبرون»[١٠٤] .

---

(١٠٠) المصدر نفسه ٢ ص ١٠٦ .

(١٠١) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(١٠٢) ساكسو ، البطريرك طيمثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي الإسلامي في العصر العباسي ، بين النهرين ، العدد ١٩٧٦/٤ .

(١٠٣) المصدر نفسه .

(١٠٤) سورة المائدة .

عاصر طيمثاوس خمسة خلفاء عباسيين : المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥م) ، والهادي (٧٨٥ - ٧٨٦م) والرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩م) والأمين (٨٠٩ - ٨١٣م) والمأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) . وكانت فترة رئاسته لكنيسة الشرق مثمرة في العلاقة بين المسيحيين والمسلمين . وقد اشتهرت فيها حواراته العقائدية مع الخليفة المهدي وعلماء المسلمين . لكن المصادر الإسلامية تجاهلت ذلك تماماً . وفي تلك الفترة كان تدخل الخيزران ، زوجة المهدي وأم ولديه : الهادي والرشيد ، لصالح المسيحيين بتأثير طبيبها الخاص أبي قريش عيسى ، فأخرجت لهم موافقة الخليفة بانتخاب جاثليق جديد هو طيمثاوس الكبير أو الأول . بعدها لعبت زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، وزوجة ابن عمها الرشيد ووالدة الأمين ، دوراً إيجابياً لصالح المسيحيين بتأثير طيمثاوس نفسه ، لذا وصفتها المصادر المسيحية بالمحسنة الكبيرة .

قال ماري في «المجدل» : «كانت زبيدة أم الأمين تُكرم طيمثاوس كثيراً ، وتميل إلى النصارى وتستخدمهم ، وأخرجت توقيع الرشيد بإعادة المستهدم من الدير وتوسيعه ، وعملت أعلام الشعانين وصلباناً من ذهب وفضة ، وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع ، وعضدت جبريل الطبيب»[١٠٥] . وكان جبريل بن بختيشوع أمين سر الأمين . غير أن الحرب بين الأخوين ، الأمين والمأمون ، جعلت عواميد الكنائس في محلة الشماسية[١٠٦] (الصليخ حالياً) حجارة للمنجنيق[١٠٧] . ومن المواقف التي أكرمت زبيدة عليها الجاثليق طيمثاوس أنه كان السبب في عودتها زوجةً للرشيد بعد طلاق بالثلاث لا يجوز الرجعة عنه إلا بمحلل . «فعرف طيمثاوس صعوبة ذلك على الرشيد ، أشار بأن تتنصر على يده ، فيوجب عليها القتل ، وترجع تسلم فتحل له . وأمضى ذلك الفقهاء»[١٠٨] .

أشارت توجيهات الخلفاء لإعادة إعمار الكنائس والأديرة إلى اختلاف مواقفهم إزاء قرارات سابقة ، التي فرضها عمر بن الخطاب ، وقيل عمر بن عبد العزيز ، والقاضية بعدم إعمار ما باد أو خرب من الكنائس والأديرة . وأشارت في الوقت نفسه إلى الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون ، ومن مظاهرها المؤذية هدم دور عبادتهم . فقد كثرت الروايات المسيحية من ذكر توقيعات الرشيد بإعمار ما هدم من الكنائس والأديرة . فيذكر أن الجاثليق طيمثاوس «نال من الخليفة الرشيد في نحو سنة ٧٩٠ (ميلادية) ، وبعد ست مقابلات مع الخليفة السماح بإعادة بناء الكنائس المدمرة»[١٠٩] . بينما حصل ، قبل ذلك ، أن أمر والده

---

(١٠٥) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص١٢٠ .

(١٠٦) راجع بحث روفائيل بابو إسحق ، محلة الشماسية ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، مجلة سومر ، العدد التاسع ١٩٥٣ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(١٠٨) مجلة بين النهرين ، العدد ٤ / ١٩٧٦ عن المجدل .

(١٠٩) الدومنيكي ، الآثار المسيحية في الموصل ، ص ٢٨ .

المهدي «بهدم جميع الكنائس المسيحية المشيدة بعد الفتح العربي»[١١٠] . ومن الاضطهادات أيام المهدي «لم يكن الرهبان يستطيعون الظهور في الشوارع (بالموصل) دون التعرض للإهانات ، ولقد هدمت كنائس . . . في البصرة وبغداد»[١١١] . ومع تسامح عبد الله المأمون «مع المسيحيين عامة ، ففي عهده تجددت الأديرة ، إلا أن قاضي الموصل الحسن بن موسى الأشيب رفض إعادة بناء إحدى الكنائس المهدمة»[١١٢] .

ظلت أحوال المسيحيين ، حتى نهاية الدولة العباسية ، خاضعة لإرادة الخلفاء والولاة والقضاة والمحتسبين ، دون أن تكون هناك ضوابط واضحة . وساير أغلب هؤلاء سلوك العامة ، ونشدوا تأييد الحنابلة على وجه الخصوص بممارسة التضييق على أهل الذمة . فالخليفة أو الوالي يهدم الكنائس ، وهو نفسه يرخص بإعمارها ، والمتشدد ينفذ فيهم أحكام العمريًن ، ابن الخطاب أو ابن العزيز ، وهذا ما تحقق بشدة على يد جعفر المتوكل (ت ٢٤٧هـ) . وتنقسم هذه الأحكام إلى فئتين : أساسية وغير أساسية . الأساسية : خرق العهود ، فيستباح دم الخارقين . و«كل تهجم وإن كان بالأقوال على المسلمين ، أو على القرآن ، أو على النبي ، واهتداء مسلم (أن يتحول عن دينه بفعل ترغيب ذمي) ، وظلم يقترف ضد مسلم أو أمواله ، وكل صلة بامرأة مسلمة للزواج أو الفجور ، ومساعدة أعداء المسلمين»[١١٣] .

وكل هذه الخروقات تستوجب القتل . معنى هذا أن المسيحي أو اليهودي ومثلهما الصابئي المندائي كان محكوماً بسبعة أحكام بالقتل ، فكم كان الظرف دقيقاً ومحرجاً بالنسبة للكنيسة الشرقية في حال وجود خليفة يقرر تنفيذ تلك الأحكام! التي عُرفت بالشروط العمرية .

والأحكام غير الأساسية : قرع النواقيس ، وتلاوة المزامير علناً ، وبيع الخمور والخنازير ، وعرض الصلبان أمام الأنظار ، وتشييد بناء أعلى من بناء المسلمين ، والاحتفال العلني بالمآتم أو الأعياد ، وركوب الخيل واستعمال السروج ، واتخاذ ألقاب إسلامية ، وترك لبس الزنار والغيار الخاص بأهل الذمة»[١١٤] . وتضمن كتاب ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ، كل الأحكام المذكورة وأحكام أخرى منها : منعهم من لبس العمائم . لأن «العمائم تيجان العرب ، وعزها على سائر الأمم من سواها ، ولبسها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والصحابة من بعده ، فهي لباس العرب قديماً ولباس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

---

(١١٠) المصدر نفسه ، عن ابن العبري ، التاريخ السرياني .

(١١١) المصدر نفسه .

(١١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

(١١٣) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص١٧٤ .

(١١٤) المصدر نفسه .

والصحابة فهي لباس الإسلام»[115] . وينقل عن الرسول إنه قال في شأن لباس الرأس : «فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس»[116] . ووصل الأمر إلى التمييز في النعال . ورد في الحديث «ولا نعالهم تشبه نعال المسلمين» . ولكي تُعرف المرأة أنها ذمية أن يكون «أحد خفيها أحمر»[117] . وبالغ بعض الفقهاء في إهانة أهل الكتاب بمناداتهم بديانتهم فيقال : يا مسيحي أو يا صليبي . ويقال : يا يهودي أو يا إسرائيلي[118] . وابن قيم لامَ زمانه لأن فيه تصدر أهل الكتاب المجالس ، ويُقام لهم[119] .

لم يقتصر الاضطهاد أيام المتوكل على تطبيق تلك الأحكام بل سعى وزيره إلى تكليف أشهر كُتاب العصر العباسي والعصور التالية ، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، إلى تأليف كتاب ضد المسيحية . قال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) : إن الفتح بن خاقان كتب إلى الجاحظ كتاباً جاء فيه : «إن أمير المؤمنين يجدُ بك ويهشُّ عند ذكرك . ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه . ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كفَّ بها عن تجشيمك ، فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنة واعكف على كتاب الرد على النصارى ، وافرغ منه وعجل به إليَّ . وكن ممن حدا به على نفسه لتنال مشاهرتك . وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة . وهذا مما لم تحتكم به نفسك»[120] . أتهم الجاحظ في كتاب «الرد على النصارى» المتكلمين المسيحيين ، وأعيانهم بنشر كتب الفرق الأخرى بين المسلمين . قال : «لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المثانية والديصانية والمرقونية والفلانية . ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه ، صلى الله عليه وسلم . ولكانت تلك الكتب مستوردة عند أهلها»[121] .

ومن كُتب الخلفاء في تعيين الجثالقة ، حسب مصالح الدولة أو موقف الخليفة الشخصي ، كتاب أو توقيع القائم بأمر الله (ت ٤٤٧هـ) القاضي بتعيين الجاثليق عبد يشوع الثاني ، ونصه : «أوعز ترتيبك جاثليقاً لنسطور النصارى في مدينة السلام والأصقاع . وزعيماً

---

(١١٥) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٧٣٩ .

(١١٦) المصدر نفسه .

(١١٧) المصدر نفسه ،٢ ص٧٦٤ - ٧٦٥ .

(١١٨) المصدر نفسه ،٢ ص٧٧١ .

(١١٩) المصدر نفسه .

(١٢٠) الحموي ، معجم الأدباء ٥ ص٢١١٤ - ٢١١٥ .

(١٢١) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، المختار من كتاب الرد على النصارى ، ص ٢٠ .

لهم والروم واليعاقبة طراً ، وكل ما تحويه ديار الإسلام من هاتين الطائفتين ، ممن بها يستقر وإليها يطرأ . وجعل أمرك ممتثلاً»[١٢٢] . وفي مراسم أخرى يُذكِّر رئيس النصارى أو اليهود ببطلان دينه بعد ظهور الإسلام ، كما سلف ذكره في الفصل السابق . وكتب صاحب ديوان الجوالي ، محمد بن يحيى بن فضلان (ت٦٣١هـ) في رقعته ، التي سيأتي نصها لاحقاً ، إلى الخليفة الناصر بالله (ت٦٢٢هـ) يحرضه فيها على تطبيق اجراءات سابقة في أهل الذمة ، موكداً فرضها من قبل عمر بن الخطاب ، وأول من طبقها عليهم بشدة المتوكل . وآخر مَنْ طبقها الخليفة المقتدي (ت٤٨٧هـ) «فعلق في أعناقهم الجلاجل ، ونصب الصور والخشب على أبوابهم ، لتتميز بيوتهم عن بيوت المسلمين . وأن لا يستوي بنيانهم بنيان المسلمين . وألبس اليهود لبس الغيار والعمائم الصفر . وأما النساء فالأزر العسلية ، وأن تخالف المرأة منهم بين خفيها ، واحد أسود والآخر أبيض ، وأن يجعلنَّ في أعناقهنَ أطواقاً من حديد ، إذا دخلنَ الحمامات . وأما النصارى فلبس الثياب الدكن والفاختية ، وشد الزنانير على أوساطهم ، وتعليق الصلبان على صدورهم . وإذا أرادوا الركوب لا يمكنون من الخيل ، بل البغال والحمير بالبراذع دون السروج ، عرضاً من جانب واحد»[١٢٣] .

كان الخلفاء والوزراء يحاولون كسب المذاهب السائدة والمهيمنة على العامة ، مثل المذهب الحنبلي أو الشافعي الشديدين على أهل الذمة . حدث مثل هذا في أزمة الخلافة عقب فشل انقلاب عبد الله بن المعتز ضد المقتدر بالله السنة ٢٩٦هـ . فتقرر عدم استخدام «أحد من اليهود والنصارى إلا في الطب والجهبذة فقط ، وأن يطالبوا بلبس العسلي ، وتعليق الرِّقاع المصبوغة بين أظهرهم»[١٢٤] . غير أن المسيحيين ، وأهل الذمة عامة ، أثبتوا وجودهم عن طريق إتقان المهن ، التي عزف عنها العرب المسلمون ، بداية من الطب والهندسة والترجمة إلى الصياغة والحدادة والزراعة ، وأعمال الخدمة المتنوعة الرفيع منها والوضيع . وهي تتراوح بين الطبابة والكتابة والتنظيف ، وأثر ذلك ما زال بائناً ببغداد والبلاد العراقية الأخرى .

قال ابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ) معللاً ومحارباً هذه الظاهرة بما يخص اختصاص أهل الذمة في الطب : «هو من فروض الكفاية ، ولا قائم به من المسلمين . وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة . ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الطب . ولا نرى أحداً يشتغل به ويتهافتون على علم الفقه ، لا سيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع . فليت شعري كيف يرخص

---

(١٢٢) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ، ص ٣٨ ، عن ماري ، المجدل ، ص ١٣٥ .

(١٢٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة (منسوب) ، ص٦٤ - ٧٠ .

(١٢٤) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ٣ ص١٦٥ .

الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال ما لا قائم به ، هل لهذا سبب؟ إلا أن الطب ليس يتوصل به إلى تولي القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط على الأعداء»[125] .

لكن كيف يرى ابن الأخوة المحتسب ، وهو الفقيه ، الشافعي والأشعري ، كما يتضح من مادة موضوع كتابه ومقدمته ، الشهادة في مسببات القتل إذا لم تؤخذ شهادة الطبيب بنظر الاعتبار؟ وابن الأخوة لم يكن شديداً على أهل الذمة حسب بل كانت شدته على المرأة أكثر من ذلك . نقل في كتابه «معالم القربة في أحكام الحسبة» أحاديث تمنع تعلمها «ولا يعلم الخط امرأة ولا جارية . فقد ورد النهي بذلك لقوله صلعم : لا تعلموا نساءكم الكتابة»[126] ، ووصف المرأة المتعلمة «كمثل حيّة تُسقى سمّاً»[127] . حكم بهذا ولم يدر بخلده أن مؤسس مذهبه تعلم في مجلس الست نفيسة بمصر ، وأوصى أن تُصلي على جنازته دون الرجال (سيأتي تفصيله في الفصل السابع من الكتاب) .

وقبل ذلك أشار صاحب الجوالي ابن فضلان (غير صاحب الرحلة المشهور في خلافة المقتدر بالله العباسي في القرن الرابع الهجري) إلى ظاهرة منافع أهل الذمة ، من دون ذكر فضل لهم . قال : «ومنهم الأطباء أصحاب المكاسب الجزيلة ، بترددهم إلى منازل الأعيان وأرباب الأحوال ، ودخولهم على المتوجهين في الدولة . والناس لا يتحملون فيما يعطون الطبيب رائداً على القدر المستحق ، وهو أمر من قبل المروءات . فلا ينفكون على الخلع السنية والدنانير الكثيرة ، والطرف في المواسم والفصول ، مع ما يحيطون في المعالجات ، ويفسدون الأمزجة والأبدان ، ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين (من كتاب الطب) وخمس قوائم من تذكرة الكحالين ، وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة»[128] .

ورد في رقعة ابن فضلان ، وهو يترأس ديوان أهل الكتاب ، جور على قوم ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية ، وعمروا مجالس المناظرة والفكر بالفلسفة والثقافة العالية . لم يكن اتقانهم الطب والعلوم تجاوزاً لعهد حصلوا عليه منذ ظهور الإسلام . وظلوا يحلبون بالجزية ويذلون بالتعدي على هويتهم الدينية . ومع ذلك واصلوا خدمة هذه البلاد وحاولوا خلق أجواء للتعايش مع المسلمين . وهم يعرفون تماماً أن الجزية مضى عهدها . والأصل فيها جز الصوف ، ناهيك من تسمية ديوانه (الجوالي) الذي يشير إلى هؤلاء بالغرباء أو النزلاء مع أنهم من سكان البلاد الأصليين!

---

(١٢٥) ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٦٦ .

(١٢٦) المصدر نفسه ، ص١٧١ .

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص١٧٢ .

(١٢٨) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٦٤ - ٧٠ .

شهد العراق حضوراً مميزاً للأطباء المسيحيين ، وأول هؤلاء كان الطبيب تياذوق ، طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي (ت٩٥هـ) . وكان «فاضلاً وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب»[١٢٩] . وكان قد «شفى الحجاج من أكل الطين»[١٣٠] . وخدم جورجيس بن جبرائيل أبا جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ) ، وكان حظياً عنده وترجم له كتباً عديدة ، استدعاه المنصور من جند نيسابور العام ١٤٨هـ لعلاجه من فساد معدته وانقطاع شهوته[١٣١] .

ظل الطبيب ابن جبرائيل متمسكاً بدينه ، ولم يقبل هدية المنصور من الجواري ، ودعوته إلى الإسلام ، فحصل أن سأله المنصور عن زوجته ، فقال : «كبيرة ضعيفة لا تقدر تنتقل إلي من موضعها» ، فأمر خادمه «أن يختار من الجواري الروميات الحسان ثلاثاً ، ويحملهن إلى جورجيس» . إلا أن الأخير أنكر ذلك واعتذر للخليفة حين سأله عن سبب عدم قبول الهدية «هؤلاء لا يكونن معي في بيت واحد . لأنا معشر النصارى لا نتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها»[١٣٢] . وحاول المنصور أن يدخله إلى الإسلام ، وهو يهم بالعودة إلى أهله بعد تمكن الشيخوخة منه «إتق الله وأسلمْ وأنا اضمن لك الجنة! أجابه الطبيب : «أنا على دين آبائي أموت ، وحيث يكونَ آبائي أحب أن أكون ، أما في الجنة أو في جهنم»[١٣٣] .

كان أبو قريش عيسى ، الصيدلاني والطبيب أيام المهدي ، مقرباً عند الخيزران كما تقدمت الإشارة . فهو طبيبها الخاص ومبشرها في حملها بولدها البكر موسى الهادي . وطبيب الهادي كان عبد المسيح بن جورجيس ، استقدم باستشارة مجمع أطباء القصر ، ومعظمهم من المسيحيين . لكن «الطبيب أبا قريش والخيزران يحسدانه ، فعاد إلى جند نيسابور ، ولما مرض هارون الرشيد أرسل مَنْ يأتي به . وقد اختبره الخليفة ببول دابة ليفحصه»[١٣٤] . وخدم بعده ولده جبرائيل البرامكة بتوصية من والده . قال : «ابني جبرائيل أمهر مني ، وليس في الأطباء من يشاكله»[١٣٥] . وأصبح بعدها طبيب الرشيد الخاص ، فكانت منزلته من العلو أن قال الخليفة فيه : «كل من كانت له إليَّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل . لأني أفعل ما يسألني فيه ويطلب مني»[١٣٦] . وظلت عائلة جورجيس الأول تتولى

---

(١٢٩) ابن أبي إصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص٣٢ .

(١٣٠) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(١٣١) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(١٣٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(١٣٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(١٣٥) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(١٣٦) المصدر نفسه .

مهام الطبابة في البلاط العباسي أباً عن جد ، فكان بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع طبيب الواثق والمتوكل . لكن الأخير نكبه بعد أن رفع شأنه . قيل : «كان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش»[١٣٧] . ومن الكحالين (أطباء العيون) ماسويه أبو يوحنا . وكانت بدايته في البلاط العباسي «العلاج خادم للفضل بن الربيع الوزير وبانو أخت الرشيد»[١٣٨] . ثم استلم من بعده أمور طبابة العيون ابنه يوحنا ، الذي كان بالأصل شماساً في الكنيسة . وعُتب لما شذ عن تقاليد دينه متخذاً الجواري . قيل له : «خالفت ديننا وأنك شماس . فأما أن كنت على سنتنا ، واقتصرت على امرأة واحدة وكنت شماساً لنا ، وأما خرجت نفسك من الشماسية ، واتخذت ما بدا لك من الجواري»[١٣٩] . هذا ورقعة ابن فضلان وما أورده ابن الأخوة في «معالم القربة» يكفيان الإشارة إلى استمرار حصر مهنة الطب بين أهل الذمة ، وأغلبهم من المسيحيين ، حتى نهاية الدولة العباسية .

المسيحية والمغول

قبل دخول المغول بغداد (١٢٥٨م) كان ظرف المسيحيين بالعراق ، وغيره من بلاد الشرق ، محرجاً بسبب الحروب الصليبية . من مظاهر ذلك أن أرسل صلاح الدين الأيوبي السنة ١١٨٩ميلادية صليب قبة الصخرة بالقدس إلى الخليفة العباسي «الذي كان من البرنز الموشى بالذهب ، ودفن عند مدخل باب بغداد المسمى بالنوبي الشريف . وكان جزء منه ظاهراً ، بحيث يتسنى للمارين أن يطؤوه بأقدامهم ، وأن يبصقوا عليه»[١٤٠] . وذكر ابن العبري : «اعتادت السلطات الحاكمة أن تمنح رضاها للبطريرك الجديد عن طريق المزايدة ، التي ارتفعت إلى أربعين ألف دينار»[١٤١] . وكانت المسيحية قد وصلت عبر العراق إلى الهند وما وراء النهر ، فاعتنقها الكثير من المغول ، حتى أن مغولياً مثل يهبالاها (القرن الخامس الميلادي) نصب جاثليقاً للكنيسة الشرقية . وفي فترة متأخرة نصب يهبالاها الثالث (١٢٨١ - ١٣١٧) جاثليقاً أيضاً . وأن الجيش المغولي ، الذي اجتاح بغداد ، يتكون من جنود يدينون بالمسيحية . وكانت زوجة هولاكو ، دقوز خاتون مسيحية أيضاً . فعملت «ما بوسعها للذود عن المسيحيين»[١٤٢] .

---

(١٣٧) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(١٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(١٣٩) المصدر نفسه .

(١٤٠) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص ٢٦٠ .

(١٤١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .

(١٤٢) المصدر نفسه ٣ ص٧ .

وحسب الأب الدومنيكي أن تعاطف المغول مع المسيحيين يعود إلى أسباب عديدة . منها «عقلية المغول التي تميل بطبيعتها إلى الخرافات ، وتأثير النساء المسيحيات ، والمصلحة السياسية»[١٤٣] . فغير المسيحيين منهم كانوا يسمون أولادهم بأسماء مسيحية ويعمدونهم . «إذ يرون في العماد طقساً سحرياً ، تفيد ممارسته أكثر من نظرهم إلى حقيقته الأساسية . وعند قراءتنا تاريخ المغول قد يقودنا التفكير إلى عالم الغجر اليوم ، الذين تمتزج مسيحيتهم بخرافات كثيرة جاءتهم من أجدادهم»[١٤٤] .

يضاف إلى تلك الأسباب التي جعلت المغول يتعاطفون مع المسيحيين صلات البابوية مع خاناتهم ، بعد أن اصبحوا قوة عظمى تتساقط البلدان والقلاع المحصنة أمامهم ، وهم في طريقهم إلى بغداد . فقد أرسل البابا اينوشنسيوس العام ١٢٤٨ميلادية ، أي قبل اجتياح بغداد بعشر سنوات ، رسالة يدعوهم فيها إلى اعتناق المسيحية[١٤٥] . وقد وعدَ الخانات بإعفاء المسيحيين من الجزية ، التي صورتها المصادر بالعبودية ، وأن يحرروا من السخرة والضرائب والمظالم الأخرى . و«يجب أن يحترموا ويكرموا ، وان لا يُتعرض لممتلكاتهم ، وأن يعاد بناء الكنائس المدمرة . وأن تقرع الدفوف الخشبية بحرية وألا يتجاسر أحد فيمنع المسيحيين من الصلاة»[١٤٦] .

كانت والدة الأمير مانكوخان (أخو هولاكو) مسيحية ، فمال إلى أخواله مدفوعاً من وزيره النسطوري ، ولم يتردد في منح الجاثليق النسطوري مار مليخا[١٤٧] (ت ١٢٦٥م) ، بعد دخول بغداد ، «ختماً ذهبياً يُتيح له إصدار الوثائق الرسمية إلى جميع المؤمنين الخاضعين له . وتكون هذه الوثائق مقبولة لدى السلطات المغولية»[١٤٨] . لكن الجاثليق لم يحسب حساب المستقبل والوضع المؤقت ، والعلاقة الدائمة مع مَنْ حوله من المسلمين ، فقبل هدية ابن هولاكو الأمير قرابوغا وسكن دار الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي ، الواقعة على شاطئ دجلة . «ودق الناقوس على أعلاها ، واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً (مكان للمتصوفة) للنساء تجاه هذه الدار المذكورة ، وعلى الرباط البشري المجاور لها . وهدم الكتابة التي كانت على البابين ، وكتب عوضها بالسرياني»[١٤٩] .

---

(١٤٣) الدومنيكي ، الآثار المسيحية في الموصل ، ص ٥٨ .
(١٤٤) المصدر نفسه .
(١٤٥) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .
(١٤٦) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .
(١٤٧) هكذا ورد اسمه في الحوادث الجامعة ، وفي المصادر الحديثة ورد مكيخا .
(١٤٨) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص٢١ .
(١٤٩) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

أصبحت الدار المذكورة محط صدامات بين المسيحيين والمسلمين . ورد في الكتاب الذي عُرف بـ «الحوادث الجامعة» ونُسب إلى ابن الفوطي ، أن قبض الجاثليق ، السنة ٦٦٣هـ ، على مسيحي أسلم من أهل بغداد «فاعتقله بداره المعروفة بالدويدار الكبير على شاطئ دجلة . وعزم على تغريقه ، فبلغ العوام ذلك ، فاجتمعوا ونهبوا سوق العطارين برأس درب دينار ، وغيره من محال بغداد والنصارى ، وحصروا الجاثليق وأحرقوا باب داره ، وقاتلوا أصحابه . فنزل في سفينة ، وقصد صاحب الديوان علاء الدين واستجار به ، فأمر الكحلية بكف العوام . . .ثم أن الجاثليق توجه إلى الأردو الأشرف ، وعاد إلى أربل وبنى بقلعتها بيعة . ثم قدم بغداد وأقام بها إلى أن مات... ورتب محله مار دنحا الأربيلي»[١٥٠] . كان تصرف الجاثليق غير حكيم ، فالحكمة أن يستغل الظرف ليعلن تعاطفه مع المسلمين ، لا يضع ناقوساً فوق دار إسلامية يذكر استخدامها من قبله بالاجتياح المغولي المؤذي جداً للمسلمين ، فقد اسقط الخلافة العباسية ، وقتل الخليفة وأبناءه والفقهاء ، وعلى وجه الخصوص الحنابلة منهم .

لم تدم السطوة المسيحية في العصر المغولي طويلاً ، فما هي إلا سنوات وبعثت من جديد أحكام المتوكل والمقتدي وغيرهما من الخلفاء ، وهذه المرة بيد الحكام المغول أنفسهم . حدث ذلك بعد إسلام الحاكم المغولي غازان (ت ١٣٠٣م) «بو اسطة نائبه نورز ، وسمي غازان ، وبه انتشر الإسلام بين المغول . واصدر أمراً في دعوة المغول إلى قبول الإسلام . وأن يحكموا بالعدل بين الناس . وأن تُقوض دور الأصنام والكنائس ومعابد المجوس ، وتحول البيع إلى مساجد . وأمر بإلزام أهل الذمة بلبس الغيار . فكانت علامة النصارى شد الزنار في أوساطهم ، واليهود خرقة صفراء في عمائمهم . وداموا على ذلك شهوراً . . . وتقدم السلطان بأخذ دار علاء الدين الطبرسي ، الدويدار الكبير ، من النصارى ، وكانت بأيديهم منذ استيلاء المغول على بغداد ، وأُزيل ما بها من التماثيل والخطوط السريانية . واستُعيد الرباط الذي تجاه هذه الدار المعروف بدار الفلك ، وكان النصارى قد جعلوه مدفناً لأكابرهم ، فأُزيلت القبور منه ، وصار مجلساً للوعظ»[١٥١] .

وأسلم بعد غازان أخوه الجايتو (ت ١٣١٦م) ، وكان مسيحياً ، وله اسم بالعماد ، الذي عادة يسمى على أسماء القديسين . وكان يدعى نيقولاوس «فأسلم وسمّى نفسه محمد خدابنده ، وتبنى المذهب الجعفري»[١٥٢] . وعاد اضطهاد المسيحيين واليهود في زمن ولده أبي

(١٥٠) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ .

(١٥١) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص١٦ .

(١٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

سعيد بهادر (١٣٣٥م) ، ففي أيامه «أُلزمت النصارى واليهود في بغداد بلبس الغيار ، ثم هُدمت كنائسهم ودياراتهم ، واسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير . وجعل بعض الكنائس جوامع للمسلمين ، وشرع في عمارة جامع بدرب دينار ، وكان بيعة كبيرة جداً»[١٥٣] .

وفي العهد الجلائري (١٣٣٧ - ١٤١١) ، الذي حل محل العهد الايلخاني ، انخفض إيراد الجزية ببغداد ، بعد تراجعه في أواخر العهد السابق «بزيادة عدد الذين يدخلون منهم في الإسلام ، تخلصاً من المضايقات ، ولجوء قسم منهم إلى منطقة الجزيرة وغيرها»[١٥٤] . وفي هذا العهد عاد الاضطهاد الديني من جديد وأُلزم أهل الذمة «بالغيار ، وهدمت كنائسهم ودياراتهم ، وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير ، منهم سديد الدولة ، وكان ركناً لليهود»[١٥٥] .

ومن المواجهات مع المسيحيين ، وهم تحت الحماية المغولية بعيداً عن بغداد ، أن احتفل مسيحيو أربيل (السنة ١٢٧٤م) بعيد الشعانين رافعين الصلبان على أسنة الرماح ، يتبعهم رجال الدين بموكب مهيب ، فاصطدم معهم المسلمون ورموهم بالحجارة عند قلعة أربيل ، «فظل المسيحيون أياماً لا يجسرون (على) الخروج علناً»[١٥٦] . لكن تغير الحال بعد مرور عام واحد على الحادث ذلك بتولي الحكم بأربيل والموصل مِن قِبَل حاكم مسيحي يدعى مسعود برقوطي[١٥٧] .

مع العثمانيين

ظل حال المسيحيين ، وبقية أهل الذمة ، كما هو عليه متأرجحاً بين الشدة والفرج أوان الدول المتعاقبة على حكم العراق . وأخرها كان الدولة العثمانية (١٥١٢ - ١٩١٨) . إلا أن رجال الدين ، من قساوسة ورهبان ، دفعتهم الضرورة إلى مداهنة الولاة ، من الذين لا يهمهم غير كسب المال مقابل بناء كنيسة أو السماح بتنصيب بطريرك ، أو ممارسة الطقوس والاحتفال في الأعياد . «ولم يتدخل الأتراك في ترددهم إلى الكنيسة ، ولا في إقامتهم للشعائر النصرانية بأكثر من فرض رسم للدخول عند ذهابهم لكنائسهم»[١٥٨] .

---

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

(١٥٤) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص٩٧ .

(١٥٥) المصدر نفسه .

(١٥٦) نباتي ، تاريخ عينكاوة ، ص ١٣٢ .

(١٥٧) المصدر نفسه .

(١٥٨) لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ١١٣ .

عاش المسيحيون في الدولة العثمانية بشكل عام «في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان في الولايات الأخرى . فبغداد كانت عالمية إلى حد أنها لا تشجع شيوع التعصب . يضاف إلى ذلك أن هذه الأقليات كانت تسلك سلوكاً حسناً . كما كان الناس قد ألفوهم نظراً لطول إقامتهم ، ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي الناس . إلا أنه كان من المنتظر أن يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم ، كما كان الأمر في دمشق والقاهرة . فربما كان من المحذور عليهم امتلاك الرقيق الأبيض أو يركبوا الخيل ، لأن حصتهم من هذه الأصناف كانت العبيد والزنوج والحمير . على أن التحقير الأعظم الذي كان يقضي بعدم الركوب مطلقاً أو بالنزول عند مرور سيد من السادة كان لا يؤتى إلا قليلاً»[١٥٩] .

من أخبار ولاية البصرة ، وهي مركز جنوب العراق ، الإيجابية تجاه المسيحيين ، اضطرار السلطان العثماني إلى استحداث منصب معاون الدفتردار ، أو زير المالية في الولاية . و«كان يفترض أن لا يشغل هذا المنصب إلا المسيحيون»[١٦٠] . وأن يُكلف ناصر باشا آل سعدون مؤسس مدينة الناصرية الحديثة ومتصرفها من قبل مدحت باشا في السبعينيات من القرن التاسع عشر ، الشخصية المسيحية المعروفة نعوم سركيس بتخطيط وإنشاء مدينة الشطرة ، وهو «من الذين يثق بهم»[١٦١] ، فأصبح «ملتزماً لمقاطعات في أنحاء المنتفك وملاكاً فيها»[١٦٢] . وظل ولده يعقوب مدة «أربعين سنة أو نحوها يخرج في كل سنة إلى أنحاء الشطرة والحي وقلعة سكر والناصرية ليعيش أشهراً في الخيام أو الدور القروية متعهداً أملاكه وزراعته»[١٦٣] . وكان الرؤساء الروحانيون للطوائف غير الإسلامية ممثلين في مجلس الولاية ، وهو بمقام «الهيئة الاستشارية ، ويشترك في مناقشة جميع القضايا المتعلقة بإدارة المنطقة»[١٦٤] . ما تقدم كان مجرد أمثلة على انفتاح العهد العثماني ، وتجاوز ما كان يترتب على أهل الذمة من قيود بسبب الدين .

وفي أحوال تلك الفترة أفاد تقرير المطران بابيه عمانوئيل ، أسقف بغداد (١٧٤٢م) إلى البابوية بروما ، إعطاء صورة مقاربة لوضع المسيحيين ، وبالأخص الكاثوليك منهم ، في تلك المرحلة . وصاحب التقرير ولد بفرنسا ، وأُوفد إلى العراق العام ١٧٢٨ ، واصبح أسقفاً للكاثوليك ببغداد ، وظل في منصبه الديني حتى وفاته بمرض الطاعون ، الذي اجتاح العراق

---

(١٥٩) المصدر نفسه .

(١٦٠) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص٧٦ .

(١٦١) المصدر نفسه ، ص٥١ .

(١٦٢) بصري ، أعلام الأدب في العراق ١ ص٢٧٠ .

(١٦٣) المصدر نفسه .

(١٦٤) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص٧٧ .

السنة ١٧٧٣[١٦٥] . أشار التقرير إلى أن مسيحيي بغداد كانوا من القلة ، وربما يتناسب ذلك مع قلة سكانها . ولعل بغداد التي يعنيها صاحب التقرير هي المحصورة بين الباب المعظم والباب الشرقي والكرخ ، فمجموع مسيحييها كان (١٣٠) عائلة من أرمن وسريان ونساطرة وكاثوليك ، وليس بينهم غير خمسة أفراد أو ستة يعرفون القراءة والكتابة . لذا قام المطران المذكور بفتح مدرسة للتعليم ، والتعليم الديني والموسيقى الكنسية . وبلغ مجموع مسيحيي مدينة الموصل حوالى ألف عائلة ، نصفهم من النساطرة والنصف الآخر من السريان ، ولا يزيد الكاثوليك فيها على عشر عائلات .

واجتمعت بدهوك (٣٠) عائلة كاثوليكية ، ولهم كنيسة خاصة بهم . وهناك (٢٠٠) عائلة في قرية باطنايا ، و(٥٠٠) عائلة بتلكيف ، بينها (١٥٠) عائلة كاثوليكية . وقرى كثيرة أخرى خاصة بالسريان والنساطرة . وكانت تعيش بالبصرة ثماني عائلات كاثوليكية وأربع من طائفة أخرى ، إرتفع عددها سريعاً إلى (٢٠٠) عائلة ، أغلبها من الأرثذوكس ، وذلك بسبب هجرة الأرمن من إيران إلى البصرة أيام نادر شاه . ووجد المطران بابيه بكركوك (٤٠) عائلة نساطرة . وعائلات أخرى كثيرة متفرقة بالقرى والأطراف لم يتمكن من زيارتها وإحصائها . وإجمالي عدد المسيحيين آنذاك في أبرشية ديار بكر ، التابعة حالياً لتركيا(٤٠٠) ألف نسمة ، منهم (١٠٠)كاثوليكي .

قدم التقرير صورة واضحة عن ابتزاز ولاة عثمانيين للمسيحيين ، واستغلال الخلافات المذهبية فيما بينهم . يحصل ذلك على الرغم من الانفتاح العثماني تجاههم . دفع هذا الواقع المسيحيين إلى التنافس في زيادة الرشاوى من أجل بناء كنيسة ، أو خلعها من أصحابها وتمليكها لآخرين . مثال ذلك حث الوالي النساطرة على استرجاع كنيستهم (التي أعطيت قبل عام إلى الأرمن مقابل مبلغ من المال) ، فأدوا ما طلب منهم لاسترجاع الكنيسة ، وهم في آشد أحوال البؤس من جراء الغرامات والضرائب المتزايدة . لكن ذلك لم يدم غير عام أو عامين ، فحاجة الوالي إلى المال تجعله يطلب من الأرمن أن يطالبوا بالكنيسة مرة أخرى ، وهكذا تستمر لعبته كلما تفاقمت واشتدت الصراعات المذهبية .

نختم الحديث حول تقرير مطران بغداد ، الفرنسي الموطن والكاثوليكي المذهب ، بكلمته عن بغداد عصرذاك . قال : «بغداد من المدن الشهيرة جداً إذ كانت عاصمة دولة . أما الآن فهي ولاية خاضعة للسلطنة العثمانية . وهي واسعة جداً إذ تشمل مناطق عديدة هي كلدة وما بين النهرين ، وقسماً من البادية العربية ، وتمتد حدودها إلى بلاد فارس وإلى ديار بكر شمالاً ، وتشمل منطقة مادي شرقاً ، وهي المعروفة بكردستان . ورغم أن هذه الولاية

---

(١٦٥) مجلة بين النهرين العدد ١٩٨٣/٤٣ .

الواسعة خاضعة للدولة العثمانية ، إنما في الواقع يعتمد ولاتها على قوتهم الخاصة ، ويتناوبون الحكم في أسرة واحدة بطريقة أشبه ما تكون بالوراثية»[١٦٦] . تؤكد هذه الكلمة التي أتت من شاهد عيان ، قبل حوالى ثلاثة قرون ، أن العراق ، الذي مركزه بغداد ، أنه الأرض التي هو عليها الآن مع امتداد إلى ديار بكر والأهواز ، وكردستان الحالية كانت جزءاً منه .

يذكر المسيحيون العراقيون فضل أسرة الجليليين المسلمة بالموصل ، التي كانت تسعى لحمايتهم من حملات الصفويين ضدهم ، وفي حروبهم مع العثمانيين . ففي حصار السنة (١٧٤٣م) ، الذي قام به نادر شاه على الموصل ، قتلت قواته عدداً كبيراً «من المسيحيين . واستولت الأيزيدية على الأديرة ونهبتها ، وقتلت رهبانها . منها دير مار أوراها القريب من بلدة باطنايا في سهل الموصل . فأصاب الهلع أهل القرى ، والتجأوا إلى الموصل ، حيث استقبلهم الحاج حسين باشا الجليلي ، وشجعهم وجهزهم بالمؤن والأسلحة»[١٦٧] . وبسبب الخلاف المذهبي الحاد لم يسلم أهل السُنَّة من اضطهاد نادر شاه الشيعي .

وتأثراً بالحكايات العجيبة حول ظهور العذراء مريم ، وحمايتها للمدينة عبر أشخاص سماويين ردوا قذائف الصفويين إلى نحورهم من على سطح كنيسة العذراء ، شجع الحاج حسين الجليلي حملة تجديد الكنيسة . وأكثر من هذا أنه «جدد ورمم على نفقته الخاصة ثماني كنائس في الموصل ، منها كنيسة العذراء الطاهرة العليا والطاهرة السفلى»[١٦٨] . وتدخل الجليليون لحماية مسيحيي قرقوش من الجيش الصفوي ، فطلبوا من سكانها «أن يحملوا كل ما يعز عليهم ويتوجهوا إلى الموصل قبل عبور نادر شاه وعساكره إلى قرقوش»[١٦٩] . تجاوز أمراء الموصل بهذه المواقف النبيلة كل حكم أصدره خليفة أو والٍ مسلم ضد أهل الذمة . بداية من عمر بن الخطاب وانتهاءً بإجراءات المغول بعد إسلامهم . فقد عبروا بذلك عن نصوص القرآن الإيجابية من المسيحيين . كان آل الجليلي من أغنياء الموصل ، وحصلوا على مركز ولايتها ، ليستمر حكمهم فيها فترة طويلة تمتد لأكثر من مئة عام (١٧٢٦ - ١٨٣٤) .

عموماً ، لم نقرأ عن تطبيقات عثمانية خاصة بأهل الذمة ، من شروط الملابس الخاصة أو تحديد مستوى البناء إلى هدم كنائس وغير ذلك . والأمر ربما يرتبط بتبدل الزمن ، وتقدم العثمانيين الحضاري قياساً بمن سبقهم من الملوك والحكام ، ووجود البعثات الدبلوماسية الأوروبية ، التي تشارك المسيحيين الدين نفسه . يضاف إلى ذلك طبيعة المذهب الحنفي الذي

---

(١٦٦) المصدر نفسه .

(١٦٧) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص٢١٢ .

(١٦٨) المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .

(١٦٩) بهنام ، قرقوش في كفة التاريخ ، ص ٥٤ .

اعتمده سلاطين آل عثمان . فالإمام أبو حنيفة لا يكفر أحداً ، ولم يحكم بالقتل على مَنْ سب الرسول أو الصحابة . ويقضي بقتل المسلم بالذمي . ودليله على ذلك «عموم آيات القصاص مثل قوله : يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى ، وقوله : وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . وقوله تعالى : ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، من غير فصل بين قتيل وقتيل ، ونفس ونفس»[170] .

اعتمد الفقه الحنفي على ما ورد عن النبي : أنه «أقاد مسلماً بذمي وقال : أنا أحق مَنْ وفى بذمته» . وعن علي بن أبي طالب أنه قال : «أعطيناهم الذي أعطيناهم لتكون دماؤهم كدمائنا ودياتهم كدياتنا»[171] . وما سيأتي ذكره في فصل المذهب الحنفي يزيد على ذلك . بيد أن الانتساب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان وتسامحه الفقهي ، قياساً بالمذاهب الأخرى ، لم يمنع الدولة العثمانية ، وبنعرة قومية لا دينية ، من محاولة إبادة الأرمن والآشوريين والسريان ، ولم يعفها من معاملة «رعايا هذه الطوائف معاملة سيئة ، تختلف عن معاملتها للمسلمين من جميع الوجوه . فمثلاً كانت تسمي المسلمين تبعة ، وغير المسلمين رعايا . وكانت شهادة غير المسلم على المسلم لا تقبل . وكانت الدولة تستوفي ضريبة الجزية من الرعايا ، ولا تسمح لهم بالانخراط في السلك العسكري»[172] . ولم ينل الاضطهاد غير المسلمين في عموم الدولة العثمانية حسب ، فالتمييز كان واضحاً ضد المسلمين الشيعة أيضاً ، وخاصة بعد تشيع الدولة الإيرانية . وهذا الحال يذكر ببداية اضطهاد المسيحيين في العراق من قبل الساسانيين بعد إعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة الرومانية .

صدرت في العهد العثماني فرمانات نظمت العلاقة مع المسيحيين في العراق وغيره من أقطار الدولة . كانت البداية على يد السلطان محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١م) ، الذي استولى على القسطنطينية ، قلعة المسيحية الرسمية منذ القرن الرابع الميلادي وحتى سقوطها في القرن الخامس عشر الميلادي (١٤٥٣) ، فأنهى بذلك حروب عشرات القرون ، بدأت بين الروم المسيحيين وبين الساسانيين المجوس ، واستمرت مع العرب المسلمين . ومعلوم أن كل فتح أو غزو له ضحاياه واضطهاداته وتدميره . وليس هناك فاتح أو غاز عف اليدين مهما كانت ديانته ومقاصده ، فالأمر يتعلق بطبيعة الغزو والمواجهة والهجوم والدفاع وما يتبع ذلك من مشاعر مختلفة تتفاوت بين حلاوة الانتصار ومرارة الهزيمة .

---

(١٧٠) زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(١٧١) المصدر نفسه .

(١٧٢) حارث يوسف غنيمة ، الطوائف الدينية في القوانين العراقية ، بين النهرين ، العدد ٦٨ ، ١٩٨٩ عن ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٦ .

بيد أن العثمانيين حاولوا معالجة آثار الغزو سريعاً، فقام السلطان الفاتح بتعيين البطريرك الأرثوذكسي اليوناني كينادوس «وسيطاً بين الرعية المسيحية وبينه، وبذلك اصبح مسؤولاً عن إخوانه المسيحيين، وعن إخلاصهم للفاتح وعن دفعهم الجزية»(١٧٣). كما عين هذا البطريرك بمنصب ملة باشي (رئيس الطائفة). ومُنح صلاحيات واسعة لإدارة شؤون الكنيسة. مثل تعيين الأساقفة وعزلهم، والنظر في قضايا الأحوال الشخصية، وتوزيع ضريبة الجزية، التي كان العثمانيون يضعون لها مبلغاً إجمالياً على المسيحيين كافة(١٧٤). ثم عين بطريرك الأرمن بمنصب رئيس الطائفة المسيحية غير السلافية، وعلى اليهود أيضاً، إلى أن حصل كبير الحاخامين على لقب حاخام باشي.

لم تعترف الدولة العثمانية رسمياً، حتى القرن التاسع عشر، بغير الأرثذوكس والأرمن واليهود. «أما البطاركة الآخرون من الأرثذوكس، والكاثوليك فإنهم وإن منحهم السلاطين البراءة التي أقرت لهم بلقب رئيس طائفة إلا أنهم لم يخولوا السلطة الزمنية بل كانوا يحتمون بالبطريركيتين آنفتي الذكر، وكانت أسماؤهم مدرجة في فرامينهم»(١٧٥). وفي القرن التاسع عشر، وبتأثير الدول الغربية، بدأ وضع الطوائف المسيحية الأخرى يتغير، فقد حصل الأرمن الكاثوليك العام (١٨٣١) على اعتراف بهم كطائفة مستقلة. كما اعترف لبطريرك الأرمن الكاثوليك العام (١٨٥٧) بتمثيل «مصالح طوائف الكنائس الشرقية المتحدة مع الكنيسة الكاثوليكية، مثل الكلدان والسريان والملكيين (الروم الكاثوليك)»(١٧٦).

كان لإعلان المرسوم المعروف بخطية كلخانة (١٨٣٩)، من قبل السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١)، أثره في مساواة الطوائف المسيحية أمام الدولة بالحقوق والواجبات. إذ تقرر صون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. ثم تبع ذلك إصدار خط همايون (١٨٥٦)، الذي أكد صراحة «معاملة جميع تبعة الدولة العثمانية معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم، مع الإبقاء على سلطات رؤساء الدين بشرط إعادة تنظيمها»(١٧٧).

واصبح لكل طائفة مجلس روحاني ومجلس جسماني، إذ تم الاعتراف بطائفة اللاتين، التي تكونت من المهاجرين إلى العراق وبلدان الدولة العثمانية الأخرى، ومعظمهم من التجار الإيطاليين، ومن اتبعهم بفعل حملات التبشير. واعترفت الدولة لأول مرة بالطائفة الكلدانية والنسطورية، فأستخرج البطريرك زيعا، العام ١٨٤٤، أثناء زيارته إلى

---

(١٧٣) المصدر نفسه.

(١٧٤) المصدر نفسه، عن الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص١٨٥.

(١٧٥) المصدر نفسه.

(١٧٦) المصدر نفسه.

(١٧٧) المصدر نفسه.

القسطنطينية ، فرماناً بلقب بطريرك الكلدان ببغداد والموصل ، لكن بطريركية الكلدان لم تحصل على براءة سلطانية أو اعتراف رسمي إلا ١٩٠١ ، في زمن السلطان عبد الحميد الثاني ، والبطريرك يوسف عمانوئيل . وقد زار الأخير القسطنطينية واستقبل بحفاوة وتكريم من قبل السلطان شخصياً[١٧٨] . وقبل ذلك تم الاعتراف بالسريان الكاثوليك وبالروم الكاثوليك (الملكيون) ، والسريان الأرثوذكس (اليعاقبة) ، والطائفة البروتستانتية ، المدعومة من قبل إنكلترا .

لقد ضمن الدستور العثماني ، الصادر في ٢٣ كانون الأول «ديسمبر» (١٨٧٦) أيام الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ووالي العراق المتنور مدحت باشا . حقوقاً للطوائف غير الإسلامية ، فقد «أُطلق لقب عثماني بدون استثناء على كافة أفراد التبعة العثمانية من أي دين ومذهب كانوا ، مع تأكيده على أن الإسلام دين الدولة الرسمي . وضمن الحرية لجميع الأديان ، بشرط عدم إخلالها براحة الخلق والآداب العمومية . وحافظ على الامتيازات الممنوحة للجماعات المختلفة . ونص على أن جميع العثمانيين متساوون أمام القانون ، ولهم حق التوظف في الدولة كل حسب أهليته واستحقاقه . وان الضرائب تفرض على التبعة حسب اقتدارهم ، وتجنى وفقاً لأحكام القانون . وأن لكل ملة أن تنتخب في كل قضاء أعضاء مجلسها لإدارة أوقافها ، وأموال الأيتام من أبناء طائفتها ، ولتمثيل مصالح الطائفة أمام الحكومات المحلية ، ومجالس الولايات العمومية»[١٧٩] . و ربما كان هذا آخر عهد لفرض ضريبة الجزية على أهل الكتاب أو أهل الذمة .

الفرق والاختلافات

ظلت الكنيسة الشرقية تنتخب جاثليقها أو بطريركها منذ تأسيسها وحتى جثلقة شمعون الرابع الباصيدي (١٤٣٧ - ١٤٧٦) . ألغى هذا الجاثليق «قانون الانتخاب»[١٨٠] . بفتوى تقضي «إقامة البطاركة من عائلة أبونا . دون غيرها ، فتنتقل البطريركية من عمّ إلى ابن أخيه ، أو إلى حفيد أخيه ، وهكذا أصبحت البطريركية وراثية في كنيسة الشرق»[١٨١] . وكان طيمثاوس الثاني (١٣١٨ - ١٣٣٣م) أول مَنْ نصب على رأس الكنيسة من عائلة أبونا .

---

(١٧٨) المصدر نفسه .

(١٧٩) المصدر نفسه ، (عطل السلطان عبد الحميد الثاني هذا الدستور بعد عامين من صدوره ، ثم اجبر على تنفيذه العام ١٩٠٩) .

(١٨٠) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص١٣٢ .

(١٨١) المصدر نفسه .

وأصل التسمية ، حسب المطران إيليا أبونا ، «أن سكان الجبال كانوا وما يزالون يسمون الأساقفة في لهجتهم السوادية أبوني - آباء»[١٨٢] ، فأضحت لقباً للبيت الأبوي ، بيت البطاركة والمطارنة والأساقفة . وبإلغاء الانتخاب وصل إلى سدة رئاسة الكنيسة أشخاص بلا مؤهلات . لكن تحرك أساقفة أربيل وأذربيجان ، العام (١٥٥٢) في اجتماع عقد بالموصل ، ضد هذا القانون أدى إلى تنصيب البطريرك سولاقا بن دانيال ، رئيس دير الربان هرمز بالقرب من القوش «بطريركاً لكنيسة الشرق عن طريق الانتخاب القانوني»[١٨٣] .

جرت العادة أن يرشح المسيحيون ممثليهم إلى المجمع الكنسي العام ، الذي يصوت فيه على انتخاب الجاثليق . وهذه المرة ، وربما لخطورة الموقف وتمسك عائلة أبونا بمركز البطريركية ، جرى التنسيق مع بابوية روما ، قبل أن تصل الكاثوليكية إلى العراق عبر المبشرين ، كفرقة منافسة للنسطورية واليعقوبية . ويذكر أن الجاثليق المنتخب سولاقا قد سافر إلى روما ، وباركه البابا بتسليمه «درع الرئاسة المعروف بالباليوم»[١٨٤] . تم ذلك بعد رسامة سولاقا وموافقة المجمع البابوي (١٥٥٣ميلادية) . ثم التقى بالسلطان سليم الأول بحلب ، وأخذ موافقته .

غير أن الجاثليق من عائلة أبونا ظل محتفظاً بمركزه ، متخذاً من القوش مركزاً له ، ويتحين الفرصة للتخلص من منافسه الكاثوليكي الجديد . وفعلاً تحقق له ذلك السنة (١٥٥٥م) ، إذ قتل البطريرك سولاقا بين جبال العمادية ، بالتواطؤ بين الجاثليق النسطوري شمعون السادس برماما وبين باشا العمادية حسين بك الكردي . حصل ذلك بعد أن وجه السلطان العثماني أمراً «إلى جميع الأمراء والحكام الموجودين في البلاد بألا يلحقوا أذى بالطائفة الجديدة (الكاثوليكية) ، بل أن يعاملوا المنتمين إليها باعتبار واحترام»[١٨٥] . وكانت نتيجة منع انتخاب الجاثليق تحويل الجثلقة إلى وراثية ، بعد أن كانت انتخابية طوال قرون عديدة ، وانقسام الكنيسة إلى كاثوليكية ونسطورية .

كانت محاولات البابوية سابقة على هذا التاريخ ، لتوحيد الكنيستين ، الغربية والشرقية ، تحت لواء الكثلكة التي تزعم أنها كنيسة السيد المسيح والرسول بطرس ، والباباوات هم خلفاؤهما . ولفظة الكاثوليك يونانية معناها الجماعة . وأنها ، حسب مصدر قبطي أرثذوكسي ، «التتبع للمذهب اللاتيني ، ومن ثم فالقبطي الكاثوليكي هو التابع لكنيسة اللاتين الرومانية الفاقد لاستقلاله الديني»[١٨٦] . ومن محاولات توحيد الكنيستين الأولى

---

(١٨٢) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

(١٨٣) المصدر نفسه ، أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص٢٠٩ .

(١٨٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(١٨٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

(١٨٦) يوحنا ، تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٥٤٨ .

مراسلات البابا انوشنسيوس الرابع والجاثليق سير يشوع الخامس (١٢٢٦ - ١٢٥٧م). ومراسلات الجاثليق المغولي الأصل يهبالاها الثالث (١٢٨٢ - ١٣١٧م) مع روما، التي تمت بتشجيع من الحكام المغول. «ففي نحو سنة (١٢٨٧م) أُرسل الربان صوما إلى الديار الغربية مبعوثاً من قبل الملك المغولي أرغون والجاثليق يهبالاها الثالث، وهو يحمل رسائل من الملك، ومن الجاثليق إلى البابا وإلى ملوك أوروبا، ولقي في روما إكراماً وترحاباً. وزوده البابا نيقولا الرابع بهدايا نفيسة للبطريرك يهبالاها، وبرسالة فيها يبين معتقد الكنيسة الجامعة، ويدعو الجاثليق إلى الانضمام إليها»[١٨٧].

عُرف مذهب الكنيسة الشرقية بالنسطوري نسبة إلى بطريرك القسطنطينية نسطور (٤٢٨ميلادية)، الذي خالف كنيسته، والتقليد المسيحي الجاري آنذاك. قال: «إن مريم العذراء لم تلد الله، ولذا لا يحق لها أن تدعى أم الله. مع أن هذا اللقب كان متداولاً في الكنيسة منذ القرن الثالث على الأقل»[١٨٨]. وقيل إن لقب والدة الله كان محدود الانتشار بين المسيحيين العراقيين، وأصله الكنيسة القبطية. وهو من أثر مصري فرعوني «فالإلهة ايزيس كانت تسمى والدة الله، ونجدها لأول مرة مكتوبة في الرسالة التي وجهها اسكندر الاسكندري إلى تلاميذه قبيل انعقاد مجمع نقية ٣٢٥، وتبناها رسمياً مجمع أفسس ٤٣١، وبتأثير التيار المصري بعد أن حدد معناها»[١٨٩].

وناقش المجمع الثالث لكنيسة قسطنطينة العام ٤٣١ آراء نسطور السرياني الأقرب للواقع، وملخصها: «أن للسيد المسيح أقنومين وطبيعتين بعد الاتحاد، وأن العذراء هي والدة المسيح (وليست والدة الله)»[١٩٠]. وكانت نتيجة النقاش تحريم آراء نسطور لتتحول إلى فرقة سرية بالقسطنطينة، وتشيع في الشرق بتشجيع من الإمبراطورية الساسانية. كما سلف ذكر ذلك. وأن يتصدر الراهب برصوما الدعوة إليها، مؤيداً من قِبل الفرس لنشرها «بين السريان، وكانت فرصة ذهبية للحاكم الفارسي لجني مكاسب سياسية في تسخير السريان لديه ضد بيزنطا»[١٩١].

وبهذا تشكلت في القرن الخامس الميلادي «كنيسة سريانية منفصلة عن كنيسة أنطاكية هي كنيسة المشرق القديمة. دعي أبناؤها بالسريان النساطرة»[١٩٢]. ومقابل النساطرة،

---

(١٨٧) أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص ١٣٠.

(١٨٨) المصدر نفسه ١ ص ٦٨.

(١٨٩) ساكو، آباؤنا في الإيمان، ص ٩٣.

(١٩٠) أ - أكاد، السريان وإشكالية التسمية، الثقافة الجديدة، العدد ٢٣٧، أيلول ١٩٩١.

(١٩١) المصدر نفسه.

(١٩٢) المصدر نفسه.

أصحاب الطبيعتين الإلهية والناسوتية ، ظهر اليعاقبة (المينوفيزيين) وهم السريان الأرثوذكس في العراق ، «القائلين بالطبيعة الواحدة»[١٩٣] . واليعاقبة نسبة إلى الراهب يعقوب البرادعي «الذي ساهم في إنقاذ الكنيسة السريانية الأرثوذكسية في القرن السادس خلال فترة الاضطهاد البيزنطي لها»[١٩٤] . وعرف هذا المذهب أيضاً بالأوطاخي ، نسبة إلى أوطاخي القائل بالطبيعة الواحدة[١٩٥] . وستأتي الإشارة إلى الأيروسية وما نفذ من كنيسة المشرق إلى الإسلام بخصوص ماهية عيسى بن مريم .

التزمت كنيسة المشرق المذهب النسطوري عقب مجمع الجاثليق مار آقاق العام ٤٨٦ ميلادية . فعندها «أعترف فيه أنه مذهب قويم يعود بأصوله إلى تقليد الرسل ، وإلى العقلية الأصلية لحضارات وادي الرافدين . والذين توثقت عرى ترابطهم بكنيسة انطاكية ، من اليعاقبة الشرقيين ظلوا يحنون إلى نوع من الاستقلال ، فلم يرضخوا للتبعية طويلاً»[١٩٦] . وبعد تمكن النساطرة في العراق والشرق طردوا «سائر اليعاقبة الذين وجدوا في كلدو وآثور اعتباراً من (٤٨٤ - ٥٢٠م) ، وجعلوا جميع كنائس مملكة فارس وأديرتها نسطورية عدا كنيسة تكريت»[١٩٧] ، التي ظلت على المذهب اليعقوبي .

وهناك مَنْ ينسب النهوض العلمي والثقافي الذي حصل في بلاد الرافدين إلى المذهب اليعقوبي . فيذكر أن قرقوش وتكريت قد ازدهرتا في ظله علمياً وثقافياً . وبرز من التكريتيين فلاسفة ومترجمون وعلماء مسيحيون ذبوا عن مقالات المذهب اليعقوبي . وظلت هذه المدينة يعقوبية حتى بعد دخول الإسلام إليها . وكان لعلمائها مناظرات وحضور ملحوظ في مجالس الخلفاء بسامراء ، التي تعد تكريت من أجوائها ، مثل الفيلسوف يحيى بن عدي (ت٩٧٥م) ، وعيسى بن زرعة (ت١٠٠٨م) وغيرهما . ثم انتقلت إلى مناطق شمال العراق عبر التكارتة النازحين إليها في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، بعد أن سادت بمدينتهم منذ القرن الخامس الميلادي . ويذكر عن القرقوشيين أنهم أتلفوا «مخلفاتهم النسطورية ، كما أتلفوا من قبلها آثارهم المجوسية ، ومن بعد ذلك آثارهم اليعقوبية عند كثلكتهم»[١٩٨] .

إن التوحيد الذي دعا إليه باباوات روما ، منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، لا زال محط خلاف بين المسيحيين ، فالكنيسة ظلت منقسمة بين النساطرة ومحاولات فرض الكثلكة

---

(١٩٣) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٦٣٠ .

(١٩٤) مجلة الثقافة الجديدة ، العدد ٢٣٧ .

(١٩٥) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٦٣٠ .

(١٩٦) الأب يوسف حبي ، كنيسة المشرق كنيسة أصلية شاهدة ، بين النهرين ، العدد ١٩٧٩/٢٥ .

(١٩٧) بهنام ، قرقوش في كفة التاريخ ، ص ٨٤ .

(١٩٨) المصدر نفسه .

على الجميع ، والغاء ما تبناه الشرق من مقالات دينية لها علاقة بظروفه وخلفيته الحضارية . فلا نجد حرجاً في عودة مسيحيي عينكاوة إلى تشييد أكبر كنائسهم وفقاً لطراز الزقورة البابلية . وأن يظهر لمريم العذراء عيد يعرف بسيدة الزروع ، وهو من خلفية العراقيين القدماء ، فعشتار البابلية ، وقبلها إنانا السومرية ، هي عيش الأرض وحامية الزروع .

حاول قساوسة ورهبان ، من غير الكاثوليك ، أن يشرحوا لاتباعهم تناقض البابوية مع معتقدات كنيستهم الشرقية . نذكر في هذا المجال ما ذهب إليه صروف الدمشقي (منتصف القرن التاسع عشر) . في عنفوان التبشير الكاثوليكي المدعوم من فرنسا آنذاك : «إنه لم يوجد البتة اشتراك مسيحي أكثر تنزهاً عن التعدي ، ولا أوفر حباً للسلامة من الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ، وتثبيتاً لهذه الحقيقة نكتفي بإيراد برهان جديد ، تاركين هاهنا شهادة الأجيال العشرة المارة منذ حدوث الانشقاق الكبير إلى الآن ، فنقول : إنه في شهر تشرين الثاني من سنة (١٨٤٧م) قد انتشرت بغتة من بابا رومية باللغة اليونانية العامة خطاباً لجميع مسيحي الشرق عموماً ، وتوزعت بكثرة على شعوب المسيحيين المتفرقين في بلاد الدولة العثمانية ، تستدعيهم أن يرجعوا إلى أحضان كنيسة رومية»[١٩٩] .

ما كتبه صروف الدمشقي كان رسالة مشتملة على مقابلة الكنيسة الشرقية مع البابوية في القرن التاسع عشر ، يحمل فيها على باباوات روما وخلافاتهم العقائدية مع المسيحية الشرقية . عاب على البابوية الاختلاف في التناول (طقس مسيحي) بين العوام والكهنة . وحسب قوله الكنيسة القديمة (الشرقية) لم تجسر أن تحرم العوام ولا الأطفال من الكأس الإلهية ، وعدا ذلك تأمر أن يبلَّ الخبز الإلهي (جسد المسيح) بالخمر المقدس (دمه) . أما البابوية «فقد اقتبلت برأيها الذاتي في الأزمنة المتأخرة تمييزاً بين الكهنة والعوام في التناول الإلهي»[٢٠٠] .

وأفاد مطران كلداني كاثوليكي آخر برأيه حول عرض توحيد الكنيسة بين كلدو وآشور ، والموقف من الفاتيكان بقوله : «إن مفاوضاتنا تتركز على الدين . كنيسة المشرق كانت دائماً تعتبر الكلدان والآشوريين شعباً واحداً ، ونريد العودة إلى الوحدة . فنحن نعتقد ونعتبر أننا شعب واحد (تاريخ ، لغة وأرض واحدة) بين الرافدين وسوريا . . . والطريق إلى الوحدة ليس سهلاً ، وهناك مقاومة ، وهذا أمر طبيعي ، والسبب تاريخي . ويتلخص بإيجاز في أن روما بصفتها الرئيس الأعلى للكنيسة تدخلت في الأمور الداخلية للطوائف إلى حد أن الكنائس الأخرى ، غير المتحدة معها ، ترفض وتعارض التوحيد . إلا إذا اعترفت روما

---

(١٩٩) الدمشقي ، المقابلة المضاعفة ، ص٥ .

(٢٠٠) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

باستقلالية الكنيسة المشرقية ، على رغم اعترافها بالرئاسة البابوية . فإذا راجعت روما موقفها وسياستها ربما سهلت عملية التوحيد . المهم أن تحافظ الكنائس الشرقية على كيانها المستقل ولغتها وطقوسها»[٢٠١] .

أطلق السريان النساطرة ، بتأثير الانبعاث القومي الذي تبناه العرب والكرد وقوميات أخرى ، على أنفسهم اسمهم القديم ، أي الآشوريين ، فأخذت كنيسة المشرق القديمة النسطورية تسمى «الكنيسة الشرقية الآشورية»[٢٠٢] مقابل تسمية الكاثوليك بالكلدانيين ، التي استحدثها أحد باباوات روما في القرن الخامس عشر الميلادي . وما يجري الآن هو محاولة التقارب بين كلدو وأثور ، أي بين كاثوليك ونساطرة . وهذا مختلف عن التوحيد الذي دعت إليه البابوية منذ قرون عديدة . وكان أول من دعا وارتسم رسمها البطريرك سلوقا ، كما سلف ذكر ذلك ، في نية أن يتحول مسيحيو الشرق كافة إلى المذهب الجديد . لكن التبشير الواسع لصالح الكاثوليكية بين النساطرة تحقق على يد الرهبان الدومنيكيين ، بداية من القرن الرابع عشر[٢٠٣] . والرهبان الاغسطينيين ، بتعاطف مع الشاه عباس الأول (١٥٨٦ - ١٦٢٨) ، بعد أن وصلوا البصرة العام (١٦٢٣م) . والرهبان الكرمليون مبعوثو البابا اقليمس الثامن ، العام (١٦٠٤م) ، برفقة ثلاثة من الرهبان الحفاة تزهداً[٢٠٤] . والرهبان الكبوشيون ، الذين دخلوا العراق عبر إيران ، وفتحوا مركزاً ببغداد (١٦٢٨) ، وآخر بالموصل (١٦٣٢) .

قال القنصل الروسي بالبصرة (١٩١٢) حول أول المبشرين الكاثوليكيين : «كان رهبان فرقة (الكرمليون الحفاة) الذين وصلوا إلى البصرة في (١٦٢٣) من مدينة اسيكان الفارسية ، التي كانت فيها إرسالية دينية هم أول مَنْ ظهر من دعاة الكاثوليكية في العراق»[٢٠٥] .

وبسبب المنافسة ، التي لا علاقة لها بالمذهب بقدر ما تتعلق بالجهات المرسلة لبعثات التبشير ، أن حصلت خلافات بين الكرمليين مبعوثي فرنسا والأوغسطينيين مبعوثي البرتغال ، و«تحولت بسرعة إلى عداوة مكشوفة بلغت بشهادة الرحالة الإيطالي (بيترو يلو فاليه) الذي زار البصرة (١٦٢٥) إلى حد أن الأوغسطينيين كانوا يهددون كل كاثوليكي يجرؤ على التقرب من الكرمليين بالحرمان من الكنيسة»[٢٠٦] . ونجحت ، قبل ذلك ، البعثات الكاثوليكية التبشيرية في القرن الخامس عشر الميلادي «في فصل مجموعة من الكنيسة

---

(٢٠١) صحيفة الحياة ، العدد : ١٢٨٣٦ ، ٢٦ نيسان ١٩٩٨ .

(٢٠٢) مجلة الثقافة الجديدة ، العدد : ٢٣٧ .

(٢٠٣) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص٢٣٠ .

(٢٠٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢٠٥) أداموف ، ولاية البصرة في حاضرها وماضيها ، ص١٩٩ .

(٢٠٦) المصدر نفسه .

الشرقية في فترة انعقاد مجمع فلورنسا بين (١٤٣٩ - ١٤٤٢م) ، وضمها إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وسماهم البابا اوجانيوس الرابع بالكلدان ، وكنيستهم بالكنيسة الكلدانية»[٢٠٧] . وهناك من يتهم البابوية باستحداث تسمية الكلدان بدلاً من السريان والتفريق المتعمد «لشعب واحد هو الشعب السرياني»[٢٠٨] . وبغض النظر عما سبق ذكره ، دفعت الظروف المحيطة مسيحيي البصرة إلى توجيه رسالة بالعربية إلى البابا بروما (١٦٢٦) ، يعلنون فيها تعلقهم بالكنيسة الكاثوليكية[٢٠٩] . لكن تسمية الكلدان أقدم من هذا بكثير . ورد في التوراة تسمية «أور الكلدانيين» . ثم وردت في التواريخ الإسلامية .

كان التبشير الكاثوليكي موجهاً إلى النساطرة واليعاقبة بالذات . وكانا أهل خلاف مع بابوية روما وتصوراتها حول السيد المسيح . إلا أن البروتستانت ، بتأييد بريطانيا ، توجهوا إلى تنصير المسلمين ، بعد أن اعترفت الدولة العثمانية بمذهبهم رسمياً العام (١٨٥٠م) . قال حارث يوسف غنيمة حول التمييز بين الارساليات المسيحية القادمة من أوربا بقوله : «اختلفت أهداف المبشرين الكاثوليك عن البروتستانت إذ كانت طليعة نشاطات الأولين العمل على عودة النساطرة والأرثوذكس إلى الكنيسة الكاثوليكية بينما كان هدف البروتستانت النهائي تحويل غير المسيحيين إلى البروتستانتية من خلال الكنائس الشرقية»[٢١٠] . أعتبر غنيمة كثلكة النساطرة عودة إلى الأصل ، مع أن الكنيسة الشرقية منذ تأسيسها وطوال تاريخها الضارب بالقدم كانت نسطورية ، فكيف تكون كثلكتها عودة بعد انحراف؟

إن كان للتبشير ، الكاثوليكي أو البروتستانتي ، بين النساطرة واليعاقبة مخاطره فكيف الحال إذا كان التبشير موجهاً إلى المسلمين؟ لذا حاولت بريطانيا الحصول على فرمان عثماني يسمح للتبشير بين المسلمين . بعد أن تمكن ممثلها لدى الباب العالي من «إلغاء الفرمان الذي يمنع الانتقال من طائفة مسيحية إلى أخرى في ١٨٤٤ . بدأ محاولاته في الإلحاح على رفعت باشا الصدر الأعظم (رئيس وزراء) أنذاك من أجل أن يلغي رسمياً الإعدام المفروض على كل مَنْ يرتد عن الإسلام»[٢١١] . وربما جعل الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ممثلي دول مسيحية ، مثل فرنسا وروسيا والنمسا ، يرفضون في المفاوضات التي سبقت معاهدة باريس (٣٠ آذار ١٨٥٦) الطلب البريطاني للسماح بالتحول من الإسلام إلى المسيحية . «أما المندوب

---

(٢٠٧) مجلة ، الثقافة الجديدة ، ص٢٣٠ .

(٢٠٨) المصدر نفسه .

(٢٠٩) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٣ ص٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢١٠) غنيمة ، البروتستانت والإنجيليون في العراق ، ص٤٨ .

(٢١١) أداموف ، ولاية البصرة في حاضرها وماضيها ، ص٢٦٦ .

العثماني فقد رفض بشكل قاطع مناقشة اقتراح السفير الإنجليزي هذا، مشيراً إلى أن أمراً مثل هذا يقوم به السلطان سيوجه إلى مكانته باعتباره خليفة للمؤمنين ضربة لا يمكن تلافي نتائجها»[٢١٢] . ورغم كثرة ما سببه المبشرون البروتستانت من مشاكل، التي اعترض عليها السفير البريطاني نفسه . إلا أن التبشير بين المسلمين استمر ولو بقيود، وقد وصلت إلى جنوب العراق، لهذه الغاية، إرساليات تبشيرية بداية من العام (١٨٧٨) . وهناك قامت لها مراكز طبية، وبدأ ببغداد العام (١٨٨٠) «بيع الكتاب المقدس وتوزيعه مجاناً»[٢١٣] . بينما بدأ التبشير بالموصل وجبال العراق العام (١٨٣٩)[٢١٤] . وقد نجح الكاثوليك في التبشير أكثر من غيرهم «لأنهم سبقوا الآخرين بفترة تربو على القرنين»[٢١٥] .

هناك ما يفيد تحديد تاريخ انتقال الشرقية منها إلى الكاثوليك، «ففي عام (١٧٢٦) كان القس خدر يتشكى لدى المجمع المقدس من عدم وجود أي كنيسة في حوزة الكلدان . ويقول التقليد المحلي : إن كنيسة القديسة بربارة في قرية كرمليس هي الكنيسة الكاثوليكية الأولى في العراق في سنة (١٨٦٤)»[٢١٦] . ويبدو أن صاحب الرواية لم يطلع على تقرير المطران أسقف بغداد (١٧٤٢) السالف الذكر الذي أشار إلى وجود كنائس كاثوليكية ببغداد ودهوك وغيرها . وبسبب تزايد عدد الكاثوليك وقلة كنائسهم قسمت الكنائس بينهم وبين النساطرة[٢١٧] تحت أشراف مفتي الموصل .

توزع الكاثوليك الكلدان على بغداد والبصرة والموصل والعمارة والكوت وزاخو ودهوك . وحتى الثلاثينيات كانوا يؤلفون في العراق (٩٧,٩٩٥) نسمة[٢١٨] . منهم (٧٠,٩١٥) نسمة في المناطق الشمالية . ومن غير الكلدان هناك السريان الكاثوليك، وقد اختلف تواجدهم بالعراق «ففي الوقت الذي كانت بغداد حافلة بهم في القرن الثالث وحتى السابع الهجري تناقص عددهم في عهد تيمورلنك . فلم يبق منهم غير أفراد بلا كنيسة وبلا كهنة . ثم تزايد عددهم حتى ألفوا في القرن التاسع عشر أقلية تتردد على كنيسة اللاتين»[٢١٩] . واستحدثوا، في ما بعد، كنيسة في رأس القرية ببغداد، وأخرى في شارع أبي شجاع، ولهم أبرشية ببغداد تمتد إلى الخليج العربي، ولها بميسان والبصرة كنيستان قديمتان .

---

(٢١٢) المصدر نفسه، ص٢٢٧ .

(٢١٣) المصدر نفسه، ص٢٢٩ .

(٢١٤) غنيمة، البروتستانت والإنجيليون في العراق، ص٥٥ .

(٢١٥) المصدر نفسه، ص٤٩ .

(٢١٦) الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ص ٧٧ .

(٢١٧) المصدر نفسه .

(٢١٨) الدليل العراقي لعام ١٩٣٦ .

(٢١٩) المصدر نفسه .

أما النساطرة أو الآشوريون فلم يذكرهم الدليل العراقي لعام (١٩٣٦) ، بسبب القتال الذي دار بينهم وبين الحكومة قبل ثلاث سنوات من صدور الدليل المذكور ، وإسقاط الجنسية العراقية عن معظمهم ، وتسميتهم بالآثوريين[٢٢٠] ، بعد مطالبتهم بحقوق قومية[٢٢١] إثرها تم الاستيلاء على كنائسهم وأديرتهم ، التي كانت خاصة بالكنيسة الشرقية قديماً . وعند استفسار الأديب مير بصري أحد المساهمين بتصنيف الدليل أجاب بالقول : «وهل هم غير مدرجين» . ثم استدرك قائلاً : «إن الظروف قادت إلى ذلك . والوضع العام كان متجهاً ضدهم ، وليس هناك توجيهات مباشرة منعت من إدراجهم في الدليل ، الذي أُدرجت فيه الطوائف العراقية كافة . بيد أن الموقف من ثورتهم قاد إلى دعاية دفعت بها الدولة إلى وسط الكُتاب والمؤرخين تشير إلى أنهم قدموا العراق أوان الحرب العالمية الأولى . والحقيقة أنهم من سكان العراق القدماء ، ولا يمنع هذا تواجدهم بكثرة في البلدان المجاورة مثل تركيا وسوريا وإيران . وبعد عودة البطريرك مار شمعون إلى العراق في نيسان «أبريل» (١٩٧٠) ، بعد أربعين سنة من النفي ، أصدرت وزارة الداخلية العراقية أمراً يفيد «بإعادة الكنائس المستولى عليها وتسليمها إلى الكنيسة الشرقية»[٢٢٢] .

قال ناجي شوكت (رئيس وزراء سابق وشاهد على ما حدث) : «كان الملك فيصل قد غادر العراق إلى لندن في الخامس من حزيران (١٩٣٣) ، تلبية لزيارة رسمية ، وجهها إليه ملك بريطانيا ، وفي أثناء غيابه حدثت حادثة الآثوريين الشهيرة ، واضطرته للعودة إلى العراق في الثامن من آب»[٢٢٣] . ونقل رئيس الوزراء المذكور أن فيصل الأول قال له بعد قطع زيارته للندن : « أبقيت ولدي غازي وهو شاب لم تصقله التجارب ، كما أن الوزراء الذين بقوا في بغداد لم يقدروا الوضع الدولي ، فتصرفوا متأثرين بنوازع دينية وقومية ، ولم يضبطوا أعصابهم»[٢٢٤] .

وقديماً ، حَظيَ أصحاب المذهب الأرثوذكسي «بحماية الإمبراطورة تيودورة (ت ٥٤٨م) من جهة الروم ، وبحماية كسرى الأول أنو شروان سنة (٥٥٩م) من جهة الساسانيين ، في أعقاب جدال لاهوتي جرى أمام الملك ، وفيه أحرزوا الغلبة على خصومهم ، فقال لهم الملك :

---

(٢٢٠) يرفض كُتاب وباحثون آشوريون تسمية قومهم بالآثوريين ، رغم أن أبا الحسن المسعودي ، من القرن العاشر الميلادي ، ذكر حد العراق الشمالي بأثور. راجع مقدمة الكتاب .

(٢٢١) تعرض الآشوريين إلى مذابح ، منها مذبحة سميل ، التي قادها الضابط بكر صدقي صاحب الانقلاب المعروف في الثلاثينيات .

(٢٢٢) العاني ، الموسوعة العراقية الحديثة .

(٢٢٣) شوكت ، سيرة وذكريات ثمانين عاماً ، ص٢٣٤ .

(٢٢٤) المصدر نفسه ، ص٢٣٤- ٢٣٥ .

إذهبوا وشيدوا كنائسكم وأديرتكم، ولن يستطيع أحد إزعاجكم بعد اليوم»[٢٢٥]. وحسب الدليل العراقي لعام (١٩٣٦) للسريان الأرثوذكس (٢١) أبرشية (منطقة إدارية روحية) ثلاث منها في العراق، ومطرانيتان في الموصل ودير متّى، ونيابة بطريركية رسمية ببغداد والبصرة، وعدد كنائسهم (١٧) كنيسة، ودير واحد. وحتى السبعينيات كانوا يتوزعون على بغداد[٢٢٦]، والبصرة، وكركوك، وسنجار، وقرى برطلة، وقرقوش، وبعشيقة، وبحزاني، وعددهم آنذاك كان زهاء أثني عشر ألفاً[٢٢٧].

الثالوث المقدس

تابع جواد علي ظهور المذاهب المسيحية، أو النصرانية على حد عبارته، واختلافها في أمر المسيح، ومكانته في الثالوث المقدس. متحدثاً عن دور الرسول بولس، الذي فتح وأتباع المسيح الآخرون جدلاً واسعاً حول ماهيته. هل هو إنسان، أو هو رب؟ أو هو من خلق الرب؟ وهل هو والرب سواء أو منفصل عن الرب؟[٢٢٨]. وأن فرقهم الرئيسة: النسطورية واليعقوبية والملكية، اتفقت «أن الله جوهر وأنه واحد وله ثلاث صفات، وربما عبروا عنها بالخواص، وهي الأبوة والبنوة والانبعاث. وأن من أي هذه الصفات أخذ مع الجوهركان قنوماً. فإن أخذوا الأبوة مع الجوهر قالوا: قنوم الأب. وإن أخذوا البنوة مع الجوهر قالوا: قنوم الابن. وإن أخذوا الانبعاث مع الجوهر قالوا: قنوم الروح. وأن كل واحد من الأقانيم إله، ولم يقولوا بأن الإله ثلاثة. بل قالوا: إن الإله واحد. وقولهم: إن كل قنوم إله إشارة منهم إلى الجوهر المعتبر مع كل صفة من الصفات المذكورة. وأن الفعل يصدر عنها لا عن واحد منها، وأن ذلك الفعل بإرادة وقصد، وليس على سبيل قهر وجبر، ولا تسخير ولا طبع، كالنار التي تحرق، ولا تفضيل. وأن قبول الإتحاد مختص بقنوم الابن لا غير. وأن الاتحاد كان عندما بشّر الملاك مريم العذراء»[٢٢٩]. ولا وجود لأقنوم الأم، حتى يدعي المسيحيون بألوهية مريم. لكن عجبائية

---

(٢٢٥) الأب الدومينيكي، الأثار المسيحية في الموصل، ص١٥. علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ ص٦٣١. أشار جواد علي إلى ذهاب يعقوب البرادعي العام ٥٢٨م إلى القسطنطينية «لحمل القيصرة ثيودورة على التأثير في الكنيسة وحملها على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه في طبيعة المسيح، وقد مكث في القسطنطينية خمسة عشر عاماً».

(٢٢٦) للتوسع في أحوال الكنائس ببغداد راجع بحث روفائيل بابو إسحق، كنائس نصارى بغداد في العهد العثماني، مجلة سومر، العدد عشرون ١٩٦٤.

(٢٢٧) راجع العاني، الموسوعة العراقية.

(٢٢٨) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٦٢٤.

(٢٢٩) أبو البركات بن أكبر، مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، ص ٨٤ - ٨٥.

الحبل المقدس عن طريق الملاك والروح الإلهي، حسب الآية «ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا»[230] تبقى بعيدة عن متناول التفسير والفهم البشريين، وقد تؤدي إلى الاعتقاد بألوهية مريم وولدها، مع أنها خارج الثالوث المقدس. فمهمتها كامرأة الإنجاب فقط، وما وصلها من تقديس وتكريم كان من لدن ما في رحمها من كائن نصفه إلهي من جانب الأبوة، ونصفه الآخر إنساني من جانب الأمومة. وإن قال الجاحظ في رده على النصارى، فيما يخص هذه الآية، «وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله في سرهم، ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم»[231]، فهو يُشير إلى عدم قولهم بأقنوم الأم. وكان للمذهب الآيروسي أثره في تصور الإسلام عن عيسى بن مريم، بعيداً عن التأثيرات الرومانية التي أدخلها الرسول بولس إلى المسيحية.

قيل: كانت ورقة بن نوفل آيروسي المذهب، لا يقر المساواة بين عيسى والرب في الجوهر، وإنه كباقي البشر، وينكر الثالوث المقدس[232]. وكان قريباً من النبي محمد، فهو الذي تكهن بنبوءته، و«الرسول نهى عن سبّه»[233] إكراماً له. وقال فيه: «شعرتُ أني قد

(230) التحريم 12 والأنبياء 91. أثار الطبري مسألة اسم والد مريم، وربما هناك مَنْ أثارها قبله. هل هو عمران أم غيره؟ وهل هارون كان أخاها وموسى بالوقت نفسه؟ فالآية 28 من سورة مريم تقول: «يا أخت هارون» تؤكد هذا النسب. فالمؤرخون يرون أن ما بين عيسى ومحمد ستمائة عام وبين عيسى وموسى ستمائة عام أخرى، فكيف تصبح مريم أختاً لهارون وموسى؟ قال ابن سيرين: «نبئت أن كعباً قال: إن قوله: يا أخت هارون ليس بهارون أخي موسى. قال: فقالت عائشة: كذبت. قال: يا أم المؤمنين؛ إن كان النبي (ص) قال فهو أعلم وأخبر؛ وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتت»(الطبري، تاريخ الأمم والملوك 1 ص 495). بعد حين طرح الشريف المرتضى المسألة بأكثر تفاصيل. قال: «مَنْ هارون الذي نُسبت له مريم عليها السلام إلى أنها أخته. ومعلوم أنها لم تكن أختاً لهارون أخي موسى عليهما السلام»؟ (الأمالي 4 ص105). كما ذكر المرتضى ما اعترض به نصارى نجران على ما جاء في القرآن عند المغيرة بن شعب. قالوا: «أليس نبيكم يزعم أن هارون أخو موسى. وقد علم الله ما كان بين موسى وعيسى من النبيين»(المصدر نفسه). وأخيراً يتوصل المرتضى إلى حل الإشكال عن طريق التأويل. قال: «يا أخت هارون يا من نسل هارون كما قال تعالى: وإلى عاد أخاهم هوداً وإلى ثمود أخاهم صالحاً».
لكن الجدل لا ينتهي بهذا التأويل فمريم بنت يواكيم ذكرتها الآيات التالية أنها ابنة عمران على الحقيقة لا المجاز. بل ولا مجال للتأويل فيها. جاء في الآية: «ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها»، والآية: «إذا قالت امرأت عمران ربِّي إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم»(آل عمران 36-53).

(231) الجاحظ، ثلاث رسائل، ص 10.

(232) المر، الإسلام نحلة نصرانية، ص190، 199.

(233) الأصفهاني، الأغاني 3 ص968.

رأيت لورقة جنّةً أو جنتين»[٢٣٤] . ونقل هشام بن عروة عن أبيه : «إن خديجة كانت تأتي ورقة بما يخبرها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه يأتيه فيقول ورقة : لئن كان ما يقول حقاً إنه ليأتيه الناموس الأكبر ، ناموس عيسى بن مريم ، الذي لا يجيزه أهل الكتاب إلا بثمن ، ولئن نطق وأنا حي لأبلين فيه لله بلاءً حسناً»[٢٣٥] .

ذهب الأبينيون إلى القول ببشرية المسيح الكاملة ، وهم جماعة «من قدماء اليهود المتنصرين ، عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل ، التي تعني الفقراء . لا يُعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد . وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتها إنها مزيج من اليهودية والنصرانية . وإنها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية ، فهي نصرانية ويهودية في آن واحد . . . فهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون ، وينكرون رأي بولس الرسول في المسيح . ويحافظون على حرمة يوم السبت . . . وحرمة يوم الرب . وقد ذهب بعض قدماء مَنْ تحدث عنهم إلى أنهم فر قتان ، بالقياس إلى مولد الابن المسيح من الأم العذراء . ويعتقد أكثرهم أن المسيح بشر مثلنا ، أمتاز على غيره بالنبوة . وبأنه رسول الله ، أرسله إلى الناس أجمعين ، فهو رسوله ولسانه الناطق برسالته للعالمين . وهو نبي كبقية مَنْ سبقه من الأنبياء المرسلين . وقد آمن بعض منهم بعقيدة العذراء وولادتها للمسيح من غير اتصال ببشر . غير أن بعضاً آخر منهم آمن بأن المسيح ابن مريم من يوسف ، فهو بشر تماماً . وأنكر الصلب المعروف ، وذهب إلى أن مَنْ صُلب كان غير المسيح ، وقد شبّه على مَنْ صلبه ، فظن أنه المسيح حقاً . ورجعوا إلى أنجيل متّى بالعبرانية ، وانكروا رسالة بولس على النحو المعروف عند بقية النصارى»[٢٣٦] .

وربما عنى رودلف بقوله : «كان بين مسيحيي الشرق مَنْ يضربون صفحاً عن رسالة بولس»[٢٣٧] الآيروسية والنسطورية والأبيونيين . لا ندري مامدى صحة لقاء النبي محمد قبل النبوة بالراهب نسطور ورد في «السيرة الحلبية» ، يوم كان يتاجر بتجارة خديجة بنت خويلد[٢٣٨] . مع أن كتب السيرة الأخرى تحدثت عن اللقاء بالراهب بحيرى ، فلعل الأخير كان على المذهب النسطوري .

كانت مقالة الأيروسية والنسطورية في المسيح قبل الإسلام ، وظهرت في نصوص قرآنية عديدة ، ومنها الآيات : «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا

---

(٢٣٤) المصدر نفسه . ورواية أخرى مشابهة (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١ ص٥٣١ .

(٢٣٥) المصدر نفسه .

(٢٣٦) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٦٣٥ .

(٢٣٧) رودولف ، صلة القرآن باليهودية والمسيحية ، ص٨٢ .

(٢٣٨) الرصافي ، كتاب الشخصية المحمدية ، ص١٨٨ ، عن الحلبي ، السيرة الحلبية ١ ص١٣٣ .

الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً»[٢٣٩] . و«ما المسيح ابن مريم إلارسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام»[٢٤٠] . و«قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منهم ، ما لهم به علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً»[٢٤١] . و«لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد»[٢٤٢] . و«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت عالم الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم»[٢٤٣] .

كان نقد الإسلام موجهاً إلى الكنيسة الرومانية ، ومقالات بولس الرسول القاضية بتأليه السيد المسيح ، وليس إلى المسيحية جمعاء . فهناك ، كما ذكرنا ، فرق مسيحية ترى المسيح نبي الله ، بل وذهب بعضها إلى القول : إنه ابن يوسف النجار ، وليس من روح الله على خلاف ما أقره الإسلام بالقول : «ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا»[٢٤٤] . واختلف المفسرون المسلمون حول الثلاثة ، بين أن الله واحد من الثلاثة ، أو ثالث ثلاثة وبين أنهم قالوا بإله واحد . قال الطبرسي : «لم يقولوا بثلاثة آلهة ، ولكنهم يقولون إله واحد ثلاثة أقانيم : أب وابن وروح القدس . . . وقد شبهوا قولهم جوهر واحد ثلاثة أقانيم ، بقولنا سراج : واحد ثم نقول : ثلاثة أشياء ، دهن وقطن ونار ، وشمس واحدة ، وإنما هي أشياء متغايرة . فإن قالوا : إن الله شيء واحد وإله واحد حقيقة فقولهم ثلاثة متناقضة . وإن قالوا : إنه في الحقيقة أشياء مثل ما ذكرنا في الإنسان والسراج وغيرهما فقد تركوا القول بالتوحيد ، والتحقوا بالمشبهة ، وإلا فلا و اسطة بين الأمرين»[٢٤٥] .

وينزه أبو الريحان الثالوث المسيحي من الإخلال في التوحيد . قال : «إن الأب عندهم غاية التعليم . كما أن الابن غاية الاختصاص والتكريم . وليسوا يذهبون فيه إلى معنى الإيلاد

---

(٢٣٩) سورة النساء ، ١٧١ .

(٢٤٠) سورة المائدة ، ٧٥ .

(٢٤١) سورة النساء ، ١٥٧ .

(٢٤٢) سورة المائدة ، ٧٣ .

(٢٤٣) سورة المائدة ١١٦- ١١٧ .

(٢٤٤) سورة التحريم ١٢ ،سورة الأنبياء ٩١ .

(٢٤٥) الطبري ، مجمع البيان في تفسير القرآن ٣ - ٢٢١/٤ .

الحيواني . وربما أشاروا إلى التولد الكائن على وجه الإفاضة والاقتباس . وحال الألفاظ في اللغات المتباينة أدت إلى تباين العقائد ، وتنافر أهلها»[٢٤٦] . واحتج أبو الريحان في مكان آخر للمسيحيين أن قولهم بالأبوة بمعنى السيد لا الأب على الحقيقة . قال : «اسم الأبوة والبنوة فإن الإسلام لا يسمح بهما إذ الولد والابن في العربية متقاربا المعنى ، وما وراء الولد من الوالدين ، والولادة منفية عن معاني الأبوبة ، وما عدا لغة العرب يتسع لذلك جداً ، حتى تكون المخاطبة فيها بالأب قريبة من المخاطبة بالسيد . وقد علم ما عليه النصارى من ذلك حتى أن مَنْ لا يقول بالأب والابن فهو خارج عن جملة ملتهم . والابن يرجع إلى عيسى بمعنى الإختصاص والإثرة ، وليس يقصر عليه ، بل يعدوه إلى غيره ، فهو الذي يأمر تلاميذه في الدعاء بأن يقولون : يا أبانا الذي في السماء . ويخبرهم في نعي نفسه إليهم بأنه ذاهب إلى أبيه وأبيهم . ويفسر ذلك بقوله في أكثر كلامه عن نفسه إنه ابن البشر»[٢٤٧] .

استعرض الأب ساكو تاريخ الثالوث المقدس عبر حياة وكتابات رجال الدين الأوائل ، فتبين أنه ظهر في القرن الثاني الميلادي بما عرف بالروح القدس بمعنى ابن الله المتأنس[٢٤٨] . وتألف الثالوث آنذاك من الله والأب والروح القدس ، والأخير هو ابن الله . ثم ظهر مفهوم الثالوث المتكون من : الأب والابن والروح القدس[٢٤٩] . وقيل حينها أن الإنسان عاجز عن تفسير الثالوث أو الأقانيم الثلاثة . لأنه ليس على مقدار كاف من النضج العقلي ، حتى يتمكن من تفسير ما لا يفسر . وفي القرن الثالث فُسر الثالوث تفسيراً حافظ على التوحيد المسيحي ، وهو : «أن الله الأب وحده في ذاته هو الله ، وأن الابن المنبثق من صورة صلاحه أزلي ومساوٍ له في الجوهر ، لكنه أدنى منه مرتبة»[٢٥٠] . وأن الأقنومين هما وسيطان بين الله الأب وخلقهُ .

ووردت ، في القرن الرابع الميلادي ، مقالة مفادها أن الله واحد وثالوث في آن معاً . قال افرهاط الحكيم : «نحن نعرف أن الله واحد ، ونشكر ونسجد ونهلل ونبجل ونمجد عظمته بو اسطة يسوع ابنه ، ومخلصنا الذي اختارنا وقربنا إليه ، ونجد إليه صيغة العماد : الأب والابن والروح القدس»[٢٥١] . وأعلن القديس أفرام السرياني (٣٠٦ - ٣٧٣م) : «لم يكرز (يبشر) المسيح ولم يعلم إلا بوجود إله واحد» ، وسماه (بايثا ايثوثا) أي الكائن الواجب الوجود . وأقر

---

(٢٤٦) البيروني ، القانون المسعودي ١ ص٢٥٠ .

(٢٤٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٢٩ .

(٢٤٨) ساكو ، آباؤنا في الإيمان ، ص ٣٩ .

(٢٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

(٢٥٠) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(٢٥١) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

الجاثليق إسحق (٤١٠م) بالمدائن الإيمان بالإله الواحد خالق السموات والأرض، وكل ما يرى وما لا يرى، وبيسوع ابن الله المولود من الأب والإيمان بالروح القدس[٢٥٢].

لم تكن الخلافات حول الثالوث المقدس بعيدة بمكان عن اهتمام خلفاء المسلمين، فقد جرت في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) مناظرة بين المهدي بن المنصور (ت١٦٩هـ) والجاثليق طيمثاوس، سأله المهدي بقوله: «أتؤمن بالأب والابن والروح القدس»؟ أجاب الجاثليق: «أيها الملك، إن الاعتقاد بهذه الأسماء الثلاثة هو اعتقاد بثلاثة أقانيم، أعني الأب والابن والروح القدس، الذين هم: إله وطبيعة واحدة وجوهر واحد. كذا نؤمن ونعتقد، على ما علّمنا صريحاً عيسى عليه السلام، وتعلمنا ذلك أيضاً من الأنبياء. ولنا برهان على ذلك في المخلوقات. فكما أن ملكنا (المهدي بن المنصور) محب الله هو واحد مع كلمته وروحه وليس بثلاثة ملوك، ولا يمكن أن ينفصل منه كلمته وروحه، ولا يسمى ملكاً دون الكلمة والروح. هكذا الله تعالى أنه واحد مع كلمته وروحه وليس بثلاثة آلهة، إذ لا يمكن أن ينفصل منه الكلمة والروح. كذا الشمس مع أشعتها وحرارتها هي واحدة وليس بثلاث شموس»[٢٥٣].

قال الخليفة: «بل ينفصل الكلمة والروح من الله»! أجاب الجاثليق: «حاشا وكلا. فكما أن الأشعة والحرارة لا تنفصلان من الشمس قطعاً هكذا كلمة الله وروحه لا ينفصلان منه أبداً. وكما أنه إذا انفصلت أشعة الشمس وحرارتها منها يزول نورها وحرارتها، ولا يمكن أن تدعى شمساً. هكذا الله سبحانه إذا انفصل الكلمة والروح يكون لا ناطقاً ولا حياً. أما الناطق فلا يقال عنه أنه معدوم الحياة والروح، فإن تجاسر أحد وقال عن الله إنه كان موجوداً في زمان ما دون الكلمة والروح فقد جدّف (كفر) لأن الله سبحانه منذ الأزل كان له الكلمة مولوداً، كينبوع النطق، وكان ينبثق منه الروح سرمدياً كينبوع الحياة»[٢٥٤].

تستهل الكنائس اليوم، ومنذ قرون، قداسها ومناسباتها بعبارة موحدة تقول: «بسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد آمين». أي أن الثلاثة هم تجلٍّ للواحد الأحد. إن الثالوث المقدس شبيه إلى حد كبير بالصفات عند المسلمين. وأن كلمة الابن لا تؤوّل تأويلاً حرفياً بل تقبل المجاز، مثلها مثل يد الله في القرآن «يد الله فوق أيديهم»، ووجه الله، التي وردت في عدة آيات منها «فثم وجه الله»، أو «ويبقى وجه ربك» و«تريدون وجه الله» وغيرها من الكلمات ظاهرها يدل على التجسيم والتشبيه.

---

(٢٥٢) المصدر نفسه، ص ١١٦.
(٢٥٣) البطريرك طيمثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي الإسلامي، بين النهرين ١٩٧٦/٤.
(٢٥٤) المصدر نفسه.

الأناجيل

الأناجيل المعتمدة عند المسيحيين، رغم كثرتها، أربعة فقط، ويذكر أن المسيح لم يأمر بكتابة الإنجيل. وهذا ما تنقله الروايات الإسلامية عن النبي محمد فيما يخص القرآن إنه لم يأمر بكتابته بين دفتي مصحف. «إلا ان المسيحيين الأولين ألحوا على الحواريين وأتباعهم أن يسطروا لهم سيرة الرب وتعاليمه، ليرجعوا إليها بالنظر، ويقرأوها في المجتمعات الدينية»[٢٥٥]. وبالتالي كان أول مَنْ دون الإنجيل القديس متّى، دونه باللغة الأرامية، المعروفة بين اليهود، فالكتاب في البداية كان موجهاً إليهم. بعدها ترجم إلى اللغة اليونانية والسريانية الحديثة، فأهمل الأصل الأرامي[٢٥٦]. وهذا خلاف ما شاع حول اللغة الأولى للإنجيل على أنها اليونانية. وبعد متّى دون القديس مرقس إنجيله باليونانية. أخذه مباشرة من لسان معلمه الرسول بطرس، صاحب لقب «هامة الرسل». ثم أعقبه لوقا، الطبيب والمتخصص بالآداب اليونانية، بتدوين الإنجيل الثالث.

قال أبو الريحان، المتسامح في نقله أو روايته حول أهل الأديان الأخرى في تدوين الإنجيل: «كتبه أربعة نفر، متبايني الأمكنة واللغة. وهم: «متي كتب بفلسطين بالعبرانية. ومرقوس بالروم بالرومية. ولوقا بالأسكندرية باليونانية. ويوحنا بأفيس باليونانية. ثم جمعت الأربعة أناجيل، وإن اختلفت لفظاً. واتفقت معنى في دفتين (يعني كتاب واحد بين دفتين) وسمي مجموعها الإنجيل»[٢٥٧].

دونت الأناجيل الثلاثة قبل «فتح أورشليم على يد طيطس، أي قبل السنة (٧٢) ميلادية. وتدعى بالأناجيل المتوافقة، وذلك لتوافقها في تعداد أعمال السيد المسيح، وذكر أقواله، ومشابهتها في سياق وطريقة الكتابة مع اختصاص كل منها بعدة أمور»[٢٥٨]. أما الإنجيل الرابع، الذي دونه يوحنا باليونانية أيضاً، فكان بعد اجتياح أورشليم. «وكانت الغاية من وضعه أن يدون فيه مالم يثبته الإنجيليون الأولون»[٢٥٩]. وترجمت الأناجيل الأربعة إلى لغات عالمية عدة قبل حلول القرن الخامس الميلادي.

كان اسم «الكتاب المقدس» عند المسيحيين العراقيين، حسب صاحب الفهرست النديم، «الصورة»، وقسماه العهد القديم والعهد الجديد، «الصورة العتيقة» و«الصورة الحديثة».

---

(٢٥٥) اليسوعي، الأناجيل القانونية وأناجيل الزور، المشرق، أذار ١٩٠٨.

(٢٥٦) المصدر نفسه.

(٢٥٧) البيروني، القانون المسعودي ١ ص٢٥٢.

(٢٥٨) المصدر نفسه.

(٢٥٩) المصدر نفسه

ورد في الرواية: «سألت يونس القس، وكان فاضلاً، عن الكتب التي يفسرونها ويعلمون بها مما خرج إلى اللسان العربي، فقال: من ذلك كتاب الصورة، وينقسم إلى قسمين: الصورة العتيقة والصورة الحديثة. وزعم أن العتيقة هي السند القديم على مذهب اليهود، والحديثة على مذهب النصارى. قال: والعتيقة تستند على عدة كتب، أولها كتاب التوراة، وهي خمسة أسفار.. وكتاب الصورة الحديثة ويحتوي على الأناجيل الأربعة: كتاب إنجيل متّى، كتاب إنجيل مرقس، كتاب إنجيل لوقا، كتاب إنجيل يوحنا، كتاب إنجيل الحواريين ويعرف بفراكسيس، كتاب بولس السليح، أربعة وعشرون رسالة (رسائل الرسل)»[٢٦٠].

يرد المسيحيون على خبر تحريف الإنجيل بأنه كتاب الله. ويا ترى كيف يحرف ما أوحاه الله على لسان نبيه، مع أنه دوّنَ بعد صلب السيد المسيح بعقود؟ لا يتعدى خبر التحريف، حسب المصادر المسيحية، الصراع بين الأديان والمذاهب، وحركات الهرطقة في داخل المجتمع المسيحي. وللكنيسة أدلتها على عدم تحريف روح النصوص، وكلماتها منذ تدوينها ولحد الآن. منها استشهاد الآباء القدماء بقسم كبير من نصوصها في مؤلفاتهم، وذلك في غضون القرن الأول الميلادي. ظلت محفوظة في الكنيسة الرومانية، «المعروفة بأم الكنائس» منذ القرن الثاني. وحرصاً على الإنجيل، منعت الكنيسة من تغيير أي كلمة فيه. حصل أن أحد الأساقفة «في مجمع قبرس (قبرص) حيث طلب تغيير لفظة سرير في اليونانية، في قول المسيح للمخلع: أحمل سريرك وأمض. فرأى أن تلك اللفظة عامية، فتصدى الآباء للخطيب وزجروه لطلبه تغييراً في كلام الله»[٢٦١].

ومن غير الأناجيل الأربعة المعروفة هناك عدد كبير من الكتب، التي أعتبرتها الكنيسة مزورة، وتشددت ضد تداولها، ونسبتها «لأصحاب البدع»، ومنها ما هو قديم يرتقي إلى القرون الأولى للمسيحية. مثل: «إنجيل يعقوب»، المنسوب لأسقف أورشليم الأول، كُتب في القرن الثاني من قبل اليهود المتنصرين. و«إنجيل متّى في مولد العذراء وطفولية المسيح»، المنسوب إلى القديس متّى، ويحوي زيادات وأخباراً من إنجيل متّى المعروف. ومن أخباره «انحناء النخلة بثمرها الجني إلى مريم وابنها ويوسف، أي العائلة المقدسة. ويعود تاريخ تدوينه باللاتينية إلى القرن السادس. ذلك ما ورد بشأن مريم في القرآن «وهزّي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رُطباً جنيّا»[٢٦٢]. و«إنجيل توما» الحاوي على أعمال يسوع، وهو في سن الخامسة. و«إنجيل الطفولية» الذي شاع بنصه العربي و«إنجيل نيقوديموس» المختص بآخر حياة يسوع.

---

(٢٦٠) النديم، الفهرست، ص٢٥-٢٦.

(٢٦١) الأناجيل القانونية وأناجيل الزور، المشرق، أذار ١٩٠٨.

(٢٦٢) سورة مريم ٢٥

ومن الأناجيل غير الرائجة «الإنجيل إلى العبرانيين» . ويعتقد أنه إنجيل متّى ، الذي كتب بالآرامية ، ثم تعرض للتحريف ، حسب رأي الكاثوليكية . لذا اعتبرته الكنيسة من الأناجيل المزورة ، وهناك صلة بينه وبين ما ورد في القرآن حول المسيح[٢٦٣] . و«إنجيل الأبيونيين» وهو أيضاً رواية محرفة عن أنجيل متّى . ولهذا الإنجيل كما وردت الإشارة ، صلة بما ورد في القرآن حول ماهية السيد المسيح . و«إنجيل برتلماوس» . و«إنجيل بطرس» . و«الإنجيل إلى المصريين» . و«إنجيل الاثني عشر» .

ومن الأناجيل المتداولة بين خصوم المسيحية «إنجيل برنابا» . ولبرنابا التلميذ الرسولي إنجيل ضائع كان البابا جيلاسيوس قد حرمه «في جملة التأليف المصنوعة سنة (٤٩٤م)» . وما أن ظهر كتاب موسوم باسمه حتى سارعت مجلة «المنار» إلى إصداره العام (١٩٠٧) ، مع مقدمة بقلم مؤسسها الشيخ محمد رشيد رضا . ويعتقد أن صاحبه راهب إيطالي «يدعى ماريني حرمه رؤساؤه لسوء سلوكه ، فكتب هذا الإنجيل في النصف الثاني من القرن السادس عشر»[٢٦٤] . ويذكر أن الكنيسة حرمت لهذا الراهب كتباً أخرى . وبالتالي لا علاقة للإنجيل المذكور ببرنابا أحد تلاميذ الرسل . وما يؤكد حداثته هو إنكاره لعقائد الدين المسيحي ، وفيه اسم النبي محمد ، مع أن المتفق في المصادر الإسلامية أن البشارة بالرمز لا بالاسم الصريح . قال الشيخ رضا في مقدمة النسخة العربية لـ «إنجيل برنابا» ناقداً الكنيسة : «لو بقيت تلك الأناجيل كلها لكانت أغزر ينابيع التاريخ في بابها ما قبل منها أصلاً للدين ، وما لم يقبل ، ولرأيت لعلماء هذا العصر من الحكم عليها ، والاستنباط منها بطرق العلم الحديثة المصونة بسياج الحرية والاستقلال في الرأي والإرادة ما لا يأتي مثله من رجال الكنيسة ، الذين اختاروا تلك الأربعة ورفضوا سواها»[٢٦٥] . وهذا ما حصل للقرآن أيضاً فقد أُحتفظ بنسخة عثمان بينما أُحرق مت سواها من النسخ[٢٦٦] .

وبعد عام من نشر هذا الإنجيل كتبت مجلة «المقتبس» التالي : «اعترفت الكنيسة بأناجيل أربعة ، وأبطلت ما عداها من الأناجيل ، وعدته مزوراً . ومن جملة الأناجيل التي أبطلها البابا في القرن الخامس للمسيح إنجيل برنابا . وبرنابا هذا يهودي من ساكني قبرص دان بالنصرانية . وكان من أتراب بولس الرسول ، طاف آسيا الصغرى وسورية وبلاد اليونان ، وقتل بقبرص نحو السنة (٦٣) للمسيح ، وقد وجدت نسخة من إنجيل ينسب إليه في مكتبة فينا الامبراطورية ، كُتب ، كما رجح العارفون ، في القرن السادس عشر باللغة الإيطالية

---

(٢٦٣) رودلف ، صلة القرآن باليهودية والمسيحية ، ص٨٢ .

(٢٦٤) الأناجيل القانونية وأناجيل الزور ، المشرق ، أذار ١٩٠٨ .

(٢٦٥) محمد رشيد رضا ، مقدمة الناشر في إنجيل برنابا ، ص (ف) .

(٢٦٦) الخيون ، جدل التنزيل ، ص ٣٥ وما بعدها .

القديمة ، وعليه حواش بالعربية ، فقال بعضهم أن لهذا الإنجيل أصلاً عربياً»[٢٦٧] .

وقال الأب لويس ساكو حول أصل برنابا : «نجده مذكوراً مرات عديدة في كتاب أعمال الرسل ، وأسمه الصحيح يوسف ، وقد لقبه الرسل ببرنابا ، ابن الفرج ، وكان لاوياً من أصل قبرصي . . . أستشهد دون أن يترك أي كتاب بين أيدينا»[٢٦٨] . وكتب شخص يدعى يوسف حداد كتاباً بعنوان «إنجيل برنابا شهادة زور على القرآن الكريم» (١٩٦٤) . وهناك أناجيل أخرى لم يأت الأب اليسوعي على ذكرها ، منها إنجيل «يوحنا المنحول» المكتوب بالإيطالية ، والمترجم إلى العربية ، ويعرف بمصحف «الأبقرفا» أيضاً ، وكان نسخه العام (١٣٤١م) ، وترجمه إلى اللاتينية (غالبياتي) مدير المكتبة (الامبروسيانية) بميلانو العام (١٩٥٧) ، حسب النسخة الموجودة في مكتبة الاستشراق البريطاني(SOAS) . واستهل الناشر الكتاب بحديث نبوي رواه سفيان بن عيينة : «إذا دخلت خزانة فاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها» . وبهذا الاستهلال حاول صاحب الترجمة والنشر التشكيك باصألة التأليف ، والإشارة إلى إسلاميته .

ووردَ في الإنجيل المذكور أن مسيحيين يعتقدون بأسرار لم تقلها الأناجيل الأربعة بعد ، وهي ، على حد عبارته «السراير الإلهية التي خص بها الاهنا المسيح لعبده وتلميذه يوحنا بن زبدي ، أنه لما كان قبل صعود سيدنا المسيح إلى السماء ، والتي لم يزل (لعلها لم ينزل) منها أختص سائر الاثني عشر من تلاميذه الأبرار بشيء من السراير . واختص من بينهم بطرس المطهر ، اطلع تلميذه أقليمس الذي صار بطريركاً بعده على مدينة روميه ، التي هي قبة دين النصرانية على السرائر التي حفظها عن إلهه . ودوّنها اقليمس في ستة مصاحف معروفة . ويوحنا دوّن السرائر . . . عن إلهه في عدة مصاحف . . . واجتمع الحواريون المقدسون فحرموا كل ما يقع شيء من هذه السرائر إليه ، فيخرجه للعوام . فمن مصاحف السراير التي دونها يوحنا التلميذ الحبيب هذا المصحف ، وهو يعرف بمصحف الاتقرفا (هكذا وردت)»[٢٦٩] . وحجة يوحنا باطلاع العوام على هذا المصحف هي القول : «إني قد ضمنت هذا المصحف ما أطلعني عليه إلهي من السراير . وذكرت فيه ما شاهدته من عجايبه (هكذا وردت ولعلها عجائبه) التي أضمنها إنجيلي . ولا أجد من أصحاب الأناجيل ، فإن هؤلاء الأربعة الإنجيليين المقدسين كتموا أكثر ما شاهدوه من العجايب ، التي صنعها سيدنا وإلاهنا المسيح كراهة لطول الإنجيل بها . ولأنهم علموا أن عقول عوام الناس لا تقبلها ، لصغر أمانتهم بهذا الأمر

---

(٢٦٧) إنجيل برنابا ، مجلة المقتبس ، الجزء السادس ، تموز ١٩٠٨ .

(٢٦٨) ساكو ، آباؤنا في الإيمان ، ص ٢٩ .

(٢٦٩) مخطوط إنجيل يوحنا المنحول (الابقرفا) ، ص١ -٣ .

الجليل ، الذي ستره الله عن ملائكته ، وأكثر أنبيائه ، وكشفه للصبيان المولودين في آخر الزمان ، كما قالت الكتب»[٢٧٠] .

القبلة والأعياد

يحدد الأب جان الدومنيكي اتجاه (قبلة) الكنيسة إلى جهة الشرق ، حيث القدس ونبع المسيحية الأول . «تقع الكنيسة عادة في الجهة الشمالية للفناء ، وأحياناً في جهته الجنوبية ، ولكنها متجهة إلى الشرق دوماً ، كما كان الحال مع المصلى (بيت صلوتا) . وهذا الاتجاه التقليدي في الشرق ، كما كان في الغرب سابقاً ، لم يهمل إلا عند تشييد الكنائس الحديثة ، ولأسباب قاهرة»[٢٧١] . وحسب أحد الكهنة ، أن فكرة الاتجاه نحو الشرق «لأنه المكان الأجدر ، موضع الحياة ، موضع القديسين ، الموضع الذي منه طُردنا (أي الفردوس) ، ومنه تشرق الشمس ، ومنه استقينا أصلنا ، إنه الموضع الذي امتدحه الله بفم أنبيائه»[٢٧٢] . وإذا نظرنا إلى تعيين قبلة الكنائس ودور العبادة الأخرى ، حسب المعطيات السابقة ، نجد شروق الشمس هو المكان المقصود ، فلا تخلو ديانة من الديانات ، بشكل من الأشكال ، من تقديس هذا الكوكب الهائل العجيب ، فمنه النور والحياة ، وبحركته تُحسب الدهور .

تحتفل كنائس العراق بالأعياد المريمية ، نسبة إلى مريم العذراء ، وهي غير الأعياد الرئيسة والمعروفة ، مثل الميلاد ورأس السنة والفصح أو القيامة والسعانين أو الشعانين (التسبيح) بعد صوم الأربعين وغيرها . وتختص كل كنيسة بعيد منها ، ولهذه الأعياد علاقة بحياة العذراء ، وما فيها من أفراح وأحزان . ولها علاقة أيضاً بحياة الناس . فعيد حافظة الزروع يعد من «أقدم الأعياد المسيحية»[٢٧٣] ، ويحل منتصف أيار ، موسم نضج الزروع . وكما أسلفنا لهذا العيد صلة بدور الإلهة عشتار في الزراعة واخضرار الأرض . وعادة يحتفل بهذا العيد في القرى المسيحية دون المدن . ويحتفل الأرمن الكاثوليك ببغداد بعيد سيدة الورود ، وفكرة المناسبة تتلخص بتقديم أعمال التقوى والفضيلة للعذراء «المرموز إليها بالورود»[٢٧٤] .

ويحتفل الآباء الكرمليون في ١٦ تموز بعيد سيدة الكرمل ، وهو جبل بفلسطين . فهناك شكَّلَ الآباء الزهاد ما عرف برهبنة الكرمليين نحو (١١٥٠م) . وتحتفل كنيسة انتقال العذراء

---

(٢٧٠) المصدر نفسه .

(٢٧١) الدومنيكي ، الآثار المسيحية في الموصل ، ص ٨٩ .

(٢٧٢) المصدر نفسه .

(٢٧٣) المخلصي ، مريم في كنائس العراق ، ص ٤١ .

(٢٧٤) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

ببغداد في ١٥ آب . وكنيسة السريان الكاثوليك تحتفل بسيدة النجاة . وتحتفل الكنائس في ٨ أيلول بولادة العذراء . وفي ١٤ منه يحتفل بأم الأحزان ، الذي يصادف بعد عيد الصليب . وأم الأحزان هي العذراء المطعونة بسبعة سيوف ، ترمز إلى أحزانها السبعة . وهي : النبوءة برفض الإيمان بولدها . الهروب إلى مصر . فقدان المسيح وهو طفل . لقاء الابن والأم في طريق الجلجلة ، أي طريق صلب المسيح ، الصلب . إنزال الصليب ودفن ولدها[٢٧٥] . وتحتفل كنيسة بارك السعدون بعيد أم المعونة وهي مريم .

إن تقليد الاحتفال بالعيد النبوي لدى المسلمين ، حسب ما أشار بعض الباحثين ، كان بتأثير عيد السعانين المسيحي والأعياد الأخرى . فأول مرة ، حسب ابن الشعار ، يحتفل بالعيد النبوي بأربيل[٢٧٦] . غير أن الباحث تبع إشارته بما يوهم القارئ بوجود رواية صريحة لابن الشعار الموصلي (ت٦٥٤هـ) تؤكد ما ذهب إليه . قال : «وبهذا ينال المسيحيون الأربيليون الفخر بأن أوحوا بهذا العيد لمسلمي أربيل . وهؤلاء بدورهم أصبحوا رواداً للعالم الإسلامي أجمع في هذا المضمار»[٢٧٧] .

والحقيقة ، أن ابن الشعار صاحب «قلائد الجمان» قال في ترجمته للشاعر عمر بن الحسن بن علي : إن سلطان أربيل مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري (هكذا وردت) «انفرد بشيء لم يسبقه أمر إليه من الملوك الحاضرين والخلفاء المتقدمين ، واختص به دونهم تبركاً بولادته عليه السلام ، فإنه كان يأمر بنصب القباب من الخشب متصلة منظمة من الخانقاه التي تحت القلعة المحروسة إلى الخانقاه التي تقرب من دار السلطنة بالمدينة منذ مستهل شهر صفر ، وتزين في العشرين منه بآلاف الثياب وأنواع السلاح والأقمشة الفاخرة»[٢٧٨] . ولا ندري إن كان كتاب «التنوير في مولد السراج المنير» الذي كتبه الشاعر عمر بن الحسن للملك الأعظم مظفر الدين كوكبري حافزاً لبدعة هذا العيد . وفي كل الأحوال لا يخلو الأمر من تأثير مسيحي . لكن ليس على الصورة التي رُسمت .

الاضطهادات

منذ العهدين الفرثي والساساني ، وحتى نهاية الحكم العثماني ، والمسيحيون واليهود العراقيون يعيشون تحت حكم يدين بدين آخر ، ويعاملون معاملة الغرباء . إذ عُرف الديوان

---

(٢٧٥) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٢٧٦) نباتي ، تاريخ عينكاوة ، ص ١١٨ .

(٢٧٧) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٢٧٨) ابن الشعار ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان ٥ ص ٣١١ .

المسؤول عن تصريف شؤونهم بديوان الجوالي ، كما سلفت الإشارة . والتسمية نسبة إلى الجالية ، وما يوحيه هذا المصطلح بإغتراب هؤلاء عن ديارهم ، رغم أنه في العهود كافة أعتبروا من تكوينات البلاد الأصلية . فهم الآشوريون والكلدانيون والعرب والكرد . وكثيراً ما أعتبرهم الفرس المجوس والعرب المسلمون من أتباع الروم ، وذلك لرابطة الدين . ولتأكيد ولائهم غالباً ما كان يخرج الجاثليق أو البطريرك ورجال الكهنوت إلى الثغور مع الجيوش لملاقاة الروم . وفي أوقات الهدن والمصالحات يستخدمون بالسفارة بين الدولتين .

قال البير أبونا مشيراً إلى تلك الحال : «لقد كان المسيحيون عرضة للتعسف والاحتقار في الإمبراطورية الفارسية . وكانوا على علم بما يجري وراء الحدود الفارسية ، وبالحرية الدينية التي كان ينعم بها إخوانهم في الإمبراطورية الرومانية . فكانوا من ثمة دوماً يتوقون إلى العيش في ظل هذه الإمبراطورية لينعموا بشهرة انطاكية ، وروما الخيالية القديمة ، ثم روما الجديدة . وطالما اشتاقوا إلى رؤية الجحافل الرومانية تدخل وادي دجلة ، تتقدمها الرايات الخفاقة تحمل الشارات المقدسة . فأنى لهم أن يجدوا الراحة والهناء في مملكة تضمر لهم العداء ، رغم ولائهم وطاعتهم للسلطات الحاكمة؟ إنهم كانوا دوماً يحسبون غرباء ودخلاء . بل خونة متآمرين . هم أهل البلاد الأمناء والمسالمون! فإن الظنون تحوم حول إخلاصهم ، والضربات تنهال عليهم بين الفينة والفينة ، إلى أن أدت البربرية ببشاور وطغمته إلى الرغبة في استئصال شأفتهم والقضاء عليهم قضاء مبرماً ، وإذ به يتذرع بحجج واهية للتنكيل بهم ، فأعلن عليهم اضطهاداً عنيفاً دام نحو أربعين سنة ، وأودى بحياة الألوف منهم»[٢٧٩] .

كان الاضطهاد الأربعيني ، كما سلف ذكره ، من أعنف الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون لموقف سياسي وديني مشترك ، وهو تحملهم تبعات الحرب المستمرة مع الروم وحث فقهاء المجوس الملوك على اضطهادهم . ويكشف كتاب «قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب» الستار عن حملات عنيفة تعرض لها مسيحيو العراق والشرق ، حتى قبل تنصر الروم زمن قسطنطين الكبير وزوجته هيلانة (٣١٣م) . وأكثر هذه الحملات مارسها اليهود بنجران والمجوس بالعراق كانت بسبب العقيدة .

أخبر الكتاب المذكور عن قتل راهبات بحرق الكنائس عليهن . وحدث أن قتل ، في القرن الرابع الميلادي ، «مطران سلوقية - قطيسفون - في العاصمة الشتوية (المدائن) بحجة أنه يرفض ضرائب إضافية على شعبه لمساعدة المجهود الحربي ، فكان استشهاده الأول من سلسلة كاملة من الاستشهادات»[٢٨٠] . كما قتل بوسي «رئيس إدارة الأيدي الماهرة

(٢٧٩) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ١ ص٣٩ .

(٢٨٠) برك وهارفي وبورسك ، قديسات وملكات ، ص٩٢ .

التابعة للملك»[٢٨١] . وعلى أثر ذلك قتلت أختا المطران شمعون ، وابنة بوسي مرثا «بتهمة أنهن سحرن الملكة التي كانت مريضة» . وقتلت مرثا في يوم أحد القيامة . وفي كل هذه الأحداث كان موبذات (فقهاء) المجوس يصدرون فتاوى القتل ضد المتنصرين ، وخاصة من الطبقة الأرستقراطية الزرادشتية . وكانت أكثر التهم المقدمة ضد الراهبات هي تهمة السحر .

اختلف الأمر في العصور الإسلامية . فهناك شريعة تتيح الإيمان بالمسيحية . لكن الأمر كثيراً ما كان يعتمد على تفسير أو تأويل أو فهم الخليفة أو الوالي للنص القرآني . يضاف إلى الدوافع الأخرى ، ومنها المزاج الشخصي والطمع بضريبة الجزية . فالقرآن يحمل في ثناياه التضاد . كشف عن هذه الظاهرة النبي محمد ومن ثم الإمام علي بن أبي طالب في وصية لابن عمه عبدالله بن عباس ، وهو يريد مفاوضة الخوارج . جاء في الحديث النبوي : «القرآن ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجه»[٢٨٢] . وجاء في الوصية : «لا تخاصمهم بالقرآن ، فإن القرآن حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون . ولكن حاججهم بالسنّة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً»[٢٨٣] .

فما يخص أهل الذمة هناك آيات تظهر الود لهم ، وتعترف لهم بحقوق صريحة . بينما تعلن آيات أخرى تكفيرهم ونسخ دياناتهم بدين الإسلام ، وتوصي بصغر رقابهم عند دفع الجزية . مما جاء لصالحهم قوله : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»[٢٨٤] . و«اليوم أُحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم»[٢٨٥] ، و«وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون»[٢٨٦] ، و«ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون»[٢٨٧] .

غير أن لهجة القرآن اختلفت في آيات أخرى ، فحلت المواجهة والنفرة محل الحوار والمودة . تجاه المسيحيين وأهل الذمة عامة . نذكر منها قوله : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب

---

(٢٨١) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٢٨٢) شهري ، ميزان الحكمة ٨ ص١٠٢ .

(٢٨٣) نهج البلاغة ، وصية رقم ٣١٥ .

(٢٨٤) سورة العنكبوت ٤٦ .

(٢٨٥) سورة المائدة ٥ .

(٢٨٦) سورة المائدة ٤٧ .

(٢٨٧) سورة المائدة ٨٢ .

حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»[288] . و«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين»[289] . و«يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون»[290] . عموماً أن العبارة القرآنية التي وردت في آية الجزية «عن يد وهم صاغرون» شجعت الفقهاء أن يعتبروا الجزية «من باب العقوبات ، لا أنها كرامة لأهل الكتاب . فلا يستحقها سواهم»[291] .

يجد المتسامحون والمتشددون من الفقهاء المسلمين في هذه الآيات ، التي تساعد معرفة أسباب نزولها على فهمها وتأويلها تأويلاً مناسباً ، حجةً قرآنية تدعم السلوكين أو الممارستين تجاه أهل الذمة . لكن لا أحد يستطيع أن يقنعنا بأن في القرآن ما يؤيد فرض زي خاص عليهم ، أو تمييزهم بمراكب دونية كالحمير عوضاً عن الخيل والبراذين ، أو يمنعون من تقلد السيوف ، أو يُخفض بناء بيوتهم عن مستوى بناء بيوت المسلمين ، أو لا تقبل شهادتهم مقابل شهادة المسلمين ، أو تقل دية قتلاهم عن دية قتلى المسلمين ، وأن لا يسمح بتجديد بيعهم ، ولا الجهر بعبادتهم ، ولا البكاء على ميتهم ولا الفرح بعرسهم ، وأن يقتل غير المسلم إن كان على علاقة بامرأة مسلمة ، ولا يؤكل طعامه وأن يشار إليه بالدونية!

الأرجح أن عمر بن الخطاب هو واضع أسس معاملة أهل الذمة بما عُرف في ما بعد بالشروط العمرية[292] . فنسخ بها نصوصاً قرآنية وعهد النبي لهم . أورد ابن تيمية الشروط بواحد وعشرين شرطاً وهي : لا يتخذ المسيحيون كنيسة ولاصومعة في ديار المسلمين . لا يمنعون المسلمين من نزول كنائسهم لثلاثة أيام . لا يظهرون ما يخالف الإسلام . لا يعلو بنيانهم على بنيان المسلمين ، لا يعلمون أولادهم القرآن ، لا يركبون الخيل والبغال بل يركبون الحمير وأفخاذهم مثنية ، لا يظهرون على عورات المسلمين ، يتجنبون أوساط الطرق توسعة

---

(٢٨٨) سورة التوبة أو براءة ٢٩ . معروف أن هذه السورة هي الوحيدة ، كما تقدم ، من بين سور القرآن المائة والأربع عشرة لم تُستهل بالبسملة ، ذلك على حد قول الإمام علي بن أبي طالب حينما استفسره البعض عنها : «براءة نزلت بالسيف» جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ،١ ص١٤٢ .

(٢٨٩) سورة المائدة ٥١ .

(٢٩٠) سورة آل عمران ٧٠ .

(٢٩١) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص١٧ .

(٢٩٢) مسألة في الكنائس ، ص١٣٤- ١٣٧ . ويختم ابن تيمية رسالته في الكنائس بقول نبوي حسب نقله : «اليهود والنصارى خونة لا أعان مَنْ ألبسهم ثوب عز» . لكن أين الشروط العمرية من موقف نجاشي الحبشة المؤيد للمسلمين ، وموقف مقوقس القبط بمصر ، وموقف عداس ، والآية التالية «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وهم لا يستكبرون»(المائدة) . راجع في الشروط العمرية أيضاً ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٣٨ وما بعدها ، والتلمساني ، تحفة الناظر وغنية الذاكر ، ص ١٤٣ وما بعدها .

للمسلمين . لا ينقشون خواتمهم بالعربية . أن يحلقون مقادم رؤوسهم . يلزمون الزي المقرر عليهم . لا يستخدمون مسلماً . لا يتسمون بأسماء المسلمين ، ولا يتكنون بكناهم . لا يركبون سفينة نوتيها مسلم . لا يشترون رقيقاً من سبي المسلم . لا يشترون شيئاً مما خرجت عليه سهام المسلمين . لا يبيعون الخمور . حكم الزاني بمسلمة منهم القتل . لا يلبسون عمامة صافية . لا يشتركون مع المسلمين بتجارة . لا يخدمون الملوك ولا الأمراء .

وهناك روايات تقول إن الشروط العمرية هي من لدن عمر بن عبد العزيز ، وهذا بعيد ، لأن الأخير لا يمتلك السطوة التي تركها ابن الخطاب في التشريع الإسلامي السُنّي . وإن كان لابن عبد العزيز من دور في هذا الأمر فهو لا يتعدى إحياء سُنَّة عمر الأول . ظلت تلك الأحكام حاضرة في ذاكرة خلفاء المسلمين ، يمارسونها متى شاؤوا ، ويلوحون بها إن اقتضت الحاجة إلى زيادة الجزية . وإن حكم الردة ، الذي لا يجد في القرآن حجة شرعية ، جعل الكثير من المسيحيين ، الذين اسلموا للخلاص من مرارة التمييز الديني وجز الأموال منهم عرضة للموت ، فإن دخل الإسلام لظرف أو قناعة غير ثابتة ثم عاد إلى دينه أُخذ وقتل!

حذا زعيم الثورة الإيرانية إية الله الخميني حذو الشيخ ابن تيمية ضد أهل الكتاب ، وشرع فيهم الشروط العمرية نفسها . حكم فيهم : أن لا يحدثوا كنيسة . ولا يضربوا ناقوساً . ولا يطيلوا بناءً . واشترط عليهم التميز في اللباس والشعر والركوب واستعمال الكُنى ، أي لا يتكنوا بكُنى يتكنى بها المسلمون . وأفظع ما في ذلك هو كراهة تحيتهم ابتداءً ، أو تحريمها وهو الأفضل عنده . ولو بدأ الذمي بالسلام ينبغي أن يقتصر الجواب بكلمة (وعليكم) أي لا يجاب بعبارة «عليكم السلام» ، حتى يفهم أنه في حالة حرب لا سلام . ويستحب مضايقتهم في اضطرارهم إلى أضيق الطرق . هذا ما يخص أهل الذمة . أما أهل الأديان الأخرى ، والصابئة منهم ، حسب فقه الخميني ، فالأفضل ترك السلام عليهم[٢٩٣] .

كذاك حذا الخميني في صبيان أهل الأديان حذو أبي حامد الغزالي عندما حكم في صبيان الإسماعيلية أو الشيعة عموماً في كتابه «فضائح الباطنية» . أي تعرض رقابهم على السيف . إما القتل وإما الإسلام . قال : «كل مَنْ بلغ من صبيانهم يؤمر بالإسلام ، أو الجزية ، فإن امتنع صار حربياً ، ولا بد في الصبيان من العقد معهم»[٢٩٤] . وترى الخميني ، وهو مؤسس دولة في العصر الحديث ، يسد باب التسامح مع أهل الأديان الأخرى عندما يقول : «فإن كتبهم ليست إلا محرفة غير محترمة»[٢٩٥] . ولم يمنعهم من دخول المسجد الحرام فقط ،

---

(٢٩٣) الخميني ، تحرير الوسيلة ٢ ص ٤٥٣ .

(٢٩٤) المصدر نفسه ، ص ٤٤٩ .

(٢٩٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥٦ .

مع أن الرسول سمح لنصارى نجران الصلاة فيه بصلاتهم[٢٩٦]، بل يمنعهم من دخول المساجد كافة. قال: «وليس للمسلمين أذنهم فيه، ولو أذنوا لم يصح»[٢٩٧].

إن عمل المسيحيين في الإدارة العباسية، وخدماتهم الجليلة في الكتابة والطب والحسابات، لم تلاقِ عند المحتسبين والفقهاء المتشددين تقديراً يذكر. فلتنفيذ آية الجزية «يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون» حدث في السنة (٦٢٧هـ) أن جلس «محمد بن فضلان في ديوان الجوالي واستوفى الجزية من أهل الذمة، فكان أحدهم يقف بين يديه إلى أن توزن جزيته، ويكتب له، وهو صاغر (مهانٌ وراض بالذل)، فلقوا من ذلك شدة، وكان أبو علي ابن المسيحي رئيس الطب له أختصاص ودخولٌ إلى دار الخليفة، فأظهر المرض واعتذر. وسأل أن تؤخذ جزيته من يد ولده، فلم تقبل منه، فحضر وأداها. ومضى ابن الشويح رأس مثيبة اليهود إلى داره ليلاً، وسأله أن يأخذ الجزية منه، فلم يلتفت إليه، وقال له: لابد أن تحضر نهاراً إلى الديوان وتؤديها، وشدد في ذلك ولم يسامح أحداً»[٢٩٨].

تفصح ممارسة صاحب الجوالي، وهو من الفقهاء المتشددين ضد أهل الذمة، عن عصبية وطائفية لا تليق بمعاملة إنسان يقدم من الخدمات الجليلة للمسلمين والبلاد. ينتسب ابن فضلان إلى مذهب لا يرى الناس متساوين كـ«أسنان المشط»، حسب الموروث النبوي، فحدث أن قُتل السنة (٦٣٢هـ) «رجل نصراني، كان يسكن في درب الشاكرية، قتله غلام له، وأظهر أنه سافر. فطال العهد بذلك، والغلام في داره يتصرف فيها على حسب إيثاره، فارتيب به، فأخذ وقر بالضرب، فاعترف بأنه قتله وألقاه في بئر داره. فوقع الاقتصار على تخليده السجن. لأن الغلام كان مسلماً، عملاً بمذهب الشافعي وأحمد في ذلك»[٢٩٩]. وكما سبقت الإشارة أن حكم الإمام أبي حنيفة أن يُقتل المسلم بالذمي.

كتب ابن فضلان إلى الخليفة الناصر رقعة يطلب فيها تطبيق المذهب الشافعي في معاملة أهل الذمة، ليكون تنفيذها رسمياً بتوقيع الخليفة. ومن وظائف صاحب الرقعة السابقة: قاضي قضاة، وناظر ديوان الحسبة، وناظر أوقاف المدارس والأربطة الصوفية، ومدرس المذهب الشافعي في المدرسة المستنصرية. أشارت رقعة صاحب الجوالي إلى تأرجح تنفيذ أحكام أهل الذمة المرفوعة كما قلنا إلى أحد العمرين، ابن الخطاب أو ابن عبد العزيز،

---

(٢٩٦) راجع: ابن هشام، السِّيرة النبوية ٢ ص ١٥٩-١٦٠. الواحدي، أسباب النزول، ص ٦٨. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٤٤١.

(٢٩٧) المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

(٢٩٨) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٣.

(٢٩٩) المصدر نفسه، ص ٧٣.

ويأتي فيها بشواهد تاريخية ووصايا تدعم طلبه ، لكن من حسن حظ أهل الذمة أن الخليفة الناصر ، وهو من الخلفاء الأقوياء ذي الميول الشيعية ، قد أهمل تلك الرقعة ، ففيها ما يسيء إلى دولته ورعاياه[٣٠٠] .

---

(٣٠٠) نص رقعة ابن فضلان إلى الخليفة الناصر لدين الله(ت٦٢٢هـ) : «مذهب الشافعي ، رضي الله عنه ، يقضي أن المأخوذ من أهل الذمة ، أعني اليهود والنصارى في كل سنة أجرة عن سكناهم في دار السلام ، والإرتفاق بمرافقها لا يتقدر في الشرع بمقدار معين في طرف الزيادة ، ويتقدر في طرف النقصان بدينار ، فلا يؤخذ من أحد منهما على الإطلاق أقل من دينار ، ويجوز أن يؤخذ ما يزيد على الدينار إلى المائة ، حسب امتداد اليد عليهم مهما أمكن . فإن رأيي أن يتضاعف على كل شخص منهم ما يؤخذ منهن . فللآراء الشريفة علوها في ذلك ، وهذا لا يبين عليهم ، لا في أحوالهم ولا في ذات أيديهم ، لأن الغالب على الجميع التخفيف في القدر المأخوذ منهم .
وهم ضروب وأقسام ، منهم من هو في خدمات الديوان ، وله المعيشة السنية ، غير بركة يده الممتدة إلى أموال السلطان والرعية من الرشا والبراطيل ، ولعل الواحد منهم ، ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة ، هذا مع مالهم من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترقي على رقاب خواص المسلمين . وقد شاهد العبد وغيره من الفقهاء الحاضرين في المخزن لتناول البر المتقبل : أن ابن الحاجب قيصر ، أقام ابن محرز الفقيه من طرف موضع كان به وأقعد مكانه ابن زطينا كاتب المخزن لمكان خدمته .
وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال : أمرنا أن لا نساويهم في المجلس ولا نشيع جنائزهم ولا نعود مرضاهم ولا نبدؤهم بسلام . وقد كان ابن مهدي استفتي العبد وغيره في تولية ابن ساوا النظر بواسط ، فقال العبد : لا يجوز ذلك ، وذكر له قصة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، مع أبي موسى الاشعري ، وذلك أنه عرض عليه حسبة عمل من الأعمال ، فأعجبته ، فقال : من كاتب هذه؟ وكان عمر جالساً في المسجد ، فقال له أبو موسى : رجل بباب المسجد ، فقال عمر : ما باله لا يدخل المسجد أجنب هو؟ قال : لا إنما هو نصراني ، فغضب عمر ، وقال : أتقربونهم وقد أبعدهم الله ، وتأمنونهم وقد خونهم الله ، وترفعونهم وقد وضعهم الله ، لا يعمل لي هذا عملاً في بلد من بلاد الإسلام . ثم ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة مالهم في مدينة السلام .
فلو تضاعف المأخوذ منهم مهما تضاعف ، كان لهم الربح الكثير . ومنهم الأطباء أصحاب المكاسب الجزيلة ، بترددهم إلى منازل الأعيان ، وأرباب الأحوال ، ودخولهم على المتوجهين في الدولة ، والناس يتحملون فيما يعطون الطبيب زائداً على القدر المستحق ، وهو أمر من قبل المروءات ، فلا ينفكون عن الخلع السنية والدنانير الكثيرة ، والطرف في المواسم والفصول مع ما يحطون في المعالجات ، ويفسدون الأمزجة والأبدان ، ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين (من كتاب الطب) ، وخمس قوائم من تذكرة الكحالين ، وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة ، وجلس في مقاعد الأسواق والشوارع على دكة حتى يعرف ، وبين يديه المكحلة والملحدان ، يؤذي هذا في بدنه ، ويجرب على ذا في عينه ، فيفتك من أول النهار إلى آخره ، ويمضي آخر النهار إلى منزله ، ومكحلته مملوءة قراصنة (نقود) .
فإذا عرف بقعوده على الدكة وصار له الزبون ، قام يدور ويدخل ويدور . ومنهم أرباب المعايش من العطارين والمخلطين والكسارين ، أصحاب المكاسب الظاهرة ، والإرتفاقات الكثيرة بأموال التجار المسلمين ، وأخذهم من الحجر بالمدة ، وما يعفوا في ميزان الذهب وميزان الأرطال . وما يغشون في الحوائج ويدغلون . ومنهم أصحاب الحرف والصناعات من الصاغة وغيرهم ، وما يتقلبون فيه من

جاء في «الحوادث الجامعة» : «فلما وقف الخليفة على رقعته لم يعد له جواباً» . وأهمية الرقعة التاريخية أنها سجلت اضطهادات أهل الذمة على مر العصور الإسلامية .

يغفل الفقهاء من مستوى ابن فضلان جوانب هامة من الانفتاح ألإسلامي على الآخر . تراهم يتمسكون بالشروط العمرية القاسية على أهل الأديان الأخرى والمسيئة إلى إنسانيتهم ، ويتناسون الموقف المسيحي الإيجابي إجمالاً من الإسلام ، ويتناسون أيضاً موافقة النبي على صلاة مسيحي نجران بالمسجد النبوي ، الذي يمنع أهل الكتاب اليوم من دخوله ،

= الذهب والفضة ، ويسرقون الذهب ، ويجعلون عوضه المس ويعدلونه ويسرقون الفضة ، ويجعلون عوض ذلك في المواضع المستورة ، بحسب احتمالها ، تارة قاراً وغير ذلك . ومنهم الجهابذة وما يسرقون في القبض والتقبيض .

ومنهم الصيارف واحتجاجهم ببضاعة دار الضرب ، مع مالهم من التبسط في المسلمات والمسلمين ، وبذل جزيل المال في تحصيل أغراضهم في الفساد ، ورفاهية العيش والتلذذ في المآكل والمشارب . ثم ما زالوا على اختلاف الزمان ، يؤخذون بالصغار ولبس الغيار ، الذي أوجبه الشرع عليهم . وكتب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى أمراء الأمصار : أن يحملوا أهل الذمة على جز نواصيهم ، وان يختموا أعناقهم بخواتم من رصاص أو حديد ، وأن يركبوا على الاكف عرضاً ، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ، يتميزوا بذلك عن المسلمين ، وعلى ذلك جرى الأمر في زمن الخلفاء الراشدين . وآخر من شدد عليهم المقتدي بأمر الله (ت ٤٨٧هـ) ، وأجراهم على العادة ، التي كانت في زمن المتوكل . فعلق في أعناقهم الجلاجل ، ونصب الصور والخشب على أبوابهم ، لتتميز بيوتهم عن بيوت المسلمين ، وان لا يساوي بنيانهم بنيان المسلمين . وألزم اليهود لبس الغيار والعمائم الصفر ، وأما النساء فالأزر العسلية ، وان تخالف المرأة منهم بين خفيها ، واحد أسود ، والآخر أبيض ، وأن يجعلوا في أعناقهم أطواقاً من حديد إذا دخلن الحمامات .

وأما النصارى فلبس الثياب الدكن والفاختية ، وشد الزنانير على أوساطهم ، وتعليق الصلبان على صدورهم ، وإذا أرادوا الركوب لا يمكنون من الخيل ، بل البغال والحمير بالبراذع دون السروج ، عرضاً من جانب واحد . فهؤلاء قد حط عنهم هذا كله ، فلا يقابل ذلك تضعيف ما يؤخذ منهم ، وهؤلاء في أكثر البلاد يلزمون الغيار ، ولا يتمكنون من الدخول إلا في أرذل الصنائع ، وأرذل الحرف . أما بخارا وسمرقند ، فمنقوا الكنف والمجاري ، ورفع المزابل ، ومساقط الفضلات هم أهل الذمة . وأقرب البلاد إلينا حلب ، وهم بها عليهم الغيار .

ومن حكم الشرع أنه إذا أُخذت الجزية منهم يدفعها المعطي منهم ، وهو قائم ، والآخذ قاعد ، يضعها في كفه ليتناول المسلم من وسط كفه ، تكون يد المسلم العليا ويد الذمي هي السفلى ، ثم يمد بلحيته ويضرب في لهازمه ، ويقول له : أد حق الله يا عدو الله يا كافر . واليوم ، منهم من لا يحضر عند العامل ، بل ينفذها على يد صاحبه . الصابئة قوم من عبدة الكواكب ، يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة حالياً) ، لا ذمة لهم ، وكان في قديم الزمان لهم ذمة ، فأستفتى القاهر بالله (ت٣٢٢هـ) ، أبا سعيد الاصطخري ، من أصحاب الشافعي ، في حقهم ، فأفتاه بإراقة دمائهم ، وأن لا تقبل منهم الجزية ، فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار ، فأمسك عنهم ، وهم اليوم لا جزية عليهم ، ولا يؤخذ منهم شيء ، وهم في حكم المسلمين والأمر أعلى «الحوادث الجامعة» ص ٦٤-٧٠ .

بل ومن دخول الحجاز قاطبة . ورد في الرواية حول وفد نجران : «لما قدموا على رسول الله(ص) المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب . قال : يقول بعض من أصحاب النبي(ص) يومئذ : ما رأينا وفداً مثلهم . وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله (ص) (المسجد النبوي اليوم) يصلون . فقال الرسول (ص) : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق»[٣٠١] .

ويعلق الشيخ الأزهري خليل عبد الكريم على هذه الواقعة ، ومفارقتها لممارسات المتشددين في الوقت الحاضر المدعين الإلتزام بسنّة محمد ، بالقول : «تظهر سماحة محمد في موافقته لوفد نصارى نجران على أن يؤدوا شعائر صلاتهم في مسجده ، ورغم إدعاء مسلمي اليوم عمق تأسيهم بمحمد وإقتدائهم به في الصغيرة والكبيرة من شؤون الدين على وجه الخصوص ، فلو أن مسيحياً أو ثلة من المسيحيين استأذنوا في أداء صلاتهم في أحد مساجدهم لكان جزاؤهم : الموت الزؤام - وهكذا يستبين أن القيم العالية التي بشر بها محمد يتضاءل تمسك أتباعه بها ، وتخف رويداً رويداً - ولا يبقون إلا على الشكليات والرسوم»[٣٠٢] .

ظلت الشروط العمرية عذراً بيد المتشددين إلى يومنا هذا يلوحون بها لقمع الحريات الدينية التي هي من فسح الإسلام أساساً . في هذا الأمر كشفت النيابة الكويتية أثناء التحقيق مع أحد أتباع تنظيم القاعدة أن ما يؤخذ على الكويت وغيرها من البلدان في إيواء الأمريكان أنهم لا يخضعون لهذه الشروط . وورد في اعترافات أحدهم : «يجب أن يلتزم بها غير المسلم ، ومنها تفريق الشعر ، وعدم ركوب الخيل ، وعدم إشهار السلاح ، وأن ينزل من على ظهر الحمار عند مرور المسلم ، وأن تضع النساء علامة حمراء على أرجلهنَّ ، وأن لا يشتروا سبايا المسلمين وشروط أخرى»[٣٠٣] .

صنف الأب اسحق أرملة السرياني (١٨٧٩-١٩٥٤) كتاباً موسوماً بعنوان «القصارى في نكبات النصارى» وصنف هرمز أبونا في «الآشوريون بعد سقوط نينوى..مذابح بدر خان بك في تياري وحكاري» . ذكرا فيهما مذابح ومآس مفزعة ، تعرض لها المسيحيون قتلاً أو رمياً في الآبار بين(١٨٤٣-١٨٤٦) و(١٨٩٠-١٩١٨) بالعراق وديار بكر وماردين ، وغيرها من المناطق العثمانية آنذاك . وما فعله الاغوات الكرد في شمال العراق بالجماعات السريانية والآشورية ، بدافع قومي وديني . وهذه المذابح التركية والكردية الرسمية لا بد أن تصنف في خانة الإبادة الجماعية والتطهير العرقي ، أسفرت عن قلع مناطق وقرى مسيحية كاملة من الوجود .

---

(٣٠١) ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ ص ١٥٩-١٦٠ ، الواحدي ، أسباب النزول ، ص ٦٨ . ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢ ص ٤٤١ .

(٣٠٢) عبد الكريم ، دولة يثرب بصائر في عام الوفود ، ص ٢٩٧ .

(٣٠٣) جريدة الشرق الأوسط تاريخ ١٢ أيلول «سبتمبر» ٢٠٠٢ .

فمن مظاهر تلك الحوادث حرق الكنائس وهدمها على رؤوس المصلين المسيحيين والمحتمين فيها ، يحدث هذا عادة اثناء احتفال بعيد أو إقامة قداس . وتُنفذ المجازر أيضاً بهجومات جماعية على الأحياء الآمنة ، وقتل سكناها وتشريدهم ، حتى لم يحصل أن يعرض عليهم الإسلام ، ليحموا أنفسهم من الموت ، وكما جرت العادة إن قبلوه سلموا وإن رفضوه قتلوا . ومن الحوادث المزعة أن يُجمع الأطفال تحت الحطب وإشعال النيران فيه ، أو رميهم في الآبار . وخلاف تلك المشاعر العنيفة ، هناك اغوات كرد حملوا مشاعر لينة لمواطنيهم من الأديان والقوميات الأخرى ، فوقفوا ضد هذه الممارسات ، وقاموا بحماية وإيواء العائلات ، لأغراض يفسرها الأب أرملة ، تحت تأثير الشعور بالألم ، وبالحاجة إلى مهارات هؤلاء الفنية ، واستخدامهم بالخدمة . نقرأ في هذا الكتاب حوادث مريعة كثيرة قد يؤيد أنباء حصولها تغيير الواقع السكاني بهذا المستوى لصالح الكرد المسلمين في المنطقة .

وعلى الرغم من كل ذلك يهوّن الأب البير أبونا ، بروح مسيحية ، من تلك الاضطهادات المريرة ، التي حصلت لقرون عديدة بقوله : «لا ينبغي التسرع في الحكم على هذه الإجراءات التعسفية ، التي كانت وليدة نفسية خاصة ، وفترة من التعصب الديني ، الذي تكرر أحياناً في التاريخ ، لا سيما في عهدي المغول والعثمانيين . ألم يستخدم الأمراء المسيحيون أنفسهم في العصر الوسيط إجراءات أكثر صرامة في أوروبا ضد اليهود ، وفي أسبانيا ضد المسلمين؟ فعلينا أن نضع ونفهم الأمور ، في إطارها التاريخي ، دون أن تثير في نفوسنا استياءً أو حقداً أو تزمتاً دينياً»[٣٠٤] .

الديارات

سجل المؤرخون وأهل الأدب أديرة وكنائس المسيحيين في كتب خاصة ، عُرفت بالديارات . كان في مقدمتها كتابا أبي الحسن الشابشتي (ت ٣٨٨هـ) ، و أبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) . ونجد في «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، وفي الكتب البلدانية الأخرى تفاصيل كثيرة . ومن بين هذه الكتب نعتمد «الديارات» للشابشتي ، ففيه مادة غنية لمجمل ديارات العراق . وقد حشاه المحقق كوركيس عواد بمعلومات وروايات لا يستغنى عنها . وحسب أخبار هذه الديارات أنها كانت مكان جذب للمسلمين أيضاً ، ومحل إعجاب الخلفاء والوزراء . وإن جاز القول كانت مظهراً من مظاهر العراق الحضارية والثقافية .

---

(٣٠٤) أبونا ، تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ ص١٧٥ .

تبدو الأديرة بمنتزهاتها وموسيقاها الدينية ، واحتفالاتها بالأعياد المستمرة طوال العام ، محلات مضيئة تخفف آلام الطواعين والأوبئة والمجاعات والحروب والغزوات والتعسف الديني والمذهبي . فهناك فارق كبير بين خزائن الرؤوس ، التي تحفظ رؤوس المقتولين لتجديد نشوة الانتصار ، وبين دير تُعزف فيه الموسيقى الدينية وتنشد فيه الأناشيد الممجدة الله والخير ، مستوحاة من الرحمة اللامحدودة وحفيف الأشجار ، وخرير مساقط المياه المحيطة . يجد عابر السبيل وضال الطريق والمريض فيه يداً حنونة تخفف من الآلام . لكن هناك من المؤرخين المرضى مَنْ وصف لمسة اليد الرحيمة والابتسامة البريئة لراهبات الأديرة بأرذل الوصف وأشنعه . ومن غير ما يلقاه عابرو السبيل والمرضى من إهتمام ورعاية ألهمت حدائق وعزلة الأديرة الشعراء والأدباء ، فنظموا فيها وكتبوا عنها رقيق الكلام . وهي بهذا صاحبة فضل على مجمل تاريخ حركتنا الثقافية . ولولا فضلها وتفوقها في المكان ما خصها المؤرخون بمعاجم وبيانات ، بغض النظر عما دس فيها من أخبار لا يعقلها عاقل . خصت بذلك لجمال أمكنتها أولاً ، ولانفتاحها الاجتماعي ، وطيب عزلتها من ضجيج الأسواق والمدن ثانياً .

سجل الشابشتي أخبار (٥٣) ديراً ، منها (٣٧) ديراً بالعراق . ومن أديرة بغداد القديمة دير درمالس عند باب الشماسية (الصليخ اليوم) نسبة إلى الشماس في الكنيسة . واسم الشماسية يدل على اختصاصها بالمسيحية وكثرة كنائسها قديماً . وموقع الدير «أحسن موقع ، وهو نزه كثير البساتين والأشجار»[٣٠٥] . ودير سمالو بباب الشماسية أيضاً ، يقع على نهر المهدي ، «وهناك أرحية للماء ، وحوله بساتين وأشجار ونخل . «وعيد الفصح ببغداد فيه منظر عجيب . لأنه لا يبقى نصراني إلا حضره ، وتقرب فيه ، ولا أحد من أهل التطرب واللهو من المسلمين إلا قصده للتنزه فيه ، وهو أحد منتزهات بغداد المشهورة»[٣٠٦] . ويقع دير الثعالب بالجانب الغربي (الكرخ) بمكان يعرف بباب الحديد . لا يكاد هذا الدير «يخلو من قاصد ومن طارق ، وله عيد لا يتخلف عنه أحد من النصارى والمسلمين»[٣٠٧] . قال الأمير دهقانة الهاشمي ، والي البصرة أيام ثورة الزنج ، واصفاً :

دير الثعالب مألف الظلال
ومحل كل غزالة وغزال
سقيته وشربت فضلة كأسه
فشربت من عذب المذاق زلال

(٣٠٥) الشابشتي ، الديارات ، ص ٣ .
(٣٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٤ .
(٣٠٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

يلمح الشابشتي ، في قصة ذكرها في سياق حديثه حول دير مديانا ، إلى أن الامراء العباسيين كانوا يفرضون أنفسهم على الرهبان ، مستغلين ضعفهم وشروط الذمة ، فيحولون دياراتهم إلى أماكن لهو وشراب ، مع أن الشراب (النبيذ) الذي في الأديرة لا يتعدى الطقس الديني إلى السكر واللهو . جاء في القصة : كان أبو علي ابن الرشيد يلزم هذا الدير ، وكان شديد التهتك ، فحاول والي المعتصم على بغداد أن ينهاه عن ذلك ، لكنه لم يسمع ولم ينته ، فأتى الوالي إلى الدير واقتحمه عليه ، ووجده سكراناً «يلبس ثياب مصبغة ، فحمله وضربه عشرين درة بباب الدير . وقال له : «في تأديبك صيانة للخلافة ، وردع لك ولغيرك عن هذه الفضيحة»[٣٠٨] .

ودير أشموني ، الذي ذكره الشابشتي خطأً بقوله : «أشموني امرأة بني الدير على أسمها ، ودفنت فيه ، وهو بقطربُل»[٣٠٩] . ولم تقتل أشموني وأولادها السبعة بالعراق ، بل قتلت بأورشليم ، السنة (١٢٤ق .م) ، على يد الوثنيين ، وقيل على يد المجوس[٣١٠] . وربما كانت قصة هذه البطلة من وحي الخيال . لقد «تبنت كنيسة المشرق قصة جهاد هذه الأم وأولادها بمدلولها الروحي ، كنموذج يحتذى به منذ فجر انتشار المسيحية»[٣١١] . ولأشموني ، التي يضيف البيروني إلى اسمها اسم مقبايا[٣١٢] ، عدة كنائس وأديرة قديمة وحديثة بالعراق . وورد شأنها في التوراة بالقول : «قبض أيضاً على سبعة أخوة مع أمهم ، فكان الملك يريد أن يكرههم على تناول لحم الخنزير المحرم ، فيعذبهم بالسياط وأطناب الثيران ، وجعل أحدهم نفسه لسان حالهم ، فقال : ماذا تبتغي أن تسألنا وأن تعرف عنا؟ إننا مستعدون لأن نموت ولا نخالف شرائع آبائنا»[٣١٣] . وخلدَ أبو نواس أشموني وقصتها بقوله :

بأشموني وسبعة قدمتهم
وما حادوا جميعاً عن طريق[٣١٤]

وفي دير أشموني قال جحظة :

سقياً لأشموني ولذاتها
والعيش فيما بين جناتها

---

(٣٠٨) المصدر نفسه ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣٠٩) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

(٣١٠) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٣٠٠ .

(٣١١) تاريخ عينكاوة ، ص ٧٢ .

(٣١٢) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٣٠٠ .

(٣١٣) الكتاب المقدس ، سفر المكابين الثاني ١٠١٨ - ١٠١٩ .

(٣١٤) الشابشتي ، الديارات ، ص ٢٠٥ .

ومن ديارات بغداد دير سابر بالكرخ ، وصفه الحسين بن الضحاك بقوله :

فـي ديـر سابر والصبـاح يلوح لي
فجمعـت بدراً والصبــاح لاحـا

ودير قوطا أو البدران ، ويتصل ببغداد عبر بساتين ومنتزهات ، قال العباس بن الفضل بن الربيع (الوزير) :

أقمـت بالدير حتـى صـار لي وطناً
من أجلـه ولبسـت المسح والصُلبا

وأبرز ديارات تكريت دير الصباعي . وهو «نزه عامر ، له ظاهر عجيب فسيح ، ومزارع حوله على نهر» قال الشاعر فيه :

حـنَ الفـؤادُ إلـى ديــر بتكريـتِ
بيـن الصباعي وقس الدير عفريتِ

يعد دير قنى من أقدم الديارات المسيحية بالعراق ، وهناك من اعتبره معقل المسيحية[٣١٥] ، يعرف أيضاً بدير مار ماري السليح (شليحا أي الرسول) أحد المبشرين الأوائل . ويقع «على ستة عشر فرسخاً من بغداد ، منحدراً إلى الجانب الشرقي ، بينه وبين دجلة ميل ونصف (ولأهميته) بينه وبين دار عاقول (عاقولاء وهي الكوفة) بريد»[٣١٦] . شيدته امرأة نبيلة تدعى قنى بعد شفائها من مرض البرص على يد مار ماري (القرن الأول للميلاد) ، محل بيت نار مجوسي ، اصبح مدفناً لكثير من جثالقة الشرق كان أولهم مار ماري[٣١٧] ، وظل قائماً حتى القرن السابع الهجري .

كذلك دير الأعلى من أقدم وأهم أديرة الموصل ، يطل على دجلة والعروب (النواعير) . وقيل : «ليس للنصارى دير مثله ، لما فيه من أناجيلهم ومتعبداتهم ، وفيه قلايات (صوامع) لرهبانه ، وله درجة منقورة في الجبل»[٣١٨] . قال الثرواني :

واصطبح في الدير الأعلى   في الشعانين اصطبــاحا

نزله المأمون (ت ٢١٨هـ) في هذا الدير وهو في الطريق إلى الاصطياف ببرقة الشام ، «ووافق نزوله عيد الشعانين» ، فاستقبله المسيحيون استقبالاً لائقاً بالخلافة . تقدم الفتيان

---

(٣١٥) المصدر نفسه ، الحاشية ، ص ٢٦٥ .

(٣١٦) المصدر نفسه .

(٣١٧) المصدر نفسه (الذيل) ، ص ٣٩٣ .

(٣١٨) المصدر نفيه ، ص١٧٦ .

والفتيات حاملين الرياحين والكؤوس ، «فأفادهم وجعل يأخذ من هذا ومن هذه تحية»[٣١٩] .
وفي الموصل أيضاً دير يونس بن متّى ، يقع «في الجانب الشرقي من الموصل ، بينه وبين دجلة فرسخان ، وموضعه يعرف بنينوى»[٣٢٠] . ودير الشياطين ببلد غربي دجلة «له منظر حسن وموقع جليل ، وهواؤه رقيق لطيف ، وقلاليه (صومعاته) عامر ة ، كثير الأشجار ، وأرضه كثيرة الرياض»[٣٢١] . وكان دير شهرا ، بين بغداد وسامراء ، محطة للمسافرين ، و «أحد المواضع المقصودة والديارات المشهورة ، والمنحدرون من سُرَّ مَنْ رأى والمصعدون إليها ينزلونه ، فمَنْ جعله طريقاً بات فيه ، وأقام به إن طاب له . ومَنْ قصده أقام الأيام في ألذ العيش وأطيبه ، واحسن مكان وأنزهه»[٣٢٢] . قال أبو العيناء (ت٢٨٢هـ) :

نــزلنـــا ديــر باشهرا ... عـلـى قسيـســه ظُهـرا
عـلـــى ديـــن لأيسوع ... فـمـــا أفـتى ومـــا أسـرا

ومن الأديرة الخاصة بالنساء دير الخوات ، «تسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه . يقع وسط البساتين والكروم ، حسن الموقع ، نزه الموضع ، وعيده الأحد الأول من الصوم . يجتمع إليه كل مَنْ يقرب منه من النصارى والمسلمين ، فيعيد هؤلاء ويتنزه هؤلاء ، وفي هذا العيد ليلة الماشوش»[٣٢٣] . والماشوش ليلة إباحية ، يختلط فيها الرجال والنساء لممارسة الجنس غير المشروع تحت ستار الظلام . وسبق أن أُتهمت بإحياء مثل هذه الليلة طوائف مسلمة عديدة منها القرامطة والزنج والإسماعيلية والعلي إلاهية وغيرهم . ولا يتأخر عدد من المؤرخين المسلمين وصم المسيحيين وغيرهم من المخالفين بها . ولاندري ، كيف تجاز ممارسة مثل هذه في دير للراهبات ، أقر الشابشتي بتبتلهن؟ ويُكذب الأب الكرملي في مجلته «لغة العرب»(العدد ١٩٣٠/٨) ، والزيات في «الديارات النصرانية» هذا الخبر .

وفي دير السوس بسامراء قال عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ) :

ياليالـيَّ بالمطيـرة والكـرخ ... ودير السُّوسي بالله عودي

كان الأمير الشاعر العباسي ، والخليفة ليوم واحد ، عبد الله بن المعتز ، يتردد أيضاً على دير مار ماري ، بصحبة الفضل بن العباس بن المأمون[٣٢٤] .

---

(٣١٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .
(٣٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .
(٣٢١) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .
(٣٢٢) المصدر نفسه ، ص ٧٩ .
(٣٢٣) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .
(٣٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .

كانت ديارات الأساقفة بالنجف، حولها نهر الغدير، على يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر المنصور، وعن شماله السَّدير». قال علي بن محمد الحِماني العلوي:

كـم وقفة لك بالخـورنق   لا تُـوازى بـالمواقـف

بين الغـدير إلـى السدير   إلى ديـارات الأسـاقف

ومن أبنية الحيرة المسيحية قبة الشتيق (كلمة سريانية تعني الساكت)، تقع «على طريق الحاج، وبازائها قباب يقال لها الشكورة، جميعها للنصارى، فيخرجون يوم عيدهم من الشكورة إلى القبة، في أحسن زي، عليهم الصلبان، وبأيديهم المجامر»[٣٢٥]. ودير سرجس، بين الكوفة والقادسية، بمكان يعرف قديماً بطيزناباذ. خُرب هذا الدير زمن الشابشتي (القرن الرابع الهجري). قال: «خربت الآن، وبطلت وعفت آثارها، وتهدمت آبارها، ولم يبق من جميع رسومها إلا قباب خراب، وحجر على قارعة الطريق، تسميه الناس معصرة أبي نواس»[٣٢٦]. وربما وردت التسمية لقول أبي نواس في المكان:

قالـوا تنسـك بعد الحج! قلت لهم

أرجـو الإلـه وأخشـى طيـزنابـاذا

ويعد دير هند بنت النعمان بن المنذر من أعظم ديارات الحيرة، التي غاب أثرها، فهي التي «بنت هذا الدير... وترهبت فيه وسكنته دهراً طويلاً، ثم عميت». وقيل زار هند، التي عاشت حتى زمن ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق (٧٥-٩٥هـ)، سعد بن أبي وقاص عند دخوله الكوفة. وقيل إنها سألت خالد بن الوليد يوم دخل الحيرة بقولها: «هؤلاء النصارى الذين في أيديكم تحفظونهم. فقال: هذا فرض علينا، قد وصانا به نبينا. قالت: مالي حاجة غير هذه، أنا ساكنة في دير بنيته ملاصق هذه الأعظم البالية من أهلي حتى ألحق بهم»[٣٢٧]. قال أبو فرج الأصفهاني: «لما حبس كسرى النعمان الأصغر أباها، ومات في حبسه، ترهبت ولبست المسوح، وأقامت في ديرها مترهبة، حتى ماتت ودفنت فيه»[٣٢٨].

وبالحيرة، ذكر الأصفهاني دير هند الكبرى بنت الحارث الكندي، وكان مكتوب في صدره: «بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة بنت الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح، وأم عبده، وأمة عبده، في زمن ملك الأملاك خسرو

(٣٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٣٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٣٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ وص٣٨٩.

(٣٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٨٨ عن الأغاني ٢ ص٣٣ (لم يرد في كتاب الديارات لأبي فرج الاصبهاني أو الاصفهاني.

آنوشروان ، وفي زمن أفرايم الأسقف . فالإله الذي بنت له هذا البيت يغفر خطيّتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بهما ويقومهما إلى إقامة الحق ، ويكون الإله معها ومع ولدها الدهر الداهر»[٣٢٩] . ومن أشهر ديارات غربي العراق دير مار يونان بالأنبار وكان «كثير القلايات والرهبان ، وعليه سور محكم البناء ، فهو كالحصن له ، والجامع ملاصقه»[٣٣٠] . وقيل أن يونان ، مؤسس هذا الدير أو العُمر ، أنحدر من جزيرة قبرص ، من سلالة الملك قسطنطين ، وكان طبيباً وفيلسوفاً ، وذهب إلى مصر وتتلمذ على القديس أوجين . ثم قدم معه إلى العراق[٣٣١] مبشراً . ويعود تاريخ وجود هذا الدير إلى القرن الرابع الميلادي . شهد هذا الدير نكبة البرامكة السنة (١٨٧هـ) ، ورد في الرواية : بعد عودة الرشيد من الحج نزل الحيرة ثم صعد إلى الأنبار ، فنزل الدير ، وأمر مسرور الخادم بجماعة من الجند بإحضار الوزير جعفر بن يحيى البرمكي وقطع رأسه ، ففعل ذلك[٣٣٢] . ثم نُقلت جثته إلى بغداد وشُطرت إلى نصفين صُلبا على مقدمتي الجسر مدة من الزمن .

يذكر من ديارات أنحاء العراق الأخرى دير كسكر «في أسفل واسط في الجانب الشرقي منها ، بالقرية المعروفة ببرجوني ، وفيه كرسي المطران ، وهو عمر كبير عظيم محكم الصنعة ، حوله قلايات كثيرة ، كل قلاية منها لراهب»[٣٣٣] . ودير مار جرجيس بعانة على الفرات ، قال فيه أبو طالب المكفوفي الواسطي :

بيـــن وردٍ ونـــرجـــسٍ وبـهـــار
وسـط بساتين دير مار سرجيس

كان تقديس مار جرجيس من متعلقات المذهب اليعقوبي ، و«عرب بلاد الشام اليعاقبة يتيمنون به ، ويصنعون صورته مع الصليب على راياتهم ، أملاً في الفوز في المعارك ، وإلى هذا القديس أشار الشاعر (المسيحي) الأخطل بقوله :

لـمـا رأونـا والصليب طـالعــا
مار سرجيس مـوتـاً نـاقـعـا
وأبـصـروا رايـاتـنـا لـوامـعـا
خـلّــو لنـا راذان والمزارعا[٣٣٤]

---

(٣٢٩) الاصفهاني ، الديارات ، ص ١٦٨ .

(٣٣٠) الشابشتي ، الديارات ، ص ٢٥٨ .

(٣٣١) المصدر نفسه ، ص ٣٩١ .

(٣٣٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٤ ص٦٦١ .

(٣٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

(٣٣٤) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦ ص٦٣٣ .

يرصد حبيب الزيات تفاصيل الديارات والكنائس وما فيها من صور فنية ومنحوتات «أما محفورة منقوشة بأنواع الأصبغة والأدهان، وأما مرسومة بأزهى الألوان»[٣٣٥] . وفيها صور الأنبياء والقديسين والعذراء والصلبان. وقيل إن المعتصم مرَّ ببيعة مار جرجس فعجبته صورة، فاطال النظر إليها، فقال أبو النصر البصري، وكان يرافقه :

فتنتنا صورة في بيعة — فتن الله الذي صورها
زادها الناقش في تحسينها — فضل حسن أنه نضَّرها
وجهها لا شك عندي فتنة — وكذا هي عند مَنْ أبصرها

الأحد الدامي

يفهم مما تقدم أن اضطهادات أهل الكتاب والمسيحيين في مقدمتهم حصلت بفعل السلطة، بأيادي ملك أو خليفة أو أمير أو أغا. وربما لا تجد إلا القليل وغير المحسوس ما يصدر من عامة الناس، من دون حراك سياسي. لكن ونحن نعد لطبعة الكتاب الثانية فوجئنا بسلسة من الانفجارات التي طالت خمس كنائس عراقية ببغداد والموصل. كان حصيلة ضحاياها عشرة قتلى وعشرات من الجرحى. حدث ذلك في صبيحة يوم الأحد الأول من أغسطس «آب» ٢٠٠٤، وهو يوم دامٍ في حياة المسيحيين العراقيين.

إن أختيار هذا اليوم لا يعني غير الإبادة الجماعية للمسيحيين بالعراق. فعادة يتوجهون بشيوخهم ونسائهم وشبابهم وأطفالهم إلى الكنائس لأداء الصلاة. أي أن تفجير الكنائس وهي آهلة برجال الدين والأتباع لا يعني غير أنها أخدود نجران أخرى، تلك التي ذكرها القرآن في سورة «البروج». لكن هذه المرة بخليط من السلفيين الإسلاميين والبعثيين. توجهت أصابع الإتهام إلى الجماعات الدينية المتشددة، التي تعمل تحت أمرة الأردني أبي مصعب الزرقاوي، الذي قيل أنه وصل العراق في العهد السابق للعلاج بمستشفيات بغداد، كنوع من التعاطف بين نظام البعث وتنظيم القاعدة. وفي غضون ذلك أعلنت جماعة إرهابية مسؤليتها عن تفجيرات الكنائس، تدعى «هيئة التخطيط والمتابعة في العراق»، في بيان بُث من موقع ألكتروني إسلامي. جاء فيه : «قام إخوانكم المجاهدون بتفجير أربع سيارات مفخخة في بغداد استهدفت الكنائس الواقعة في الكرادة وبغداد الجديدة والدورة، بينما تولت مجموعة أخرى من المجاهدين ضرب الكنائس في مدينة الموصل»[٣٣٦] .

---

(٣٣٥) زيات، الديارات النصرانية في الإسلام، ص ٢ .

(٣٣٦) جريدة الشرق الأوسط في عددها المؤرخ ٣ أغسطس «آب» ٢٠٠٤

أدانت الحكومة العراقية التفجيرات بشدة ، وأوفدت نائب رئيس الوزراء برهم صالح لتطمين وجهاء المسيحيين وزعامتهم الدينية . وتبنت الحكومة تكاليف ترميم الكنائس وتعويض المتضررين . وأعلن رئيس الوزراء أياد علاوي عن «اجراءات فورية لحماية المسيحيين» . كذلك أعلنت الزعامة الدينية الشيعية بالنجف ممثلة بآية الله علي السيستاني شجب الحادث واعتباره من الجرائم الكبرى . جاء في فتوى تنديد السيستاني ما نصه : «بسم الله الرحمن الرحيم . . في مسلسل الأعمال الاجرامية التي يشهده العراق العزيز ، وتستهدف وحدته واستقراره واستقلاله ، تعرض عدد من الكنائس المسيحية في بغداد والموصل إلى اعتداءات آثمة ، أسفرت عن سقوط عشرات الضحايا الأبرياء بين قتيل وجريح . كما تضرر من جرائها الكثير من الممتلكات العامة والخاصة . وإننا إذ نشجب وندين هذه الجرائم الفظيعة ، ونرى ضرورة تضافر الجهود وتعاون الجميع ، حكومة وشعباً ، في سبيل وضع حد للأعتداء على العراقيين ، وقطع دابر المعتدين ، نؤكد على وجوب إحترام حقوق المواطنين المسيحيين وغيرهم من الأقليات الدينية . ومنها حقهم في العيش في وطنهم العراق في أمن وسلام . نسأل الله العلي القدير أن يجنب العراقيين جميعاً كل سوء ومكروه ، وينعم على هذا البلد العزيز بالأمن والاستقرار أنه سميع مجيب»[٣٣٧] .

ومن جانبه بادر جماعة الصدر ، أو التيار الصدري ، إلى شجب الحادث واعتباره جريمة نكراء ، وعمل إرهابي . واتهمت «هيئة علماء المسلمين» السُّنِّية جماعة خارجية بالضلوع بتفجيرات الكنائس . أما على الصعيد العربي الديني فأعلن مفتي عام الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو في بيان له استنكار الحادث ، واعتباره شر محض للعراق وليس بمقاومة شريفة . كما أدانت الحادث منظمة المؤتمر الإسلامي ، والأخوان المسلمين بمصر[٣٣٨] .

عموماً ، أن تفجيرات الكنائس وإن استهدفت المسيحيين ، ومحاولة دق أسفين بينهم وبين المسلمين ، حسب تصريح رئيس الوزراء أياد علاوي ، إلا أنها طالت العراقيين على مختلف أديانهم ومذاهبهم . فقبلها فُجرت كميات هائلة من الديناميت بالقُرب من ضريح الإمام علي بن أبي طالب بالنجف ، مستهدفة آية الله محمد باقر الحكيم ، فتركت جسده أشلاء متناثرة . وفُجر مرقد الإمام موسى الكاظم ببغداد يوم العاشر من محرم ، وراح ضحية الحادث عشرات من الشيعة ، وهم يؤدون طقوس ذكرى مقتل الإمام الحسين بن علي . كذلك طالت التفجيرات مساجد شيعية وأخرى سُنِّية . ومحلات ومنازل الصابئة المندائيين . واتجهت عصابات لقتل الأيزيديين جماعياً ، لكن اكتشف الأمر في اللحظات الأخيرة .

---

(٣٣٧) مكتب السيد السيستاني ، النجف الأشرف ٢آب ٢٠٠٤ ، ١٥جمادي الثاني١٤٢٥ .

(٣٣٨) راجع تقرير جريدة الحياة في عددها المؤرخ ٣ أغسطس «آب» ٢٠٠٤ .

وفي يوم عيد الأضحى ، بُعيد سقوط النظام ، حدثت إنفجارات هائلة بأربيل راح ضحيتها العشرات من كوادر الحزبين الكرديين . وافظع التفجيرات ما حدث بسوق ببعقوبة وآخر بالحلة . ومعلوم يرتاد السوق مختلف طبقات الناس : نساء وأطفال وشيوخ . أتينا على ذكر هذه المعلومات المعروفة لدى العراقيين لتأكيد أن أصابع الإرهاب غير موجهة ضد فئة بعينها ، وإنما تختار أهدافها بشكل عشوائي ، مستغلة فرصة ضعف الأمن والحيطة في هذا المكان أو ذاك . لكن يبقى للمتشددين الإسلاميين موقفهم الظلامي من أهل الأديان الأخرى . وهم بذلك يخالفون تعاليم إسلامية وأُصول يدعون بإلتزامها ، وأهمها حق أهل الأديان في الأمن والحياة وممارسة طقوسهم في كنائسهم أو دور عبادتهم . ورغم التهديد بالقتل وتفجير الكنائس مارس مسيحيو العراق أعياد الميلاد طقوسهم تحت حراسة مشددة ، وكتبت جريدة عراقية تصدر ببغداد عن هذه اللحظات القلقة تقول : «جرت الاحتفالات التي أقيمت بكنائس بغداد والمحافظات بسلام . فيما كان العراقيون من الأديان الأخرى يحرسون مداخل الشوارع المؤدية إلى الكنائس تعبيراً عن حرصهم على لحمة الصف العراقي وتكاتفه . والعمل على عدم إفساح المجال لزعزعة هذا التلاحم التاريخي»[٣٣٩] .

إحصاء

قدر عدد المسيحيين العراقيين العام (١٩٧٥) بنصف مليون نسمة ، موزعين على النحو التالي : الكلدان الكاثوليك ، وهم الأغلبية ، (٣١٦) ألف نسمة ، لديهم : بطريرك واحد ، تسعة أساقفة ، (٩٤) كاهناً ، مائة كنيسة ، و(٣٠) ديراً . وبلغ الآشوريون النساطرة (٨٢) ألف نسمة ، لديهم : بطريركان ، أربعة أساقفة و(٣٤) كاهناً ، (٣٨)كنيسة وعشرة أديرة . السريان الكاثوليك (٤٠,٥٠٠) نسمة ، لديهم : أسقفان ، (٣٥)كاهناً ، (١٩) كنيسة وستة أديرة . وعدد السريان الأرثوذكس (٢٩,٧٠٠) نسمة ، لديهم أسقفان ، (١٦) كاهناً ، (٢٠) كنيسة وأربعة أديرة . وقُدر الأرمن الأرثوذكس بـ (١٩) ألف نسمة ، لديهم : أسقف واحد ، ستة كهنة ، ست كنائس وديران . واللاتين - كاثوليك - (٣٥٠٠) نسمة ، لديهم : أسقف واحد ، ١٨ كاهناً ، ثلاث كنائس وستة أديرة . وأرمن كاثوليك (٢١٨٠) نسمة ، لديهم : أسقف واحد ، ثلاث كهنة ، كنيستان . وعدد البروتستانت (١٥٠٠) نسمة ، لديهم : أسقف واحد ، كاهن واحد وثلاث كنائس . وأقباط (١٥٠٠) نسمة ، لديهم : كاهن واحد وكنيسة واحدة . وسبتيون (١٥٠٠) نسمة ، لديهم : أربع كنائس ، بلا أساقفة ولا كهنة . وروم كاثوليك (٥٠٠) نسمة ، لديهم : كاهن واحد وكنيسة واحدة[٣٤٠] .

---

(٣٣٩) كل العراق البغدادية ، العدد ٦٧ التاريخ ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٤ .

(٣٤٠) أرملة ، القصارى في نكبات النصارى ، ص ١٤٥ ، ملاحق .

غير أن تقرير مديرية الأمن العامة عدهم ، وفقاً لإحصاء (١٩٧٧) ، بما هو أقل من هذا بكثير ، وأقل بكثير أيضاً من التصورات الحالية التي قدرتهم بثلاثة أرباع المليون . إذ عدهم التقرير المذكور بـ (٢٥٣,٤٧٨) نسمة ، وأورد عددهم الكلي حسب الإحصاءات السابقة (١٩٤٧ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) على التوالي : (١٤٩,٣٧٧) ، (٢٠٤,٢٢٦) ، (٢٣٢,٤٠٦) نسمة[٣٤١] . كذلك نشرت مجلة «بين النهرين» تقريراً وافياً خاصاً ببطريركية بابل الخاصة بالكاثوليك الكلدان يوضح عدد الأتباع والكنائس والنشاط العام مفصلاً يحوي أبرشيات : الموصل ، بغداد والبصرة ، زاخو ، عقرة ، العمادية ، كركوك . ويظهر الإحصاء أن عدد كنائس الموصل بلغ ٣١ كنيسة ، وعدد الكاثوليك الكلدان فيها (٥١٤٩١) نسمة . تأتي بعدها كنائس العمادية ، المعروفة قديماً ببيت زبدى ، التي بلغت ٢٣ كنيسة و(٦٣٧٩) نسمة . زاخو ٢٠ كنيسة و(٧٥٠١) نسمة . عقرة ١٢ كنيسة و(١٧٤٩) نسمة . بغداد والبصرة معاً ١٢ كنيسة و(٤٩٤٢٠) نسمة . وكركوك ٩ كنائس و(١١٨٩٠) نسمة . المجموع العام (١٠٨) كنائس و(٩٩) قساً ، و(١٢٨٤٣٠) نسمة[٣٤٢] .

---

(٣٤١) مديرية الأمن العامة ، التوزيع الديني للسكان العراقيين ، ص٢٦ .

(٣٤٢) الأب روفائيل الأول بيداود ، إحصائية عن كاثوليك الطقس الكلداني لبطريركية بابل ، مجلة بين النهرين ، العدد ١٠٧-١٠٨ العام ١٩٩٩ .

الفصل الخامس

الشيعة

إن العيش بمنطقة مغلقة لملة واحدة، ليس فيها ما يختلف معها في مقالة أو ممارسة، يوحي بالشعور بتفردها، ويعمق فكرة الفرقة الناجية المتداولة في كتب الملل والنحل، لها الجنة وللآخرين الجحيم. هذا ما حصل معي وأنا أدلف، في أول زيارة لبغداد، وكنت صبياً، إلى جامع الحيدرخانة السُنّي على ضفة شارع الرشيد اليسرى، وأنت متجه من الشمال إلى الجنوب، وتضع خلفك ضريحي إمامي المذهبين، الشيعي والسُنّي: موسى الكاظم وأبو حنيفة النعمان. يتوسدان ضفتي دجلة الغربية والشرقية، ويربط بينهما جسر يعرف، نسبة إليهما، بجسر الأئمة. والاثنان قتلتهما السلطة نفسها بفاكهة وشراب مسمومين.

لحني خادم الجامع أبحث عن شيء ما، فسألني إن كان يستطيع مساعدتي! قلت له: أبحث عن تربة (لغير العراقيين: يصلي الشيعة على تربة منحوتة من طين كربلاء، يعتقد أنها مدافة بدم الحسين بن علي، أو أنها توفر مكاناً طاهراً للسجود) أجاب الرجل بحدة: «ليس في هذا الجامع ترب، ولا يجوز الصلاة على تربة»! حينها فهمت أنني دخلت المكان الخطأ. ومما زاد استغرابي رأيت المصلين يضمون اليدين إلى الصدور! فتبين لي الفارق، حسب المشهد، كبير بين الصلاة في الجامع الشيعي عنها بالجامع السنّي.

طرح هذا المشهد أمامي أسئلةً عديدةً، منها أن للصلاة طرقاً أخرى غير الطريقة الشيعية، فعبارتي «أشهد أن علياً ولي الله» و«حي على خير العمل» واستخدام التربة وإرسال اليدين هي تعاليم خاصة بنا، وليس بالمسلمين عامة، وأن مذهبنا ليس الوحيد وسط هذا الكون. ومن هذه الزيارة عرفت أن أمثال طبيب منطقتنا اليهودي (أبو كاتي) ومعلمة مدرستنا، الخاصة بالبنات، انطوانيت وزوجها اسكندر يملأون بغداد، وهم من أقدم أهل العراق، ولم يأتوا من أرض أخرى. والكل بشر مثلنا يعرفون الله حق معرفته، ولهم سبلهم

في اكتشافه والابتهال إليه . وليست الجنة لنا وحدنا ، لأن الإمام علي بن أبي طالب يقف على السراط المستقيم يأخذ بأيدينا إلى حدائقها .

غير أن هذا التفرد بالدين والمذهب لم يجعلنا في تقاطع تام وحاد مع الغير . فالصابئة المندائيون ، الذين لم تعرف المنطقة ديانتهم على حقيقتها ، كانوا يعيشون بيننا ، ويتحملون تجاوزنا عليهم بصبر لا مثيل له ، دون النزوع إلى إلغائهم ، وربما يعود ذلك إلى اختصاصهم في خلق وسائل إنتاج المنطقة ، ومسالمتهم المتناهية . ولا أدري كيف فعل التعصب المذهبي فعله ليكون السُّنِّي بعيداً لدرجة الضيق من دخولي بطريق الخطأ إلى جامع سُنِّي؟ مع أن اليمنيين ، حيث عملت هناك طوال أحد عشر عاماً ، وهم شيعة زيدية وسُنَّة شافعية ، تمكنوا من توحيد الجامع؟ رغم تقدمنا الحضاري والثقافي عليهم . وأن درجة الطائفية لديهم أقل حدة من التي عندنا . ومع ذلك لسُنَّتهم أهازيج تردد عند ظهور النزعات الطائفية ، منها : «أحنه شوافع والمذاهب أربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) والمذهب الخامس (الشيعي) مسيح» .

كان البحث عن التربة في جامع سُنِّي ، بعفوية الذي لا يفقه بواطن الأمور وعمق الخلاف بين الطائفتين ، بداية مراجعة لأمور وممارسات عديدة ، كنت أعيشها تلقائياً دون مناقشة أو سؤال ، مثل التفاوت في إعلان يوم عيد الفطر ما بيننا وبين الحكومة . كان يشعرنا هذا التفاوت أن إسلامنا غير إسلامها . وعادة مايسبب هذا التفاوت إحراجاً للموظفين الغرباء بمنطقتنا عند تبادل التهاني ، فهم على الغالب من أهل السُّنَّة والجماعة . وكثيراً ما يتأخر إعلان العيد بسبب تأخر استلام برقية النجف المعلنة انتهاء شهر الصوم حتى الظهيرة . عندها يضطر الناس إلى قطع صومهم وتبادل التهاني ، وسط اندهاش موظفي الدولة الغرباء .

وجرت العادة أن يسهر الشيخ محمد علي الحموزي ، وكيل مرجعية النجف وهو الوحيد المعتمر العمامة بالجبايش ، طوال الليل بدائرة البريد والبرق والهاتف منتظراً إشارة الإفطار من النجف ، فربما رؤية الهلال قد لا تكفي الشيخ لإعلان العيد . أما العائلة الدينية الأخرى ، وهم آل شيخ لطيف ، فعلى الرغم من تاريخهم في إحياء المجالس الحسينية ، وقيادة الموكب الحسيني إلى كربلاء وتغسيل وتكفين الموتى ، وإبرام عقود الزواج غير الرسمية وكتابة التعاويذ ، إلا أنهم لا يتدخلون في تحديد الصيام أو الإفطار ، ولا يحق لهم البت بأمور شرعية ، ولا يحق لهم اعتمار العمائم ، فاكتفوا بالعقال والكوفية . ذلك لأن صلتهم بالنجف تكاد تكون معدومة ، فهم فقهاء وقراء المجلس الحسيني وراثةً لا دراسةً وإجتهاداً .

تستدعي الحال التأمل في صلة منطقتنا ، ومناطق الشيعة العراقية الأخرى بالدولة ، التي أشار الاختلاف في إعلان العيد إلى سُنيَّتها . وما يترتب على ذلك من موقف منها ، ومن دوائرها بين ربوعنا الشيعية ، وتحديها بشعور فرضته خلفية تاريخية راسخة . كانت هذه

الممارسة دليلاً صارخاً أمام جيلنا على تعقد الحالة المذهبية بالعراق ، وكشف خصومتنا ، الظاهرة المخفية ، مع الدولة . يتبع ذلك ممارسات أخرى غير واضحة المعاني : ثأرنا لفاطمة الزهراء بإقامة مشاهد ساخرة من الخليفة عمر بن الخطاب ، في يوم معروف عندنا ، وربما عند الشيعة كافة ، بفرحة الزهراء ، أو حسب تسميتنا المحلية له بـ«فرحة الزهرة» . كان عبد الأمير جعاز ، وهو أكبرنا سناً ، يلبس طربوشاً ملوناً وثياباً فضفاضة ومزركشة ، أقرب إلى ثياب الشهارة ، ويلصق بوجهه قطناً . نسير خلفه ونردد عبارة مهينة وساخرة هي : «يعمير (تصغير عمر) هيت هيتا . . .» . كانت هذه الممارسة مقتصرة على الصبيان . بينما يشير سكوت الكبار إلى الموافقة المستترة على التنكيل بشخصية عمر ، فلابد أنهم لعبوا هذا الدور في طفولتهم .

كان لثوب الشهارة (أحمر اللون عادة) صيت سيئ بين أهل المنطقة . قيل ألبس الإنكليز الشيخ سالم الخيُّون ثوباً مثله ، عندما قبضوا عليه ودكوا مضيفه بالطائرات دكاً (١٩٢٥) . حصل ذلك بتدبير من وزير الداخلية أنذاك عبد المحسن السعدون ، على أرضية موقف الشيخ السلبي من تتويج الملك فيصل الأول . وقف إلى جانب طالب النقيب والجماعة التي نادت بالعراق للعراقيين لا للحجازيين وحزبهم الشريفي . يتذكر أهل المنطقة ذلك بألم شديد وشعور خفي بالإهانة! وكذلك تُذكِّر هذه الممارسة بطائفية عتيقة كان يمارسها عبادة المخنث بلبس ثياب مشهورة بفقاعة ألوانها ليسخر من شخصية الإمام علي بن أبي طالب أمام الخليفة جعفر المتوكل ، ومباركة شاعره علي بن الجهم .

كان لهذا المشهد صلة بروايات تاريخية مختلقة ، اختلقها إخباريون شيعة مثلما اختلق إخباريون سُنَّة روايات تتعلق بابن سبأ وفرقة السبئية وغيرها ، وأحاديث نبوية تمدح الأمويين . أفصحت روايات شيعية عن خبر كسر عمر بن الخطاب لضلع فاطمة الزهراء ابنة الرسول ، وإسقاط جنينها المفترض أن يكون ولدها الثالث المحسن بعد الحسن والحسين . لقد تصدى رجال دين شيعة لتفنيد هذه الرواية التي أفرزت تلك الممارسة ، وفي مقدمتهم آية الله اللبناني محمد حسين فضل الله ، وما زال يواجه بقوة من قبل الخصوم . وليس بعيداً أن يكون الإيرانيون وتشيعهم الصفوي مصدراً لمثل هذه الرواية . فالشعوب الإيرانية ، خارج التأثير المذهبي ، تنظر إلى عمر بن الخطاب من زاوية أوجاع الفتوحات . وأن اغتياله لم يكن بعيداً عن آلام الأسرى من الشعوب الإيرانية من الذين أوصلتهم فتوحاته إلى يثرب ، واصبحوا من مواليها . قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسي . وظل عبيد الله بن عمر مطلوباً لقتله أبي لؤلؤة وزوجته وابنتهما وشخصاً آخر يدعى الهرمزان ثأراً لأبيه[1] .

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص١٦٠ .

جاء في المصادر، كان الهرمزان قائداً في الجيش الفارسي، وخاض الحرب ضد المسلمين بالعراق، وأُسر مع مَنْ أُسرَ، واستشاره عمر بن الخطاب في غزو بلاد فارس وأصبهان وآذربيجان. ثم كلفه بقيادة الجيش بصحبة الزبير بن العوام[2]. وقبل ذلك، قاد الهرمزان الجيش الفارسي في قتال العرب يوم ذي قار جنوبي العراق. «كانت هذه الوقعة بين بكر بن وائل والهرمزان صاحب كسرى أبرويز»[3]. وقيل إن الذي دفع خادم المغيرة بن شعبة، أبا لؤلؤة فيروز، لقتل الخليفة هو إذلال أسرى قومه من نساء وأطفال بالمدينة.

جاء في الرواية: «لما قدم سبي نهاوند المدينة جعل أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى، وقال له: أكل عمر كبدي! وكان من نهاوند، فأسرته الروم، وأسره المسلمون من الروم، فنُسب حيث سُبي. وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح، لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع، وملك المسلمون بلادهم»[4]. ظل علي بن أبي طالب يلاحق عبيد الله بن عمر بدم الهرمزان، حتى بعد فراره إلى جيش معاوية، وعند المواجهة في معركة صفين، وكان مع جيش معاوية، رد على علي، وهو يسأله عن سبب قتاله له بالقول: «أطلب بدم عثمان»! قال علي: «أنت تطلب بدم عثمان والله يطلب بدم الهرمزان»[5]. ولما قتل عبيد الله بن عمر طلبت نساؤه جثته من معاوية، فتقدم الأخير لشرائها، فقال علي: «إنما جيفته جيفة كلب ولا يحل بيعها»[6].

نعرف جيداً أن أهل السُنَّة لا يستثنون من التكريم صحابياً من صحابة النبي، وإن كان معاوية ووالده أبا سفيان صخر بن حرب. ومع عدم واقعية هذا التشريف إلا أنه قد يمنع من إيقاظ النعرات بين الأتباع. وإن اكتفى مدرسنا في التربية الدينية القادم من النجف الشيخ محمد النويني باستثناء الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان، مما جاء في المقرر الدراسي، فمنطقتنا أطلقت اسمي أبي سفيان ومعاوية على الكلاب. وأتذكر أن عراكاً عنيفاً جرى بين كلب أخوالي ويدعى أبا سفيان وبين كلب جيرانهم ويدعى معاوية، ولم يخطر على بالي أن شيعياً أو حتى سُنِّياً عراقياً قد سمى ولده بهذه الأسماء، رغم أن بين أسماء العلويين الأوائل هناك أكثر من معاوية.

هناك ممارستان ما زالتا حاضرتين في المخيلة الشيعية: الأولى السقيفة التي بسط عمر بن الخطاب تحتها يده لأبي بكر، ليكون خليفة رغم عمق المعارضة، كاستلاب لحق آل

(٢) المسعودي، مروج الذهب وجواهر المعدن ٣ ص٦٦.
(٣) المصدر نفسه ١ ص٣٢٠.
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٣ ص ١٦.
(٥) المسعودي، مروج الذهب ٣ ص ١٣٣.
(٦) المصدر نفسه ٣ ص ١٣٣.

الرسول بخلافته وتهميش الأنصار بزعامة سعد بن عبادة ، الذي وجد مقتولاً بالشام ، فشاع أن الجنيات قتلنه لأنه بال واقفاً . لكن ابعاده إلى الشام وقتله لم يكن خارج ماحدث في السقيفة . والثانية حروب معاوية ضد علي بن أبي طالب ، ثم قتل الحسين بكربلاء ، وهي الأعمق . ففي طقوس كربلاء السنوية لا يجد الشيعة حرجاً في ربط الاسم الأموي بالعطش والدم والخداع . لهذا كان أهلنا يجدون في تسمية كلابهم بأبي سفيان أو معاوية نوعاً من الثأر للإمام الحسين ، وكل مَنْ قُتل من العلويين . ومن المفارقة ، أن ظهرت أسماء في الأسرة العلوية ، في جيل قريب من الحدث ، مثل معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب (كان والده من الأطفال الذين بقوا أحياءً بعد الطف بكربلاء)[٧] . وهنا يفترق المذهبان حول مفهوم الصحابة ، وحول مَنْ عُرفوا بالمبشرين بالجنة .

مازال إمتزاج الحدث التاريخي في مخيلتنا الشعبية يوجه ميولنا المذهبية بعيداً عن وقائع التاريخ . فالوقائع حصلت في أرض قصية عن بيئتنا المائية ، التي لم تعرف صهيل الخيل ، ولا غبار حوافرها . لهذا أوقف عتبة بن غزوان فتوحاته على مشارفها ، بعد أن استكمل اجتياح البصرة ، فهي حسب عبارته : «ليست هذه من منازل العرب»[٨] . فنحن نعتبر زواج عثمان بن عفان من ابنتي الرسول ونال بهما لقب ذي النورين ، وزواج الرسول من بنات أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي سفيان ، عائشة وحفصة وأم حبيبة أكاذيب لا صحة لها ، والأخيرات ما زلن مذمومات عند أغلب الشيعة . و«قال الله فيهن عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً»[٩] . ونسب إلى السيد الحميري -يعرف بين الشيعة بشاعر العقيدة - في عائشة وحفصة القول :

إحـداهـمـا نمـت عليه حديثها
وبغـت عـليــه بغية إحـداهمـا

ونسب له القول في عائشة وحالها مع المؤمنين في معركة الجمل :

كـأنها في فعـلـها حيّـة   تريد أن تأكل أولادها[١٠]

والفاضلات ، حسب مصدر شيعي ، من زوجات الرسول : خديجة ، وأم أيمن (وقيـل إنـهـا جـارية) ، وأم سلمة ، وميمونة الهلالية ، ومارية القبطية ، وصفية وزينب بنت

---

(٧) الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص١٥٢ .
(٨) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ١ ص١١٥ .
(٩) الخصيبي ، الهداية الكبرى ، ص٤٠ ، (التحريم ، أية ٥) .
(١٠) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر٢ ص٢٤ .

جحيش[11]، والأخيرة زوجة ربيب النبي زيد بن حارثة . وهناك من الشيعة مَنْ يكذب واقعة تزويج الإمام علي بن أبي طالب ابنته من عمر بن الخطاب . وأن يكون معاوية بن أبي سفيان أحد كتبة الوحي ، ووالده أبو سفيان والياً من قبل النبي محمد على نجران . وقد أيد ذلك شهادته في العهد الذي كتبه الرسول لأهلها[12] . وأن يكتب الوحي أيضاً محمد بن عبد الله بن أبي سرح (ت ٣٧هـ) أخو عثمان بن عفان بالرضاعة[13] . وأن يكون الحسن والحسين ولدا علي بن أبي طالب و معهم عبد الله بن عباس ضمن جيش ابن سرح وتحت قيادته خلال الزحف نحو أفريقية[14] . أغفلنا تداول هذه الأخبار لأنها تفصل التاريخ عن مخيلتنا . وبالتالي تقلل من شأن الخلاف المذهبي ، وهو ما تعتاش عليه فئات غفيرة من الطرفين .

بين مخيلتنا الموروثة وبين ما تلقيناه في المناهج المدرسية إزدواجية ملموسة ، فقد جرت العادة أن ندرس سيرة الخلفاء الراشدين حسب الأهمية والأسبقية بالخلافة وآخرهم علي بن أبي طالب ، بينما ما عندنا هو الأول والموصى في إمامته من الله ، ومثلما أعتبر اخباريو السُنَّة رأي عمر بن الخطاب حافزاً في نزول العديد من الآيات القرآنية أعتبر إخباريو الشيعة علياً مرموزاً إليه ، وإلى ولايته بآيات قرآنية أيضاً . وكان الماء يُسقى في عاشوراء للمعزين بقتل الحسين مع عبارة : «إشرب الماء والَّعن يزيد» ، . ويزيد الملعون هذا كان خليفة المسلمين رسمياً! . و«لَّعن الله أمة حرمتك من الماء» ، وهذه الأمة كانت أمة مسلمة في انتمائها الديني . بينما نقرأ في درس التاريخ الكثير حول محاسن إنجازات معاوية وفتوحاته وانتصاراته التي غلبت الروم .

أفتتح معاوية بن أبي سفيان عصراً إسلامياً يُسب ويلعن فيه الإمام علي بن أبي طالب على المنابر لعشرات السنين ، ويطارد شيعته وآل بيته من جيل إلى جيل . وامتدح التاريخ الرسمي عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، واعتبار الأخيرين من المبشرين بالجنة ، حسب حديث نبوي اكده محدثو السُنَّة ، مع أنهما خرجا قاصديَن قتل علي . وأن علياً قال فيهما يوم أستأذناه في الخروج إلى العمرة : «والله ما أرادا العمرة ، ولكنهما أرادا الغدرة»[15] . وما كان يجري بين أمهات المؤمنين من أحقاد وعداوات . يُذكَّر منها أن بعثت أم

---

(١١) الخصيبي ، الهداية الكبرى ، ص٤٠ .

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) طريد النبي محمد ، لأنه أرتد ولحق بالمشركين بعد أن قال : «إن محمداً ليكتب بما شئتَ» أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٣ .

(١٤) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص١٣، الزركلي ، الأعلام ٤ ص ٨٨ - ٨٩.

(١٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص١٨٠ . أصبحت هذه الكلمة مثلاً عند شيعة العراق ، يشرون بها إلى من أعلن شيئاً وأضمر شيئاً آخر «ما أردت بها العمرة» .

حبيبة بنت أبي سفيان إلى ضرتها عائشة بنت أبي بكر بكبش مشوي ، وقالت لها : «هكذا قد شُوى أخوك»[١٦] . ذلك لتذكيرها بمقتل أخيها محمد بن أبي بكر بمصر . وضع في جيفة حمار ، وأُحرق حياً فيها . قيل : لم تأكل عائشة بعد ذلك شواءً حتى ماتت! خلقت هذه الازدواجية عند الشيعي العراقي ، على وجه الخصوص ، نوعاً من عدم الجدية في تناول موضوعات التاريخ الرسمي . وعمق ذلك من التمييز بين الطائفة أو المذهب وبين الدولة . يظهر ذلك في ممارسات عديدة منها ، كما أسلفنا ، الاستقلال بيوم الفرح ، وهو تأخير إعلان العيد . فمثلما لا تشاركهم السُنَّة في حزنهم السنوي لا يود الشيعة المشاركة في الفرح أيضاً .

كم تبدو خارطتنا المذهبية معقدة ، فالأحداث متداخلة وموزعة بين إسلاميَّن : سُنّي تعددت مذاهبه رغم تقاربها ، وأخر شيعي تعددت مذاهبه أيضاً واختلفت أزمنته ، لم يبق منه بالعراق غير المذهب الجعفري ، أو الأثني عشري ، أو الإمامي . يصعب وضع اليد على تاريخ لتأسيسه ، سواء كان بالعراق أو في غيره من البلدان . وقد لا يقود البحث في تاريخه إلى مؤسس بعينه مثل بقية المذاهب . فمن السهولة بمكان وضع اليد على بدايات المذهب الحنفي ، أو المالكي ، أو الشافعي ، أو الحنبلي . لأن هذه المذاهب ارتبطت بشخص معين ، وليس لها خلفية سياسية معقدة . أما الشيعة فمن الصعوبة بمكان الإشارة إلى مؤسس لهم ، فالأحداث السياسية بداية من السقيفة متداخلة ومعقدة .

نسب مؤرخو الشيعة تأسيس مذهبهم إلى النبي ، وأنه بذرة الإسلام الأولى ، حالهم في ذلك حال المذاهب الأخرى ، واجدة أحاديث نبوية مبشرة بأبي حنيفة أو الشافعي أو ابن حنبل . قال محمد حسين كاشف الغطاء : «إن أول مَنْ وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفسه صاحب الشريعة الإسلامية . يعني أن بذرة التشيع وُضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب ، سواء بسواء ، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والعناية»[١٧] . وينصح كاشف الغطاء ، وهو من المراجع الدينية البارزة بالنجف في النصف الأول من القرن العشرين ، بمراجعة الآية «أولئك هم خير البرية»[١٨] . ويفسرها بأنهم علي وشيعته ، داعماً تفسيره بآراء فقهاء سُنّيين ، مثل : ابن عساكر والسيوطي والدار قطني[١٩] .

كذلك قال آية الله محمد باقر الصدر : إن وجود الشيعة «نتيجة طبيعية للإسلام ، وممثلاً لأطروحة كان من المفروض للدعوة الإسلامية أن تتوصل إليها حفاظاً على نموها

---

(١٦) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ١ ص ٣٥١ .

(١٧) كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ص٤٤ .

(١٨) سورة البينة ٧ .

(١٩) كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ص٤٥ .

السليم ، ويمكننا أن نستنتج هذه الأطروحة استنتاجاً منطقياً من الدعوة التي كان الرسول الأعظم يتزعم قيادتها بحكم طبيعة تكوينها ، والظروف التي عاشتها»[٢٠] . وبما أن الوصية في الإمامة هي عماد التشيع ، لذا اعتبر الصدر ترك الأمر بلا وصية «سلبية لا يمكن افتراضها في النبي»[٢١] . ويدلل الصدر منطقياً على إثبات الوصية ، أنه كيف عهد أبو بكر لعمر وعمر لستة من أهل الحل والعقد ، «والرسول لم يعهد لأحد»؟ ويترك الصدر الباب مفتوحاً للاختلاف لا حول وجود الوصية بل حول «لِمَنْ كانت الوصية» .

وهذا صحيح ، فالذين يتحدثون عن ترك الرسول الوصية يحاولون التشبث بمبدأ الشورى لإيجاد وشيجة تاريخية بين الإسلام والديمقراطية اليوم . ولا يتعدى الأمر ، وفق هذه المحاولة ، الدعاية الفكرية والسياسية . أما الواقع فغير ذلك تماماً . فإذا كان أمر المرتد عن الإسلام لم يحسم بعد بين المسلمين ، فكيف يمكن التحدث عن الديمقراطية ، التي لا يمكن أن تستقيم دون حرية فكرية وعقائدية ، تتسع للاعتراف بحق المسلم في تبديل دينه ومذهبه ، وحرية اجتماعية تتسع لحقوق النساء ، لا يفرض الحجاب ، ولا تُحرم مصافحة النساء ، ولا تحكم الدولة بقوانين الشريعة وعقوباتها مثل قطع اليد ، والجلد والرجم وغيرها .

لم يدَّع اخباريو المذهب الشيعي وحدهم جذوراً لمذهبهم تتصل بالرسول مباشرة ، بل ادعى هذه الصلة ، كما قلنا ، معظم المذاهب إن لم تكن كلها ، وطبقات المذاهب تؤكد ذلك . مع أن بذرة الإسلام الأولى لم تكن شيعية ولا سُنِّية ولا معتزلية . غير أن تركة الرسول أوخميرة الإسلام ، كما يُقال ، ما زالت حاضرة في المذاهب الإسلامية كافة ، وإن كانت بدرجات متفاوتة ، لا سيما أن جميع المذاهب تتخذ منها حجة في وجودها ، وشرعيتها لتفضيل بعضها على بعض . ويرى الشيعة أنهم الأقرب إلى النسب النبوي ، إذا علمنا أن وصية غدير خم ، وهي حجتهم في ولاية علي بن أبي طالب ، معترف بها من قبل السُنَّة أيضاً ، لكنهم يختلفون حول تفسيرها .

ولنأخذ رأياً سُنِّياً حول بذرة التشيع الأولى نقتبسه من محمد بن عبد الكريم الشهرستاني الشافعي . قال : «إن الشيعة هم الذين شايعوا علياً ، رضي الله عنه ، على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية . إما جلياً ، وإما خفياً . واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده . وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده . وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تُناط باختيار العامة ، وبتنصيب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أُصولية ، وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ، ولا

(٢٠) الأمين ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ١ ص٧ .
(٢١) المصدر نفسه ١ ص ٨ .

تفويضه إلى العامة وإرساله»[٢٢] .

اعترف الشهرستاني ، حسب ماورد ، بمشايعة الشيعة لعلي بن أبي طالب ، وبالتالي بنسبة الشيعة إلى العهد النبوي . فالمشايعة تمت على أساس وصية النبي . والسؤال هل الوصية ، في وقت إعلانها ، أصبحت تاريخاً لقيام المذهب الشيعي؟ وهل يعتبر علي بن أبي طالب مؤسساً للشيعة؟ إن ما يعيق التسليم بهذا الرأي هو أن الإمام علياً كان يمثل الإسلام عموماً ، واختلافات تلك المرحلة لم تؤدِ إلى انفلاق مذهبي على أساس إسلام سُنّي وشيعي . فمن السابق لأوانه أن نتحدث عن افتراق الإسلام إلى طائفتين على أسس مذهبية في الفترة النبوية ، أو الفترة الراشدية ، بل اختلافات تلك الأيام كانت اختلافات سياسية مباشرة ، تداخلت فيها العلاقات العشائرية والأسرية . فنصيحة رجل أموي الهوى ، لعب دوراً في شد عضد معاوية بن أبي سفيان ، لعلي بن أبي طالب توحي بتداخل الاتجاهات آنذاك . وإشارة إلى إلتفاف الناس حول خليفة أتته الخلافة بالبيعة البائنة . والاختلاف كان مع أمير شق عصا الطاعة على الخليفة الشرعي واستقل بالشام ، التي ظل يحكمها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان حوالى أربعين عاماً ، قضى نصفها والياً والنصف الآخر خليفةً (-٦٠ ١٩هـ)[٢٣] .

أراد معاوية تحقيق حلم أبيه صخر بن حرب (ت٣١هـ) ، الذي أفصح عنه وهو يقف شامتاً فوق قبر حمزة بن عبد المطلب ، عم الرسول والمقتول في معركة أُحد ، والتي أكلت كبده حقداً عليه هند أم معاوية . قال أبو سفيان : «رحمك الله يا أبا عمارة ، لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا»[٢٤] . ربما شمت أبو سفيان بقتيل أُحد يوم كان والياً من قبل النبي على نجران ، كما سلفت الإشارة . وقد لا تتعدى العبارة قراءة ناقل الخبر أبي حيان التوحيدي الخاصة بتغيرات المشهد السياسي . لكن أحاديث مثل «الأئمة من قريش» هي ما أتكأ عليه الأمويون أيضاً في الاعداد لسلطتهم . وتحققت بشكل جلي عند إبادة الأنصار من قبل جيش قريش في عهد يزيد بن معاوية في يوم الحرة .

نأخذ نصيحة المغيرة بن شعبة (ت٥٠هـ) ، الذي أشرنا إليه بأموي الهوى ، لعلي بن أبي طالب من مصدر قريب على التشيع ، هو أبو الحسن المسعودي (ت٣٤٧هـ) ، فقد عدّ من أعلام الشيعة ونُسب له كتاب «الوصية» ، مع أنه بعيد عن أجواء أسلوبه في الكتابة . جاء في الرواية : «أتى المغيرة بن شعبة علياً ، فقال له : إن لك حق الطاعة والنصيحة . وأن الرأي

---

(٢٢) الشهرستاني ، الملل والنحل ١ ص١٤٦ .

(٢٣) ابن عبد البر ، الإستيعاب في معرفة الصحاب٣ ص١٤١٨ .

(٢٤) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ٢ ص٧٥.

اليوم تحوز به ما في غد، وأن المضاع اليوم تضيع فيه ما في غد. أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر (عبد الله والي البصرة) على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت. قال: أنظر». لكن المغيرة، ربما بتأثير أموي، سرعان ما تراجع عن نصيحته لعلي «وعاد إليه من الغد، فقال: إني أشرت عليك بالأمس برأي وتعقبه برأي، وإنما الرأي أن تعاجلهم بالنزع، فتعرف السامع من غيره، وتستقيل أمرك»[٢٥]. فقال عبد الله بن عباس لعلي: «أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشك»[٢٦].

وعلى الرغم من أن كتباً مثل «الهداية الكبرى» للحسين بن حمدان الخصيبي (ت٣٣٤هـ)، و«بحار الأنوار» لمحمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ) وغيرها من كتب الشيعة العامة ملائ بالخيالات الجامحة. إلا أنها شاركت بطريقتها في نسبة التشيع للفترة النبوية. ذلك برواية حديث مرفوع إلى الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق. ملخصه أن النبي خرج يوماً يطلب طعاماً من بيت علي بن أبي طالب، فاعتذر الأخير عن توفير الطعام، فهو لم يذقه منذ ثلاثة أيام، فأخذه الرسول مع المقداد بن الأسود الكندي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وقال لهم: «ابشروا فأن الله عزَّ وجل أمر الجنة أن تتهيأ بأحسن هيئتها فتهيأت. وقال لها: إني جعلت سكانك محمداً رسولي وأهل بيته. وأنتم أصحابي وشيعتي وشيعة أهل بيتي وعترتي...»[٢٧].

إن نسبة بدايات التشيع إلى هؤلاء الأصحاب وسلمان الفارسي أمر شائع في كتب الشيعة، وأخبار صلاتهم بالتشيع مؤكدة في مختلف المصادر التاريخية. فالمقداد ردَ على معاوية بعد أن سأله ماهو فاعل لو كان محل أبي موسى الأشعري في الحكومة بصفين؟ قال: «اجمع ألفاً من المهاجرين وأبنائهم، وألفاً من الأنصار وأبنائهم. ثم أقول: يا معشر مَنْ حضر أرَجْل من المهاجرين السابقين (ويعني علياً) أحق بالخلافة أم رَجْل من الطلقاء؟ (يعني معاوية، والطلقاء هم الذين اسلموا يوم فتح مكة)»[٢٨]. وأن أبا ذر الغفاري مات منفياً بالربذة (منطقة صحراوية على مسافة من المدينة) بعد أن ضاق بتحريضاته عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان. واعترض علي بن أبي طالب بشدة على نفيه. وقُتل عمار بن ياسر، وهو أحد قادة جيش علي في معركة صفين ضد الشاميين بقيادة معاوية. وعُرف سلمان الفارسي بباب علي - كل إمام من أئمة الشيعة له بابه. لكن أياً من هؤلاء كان شيعياً بالمعنى

---

(٢٥) المسعودي، مروج الذهب ٤ ص٦٤٣.

(٢٦) المصدر نفسه ٤ ص٦٤٤.

(٢٧) الخصيبي، الهداية الكبرى، ص٤١ - ٤٢.

المعروف، سوى بالتفافه حول علي بن أبي طالب، من أيام عثمان وحتى خروج معاوية عليه؟ ففي تلك الأيام لم يتبلور التشيع في مقالات فقهية. وليس هناك إشكاليات مذهبية، غير إشكاليات السياسة وفي مقدمتها الإمامة، التي هي أول افتراق بين المسلمين. قيل ما «سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة في كل زمان»[٢٨].

عموماً، نشأت فرقة الشيعة بالتدرج، وأن الإمامية، وهي مذهب أهل العراق الشيعة اليوم، التي نحن بصددها، ظهرت متأخرة على فترة الإسلام الأولى. كانت البداية بمفهوم الشيعة العام كأصحاب وجماعة التفت حول علي بن أبي طالب، ثم تحولت إلى تجمعات سياسية ظلت تعترض على الحكم الأموي، مرة بالتنظيم السري كتنظيم أولاد محمد بن الحنفية، ومرة بإعلان الثورة المسلحة كحركة التوابين بقيادة سليمان بن الصرد الخزاعي، والمختار بن أبي عبيد الله الثقفي، و زيد بن علي بن الحسين. ولم يحظ التشيع بتمييز مذهبي فقهي وكلامي إلا بجهود الإمام جعفر الصادق الفقهية. لذا جاءت تسمية المذهب الشيعي بالمذهب الجعفري مطابقة للواقع. لا سيما وأن معظم الأحاديث أو السُنَّة التي يهتدي بها الشيعة قد جاءت مروية على لسان الإمام السادس جعفر الصادق.

هذا ما تشير إليه كتب الحديث الأربعة المعتبرة عند الشيعة: «الكافي» لمحمد بن يعقوب الكليني (ت٢٩٢هـ)، وتضمن (١٦,١٩٩) حديثاً. و«مَنْ لا يحضره الفقيه» لمحمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) وتضمن (٥,٩٦٤) حديثاً. و«الاستبصار» و«التهذيب» لشيخ الطائفة الطوسي (ت٤٦٠هـ) وتضمنا معاً (١٩,١٠١) حديثاً[٢٩]. تقابل الكتب الأربعة الشيعية كتب الحديث الستة السُنِّية، كان أبرز رواتها الصحابي أبا هريرة، الذي تكذبه الشيعة، مثلما كذب كُتاب السُنَّة الشيخ الصدوق، فدعوه بالكذوب، فردَّ الشيعة عليهم ودعوه بالصدوق. وكذلك كذبوا الإخباري الشيعي عبد الله الجعفي. غير أنهم لا يتعدون أو يجازفون إلى تكذيب جعفر الصادق مع أنه مصدر حديث الشيعة الأهم، فاعتبروا أحاديث هذه الكتب أكاذيب على جعفر الصادق من قبل رجال الشيعة. بل البعض أبدع رواية تلمذة أبي حنيفة للصادق، وكأنه يريد القول أن مذهب الصادق الحقيقي هو في مذهب أبي حنيفة. وبالتالي فما بين الشيعة وإمامهم الصادق مجرد إدعاء. عموماً، كان قول: «لولا السنتان لهلك النعمان»[٣٠] إبداعاً سُنِّياً تلقفه الشيعة دون تدقيق. ستأتي الإشارة لاحقاً.

---

(٢٨) الشهرستاني، الملل و النحل، ص ٢٤.
(٢٩) الطالقاني، الشيخية نشأتها وتطورها ومصادر دراستها، ص ٣٤، الهامش.
(٣٠) الألوسي، مختصر التحفحة الاثني عشرية، ص٨.

افترق الشيعة الإمامية إزاء الموقف من هذه الكتب إلى فريقين : فريق اعتبر ما ورد فيها من أحاديث نبوية «قطعي السند أو موثوق بصدوره ، فلا حاجة إلى البحث عن سنده . لأن مؤلفيها انتقوا الأخبار ، وحذفوا منها ما رواه الضعفاء والمجروحون ، واثبتوا ما رواه الثقات فقط ، أو قامت القرائن عندهم على صحته»[٣١] . وعرف أصحاب هذا الرأي بالاخباريين . بينما ذهب الفريق الآخر ، وهم الأصوليون ، إلى القول بأحاديث صحيحة وحسنة وموثقة وضعيفة . و«أن أغلبها غير قطعي السند ، وأنها مختلفة المراتب ، وهي لذلك ظنية الدلالة ، فيجب على الفقيه أن يبحث في أسانيد الرواية عند العمل بها ، ولا يجوز له العمل بكلها ، والحكم بصحتها»[٣٢] . وانقسام الشيعة إلى أخباريين وأصوليين حدث ، عند البعض ، في نهاية الغيبة الصغرى[٣٣] . وقبل هذا كان الجميع أخباريين ، وبعدها ظهر الأصوليون بتأثير علم الكلام ، واستعمال الأفكار أكثر من استعمال الأخبار[٣٤] . فالأمر قبل ذلك كان يعتمد على سفراء الإمام المهدي المنتظر ، ولما دنت فترة نهايتهم ، وبدأ التفكير في أمر الغيبة الكبرى بدأ الاجتهاد ، ودور المجتهد بدلاً من دور السفير أو الوسيط بين المهدي وشيعته[٣٥] .

مذاهب وفرق

تبلورت داخل التشيع مذاهب وجماعات عديدة ، ظل الجامع بينها هو الولاء للإمام علي بن أبي طالب ، وأولاده بدرجات متفاوتة . نأخذ بعض تفاصيلها من صفحات كتاب «فرق الشيعة» للمؤرخ والكاتب الشيعي الحسن بن موسى النوبختي (القرن الثالث الهجري) ، وهو من أوائل المؤرخين عناية بالملل والنحل . قال النوبختي : بعد وفاة الرسول (١١هـ) : «افترقت الأمة ثلاث فرق ، فرقة منها سميت الشيعة ، وهم شيعة علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، ومنهم افترقت صنوف الشيعة كلها»[٣٦] . فحسب النوبختي ظهرت فرقة علي بن أبي طالب ، زمن الرسول ، ورجالها من الصحابة : أبو الأسود الدؤلي ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر ، وكل مَنْ وافق مودته . وافترقت هذه الفرقة بعد وفاة الرسول إلى

---

(٣١) الطالقاني ، الشيخية نشأتها وتطورها ومصادر دراستها ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(٣٣) علي ، المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية ، ص ٢٦ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٣٥) حدد جواد علي نقاط الخلاف بين الأخباريين والأصوليين بست عشرة نقطة ، راجع المهدي المنتظر ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

(٣٦) النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ٢ .

عدة مقالات في ولاية علي نفسه ، فهو مفترض الطاعة لوصية الرسول فيه ، أو لفضله وسابقته في الإسلام ، «وأن مَنْ دافع علياً هذا المكان فهو كافر»[٣٧] .

بعد قتل الإمام علي ظهرت فكرة الرجعة ، فقيل : لم يقتل ولم يمت حتى يملأ الأرض عدلاً . وينسب النوبختي هذه المقالة إلى عبد الله بن سبأ اليهودي . والمفترض أنه دخل الإسلام في عهد عثمان بن عفان «ووالى علياً عليه السلام ، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة ، فقال في إسلامه بعد وفاة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في علي ، عليه السلام ، بمثل ذلك . وهو أول مَنْ شهر القول بفرض إمامة علي ، عليه السلام ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه ، فمن هناك قال مَنْ خالف الشيعة : إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية . ولما بلغ عبد الله بن سبأ نعي علي بالمدائن قال للذي نعاه : كذبت لوجئتنا بدماغه في سبعين صرة ، وأقمت على قتله سبعين عدلاً لعلمنا أنه لم يمت ، ولم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض»[٣٨] . ومن الغرابة بمكان أن يدلي مؤرخ شيعي بقصة لاوجود لبطلها ، أولها الإخباري ، المُكَذَّب عند الشيعة والضعيف عند بعض السُنَّة ، سيف بن عمر . ولعل أول مَنْ أشار إلى اختلاقها محمد حسين كاشف الغطاء في «أصل الشيعة وأصولها» ، ومن بعده مرتضى العسكري في «عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى» . كما أشار إلى اختلاق فرقة السبئية طه حسين في «الفتنة الكبرى - علي وبنوه» ، وعلي الوردي في «وعاظ السلاطين» . ولأهمية هذه الموضوعة نأتي على بعض تفاصيلها .

تبدو شخصية عبد الله بن سبأ مقحمة في التاريخ الإسلامي ، ففي كتب الأنساب ومعاجم الرجال لم يظهر لليهودي اليمني ابن سبأ غير فتنته ضد عثمان بن عفان ، ودعوته لتأليه علي بن أبي طالب . ومن بين النسابين ينفرد ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) بالقول : «واليمانية كلها راجعة إلى ولد قحطان ، فولد يعرب يشجب وولد يشجب سبأ وولد سبأ كهلان وعبد الله»[٣٩] . والعبارة لا تعني ابن سبأ المقصود . لأنها حسب السياق التاريخي مختصة بمن عاش قبل الإسلام من السبئيين . أما الفرقة السبئية المقصودة فعرفت عند مؤرخي الملل والنحل بالسحابية أيضاً . ذلك لتوهمهم بين الاعتقاد بركوب علي السحاب وبين اعتمار العمامة التي أهداها الرسول له . وقصة ذلك : كانت للرسول عمامة سوداء اسمها السحاب ، فلونها يذكر بلاستسقاء في مواسم الجدب بالسحب السود ، وهي الأكثر بشارة بالمطر . وعندما يأتي علي معتمراً العمامة يقول الناس : أتى علي بالسحاب . وقد تحول المجاز إلى مقالة

---

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢١ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٢٩ .

فكرية أُشير بها إلى الفرقة السبئية ، التي من مقالاتها : أن علياً كان يمتطي السحاب ، والرعد صوته والبرق سوطه[٤٠] .

قال مرتضى العسكري ، الذي أنتبه إلى هذا الاختلاق العام (١٩٤٩) ، واصدر كتابه (١٩٥٥) : «في متناول أيدينا آلاف الكتب المخطوطة والمطبوعة في التاريخ الإسلامي العام والخاص ، وكتب التراجم والأنساب وسائر فنون الأدب ، ولا نجد في أحدها نسبة عبد الله بن سبأ . إذن فمن هو عبد الله بن سبأ ، وما أسم جده؟ ومن هم سلسلة آبائه؟ ومن هم قبيلته؟ ولم يذكر أحد العلماء في تأليفه شيئاً من ذلك على شدة اهتمامهم بذكر الأساطير التي حيكت حوله»[٤١] . ومن المستبعد أن يكون عبد الله الذي ذكره ابن حزم ، كما تقدمت الإشارة ، هو صاحب الفرقة المفترضة . وقال طه حسين ، نافياً وجود شخصية عبد الله بن سبأ ، وبالتالي فرقته : «الغريب أن المؤرخين الذين أكثروا من ذكر ابن السوداء عبد الله بن سبأ ، وأصحابه حين رووا أمر الفتنة أيام عثمان ، وأكثروا من ذكرهم بعد مقتل عثمان ، قبل أن يشخص علي من المدينة للقاء طلحة والزبير وأم المؤمنين . . أما أنا فلا أُعلل الأمر إلا بعلة واحدة ، وهي أن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً . وإن وجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوره المؤرخون»[٤٢] . لكن ما المانع من أن يكون عمار بن ياسر هو ابن السوداء ، فأمه سمية كانت حبشية ، وهو أكثر المقربين من علي ، إلا أنه ليس صاحب مقالة أو فرقة خاصة .

غير أن لمحمد حسين كاشف الغطاء ، الذي لم يشر إليه العسكري ، ولا طه حسين ، ولا علي الوردي في كتبهم ، الأسبقية في التنبيه إلى اختلاق شخصية ابن سبأ وفرقته ، على الرغم من أن مرتضى العسكري كتب مقدمة طبعة من طبعات الكتاب . قال كاشف الغطاء في رده على أحمد أمين العام ١٩٣١ : «إن عبد الله بن سبأ ، ومجنون بني عامر ، وأبي هلال ، وأمثال هؤلاء الرجال أو الأبطال كلها أحاديث خرافة ، وضعها القصاصون وأرباب السمر والمجون . فإن الترف والنعيم قد بلغ أقصاه في أواسط الدولتين الأموية والعباسية . وكلما أتسع العيش وتوفرت دواعي اللهو ، واتسع المجال للوضع وراج سوق الخيال ، وجعل القصاصون والأمثال كي ينسى بها أرباب الحجال ، وأبناء الترف والنعمة المنغمرين في بلهينة العيش»[٤٣] .

---

(٤٠) راجع العسكري ، ابن سبأ وأساطير أخرى ٢ ص ٣٤٣ - ٣٥٠ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص٢١٠ .

(٤٢) حسين ، الفتنة الكبرى - علي وبنوه ، ص ٩٨ - ١٠٢ .

(٤٣) كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ص٤٢ .

حقيقة الكيسانية

نعود إلى سجل النوبختي لفرق الشيعة بعد مقتل علي بن أبي طالب . قالت جماعة بإمامة الحسن بن علي ، وهذا ما كان عليه المسلمون كافة ، ماعدا أهل الشام ، ومَنْ ألتحق بمعاوية بن أبي سفيان في هذه الأثناء ، ومَنْ اعتزل القتال بين الطرفين . ثم أنشق الناس بعد الصلح بين الحسن ومعاوية إلى جماعات . ومنهم مَنْ اعتدى على الحسن وطعنه بفخذه وهو بالمدائن .

توحي رواية النوبختي إلى أن الحسن مات متأثراً بتلك الطعنة لا بالسم الذي دسه له معاوية . وضعت أحاديث نبوية لترسيخ عملية الصلح ، فهناك حديث مرفوع إلى أبي بكرة ، وهو أخو زياد بن أبيه ، جاء فيه : قال الرسول بعد أن أشار إلى الحسن بن علي «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[٤٤] . وفرقة ظلت مع الحسين بن علي حتى مقتله بكربلاء (٦١هـ) . وبعده قالت فرقة بإمامة محمد بن الحنفية (أشتهر باسم والدته خولة الحنفية المسبية بالحرب مع مسيلمة فهو الأحق بالولاية بعد الحسن والحسين . وفرقة غالت به فدعته بالمهدي ، وأن أخاه الحسن وادع معاوية بأمر منه[٤٥] . وقال النوبختي : إن ولد علي بن أبي طالب الثالث قد كلف المختار بن أبي عبيد الله الثقفي للثأر من قتلة الحسين ، فعُرف هؤلاء بالكيسانية . نحت الاسم من لفظة الكيس بمعنى رجاحة العقل ، أو من كيسان بمعنى الغدر (القاموس المحيط) . وقبل تأكيد أيهما الأقرب للحقيقة ، لابد من كشف العلاقة مع مَنْ اسمه كيسان .

ويبدو حال الكيسانية في التوهم مثل حال السبئية . فهي الأخرى اختلف المؤرخون حول وجودها . وربما لا تتعدى مقالاتها قصائد الشعراء المنسوبين لها . فوجد الاخباريون في فيض عاطفة الشاعر كثيّر عزة تجاه العلويين ، وهو بالأساس من أشهر العشاق ، خير ما ينسب إلى محمد بن الحنفية . يكون حياً بجبل رضوى ، على يمينه أسد وعلى يساره نمر ، وبين يديه ملائكة يطعمونه العسل والماء ، وكل ما يحظى به أهل الجنة . ورضوى جبل فيه من مواصفات الجنان . قال الطبري : «جبل به الحبّ الأخضر والقطران»[٤٦] .

حسب الروايات المتوافرة يحتمل أن كيسان لقباً للمختار الثقفي . ورد في الرواية : «أن علي بن أبي طالب مسح على رأس المختار وهو طفل ، وقال له : يا كيس . . يا كيس» . وآخرون قالوا : قد غلب عليه (المختار) لقب رئيس حرسه ، أو صاحب شرطته . وكيسان الثاني

---

(٤٤) الكتب الستة ، صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ص٥٩٣ .

(٤٥) النوبختي ، فرق الشيعة ، ص٢٧ .

(٤٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٧ ص٥٣٥ .

هو صاحب الشرطة ، الذي نفذ عمليات الثأر من قتلة الحسين بن علي بكربلاء . وعلى أثرها سمي أبو عمرة (صاحب الشرطة) بكيسان أي الغدار . وكيسان الثالث هو مولى علي بن أبي طالب ، الذي يقال أنه قتل بصفين ، واختلف المؤرخون في علاقة كيسان بمحمد بن الحنفية بين التلمذة والموالاة .

ذهب باحثون في تاريخ الكيسانية إلى قبول نسبة الكيسانية إلى كيسان أبي عمرة . وقد بالغ البعض عندما اعتبره مؤسساً للحركة . ففي رأي أحدهم : «أن كيسان أبا عمرة هو الذي نظَر للمذهب أبان حياة محمد بن الحنفية إمام الكيسانية . والمختار قائد الدعوة والثورة ، بل ظل يمارس هذا الدور حتى بعد وفاة الأول ومقتل الثاني . لذلك كان حقيقاً أن ينسب المذهب إليه ، وخصوصاً أنه كان من أصحاب علي ، ثم صار مولى للحسين ، فتلميذاً لمحمد بن الحنفية»[٤٧] . وفي رأي آخر «إنه كيسان أبو عمرة مولى بجيلة ، صاحب حرس المختار ، أو صاحب شرطته ، وهو شخصية موثقة تاريخياً»[٤٨] .

غير أن اختلاف المؤرخين في تشخيص شخصية كيسان يقود إلى الشك في وجود الفرقة بكاملها . قال النوبختي : «إنما لقب كيسان ، لأن صاحب شرطته المكنى بأبي عمرة ، كان اسمه كيسان . وكان أفرط في القول والفعل والقتل من المختار جداً . وكان يقول : إن محمد بن الحنفية وصي علي بن أبي طالب ، وإنه إمام ، وإن المختار قيمه وعامله»[٤٩] . ويرى الأشعري : «إنما سموا كيسانية ، لأن المختار ، الذي خرج وطلب بدم الحسين بن علي ودعا إلى محمد بن الحنفية ، كان يقال له كيسان ، ويقال إنه مولى لعلي بن أبي طالب»[٥٠] . ونسب الشهرستاني الكيسانية إلى مولى علي بن أبي طالب ، ثم عاد ذاكراً الرواية الآتية : «وقيل تلميذ للسيد محمد بن الحنفية ، يعتقدون فيه اعتقاداً فوق حده ودرجته ، من إحاطته بالعلوم كلها ، واقتباسه من السيِّدين (لعله يقصد محمد بن الحنفية وولده أبا هاشم) الأسرار بجملتها»[٥١] .

ويرى المسعودي أن كيسان هو أسم المختار ، ويكنى أبا عمرة . وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك . ثم يعود فيقول : «ومنهم مَنْ رأى : أن كيسان أبا عمرة هو غير المختار»[٥٢] . وبالتالي ليس هناك كيسان حقيقي تبعته فرقة من الفرق . وقد أُطلق اسم كيسان ، سواء كان

---

(٤٧) إسماعيل ، فرق الشيعة بين التكفير السياسي والنفي الديني ، ص ١٧ .

(٤٨) القاضي ، الكيسانية في التاريخ والأدب ، ص٦٢ .

(٤٩) إسماعيل ، فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني ، ص ٣٢ .

(٥٠) الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص ١٨.

(٥١) الشهرستاني ، الملل والنحل ١ ص ١٤٧.

(٥٢) المسعودي ، مروج الذهب ٣ ص ٧٠.

على أبي عمرة أو المختار، للتعبير عن (الغدر). سبقني إلى التعبير عن هذه الحالة أحد المهتمين بأمر المختار، دون أن يُعنى بمعنى كيسان اللغوي. قال: «إن كيسان يمثل رمزاً للانتقام من أعداء الحسين، لذلك أطلقوا على جماعة المختار بالكيسانية»[٥٣].

إن مصطلح الكيسانية بالمعنى السابق، يوقف هذه الحركة على هدف واحد هو الثأر من مرتكبي واقعة الطف بكربلاء، والقصاص منهم. وعلى الرغم مما لهذا الهدف من انعكاسات سياسية خطيرة، إلا أنه يبقى مقيداً بإطار محدود لا يحتاج إلى تأليف فرقة تستمر ككيان فكري وسياسي بعد تحقيق الغاية المنشودة وهي الثأر للحسين. والذي نقرأه في الروايات أن الكيسانيين قد نادوا بمحمد بن الحنفية إماماً. وزاد البعض على هذا في روايته عن النبي «قال لعلي عليه السلام: إنه سيولد لك بعد ولد، وقد نحلته أسمي وكنيتي»[٥٤].

غير أن تحرك العباسيين السياسي صوب الخلافة لا يستبعد تلفيقهم لفرقة الكيسانية. فلتحقيق تلك الغاية «زعموا أن أبا هاشم كان الإمام بعد أبيه محمد، وأن أبا هاشم أوصى إلى عميد العباسيين يومذاك محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فنشر الخلص من دعاتهم إشاعة الكيسانية (القول بإمامة محمد بن الحنفية) واستخرجوا وصية نسبوها إلى الإمام علي، تنقل الإمامة من بعد أبي هاشم (ابن محمد بن الحنفية) إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ومن بعده إلى ولده إبراهيم الذي لقب بالإمام، ثم أخيه عبد الله المكنى بأبي العباس، ثم أخيه المنصور»[٥٥].

أشار البلاذري إلى ثمة اشتباه بالاسم بين المحمدَيْن: ابن الحنفية وابن علي بن عبد الله بن العباس، فاستغل الأخير لصالحه في دعوته من خلال الدعوة لابن الحنفية. قال البلاذري: «كانت الشيعة تروي أن الإمام محمد بن علي، فيُظن أنه ابن الحنفية، فلما مات ابن الحنفية قالوا: الإمام ابنه عبد الله بن محمد بن علي، وهو أبو هاشم، فلما سُمّم أبو هاشم في طريقه وهو يريد الحجاز عَدل إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالحُميمة، فأوصى إليه وأعطاه كتبه، وجمع بينه وبين قوم من الشيعة، فقال: إنا كنا نظن أن الإمامة والأمر فينا، فقد زالت الشبهة، وصرح اليقين بأنك الإمام والخلافة في ولدك، فمال إليه الناس فثبتوا إمامته وإمامة ولده»[٥٦].

تؤكد الروايات علاقة المختار المبكرة بالعلويين وشيعتهم، فسبق له أن رفض الشهادة ضد

---

(٥٣) عبد الله، مع المختار الثقفي، ص ٣٢.

(٥٤) الأصفهاني، الأغاني ٧ ص ٤.

(٥٥) الأنصاري، مذاهب ابتدعتها السياسة، ص ٤٢.

(٥٦) البلاذري، أنساب الأشراف ٣ ص ٨٠.

حجر بن عدي ، أحد خاصة علي بن أبي طالب ، في حضرة أمير العراق عبيد الله بن زياد . وكان من مستقبلي رسائل الحسين بن علي . ومن المحيطين بمسلم بن عقيل عند وصوله الكوفة . ومن المعدين للدفاع عن وعد الكوفيين للحسين . ثم من المتبنين لحركة الثأر من قتلته . وقد تمكن المختار من ذلك بعلاقة خاصة أقامها مع الزبيريين حتى أصبح واليهم على الكوفة . وذكر المسعودي ، القريب إلى التشيع : أن المختار بن أبي عبيد الثقفي قد تأرجح بين أقطاب زمانه ، فقد عرض جهوده على عبد الله بن الزبير فوافقه . بينما رفضها علي بن الحسين ، ومحمد بن الحنفية[٥٧] .

لذا اختلفت الروايات إلى مَنْ كان يبعث المختار برؤوس قتلة الحسين؟ هل كان يبعثها إلى ابن الزبير ، أم إلى ابن الحنفية ، أم إلى علي بن الحسين بن علي أبي طالب؟ وهناك رواية أفادت باستنجاد محمد بن الحنفية ، وجماعة من أقاربه ، بالمختار الثقفي عندما زجهم عبد الله بن الزبير في سجن عارم بمكة ، وخيرهم بين الموت حرقاً وبين المبايعة . أسرع المختار إلى نجدتهم حال استلام رسالة ابن الحنفية التي ورد فيها : «أما بعد ، فإن عبد الله بن الزبير أخذنا ، فحبسنا في حجرة زمزم ، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لنبايعه ، أو ليضرمنها علينا بالنار ، فيا غوثا»[٥٨] . وبعد هذا الحدث ، وربما كان غيره أيضاً ، ساءت العلاقة بين الزبيريين والمختار ، حتى تمكن من قتله مصعب بن الزبير عامل أخيه على البصرة السنة (٦٧هـ) ، ليُقتل هو الآخر على يد عبد الملك بن مروان بالكوفة .

اضطرب عبد الملك بن مروان ، وهو يقلب رأس مصعب بن الزبير بالعصا ، من قول أحد مرافقيه المتشائم ، بعد التربع على كرسي إمارة الكوفة ، وقد شهد تبادل الموقع بين أكثر من غالب ومغلوب . قال أبو مسلم النخعي لعبد الملك : «رأيت رأس الحسين قد جيء به فوضع في دار الإمارة بالكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد . ثم رأيت رأس عبيد الله قد جيء به فوضع في ذلك الموضع بين يدي المختار . ثم رأيت رأس المختار قد جيء به فوضع بين يدي مصعب . ثم رأيت رأس مصعب قد جيء به فوضع في ذلك الموضع بين يدي عبد الملك . . . فوقاك الله يا أمير المؤمنين»[٥٩] . أدخل مؤرخو الملل والنحل روايات كثيرة متناقضة على سيرة المختار ، وعلى علاقته بمحمد بن الحنفية ، منها : أنه كان سجاعاً يُوهم الناس أنه يعلم الغيب ، ويحدثهم بما سيجري . ثم يؤكد حدوث ذلك بحيل يتفق عليها مع خاصته .

كان الشعر أحد مناهل المؤرخين في ذكر هذه الأخبار ، كقول الشاعر ابن الرقيات عنه :

---

(٥٧) المسعودي ، مروج الذهب ،٣ ص٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٥٨) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٢٦١ .

(٥٩) المسعودي ، مروج الذهب ٣ ص٣١٢ .

والـــذي نـغــص ابن دومـة مـــات

حـــي الشـــياطيـن والسيوف الظماء

فــأبـاح العـراق يضـربـهـم بالسيف

صلتـــاً وفـــي الضــراب غِـــلاء

فسر أبو العباس المبرد ذلك بقوله : «فإنما يريد بابن دومة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي ، والذي نغصه مصعب بن الزبير ... وقوله : ما توحي الشياطين ، فإن المختار كان يدعي أنه يُلم ضرباً من السجاعة لأمور تكون . ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عزَّ وجل»[٦٠] . و روى ابن قتيبة قول المختار في جفوته مع ابن الحنفية : «أدعو إلى المهدي محمد بن الحنفية ، فلما خسأ أن يجيء . قال : أما أن فيه علامة لا تخفى ، يضربه رجل بالسيف ضربة لا تعمل فيه»[٦١] . وبالمعنى نفسه يذكر البغدادي : «فقال (المختار) لجنده : «أنا على بيعة المهدي . ولكن للمهدي علامة ، وهو أن يضرب بالسيف ضربة فإن لن يقطع السيف جلده فهو المهدي . وانتهى هذا إلى ابن الحنفية ، فأقام بمكة خوفاً من أن يقتله المختار بالكوفة»[٦٢] . وردت هذه الروايات للطعن في شخصية المختار ، وتجريده من علاقة حميمة بالعلويين .

كان الشاعر كُثيِّر عزَّة شيعياً مؤيداً لأي عمل يخفف من ألم ما تركته وقعة كربلاء في نفوس العلويين وشيعتهم . وفي شعره (إن تأكدت نسبته إليه) غلو عاطفي بمحمد بن الحنفية ، لا يقل عن غلوه بمحبوبته عزَّة . وعادة لا يحاسب شاعر مثل كُثيِّر على فيض عاطفي تجاه مَنْ يحب ، فكان عاشقاً لا يقل عن قيس بن الملوح هياماً ووجداً ، «شديد الانفعال يمثل له الوهم أموراً خارقة للعادة»[٦٣] . ومن شعره الذي اعتمده مؤرخو الملل والنحل كمقولات كيسانية في إمامة محمد بن الحنفية ، ثم مهدويته :

ألا أن الأئـــمـــــة مــــن قــريـش

ولاة الحـــق أربــعــــة ســــــواء

علـــي والـثــلاثـة مـــــن بـنـيـه

هــم الأسباطـلـيـس بـهـم خـفـاء

فـسـبـــط سبـــط إيمـــان وبــــر

وسبــــط غـيـبـتـه كـــربــــلاء

---

(٦٠) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ٢ ص ١٩٤ .

(٦١) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ١ ص ٢١٠ .

(٦٢) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٣٤ .

(٦٣) تحقيق ديوان كثير عزة ، ص ١٣ .

وسبـــط لا تـــراه العـــين حتـــى

يقـــود الخـــيل يتبعـــهـا اللـــواء

تغيـــب لا يـــرى فيهـــم زمـــاناً

بـرضوى عـنـده عسـل ومـــاء

لقد ذهب الشارحون بعيداً عندما توغلوا إلى باطن عاطفة كثير عزّة ، فاقتبسوا منها العقائد الكيسانية . قال الشهرستاني : «يجمعهم أن الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل (محمد بن الحنفية أو مَنْ ينوب عنه)»[٦٤] .

كذلك يأخذ أبو الحسن الأشعري من شعر كثير ، ويزيد عليه بقوله : «يزعمون أن محمد بن الحنفية جُعل بجبال رضوى ، عقوبة لركونه إلى عبد الملك بن مروان وبيعته إياه»[٦٥] . كما اعتُمدت في كتابة تأريخ الكيسانية ومقالاتها قصائد الشاعر السيد محمد بن يزيد الحميري ، الذي قال في محمد بن الحنفية :

فلـمـا روى أن ابن خولة غـائـــبٌ

صـــرفنا إليـه قـــولنـا لـم نكــذب

وقلـــنا هـــو المهـدي والقائم الـــذي

يعيش بـه من عدله كل مجدب[٦٦]

والحميري نفسه جسد الخيال الشيعي في الإمام علي :

علي عـــليـــه ردت الشمس مـــرة

بطيبـــة يـوم الوحي بعـــد مغـيـب

وردت لـــه أخـــرى ببابل بـعـدمـا

عفت وتدلـت عينـــها لغروب[٦٧]

و قال الشاعر الطفيل بن عامر الكناني في ابن الحنفية :

إخـــوانـنـا شـــيعتنا لا تعتـــدوا

أي زعيـــم لـكـــم أن تـــرشـــدوا

---

(٦٤) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ١ ص ١٤٧ .

(٦٥) الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص٢٠ .

(٦٦) ديوان السيد الحميري ، ص ٢٩٢ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص١١٧ .

وأن تنالـوا شـرفـاً وتـسـعـدوا

وأزروا المهدي كـيـما تـهتـدوا

محمد الخيـرات يـا محمـد

أنـت الإمـام السيـد المسـوّد

لا ابن الزبير السامـري المخلـد

ولا الـذي نحـن إليـه نعمـد[٦٨]

عمدنا إلى الإطالة في أمر الكيسانية لما في تاريخها المختلق من حوادث اتخذت من أرض العراق ساحة لها . فالكوفة كانت مركزاً لنشاط المختار الثقفي وثارات الحسين . وأن العباسيين الذين ساهموا في اختلاق أخبارها اتخذوا من العراق ساحة لثورتهم ودولتهم التي استمرت خمسة قرون .

ادعى الإخباريون في سياق تاريخ الكيسانية ، ودور محمد بن الحنفية فيه ، أن فرق الشيعة بعد وفاة ابن الحنفية كانت ثلاث فرق ، تأرجحت مقالاتها بين مهدويته وألوهيته . وفرق أخرى عدلت إلى القول بموته ، وأن الإمامة ذهبت إلى ولده عبد الله المكنى بأبي هاشم . وافترقت الهاشمية إلى عدة فرق ، منها البيانية ، جماعة تاجر التبن بالكوفة بيان النهدي ، الذي قال بمهدوية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية . وفرقة قالت : انتقلت الإمامة بعد وفاة أبي هاشم إلى أخيه علي بن محمد بن الحنفية ، أو إلى قريبه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وآخرون ، كما تقدم ، توهموا الوصية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وبهذا انتقل النشاط الشيعي السري إلى الدعوة العباسية . وكل الجماعات المذكورة كانت خارج الشيعة المعروفة اليوم بالاثني عشرية ، أو الجعفرية ، أو الإمامية .

فرق أخرى

تفرعت الفرقة الإمامية إلى عدة فروع ، مع وجود الأصل دائماً ، فالإمامة انتقلت من علي إلى ولديه ، الحسن فالحسين فعلي بن الحسين فمحمد بن علي الباقر . وبعد وفاة الأخير ظهرت فرقتان : واحدة قالت : الإمام هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، ثم ولده محمد المعروف بالنفس الزكية ، الذي جعله أصحابه مهدي آل محمد ، ويقيم بين مكة ونجد في جبل العلمية[٦٩] . وهو الذي اعترف أبو جعفر المنصور بإمامته ، وبايعه سراً أيام

---

(٦٨) الأشعري ، المقالات والفرق ، ص٢٩ .

(٦٩) النوبختي ، فرق الشيعة ، ص٦٢ .

الأمويين[٧٠] . ولما تولى المنصور الخلافة ، استتر منه محمد ، فضرب عنق أخيه من أمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالعثماني ، و«بعث برأسه إلى خراسان ، وبعث معه بقوم يحلفون أنه محمد بن عبد الله بن فاطمة بنت رسول الله»[٧١] .

وقالت الفرقة الثانية ، بعد وفاة الإمام محمد الباقر ، بإمامة ولده جعفر الصادق ، وبعد وفاته ظهر القول بمهدويته . وجماعة أخرى أنكرت وفاة ولده إسماعيل في حياته ، وقالوا بإمامته ، فعرفوا بالإسماعيلية . وهي الفرقة المشهورة التي وقفت عند الإمام السابع ، فعرفوا بالسبعية . ومنهم القرامطة والفاطميون ، وإخوان الصفا الذين يعدون جناح الإسماعيلية الفكري بينما جناحهم العسكري هم القرامطة .

غير أن الإمامية استمرت في تقليد الأئمة ، فقالوا بإمامة موسى بن جعفر الكاظم . وبعد وفاته عرفوا بالقطعية ، لقطعهم بوفاته والقول بإمامة ولده علي الرضا ، مع انحراف جماعة في القول بمهدوية موسى الكاظم ، عرفوا بالموسوية . واستمرت الخلافات بين جماعات الشيعة حتى الوصول إلى إمامة الحسن العسكري ، وهو الإمام قبل الأخير ، فقالت جماعة بمهدويته أيضاً ، وأنه لم يوصِ بخليفة من بعده . وبوفاته ظهر انشقاق البابيين القدماء ، أو العلويين ، أو النصيريين . وبعد الانشقاق الخطير الثاني في التشيع الإمامي بعد ظهور الإسماعيلية ، حيث الاختلاف على خليفة الحسن العسكري ، وهو كالآتي : سلمت النفيسية الإمامة لأخيه جعفر بن علي . وقال العلويون بانتقال الإمامة إلى البابية . وكل هذا حدث بسامراء . وقالت الإمامية بخلافة ولده محمد بن الحسن ، وهو المهدي المنتظر ، والحجة ، والقائم ، و صاحب الأمر ، وصاحب الزمان . تقف الأموال عادة وراء إدعاءات النواب ، فبعد وفاة الإمام يِطلب تسليم ما في عهدتهم إلى الإمام الجديد ، وأفضل حيلة يحتفظ عن طريقها بالأموال هو إعلان العصيان بذريعة مهدوية الإمام السابق وأنه غاب ولم يمت ، مثلما حدث مع الإمام موسى الكاظم[٧٢] .

رفض الشيعة إمامة جعفر ، عم المهدي المنتظر ، رفضاً قاطعاً ، واعتبروه متواطئاً مع

---

(٧٠) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٨٨ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص٢٠٢ . قال أبو كعب مشيراً أن قتل محمد النفس الزكية كان لعلة سياسية دنيوية لا دينية : «حضرتُ عيسى (ابن موسى العباسي) حين قتل محمداً فوضع رأسه بين يديه ، فأقبل على أصحابه فقال : ما تقولون في هذا؟ فوقعنا فيه! فأقبل عليهم قائد له فقال : كذبتم والله وقلتم باطلاً ، ما على هذا قتلناه . ولكنه خالف أمير المؤمنين ، وشق عصا المسلمين ، وإن كان لصواما قواماً ، فسكت القوم» (مقاتل الطالبيين ، ص٢٤٢) . وقد جرت العادة أن ينسب الخصم إلى الكفر ، وترحل خصومته للسلطان أو الحاكم إلى خصومة لله ، لأنه وكيله وظله المقدس على الأرض!

(٧٢) علي ، المهدي المنتظر عند الشعة الاثني عشرية ، ص .

السلطات العباسية ضد ابن أخيه. فما فعله جعفر، حسب شيخ الطائفة الطوسي، اغتصاب تركة وميراث أخيه الإمام الحادي عشر. «وما كان في حل سلطان الوقت على حبس جواري الحسن واستبدالهنً بالاستبراء لهن من الحمل، ليتأكد نفيه لولد أخيه، وإباحته دماء شيعتهم بدعواهم خلفاً له بعده كان أحق بمقامه»[٧٣]. وقال الطوسي في إنكار قول النفيسية: «إن جعفراً لم يكن له عصمة كعصمة الأنبياء، فيمتنع عليه لذلك إنكار حق ودعوى باطل، بل الخطأ جائز عليه، والغلط غير ممتنع منه»[٧٤]. ولأهمية ظهور العلويين ووجودهم بالعراق، إلى هذا اليوم، ولو كان تواجداً ضئيلاً بعانة غربي العراق، وما ارتبط فيهم من العلي إلهية، نبحث خلفية وجودهم بشيء من التفصيل.

العلويون

ظهر العلويون بمقالة أبي شُعيب بن نصير النميري (البابية) بسامراء إلى جانب مَنْ أعلن توقف الإمامة عند الإمام الثاني عشر. وقد عرفت هذه الجماعة في ما بعد بالنصيرية أو النميرية. غير أنهم اشتهروا بالعلويين في الأزمنة المتأخرة. وسندهم الشرعي في الميل عن الإمامية القول بمركز الباب، وفقاً للحديث النبوي: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب»[٧٥]. ويبدو أن مركز الباب أُعلن كمقالة بعد وفاة الإمام الحادي عشر الحسن العسكري، فهو آخر إمام يحتفظ بباب. وبابه، حسب الاعتقاد العلوي، أبو شُعيب محمد بن نصير النميري. وسلسلة الأئمة وأبوابهم هي: علي بن أبي طالب وبابه سلمان الفارسي، والحسن بن علي وبابه قيس السفينة، والحسين بن علي وبابه رشيد الهجري، وعلي بن الحسين وبابه عبد الله الكابلي المعروف بكنكر، ومحمد بن علي الباقر وبابه يحيى بن أم طويل، وجعفر بن محمد الصادق وبابه جابر الجعفي، وموسى بن جعفر الكاظم وبابه محمد الكاهلي، وعلي بن موسى الرضا وبابه المفضل بن عمر، ومحمد بن علي الجواد وبابه محمد بن المفضل، وعلي بن محمد الهادي وبابه عمر بن الفرات الكاتب، والحسن العسكري وبابه أبو شعيب النميري[٧٦].

---

(٧٣) الطوسي، كتاب الغيبة، ص ٧٤.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) ورد الحديث بهذه الصيغة في كنز العمال١١ص٦٠٠. و ورد بصيغ أخرى مثل «أنا مدينة الجنة...»، و«أنا مدينة الحكمة...»، و«أنا خزانة العلم...»، و«أنا دار الحكمة...»، راجع مستدرك الحاكم، وسنن الترمذي وصحاح البغوي.

(٧٦) الطويل، تاريخ العلويين، ص٢٥٤-٢٥٥، عبد الحميد الدجيلي، كتاب مجموع الأعياد والطريقة الخصيبية، مجلة المجمع العلمي، م٤ ج١، ١٩٥٦.

ظل النميري موصوفاً بالبابية على الدوام بما يقابل غيبة الإمام وانتهاء الإمامة عنده . وبالمقابل ملأ الإمامية فراغ الإمامة بعد الغيبة الصغرى بالسفارة أو الوكالة ، ومفادها تعيين وسيط بين الإمام والأتباع . وسفراء الغيبة الصغرى هم : عثمان بن سعيد العمري ، ومحمد بن عثمان العمري ، والحسين بن روح النوبختي وعلي بن محمد السَّمُرِي . وقد دامت سفارة الأربعة من حدوث الغيبة الصغرى السنة ٢٦٠هـ وحتى وفاة السَّمُرِي السنة ٣٢٦هـ أو ٣٢٩هـ . وذكر محمد باقر المجلسي عدداً من السفراء ، الملفقين حسب رأيه : محمد بن نصير النميري المنافس لعثمان بن سعيد العمري ، ثم ابنه أبي جعفر محمد بن عثمان . وقد نُعت النميري من قبل السفير الإمامي الثالث ابن روح بالغلو وتحليل المحرمات[٧٧] . وأطلق الشيعة على عثمان العمري لقب الشيخ الموثوق به ، وذلك تكذيباً لمنافسه النميري .

بعد محمد بن نصير النميري ، المؤسس الأول للطائفة العلوية ، جاء دور عبد الله الجنبلاني[٧٨] ، ثم الحسين بن حمدان الخصيبي ، الذي رسخ الطائفة عقائدياً وفكرياً . ومن شخصيات العلويين أيضاً أبو سعيد ميمون بن قاسم الطبراني ، الذي حول مركز العلويين إلى اللاذقية[٧٩] . وظلت منذ ذلك الحين وإلى الآن ذات صبغة علوية ، بعد أن كانت حلب المركز العلوي بالشام . وأهم مؤلفات الشيخ الخصيبي : «الهداية الكبرى» ، و«المائدة» المهدى إلى سيف الدولة الحمداني بحلب ، و«كن مستقيماً» المهدى إلى عضد الدولة البويهي ببغداد . وقيل أنه أهدى «الهداية الكبرى» لسيف الدولة ، وله كتاب آخر يدعى «راسباش» أهداه إلى عضد الدولة[٨٠] . وردت في الكتب المهداة للحاكمين وصايا سياسية لتحقيق العدالة الاجتماعية . فقد عدهما الخصيبي من وكلائه السياسيين ، إلى جانب الوكلاء الدينيين كالجسري والطرسوسيين : الكبير والصغير والجلي . ويذكر أن الشيخ الخصيبي اعتقل بتهمة الانتماء إلى الحركة القرمطية الناشطة في عصره .

فسح الشيخ الخصيبي في كتاب «الهداية الكبرى» المجال لنعت طائفته بالعلي إلهية . فلعلي بن أبي طالب ، حسب الكتاب المذكور ، ثلاثمئة اسم في القرآن . ومن ألقابه الإلهية : أمير المؤمنين ، أمير النحل ، الوصي ، الإمام ، الخليفة ، سيد الوصيين ، الصديق الأعظم ، الفاروق الأكبر ، قسيم الجنة والنار ، قاضي الدين ، راجع الرجعات ، وغيرها[٨١] . و ورد في الكتاب ثلب كثير لأبي بكر وعمر بن الخطاب . ومنه أن الخمر حرمت بسبب أبي بكر ، وقد

---

(٧٧) المجلسي ، بحار الأنوار ٥١ ص٣٦٧ .

(٧٨) الطويل ، تاريخ العلويين ، ص٢٥٦ .

(٧٩) مجلة المجمع العلمي ، م ٤ ج ١ ، ١٩٥٦ .

(٨٠) المصدر نفسه .

(٨١) الخصيبي ، الهداية الكبرى ، ص٩١ - ٩٣ .

ذكرها الخصيبي بسكرة أبي بكر[٨٢] . واستشهد ببيت للشاعر الشيعي الحميري ، ذكر فيه أبا بكر باسمه (عتيق) لا بكنيته :

لـــولا عتيـــق وشـؤم سكـــرتـه
كـانـت حـلالاً كسائغ العسل[٨٣]

ومن قصص الكتاب الطريفة والمتطرفة في الوقت نفسه أن أعداء أمير المؤمنين ، حسب نعته لهم ، وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة وسعد (ابن أبي وقاص) وسعيد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وخالد بن الوليد وأبو عبيدة الجراح ، قالوا : «قد أكثر رسول الله في أمر علي وزاد فيه ، حتى لو أمكنه أن يقول لنا اعبدوه لقال»[٨٤] . وأن سعد بن أبي وقاص قال : «ليت محمداً أتانا فيه بآية من السماء ، كما أتاه في نفسه من الآيات من شق القمر وغيره»[٨٥] . وينهي القصة بسقوط نجم من السماء على دار علي بن أبي طالب ، وأن هذا النجم هو المعني في الآية «والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى» .

غير أن أحد شيوخ العلويين المتأخرين برر المحبة المفرطة بالقول : «عُرفت العلوية لفرط حبها ومفاداتها لعلي وصدق عواطفها له في مواقفه الحربية والدينية . والفرقة العلوية ، والتي هي أقل عدداً من سواها ، أكثر فرق الشيعة حباً وولاءً لعلي وأهل بيته ، بل لا نغالي إذا قلنا أن حبها هذا كان ضرباً من ضروب العبادة»[٨٦] . ظل مركز الدعوة العلوية مفتوحاً ببغداد حتى مجيء هولاكو[٨٧] . وإن صح ذلك ، فإن الخلفاء العباسيين كانوا متسامحين مع العلويين ضمن نشاط الفتوة ، التي تعد الإمام علي بن أبي طالب فتاها الأول . وكان الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـ) أكثر الخلفاء تحمساً لها . انتقل النشاط العلوي إلى الشام ، وتسرب من هناك إلى تركيا . ولم يبق بالعراق إلا عائلات معدودة ، بعد أن كانوا يشغلون محلة السراي بعانة . إذ بلغ عدد رجالهم فيها نحو الستمئة رجل ظلوا يمارسون عقائدهم بسرية تامة[٨٨] . وأقدم من هذا يذكر صاحب الكامل «كان أهل عانة نسبوا إلى هذا المذهب قديماً ، فأُنهي حالهم إلى الوزير أبي شجاع أيام المقتدي بأمر الله»[٨٩] .

---

(٨٢) المصدر نفسه ، ص١١٠ .

(٨٣) المصدر نفسه .

(٨٤) المصدر نفسه ، ص١١٧ .

(٨٥) المصدر نفسه .

(٨٦) مجلة الأماني السورية ، ١٩٣١ .

(٨٧) مجلة المجمع العلمي ، م٤ ج١ ، ١٩٥٦

(٨٨) مجلة لغة العرب ، ج٦ ، السنة ١٩٢٧

(٨٩) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، أحداث السنة ٤٩٤هـ .

أحب المسلمون علياً بدرجات متفاوتة . فأهل السُنّة يحبونه أسوة بالثلاثة : أبو بكر وعمر وعثمان . وله منزلة في مجالس الذكر الصوفية وأورادها . وأحبه الشيعة الإمامية حباً مشوباً بالتقديس . فالعصمة التي له وللأئمة الاثنى عشر والممارسات الأخرى لا تعني غير ذلك . ولنا أن نتصور كم كانت الحقبة الأموية ، قبل عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) ، ثقيلة على مَنْ اعتقد بإمامة علي ورجعته ، وعصمته من المتقدمين والمتأخرين ، يوم كان يُسب مع كل فرض صلاة علناً ، وكفى به سبباً لظهور الغلو في شخصية علي وذريته . وخلا ذلك تمكن الكُتاب العلويون ، مثل الخصيبي والطبراني ، من وضع فلسفة أثرت في الشيعة عامة ، جوهرها رفع مكانة علي من الأرض إلى السماء . تعدت حديث الكساء ، حيث جلوس جبرائيل مع النبي محمد وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين . وتحدث المفسرون حول علاقة هذا الحديث بنزول الآية : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»[٩٠] .

لكن الآية المذكورة خصت زوجات الرسول ، وهي تبدأ «وقرن في بيوتكن ولا تبرجنَّ تبرج الجاهلية الأولى» ، وكانت صريحة في مناشدة أمهات المؤمنين «يا نساء النبي لستنَّ كأحد من النساء إن اتقيتنَّ فلا تخضعنَّ بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض»[٩١] . نزلت الآية لغرض واضح ، وهو حمايتهنَّ من عيون وعواطف الآخرين . فطلحة بن عبيد الله ، أو صحابي آخر ، كان ينوي الزواج من عائشة بعد وفاة الرسول[٩٢] . فنزلت الآية ، التي تضمنت حجاب نساء النبي ، في تحريمهنَّ على المسلمين : «ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعد أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً»[٩٣] . وقصة الإفك معروفة في كتب التاريخ . ولا ندري كيف فسرت أو أُولت هذه الآية بعلي وبنيه؟

كان الغلو في علي وآل بيته استجابة سلبية للتشويه الأموي . فالشتائم على خلاف ما أريد لها من تشويه شخصية علي ، ونسيانه كأحد أبرز رموز الإسلام ، حققت منزلة فاقت منزلة الأنبياء عند المحبين ، الذين تحول احتجاجهم الصامت إلى عواطف قادت إلى التقديس . حررها العلويون أو النصيريون في قصص وحكايات موشحة بسلسلة من أسماء الرواة . قصص جعلت من أضرحة علي وأبنائه وأحفاده أبواباً للجنة ، وملاذات من عذابات الدنيا . لقد «دفع اشتداد المحن وتراكم المظالم على أولاد علي وفاطمة إلى إثارة دفائن القلوب والمحبة لهم ، فرأى الناس فيهم شهداء الظلم والفضيلة ، فاتسع نطاق الولاء لهم وكثر

---

(٩٠) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٩١) سورة الأحزاب ٣٢ .

(٩٢) الواحدي ، أسباب النزول ، ص٢٠٠ ، الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ٧-٨ ص ٥٧٤ .

(٩٣) سورة الأحزاب ٥٣ .

أنصارهم»[٩٤] . وهناك مَنْ اعتقد في ظلم الشيعة إلى أكثر من هذا ، ليصبح دافعاً لتبلور العقيدة الشيعية كمذهب فكري على يد الإمام جعفر الصادق (ت١٤٨هـ)[٩٥] .

لم يتحدث الذين ضايقهم فرط المحبة عن فرط الكراهية ، فعدوا مَنْ جمع بين رفع الأذان للصلاة وسب علي بن أبي طالب ، وتقديم كنية أبي تُراب على كنيته أبي الحسن ، صحابةً يحرم التعرض لهم . وبهذا تبدو كنية أبي تراب من الكُنى الملفقة ، وإن وردت في مصادر التاريخ السُنِّي والشيعي بمعنى الفقير الذي التصق بالتراب لشدة العوز . وهذا قد لا يسيء إلى علي بن أبي طالب . لكنها أخذت معنى آخر في عصر كسروية الأمويين ، تفيد السخرية والهزؤ ، والحرمان من هبات الله ، ومفردة من مفردات النقمة ، مقابل النعمة التي فيها آل أمية . ويروى في أمر كنيته بأبي تراب أن علياً وعمار بن ياسر قد صحبا الرسول في غزوة العُشيرة ، فغلبهما النعاس ورقدا تحت ظل النخيل على التراب ، فجاء الرسول وأيقظ علياً بالقول : «قم يا أبا تراب»[٩٦] . وقيل : توسد علي تراب المسجد فأيقظه الرسول بالكنية المذكورة . وأول مَنْ استعمل كنية أبي تراب في سب علي هو سهيل بن سعد بطلب من والي المدينة[٩٧] . وهنا لا بد من التذكير بأن العلويين ، وكانوا عرباً ومؤسسهم من قبيلة نمير ، هم الذين غلو بعلي إلى حد التأليه وليس الفرس ، مثلما أن التشيع وكل ما يتعلق بممارساته نشأ بالعراق وليس بإيران . وما القول بأُصول التشيع الإيرانية إلا محاولة لتعجيم هذا المذهب بصورة عامة .

عارضت رواية النوبختي اعتقاد العلويين في انتهاء الإمامة عند الإمام الحادي عشر ، وتولي البابية الأمر . ذلك باثبات ولادة وريث الحسن بن علي العسكري وهو محمد (المهدي) ، «دل عليه ، وليس الأمر كما زعم مَنْ ادعى أنه توفي ، ولا خلف له ، وكيف يكون إماماً قد ثبتت إمامته ووصيته ، وجرت أموره على ذلك ، وهو مشهور بين الخاصة والعامة ، ثم توفي ولا خلف له . ولكن خلفه قائم ، وولده قبل وفاته بسنين (٢٥٥هـ) ، وقطعوا على إمامته وموت الحسن (والده) ، وأن اسمه محمد ، وزعموا أنه مستور لا يُرى (يتكلم النوبختي بزعموا وقطعوا وكأنه ليس شيعياً) خائف من جعفر (عمه) وغيره من أعدائه . وأنها إحدى غيباته . وأنه هو الإمام القائم . وقد عُرف في حياة أبيه ، ونص عليه ، ولا عقب لأبيه غيره . فهو الإمام لا شك فيه»[٩٨] . فاحتفظ الشيعة الإمامية إلى اليوم بهذا الاعتقاد ، وإن ظهرت في

---

(٩٤) الحيدري ، تراجيديا كربلاء ، ص٣٤ ، عن طه حسين علي وبنوه ، ص ١٩٦ .

(٩٥) المصدر نفسه ، ص٣٥ .

(٩٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢ ص ١٥ .

(٩٧) المصدر نفسه .

(٩٨) النوبختي ، فرق الشيعة ، ص١٠٢ - ١٠٣ .

كيانهم تيارات مختلفة حديثة ، إلا أنها جميعاً لم تخرج عن إطار القول بالأئمة الإثني عشر ، وآخرهم هو المهدي المنتظر .

وأهم ما يتميز به العلويون أو النصيريون هو عدم اعترافهم بموت الأئمة ، بل اعتبار هم أحياءً صعدوا إلى السماء . وهذه الأضرحة ليست قبورهم ، وعندما يموت إمام تنتقل روحه إلى إمام أخر . ثم تنتقل روح الإمام إلى شخص آخر يسمى الظهور ، وبهذه الطريقة تفسر غيبة الأئمة عندهم[٩٩] . فلربما اندهش أو متعض العلوي من ذكر ضريح الإمام علي بالنجف ، أو قتل الإمام الحسين ودفنه بكربلاء . وكل هذا يفسر قولهم بالتناسخ ، وبمقالة المسيحيين بالسيد المسيح ، وما جاء في القرآن حول نفي صلبه وقتله : «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»[١٠٠] .

تفرعات حديثة

شهدت مرجعية آل كاشف الغطاء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظهور تيارات بالنجف المركز الشيعي الأمامي . لقد أمتدت مرجعية هذه الأسرة فترة طويلة من الزمن ، تولاها الأب جعفر الكبير . ثم الأبناء من بعده : موسى وعلي وحسن . ولا يُنسى الأحفاد أيضاً ، وفي مقدمتهم محمد حسين كاشف الغطاء . واستطاعت بحكمة عميدها جعفر أن تبعد الخطر الوهابي السلفي عن العتبات المقدسة ، الذي أراد قلعها من الوجود . كان التهديد الوهابي المتواصل للنجف وراء ظهور فئتين متحاربتين لفترة طويلة في المركز الشيعي ، هما : الزقرت والشمرت . واستمرت حروبهما الأهلية حتى دخول الجيش البريطاني النجف (١٩١٧) . تكونت فئة الزقرت من الشباب الذين أعدهم الشيخ كاشف الغطاء لرصد غارات الوهابيين من على بُعد أميال من المدينة . تلك المهمة التي رفض السيد محمود الرحباوي (نسبة لمنطقة الرحبة النجفية ، والاسم من متعلقات المسيحية القديمة بالمنطقة فأصلها الرهبة مكان الرهبنة) القيام بها ، متعللاً ببساتينه وأمواله ، وخوفه على أهله وأمواله من الوهابيين ، «وجعلهم مرابطين في حدود النجف من جهاتها الست على رأس أميال منها . وكان من جملتهم سواد العايشي ، ومنهم عباس الحداد»[١٠١] .

كان سبب تسميتهم بالزقرت أن جماعة كانوا يخرجون لصيد الطيور والضباء ، ويقولون لأنفسهم زقرت ، ويعني «نحن عدة بلا سلاح نتصيد ونستأنس . ومنه يقال أنا زقرتي ، أي

---

(٩٩) علي . المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية ، ص١١٢ .

(١٠٠) النساء ١٥٧ .

(١٠١) كاشف الغطاء ، العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية ، ص ١٢٩ .

أنا بنفسي ليس لي شيء»[١٠٢] . وكلمة (زكَرتي) معروفة بين العراقيين اليوم ، تطلق عادة على مَنْ يعيش عازباً بلا عائلة . أما الشمرت فهم الجماعة التي أخذت تُطالب بدم السيد محمود الرحباوي الذي قُتل بسبب تواطؤه المكشوف مع الوهابيين . وعرفوا أنفسهم بالشمردلية أي الشجعان ، ثم انقلبت التسمية إلى شمرت[١٠٣] .

تمكن الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت ١٨١٣م) من جذب الوهابيين إلى لغة الحوار الهادئ . فقد رد على عقيدتهم المعادية للأضرحة برسالته إلى أميرهم عبد العزيز بن سعود العام ١٧٩٥م . ناقش فيها عبر مصادر سُنّية خطأ تحريمهم زيارة القبور والأضرحة ، والشفاعة بالأولياء وتعظيمهم . وبيّنَ مَنْ هو الكافر في الإسلام . هناك مَنْ اعتبر هذه الرسالة «منهج الرشاد لمن أراد السداد»[١٠٤] أول رد على الوهابية بعد رد سليمان بن عبد الوهاب على أخيه محمد بن عبد الوهاب ، وكان للأخير ، الذي سبق أن درس في مدارس بغداد الفقهية ، مراسلات مع الشيخ جعفر كاشف الغطاء . وذكر ت محاولات الشيخ جعفر لرد ابن عبد الوهاب عن النجف ، ومنها التفاوض معه ، ولذا «لم تأت غارة للنجف مدة بقاء محمد الوهابي في قيد الحياة»[١٠٥] .

أكثر من هذا ، لما شعر الشيخ جعفر بخطر الوهابيين على الروضة الحيدرية ومدارس النجف وحوزتها الدينية بعث إلى محمد بن عبد الوهاب ، وهو نزيل عند السيد محمود الرحباوي ، بهدية عبارة عن «قرآن نفيس من هدايا سلاطين العجم إليه . وبعث معه كتاباً يطلب الصلح والأمان من جدنا (الخبر جاء على لسان أحد أحفاد محمد بن عبد الوهاب) . وأنه هو وأهل النجف جميعاً على دينه غير خارجين عن طاعته . والتمس منه أن لا يدخل النجف هذه الدفعة لأن أهلها في خوف منه واضطراب . فأجابه إلى ذلك محمد»[١٠٦] . وقيل : إن الشيخ جعفر «سأله أن ينصبه حاكماً في النجف من قبله»[١٠٧] . وبهذه المرونة القصوى ، التي فرضها واقع الحال ، استطاع الشيخ جعفر حماية النجف ، فقد «رأى انحصار الدفع عن بيضة الدين بذلك إلى أن يستعد لدفاعهم»[١٠٨] . ويُذكر أن مجتمع علماء النجف انقسم آنذاك إلى فريقين لمواجهة خطر الوهابيين ، فريق فضل الاستسلام والخروج من

---

(١٠٢) المصدر نفسه .
(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٥١٩ وما بعدها .
(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .
(١٠٦) المصدر نفسه .
(١٠٧) المصدر نفسه .
(١٠٨) المصدر نفسه .

النجف ، وفريق أكد الجهاد والموت دون المدينة ومقدساتها ، وكانت المواجهات بين الفريقين عبر الخطب والفتاوى بصحن الضريح العلوي .

كذلك تصاعد في زمن مرجعية آل كاشف الغطاء الخلاف بين الأُصوليين والإخباريين . وكان تأليف كتاب «كشف الغطاء عن ميرزا محمد عدو العلماء» رداً على الإخباريين ، أهداه إلى البلاط الشاهنشاهي إثر هروب الميرزا محمد إلى طهران[١٠٩] . وكانت حادثة اغتيال الميرزا محمد الإخباري بفتوى من الشيخ موسى كاشف الغطاء قد خلقت جواً من التوتر بين علماء الفريقين : الإخباريين والأصوليين . كان منطوق الفتوى ، التي عادة تأتي رداً على استفتاء يطلبه أحد الأتباع ، حاداً فيه إصرار على القتل : «يجب على كل محب ومموال أن يبذل في قتله النفس والمال ، وإلا فلا صلاة ولا صيام له ، وليتبوأ من جهنم منزله»[١١٠] . وفي شدة الخلاف الأُصولي الإخباري ظهرت فرقة الشيخية أو الكشفية في عشرينيات القرن التاسع عشر ، ومن أعلامها المؤسسين الشيخ أحمد الأحسائي والشيخ كاظم الرشتي ثم المرأة القوية قُرة العين . وقد تناسل من الشيخية ما عُرف بالبابية ثم البهائية . وسنأتي على تفاصيل هذه الفرق في الفصل الحادي عشر من الكتاب «البابية والبهائية» .

المهديون

كان لقب المهدي متداولاً في حياة محمد بن الحنفية (ت٨١هـ) . ثم أُطلق على محمد (ذي النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت ١٤٥هـ) . وأن الرجعة قيلت في الأئمة الاثنى عشر ، بِمَنْ فيهم علي بن أبي طالب . قيل برجوعهم بعد الموت لكنها لم تكن عقيدة أساسية وعامة عند الشيعة . أي يمكن تجاوزها دون المساس بأُصول المذهب ، والأساس فقط في مهدوية ، أو رجعة المهدي المنتظر بعد الغياب لا الموت . وهٰذه بحد ذاتها لا تُعد رجعة ، لأنه حسب العقيدة الشيعية ما زال حياً . والرجعة خاصة بالأموات . قال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في رده على أحمد أمين : «ليس التدين بالرجعة في مذهب التشيع بلازم ولا إنكارها بضار ، وإن كانت ضرورية عندهم . ولكن لا يناط التشيع بها وجوداً وعدماً ، وليست إلا كبعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل ، وإشراط الساعة . مثل نزول عيسى من السماء وظهور الدجال وخروج السفياني وأمثالهما من القضايا الشائعة عند المسلمين . . . ولا فرض أنها أصل من أُصول الشيعة . فهل اتفاقهم مع اليهود بهذا (القول بالرجعة) يوجب كون اليهودية ظهرت في التشيع؟ وهل يصح أن يُقال إن

---

(١٠٩) الأنصاري ، الفقهاء حكام على الملوك ، ص ٦٨ .

(١١٠) كاشف الغطاء ، العبقات العنبرية ، ص ١٨٥ .

اليهودية ظهرت في الإسلام ، لأن اليهود يقولون بعبادة إله واحد والمسلمون به قائلون»[111]؟

ولكاشف الغطاء وقفات عديدة مع أحمد أمين الطباخ ، الذي حصل أن زار النجف ضمن وفد مصري ، واعتذر عما كتبه ضد الشيعة في «فجر الإسلام» . ورغم ذلك استمر في مغالاته ضدهم ، وادعى أن الشيعة يقدسون النار . ذلك في محاولة منه لتعجيم التشيع ، فتقديس النار ، كما هو معروف ، من الديانات الإيرانية القديمة . ولخص كاشف الغطاء ثلب أحمد أمين للشيعة بنادرة استعارها من كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» . جاء فيها : «سئل رجل كان يشهد على آخر بالكفر عند جعفر بن سليمان ، فقال : إنه خارجي ، معتزلي ، ناصبي ، حروري ، جبري ، رافضي ، يشتم علي بن الخطاب ، وعمر بن أبي قحافة ، وعثمان بن أبي طالب ، وأبا بكر بن عفان . ويشتم الحجاج الذي هو والي الكوفة لأبي سفيان . وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف ، أي يوم الطف أو يوم الطائف . فقال له جعفر بن سليمان : قاتلك الله ، ما أدري على أي شيء أحسدك أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات»[112]!

غير أن الرجعة التي أتخذها أحمد أمين مادة لغلوائه ضد الشيعة هي ليست من لدن عبد الله بن سبأ ، الخرافي كما أسلفنا ، وإنما بدأ القول بها عمر بن الخطاب لحظة وفاة الرسول . قال عمر : «والله ما مات رسول الله ولا يموت ، وإنما تغيّب كما غاب موسى بن عمران أربعين ليلة ثم يعود . والله ليقطعن أيدي قوم وأرجلهم»[113]! مع أن التاريخ الإسلامي يؤكد قول عمر بن الخطاب برجعة النبي محمد إلا أن أميناً زادَ على ما روي عن عبد الله بن سبأ بالقول : «وأما الرجعة فقد بدأ قوله بأن محمداً يرجع ، وكان مما قاله : العجب ممن يُصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمداً يرجع»[114] .

يحوي الأدب الشيعي حكايات عجيبة حول ولادة الأئمة ووفاتهم ومعجزاتهم . مثلها مثل العجائب التي أحاط الاخباريون اليهود والمسيحيون والمسلمون بها ولادات الأنبياء . فموسى لم يظهر الحَبَل به إلا حين ولادته ، وينجو من الذبح بواسطة تابوت تركته أمه في عرض البحر ، بعد أن أمر فرعون بذبح كل ولد يولد لبني إسرائيل ، وعند وفاته لطم ملك عزرائيل لطمة فقأ بها عينه[115] . وأن أخاه هارون ولد في عام المسامحة ، أي أن فرعون كان

---

(١١١) كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ص ٣٦ .

(١١٢) المصدر نفسه ، ص٤١ .

(١١٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي٢ ص ١١٤ ، وأغلب التواريخ ذكرت القصة .

(١١٤) الأمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٠ .

(١١٥) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٤٣٤ .

يقتل الأبناء لعام ويتركهم لعام آخر[116] . وأن الملائكة تحدثت مع مريم وبشرتها بحَبَلها بولد من غير أب ، وأنه كلم الناس بالمهد دفاعاً عن والدته ، ودعوة لنبوته ، وهو الوحيد من البشر الذي لم يمسه الشيطان عند ولادته . جاء في الحديث النبوي : «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى»[117] . وقيل : يوم ولد النبي محمد «رُجمت الشياطين وانقضت الكواكب»[118] . وقالت آمنة بنت وهب في ولادته : «سطع مني نور حتى رأيت قصور الشام ، ولما وقع إلى الأرض قبض قبضة من تراب ثم رفع رأسه إلى السماء»[119] .

لم يختص الشيعة وحدهم بتقديس لحظة وفاة أئمتهم ، بل أن اخباريي المذاهب الأخرى أحاطوا أئمتهم بعجائب وكرامات لا عد لها . ونجد الكثير منها في كتب مناقب أئمة المذاهب ، فمنهم مَنْ تجاوز إلى القول ببشارة الرسول بإمامه[120] . بيد أن هذه العجائب ، عند السُنُة و الشيعة على حد سواء ، لم تعد من أساسيات المذاهب بقدر ما هي أدب جامح بالخيال ، صاغته مخيلة إخبارية لم تكن بعيدة بمكان عن الخارق الديني ، الذي تحدث عنه الأنبياء والكتب المقدسة ، فكيف سينظر الأتباع لإمام يغيب في طفولته ويظل حياً ، يأتيه السفراء ويتحدثون معه ، وينقلون عنه الكتب والرسائل ، غير أن تكون ولادته خارقة وغيابه هائل العجب؟

ورد في ولادة الإمام المهدي المنتظر عن حكيمة بنت محمد الجواد وعمة والده الحسن العسكري : «خرجت فنظرت إلى السماء ، وإذا الكواكب قد انحدرت . وإذا هو قريب من الفجر الأول . ثم عدت فكان الشوطان حيث قلى . قال أبو محمد (العسكري) : لا تعجلي ، فكأنه قد كان . وقد سجدت فسمعته يقول في دعائه شيئاً لم أدر ما هو ، ووقع على الثبات في ذلك الوقت ، فانتبهت بحركة جارية ، فقلت لها باسم الله عليك ، فسكنت على صدري فرمت به (الإمام المهدي) عليٌ وخرت ساجدة ، فسجد الصبي وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى حجة الله ، وذكر إماماً إماماً حتى انتهى إلى أبيه»[121] . والكثير مثل هذا الخبر العجيب في كتب الشيعة .

---

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٩٩ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ٥٥٩ و٥٦٢ .

(١١٨) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٨ .

١١٩) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(١٢٠) راجع المكي والكردري ، مناقب الإمام أبي حنيفة ، وابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ومناقب معروف الكرخي .

(١٢١) الطبري ، دلائل الإمامة ، ٢٦٨ - ٢٦٩ .

كانت فكرة المهدي فكرة دينية واجتماعية عامة ، اختصت بها أغلب الأديان قبل الإسلام ، فلكل دين وشعب مهديه أو منقذه[١٢٢] ، يترقبه الاتباع لتحقيق مجتمعهم المثالي الموعود . ولم يكن للشيعة غير اختصاصهم بتسمية المهدي وتعينه بمحمد بن الحسن بن العسكري . وفي ذلك اختلفوا عن مهدي السُنَّة ، الذي هو وأبوه سميّا النبي محمد وأبيه . ومن مرويات السُنَّة في المهدي : «لا تذهب الدنيا ولا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطئ أسمه أسمي» ، و«إن في أمتي المهدي يخرج ، يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً ، فيجيء إليه الرجل فيقول : يا مهدي! أعطني أعطني ، فيجثي له ثوبه ما استطاع أن يحمله» ، و«يلي رجلٌ من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يلي» ، و«لن تهلك أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم في آخرها والمهدي في أوسطها» . وأحاديث وروايات أخرى كثيرة[١٢٣] .

واستغرب معروف الرصافي ، وهو سُنِّي المذهب ، في كتابه «الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس» ، الذي فسر فيه شخصية النبي محمد وأهداف الدعوة الإسلامية من أجل السلطان لقريش ثم للعرب . استغرب من فكرة المهدي وتحديده بالإمام الثاني عشر بالقول : «هذا عجيب جداً لأن أمر الإمامة مستمر إلى آخر الزمان . فهي تتسع لما لا يحصى من الأئمة ، فحصرها في هذا العدد غير معقول . غير أنهم سدوا هذه الثلمة بأن جعلوا الإمام الأخير ، الذي هو محمد المهدي ، حياً مدى الزمان . وقالوا بأنه غائب ، قد اختفى في سرداب سامراء»[١٢٤] . وعلى الرغم من أن الرصافي ليس وهابياً ، ويفهم الإسلام من منظور تاريخي ، إلا أنه اعتبر زيارة الشيعة ، وربما السُنَّة أيضاً ، لأضرحة أئمتهم تتعارض مع «لا إله إلا الله» . قال : «لو كان الشرك بالله يضر الناس مضرة مادية لهلك اليوم أهل العراق»[١٢٥] .

واختص العباسيون بمهديهم أيضاً ، ووضعت الأحاديث للتبشير به . فهو الخليفة العباسي الثالث محمد بن عبد الله ، (وعبد الله هو أبو جعفر المنصور) . وقد لقبه والده بالمهدي ، ليكون مقابل المهديين : «السفياني عند الأمويين والقحطاني والكلبي عند اليمانيين»[١٢٦] ، ومقابل مهدي العلويين الأول محمد بن عبد الله النفس الزكية . ومن الأحاديث النبوية التي بشرت بالعباسي : «يقتتل عند كنزكم هذا ثلاثةٌ كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود (إشارة إلى العباسيين) من قبل المشرق

---

(١٢٢) راجع مهدي ، البحث عن منقذ دراسة مقارنة في ثماني ديانات .

(١٢٣) الهندي ، كنز العمال ، الأحاديث : ٣٨٦٥١ - ٣٨٦٧٦ .

(١٢٤) الرصافي ، كتاب الشخصية المحمدية ، ص ٤١ .

(١٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢١ .

(١٢٦) مهدي ، البحث عن منقذ ، ص٢٠٥ .

فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قومٌ، فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي». و«المهدي من العباس عمي»[١٢٧].

حاول أبو جعفر المنصور في إعلان مهدوية ولده مقابل مهدي الشيعة «أن يموه بدوره على الناس، ويصرفهم عن محمد بن عبد الله (النفس الزكية)[١٢٨]. كذلك كان للإسماعيليين مهديهم أيضاً، وقد اظهروا عدة مهديين، أقاموا دولاً في المغرب العربي وبمصر. ولمهدي قرامطة البحرين حكاية لا يفوت ذكرها، إذ تحايل أبو سعيد الجنابي على المتربصين بسلطان أولاده، وطلب منهم أن يمتحنوه بعد رجعته من الموت مهدياً، وأن يُترك فرسه بعد وفاته بباب القصر، مهيأً لركوبه بعد الرجعة، قائلاً لهم: «حين أعود ولا تعرفونني أضربوا عنقي بسيفي، فإذا كنت أنا حييت في الحال»[١٢٩]. لذا لم يتقدم أحد ويدعي نفسه الجنابي. أما السيد الحميري (ت١٧٣هـ) فقد ملَّ انتظار مهديه، وهو محمد بن الحنفية فقال فيه:

يا شعب رضوى ما لمن بك لا يُرى
وبنا إليك من الصبابة أولقُ
حتى متى وإلى متى وكم المدى
يا ابن الوصي وأنت حي ترزق[١٣٠]

ومع يأس مَنْ جعل ابن خولة الحنفية مهدياً، وقتل محمد النفس الزكية، وتحقيق مهدي العباسيين بالخليفة محمد بن أبي جعفر المنصور، وتحققت مهدوية الإسماعيليين بالعبيديين، إلا أن المسلمين، من السُنَّة والشيعة الإمامية، لازالوا ينتظرون المهدي، فهناك مَنْ اعتصم بالحرم المكي (١٩٧٩) وأعلن نفسه مهدياً. لكن فتوى علماء الحرمين أهدرت دمه. لأن أوصافه غير مطابقة. والشيعة وحدهم ينتظرون شخصاً بعينه سيخرج يوماً ليحقق دولة العدل المثالية. وفي هذا الانتظار الطويل ورد المثل التالي: «أبطأ من مهدي الشيعة ومن غراب نوح عليه السلام»[١٣١]. والسؤال هل كان مهدي الآخرين، من مسلمين وغير مسلمين، أسرع إلى الظهور من مهدي الشيعة، حتى يضرب ببطئه المثل، ويتعرض كعقيدة غيبية إلى كل هذا الانتقاد؟

---

(١٢٧) الهندي، كنز العمال، الأحاديث: ٣٨٦٥٨ و٣٨٦٦٣.

(١٢٨) العاملي، الحياة السياسية للإمام الرضا، ص٨٢.

(١٢٩) خسرو، سفرنامه، ص١٤٤.

(١٣٠) ديوان السيد الحميري، ص٢٩٢.

(١٣١) الميداني، مجمع الأمثال ١ ص ٢٠٨.

يقود المثل المذكور إلى الحديث حول عقائد جماعات من الشيعة في بطء ظهور المهدي المنتظر، أو عدم ظهوره إلى أبد الآبدين، وهو إرجاء أي عمل سياسي أو ثوري حتى ظهور الإمام. لأنه صاحب الحق في القيادة والتوجيه، وليس هناك سفير بينه وبين شيعته بعد إنتهاء أمد السفراء الأربعة. بمثل هذا الرأي اعترض علماء دين شيعة على الثورة الإيرانية، على اعتبارها منافية لإنتظار ظهور الإمام المهدي. وهم برأيهم هذا يجنحون إلى عدم تدخل الدين في السياسة. بل ويشجعون من غير قصد القوى الديمقراطية العلمانية (التي تؤمن بفصل الدين عن الدولة) بإقامة النظام الديمقراطي، الذي لم تتمكن الثورة الإيرانية من إقامته، فهي محددة بإطار ديني بل ومذهبي، ولا تسمح بخلاف ذلك، أي لا تسمح بغير سلطة رجال الدين، الذين يعرفهم معارضوهم بالملالي. وتسعى جماعة جند الإمام المهدي المنشقة عن حزب الدعوة الإسلامية إلى تهيئة الأتباع قبيل الظهور، حتى يكون الظرف جاهزاً لتحرك الإمام المهدي في بناء دولة القسط والعدل.

وجماعة أخرى، برزت بعد الثورة الإيرانية، تطلق على نفسها الحجتية، تسعى إلى التعجيل في ظهور المهدي عن طريق تشجيع الفساد والمظالم، فبخروجه «في آخر الزمان يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[١٣٢]. فهو لن «يخرج حتى تمتلئ الأرض جوراً وظلماً»[١٣٣]. وللحجتية حُسينيات مغلقة يدعون فيها التعجيل بظهور الإمام عبر إكثار الفساد وتعطيل الإصلاح. لا يقرون مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويضربون رؤوسهم بالأحذية إمعاناً في إيذاء وإهانة الروح كي يرى ذلك المهدي ويعجل بالظهور. فالخطيب يشعرهم بوجود الإمام بينهم. لذا يأمر بإطفاء النور حتى لا يراه الحاضرون. ويتكرر هذا المشهد في كل لقاء من لقاءاتهم، حتى أعلن بعضهم أن المهدي حل في بدنه وتلبسه، وأمره بقتل الأعداء. ويذكر أن آية الله الخميني قد أمر بإعتقال مَنْ أعلن تلبسه بالمهدي. وكم تناغم فكرة الإكثار من الفساد والظلم عند جماعة الحجتية الآية «وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً»[١٣٤]. فالآية تشترط تخليص القرية من الفساد والظلم بإغراء المفسدين في الإكثار من فسادهم، كي يكون هناك عذر لتدميرهم. كذلك تقوم فكرة المهدي على الإصلاح عن طريق التدمير أولاً ثم البناء المثالي.

عموماً، الكل سعى إلى فكرة المهدي، وهي فكرة فيها ما فيها من سد فراغ النبوة، بعد أن ختمها الإسلام بنبيه. كذلك الحال بالنسبة إلى االديانات الأخرى. وفكرة الغياب والظهور عقيدة دينية، حكم وجودها التشبث بأمل الخلاص، حالها حال العقائد الغيبية

---

(١٣٢) القزويني، الشيعة في عقائدهم وأحكامهم، ص ٥٦.

(١٣٣) المصدر نفسه.

(١٣٤) سورة الإسراء ١٦.

الأخرى . وتبدو حجة الغياب أو الاستتار واقعية قياساً بالظروف التي عاشها الشيعة . قال الطوسي في «العلة المانعة لصاحب الأمر عليه السلام من الظهور» : «لا علة تمنع من ظهوره إلا خوفه على نفسه من القتل . لأنه لو كان غير ذلك لما ساغ له الاستتار ، وكان يتحمل المشاق والأذى ، فإن منازل الأئمة ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام إنما تعظم لتحملهم المشاق العظيمة في ذات الله تعالى»[١٣٥] . وقد يرد السؤال ، كيف لمن امتلك السر الإلهي بالغياب لدهر طويل لا يمتلك حماية نفسه وصونها من سيف خليفة أو والٍ؟

لم ينته أمر المهدي عند وصف السُنَّة والشيعة على مختلف طبقاتهم ، بين لا وجود له ، أو مات في طفولته ، وبين أنه شخص غير مجهول سيظهر في عصره وزمانه . ومع الحيرة والاضطراب في تشخيصه هناك مَنْ جعل له ابناً ليكون الإمام الثالث عشر ، وهو من أشهر شعراء عصره والعصور التي تلته ، أبو الطيب أحمد المتنبي . هذا ما حاول أن يصل إليه الكاتب العراقي عبد الغني الملاح (ت٢٠٠١) ، وقد أغراه نسب المتنبي المجهول وبحث الباحثين عن والديه . كذلك شجع الباحث على المضي في بحثه شعره الذي يوحي أنه من نسب كريم قد يكون أباه الإمام الثاني عشر . فهو القائل :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير مَنْ تسعى له قدم

وقوله مخاطباً جدته :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أماً[١٣٦]

ولو كان الملاح شيعياً لأخرجه هذا الرأي من المذهب . لأنه تجاوز إلى القول بالإمام الثالث عشر ، وجعل للمنتظر وريثاً وأمراً دنيوياً خالياً من الخوارق! لكنه من جانب ، وهو السُنّي ، اعترف بوجود اثني عشر إماماً ، أنكرها السُنَّة بمختلف مذاهبهم .

التشيع والعراق

كان العراق مسرحاً لأحداث جسام في حياة المذهب الشيعي ، فالمهدي الذي يشكل عقيدة أساسية غاب في أرض العراق . وما زال سرداب الغيبة[١٣٧] مزاراً للشيعة بسامراء .

---

(١٣٥) الطوسي ، كتاب الغيبة ، ص ١٩٩ .

(١٣٦) الملاح ، المتنبي يسترد أباه ، ص٦ .

(١٣٧) يميز جواد علي في قول الشيعة : أن المهدي اختفى من السرداب ، ولم يقولوا اختفى فيه ، وقد أصبح

فالغياب هناك والظهور بمكة حيث بدأ الإسلام . وتضم سامراء ، ذات الأغلبية السنية الشافعية ، ضريحي والده الحسن العسكري ، وجده علي الهادي . وعلى الرغم من سُنّيتها كانت العاصمة العباسية الثالثة ، بعد الأنبار وبغداد في قلب الحدث الشيعي . فالشافعية أقرب المذاهب السُنّية عاطفة من الشيعة . وإن كان أئمة المذاهب الأربعة كافة غير بعيدين عن العلويين . لكن الإمام الشافعي سجن وعذب بسببهم ، فقال بيته المشهور :

إن كـان رفضـاً حـب آل محمد

فليشـهد الثقـلان أني رافضي[138]

ضمت مدن العراق أضرحة جمهرة كبيرة من البيت العلوي : ضريح الإمام علي بن أبي طالب ، وضريحا ولديه الحسين والعباس بكربلاء ، حيث قتلا وعدد آخر من شباب وصبيان العلويين وأعوانهم ، وضريح ابن أخيه مسلم بن عقيل بالكوفة . وهو سفير ابن عمه الحسين إلى العراقيين . وببغداد ضريح الإمامين موسى بن جعفر الكاظم وحفيده محمد الجواد . وهناك عشرات الأمكنة المقدسة التي تعود لأولاد الأئمة وأحفادهم وحفيداتهم منتشرة بوسط العراق وجنوبه . و«ارتبط الإسلام الشيعي منذ بدايته ارتباطاً وثيقاً بالعراق ، لأن العديد من الأحداث المكونة للتاريخ الشيعي وقعت هناك . . . ومنذ المراحل المبكرة للتاريخ الإسلامي كان الكثير من النشاط الأكاديمي الشيعي يُمارس في مراكز العراق»[139] . وقبل ذلك ألقيت من على منبر الكوفة «تلك المجموعة المعتبرة النفيسة (نهج البلاغة) الحاوية على الخطب والمواعظ»[140] . الكتاب الذي قيل فيه : «هو أخ القرآن في التبليغ والتعليم ، وفيه دواء كل عليل وسقيم ، ودستور للعمل بموجبات سعادة الدنيا ، وسيادة دار النعيم»[141] .

جاء تفضيل الإمام علي الكوفة عاصمة للخلافة على أثر الموقف الإيجابي معه في معركة الجمل ، بقيادة زوجة الرسول والمبشّرين بالجنة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . وفي عائشة قال الرسول ، حسب المصادر السُنّية : «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[142] . جاء في الرواية : «لما قدم علي بن أبي طالب من البصرة إلى الكوفة

= السرداب منذ ذلك التاريخ (العام ٢٦٠هـ) وهو عام الغيبة مكانا مقدسا ، وحتى هذه الأيام مازال يرتزق عليه بشر كثير . أما غياب أو اختفاء المهدي في مدينة الحلة حسب ما يأتي به ابن بطوطة فلا صحة له (راجع جواد علي ، المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية ، ص ٨٠-٨١) .

(١٣٨) الشافعي ، الديوان ، ص٧٣ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٣١٧ .

(١٣٩) نقاش ، شيعة العراق ، ص٣١ .

(١٤٠) فياض ، تاريخ الإمامية ، ص ١٤٧ عن ماسينون ، خطط الكوفة ، ص١٣ .

(١٤١) الطهراني ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٤ ص١١١ .

(١٤٢) ابن كثير ، قصـص الأنبيـاء ، ص٥٦٦ ، ابـن عبـد البـر ، الإسـتيعاب في معرفة الأصحاب ٤ص ١٨٨٣ .

يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب سنة ستة وثلاثين ، وقد أعزَّ الله نصره وأظهره على عدوِّه ، ومعه أشراف الناس وأهل البصرة ، استقبله أهل الكوفة وفيهم قراؤهم وأشرافهم ، فدعوا له بالبركة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، أين تنزل؟ تنزل القصر؟ فقال : لا . ولكني أنزل الرحبة . فنزلها ، واقبل حتى دخل المسجد الأعظم ، فصلى فيه ركعتين . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، وقال : أما بعد يا أهل الكوفة فإن لكم في الإسلام فضلاً مالم تبدوا وتغيروا ، دعوتكم إلى الحق فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيرتم»[١٤٣] .

وحسب نصر بن مزاحم المنقري (ت٢١٢هـ) أن الكوفة لم تجمع على نصرة علي بن أبي طالب ، يظهر ذلك من معاتبته لأشرافها ، ومنهم زعيم التوابين ، في ما بعد ، سليمان بن صرد الخزاعي ، قال : «ما بطأكم عني وأنتم أشراف قومكم؟ والله لأن كان من شك في فضلي ومظاهرةً على أنكم لعدو»[١٤٤] .

كذلك ورد في رسالة علي إلى عامله بهمدان جرير بن عبد الله البجلي : «إني هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنتُ بالعذيب بعثتُ إلى أهل الكوفة بالحسن بن علي وعبد الله بن عباس وعمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة فاستنفروهم فأجابوا ، فسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة»[١٤٥] . وأكد المسعودي ميل الكوفة إلى علي بالقول : «اتصلت بيعة علي بالكوفة وغيرها من الأمصار . وكان أهل الكوفة أسرع إجابة إلى بيعته»[١٤٦] . وبالشام كانت ترتيبات الأمويين جارية على قدم وساق ، فهناك خُوطب معاوية بن أبي سفيان بأمير المؤمنين . بدأ ذلك رجل يدعى الحجاج بن خُزيمة فأبلغه بقتل عثمان بن عفان متهماً الهاشميين بقتله ، وأنشد بحضرته :

إن بني عمك عبد المطلب
هم قتلوا شيخكم غير الكذِب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب
وأغضبْ معاوى للإله واحتسب[١٤٧]

وأرسلت زوجة الرسول أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى «أخيها معاوية بقميص عثمان مخضباً بدمائه مع النعمان بن بشير الأنصاري»[١٤٨] . فأصبح القميص بيرقاً

---

(١٤٣) المنقري ، وقعة صفين ، ص٣ .
(١٤٤) المصدر نفسه ، ص٧ .
(١٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٥ .
(١٤٦) المسعودي ، مروج الذهب ٤ ص٦٤٢ .
(١٤٧) المنقري ، وقعة صفين ، ص٧٧ .
(١٤٨) المسعودي ، مروج الذهب ٤ ص٦٤٢ .

ينشره معاوية في المواجهات الحامية مع جيش الخلافة . وبذلك انفلق الإسلام إلى فريقين ، وإن صحت العبارة : العلويون بالعراق والأمويون بالشام ، وقد وصف الشاعر تلك الحال بقوله :

أرى الشام تكـــره مُـــلك العراق
وأهـــل العـراق لهــا كــارهــونا[١٤٩]

إثناء فترة العهد الأموي (٤٠ - ١٣٢هـ) ظل العراق أرضاً خصبة للثورات الشيعية ، فالحسين سار إلى الكوفة ببيعة من أهلها ، وهناك وجد نفسه أمام جيش جرار ، لم يحسب حسابه . ومع ذلك جاء في الروايات الشيعية حول ثورته أنها كانت قدراً مقدراً أحاط الله الرسول بها علماً . وأنه أول مَنْ تأسّى بقتله . وكانت فاطمة أمه أول الباكيات النائحات عليه ، مع أنها توفيت قبل مقتله بخمسين عاماً . وورد في الأدب الشيعي «أن الله تعالى هنأ نبيه بحمل الحسين وولادته ، وواساه مقدماً بقتله ومصابه ، فعرفت فاطمة بذلك فكرهت حمله وولادته حزناً عليه للمصيبة»[١٥٠] .

وبالعراق ثار حفيد الحسين زيد بن علي بن الحسين (ت ١٢٢هـ) ، وعند المواجهة مع جيش هشام بن عبد الملك تذكر زيد ما حل بجده ونكث أهل الكوفة لبيعته ، فقال لصاحبه : «يا نصر بن خُزيمة أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية»؟[١٥١] وسرعان ما التف الناس بعد قتله حول ولده يحيى . ومن كرامته عندهم أن جعلوا حديد قيده في خواتيمهم ، جاء في الرواية : «صار جماعة من مياسير الشيعة إلى الحداد الذي فك قيده من رجله ، فسألهم أن يبيعهم إياه ، وتنافسوا وتزايدوا حتى بلغ عشرين ألف درهم . . . فقطعه قطعة قطعة ، وقسمه بينهم فاتخذوا منه فصوصاً للخواتيم يتبركون بها»[١٥٢] . ثم توالت الثورات الشيعية والزيدية الشيعية .

ومن أرض العراق انطلقت حركة التوابين ، يتزعمهم صاحب علي بن أبي طالب القديم سليمان بن صُرد الخزاعي وحركة المختار الثقفي ، وكانت آخر ثورات العلويين في الزمن

---

(١٤٩) المنقري ، وقعة صفين ، ص٥٦ .

(١٥٠) الطبري ، دلائل الإمامة ، ص٧٢ .

(١٥١) ظل تقاعس أهل الكوفة عن نصرة الحسين ، وخذلانه بعد مراسلات والحاح لمبايعته خليفة بالعراق في الذاكرة ، وهذا ما قاله شريف مكة الحسين بن علي للوجيه العراقي علي البازركان عندما وصلته مكاتيب أهل العراق يطلبون ولده فيصل أن يكون ملكاً عليهم : «لكني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصل كما عاملوا جده الحسين من قبل»(الوردي ، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ، ٦ ص٨٠) . وبالفعل تحقق حدس الشريف الحسين في حفيد فيصل وليس في فيصل نفسه ، وذلك في تموز ١٩٥٨ .

(١٥٢) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص١٤٨ .

الأموي ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب (هناك ولد لعلي اسمه جعفر قُتل مع الحسين بكربلاء ولا ندري إن كان عبد الله من ولده) ، الذي ثار بالكوفة العام (١٢٧هـ) . وعلى الرغم من سيرة هذا الثائر المطعونة إلا أن ثورته كانت حلقة من سلسة ثورات علوية[١٥٣] . وبالعراق نجحت الثورة العباسية بدعم الشيعة ، واستعمال شعاراتها ، وباستغلال عاطفة الناس تجاه العلويين ، ولا سيما أن بني العباس من البيت الهاشمي .

مع العباسيين

كان أهم حدث سياسي شهده العراق هو إسناد ولاية العهد للإمام الثامن علي بن موسى الرضا (ت٢٠٣هـ) من قبل العباسيين . أتى هذا الحدث بعد اغتيالات ومقاتل نكراء بين صفوف العلويين ، ننظرها عند أبي الفرج الأصفهاني في أيام أبي جعفر المنصور ، وحتى المأمون . ففي السنة ١٤٥هـ قُتل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في سجن العاصمة العباسية الأولى (الهاشمية) . وقُتل أخوه الحسن بعده ، ومات أولاده في السجن المذكور . وكان سجنهم المطبق (تحت الأرض) لا يعرفون فيه النهار من الليل[١٥٤] .

جرى هذا على بيت من بيوت العلويين ، أبناء الحسن وأحفاده . أما البيت الحسيني الذي يمثله الإمام محمد الباقر ، وولده جعفر الصادق ، فابتعد عن المواجهة المباشرة ، وربما في الحادثة التالية ما يؤكد ذلك . جاء في الرواية : «أن واصلاً (ابن عطاء أحد مؤسسي المعتزلة) دخل المدينة ونزل على إبراهيم بن يحيى ، فتسارع إليه زيد بن علي وابنه يحيى وعبد الله بن الحسن وأخوته . فقال جعفر الصادق لأصحابه قوموا بنا إليه فجاءه والقوم عنده ، فقال جعفر : أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق والبينات والنذر والآيات ، وأنك يا واصل أتيت بأمر يفرق الكلمة وتطعن به على الأئمة ، وأنا أدعوك إلى التوبة . فقال واصل : الحمد لله العدل في قضائه الجواد بعطائه ، المتعالي عن كل مذموم ، العالِم بكل مكتوم ، نهى عن القبيح ولم يقضه وحث على الجميل ، ولم يحل بينه وبين خلقه ، وأنك يا جعفر واني الهمة ، شغلك هم الدنيا فأصبحت مكلفاً . . . وتكلم زيد بن علي وأغلظ لجعفر ، وقال ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا»[١٥٥] .

كان جعفر الصادق مأخوذاً بالكوارث التي حلت ببيته ، وإن أراد عملاً مناهضاً فلا

---

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص١٥٢ - ١٥٣ .

(١٥٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٣٨٣ .

(١٥٥) البلخي ، فضل الاعتزال ، ص ٢٣٩ ، المرتضى ، المنية والأمل ، ص ١٤٩ .

يخطو خطوة عمه زيد، ولاخطوة واصل بن عطاء المعتزلي (ت ١٣١هـ)، الذي لديه من قوة التنظيم ما يحقق به ثورة. لذا ظل الصادق مشغولاً بعلمه، ولم يُظهِر الخلاف مع العباسيين. واضعاً لمذهبه الأسس التي استحق فيها أن يُطلق اسمه عليه ليعرف بالمذهب الجعفري، وذلك توافقاً مع تسميات المذاهب الأربعة السُنِّية المعروفة بأسماء مؤسسيها. فقيل إن أبا جعفر المنصور قد حزن لموته. قال الأمير العباسي إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس: «دخلت على أبي جعفر المنصور يوماً، وقد اخضلت لحيته بالدموع، فقال لي: ما علمت ما نزل بأهلك؟ فقلت: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: جعفر بن محمد، فقلت: أعظم الله أجر أمير المؤمنين، وأطال الله بقاءه! فقال لي: إن جعفراً كان ممن قال الله فيه: ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، وكان ممَنْ اصطفى الله، وكان من السابقين بالخيرات»(١٥٦).

وحسب الشهرستاني لم يتصدَ جعفر الصادق «للإمامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة قط. ومَنْ غرف من بحر لم يطمع في شط. ومَنْ اعتلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط»(١٥٧). غير أن عواطف أبي جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ) تجاه جعفر الصادق لم تمنعه من إيذاء علويين آخرين، فقد ترك في سجونه ما ترك من السجناء العلويين لولده المهدي (ت ١٦٩هـ) فيأمر الأخير بمناسبة اعتلائه العرش «بإخراج مَنْ في المحابس من الطالبيين وسائر الناس»(١٥٨). كان من بين المطلقين ولي العهد الأموي عبد الله بن مروان بن محمد. قال حينها الأمير العباسي عيسى بن علي: «إن في أعناقنا بيعة له، وقد كان هذا الرجل ولي عهد أبيه»(١٥٩). ولا ندري كيف نجا ولي العهد الأموي من تحريض سُدًيف الشاعر، لقتل كل أموي، وهذا ما حدث بالفعل. قال سُدًيف منشداً أبا العباس السفاح، وقد شاهد أمراء أمويين يجالسونه، ومنهم صديقه القديم سليمان بن هشام بن عبد الملك:

لا يَغُرَّنك ما ترى من رجالٍ
إن تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السَّوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا(١٦٠)

ومن مقاتل العلويين في زمن المهدي العباسي مقتل علي بن العباس بن الحسن بن

---

(١٥٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٣٨٣.
(١٥٧) الشهرستاني، الملل والنحل ١ ص ١٣٣.
(١٥٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٣٩٥.
(١٥٩) المصدر نفسه.
(١٦٠) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ١ ص ٣٣١.

الحسن بن علي بن أبي طالب. «كان قدم بغداد ودعا إلى نفسه سراً، فاستجاب له جماعة من الزيدية». وانتهى اغتيالاً بجرعة سم شديد المفعول، بحيث «فسخ لحمه وتباينت أعضاؤه»[١٦١]. ومات عيسى بن زيد متوارياً. وكان المهدي من القساوة أن يطلب من الأب قتل ابنه[١٦٢] بيده في تهمة الانتماء إلى تنظيم علوي. وغيّب وزيره يعقوب بن داود في سجن تحت الأرض، بعد أن شعر بميله العلوي، وقيل إن الوزير المذكور «أرسل إلى الزيدية جميعاً، فأتى بهم من كل ناحية، فولاهم أمور الخلافة في الشرق والغرب، وكان هذا ما عتب عليه»[١٦٣]. ولا يعرف للوزير الشيعي هدفاً من ترتيب العلويين في وظائف الدولة، هل كان مجرد عاطفة أم عمل منظم للقيام بثورة، فألبت هذه السياسة خصوم العلويين ضده، وحدث أن ألقيت في طريق الخليفة المهدي رقاع كتب فيها:

اللـــه درك يا مهـدي مـــن رجـــل

لـــولا اتخـاذك يعقوب بن داود[١٦٤]

وكان بشار بن برد قد حرض على الوزير، وبسببه قال هاجياً المهدي:

بـنـي أميـة هبّـــوا طـــال نـومــكم

إن الخـــليــــفة يعقـوب بـــن داودِ

ضـاعـت خـــلافتكم يا قوم فاطلبوا

خليـفـة الله بين الـزّق والعــودِ[١٦٥]

لم يتوثق المهدي من تشيع وزيره حتى أمتحنه بتنفيذ أمره بقتل أحد العلويين. لكن الوزير أطلقه وأخبر المهدي بقتله. ولما افتضح أمره سجن في المطبق، وعُزل أصحابه من الوظائف، وحبس أهل بيته وأقاربه[١٦٦]. وظل سجيناً حتى خلافة هارون الرشيد، فأطلقه الأخير بعد أن عميَ ليختار العيش بمكة حتى وفاته[١٦٧]. أُطلق الوزير بجهود يحيى بن خالد البرمكي. وهذا ما يشير إلى تعاطف البرامكة مع الشيعة، ففي أول اتصال لخالد بن برمك بأبي العباس السفاح أيام التقارب العباسي العلوي أنشد:

---

(١٦١) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص٢٤٢.

(١٦٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ ص٤٠٠.

(١٦٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٥٨.

(١٦٤) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(١٦٦) المصدر نفسه، ص١٦٠ - ١٦٢.

(١٦٧) المصدر نفسه.

فمـــاليَ إلا آل أحمـــد شيـــعـــة
ومالِيَ إلا مشعب الحق مشعب[168]

وعلى الرغم من ذلك تبدو الروايات متضاربة حول موقف البرامكة من الشيعة . منها ما أفاد بمساهمتهم في اضطهاد العلويين ، ومنها ما أفاد بحمايتهم . جاء في رواية مقتل الإمام موسى بن جعفر الكاظم أن يحيى بن خالد البرمكي «سمه في رطب وريحان أُرسل بهما إليه مسمومين بأمر الرشيد»[169] . غير أن التناقض يظهر واضحاً في الرواية الشيعية تجاه البرامكة عندما يخبر شيخ الطائفة الطوسي عن توليهم خدمة الإمام في سجنه . جاء في الخبر : «لما حبس هارون الرشيد أبا إبراهيم موسى (ع) وأظهر الدلائل والمعجزات ، وهو في الحبس ، تحير الرشيد ، فدعا يحيى بن خالد البرمكي ، فقال له : يا أبا علي أما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب! ألا تدبر في أمر هذا الرجل تدبيراً يريحنا من غمه . فقال له يحيى بن خالد البرمكي : الذي أراه لك يا أمير المؤمنين أن تمنن عليه ، وتصل عليه رحمه ، فقد والله أفسد علينا قلوب شيعتنا ، وكان يحيى يتولاه وهارون لا يعلم»[170] .

جعل ابن الطقطقي حماية البرامكة لبعض الطالبيين أحد الأسباب المحتملة في نكبتهم ، بما يشبه قصة الوزير ابن داود الآنفة الذكر . جاء في الرواية : «كان سبب ذلك أن الرشيد كلف جعفر بن يحيى قتل رجل من آل أبي طالب ، فتحرج جعفر من ذلك وأطلق الطالبي ، وسعى إلى الرشيد بجعفر فقال له : ما فعل الطالبي . قال : هو في الحبس . قال الرشيد : بحياتي ، ففطن جعفر فقال : لا وحياتك . ولكن أطلقته لأني علمت أنه ليس عنده مكروه ، فقال له الرشيد : نِعمَ ما فعلت ، فلما قام جعفر قال الرشيد : قتلني الله إن لم أقتلك ثم نكبهم»[171] .

روى الأصفهاني في مقتل الإمام موسى الكاظم : إن الرشيد أمر السندي بن شاهك بقتله «فلفه على بساط ، وقعد الفراشون النصارى على وجهه»[172] . والرواية الأخيرة من الروايات المتكررة في نسبة تنفيذ القتل بإمام أو هدم قبر إمام إلى غير المسلمين . فهدم قبر الحسين من قبل المتوكل كان بأيدي جماعة من اليهود ، وهو محاولة لبراءة المسلم من تخطي المقدسات أياً كان مذهبه ، وتكريس قساوة الآخر لخلو قلبه من الرحمة ، اوكأن الله أودعها في المسلمين فقط . وكم كان الحدث هائلاً أن يُكلف غير المسلمين بقتل إمام مثل موسى بن

---

(١٦٨) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(١٦٩) الطبري ، دلائل الأئمة ، ص ١٤٨ .

(١٧٠) الطوسي ، كتاب الغيبة ، ص ٢٠ .

(١٧١) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٩١ .

(١٧٢) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص٤١٧ .

جعفر . ما زالت هذه الحال معروفة فقد شاع خبر تكليف الأيزيديين ، كما سبقت الإشارة ، بضرب ضريح الإمام الحسين بن علي بكربلاء أثناء انتفاضة آذار ١٩٩١ . وأن الذي يريد أن يهول من خيانة أو إساءة شخص آخر يصفه بالنصراني أو اليهودي أو الصابئي أو السيكي (السيخي) . وسراً ينسب أهل الأديان الأخرى الصفات نفسها للمسلم ، ولو تمكنوا من البوح بها لأعلنوها!

أراد الرشيد براءة نظامه من قتل الإمام الكاظم ، ذلك لتفاقم أمر الشيعة . جاء في الرواية «أحضر القواد والكتاب الهاشميين والقضاة ، ومَنْ حضر ببغداد من الطالبيين . ثم كشف عن وجهه فقال لهم : أتعرفون هذا؟ قالوا : نعرفه حق معرفته ، هذا موسى بن جعفر . فقال هارون : أترون به أثراً وما يدل على اغتيال؟ قالوا : لا! ثم غُسل وكُفن وأُخرج ودفن في مقابر قريش في الجانب الغربي»[١٧٣] . وهذا ما فعله المعتصم بن الرشيد مع الإمام أحمد بن حنبل ، حين توقع موته وهو في السجن ، كما سيأتي ذكر ذلك . لم يك الرشيد بريئاً من قتل العلويين ، سواء مَنْ ثاروا ضده أو مَنْ سكتوا ، إلا أن رواية ، تبدو غريبة ، ينقلها ابن طيفور (ت٢٨٠هـ) أشارت إلى ميله للعلويين . قال السندي بن شاهك للفضل بن الربيع (الوزير) بعد وصول المأمون بغداد (٢٠٤هـ) : «خبر عجيب ، قال : ما هو؟ قال : سمعته (المأمون) قدَّمَ علي بن أبي طالب على العباس بن عبد المطلب ، وما ظننت أني أعيش حتى أسمع عباسياً يقول هذا! فقال له الفضل : تعجب من هذا؟ هذا والله كان قول أبيه (الرشيد) قبله»[١٧٤] .

ولاية الإمام الرضا

بعد هذا نأتي على الحدث الأهم ، والأكثر غرابة من تفضيل الرشيد والمأمون علي بن أبي طالب على عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو إسناد ولاية العهد المفاجئة إلى حفيد علي ، الإمام الثامن علي بن موسى الرضا ، بعد بيعة عبد الله المأمون (١٩٨هـ) خليفةً . الحدث الذي سماه ابن الطقطقي اختراعاً . قال : «ومن اختراعاته نقل الدولة من بني العباس إلى بني علي ، عليه السلام ، وتغيير الناس السواد بلباس الخضرة . وقالوا هو لباس أهل الجنة»[١٧٥] .

جاء في خبر ولاية العهد «بايع للرضا علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالعهد بعده ، وازال لبس السواد ، ولبس بدله الخضرة ، وأخذ

---

(١٧٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٤١٤ .

(١٧٤) ابن طيفور ، كتاب بغداد ، ص ١٧ .

(١٧٥) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٩٨ .

الناس بذلك ، فاضطرب بمدينة السلام من الهاشميين ، وعظم ذلك على أهل بغداد عامة وعلى الهاشميين خاصة لزوال ملكهم عنهم ، ومصيره إلى ولد أبي طالب . فأخرجوا الحسن بن سهل ، أخا ذي الرئاستين ، وكان خليفة المأمون على العراق ، وبايعوا المنصور بن المهدي فلم يتم له الأمر ، وكان مضعفاً ، فبايعوا أخاه إبراهيم بن المهدي بالخلافة لخمس خلون من المحرم سنة ٢٠٢»[١٧٦] . إلا أن الأمر انتهى بعد سنتين بدخول المأمون بغداد وهروب إبراهيم حتى عفا عنه ابن أخيه ليصبح نديماً له ، وكان يجيد العزف والغناء .

انتهى أمر ولاية العهد بوفاة الإمام علي الرضا مسموماً بأرض طوس من خراسان (٢٠٣هـ) ، وهو في طريقه إلى بغداد بصحبة المأمون . وقبله قُتل الوزير الفضل بن سهل . وكان متحمساً لولاية الرضا ، غيلة بحمام بسرخس . بعدها عاد المأمون إلى «لبس السواد ، وتخريق الخضرة بعد ثمانية أيام من قدومه»[١٧٧] .

قال اليعقوبي ، القريب من التشيع ، في اغتيال الإمام الرضا : «قيل : علي بن هشام أطعمه رماناً فيه سم . وأظهر المأمون عليه جزعاً شديداً»[١٧٨] . وكان ابن هشام المروزي ، المتهم باغتيال الرضا ، من كبار قادة المأمون ، وتولى له مناصب عدة ، ثم أُتهم بسرقة أموال وسفك دماء وعصيان فقتله المأمون ، وأذاع جرمه إذ «أمر أن تُكتب رقعة وتعلق على رأسه ليقرأها الناس»[١٧٩] . ذكر فيها ما كان عليه وما آل إليه . قال اليعقوبي : كان المأمون «يمشي وراء جنازة الرضا حاسراً في مبطنة بيضاء ، وهو بين قائمتي النعش يقول : إلى مَنْ أروح بعدك يا أبا الحسن! وأقام عند قبره ثلاثة أيام يؤتى في كل يوم برغيف وملح فيأكله . ثم انصرف في اليوم الرابع»[١٨٠] .

غير أن ابن الطقطقي ، القريب إلى التشيع أيضاً والمعجب بشخصية المأمون بالوقت نفسه ، يحمل المأمون قتل ولي عهده الإمام الرضا ووزيره الفضل بن سهل ، المتحمس لنقل ولاية العهد إلى العلويين . ذلك لإرضاء العباسيين ببغداد . إذ «دس جماعة على الفضل بن سهل فقتلوه في الحمام ، ثم أخذهم وقدمهم ليضرب أعناقهم فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ، فقال لهم : أنا أقتلكم بإقراركم . وأما ما ادعيتموه علي من أني أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة! ثم ضرب أعناقهم ، وحمل رؤوسهم إلى الحسن بن سهل . وكتب يعزيه ويوليه مكانه . . . ثم دس إلى علي بن موسى الرضا عليه السلام سماً في العنب ، وكان يحب

---

(١٧٦) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص٣٥١ .

(١٧٧) المصدر نفسه .

(١٧٨) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٤٥٣ .

(١٧٩) ابن طيفور ، كتاب بغداد ، ص ١٤٦ .

(١٨٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٤٥٣ .

العنب ، فأكل منه وأستكثر فمات من ساعته»[181] . ولا يستبعد أن يكون إسناد ولاية العهد لإمام شيعي تكتيكاً من قبل المأمون بسبب حراجة ظروفه . لأن إسناد ولاية العهد لعلوي تعني اعتراف المعارضة بالخلافة العباسية ، وتساعد في إخماد ثورات شيعية تتربص بالحكم ، وكسب ثقة العرب[182] . فالمعروف أن المأمون ابن مراجل الفارسية ، وقيل رومية[183] ، انتصر على أخيه الأمين ابن زبيدة العربية بجيش خراساني .

يظهر المأمون في الرواية التالية تأبط شراً للعلويين ، فقد واجهه فيه أحد الذين استشارهم في أمر ولاية العهد بالقول : «إنك إنما لتريد أن تزيل المُلك عن بني العباس إلى ولد علي . ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسروياً . ولو انك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده ، وهي البياض إلى الخضرة ، وهي لباس كسرى والمجوس . ثم أقبل على المأمون فقال له : الله الله يا أمير المؤمنين لا يخدعنك عن دينك وملكك ، فإن أهل خراسان لا يجيبون إلى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه»[184] ، ويعني العلويين ذوي الإمام الرضا .

أشار باحث معاصر ، لا ندري هل اطلع على هذه الرواية أم لا ، إلى راية المجوسية (الخضراء) وإعلانها من قبل الفضل بن سهل الفارسي . قال : «فأرجف أعداء المأمون بأن اللون الأخضر يرمز إلى لون النار ، وإنما أختاره الفضل بن سهل تقرباً إلى المجوسية التي كان يدين بها من قبل»[185] . غير أن الخضرة كانت شعار العلويين مثلما البياض شعار الأمويين والسواد شعار العباسيين ، وأن كتيبة النبي محمد كانت تعرف بالكتيبة الخضراء[186] . كذلك كانت الزرادشتية تعلن اللون الأبيض لا الأخضر . وأن اللون الأبيض لباس العبادة عند أديان غير إسلامية . مثل الأيزيدية والصابئة المندائية بالعراق . وعلى حد عبارة حسن الأمين «ما علاقة الخضرة بالنار ، والنار تأتي على الأخضر واليابس»[187]؟

لا غرابة في السياسة أن يسند المأمون ولاية العهد لإمام علوي ، ثم يشرع في التخلص منه ، ويبكيه على قبره . وأن يقتل جمهرة من العلويين ، منهم أحفاد زيد بن علي ، وأحفاد الإمامين الحسن والحسين ، وأشهر المقتولين كان محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا ، ومحمد بن جعفر المعروف بأبي السرايا[188] . ربما حدث هذا على الرغم من أن المأمون كان

---

(١٨١) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٩٩ .

(١٨٢) العاملي ، الحياة السياسية للإمام الرضا ، ص١٩٢ - ١٩٤ .

(١٨٣) ابن حزم ، رسالة في أمهات الخلفاء ، مجلة المجمع العلمي العربي ، نيسان ١٩٥٩ .

(١٨٤) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٣١٣ .

(١٨٥) الأمين ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ١ ص٤٢ .

(١٨٦) المصدر نفسه .

(١٨٧) المصدر نفسه .

(١٨٨) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٤٥٣ .

أكثر خلفاء بني العباس ثقافة وعلماً وتسامحاً . فقد حدث أن عفا عن عمّ الإمام الرضا محمد بن جعفر الصادق الذي ثار بمكة وبايعه الناس[١٨٩] . وعفا عن عمه إبراهيم بن المهدي . وأزال في زمنه التشدد ضد المتكلمين . وكان عصره على العموم عصر انفتاح ديني ومذهبي وعلمي . وكان للمعتزلة دور كبير في تحقيق ذلك .

لكن هناك أحداث أخرى تشير إلى قرب المأمون من العلويين والتشيع عموماً . منها نيته وترتيبه لسب ولعن معاوية على المنابر ، وإجازة زواج المتعة . جاء في رواية ابن طيفور : لما عزم المأمون على شتم الأمويين على المنابر[١٩٠] نصحه قاضي القضاة يحيى بن أكثم بالقول : «إن العامة لا تحتمل هذا ، وسيما أهل خراسان ، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة ، وأن كانت لم تدر ما عاقبتها . والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فأن ذلك أصلح في السياسة»[١٩١] . كذلك كان ابن أكثم ، وهو شافعي المذهب ، وراء صرف المأمون عن إجازة زواج المتعة محتجاً بحديث رواه الزهري ، ونسبه إلى علي بن أبي طالب . جاء فيه : «أمرني رسول الله (ص) أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها ، بعد أن كان أمر بها . فقال المأمون : أمحفوظ هذا عن الزهري؟ قال : نعم رواه عنه جماعة منهم مالك (ابن أنس)[١٩٢] .

بعد المأمون لم يحدث تقارب بين العباسيين والعلويين ، إلا مجيء عدد من الخلفاء لهم تعاطف مع الشيعة عامة والعلويين خاصة ، ومنهم الخليفة الناصر . فما هي إلا سنوات وأقدم جعفر المتوكل (ت ٢٤٧هـ) على هدم ضريح الحسين بن علي ونبش تربته . وطارد العلويين والشيعة . ومن أُنس مجلسه أن يقوم عبادة الممثل المسرحي ، صاحب خيال الظل المعروف ،

---

(١٨٩) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٠٠ .

(١٩٠) حرر الخليفة عبد الله المأمون كتاباً يقضي بشتم معاوية والأمويين على المنابر مع كل صلاة . ثم حاول المعتضد بالله تحقيق ذلك السنة ٢٨٤هـ . قال الطبري وهو شاهد عيان : «تحدث الناس أن الكتاب الذي أمر المعتضد بانشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر . فلما صلى الناس الجمعة بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب فلم يُقرأ» (تاريخ الأمم والملوك ٥ص٦٢٠) . إلا أن الفرق بين المأمون والمعتضد هو إباحة الأول المناظرة والجدل . بينما حرمها الثاني ، بل وأخذ يعاقب عليها بهدر الدم . فقد «نودي في الجامعين أن الذمة بريئة ممن اجتمع من الناس على مناظرة وجدل . وأن مَنْ فعل ذلك أحل بنفسه الضرب . وتقدم إلى الشراب والذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا على معاوية ، ولا يذكروه بخير» (المصدر نفسه) . استغرق كتاب المأمون الذي أخرجه المعتضد بالله من خزانة الخلافة خمس صفحات من تاريخ الأمم والملوك (ص٦٢٠ - ٦٢٤) . أكثر فيه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، والتذكير بظلم الأمويين للعلويين ، وما كان يجري في زمنهم من إهانة لآل بيت علي بن أبي طالب .

(١٩١) ابن طيفور ، كتاب بغداد ، ص ٥٤ .

(١٩٢) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، السنة ٢٤٢هـ في ذكر وفاة ابن أكثم .

بتمثيل شخصية الإمام علي بن أبي طالب لإضحاك ندماء الخليفة . وقتل عالم اللغة الشيعي ابن السُكيت . لأنه ، حسب الرواية ، فضَّلَ الحسن والحسين على ابني المتوكل : المعتز وأخيه . جاء في أحداث السنة ٢٣٦هـ : «أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وهدم ما حوله من المنازل ، ومنع الناس من اتيانه ، وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب ولأهل بيته . وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث . وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ويرقص ويقول : قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين ، يعني علياً ، والمتوكل يشرب ويضحك»[193] . أعترض المنتصر بن المتوكل على أبيه ، فقال له يوماً : «يا أمير المؤمنين : إن علياً ابن عمك ، فكل أنت لحمه إذا شئت ، ولا تخلي هذا الكلب (عبادة المخنث) وأمثاله يطمع فيه . . . وكان يجالس مَنْ أشتُهر ببغض علي مثل علي بن الجهم الشاعر»[194] .

بعد المتوكل اشتد القتل بالعلويين أيام المقتدر بالله (ت ٣٢٠هـ) ، حتى حلول عهد البويهيين ، الشيعة على المذهب الزيدي ، الذين تشيعوا لحظة دخولهم الإسلام . فقد عاش بين الديلم عدد من الثوار العلويين أيام هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ) ، منهم يحيى بن عبد الله بن حسن المثنى بن حسن المجتبى بن علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، ولم يطل مقامه عندهم ، ولا دعاهم إلى دين ، وإنما صار إليهم معتصماً من الرشيد فعصموه وحاموا عنه الرشيد»[195] . غير أن إسلام الديلم تم على يد الحسن بن زيد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الذي ثار هناك العام (٢٥٠هـ) ، «فتلقب بالداعي إلى الحق ، وهو الداعي الأول»[196] . فكان بين إسلام البويهيين ، واستلامهم الحكم بإيران ، ثم العراق أقل من مائة عام . وظلوا ملتزمين المذهب الشيعي مثلما دخلوا الإسلام عليه ، فالثوار العلويون الذين خرجوا على العباسيين هناك كانوا من الزيديين على ما يظهر .

غير أن العصر البويهي ، كما سيأتي ذكره ضمن الفصل الخاص بالشافعية ، كان عصر انفتاح ثقافي وعلمي . لقد سلك أمراؤهم طريق البرامكة والمأمون في رعاية العلم ، وإشاعة الحوار والمناظرات الفكرية . وكان أبرز وزرائهم المفكرين الصاحب بن عباد الشيعي والمعتزلي في آن واحد . ومن أدلة تشيع البويهيين ، إضافة إلى إسلامهم على يد العلويين ، انفتاحهم على الشيعة الإمامية واهتمامهم بمراقد الأئمة ، وقيامهم بمجالس العزاء الحسيني رسمياً السنة

---

(١٩٣) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ١ ص٥٦ .

(١٩٤) المصدر نفسه .

(١٩٥) الصابئ ، الكتاب المعروف بالتاجي ، ص١٠ .

(١٩٦) المصدر نفسه .

(٣٥٣هـ) . وفي السنة (٣٥٤هـ) «عُمل في يوم عاشوراء المأتم ببغداد كالسنة الماضية ، ولم يتحرك لهم السِّنية خوفاً من معز الدولة بن بويه»[١٩٧] .

تشيع الأهوار

ظهرت في الكيان البويهي قوى سياسية معارضة ، استفادت من بيئة أهوار جنوب العراق وأسست إمارة في أعماقها (٣٣٨ - ٤١٢هـ) . وبقدر ما تشير الدلائل على تشيعها إلا أن المؤرخين المتقدمين ، بداية من مسكويه (ت٤٢٠هـ) وانتهاء بابن الأثير (٦٣٠هـ) لم يفيدوا بشيء عن مذهب هذه الإمارة . فربما حروبها مع الدولة البويهية الشيعية يشير إلى خلاف ذلك . غير أن المؤرخين المعاصرين استدلوا على تشيعها من اهتمام مؤسسها عمران بن شاهين بالروضة الحيدرية بالنجف ، ودفنه هناك . ولكن هل يكفي هذا دليلاً على شيعية تلك الإمارة؟ فالعديد من الخلفاء العباسيين والسلاطين العثمانيين السُنِّيين عمروا وزادوا في بناء مراقد الأئمة بالكاظمية والنجف وسامراء وكربلاء! إن الكشف عن وجود إمارة شيعية بأهوار جنوب العراق يصحح الرأي القائل بحداثة التشيع بين عشائر الجنوب العراقي ، ولنرى تفاصيل الحدث .

خرج عمران بن شاهين بين بردي وقصب أهوار جنوبي العراق العام (٣٣٨هـ) ، وظل مصدر قلق للبويهيين حتى وفاته السنة (٣٦٩هـ) . قال مسكويه في وفاته : «طلبه الملوك والخلفاء وبذلوا الجهد في أخذه ، واعملوا الحيل أربعين سنة ، فلم يقدرُهم الله عليه ، ومات حتف أنفه ، بعد أن أذل الجبابرة ، وأرباب الدول ، وطواهم أولاً بأول»[١٩٨] . وربما يعطي إطراء مؤرخ محسوب على التشيع ، مثل مسكويه ، لابن شاهين إيماءة إلى تشيعه المخالف للتشيع البويهي ، أي أن يكون إمامياً مثلاً . والأهوار كما هو معروف كانت على الدوام مكاناً لإيواء المعارضين . ولا فرق أن يكون المعارض خليفة مثل القادر بالله الفار من ابن عمه الراضي بالله ، أو وزيراً أو قاضي قضاة . إذن لماذا لا يكون التشيع المعارض قد استقر منذ القدم في ذلك المكان القصي ، الصعب التضاريس!

أما كيف خرج ابن شاهين ضد الدولة البويهية وهي دولة شيعية؟ فجواب ذلك ، أن الخلافات السياسية والأطماع بالسلطان قد لا تسترها وحدة دين أو مذهب ، فالحروب كانت جارية داخل البيت البويهي بين بختيار وعضد الدولة . يُضاف إلى ذلك ما فهمناه من ثناء

---

(١٩٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٣ ص ٣٣٩ .

(١٩٨) مسكويه ، تجارب الأمم ٢ ص ٢٩٧ .

مسكويه لابن شاهين، الذي أومأ إلى مخالفة الأخير لمذهب البويهيين. ويبقى أن نشير إلى عامل آخر قد يفيد في تفسير جواز خروج شيعي على دولة شيعية، وهو العامل القومي أو العشائري. أشارت إلى ذلك بوضوح رسالة ابن شاهين إلى الوزير البويهي بختيار رداً على تقدم الأخير بإسقاط الضريبة عنه، وخطبة إحدى بناته مقابل مساعدة البويهيين بالتصدي للأتراك السلاجقة.

جاء في الرسالة: «أما إسقاط المال فنحن نعلم أنه لا أصل له، وقد قبلته. وأما الوصلة (الزواج من ابنته) فإني لا أتزوج أحداً إلا أن يكون الذكر من عندي. وقد خطب إليَّ الطالبين وهم موالينا فما أجبتهم إلى ذلك»[199]. ولا ندري ما قصده في العبارة الأخيرة. هل أن الطالبين استعجموا فاصبحوا خارج العرب، أو أنه لا يزوج خارج عشيرته؟ أم أنه قصد أتباع الطالبين من الخراسانيين أو الديالمة؟ أما أن توصف حركة عمران بن شاهين، كحركة سياسية، بالعراقية فأمر لا يُقال في سياقها التاريخي إلا تحت تأثير حدث كبير مثل الحرب العراقية الإيرانية مثلاً. قال فاروق عمر فوزي، الحاصل على وسام المؤرخ العربي والخبير في لجنة التاريخ في المجمع العلمي العراقي أثناء الحرب: «تعتبر حركته (ابن شاهين) رمزاً للمقاومة العراقية للتسلط البويهي»[200]. ووهل يطلق المؤرخ نفسه، ومن دأب دأبه، على الحركات المناهضة للسلاجقة حركات عراقية ضد التسلط السلجوقي؟ فهو كيان أجنبي ومحتل أيضاً. لا نعتقد ذلك.

وأطرف ما في الأمر أن أهدى بختيار إلى ابن شاهين مجموعة من الخيل. وربما لا يعلم، وهو الديلمي، أن خيل الأهوار قواربها وسفنها. لذا رد الهدية مع عبارة «لأن دوابي هذه السفن»[201]. يبدو جيش ابن شاهين من سكان الأهوار المعتادين على ظروفها، وليس من العصاة الطارئين عليها. فالجيش البويهي كره «تلك الأرض من الحرِّ والبق والضفادع وانقطاع المواد التي ألفوها، وشغب الجند على الوزير، وأبوا أن يقيموا، فأضطر بختيار إلى مصالحة عمران»[202]. بينما روضت الطبيعة جيش ابن شاهين، فكان له طباع الأسماك والطيور، على حد عبارة الخبيرة بالشأن الصابئي المندائي المستشرقة البريطانية الليدي دراوور.

كانت حركة انفصال عمران بن شاهين بالبطائح سبباً لمحاولة البويهين في تجفيفها، مثلما فعلت الحكومات السابقة. لقد حاول ذلك الفرس قبل الإسلام والأمويون سنوات إمرة

---

(199) المصدر نفسه ٢ ص ٣٩٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٨ ص ٦٤٤.

(200) فوزي، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية - الإسلامية، ص ٢٧٤.

(201) مسكويه، تجارب الأمم ٢ ص٣٩٧.

(202) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٨ ص٦١١.

الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق (٧٥ - ٩٥هـ) . غير أن الوليد بن عبد الملك استكثر تكاليف المشروع . ثم حاول العباسيون تجفيفها أوان ثورة الزنج بالبصرة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) ، التي كانت أهوار البصرة والعمارة ساحة للمعارك بين الثوار وجيش الخلافة بقيادة ولي العهد ، والخليفة الفعلي ، طلحة الموفق بالله (ت٢٧٨هـ) . وبسبب تمرد ابن شاهين عمد البويهيون إلى «سد أفواه الأنهار الداخلة في البطائح ، فضاع فيها الزمان والأموال ، وجاءت المدود ، وبثق الحسن بن عمران بعض السدود»[٢٠٣] .

من دلائل تشيع إمارة عمران بن شاهين ، التي استمرت بعد وفاته لسنوات من القرن الخامس الهجري ، المسجد الذي عُرف باسمه بالنجف «شمال المشهد الشريف العلوي»[٢٠٤] . وأن هناك رواقاً مشهوراً بالنجف يدعى رواق عمران بن شاهين «الذي دخل قسم كبير منه في الصحن الشريف»[٢٠٥] . وأن هناك أسرة نجفية تعود نسبتها إليه[٢٠٦] . كانت الدلائل السابقة وراء تصريح الشيخ محمد حسين المظفر بتشيع إمارة ابن شاهين بقوله : «ساعد نمو التشيع وانتشاره في العراق أن تكونت من الشيعة سلطنات ودول وإمارات كسلطنة آل بويه وإمارة بني شاهين في البطائح»[٢٠٧] . وكذا أشار إلى تشيع هذه الإمارة المؤرخ حسين علي محفوظ[٢٠٨] . وخلا ذلك ظهرت العام (٨٢٧هـ) حركة شيعية أخرى بواسط والأهوار ، وامتدت إلى الأهواز ، عرف صاحبها بالمشعشع . ويُقال إنه جمع بين التشيع والتصوف ، على طريقة الدروشة المعروفة[٢٠٩] . وقبل ذلك في زمن الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) ، وهو من الخلفاء الذين حكموا أكثر من أربعين عاماً ، حوصرت منطقة من مناطق أهوار الفرات الأوسط ، للتنكيل بعلويين في قرية الهور من منطقة قوسان من أعمال الحلة[٢١٠] . مارسها

(٢٠٣) المصدر نفسه ٨ ص٧٠١ .

(٢٠٤) الأمين ، أعيان الشيعة ٥ ص٢٢٠ .

(٢٠٥) محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها٣ ص ١٨٥ ، الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ١ ص ١٠٦ .

(٢٠٦) المصدر نفسه ، الخاقاني ، شعراء الغري ١١ ص ٥١٥ .

(٢٠٧) حسين الساعدي ، الإمارة الشاهينية ، مجلة الموسم ، العددان ٢٦ - ٢٧ ، عن الشيخ المظفر ، تاريخ الشيعة ، ص ٧٧ .

(٢٠٨) المصدر نفسه ، عن محفوظ ، تاريخ الشيعة ، ص٣٠ .

(٢٠٩) العزاوي ، العراق بين احتلالين ١ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢١٠) كركوش ، تاريخ الحلة ، ص٧٥ . وهنا إذا كان ماذهب إليه الشيخ كركوش ، نقلاً عن عمدة الطالب ، من أن هور هي القرية التابعة لأعمال الحلة صحيحاً فنعتذر عما ورد في الطبعة الأولى من الكتاب ، وما ورد في كتابنا «المباح واللامباح» دار مهجر ٢٠٠٥ فصل «تاريخ الماء والتجفيف» من اتبار البين خاصاً بحادث وقع في أهوار جنوب العراق . لكن سياق البيت يشير إلى قرية باسم الهور وإنما أشار إلى الهور كمكان جغرافي واسع .

هذه المرة أحد السادة العلويين بدافع جمع الضريبة ، وهو جلال الدين أبو القاسم ابن الزكي الثالث بن معية ، نقيب صدر الفراتية . قال الشاعر مزيد الخشكري :

فكــأنمـا الهور الطفوف وأهلـه الـ

شـهــداء وابن معية ابـن زياد[٢١١]

فالشاعر وصف ما حدث بالطفوف ، ومفردها الطف ، المشهورة به مذبحة العاشر محرم السنة (٦١هـ) . وابن زياد هو عبيد الله بن زياد المكلف بقتل الحسين بن علي بن أبي طالب ، وابن معية هو جلال الدين العلوي .

إن إثبات تشيع إمارة في عمق الجنوب العراقي ، وحركة شيعية بواسط والأهوار أيضاً ، قد يعرض ما كتبه المؤرخ العراقي الشافعي إبراهيم صبغة الله الحيدري (ت ١٨٨٢م) ، حول تشيع عشائر الجنوب ، للمراجعة . قال الحيدري : «ومن المترفضة عشائر العمارة ، آل محمد (آل بومحمد) وهي لكثرتها لا تحصى . وشيوخهم آل فيصل ، وترفضوا عن قريب وتمعدنوا (أصبحوا من أهل الهور)»[٢١٢] . وكذا قال في تشيع عشائر المحمرة (من مدن الأحواز) . ولعل الحيدري تطرف حين قال : «إن كل بصري الأهل سُنّي ، وكذا كل جنوبي سُنّي ، وتَرفُّض أهل شط العرب وغيرهم من نواحي البصرة إنما هو لعدم العلماء في البصرة ونواحيها»[٢١٣] . وبالتالي ، حسب الحيدري ، لا وجود للشيعة بالعراق ، فهو يعتبر تاريخ تشيع العشائر العراقية لا يزيد على مائة عام أو أقل من تاريخ تصنيف كتابه (١٨٦٩م) . ومن هذه العشائر : ربيعة والخزاعل ، وزبيد ، وبطون من تميم ، والخزرج ، والبيات التركمانية وغيرها . ولم يأت بشيء عن تشيع بني أسد ودارهم في عمق الأهوار والحلة ، حيث إمارتهم الشيعية الإمارة المزيدية .

تشيع العشائر

أفاد حسن العلوي أن قرار السلطان سليمان الأول لـ «إبادة جميع المنتسبين للمذهب الشيعي المقيمين داخل الدولة العثمانية قبل احتلال البلاد العربية عام (١٥١٧م)»[٢١٤] واحد من أسباب تشيع العشائر العراقية . وقصده تأثير المهاجرين أو اللاجئين بسبب حملة الإبادة في استقرار وتشيع العشائر البدوية السُنّية . وكان إبراهيم صبغة الله الحيدري قد عزا التشيع

---

(٢١١) ابن الساعي ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، المقدمة ، ص : ظ .

(٢١٢) الحيدري ، عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد ، ص ١١٦ .

(٢١٣) المصدر نفسه ، ص١٦٢ .

(٢١٤) العلوي ، الشيعة والدولة القومية في العراق ، ص ٣٦ .

إلى نقص علماء السُنَّة ، بينما جعله إسحق نقاش في سببين : انتشار السادة (من سلالة الرسول) ، وظهور الوهابيين[٢١٥] . ونقول : إن الرأي الأول يؤكد تشيع العشائر قبل قرار السلطان . وإلا لماذا تهاجر العشائر خوفاً من الإبادة؟

لا ندري ، ما مدى تأثير المهاجرين ليحول عشائر كاملة عن مذهبها؟ وإن حدث ذلك فلا يحدث إلا بحدود . ويربط العلوي بين الاستقرار والتشيع وبين البداوة والتسنُّن ، وعلى حد عبارته : «الشيعة لا يوجدون إلا حيث يوجد الماء والزرع»[٢١٦] . وهذا صحيح ، إلى حد ما ، فالشاهد هو جنوب العراق ووسطه واحساء الجزيرة العربية . بينما تكاد تخلو الصحاري من أثر التشيع . لكن هذا لا يعني احتكار الشيعة للبيئة الخصبة ، مثلما لا يبتلى السُنَّة بالبيئة العطشى على الدوام!

يصعب بمكان قبول انتقال العراقيين من مذهب إلى آخر لقلة العلماء على رأي الحيدري ، ووجود السادة والوهابيين حسب اسحق نقاش . فوجود العلماء لم يكن سبباً قوياً في التسنُّن أو التشيع بقدر ما يعود حدوث ذلك إلى ظروف تاريخية وخلفية اجتماعية ، قد تتعلق بوجود حاكم أو رئيس عشيرة تبنى التشيع مذهباً ، وكما قيل الناس على دين ملوكهم . وإذا كانت قلة العلماء أدت إلى تشيع أهل الجنوب فماذا عن بغداد أو الحلة أو الموصل التي نشأت فيها دويلات شيعية وانتهت بمجيء دويلات سُنِّية بعدها؟ ومصر كانت شيعية فأصبحت سُنِّية ، وإيران كانت سنيّة فأصبحت شيعية ، حتى قيل : سبحان مَنْ جعل مصر الشيعية سُنِّية وإيران السُنِّية شيعية!

أما انتشار التشيع عن طريق السادة وهجمات الوهابيين ، فالسادة كانوا موجودين منذ العهد العباسي ، وهم طبقة اجتماعية لهم نقابتهم الخاصة ، عرفت بنقابة الطالبيين ، وما زال العديد منهم على المذهب السُنِّي ، ومنهم آل الحيدري ، وآل النقيب وغيرهم . وتقدمون مجالس الذكر في التكايا الصوفية المنتشرة بالعراق ، ولا يميز السامع المدائح وهي تتلى في مجالس الذكر والعزاء بين سُنَّة وشيعة في الولاء لآل علي . ولنتمعن بالمديح التالي الذي يُنشد في التكية السُنِّية والعزاء الشيعي على السواء . إذ يرد في الذكر القادري :

يا رسول الله يـا جـد الحسيـن	كـن شـفيعي يا إمام الحرميـن
مَـنْ لـه جدٌ كجدي المصطفى	أحمـد المختـار مولى الثقليـن
مَـنْ لـه أبٌ كـأبـي حيـدر	قـاتل الكـفـر في وقعة حنين
مَـنْ لـه أمٌ كـأمي فـاطمة	بضعـة المختار قـرّة كـل عيـن

(٢١٥) نقاش ، شيعة العراق ، ص٥١ .

(٢١٦) العلوي ، الشيعة والدولة القومية في العراق ، ص٣٥ - ٣٦ .

مَـــنْ لــه عـــمٌ كـعمي جعــفرٍ ذي الجناحين صحيح النسبين
والــدي شــمـس وأمــي قمــرٌ وأنـا الكــوكــب وابـن النيريـن
خـيـرة النـاس مــن الـدنيا أبي بعدجدي وأنا ابن الخيرتين[٢١٧]

عرفت هذه القصيدة في الأدب الشيعي بالقصيدة «الحسينية» ، وتقرأ في يوم عاشوراء ، مع لطم الصدور ، بإضافة البيت التالي الذي يميزها مذهبياً :

شيــعة المختار بُشــرى فاهنئـوا في غدٍ تسقون من كف الحسين

كان ومازال هؤلاء السادة موزعين بين سُنَّة وشيعة ، وهم يعيشيون بين عشائر الجنوب طبقة مسالمة ، تبحث عن معاشها ببركات جدها الأعلى النبي محمد ، لا تنافس ولا تحرض إلا بما اقتضت الحاجة . وحماسها للتشيع السياسي أقل بكثير من حماس الآخرين . وبالتالي لا يصح أنها كانت وراء تشيع العشائر . أما ظهور الوهابيين ، فلربما فعل فعله في التفاف العشائر المحيطة بالنجف وكربلاء حول مرجعية آل كاشف الغطاء ، جعفر الكبير وولده موسى ، لكن يصعب اعتباره سبباً في التحول من التسنن إلى التشيع .

فمن يوميات الهجمات الوهابية أن هناك سادة مثل السيد محمود الرحباوي رحبوا بالوهابيين ، فكانوا«يبيتون الرحبة ، ويُصبحون بغاراتهم على النجف ثم يمسون في الرحبة . وكان الشيخ (جعفر كاشف الغطاء) يومئذ هو المرجع والمآل في جميع الأحوال ، فنهى السيد محمود عن إيوائهم وإخباره أهل النجف بمجيئهم ، فأبى عن كل ذلك ، وهذه إحدى دواعي قتله»[٢١٨] .

إن التحول من مذهب إلى آخر ، وخاصة التحول الجماعي لايتم بطريقة التبشير ، وخاصة بين المذاهب الإسلامية . فالتبشير بالعراق نجح في القرون الميلادية الأولى ، لأنه جاء على أنقاض ديانات ذهبت دولتها ، مثل الديانة البابلية والآشورية . أما بعد استقرار الديانات الثلاث ، فلم يتحول المسلمون إلى المسيحية بالتبشير القادم من الغرب ، وكذا لم يتحول إليها الصابئة رغم كثرة المبشرين ، والاعتقاد أنهم نصارى مرتدون .

والذي حدث أن مسيحيين ويهوداً وصابئة تحولوا إلى الإسلام لفائدة شخصية أو للخلاص من الاضطهاد المبني على الشروط العمرية . لكن لم يحدث العكس (راجع الفصل الثالث) . وإن حصل أن تركمانيين أو كرداً فيليين أصبحوا يهوداً أو مسيحيين أو صابئة ، وهم قلة لا يكادون يذكرون ، فكان هذا بفعل المعايشة الطويلة ، أو أسباب أخرى ، ومنها الرغبة

---

(٢١٧) الوردي ، عالم التكايا ومحافل الذكر ، ص ٢٦ .
(٢١٨) كاشف الغطاء ، العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية ، ص١١٢ .

في الزواج (راجع تقرير مديرية الأمن العامة الملحق بالكتاب، جداول التوزيع الديني حسب القومية). أما ترك المذهب والدخول في آخر فأمر له موانعه الاجتماعية أيضاً، فهو مرتبط بعادات وتقاليد وروابط اجتماعية، يحملها الناس كإرث اجتماعي، فيتحقق غالباً في تحول القبيلة أو المدينة بكاملها تحت ظرف الفتح والغزو، وتحول زعامتها.

ابن العلقمي

يوجه الاتهام إلى الشيعة بالمساهمة الفعالة في سقوط الدولة العباسية، وفتح أبواب بغداد للمغول التتر، حتى أصبح هذا الإتهام بمثابة الخطيئة الأبدية. لقد ألبس مؤرخون عديدون تهمة سقوط الخلافة للوزير الشيعي محمد بن أحمد العلقمي (ت ٦٥٦هـ). فوجهت الأنظار نحوه في هذه القضية الكبرى، وربما عبر بيت الشعر التالي، الذي قيل عقب اجتياح بغداد، عن تشويه واقع الحال تماماً:

يا عصبة الإسلام نوحوا واندبوا
أسفاً على ما حل بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه
لابن الفرات فصار لابن العلقمي[٢١٩]

وربما لم ينطلق الشاعر من موقف طائفي، فوزير المقتدر أبو الحسن علي بن الفرات (ت ٣١٢هـ)، صاحب الوزارات الثلاث والنكبات الثلاث، كان شيعياً أيضاً، وانتهى مقتولاً مع ولده، ورمي بجثتيهما في ماء دجلة. كان ابن العلقمي وزيراً حاذقاً، لا يقل عن حذاقة ابن الفرات، الذي توزر ثلاث مرات، والمعروف بسياسته في فك الأسرى من يد الروم. إلا أن ابن العلقمي ابتلى بما ابتلى فيه أبو رغال يوم دلَّ جيش أبرهة الحبشي إلى طريق الكعبة، وكان مأموراً من قبل أمير الطائف، كذلك أُتهم الوزير بالتواطؤ مع هولاكو لإسقاط الخلافة العباسية على أمل قيام دولة علوية. مع أن معطيات الحدث تقول غير ذلك. وأنه أراد بطريقته صد هجوم هولاكو. وهي الطريقة نفسها التي اتبعها في ما بعد الشيخ جعفر كاشف الغطاء مع الوهابيين. فلا سور النجف الذي بناه، ولا العلماء والسادة والزقرت منعوا الاغارة على النجف بعد انتهاء اتفاقات الشيخين، جعفر الكبير ومحمد الوهابي، بوفاتهما.

قبل القول ببراءة ابن العلقمي نأتي على المؤامرة المتهم بتدبيرها ضد الخلافة. قال ابن تغرى بردى: «كان وزير الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين العلقمي ببغداد. وكان رافضياً

---

(٢١٩) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٣٥.

خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية . ونقل الخلافة إلى العلويين ، يدبر ذلك في الباطن ، ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك . ولا زال يثير الفتن بين أهل السُنّة والرافضة ، حتى تجالدوا بالسيوف»[220] . وهناك مَنْ جعل الثأر المذهبي سبباً لتواطؤ ابن العلقمي مع المغول . جاء في الرواية : «قتل جماعة من الرافضة ونهبوا ، فأشتكى أهل باب البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدّوادار (هكذا وردت) ، وللأمير أبي بكر ابن الخليفة . فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ ، فركبوا من وقتهم وهجموا على الرافضة بالكرخ ، وقتلوا منهم جماعة ، وارتكبوا معهم العظائم ، فحنق الوزير ابن العلقمي ، ونوى الشرّ في الباطن ، وأمر أهل الكرخ الرافضة بالصبر والكف عن القتال . قال لهم : أنا أكفيكم فيهم»[221] .

من الأمور التي يعتقدها أصحاب القول بمؤامرة ابن العلقمي أنّه أشار على المستعصم أن يستغني عن عدد كبير من الجنود ، الذين جندهم والده المستنصر تحسباً لمثل ذلك اليوم . وثم مراسلته للغزاة ، أنه عند إشراف المغول على بغداد أقترح التفاوض ، قائلاً للخليفة ، بعد نزولهم على شاطئ دجلة بجهة الكرخ ، مقابل دار الخلافة بالرصافة : «أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح ، فخرج إليهم واجتمع بهولاكو ، وتوثق لنفسه ، وردّ إلى الخليفة ، وقال : إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ، ويبقيك على منصب الخلافة ، كما صاحب الروم في سلطنته ، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له ، كما أجدادك مع السلاطين السلجوقية ، و ينصرف هو عنك بجيوشه! فتجيبه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا ، فإن فيه حقن دماء المسلمين ، ويمكن أن تفعلَ بعد ذلك ما تريد! والرأي أن تخرج إليهم»[222] .

وما حصل لم يكن بحساب الوزير ابن العلقمي ، فقد قُتل الخليفة وولده رفساً بعد أن وضعا في كيسين ، وقتل الوجهاء من الذين طلبوا لحضور زفاف ابن الخليفة وابنة هولاكو ، واستباح الغزاة بغداد مدة أربعين يوماً ، وعدد القتلى عدَّ بمئات الآلاف ، ولم ينج إلا «من اختفى في بئر أو قناة» . وكتب الطهراني ناقداً تلك الروايات والتهم الموجهة للوزير العلقمي ، التي ما زال الشيعة يتحملون مسؤوليتها : «إن أهالي بغداد المختلفين فيما بينهم طائفياً ، والمترفين في العيش مع قلتهم ، لم يكونوا قادرين على المقاومة أكثر مما عملوه بيد ابن العلقمي في قبال مهاجمين متخلفين حضارياً ، وقليلي المؤونة اقتصادياً مع كثرة عددهم . وأمثال هذه الحوادث كثيرة في التأريخ . فقد حصلت لروما إمارة برابرة الشمال . وفي بغداد أيضاً قبل

---

(220) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٧ ص٤٧ .

(221) المصدر نفسه ، ص٤٨ . ذكر ابن خلدون معنى الدّويدار في سياق حديثه عن منصب الوزارة : «وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه» (المقدمة ج٢ ص٤٢٥) .

(222) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٧ ص ٤٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

ستة قرون (ما قيل عن) الخلافة العلوية فافتراء، ولم يكن للشيعة أي مرشح لذلك، إن أنكروا الخلافة العباسية، لكنهم لم يكونوا يعارضون مملكة... إذا كانت تضمن الحريات الدينية»[٢٢٣].

أدلى المؤرخ المسيحي غريغوريوس بن العبري (ت٦٨٥هـ) بشهادة معتدلة فيها ما يُبرِّيءُ ابن العلقمي من تهمة الخيانة. قال: «في شهر شوال رحل هولاكو عن حدود همذان نحو مدينة بغداد. وكان في أيام محاصرته قلاع الملاحدة (هكذا كانت تسمى مناطق الإسماعيلية من أصحاب حسن الصباح). قد سيَّر رسولاً إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة، فأراد أن يسيِّر ولم يقدر، ولم يمكنه الوزراء والأمراء. وقالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة، وليس محتاجاً إلى نجدتنا، وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة. فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال. ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة وعاتبه على إهمال تسيير النجدة. فشاوروا الوزير فيما يجب أن يفعلوه فقال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما أخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدويدار الصغير وأصحابه: إن الوزير إنما يدبر شأن نفسه مع التتار، وهو يروم تسليمنا إليهم، فلا نمكنه من ذلك. فبطلَ الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة، واقتصر على شيء نزر لا قدر له. فغضب هولاكو وقال: لا بد من مجيئه (الخليفة) هو بنفسه، أو يسيِّر أحد ثلاثة (هكذا وردت). أما الوزير، وأما الدويدار، وأما سليمان شاه (منجم الخليفة، والمغول كانوا يؤمنون بالتنجيم). فتقدم الخليفة إليهم بالمضي فلم يركنوا إلى قوله. فسيَّر غيرهم مثل ابن الجوزي (نجل أبي الفرج المعروف بابن الجوزي) وابن محيي الدين فلم يجديا عنه»[٢٢٤].

بعدها تحرك هولاكو صوب العراق حتى وقف على مشارف بغداد. «فسيَّر الخليفة الوزير العلقمي وقال: أنت طلبت أحد الثلاثة وها أنا قد سيرت إليك الوزير وهو أكبرهم. فأجاب هولاكو: إنني لما كنتُ مقيماً بنواحي همذان طلبتُ أحد الثلاثة، والآن لم أقنع بواحد». وروى ابن العبري: أن المغول رموا بغداد بسهام كُتب عليها بالعربية: «أن الأركاونية والعلويين والدانشمدية، وبالجملة كل مَنْ ليس يُقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وماله». لا نجد في رواية ابن العبري إشارة إلى اتهام الوزير ابن العلقمي، بل بالعكس كشفت عن حنكته السياسية وحرصه على الدولة، وكذلك عدم موافقته على طلب الخليفة في السفر للقاء

---

(٢٢٣) طبقات أعلام الشيعة، القرن السابع، ص١٥١ - ١٥٢.

(٢٢٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٩ - ٢٧٢.

هولاكو . أما عدم قتله ، وقتل من دخل داره مثل ابن أبي الحديد فلعلّه يعود إلى أمرين : أن هولاكو علم بموافقة الوزير على تنفيذ ما طلبه من الخليفة ، وهو ما زال بإيران . والثاني أنه دخل داره ، ولم يشهر السلاح ، وكان العفو قد شمله .

أما الفئات التي أرسل هولاكو رسائله بالعفو عنها ، حسب رواية ابن العبري ، فمعناها كالآتي : الأركاونية : وتعني باليونانية أتباع الدهاقنة (هامش تاريخ مختصر الدول) من الفلاحين ومزارعي القرى ، والحاجة إلى هؤلاء معروفة في الاقتصاد ، والأهم من هذا أنها طبقة غير محاربة . ولعلٌ العفو عن العلويين له علاقة بوجاهتهم ، واستمالة أتباعهم ضد جيش الخلافة العباسية . لم يكن هولاكو جاهلاً بالسياسة ، فقبل أن يتحرك إلى غزو العراق لا بد أن أطلع على خارطته السياسية ، وتعرف على مراكز القوى ببغداد . وأما العفو عن (الدانشمدية) وهم فئة «العلماء»[٢٢٥] ، وتلاميذ العلم فله أكثر من معنى . ويبدو قرار العفو عن الفئة الأخيرة له علاقة بمساعي العالم الفلكي نصير الدين الطوسي ، وهذا له قصة طويلة لا مجال لذكرها .

بعد هذا نأتي إلى شهادة مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، فقد أدلى كشاهد وقريب من زمن الحدث بتفاصيل هامة ، يصعب إغفالها من قبل المصرين على إثبات التهمة المختلقة . أشار الوزير رشيد الدين(قُتل ٧١٨ هـ) إلى شخصية سُنيَّة المذهب فتح عيون المغول على بغداد هو قاضي القضاة شمس الدين القزويني . وأن سوء تصرف الخليفة كان وراء الإسراع بسقوط بغداد . وقصة ذلك : لما جلس منكوخان بن لتولوى خان بن جنكيز خان ، وشقيق هولاكوخان وصلت الرسل تشكو من الإسماعيلية والخلافة العباسية . قال رشيد الدين «في ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان ، وذات يوم ظهر للخان مرتدياً الزرد ، وأخبره أنه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة (الإسماعيلية من الحشاشين) . كما سرد لهم طرفاً من اعتداءاتهم وغاراتهم»[٢٢٦] .

وهذا ما يؤكد على دور الإرهاب ، الذي مارسه النزاريون لأكثر من قرنين بالعراق والشام مصر ، في استقدام الجيوش المغولية . ويذكر الجوزجاني في «طبقات ناصري» أن القزويني «كان على أتصال بالمغول ، وأن إماماً وعالماً كبيراً ، ذهب مرة إلى منكوخان وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ، ويخلص الناس من فسادهم . وفي أثناء حديثه ، وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين ، صدرت منه كلمات جافة أغضبت منكوخان . وكان لها أثر عميق في نفسه إذ نسب إليه الضعف والعجز . لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة

---

(٢٢٥) شير ، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ٦٦ .

(٢٢٦) الهمداني ، جامع التواريخ-تاريخ المغول- م٢ ج١ ص٢٣٣ .

التي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين ، والمغول ، وما ذلك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال ، بينما هم يتحينون فرصة ضعف الدولته ، فيخرجون من الجبال والقلاع ، ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم»[٢٢٧] .

يومها كلف منكو خان أخاه هولاكو بالمسير لإخضاع إيران . وأوصاه بعد الفراغ من إيران التوجه إلى العراق «أزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض له مطلقاً ، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد . وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً . وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء ، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة . وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون»[٢٢٨] . يتبين من هذه الوصية أن المغول كانوا على ديانة موحدة ، لكنها ليست من الديانات الثلاث ، ويتبين أيضاً دور زوجة هولاكو المسيحية دقوز خاتون الكبير في البلاط المغولي .

تحرك جيش هولاكو السنة (٦٥١ هـ) من الديار المغولية قاصداً إيران والعراق . وبعد سنتين نزل سمرقند مستقبلاً من قبل حاكمها مسعود بيك بخيمة مطرزة بالذهب . وشرع بعبور نهر جيحون . وبث رسائله إلى الملوك والسلاطين بإيران ، مهدداً ومحدداً فيها قصد حملته : «بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة ، وإزعاج تلك الطائفة ، فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش ، والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في إمتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل عذركم ، ونتوجه إليكم ، فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم»[٢٢٩] . لما سمع أهل الممالك الإسلامية ، الإيرانية والعراقية ، الواقعة في طريق الجيش المغولي الجرار سارعوا إلى تقديم فروض الطاعة والولاء . وقد سقطت قلاع الإسماعيلية واحدة تلو الأخرى ، حتى استسلم الملك ركن الدين خورشاه بصحبة الفلكي الخواجه نصير الدين الطوسي السنة (٦٥٤هـ) ، وكانت آخر القلاع المستسلمة هي قلعة ألموت الشهيرة بقزوين . وظل ملك الإسماعيلية خورشاه مكرماً عند هولاكو ، وأرسل رسله إلى قلاع الإسماعيلية بالشام يدعوهم إلى التسليم للجيش المغولي .

---

(٢٢٧) المصدر نفسه ، حاشية ص ٢٣٢ .

(٢٢٨) المصدر نفسه ، ص٢٣٧ .

(٢٢٩) المصدر نفسه ، ص٢٤٠ .

بعد الفراغ من السيطرة على إيران توجهت أنظار المغول نحو بغداد . لكن الخلافة ببغداد كانت تعاني من استحواذ مجاهد الدين الدويدار ، الذي خطط لخلع الخليفة المستعصم ، فأخبر الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي الخليفة أن يتدارك أمره . ومن يومها بدأ الخلاف حاداً بين الدويدار والوزير . أشتد هولاكو على الخليفة العباسي ، لأنه لم يبعث المعونة في الحرب ضد قلاع الإسماعيلية ، فكتب إليه مهدداً ، وطالباً قدومه إليه . قال : «حينما أقود الجيش إلى بغداد مندفعاً بسورة الغضب ، فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض ، فسوف أنزلك من الفلك الدوار ، وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد . ولن أدعَ حياً في مملكتك ، وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار . فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك ، فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء . وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله»[٢٣٠] .

استهان الخليفة برسالة هولاكو ، وبمنزلته إذ بعث إليه وفداً برئاسة شرف الدين عبد الله بن يوسف حاملاً رسالة شديدة اللهجة منها : «أيها الشاب الحدث ، المتمني قصر العمر ... ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي»[٢٣١] . وكان جواب هولاكو : «أني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد» . هنا تدخل الوزير ابن العلقمي بنصح الخليفة : «ينبغي أن ندفعه ببذل المال ، لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس ، فيجب إعداد ألف حمل من نفائس الأموال ، وألفاً من نجائب الإبل ، وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات . وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الكفاة الدهاة . مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو . وجعل الخطبة والسكة باسمه»[٢٣٢] .

أعجب الخليفة برأي الوزير ، فهو عين ما فعله أسلافه من بني العباس مع البويهيين والسلاجقة . إلا أن الأمراء تدخلوا وغيروا رأي الخليفة ، فبعث إلى الوزير مَن يقول له : «لا تخشى القضاء المقبل ، ولا تقل خرافة ، فإن بيني وبين هولاكوخان وأخيه منكوقان صداقة وألفة ، لا عداوة وقطيعة (إلى قوله) أما إذا أضمر الأخوان لي خلافاً وغدراً ، فلا ضير على الأسرة العباسية . وإذ أن ملوك الأرض هم بمثابة الجنود لي ، وهم منقادون ومطيعون لأمري ونهيي ، فأدعوهم من كل قطر»[٢٣٣] . حاول الوزير والقادة التعبئة ، لكن الخليفة رفض صرف المال الكافي ، فيئس الوزير من المواعيد واستسلم للقضاء القادم .

---

(٢٣٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٨ .

(٢٣١) راجع نص الرسالة كاملاً في المصدر نفسه ، ص٢٦٩-٢٧٠ .

(٢٣٢) المصدر نفسه ، ص٢٧٢ .

(٢٣٣) المصدر نفسه ، ص٢٧٢-٢٧٣ .

حاول الخليفة التأثير على هولاكو، ربما لمعرفته بأوهام المغول وخضوعهم للكهانة والسحر، فبعث إليه برسالة تحدث فيها حول حصانة البيت العباسي وقدسيته، و«ليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فأحذر من الزمان الغادر»[٢٣٤]. وحاول أحد المنجمين ثني هولاكو من قصد بغداد. قال له: «ستظهر ستة أنواع من الفساد»: أن تنفق الخيول ويمرض الجنود، أن الشمس لا تطلع، ولا ينزل المطر، وتهب ريح عاتية، وتحدث زلازل، ولا ينبت نبات الأرض، وأخيراً يموت الملك في تلك السنة[٢٣٥].

قصدت الجيوش المغولية بغداد في أوائل محرم (٦٥٥هـ) عبر كرمنشاه وحلوان، حيث خانقين اليوم، يرافقه الصاحب علاء الدين عطا الجويني (من وجهاء السُّنَّة) والخواجه نصير الدين الطوسي (من وجهاء الشيعة)، و أمراء وملوك المسلمين ببلاد إيران كافة. لكن الكل نجا من تهمة استقدام المغول ويلبسها ابن العلقمي وحده. مع أنها أكذوبة لا مثيل لها في التاريخ. وتحول بعض قادة جيش الخلافة إلى أدلاء للجيش المغولي، بعد أسرهم بالمدائن. وعندما وصلت طلائع الجيش الغازي غرب بغداد بعث الخليفة الوزير ابن العلقمي والجاثليق. ذلك لمعرفته المسبقة بصلة المغول بالمسيحية، وربما عبر زوجة هولاكو دقوز خاتون، قال: «إن الملك قد أمر بأن أبعث إليه بالوزير، وها أنا ذا قد لبيت طلبه، فينبغي أن يكون الملك عند كلمته»[٢٣٦].

وما يخص دور دقوز خاتون فأمر النساء عند التتر عظيم، فحسب مشاهدات ابن بطوطة وحديثه حول سيرة حفيد هولاكو السلطان الجياتو، أنهم يكتبون أوامرهم الرسمية بعبارة «عن زمر السلطان والخواتين»[٢٣٧].

ولما شعر الخليفة بالهزيمة قال: «سأسلم وأطيع». فأرسل هدايا إلى هولاكو بيد فخر الدين الدامغاني. لم يحفل بها هولاكو. وكان السهم الذي أصاب عين أحد أكابر أمرائه دافعاً للجد في الاستيلاء على بغداد، فأمر الخواجه نصير الدين أن يعلن أماناً عن الناس ليخرجوا من المدينة. بعدها سأل هولاكو منجم دار الخلافة سليمان شاه كيف عجز عن التكهن بمصيره وهو مقيد اليدين، فقال المنجم: «لقد كان الخليفة مستبداً برأيه، منكود الطالع، فلم يستمع لنصح الناصحين»[٢٣٨]. على أية حال، لم يسلم من أبناء المستعصم غير الابن الأصغر مبارك شاه، فأخذته اولجاى خاتون، وأرسلته إلى مراغة عند الخواجه نصير الدين الطوسي. وعاش في كنف المغول وزوج من امرأة مغولية، فأنجب منها ولدين.

---

(٢٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٢٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(٢٣٦) المصدر نفسه، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢٣٧) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٢٤٣.

(٢٣٨) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

أما ما ذكر من مراسلة بين الوزير وهولاكو بواسطة ابن الصلايا العلوي[٢٣٩]، فهي ليست مع هولاكو بل مع الأمير حسام الدين عكه، أمير (درتنك) وما حولها من قبل الخليفة. وقد خضع لهولاكو ثم حاول التمرد عليه فأرسل ابن الصلايا إلى حاكم أربل ليصلحه مع الخليفة، عبر رسالة يقلل فيها من شأن هولاكو، ويطلب جيشاً من الفرسان ليسد به الطرق على هولاكو عدته مائة ألف فارس. استقبل الوزير ابن الصلايا، وعرض ما جاء به على الخليفة، لكن الأخير لم يهتم للأمر. ولما سمع المغول بخطة حسام الدين استدعي وقُتل، وهرب ولده إلى بغداد، وظل هناك حتى اجتياحها فقتل مع مَنْ قُتل. بعد هذا لا نعتقد أن حدثاً معقداً ومتداخلاً مثل حدث سقوط الخلافة العباسية يتحمل تبعته شخص واحد، كان أمره لا يطاع. وكم أمير وقاضي قضاة وسلطان خدم المغول وصاحبه إلى بغداد، وقد حذر من فداحة ما سيحصل؟

استمرت زعامة الدولة المغولية البوذية ببغداد (٣٨) عاماً حتى إسلام حفيد هولاكو، غازان خان بن أرغون خان بن آباقا خان بن هولاكو خان، خلالها حُفظت كرامة الإسلام والمسلمين بعد أن انتهكت أيام الفتح والاجتياح، فلم يصطدم معها أي من فقهاء أو موظفي دار الخلافة السابقين، في إعلان الجهاد ضدها مثلاً. قبل الجميع وظائفهم الجديدة وظلوا على ما هم عليه. سجل رشيد الدين الهمداني هذه اللحظات بالتالي: «إن غازان خان نطق بكلمة التوحيد في أوائل شعبان سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) بحضور الشيخ صدر الدين إبراهيم بن حمويه، ومعه كافة الأمراء (قيل أسلم معه مئة ألف مغولي) صار الجميع مسلمين. ولقد أقيمت الولائم والأفراح، واشتغل الحاضرون بالعبادة»[٢٤٠].

كان ابن العلقمي وزيراً مثقفاً، صاحب خزانة كتب عظيمة ببغداد، ومن الكتب التي صنفت بطلب منه، وأجاز أصحابها عليها، كتاب «العباب» في اللغة، وكتاب «شرح نهج البلاغة»، وقال ولده شرف الدين: «اشتملت خزانة والدي على عشرة ألف مجلد من نفائس الكتب»[٢٤١]. قال في فضل أسرته المؤرخ الحنبلي ابن الفوطي، وهو يترجم لولده عزّ الدين محمد: «من بيت السؤدد والفضل والتقدم في جليل المناصب والتوقل في رفيع المراتب»[٢٤٢]. وقد يحمل كتاب «اتهام ابن العلقمي بما هو بريء منه» للشيخ الإمامي، مهدي السبزواري (ت١٩٣١)، الذي لم نطلع إلا على عنوانه، ردوداً تبرئ ساحة الوزير

---

(٢٣٩) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ٥ ص١١٤٩.

(٢٤٠) ابن رشيد، جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، ص١٢٣ - ١٢٤.

(٢٤١) المصدر نفسه، ص٣٠١.

(٢٤٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ١/٤ ص٣٣٢-٣٣٣.

المذكور بأكثر مما أوردنا . مات ابن العلقمي ، ومات هولاكو وانقضت العصور ، ولا زال الشيعة يتحملون وزر تهمة الوزير ثابتة في التاريخ والأدب على الرغم من أنها واحد من أكاذيب التاريخ ومختلقاته .

فتوى ابن طاوس

أدرك فقهاء الشيعة قبل غيرهم ، بعد ظلامة مؤبدة ، أن العدل هو الغاية ، والدين هو المعاملة . بدا ذلك جلياً في فتوى رضي الدين علي بن طاوس (ت ٦٦٤هـ) نصها «تفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر» . جاء في الراوية : أمر هولاكو «أن يستفتى العلماء أيهما أفضل السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر ، ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك ، فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب . وكان رضي الدين علي بن طاوس حاضراً هذا المجلس . وكان مقدماً محترماً ، فلما رأى احجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر ، فوضع الناس خطوطهم بعده»[٢٤٣] . شاعت هذه الفتوى بين الناس شيوعاً لافتاً للنظر ، ويبدو لمكانتها وأهميتها في ظل الحكام الجائرين ، نسبها الكثيرون إلى الإمام علي بن أبي طالب . وهي أقرب روحاً إلى كلمة الإمام التي جاءت في عهد مالك الأشتر ، وهو يرسله والياً بمصر «يا مالك ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخَلق»[٢٤٤] . أي أخ لك في الإنسانية ، وليكن دينه ما يكون!

الأثر الطائفي

يعطي الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ملخصاً لما افترقت فيه الشيعة عن غيرهم ، وعلى ذلك نتفهم ماوراء الطائفية ضدهم ، أو البعد بينهم وبين المذاهب الأخرى ، والذي قد لا ينفع فيه دعوة إلى التقريب بين المذاهب ، فالخلاف جوهري وعميق . قال : «افترقت عن سائر فرق المسلمين ، وهو فرق جوهري أصلي ، وماعداه من الفروق فرعية عرضية ، كالفروق التي تقع بين أئمة الاجتهاد عندهم (السُنّة) كالحنفي والشافعي وغيرهما . وعرفت أن مرادهم بالإمامة كونها منصباً إلهياً يختاره الله بسابق علمه لعباده ، كما يختار النبي ، وأمر النبي بأن يدل الأئمة عليه ويأمرهم

---

(٢٤٣) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٥ .

(٢٤٤) نهج البلاغة ، كتاب عهد كتبه للأشتر النخعي رقم ٢٩١ ، ص ٥٧٢ .

باتباعه»[٢٤٥] . وعلى ضوء هذا الاختلاف ، ورغم أُصول الشيعة الضاربة بالقدم في الأرض العراقية .

جاء تكريس مقالة حداثة التشيع بالعراق لتغريبه عن المجتمع العراقي كلية ، وعلى وجه الخصوص بين القبائل العربية ، وربطه بالنشاط الصفوي في القرن السادس الميلادي . وعلى حد عبارة المؤرخ حسن الأمين : تعجيم الشيعة . وبالتالي «تعجيم التراث العربي وعلوم الإسلام العربية ، حيث الريادة العلمية للمبدعين والمفكرين والعرب الشيعة تكاد تسيطر على مدارس النحو واللغة والصرف والتفسير والتاريخ وعلم الكلام ، فضلاً عن مدارس الشعر . إن صورة الحضارة العربية تبدو مقلوبة قومياً حين نأخذ بمشروع تعجيم التشيع ، ونسرف في البحث والاستقصاء وترسيم مذاهب المفكرين العرب»[٢٤٦] .

غير أن مؤرخاً مثل عبد العزيز الدوري (مؤرخ قومي الميول وصفت كتاباته حول الشعوبية بالطائفية في وقتها) قال مقيماً العلاقة بين العرب والإيرانيين بما يرضي الشيعة : «التشيع لم يميز إيران من العرب ، فالتشيع بدأ عربياً ، ووجد مركزه الأول في العراق ، وكانت غالبية أتباعه مثل الصفويين من العرب»[٢٤٧] . وفي الوقت الذي أيد الدوري حقيقةأانكرها باحثون ومؤرخون بتأثير هيمنة الحس الطائفي . إلا أننا لا ندري كيف يكون الصفويون عرباً؟

إن القول بفارسية التشيع العراقي لا تنسجم مع نشأة علماء الشيعة بالنجف على أُصول اللغة العربية وأدابها التقليدية من شعر وخطابة . فالمقاهي التي تحيط بالمقام العلوي بمثابة منتديات أدبية ، وربما تسمع من بقال كلمات فصحى ، يعبر لك فيها عن أسفه ، أو يجيبك ببيت من الشعر للتعبير عن ترحاب أو امتعاض . وإن كان هناك حضور ، أو أثر للشعر الكلاسيكي ، أو العمودي بالعراق فللنجف فضلها الكبير فيه . لقد امتازت بمدارسها الفقهية والأدبية ومنتدياتها ، التي تُعقد في المنازل والمساجد ، وفضلها الأكبر على مدن العالم العلمية أن جعلت للكتاب العربي والعلم منزلة ليكون لقباً تنتمي له العائلات عبر أجيال وأجيال ، يجري هذا تلقائياً مثله مثل أي معلم بارز يعرف الإنسان به .

فآل كاشف الغطاء انتموا إلى كتاب جدهم جعفر بن خضر النجفي(ت١٨١٢) «كشف الغطاء عن ميرزا محمد عدو العلماء» . وعرف آل الجواهري ، وليس فيهم مَنْ يتعامل بالذهب والفضة أو الجواهر ، بكتاب جدهم الشيخ محمد حسن النجفي (ت١٨٥٩) «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» ، وهو موسوعة فقهية كبيرة . وعرف أيضاً آل بحر العلوم وآل

---

(٢٤٥) كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ص٦٨ - ٦٩ .

(٢٤٦) الأمين ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ١ ص١٧ الهامش .

(٢٤٧) العلاقات العربية الإيرانية ، بحوث ومناقشات ندوة لمركز الوحدة العربية ، ص ٥٨ .

البلاغي وآل الحكيم بالعلوم التي برزوا فيها . وأن يميز المحمدون أو العليون وغيرهم من الأسماء المتكررة عن طريق كتبهم أيضاً . أخبرني السيد محمد بحر العلوم أن السيد علي بحر العلوم كان يُشخص عن العليين الآخرين من آل بحر العلوم بصاحب «البرهان القاطع» وهو كتابه ، والسيد محمد بحر العلوم (آخر) يتميز عن المحمدين الآخرين من العائلة بصاحب «البلغة الفقهية» ، وعبد الحسين الأميني يشخص بصاحب «الغدير» وغير هذا كثير . ويُلاحظ في المدرسة النجفية ، الحوزة العلمية ، الحفاظ على تقاليد المدرسة أو الجامعة الإسلامية العريقة . تلك التقاليد التي ظلت تدافع عنها ضد محاولات الحكومة لاستبدالها بالمدارس الحديثة ، حسب الطريقة التي أرادها ساطع الحصري ، مدير التعليم آنذاك . فما امتاز به المتعلمون الشيعة في تلك المدارس «أنهم لا يرتبطون مع الدولة برابط المعاش ، وإنما يعتمدون على الناس في تمويل مدارس الدرس الفقهي والإنفاق عليها ، مما أكسب المؤسسة العلمية الشيعية استقلالاً عن نفوذ الحكومة وسطوتها ، وبهذا ليس غريباً أن تزدهر الدراسات الفلسفية في النجف ، في الوقت الذي انهارت فيه العلوم الفلسفية في العهد العثماني»[٢٤٨] .

اتُخذَ تعجيم التشيع ذريعة في التمييز الطائفي في العهد العثماني ، وما ورثه العراق من السيطرة العثمانية هو تغييب طائفة من أكبر الطوائف عدداً بما يسمى بقانون التبعية . مع أن أكثر المحسوبين على التبعية الإيرانية هم الهاربون من نظام الجندية العثماني المعروف بالسفر برلك ، الذي يعد مَنْ يساق إليه في عداد الموتى أو المفقودين . وتعجيم التشيع سياسة نهجتها الدولة الحديثة بالعراق إثر الدولة العثمانية . نجد الحس الطائفي يتصاعد من على منابر كبار رجال الدولة ، فسياسي ورئيس وزراء سابق عَرّف الشيعة العراقيين بالقول : «إن كل شيعي هو إيراني»[٢٤٩] . وظل الحال كما هو عليه إلى هذه الساعة ، فالشيعة المنخرطون في حزب البعث يعدون من العجم ، هذا ما أفصح به سفير العراق بالصين حين سُئل عن الأكثرية بالعراق ، فقال : «العجم أكثر من العرب بالعراق»[٢٥٠] . وحين سُئل السفير المذكور عن وجود الشيعة وهم (العجم) في الحزب (البعث) أجاب : «إن القيادة تأخذ الاحتياطات اللازمة وتعرف كيف تتصرف مع الشيعة في الحزب والدولة»[٢٥١] .

كتب عبد الرزاق الهلالي في السياسة الطائفية حيال الشيعة : «لما كان العثمانيون سُنّيين حنفيي المذهب فقد ساروا في العراق على تأييد المذاهب السُنّية الأربعة ، مستثنين

---

(٢٤٨) العلوي ، الشيعة والدولة القومية في العراق ، ص٢٢ .

(٢٤٩) العلوي ، الشيعة والدولة القومية في العراق ، ص٤٠ ، عن الخِطاب في الثورة العراقية للكولونيل ولسن ترجمة جعفر الخياط .

(٢٥٠) المصدر نفسه .

(٢٥١) المصدر نفسه .

من تلك الرعاية المذهب الجعفري ، الذي يحتل أتباعه جانباً كبيراً من البلاد . لقد أحدث هذا التفريق والرعاية انقساماً في صفوف الأئمة ، ومن ثم الاختلاف في منابع الدراسة ومعاهدها من أبناء الطائفتين»[٢٥٢] . وكتب كامل الجادرجي ، وهو السُنّي المذهب وديمقراطي الاتجاه ، حول ممارسة العثمانيين تجاه الشيعة ، وهو يتحدث عن وجه من وجوه الشيعة البارزين ببغداد جعفر أبو التمن : «كانت الطائفة الشيعية تعد زمن السلطان عبد الحميد ، وبالحقيقة الدولة العثمانية ، أقلية تنظر إليها الدولة بعين العداء ، فلم تفسح لها مجالات التقدم من أية ناحية من نواحي الحياة العامة ، ومن الأمثلة البارزة لذلك أنها كانت لا يقبل لها تلميذ في المدرسة الحربية . ولا يقبل منها فرد في وظائف الدولة إلا ما ندر وعند الضرورة القصوى»[٢٥٣] .

إن ربط العراقيين السُنَّة بالأتراك ، والعراقيين الشيعة بالإيرانيين يرتقي إلى ما قبل الدولتين العثمانية والصفوية . ولعل الرواية التالية ، التي تعود إلى القرن الخامس الهجري ، تُغني عن المقال في هذه المسألة بالذات . قال مسكويه : «لما انبسطت العامة ، الذين ذكرنا حالهم مع سبكتين ، وهم الفرقة المعروفة بالسُنَّة استقاموا الشيعة وناصبوهم الحرب . وتحزب الفريقان ، وكان عدد الشيعة قليلاً ، فتحصنوا في أرباض الكرخ من الجانب الغربي (بغداد) ، وأتصلت الحروب حتى سفكت الدماء ، واستبيحت المحارم ، وأحرق الكرخ حريقاً ثانياً بعد الحريق الأول في وزارة أبي الفضل (فاستفز) التجار وغلبهم العيارون على أموالهم وبضائعهم وحرمهم ومنازلهم . واحتاجوا أن يتخفروا منهم ، وأي فريق كانت الخفارة له قصد الفريق الآخر . . . وصارت العصبية بين الصنفين في أمر الدين والدنيا بعد أن كانت في أمر الدين خاصة ، وذلك أن الشيعة ثاروا بشعار بختيار والديلم ، وأهل السُنَّة ثاروا بشعار سبكتين والأتراك»[٢٥٤] . لم تفسر مثل هذه الظاهرة بغير شيعية البويهيين القادمين من إيران السُنِّية ، وسُنِّية السلاجقة أو الأتراك عموماً القادمين من آسيا الوسطى ، والذين كانوا على المذهب الحنفي ، وانتهوا إلى المذهب الشافعي ، بجهود وزيرهم الشهير نِظام المُلك .

جرت محاولات للتقريب بين المذهبين ، السُنَّة والشيعة ، وبالتالي التقريب بين الدولتين العثمانية والصفوية . منها ما عُرف بمؤتمر النجف (١٧٤٣م) ، ترأس الجانب السُنّي السيد عبد الله السويدي ، قيل إنه ينحدر من أسرة عباسية . عُقد المؤتمر ، وراء ضريح الإمام علي ، بدعوة من نادر شاه ، بعد الطلب من وزير العراق العثماني أحمد شاه الاعتراف بالمذهب

(٢٥٢) الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ، ص٤٣ .

(٢٥٣) الجادرجي ، من أوراق كامل الجادرجي ، ص ٨٦ .

الشيعي[٢٥٥] . فهو مذهب الإمام جعفر الصادق سليل الرسول . ويقال كان نادر شاه أول مَنْ أشار إلى المذهب الأمامي بالمذهب الجعفري ، حتى يمارس كمذهب خامس[٢٥٦] . ناقش المؤتمر على مدار يومين اختلاف الاجتهادات بين المذهبين ، مثل عصمة الصحابة أو عدمها ، وما يتعلق بتحريم أو تحليل المتعة ، وفضل الخلفاء الراشدين حسب القدم بالخلافة أو بالوصية إلى غير ذلك . إلا أن نتائج المؤتمر ، حسب ما كتبه السويدي ، كانت لصالح السُنَّة . مع أنه عقد برعاية نادر شاه ، وبالنجف معقل الشيعة . واستغلت الكتابة عنه للنيل من الشيعة والإصرار على تعجيمهم .

تعرض كاتب مقدمة الكتاب الخاص بالمؤتمر ، محب الدين الخطيب (ت ١٣٨٩هـ) للطعن بعقائد الشيعة ، بعيداً عن لغة التقارب والتسامح ، فنسب لهم القول بتحريف القرآن محتجاً بكتاب عالم نجفي ، حسب قوله ، كتبه العام ١٢٩٢هـ ، يدعى الحاج ميرزا حسين محمد تقي النوري الطبرسي (ت١٣٠٢هـ) تحت عنوان «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»[٢٥٧] . غير أن الخطيب اعترف بردود شيعية ضد الكتاب المذكور ، كما أشار الناقد الناقم ، الخطيب ، إلى نسخة من القرآن حصل عليها مستشرق ألماني من إيران ، تحتوي زيادة سورة الولاية على سوره . جاء في نصها ، حسب صورة فوتغرافية نشرها في الكتاب كدليل ضد الشيعة : «يأيها الذين آمنوا بالنبي وبالولي اللذيَن بعثناهما يهديانكم إلى سراط مستقيم ، نبي وولي بعضهما من بعض ، وأنا العليم الخبير ، إن الذين يوفون بعهد الله لهم جنات النعيم ، والذين إذا تليت عليهم آياتنا كانوا بآياتنا مكذبين ، إن لهم جهنم مقاماً عظيماً إذا نودي لهم يوم القيامة أين الظالمون المكذبون للمرسلين»[٢٥٨] .

ما يخص تحريف القرآن ، بحدوث زيادة أو نقصان في نصوصه ، فجرأة القول فيه لم تقتصر على إخباريي الشيعة بل أن لإخباريي السُنَّة رواياتهم وكتبهم حول هذا الموضوع ، قد تزيد على ما ورد في كتاب «الكافي» للكليني وغيره من الكتب التي لا يجمع علماء الشيعة على صحتها ، بقدر ما هي خاصة بأصحابها . وليست لها قيمة في مقالات التشيع . ولأن هذا الموضوع قد سبق بحثه فلا حاجة للعودة إليه[٢٥٩] . بيد أن الخطيب في «الخطوط العريضة» قدم للمؤتمر ما يفقد مصداقيته حين يأتي على أخبار يزيد بن معاوية ، وما سماه بخيانات آخر وزير عباسي .

---

(٢٥٥) الخطيب ، مؤتمر النجف ، ص١٥ .

(٢٥٦) حيدر ، العمامة والصولجان ، ص ٦٥ .

(٢٥٧) المصدر نفسه ، ص١٠ - ١١ .

(٢٥٨) المصدر نفسه ، ص١٢ .

(٢٥٩) الخيون ، جدل التنزيل ، الفصل الخاص بالتحريف .

إن ما كتبه الشيخ عبد الله السويدي (ت١٧٦٠م) ، وما أضاف له محب الدين الخطيب كتبه ضد الشيعة أيضاً المعروف بعلامة العراق محمود شكري الآلوسي (ت ١٩٢٤) ، في رسالة نشرتها مجلة «المنار» بعد وفاته بأربع سنوات رداً على مقال كانت المجلة قد نشرته تحت عنوان «الحصون المنيعة فيما أورده صاحب المنار في الشيعة» للملا محسن العاملي (يغصة الأمين) . وكانت المقالات وردودها معركة فكرية جرت بين مجلتي «المنار» السُنّية و«العرفان» الشيعية . وصف الآلوسي شيعة العراق بالقائمين على ساق الحرب مع الدولة . وأن «اختلال العراق دائماً إنما هو من الأرفاض ، فقد تهرى أديمهم من سم ضلالهم ، ولم يزالوا يفرحون بنكبات المسلمين حتى إنهم اتخذوا يوم انتصار الروس على المسلمين عيداً سعيداً»[٢٦٠] .

غير أن المنار علقت على رد الآلوسي بما يدين العثمانيين وسياستهم العنصرية ضد التشيع . قالت : «الإنصاف أن الدولة العثمانية هي التي أثارت عصبية الشيعة عليها»[٢٦١] . ونقدَ الآلوسي اعتماد الشيعة أحاديث الكتب الأربعة : «الكافي» ، و«مَنْ لا يحضره الفقيه» ، و«الاستبصار» ، و«التهذيب» ، والرقاع التي يأتي بها سفراء المهدي المنتظر . قال : «نعم أنهم أخذوا غالب مذهبهم كما اعترفوا من الرقاع المزورة التي لا يشك عاقل أنها افتراء على الله . والعجب من الروافض أنهم سموا صاحب الرقاع بالصدوق ، وهو الكذوب بل أنه عن الدين المبين بمعزل . كان يزعم أنه يكتب مسألة في رقعة في ثقب شجرة ليلاً فيكتب الجواب عنها المهدي ، صاحب الزمان بزعمهم ، فهذه الرقاع عند الرافضة من أقوى دلائلهم ، وأوثق حججهم ، فتباً . . .»[٢٦٢] .

تعففت مجلة «المنار» من نشر ما بعد كلمة الآلوسي «فتباً» ، لأنه لا يَليق بالسيد حفيد المفتي أبي الثناء محمود الآلوسي . كذلك لا يليق به أن يتبنى موقف الوهابيين ضد مواطنيه الشيعة ، مع أن هجماتهم لم تبق ولم تذر على مقدسات النجف وكربلاء . قال الآلوسي : «من العجب من هذا الرافضي أنه عدَّ فرقته من المتبعين ، وجعل أهل السُنّة كالوهابية وأضرابهم من المبتدعين»[٢٦٣] .

وفي تصرف أخر امتنع السيد الآلوسي من المشاركة في مؤتمر علماء السُنّة المنعقد بتكية الخالدية ببغداد في الخامس من نيسان ١٩٢٢ ، بحضور جمهرة من العلماء ، لاعلان التضامن مع مواطنيهم الشيعة ضد الهجمات الوهابية ، وأصدروا فتوى القتال دفاعاً . جاء في

---

(٢٦٠) مجلة المنار ، ج١٩٢٨/٦ .

(٢٦١) المصدر نفسه ، الحاشية .

(٢٦٢) المصدر نفسه .

(٢٦٣) المصدر نفسه .

الفتوى «نعم يجب قتالهم»[٢٦٤] . ثم ذهب الوفد إلى كربلاء وفيه عدد غفير من علماء السُنَّة بينهم : نعمان الأعظمي ، وأمجد الزهاوي ، وطه الراوي ، وعبد الوهاب النائب وغيرهم . وفي الوقت نفسه وصل وفد وجهاء وشيوخ الموصل وتكريت السُنِّين إلى كربلاء متضامناً مع الشيعة ضد الوهابيين ، وكان بينهم الوجيه العراقي مولود مخلص ، والشيخ عجيل الياور ، وثابت عبد النور[٢٦٥] .

لعل السيد الآلوسي على علم يقين أن أول مَنْ ردَ على مقالات الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو شقيقه سليمان بن عبد الوهاب (ت ١٧٩٥م) ، الموسوم بـ «الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية»[٢٦٦] . وكتب ضد شقيقه أيضاً «الرد على مَنْ كفر المسلمين بسبب النذر لغير الله»[٢٦٧] . منعت الحكومة العراقية في العشرينيات تداول أو نشر ما صنفه السيد الآلوسي ، وذلك لخطورة ما طرحه على الوحدة العراقية ، ومن هذه المصنفات «صب العذاب على مَنْ سب الأصحاب»[٢٦٨] .

ترك العهد العثماني أثره الطائفي في سياسة الدولة العراقية الجديدة ، على الرغم من أن علماء الشيعة نسوا الخلافات المذهبية ، وهبوا للدفاع عن الدولة العثمانية ، وهي تنهار يوماً بعد يوم أمام القوات البريطانية ، وكان في مقدمة الصفوف بالبصرة المهديان الحيدري والخالصي والفقيه الشاعر محمد سعيد الحبوبي ، وغيرهم .

وذكر فيما ذكر من يوميات الجهاد بالبصرة والعمارة أن القائد العثماني سليمان العسكري ، الذي قاتل إلى جانبه السيد مهدي الحيدري وقد طوى عامه الثمانين ، قد دخل المستشفى متأثراً بجروحه في معركة حاسمة مع البريطانيين . وفي المستشفى ، وأمام شهود عيان ، إمتعض العسكري من موقف علماء المشيخة الكبار[٢٦٩] ، الذين يمثلون المذهب الرسمي ببغداد ، ومنهم السيد محمود شكري الآلوسي .

كان هذا الموقف الإيجابي جداً من الدولة العثمانية مع أن العهد المذكور كان عهداً فظيعاً بالنسبة إلى الشيعة ، حملهم الضرائب الثقيلة وحرمهم من التعليم ، ووظائف الدولة ، وفرض قضاة ومفتين على مناطقهم من غير مذهبهم . ولعل سائحاً أجنبياً ، لا يداري أحداً ،

---

(٢٦٤) الوردي ، لمحات اجتماعية ٦ ص١٤٤ .

(٢٦٥) المصدر نفسه ، ص١٤٥ .

(٢٦٦) صدر بعدة طبعات ، وما بين أيدينا من تحقيق إبراهيم محمد البطاوي ، القاهرة : دار الإنسان ، ١٩٨٧ .

(٢٦٧) الزركلي ، الأعلام٣ ص١٣٠ .

(٢٦٨) مجلة المنار ، ج١٩٢٨/٦ .

(٢٦٩) الأمين ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ١ ص٢٧ .

نظر إلى التمييز بين المذهبين حتى في أسواق النخاسة . قال : «أكثر زوجات أشراف بغداد من النساء الكرجيات الجميلات ، وكان للسُنَّة من المسلمين فقط امتياز أمتلاك الجواري البيضاوات ، فكانوا يتزوجون بهنَّ بعدئذ . بينما لاتباع المذاهب (الأخرى) حق امتلاك الجواري السوداوات فقط ، فكانوا يتزوجون بهن أيضاً»[٢٧٠] . إن احتكار الجواري البيضاوات ، على الطريقة العثمانية ، له علاقة بتفوق البشرة البيضاء ، بشرة السيادة والشرف في الشرق والغرب عموماً . فالعبيد هم السود عادة ، وهو نوع من العنصرية ضد الآخرين . والبياض كما هو معروف دينياً لون النور المتعالي ، لذا وصف وجه الرسول بالبياض الذي تُسقى منه الغيوم . قال عمه أبوطالب ، أو ما نُسب إليه في الاستسقاء أيام الجدب :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

كذلك توصف وجوه الأئمة والسادة بالنورانية . يُضاف إلى ذلك ما تحتله الجارية البيضاء من مكانة عند الشرقيين عامة ، فبشرتهن من بشرة سام بن نوح . بينما السوداوات من بشرة حام المغضوب عليه من قبل أبيه ، وبالتالي من قبل الله ، وبشرة تُرابية لا تليق إلا بالعبيد والفلاحين!

أشار عبد الرزاق الحسني ، العام (١٩٢٥) ، وأيامها كان شاباً متحمساً مع وجود حيز من حرية التفكير والتعبير ، إلى استمرار النهج العثماني في الدولة العراقية الحديثة تجاه الشيعة ، وإبعادهم من وظائف الدولة . مع أنهم الأكثرية بالعراق . قال : «إنني انتقد ولا زلت انتقد أن الإصرار على احتكار الوظائف في طائفة دون أخرى ، وعدم التسوية بين الجميع في الحقوق فيما يتعلق في هذا الأمر لما يورث في قلب الطائفة المحرومة ، مما يؤدي إلى الضرر بوحدتنا والوهن في قضيتنا»[٢٧١] . وكان الشيعة أكثرية بين العرب المسلمين بالعراق منذ عهد طويل ، فعلى الرغم من غياب الاحصاءات الرسمية الشاملة إلا أن هناك مؤشرات تؤكد ذلك . منها ما ذكره القنصل الروسي بالبصرة (١٩١٢) عن «النشرة العثمانية الرسمية الخاصة بولاية البصرة لسنة (١٨٩٨ - ١٨٩٩)» ، وكان عدد الشيعة فيها يبلغ (٦٦٢,٨٤٥) نسمة مقابل أهل السُنَّة وعددهم (٢٦١,٨٥٠) ، أي بفارق (٤٠١,٠٠٠) نسمة[٢٧٢] . ويشمل هذا الإحصاء التقريبي البصرة والسناجق التابعة لها وهي : المنتفك(الناصرية) ، والعمارة (ميسان) ، والحسا (حالياً ضمن أراضي المملكة العربية السعودية) .

شارك ساطع الحصري طرفاً في الخصومة بين الدولة والشيعة ، حتى عُرف بين الأوساط

---

(٢٧٠) العمري ، بغداد كما وصفها السواح الأجانب ، ص٥٥ .

(٢٧١) الأكثرية الشيعية في العراق ، مجلة العرفان ، حزيران ١٩٢٥ ، باب المراسلة والمناظرة .

(٢٧٢) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ١٢٩ .

الشيعية بالطائفي. وهناك «اختلافات ثقافية وفلسفية عميقة بين الحصري، خريج مدرسة (ملكية مكتبي) العلمانية باسطنبول، والشيعة العراقيين، الذين تلقوا تحصيلهم التكويني في المدارس الدينية. وأتخذ الشيعة موقفاً رافضاً من الحصري الذي اعتبروه غريباً على العراق»[٢٧٣]. ولم يكن الاختلاف حول التعليم سبباً وحيداً في الخصومة بين الحصري والشيعة. نقول ليس الموقف من الشيعة كان وراء الخلاف بين مدير التعليم العام ساطع الحصري وبين رجال الشيعة، الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الدينية، بل كان لديه توجه في تحديث التعليم، والتقليل من شأن التعليم الديني، ولم يحصر الأمر بالتعليم الشيعي بل حاول تحويل المدارس الدينية السُنِّية أيضاً إلى مدارس رسمية، وقد جوبهت دعوته ومحاولاته بشدة، مثلما حدث بسامراء.

لم تهدأ الخلافات، التي تقود في الغالب إلى مواجهات حادة بين الحكومة الملكية وعلماء الشيعة، إلا بعد العشرينيات. فالسيد محمد الصدر، وكان من المعممين، تبوأ منصب رئيس الوزراء، وترأس عدة مرات هيئة حاكمة تحل محل الوصي على العرش عبد الإله في غيابه. ويعد ترشيح رجل دين شيعي لمثل هذه المهام نقلة في سياسة الدولة العراقية تجاه الشيعة على الرغم من أنه جاء لمواجهة معضلة تعرضت لها الدولة آنذاك. وأن الشيخ الأديب محمد رضا الشبيبي تبوأ منصب وزير المعارف (التربية والتعليم)، وترأس مجلس الأعيان. واستوزر الشيخ علي الشرقي عدة مرات، وإن كان توزيره بلا وزارة. وأن الدولة لم تتدخل في شؤون الحوزة العلمية ونظامها التعليمي. واستمر إعفاء طلبتها من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية. وظلت هذه المعاملة قائمة حتى انقلاب البعثيين السنة ١٩٦٨.

غير أن هذا لم يخفف كثيراً من الضنك الطائفي الملموس من قبل سواد الناس. كانت الطائفية وراء أحداث جسام بالعراق، ولا يليق بها من تسمية غير أنها أُم الخبائث، فقد زحفت إلى النفوس والأحزاب، وظلت السلطة جارية بيضاء محتكرة من قبل مذهب واحد. من هذه الأحداث الغائبة عن عين الباحثين في الشأن الاجتماعي والسياسي العراقي أن رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون، الذي قيل أنه كتب وصيته بالتركية لأنه لا يجيد العربية[٢٧٤] أو حرصاً منه على مواصلة النهج العثماني، نفى علماء الشيعة إلى خارج العراق، وأدى هذا الموقف إلى خلخلة الوحدة الوطنية، بانسحاب بعض شيوخ العشائر الشيعة من بغداد، بعد مشاركتهم بقوة في تأسيس أول وزارة عراقية، منهم الشيخ سالم الخيُّون شيخ عشائر بني أسد.

---

(٢٧٣) نقاش، شيعة العراق، ص٢٠٨.

(٢٧٤) الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ١ ص٢٢.

جاء في رسالة الشيخ الخيُّون رداً على استفسار المؤرخ عبد الرزاق الحسني :«جواباً على سؤالكم بخصوص حملة وزارة الهاشمي عليٍّ في سنة ١٩٢٥ ، أُدوّن لكم الحقائق التالية : لما ألف عبد المحسن بك السعدون وزارته الأولى سنة ١٩٢٢ كانت البلاد تقاطع الانتخابات العامة للمجلس التأسيسي بناء على فتاوى العلماء . ولما كان الإنكليز طامعين في إجراء هذه الانتخابات لتصديق المعاهدة التي عقدتها وزارة النقيب الأخيرة ، فقد أمر السعدون بنفي العلماء إلى خارج العراق تمهيداً لإجراء هذه الانتخابات . وكان عمله هذا مدعاة لسخط الرؤساء والزعماء . ولما وجد الملك فيصل أن الآية انعكست عليه جمع الرؤساء وذاكرهم في أمر الانتخابات ، فمنهم مَنْ صانع جلالته ووافقه على اجرائها ، ومنهم مَنْ أصر على المقاطعة ، وكنت من المصرين . وفي ذات يوم دعاني صاحب الجلالة إلى بغداد فرفضت . ثم وافقت على الذهاب إليها بعد أن جاءني كتاب من مستشار الداخلية ، كتاب حظ وبخت (أي شرط أمان) . فلما حضرت العاصمة سألني جلالة الملك عما أريده لقاء اشتراكي في الانتخابات ، فطلبت إعادة العلماء ، وإنهاء حكم السعدون الذي تفاقم . وقد وافق صاحب الجلالة على هذين الشرطين ، ووافقت بدوري على تنفيذ أمر الملك ، فأسرها السعدون في نفسه ، حتى إذا جاء وزيراً للداخلية اتهمني بالعصيان ، وأقنع الإنكليز على قصف عشيرتي (الجبايش وهور الحمّار) وتسفيري (إلى الموصل ، وقبلها نفي إلى الهند ، وذلك في أوان الإحتلال البريطاني لأنه دعا إلى نظام جمهوري ، وهذا ضد رغبة الإنكليز) ، في وقت لم يكن هنالك عصيان ، ولا داعي للعصيان (بغداد ٢٨ نيسان ١٩٥٢)»[٢٧٥] .

حدثني والدي حول هول القصف البريطاني لديار بني أسد ، وكان شاباً ، حمل أعمامه السلاح دفاعاً عن القصر ، الذي أتّخذ في ما بعد مركزاً للشرطة ، فهرب الأهالي إلى عمق الهور ، وأن القصف استمر أربعة أيام على التوالي . ومن قوته أن نخلة باسقة غاصت في باطن الأرض بفعل قنبلة هائلة . وظل أعمامه منفيين بإيران مدة عشر سنوات . وظل سالم الخيُّون ، بعد عودته من المنفى ، ممنوعاً من الوصول إلى دياره بل إلى المنطقة الجنوبية عامة . وورد خبر عودته ، بعد انتحار عبد المحسن السعدون مباشرة (١٩٢٩) ، منشوراً في مجلة «لغة العرب» : «أذنت الحكومة للشيخ سالم الخيُّون رئيس عشائر بني أسد بأن يقطن البلد العراقي الذي يختاره ما عدا ألوية العمارة والبصرة والمنتفق (الناصرية) فنتمنى لحضرة الشيخ طيب الإقامة في البلدة التي يختارها»[٢٧٦] . بعدها عاش ببعقوبة ، حيث مُنح أرضاً زراعية هناك ، حتى وفاته (١٩٥٤) .

---

(٢٧٥) الحسني ، تاريخ الوزارات ١ ص٢٦٦ .

(٢٧٦) مجلة لغة العرب ، يناير (كانون الثاني) ١٩٣٠ .

تُذكّر الحادثة التي افتعلها عبد المحسن السعدون بمجازر عثمانية تعرضت لها المنطقة ذاتها . وأن منارة الجماجم ، التي شيدها القائد العثماني من رؤوس القتلى ، لا زالت حية في الذاكرة . وقيل إن خيُّون جد الشيخ سالم قتله آل السعدون ، ورموه سراً في مياه الفرات بالناصرية ، وكان ضيفاً لديهم ، لكنها أخلاق البداوة! وورد في أخبار السنة (١٦٦٨ميلادية) «في دار بني أسد أصطدم الجيش (العثماني) وثلة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من أتباع حسين (باشا من أسرة أفراسياب) المدججين بالسلاح ، فكسرت شرَّ كسرة ، وكابدت خسائر فادحة بعد قتال دام عدة ساعات ، فتفرق رجال القبائل بمشاحيفهم بين آجام البردي العالية في الهور ، وشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديداً لعزم رجاله»[٢٧٧] .

هناك تاريخ طويل يتحدث عن علاقة الشيخ سالم الخيُّون الشيعي بوجيه البصرة طالب النقيب السُنّي . واسناده للأخير في محاولة منافسة فيصل الأول في الجلوس على عرش العراق ، بعد انسحاب الشيخ خزعل لصالح فيصل . وقد احتج خزعل بالغالبية الشيعية كي يكون شيعياً ملكاً . جاء في رسالته إلى الحاكم البريطاني العام بيرسي كوكس ، المؤرخة في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٨ : «يظهر أن الحكومة البريطانية تبحث عن أمير للعراق ، وليس هناك مرشح لائق في متناول اليد . إن تسعة أعشار العراق هم شيعة ، والأمير يجب أن يكون شيعياً أيضاً ، وأني مواطن عراقي ، وقد وبدت وترعرعت على شط العرب . . .»[٢٧٨] . بطبيعة الحال هناك مبالغة في عدد الشيعة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الموصل والمنطقة الكردية ، ويمكن أن يكون صحيحاً بجنوبي العراق فقط .

ويختصر الشيخ محمد رضا الشبيبي الميل الطائفي العثماني وأثره في العهد الملكي الحديث بالأبيات التالية :

قصيتمُ لحفاظ الملك طائفة
لغيرها الملك والأجناد والدول
قومٌ من العرب وخز النخل حظهم
وحظ قوم سوانا الأريُ والعسلُ
عند المغانم تنسونا ويفدحنا
من المغارم ثقل ليس يحتمل[٢٧٩]

ظلت الطائفية بالعراق «الظاهرة الوحيدة المستقرة ، وفي بلد يفتقر إلى التقاليد السياسية

---

(٢٧٧) لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص١٤٦ .
(٢٧٨) الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٦ ص٧٧ .
(٢٧٩) الأمين ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ١ص٢٨ .

والدستورية كانت الطائفية تقليده الثابت، ودستوره الدائم، وقد أخذت معنى من القداسة لم يأخذه الدستور»[٢٨٠].

ساهم الشيعة في الحكم سنوات العهد الملكي (١٩٢١ - ١٩٥٨) بأربعة رؤساء وزارات من الثلاث والعشرين وزارة وهم: صالح جبر، ومحمد الصدر، وفاضل الجمالي، وعبد الوهاب مرجان[٢٨١]. ولا يمكن أن يكون منهم وزيراً في الوزارات الفعالة مثل الداخلية والدفاع والخارجية، أو حتى المالية. ولا ندري، إلى أي مدى كانت صحيحة معلومة عبد الرزاق الحسني التي كتبها في مقاله السالف الذكر (١٩٢٥) منها: «تجد في العراق ١٤ لواء (محافظة) ولكل لواء متصرف (محافظ) ولا يوجد بين جميع هؤلاء المتصرفين متصرف جعفري. في العراق عدة أقضية ولكل قضاء قائم مقام وليس فيهم رجل جعفري البتة. وكذلك مدراء النواحي فلا أعلم بوجود جعفري بينهم. وهكذا توجد وظائف مركزية كثيرة وليست إحداهن مودعة إلى جعفري، وفوق ذلك كله في الأهمية أمر القضاة والحكام فإنا لا نجد في جميع أنحاء العراق سوى حاكم واحد وقد عين أخيراً»[٢٨٢].

غير أن علماء الشيعة يتحملون جزءاً من هذا التمييز الحكومي في الوظائف والمعاملة، عندما أصروا على مقاطعة تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وذلك بمقاطعتهم الانتخابات التي عقدت لانتخاب المجلس التأسيس في ١٩٢٢ ثم أعيدت ١٩٢٣. صدرت فتاوى من النجف وكربلاء والكاظمية تكفر وتحذر كل مَنْ يقدم على الانتخاب، أو يقبل الترشيح أو يتعامل مع الدولة، وشرطوا ذلك بانتهاء الانتداب البريطاني. وجاء في فتوى أبو الحسن الأصفهاني: «إلى أخواننا المسلمين أن هذا الانتخاب يميت الأمة، فمن انتخب بعدما علم بحرمة الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته، ولا يجوز رد السلام عليه، ولا يدخل حمام المسلمين. هذا ما أدى إليه رأينا والله العالم بالصواب»[٢٨٣]. وجاء في فتوى محمد مهدي الخالصي قبل نفيه وولده إلى عدن يوم كانت محمية بريطانية: «إن المداخلة بالانتخابات وكل ما يتبنى على هذا الأساس المضر بمستقل العراق بل بجميع شؤونه محرمة شرعاً باجماع المسلمين، ونحكم بخروجه عن ربقة المسلمين. ومن الله التوفيق، وهو حسبنا وهو نعم الوكيل»[٢٨٤]. أما اليوم فانعكست الآية، حيث باركت المرجعية الشيعية الانتخابات في الثلاثين من كانون الثاني ٢٠٠٥ بينما قاطعتها الجهات السُنِّية ممثلة بهيئة علماء المسلمين.

---

(٢٨٠) العلوي، الشيعة والدولة القومية في العراق، ص٩ - ١٠.

(٢٨١) بطاطو، العراق ١ص ٢١٢ - ٢١٧.

(٢٨٢) الأكثرية الشيعية في العراق، مجلة العرفان، حزيران ١٩٢٥.

(٢٨٣) الوردي، لمحات اجتماعية ٦ ص٢٠٣ عن وثائق البلاط الملكي.

(٢٨٤) المصر نفسه.

لم يشعر الشيعي ، إلى حد ما ، خارج دوائر الدولة بهذا التمايز الطائفي أو المذهبي ، فلم تحدث مواجهات بين طائفتي الإسلام ، مثلما كانت تحدث في العصر العباسي الوسيط والمتأخر بين محلات الكرخ الشيعية ومحلات الرصافة السُنيَّة . وربما تحولت تلك المواجهات الدامية إلى فكاهات متبادلة يختلقها أبناء الطائفتين ضد بعضهم البعض ، وبها يصبح التعايش أكثر سهولة وشفافية . فعلى الرغم من أن الإمامين الراقدين على ضفتي دجلة ، الكرخ والرصافة موسى الكاظم وأبو حنيفة كانا في صف معارض واحد ، وقتلا بأيدي حاكم واحد ، هو أبو جعفر المنصور وحفيده الرشيد . إلا أن الأتباع الغرباء اختلقوا التباعد بين إماميهما ، فرفع الأتراك راية أبي حنيفة ، ولوح الصفويون براية موسى بن جعفر . والإمامان لا يقران لهما بذاكا ، فكان أبو حنيفة قريباً للشيعة بقدر المسافة التي كان بها جعفر الصادق قريباً من السُنَّة ، لكن للأتباع مناهج وسبلاً . فالسلطان الذي يتشيع يوكد تشيعه في حذف اسم الشيخين ، عمر وأبي بكر ، من الخطبة الرسمية وينقش أسماء الأئمة على النقود[٢٨٥] . ويعلن في الأذان عبارة حيٍّ على خير العمل . والسلطان الذي يتسنن يلغي العبارة ، ويعلن بدلاً منها عبارة «الصلاة خير من النوم» ويرفع اسم الشيخين ويمنع زيارة كربلاء . ومع ذلك سيظل الإمامان متجاورين بعيدين عن أدران الطائفية . فشعار «لا شيعة بعد اليوم» الذي رفع في (١٩٩١) حرك جسد أبي حنيفة وهز قبته ، وهو الذي قُتل حتى لا يُرفع شعار مثل هذا ، ليس ضد الشيعة حسب ، وإنما ضد كل إنسان ، فهو إمام التسامح الذي لا يكفر أحدا ، ولا صلة له بطائفية وتشدد اليوم .

الوادي المقدس

يشير وجود أضرحة أئمة وقادة للشيعة بالعراق إلى عمق الأثر الشيعي في هذه البلاد . وإن أهل السُنَّة كذلك يقدرون البيت العلوي ، عبر هذه الأضرحة ، تقديراً روحياً بطريقتهم . وأن الأضرحة عموماً ، سُنِّية وشيعية ، تعرضت إلى دورات من العنف العثماني والصفوي ، فانتصار كل منهما يتوج بهدم أضرحة الطرف الآخر . غير أن زيارة أضرحة العلويين بمواسم شبيهة بموسم الحج لا يعني غير الشيعة . وبالمقابل لم نسمع بمواسم زيارة يقوم بها السُنِّيون لأضرحة الإمام أبي حنفية ، أو الشيخ عبد القادر الكيلاني ، أو معروف الكرخي وغيرها . وإنما تجري الزيارة في أي وقت كان ، وأقل من أن تكون جماعية . بمعنى أن زيارتها لم تتحقق باحتفالية مثل زيارة المراقد ، أو الأضرحة الشيعية . ولعل هذا التظاهر ، الذي يضاهي موسم الحج كما أسلفنا ، بدأ لإثبات الوجود ، وشكل من أشكال مقاومة القهر المتراكم عبر القرون ،

---

(٢٨٥) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، حوادث ٧٠٧هـ .

فظهرت حكايات عديدة لمقاومة منع زوار الحسين من أداء مناسك الزيارة في عهد جعفر المتوكل وما بعده . ويُذكر أن الزائرين كانوا يتفقون على التضحية بزائر أو أكثر مقابل السماح للآخرين . ومثلما كان النساك يحجون إلى الكعبة مشياً على الأقدام تزتي مواكب شيعية من أقاصي العراق وإيران والهند مشياً على الأقدام في مواسم الزيارة .

كان أول إمام ضم تراب العراق جسده هو الإمام علي بن أبي طالب ، ونجد عند إخباريي الشيعة روايات مهولة حوله . وذكر أنه ظل مخفياً لوقت قد لا يتأخر الأمويون فيه عن نبشه إن عرفوا له طريقاً . فشتم صاحبه على المنابر طوال نصف قرن يشير إلى سهولة إزالة قبره من الوجود من دون اعتراض يخشاه الأمويون . وقيل إن علياً أوصى بإخفاء قبره تحسباً من تمادي أعدائه . جاء في الرواية : «أوصى أن يخفى قبره لعلمه أن الأمر يصير إلى بني أمية ، فلم يأمن أن يمثلوا بقبره»[٢٨٦] .

وأشارت مصادر تاريخية إلى شكوك حول مكان القبر ، بين أن يكون بالكوفة ، حيث قُتل ، أو بالمدينة حيث قبر فاطمة الزهراء بالبقيع ، وبين أنه دفن ببلاد الطائيين ، وهو في طريقه على بعير إلى المدينة . وانتهى الخطيب البغدادي إلى القول : «حكى لنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ (غير موجودة في كتابه حلية الأولياء) قال : سمعت أبا بكر الطلحي يذكر أن أبا جعفر الحضرمي كان ينكر أن يكون القبر المزور بظاهر الكوفة قبر عفى (هكذا وردت والمقصود علي) بن أبي طالب . وكان يقول : لو علمت الرافضة قبر مَنْ هذا لرجمته بالحجارة . هذا قبر المغيرة بن شعبة . وقال مطين (هو أبو جعفر الحضرمي نفسه) : لو كان هذا قبر علي بن أبي طالب لجعلت منزلي ومقيلي عنده أبداً»[٢٨٧] .

هذه الرواية وغيرها جاءت من لدن مؤرخين عاشوا الخلاف الحاد بين السُنّة والشيعة في العهدين البويهي الديلمي والسلجوقي التركي . وأن الخطيب البغدادي كتب تاريخه في ظل العهد الأخير ، وهو على مذهب السلاجقة شافعي . ذلك العهد الذي تعمقت فيه الخلافات الطائفية فانتقل نشاط الشيعة العلمي والفكري إلى النجف ، بعد أن أُحرقت مكتبة شيخ الطائفة الطوسي ببغداد . وأن عضد الدولة البويهي أول حاكم طلب دفنه بجوار القبر ، بعد عناية كبيرة بالمكان . لهذا لا يستبعد أن تكون رواية التشكيك بمكان قبر الإمام علي موجهة إلى العهد البويهي والنشاط الشيعي ، الذي أخذ ينمو حول القبر ، ليصبح مركزاً شيعياً مهماً ليومنا هذا . والشكوك حول مكان القبر العلوي ، إن أصاب أصحابها أو أخطأوا ، لاتقدم ولاتأخر في قناعة الناس . لأن النجف أصبحت ومنذ قرون مكاناً يضم جسده وروحه ،

---

(٢٨٦) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ٢ ص ٦٨ ، محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ١ ص ٣٧ .

(٢٨٧) البغدادي ، تاريخ بغداد ١ ص ١٣٨ .

وحضور الضريح العميق في الذاكرة الشيعية لا تقبل تصحيح رواية أو أثر .

جاءت أخبار الشيعة المهولة رداً على ما قيل حول مكان القبر خارج النجف . ورد في الروايات أن القبر لم يكن معلوماً للجميع ، كما قدمنا ، حتى اكتشافه من قبل هارون الرشيد بالمصادفة أثناء رحلة من رحلات صيد الغزلان والظباء . وكان أولاد وأحفاد صاحب القبر يزورونه سراً طوال العهد الأموي . وبعد الرشيد أظهره البويهيون[٢٨٨] . ثم انتقل إلى جواره الشيخ أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هجرية) ، عقبَ حرق مكتبته ومدرسته ببغداد في أول عهد السلاجقة ، بعدها أصبح مقاماً ، وبه وبالحوزة العلمية أصبحت النجف «قلب العالم»[٢٨٩] الشيعي . ولعظمة مكان المقام نُسب إلى صاحبه أنه قال : «أول بقعة عُبد الله عليها ظهر الكوفة (النجف) ، لما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا»[٢٩٠] . ونُسب إلى جعفر الصادق القول : «الغري (النجف) قطعة من طور سيناء ، وأنه الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً»[٢٩١] . و«أن الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار ، فلم يقبلها إلا أهل الكوفة . وإن بجانبها قبراً لا يأتيه مكروب فيصلي أربع ركعات إلا أرجعه الله مسروراً بقضاء حاجته»[٢٩٢] .

وجاء في الأدب الشيعي ما هو أكثر غرابة ، ونسب إلى جعفر الصادق أيضاً : «إذا دخل المهدي ، عجل فرجه ، الكوفة قال الناس : يا ابن رسول الله : إن الصلاة خلفك تضاهي الصلاة خلف رسول الله ، وهذا المسجد لا يسعنا ، فيخرج إلى الغري فيخط مسجداً له ألف باب ، يسع الناس ، ويبعث فيجري خلف قبر الحسين نهراً يجري إلى الغري ، حتى يجري إلى النجف ، ويعمل على فوهة النهر قناطر وأرحاء في السبيل»[٢٩٣] . ولعل النثر الأخير ، الذي يرقى إلى لغة الشعر وخيالها الجامح ، عبر عن حاجة النجف وشوق الصحراء إلى الماء . لذا تنافس العثمانيون والصفويون[٢٩٤] على كسب قلوب النجفيين ، أو الشيعة عموماً ، بشق قنوات الماء أو إحياء ما طمر منها بالنجف وكربلاء .

شجعت أحاديث وأقوال شيعية مأثورة الدفن في مقبرة وادي السلام بالنجف ، فقد نُقل عن أحد الأئمة قوله : «ما من مؤمن يموت في شرق الأرض وغربها إلا قيل لروحه إلحقي

---

(٢٨٨) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ٢ ص١٧٧ .

(٢٨٩) نقاش ، شيعة العراق ، ص٣٩ .

(٢٩٠) محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ١ ص١٢ .

(٢٩١) المصدر نفسه .

(٢٩٢) المصدر نفسه .

(٢٩٣) المصدر نفسه ١ ص١٢ - ١٣ .

(٢٩٤) نقاش ، شيعة العراق ، ص٣٩ - ٤٠ .

بوادي السلام»[٢٩٥] . والسلام ، كما هو معروف ، اسم من أسماء الله الحسنى ، واسم من زسماء الجنة . والمقصد واضح عندما يرتبط هذا الاسم بمقبرة ، فهناك لا يوجد منكر ونكير! وفي تربة النجف يعفى المسلم الشيعي من عذاب القبر الرهيب ، وهو أول مخاوف الموت عند المؤمنين . لذا نُسب إلى الإمام علي القول : «اللهم أجعل قبري بها ، ومن خواص تربته إسقاط عذاب القبر ، وترك محاسبة منكر ونكير»[٢٩٦] . لم يكن التشجيع على الدفن في تربة النجف بعيداً عن محاولة جعلها مركزاً يجتمع فيه الأحياء والأموات ، فمتعلقات الموت والدفن كثيرة ، ومنها المتعلق الاقتصادي والروحي . فعن طريق مقبرة وادي السلام تحضر النجف في كل قرية من قرى الشيعة عبر تذكر الموتى ومتعهدي الدفن من النجفيين . عموماً ، أن النجف تحيا بثلاثيها : جامعتها الفقهية ، وبضريحها العلوي ، ومقبرتها مقبرة وادي السلام .

كان أول المدفونين من السلاطين والوزراء عند الضريح العلوي ، الذي يُعرف بالمشهد ، عضد الدولة البويهي (ت٣٧٣هـ) ، قيل : «دفن عند رجلي الإمام ، وكتب على قبره بوصية منه : هذا قبر عضد الدولة وتاج الملة أبي الشجاع ابن ركن الدولة ، أحب مجاورة هذا الإمام المعصوم لطمعه في الخلاص يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها»[٢٩٧] . ودفن في وادي السلام ، طمعاً بالجنة أيضاً ، شريف الدولة ابن عضد الدولة (ت٣٧٩هـ) ، وبهاء الدولة ابن عضد الدولة (ت٤٠٣هـ) . وكان الحمدانيون الشيعة «ينقلون موتاهم من الشام ، وحلب ، وديار بكر ، والموصل ، وفارس ، وعراق العجم إلى النجف»[٢٩٨] . وكذا الحال بالنسبة إلى الإيلخانيين ، من الذين تشيعوا ، وأبرزهم السلطان محمد خدابنده المعروف بالجايتو، تولى السلطة العام (٧٠٣هـ) بعد وفاة محمود غازان . ولا ندري إن كان الجايتو أول مَنْ تبنى المذهب الشيعي من التتار ، فمن إجراءاته الشيعية «حذف ذكر الشيخين (أبو بكر وعمر) من الخطبة ، ونقش أسماء الأئمة الاثني عشر على نقوده»[٢٩٩] . وضد دعوة السلطان خدابنده أظهر أهل السُنّة ووعلى الخصوص من محلة باب الأزج (محلة باب الشيخ اليوم) شعارهم ، وقيل فيه :

رأيت لخر بندا اللعين دراهما ... يشابهها في خفة الوزن عقله
عليها اسم خير المرسلين وصحبه ... لقد رابني هذا التسنن كله[٣٠٠]

---

(٢٩٥) محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ١ ص ١٤ .

(٢٩٦) المصدر نفسه ١ ص١٥ .

(٢٩٧) المصدر نفسه ١ ص ٢٣٧ .

(٢٩٨) المصدر نفسه ١ ص ٢٤٢ ، عن كاشف الغطاء ، سمير الحاضر وأنيس المسافر .

(٢٩٩) العزاوي ، العراق بين احتلالين ١ ص٤٠٧ .

(٣٠٠) المصدر نفسه ١ ص ٤٠٩ ، عن الدرر الكامنة ٣ ص ٣٧٨ .

كذلك قصد ملوك الصفويين النجف ودفنوا في تربتها موتاهم لأزمنة طويلة . وإذا لم تكن مقبرة وادي السلام بالنجف أكبر مقبرة على وجه الأرض فهي واحدة من كبرياتها . ذلك لكثرة ما تستقطبه من الموتى على مدار الساعة . فتجد المدن الشيعية ، وخاصة بالعراق ، على خلاف المدن السُنَّية أو القرى المسيحية والأيزيدية ، خالية تماماً من أثر لمقبرة لتكون ملجأً روحياً يتأمل الناس عبره ذكرياتهم مع أحبتهم ، ماعدا بعض قبور الأطفال المتناثرة ، والتي لا يبقى أثرها طويلاً .

ارتبط اقتصاد النجف بما يرد إلى مقبرتها . فالدفانون وهم في مكاتب خاصة ، أو يتخذون من المقاهي محلات لاستقبال المبشرين بقدوم الجنازة ، متفرغين للتبشير بقدوم الجنائز ، يترقبون الطرق الخارجية عند مدخل المدينة ، فإن لحوا جنازة ، تعرفوا على أهلها ، وأسرعوا إلى متعهدي الدفن لأخذ البشارة ، ويُعرف هؤلاء بين النجفيين بالمبشرجية (المُبشرين) . لكن توافد قاطرات الجنائز إلى النجف على مدار ساعات النهار والليل حولت خبر الموت إلى بشارة . ولم يحجب مشهد الموت اليومي أريحية المجالسة والغزل والطرائف عن النجفيين ، وتفننهم في استغفال زائري المرقد العلوي ، وقبور الموتى في مقبرة وادي السلام .

حاول كُتاب ومؤرخون اختصار الشيعة بما جاء به الاخباريون أو نقلوه بمحبة مغالية بعلي وأهل بيته ، مع أنه كان رداً على غلواء الأمويين في العداء لهذا البيت . ولم يمارس الشيعة وحدهم هذه المغالاة ، بل تخيل أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى زعماءهم الروحانيين بمخيلة خصبة خارجة هن المعقول . ومَنْ يطلع على كتب المناقب يجد فيها الكثير . فضريح الإمام الشافعي بالقاهرة يستلم رسائل المحبين والمحتاجين ، وهي مرسلة إلى شخص الشافعي . جمعها سيد عويس في كتاب «رسائل إلى الإمام الشافعي» . منها مناجاة المحبة ، ومنها مناجاة الحاجة أو شكوى الحال ، ودفع مظلمة أو تحقيق أمنية وغيرها من الطلبات . وتستفتح عادة بعبارة «بعد تقبيل يديك الكريمة» ، و«أني قدمت هذه الشكوى لصاحب هذا المقام ، وسلمت أمري لصاحب هذا المقام»[٣٠١] . ولعل توسل الشيعة بالأضرحة لا تتعدى توسلات الشافعيين بضريح إمامهم .

وقد يفوق ما شاع للشيخ عبد القادر الكيلاني ، الذي تنسب إليه الطريقة الصوفية المعروفة ، من خوارق ومعجزات ، ما شاع بين الشيعة حول خوارق العباس بن علي ، أو السيد محمد قريباً من سامراء ، وهو المعروف بين العوام بسبع الدجيل . فمن خوارق الشيخ عبد القادر ما سجله الرحالة نيبور من داخل مرقده ببغداد . قال : «بينما كنت أتطلع إلى داخل الجامع ، وأتفرج على الناس القائمين والقاعدين في صحنه ، أتاني أحد الدراويش فسلم عليَّ

---

(٣٠١) عويس ، رسائل إلى الإمام الشافعي ، ص ٩٩ .

بكل لطف وأدب ، ودعاني للدخول في غرفته . وبعد أن جلسنا وتحدثنا قص عليَّ القصة التالية عن خوارق أعمال شيخه العظيم . فقال : عندما كان الشيخ عبد القادر جالساً على كرسي الوعظ يتكلم إلى الجموع الغفيرة وبعظهم سكت فجأة ومسك بفرد قبقابه ورماه على الحائط .

اختفى القبقاب على الفور ، وبعد بضعة دقائق أخذ القبقاب الآخر (الفردة الثانية/ المترجم) ورماه على الحائط أيضاً فاختفى القبقاب الثاني على الفور أيضاً . فلم يفهم الحاضرون مغزى هذا العمل كما لم يستطع أحد إدراك سر هذه العملية وما حل بالقبقاب ، وبقوا مذهولين واجمين»[302] . وكان سبب اختفاء القبقاب هو إستنجاد تجار تعرضت قافلتهم للسرقة بالشيخ ، وهم في طريقهم إلى بغداد . «فاستجاب لهم ورماهم بقبقابه الذي طار أمام أعين طلابه ومريديه باتجاه الحائط فسقط على رأس أحد زعماء العصابة . . .»[303] .

غير أن الخصوم ظلوا يلاحقون الشيعة ببدعة التبرك بالأضرحة ، وقراءة رقاع المهدي المنتظر ، وما قيل في ولادته وفي غيبته وظهوره ، وبما أحاط الناس أضرحة الأئمة بالحكايات التي هي في معزل عن أصول المذهب . لكنهم ، أي الخصوم ، ينسون أن للشيعة أفكاراً كلامية وفلسفية ، وحول الضريح العلوي بالنجف تعقد حلقات الكلام والفلسفة . وأن متكلمي الشيعة سبقوا متكلمي المذاهب الأخرى ، ومنها المعتزلة ، في مقالة الجزء الذي لا نهاية لتجزئته ، ومبكراً ظهر في فكرهم مقالة «لا جبر ولا تفويض» . وكان لهم موقفهم المعتدل من مقالة خلق القرآن ، دون تعصب وإصرار ، وإنما نشأ العديد من علمائهم على الحوار والجدل .

بوادر الديمقراطية

نشأت داخل التشيع تيارات عديدة ، منها في العصر الحديث ، فقد حصل الخلاف مبكراً بين الإخباريين والأصوليين . ثم بين الشيخيين أو الكشفيين وسائر الشيعة . ولا يضير هذا المذهب أن خرج من تحت عباءته مَنْ عرفوا بالبابية والبهائية . فهؤلاء لهم فكرهم واجتهادهم أيضاً . ومن وسط الشيعة ظهرت الحركة الديمقراطية الدستورية (١٩٠٦) في الإسلام ، التي عرفت بالمشروطية مقابل ما عُرف بالمستبدة ، التي شرح مضامين مقالتها الشيخ محمد حسين النائيني (ت ١٩٣٦هـ) في أطروحته «تنبيه الأمة وتنزيه الملة»[304] .

(٣٠٢) نيبور ، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٣٤ .

(٣٠٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٣٠٤) للتوسع في مقالة النائيني راجع مقالة جعفر الخليلي في مجلة «العرفان» المجلد ٤٣ ، ١٩٥٦ . ونص

ووقتذاك تحولت النجف والكاظمية ببغداد ساحة للخلاف بين المشروطين والمستبدين، فعبر عن هذه الأجواء أحد الشعراء بقوله:

تغيرت الدنيا وأصبح شرها
يروح بإفراط ويغدو بتفريط
إلى أين يمي من يروم سلامة
وما الناس إلا مستبد ومشروطي[305]

قال علي الوردي: إن عدوى الخلاف بين الفريقين تحولت إلى ملاعب الصبيان. ونقل عن عبد الحميد زاهد الكتبي: إنه «كان في تلك الأيام صبياً يلعب مع أقرانه في الأزقة. فكان الصبيان عند اللعب يقسمون أنفسهم إلى فريقين: مستبد ومشروطة. ثم تشب المعارك بينهم تقليداً لما يقع بين الكبار»[306]. ما هي إلا سنتان على إعلان ثورة المشروطة، وتحقيق الدستور بإيران حتى أعلن ببغداد الدستور العثماني تموز ١٩٠٨. وكتبت عبارة بالتركية على واجهة سراي الحكومة تقول: «حريت عدالت مساوات أخوت»[307].

زامن استبشار الشيعة، من مقلدي أصحاب المشروطية، اجتماع وجهاء أهل السُّنَّة العراقيين والذين ألفوا جمعية مناهضة للدستور باسم «المشور» دفاعاً عن الشريعة ومقاومة الأفكار اللادينية[308]، وضد جمعية الاتحاد والترقي التي حققت الدستور. وكان في مقدمة المعترضين على الديمقراطية أول رئيس وزراء عراقي، في ما بعد، عبد الرحمن النقيب الكيلاني. تظاهر هؤلاء بالدفاع عن الشريعة المحمدية ضد الدستور مع أن شيخ الإسلام، وهو فقيه الدولة الرسمي، حث السلطان عبد الحميد أثناء انعقاد مجلس الدولة على تحقيق

= الرسالة في مجلة «الموسم» العدد الخامس ١٩٩٠ وتوفيق السيف، ضد الاستبداد قراءة في «رسالة تنبيه الأمة وتنزيه الملة» ص٢١٥ وما بعدها. وحول ظروف الخلاف بين المشروطة والمستبدة وكتاب النائيني راجع علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٣ص ١٠٣ وما بعدها. وإسحاق نقاش في «شيعة العراق»، ص ٩٩ وما بعدها. وفالح عبد الجبار في مقال النظرية السياسية للتيارات الشيعية الراديكالية في القرن العشرين، مجلة «الثقافة الجديدة» العراقية، العدد ٢٩٦.

(٣٠٥) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٣ ص١١٦، عن محسن الأمين، أعيان الشيعة ٧ ص٤٦١.

(٣٠٦) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٣٠٧) العلاف، بغداد القديمة، ص ١٥٨، وما ذكره علي الوردي في عبارته «توجهوا أهل بغداد في يوم ٢٤ نيسان ١٩٠٨» (لمحات اجتماعية ٣ص١٦١) كان خطأً فتاريخ إعلان الدستور هو ٢٣ تموز، كما ورد في الكتاب نفسه، ص١٣١.

(٣٠٨) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٣ ص ١٦٤.

مطلب إعادة الدستور. قال: «أجبهم إلى رغائبهم وأمنح الدستور فإنه مطابق للشرع الشريف»[٣٠٩] . وبهجة بإعلان الدستور ألقى الشاعر معروف الرصافي أمام سراي الحكومة بالقشلة قصيدة منها الأبيات الآتية:

إذا انقضى مارت فأكسر الكوزا
وأحفل بتموز إن أدركت تموزا
شهراً به الناس قد اضحت محررة
من رق مَنْ كان يقفو إثر جنكيزا
سل أهل باريز عن تموز تلق لهم
يوماً به كان مشهوداً لباريزا

ذكر الرصافي في قصيدته التعاطف بين مشروطية إيران ودستور تركيا، وإنهما تحققا ضد رغبة السلطان والشاه:

راعت سلانيك دار الملك فانتبهت
من ذاك طهران تخشى أمر تبريزا
حتى غدت وهي في تموز ناكسة
وبات شاه رماه الخلع مجنونا
فالشاه في شهر تموز هوى وكذا
عبد الحميد هوى في شهر تموزا[٣١٠]

كانت أطروحة «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» شاهداً قوياً على تطور الفكر الشيعي، فمؤلفها من الحوزة الدينية، تعلم بالنجف وسامراء، وكان مؤيدوها من كبار الزعامة الدينية. منهم محمد كاظم الخراساني (ت١٩١١)، ورأيه فيها: «أجل من أن تمجد، وحري أن تكون دراستها وتدريسها سبيلاً إلى إدراك أُصول المشروطية مستمدة من الشريعة الحقة»[٣١١] . وقال فيها الشيخ عبد الله المازندراني: «كافية لتعزيز اعتقاد المسلمين وتصديقهم وجدانياً»[٣١٢] .

ومن النقاط المهمة التي أثارتها أطروحة النائيني أنها رفعت الحرج من التأثر بغير المسلم، أو ما عُرف بالكافر في موضوعة السياسة أو الاقتصاد. ورفع الحرج من قبول فكرة

---

(٣٠٩) المصدر نفسه، ص١٣١، عن البستاني، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده.

(٣١٠) العلاف، بغداد القديمة، ص١٥٨ - ١٥٩. وسلانيك مدينة قدم منها الضباط الذين فرضوا على عبد الحميد إعادة الدستور.

(٣١١) سيف، ضد الاستبداد، ملحق، ص٢٣٧.

(٣١٢) المصدر نفسه.

النقص في أي فكر ودين . وأن لا دين ولا فكر يمثل لوحده الحل الأمثل للبشر . وهذا ما أشار إليه آية الله أبو الحسن الطالقاني (ت ١٩٧٩) في مقدمته لإحدى طبعات الأطروحة المتأخرة . قال : «لم تتبلور فكرة الحكم الدستوري (المشروطة) في قطر إسلامي ، بل وفدت علينا من الخارج ، فوجدها علماء المسلمين مفيدة فتبنوها وتقدموا الصفوف الداعية إلى إقامتها . وأصدر بعضهم فتوى بوجوب تأييدها . كما تقدم آخرون صفوف الجهاد من أجلها»[٣١٣] .

وبما أن الشيخ النائيني يكتب للعلماء ويكتب للعوام أيضاً لذا عمد أن يرفد كتابه بشيء من المؤثرات الإيجابية على نفوس الناس ، من الذين لم يدركوا فضائل الديمقراطية ومساوئ الاستبداد بسهولة ، فذهب عن طريق المنامات إلى تأكيد موافقة الإمام المهدي المنتظر على أطروحة المشروطة . وبالتالي أن صاحب الزمان مع الديمقراطية وضد الدكتاتورية . والمفروض أن يكون كذلك وإلا ما جدوى انتظاره وترقبه كل هذه القرون! كتب عما رأى في المنام أن شخصاً التقى المهدي وأبلغه بالقول : «إن كان لفظ المشروطية جديداً فالمطلب قديم»[٣١٤] . حث آية الله الطالقاني ، الذي عرفته الأوساط الثورية بإيران بأبي ذر الثورة ، وكان الرجل الثاني فيها بعد الخميني ، على دراسة أطروحة النائيني واعتمادها في الحياة السياسية . ورد ذلك في قرظه لها بالقول : «يبدو لنا لو أُخذ بعين الاعتبار مفادها ، وعمل بموجبها لأُتيحت للناس فرصة الخروج من الطريق المسدود . . . ولو طبقت آراء المؤلف عليه الرحمة لبقي الجمهور كما كان في أوائل النهضة ، متوقد الحماس ومستعداً لإعانة الحكومة في حل مشكلاتها»[٣١٥] . ولم يكتف الطالقاني بالحث على دراسة الأطروحة بل ذهب إلى أكثر من ذلك داعياً إلى تحقيقها كاملة[٣١٦] .

وضع النائيني في الكتاب المذكور مقدمات للديمقراطية بشروط إسلامية ، منطلقاً من تحرير الإنسان من الاستبداد ، يوم كانت أوروبا (١٩٠٩) تتجه نحو تحقيق أنظمة ديمقراطية مشروطة بدساتير . ولعل قائلاً يقول : إن نظرية النائيني موجهة إلى الشعب الإيراني ومتأثرة بحدث إيراني هو ثورة المشروطة (١٩٠٦) بطهران ، فلماذا العراق؟ والجواب على ذلك : كانت الأطروحة معالجة عامة للاستبداد الشرقي ، قد لا تخص العراق وإيران حسب . حرك مؤلفها الوضع الإيراني الحرج ساعتئذ ، منطلقاً من صميم الفكر الشيعي وليبرالية النجف العلمية ،

---

(٣١٣) المصدر نفسه ، ص٢٢٠ ، مقدمة الطالقاني لتنبيه الأمة وتنزيه الملة .

(٣١٤) المصدر نفسه ، نص تنبيه الأمة وتنزيه الملة ، ص٢٨٧ ، نص الكتاب المذكور في مجلة الموسم ، العدد الخامس ١٩٩٠ ص ٩٤ .

(٣١٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٣١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

فصاحبها عُرف بالغروي لكثرة مكوثه بالنجف وهي الغري . ولا غرابة أن تصدر طبعة الكتاب الأولى من مطابع النجف (١٩٠٩)[٣١٧] .

غير أن المؤلف تراجع بعض الشيء لا عن أطروحته بل عن ترجمتها إلى العربية ونشرها بين الناس ، أثناء حدة الخلاف والمواجهة بين فريقي الحرية والمستبدة . لأنه أصبح مرجعاً ويخشى من نفور المقلدين وإيذاء العوام . قال الوردي ، وقد أورد الكتاب تحت عنوان «تنبيه الأمة في وجوب المشروطة» : حاول النائيني منع نشر نصه العربي في مجلة «العرفان» العام ١٩٢٩ ، فأوعز «إلى حاشيته بشراء جميع نسخ المجلة التي وردت إلى العراق لكي لا تصل إلى أيدي القراء»[٣١٨] . ولا يوجد لها أثر في مجلدات مجلة «العرفان» . ويفهم من إفتاء الميرزا النائيني ضد انتخابات المجلس التأسيسي بالعراق ، بعد ثلاثة عشر عاماً من دعوته إلى حياة دستورية ، أنه تنصل من رسالته المذكورة . جاء في فتواه : «نعم حكمنا بحرمة الانتخاب وحرمة الدخول فيه على كافة الأمة العراقية . وأن مَنْ دخل في هذا الأمر ، أو ساعد عليه أدنى مساعدة فقد حاد الله ورسوله والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين . أعاذ الله الجميع عن ذلك»[٣١٩] .

المرجعية والدولة

رحبت مرجعية السيد محسن الحكيم الطباطبائي (ت ١٩٧٠) بثورة ١٤ تموز (١٩٥٨) . ورد في رسالة الحكيم إلى قائد الثورة ورئيس مجلس الوزراء عبد الكريم قاسم من عبارات التأييد التالية : «لقد سرني ما يبلغني عنكم من خطوات سديدة جبارة في هذه الآونة القصيرة ، الأمر الذي يستوجب لكم الإكبار والإعظام ، لذلك أبارك لكم فيما أولاكم الله به . وأدعوا لكم بحسن التوفيق لخدمة الدين والإسلام والمحافظة على الصالح العام» (٩ محرم ١٣٧٨هـ)[٣٢٠] . لكن بعد فترة وجيزة اهتزت حالة الاستقرار بين المرجعية الدينية والحكومة . وأخذ السيد الحكيم يوجه رسائله إلى رئيس مجلس السيادة محمد نجيب الربيعي ، ولا يوجهها إلى الحاكم الفعلي عبد الكريم قاسم ، مثلما طُلب منه التوسط في أمر ناظم الطبقجلي وجماعته[٣٢١] .

---

(٣١٧) نقاش ، شيعة العراق ، ص٩٩ .

(٣١٨) الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٣ ص١٢٦ .

(٣١٩) المصدر نفسه ٦ ص٢٠٢ .

(٣٢٠) الصغير ، أساطين المرجعية العليا ، ص ١٣٦ .

(٣٢١) المصدر نفسه ، ص ١٣٩-١٤٠ .

واجهت المرجعية ، ممثلة بشخص السيد محسن الحكيم ، بعد فترة وجيزة ، الثورة بعدم الارتياح بل بالعداء . معلى الرغم من أن العهد الجديد كان إيجابياً جداً مع الطوائف العراقية كافة ، الإسلامية وغير الإسلامية . مع ذلك ذلك أصدر السيد الحكيم فتوى ضد أكبر الأحزاب تأييداً لثورة ١٤ تموز ، الحزب الشيوعي العراقي . وقيل كان وراء هذا الإجراء تطبيق قانون الأحوال الشخصية ١٨٨ لسنة ١٩٥٩[٣٢٢] ، الذي دعمه الحزب الشيوعي والقوى التقدمية الأخرى ، وما يتعلق منه بأمور المرأة ، ومنع تعدد الزوجات ، وصدور قانون الاصلاح الزراعي ، الذي تتضرر منه طبقة ملاكي الأرض وبالتالي ستتضرر حقوق المرجعية من الخمس والزكاة . يُضاف إلى ذلك ممارسات الشيوعيين النجفيين المهينة ضد عدد من علماء الدين ، عبر تصرفات فردية أو عبر حشود وتظاهرات ، كالتي كانت تقام في بداية الثورة ، وتجاوز بعض الفتيات بكربلاء مثلاً قيود الحجاب والظهور سافرة . غير أن السيد محمد بحر العلوم ، وهو شاهد عيان على تلك المرحلة ، قال في إحدى محاضراته بديوان الكوفة بلندن : «إن هذه التجاوزات لم تكن بتوجيه من قيادة الحزب الشيوعي العراقي» . وربما كان الأمر أبعد من هذا ، فهو يتعلق بتعاظم دور الحزب بين العراقيين ، وما لذلك من تأثير على سطوة

---

(٣٢٢) نظرت الحكومة العراقية الملكية في التشتت التشريعي ، وحاولت الاستفادة من قوانين الدول العربية والإسلامية الأخرى لكتابة قانون خاص بالأحوال الشخصية مصدره الأساسي الشريعة . ولهذا الغرض تشكلت (١٩٤٥) لجنة خاصة مهمتها التوفيق بين مذهبي البلاد الرئيسيين ، ولم يصدر المشروع بسبب المعارضة . لذا ظل المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي في المحاكم الشرعية ، مع وجود محاكم خاصة بالشيعة . وظل الحال كما هو عليه حتى إصدار القانون المرقم (١٨٨) في ١٩ ديسمبر ١٩٥٩ ، بعد تعديله من قبل لجنة قانونية خاصة . وبعد إنقلاب شباط ١٩٦٣ تم تعديل بعض مواد القانون .

حاولت مرجعية أية الله السيد محسن الحكيم (ت١٩٧٠) منع صدور هذا القانون . وقد اتهم اليسار العراقي بالتشجيع على صدوره ، مع أنه كُتب في ظل العهد الملكي . كتب السيد الحكيم مناشداً حكومة البعث بعد الإنقلاب على حكم الزعيم عبد الكريم قاسم قائلاً : «إن أول واجبات الحكومة هو إلغاء قانون الأحوال الشخصية ، وإرجاع الأمور إلى العهد الذي كانت عليه سيرة المسلمين منذ أيام الخلافة الإسلامية . وان موقفنا هو نفس الموقف الذي وقفناه منذ صدور القانون حتى يومنا هذا . وعلى أن يتم رفعه . واضيف هنا (الكلام للسيد الحكيم) أن حكومة العهد الملكي المقبور سبق وأن شرعت قانوناً للأحوال الشخصية خالفت فيه الشرع الإسلامي ، وعرضته على مجلس النواب فأرسلت أحد أولادي للإتصال بالنواب ، وإبلاغهم استنكاري لهذا القانون ووجوب إلغائه»(جريدة الجهاد ١٩آذار ١٩٦٣) .

ومخالفة الشرع التي يشجبها السيد الحكيم هي التقليل من هيمنة الفقيه لصالح الدولة ، أو القضاء المدني . وتجدر الإشارة إلى أن نجل السيد الحكيم السيد عبد العزيز الحكيم ألغى هذا القانون في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٣ ، رغم ما طرأ عليه من تعديلات في ١٩٦٣ و ١٩٨٩ ، عند توليه رئاسة مجلس الحكم الشهرية . لكن تصدي النساء وأعضاء في مجلس الحكم لقرار الإلغاء حال دون تثبيت ما أراده عبد العزيز الحكيم ، والقوى الدينية المؤيدة الأخرى .

المرجعية على سواد الناس في القرى والأرياف . وبما يتعلق بضريبة الخمس الدينية وطقوس عاشوراء ، التي قد تحل محلها الندوات والمظاهرات . وما يتعلق باحتفاليات أنصار السلام التي استقطبت الشباب العراقي ، ومنه شباب المدن الدينية ، وأولاد علماء الدين أنفسهم .

تعدى منطوق الفتوى الحدود العراقية إلى إيران . أقول هذا لأن الفتوى لم تخصص الحزب الشيوعي العراقي بالاسم ، بل ذكرت الحزب الشيوعي فقط ، وللحزب الشيوعي الإيراني (تودة) حضوره بإيران . وكان في فترة ما يشكل تهديداً قوياً لسلطة إيران الملكية ، التي كانت على علاقة ممتازة مع مرجعية الحكيم . فيذكر هاشمي رفسنجاني أنه بعد وفاة المرجع الأعلى بقم السيد البروجردي (آذار «مارس» ١٩٦١) «أرسل الشاه برقية تعزية إلى السيد الحكيم ، وكان يهدف من هذه التعزية إلى الاعتراف بمرجعيته رسمياً»[٣٢٣] .

ولا ندري إن كان المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق ، الذي يتزعمه أحد أولاد السيد محسن الحكيم ، آية الله محمد باقر الحكيم ، قد قصد في إعادة نشر الفتوى بإيران مجدداً ، بعد حوالى ثلاثين عاماً على صدورها بالعراق ، المساهمة بمكافحة حزب تودة بعد إنقلاب آية الله الخميني ضده . مع أن الحزب المذكور ساهم مساهمة فعالة في ثورة ١٩٧٩ ، وصدرت له جريدة «مردم» ، وكان على صلة بقادة الثورة ، وفي مقدمتهم آية الله أبو الحسن الطالقاني .

وإن لمسنا نضج الطالقاني الثوري وعلماء الدين الآخرين ، من الذين كتبوا في المشروطية والمستبدة على السواء ، نلمس في رسالة الإمام الخميني الفقهية «تحرير الوسيلة» للإمام الخميني ، وهو قائد الثورة وموجه الدولة الأوحد ، جزئيات لا تتناسب مع سمعته ، وما تبعه الناس عليه من هدف ثوري ومبادئ نقية ، وما شاع عنه من تصوف وزهد . فمن الغرابة بمكان أن يكتب الخميني في فصل النكاح الآتي : «لا يجوز وطء الزوجة قبل إكمال تسع سنين ، دواماً كان النكاح أو منقطعاً . وأما سائر الاستمتاعات كاللمس بشهوة والضم والتفخيذ فلا بأس بها حتى في الرضيعة»[٣٢٤] . و«تحرير الوسيلة» ، كما بينا ، هي رسالة

---

(٣٢٣) رفسنجاني ، حياتي ، ص ٤٨ .

(٣٢٤) الخميني ، تحرير الوسيلة ٢ ص٢٢١ . لم يكن الخميني هو الأول الذي أورد هذا الحكم المثير ، فقد ورد في رسائل فقهية أخرى . فالمعروف أن الخميني قلد غي رسالته المرجع أبو الحسن الأصفهاني (ت١٩٤٧) في «وسيلة النجاة» ، وقد ورد فيها «حتى في الرضيعة» (٣ ص ٤٥) . وقبلها وردت في «العروة الوثقى» للسيد محمد كاظم اليزدي (ت ١٩١٩) ، بعبارة « والتفخيذ جائز في الجميع ولو في الرضيعة» (٢ ص ٤٨٤) ، وتبعه فيها السيد محسن الحكيم في مستمسك العروة الوثقى «ولو في الرضيعة» (١٤ ص ٧٨-٨٠) ، ووردت عند السيد أبي القاسم الخوئي في «المباني في شرح العروة الوثقى» ، تنتهي العبارة «ولو في الرضيعة» أيضاً (٣٢ ص٢٦) . لكن لم نجد لهذا الحكم أثراً قبل

الإمام الفقهية، التي يتبعه عليها المقلدون. فهل فكر الخميني وهو يشرع (تفخيذ الرضيعة) بالقانون الشرعي أو الجزائي، وهل فكر بعقلية المقلد العامي؟ وما يتعلق بمرض الاستمتاع بأجساد الأطفال، رغم أنه صاحب مشروع دولة، وآية من آيات الله العظمى؟

نعود إلى فتوى آية الله الحكيم التي أعادت صحيفة «الشهادة» الناطقة بلسان المجلس الأعلى للثورة الإسلامية نشرها بإيران في وسط الثمانينيات، ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك، وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» (١٧ شعبان ١٣٧٩هـ الموافق ١٢ شباط ١٩٦٠)[٣٢٥]. ولو لم يكن للطرف الإيراني دور ومصلحة في إعادة نشر الفتوى ليس هناك موجب لذلك. فالحزب الشيوعي العراقي لم يعد مؤثراً مثل تأثيره في (١٩٥٩)، وتجمعه بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية معارضة سلطة بغداد.

ويُذكر أن وكلاء للسيد محسن الحكيم، ومنهم وكيله بالبصرة، قد امتنع عن إذاعة فتوى السيد الأولى، القاضية بتحريم الانخراط في صفوف الحزب الشيوعي. وقيل وقف ضدها رجل الدين السنّي عبد الجبار الأعظمي[٣٢٦]، والشيخ الحلي عبد الكريم الماشطة (ت ١٩٦٣) صاحب كتاب «الشيوعية لا تتصادم مع الدين ولا مع القومية العربية» قيل طبع في مدينة الناصرية[٣٢٧]. كان هذا الحال مع فتوى تحريم الحزب فكيف الحال مع فتوى القتل المذكورة؟

وقبل ذلك كان للإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في معاداة الفكر الشيوعي نظرة أخرى، فقد وجد عدم جدوى استخدام القمع ضد الشيوعيين من مقاتل وسجون. وقال في حوار مع السفيرين البريطاني والأمريكي: «إن الشيوعية لا يُجدى في قمعها ومقاومتها بالقوة والعنف والإعدام فضلاً عن السجون والتبعيد والتعقيب الشديد، بل هي كحشائش الأرض والزرع كلما حصدته تنمو جذوره وتزداد مهما تكرر الحصاد. الشيوعية مبدأ ونظام، وإن كان مبدأ فاسداً ونظام معوجاً لا يقضي عليه إلا المبدأ الصحيح والنظام الصالح... لقد انتشرت وتفشت أوكار الشيوعيين في العراق حتى دخلت في بيوت أهل

= السيد اليزدي، والموجود هو تحريم الممارسة أو الوطئ قبل بلوغ الفتاة تسع سنوات. راجع «شرائع الإسلام» للمحقق الحلي مثلاً.

(٣٢٥) جريدة الشهادة، العدد: ٢ كانون الأول ١٩٨٦.

(٣٢٦) قُتل مع رجال الدين الذين أوفدتهم السلطة إلى الملا مصطفى البارزاني صيف ١٩٧٣ بمقره بحاج عمران، في عملية لاغتياله دون أن يكونوا على علم بما جرى.

(٣٢٧) المطبعي، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين ٢ ص ١٤٩.

الدين والزعماء الروحانيين ، بل دخلت في السجون واستهوت المدرسين والتلاميذ»[٣٢٨] .

بطبيعة الحال أن البلاد التي يتحقق فيها العدل الاجتماعي وتسودها مقومات الحضارة والثقافة ، وهو كل ما ينشده الإنسان ، لا يحتاج إلى أحزاب سرية ومؤسسات نضال تدفع الآلاف من الضحايا ، وهو عين ما يراه الحزب الشيوعي نفسه ، فله في دولة القانون والعدالة مجالا آخر في نضاله ، ولم تبق له تلك الصدارة ، فشعاره يقول «وطن حر وشعب سعيد» ، وهذا ما يريده كل إنسان خير للعراق .

حقق حكم عبد الكريم قاسم للمرجعية الدينية ما لا تحققه العهود السابقة ولا اللاحقة ، فقد حصل اعتراف من جامعة بغداد ، التي يرأسها آنذاك العالم الفيزياوي الصابئي المندائي عبد الجبار عبد الله (ت١٩٧٠) القريب على اليسار ، بكلية الفقه بالنجف التي تأسست العام (١٩٥٨) . وقد أُختير عبد الجبار لهذا المنصب ، لأعلميته أولاً ولربما ثانياً للتذكير بدور هذه الطائفة العلمي والفكري الذي ملأ بغداد العباسية . كما تم تعيين خريجي المدارس الفقهية من المعممين مدرسين في المدارس الابتدائية والثانوية ، للغة العربية والدين ، وأخذت الإذاعة العراقية تذيع قصة مقتل الإمام الحسين في العاشر من محرم بصوت القارى الشهير عبد الزهراء الكعبي ، وهي بادرة لها وقع عميق في نفو س الشيعة .

ولم يحصل أن رئيس وزراء ، وحاكماً أعلى ، يتفقد بنفسه المرجع الأعلى في المستشفى ، مثل عبد الكريم قاسم . وقيل أوصى عبد الكريم ، عند قتله ، أن يدفن بمقبرة وادي السلام بالنجف ، بعد أن يصلي عليه السيد محسن الحكيم ، رغم أنه مكان سُنّياً من طرف الأب . وبشهادة حسين حامد قاسم ، ابن أخيه ، وجاره القديم حسن العلوي أن أخته نجية ذهبت إلى النجف وطلبت من الحكيم تنفيذ الوصية ، لكنه لم يفعل شيئاً[٣٢٩] .

فتاوى قتل

لم يبق الوئام بين الحكومة والحزب الشيوعي العراقي قائماً ، ومع ذلك ظلت المرجعية الدينية بزعامة السيد محسن الحكيم تترقب سقوط الثورة . وبعد ٨ شباط (١٩٦٣) حصل الضابط المتشدد قومياً ومذهبياً عبد الغني الراوي على فتاوى قتل بحق الشيوعيين ، واحدة من الشيخ محمد مهدي الخالصي (ت١٩٦٣) بالكاظمية ، والثانية من السيد محسن الحكيم

---

(٣٢٨) رؤوف ، العمل الإسلامي في العراق بين المرجعية والحزبية ، ص ٢٦ . عن محاورة الإمام المصلح كاشف الغطاء مع السفيرين البريطاني والأمريكي في بغداد في مدرسته بالنجف ، ص ١٩ .

(٣٢٩) محاضرة حسن العلوي بمناسبة مرور أربعين سنة على قتل عبد الكريم قاسم ، لندن ٨ شباط ٢٠٠٣ بحضور حسين حامد قاسم .

بالنجف ، والثالثة من جهة سُنِّية رسمية هو مفتي بغداد الشيخ نجم الدين الواعظ . فحسب مذكرات الراوي جاء في نص فتوى الخالصي ، الذي قاتل أتباعه إلى جانب الحرس القومي البعثي صبيحة ٨ شباط ضد عبد الكريم قاسم والشيوعيين : «الشيوعيون مرتدون وحكم المرتد القتل ، وإن تاب ، وإن كان متزوجاً وحكم الزوجة والأولاد ، وإن كان لديه أموال منقولة أو غير منقولة وحصة الإمام»[٣٣٠] .

أخذ عبد الغني الراوي الفتوى ذاتها من السيد الحكيم بعد زيارته النجف ، ونصها : «الشيوعيون مرتدون وحكم المرتد القتل وإن تاب (قال عبد الغني الراوي : ثم أمر ولده بالتوقف ، وقال يخاطبني : سيد عبد الغني الشيوعيون نوعان . أجبته : سماحة الإمام أنا ألتزم بما تكتبه بالضبط ، فقال مخاطباً ولده) الشيوعيون نوعان ، الأول مَنْ آمن بها وحمد بها ولم يرجع عنها فحكمه كما جاء أعلاه . والنوع الثاني من أعتبرها تقدمية ومعاونة للمحتاجين ، وهؤلاء يحجزون ويفهمون ويعلمون الصح من الخطأ ، فإن تابوا يطلق سراحهم ، وإن أصروا عليها فحكمهم كما جاء أعلاه ، وبين حكم الزوجة والأولاد والأموال المنقولة . وغير المنقولة وحصة الإمام»[٣٣١] . والشيوعيون الذين حكمت الفتوتان بقتلهم ومصادرة أموالهم ليس لديهم أموال منقولة وغير منقولة ، والإمامان وعبد الغني الراوي يعرفون ذلك جيداً ، فهم ما عدا أشهر معدودة من عام الثورة (١٩٥٨) ، ومنذ تأسيس الحزب الشيوعي العراقي (١٩٣٤) ، يعدون من نزلاء السجون . وقلما يحصلون على وظائف بالدولة . ومن النادر أن يكونوا من الملاكين أو أصحاب أراض زراعية .

وعلى الرغم من أن عدد الشيعة في الحزب الشيوعي العراقي كان كبيراً جداً ، إلا أن إمامين شيعيين قد سايرا المتعصب طائفياً عبد الغني الراوي ، بينما يمنعه إمام سُنِّي ، ويكفه عن ارتكاب جريمة بشعة ينوى مرتكبوها حفر أكثر من أحد عشر ألف قبر . قال الشيخ طه جابر العلواني ، إمام جامع الحاجة حسيبة الباججي بمنطقة الكرادة الشرقية من بغداد ، رداً على طلب الراوي لفتوى قتل مماثلة من فقهاء السُنَّة : «إن البعثيين لينينيون ماركسيون ، أولاد غير شرعيين للشيوعية ، وأنت لماذا تصير آلة بأيديهم؟ دعهم يحاكمونهم وأطلع أنت منها . لماذا أنت تحاكمهم . فليحاكمهم عبد الكريم مصطفى نصرت (آمر الانضباط العسكري) ، الذي بعد انتصاركم على الشيوعيين في ١٤ رمضان ، خرج سكراناً يتطوح (هكذا وردت) قرب الانضباط العسكري بوزارة الدفاع ويضرب بالمسدس بالهواء ، ويقول : الله كان في إجازة يوم ١٤ رمضان»[٣٣٢] . ربما عبر نصرت في هذه العبارة عن معجزة وصولهم غير المتوقع بهذه السهولة إلى السلطة .

---

(٣٣٠) عبد الغني الراوي ، مذكرات ، جريدة الزمان ، العدد ٢٩٢ في ٩ نيسان ١٩٩٩ .

(٣٣١) المصدر نفسه .

(٣٣٢) المصدر نفسه .

كان قرار مجلس قيادة الثورة بتطبيق الشريعة الإسلامية يقضي بقتل أحد عشر ألفاً وستمائة إنسان شيوعي أو مؤيد للحزب الشيوعي، ودفنهم بقبور جماعية. يروي الرواي حكاية القرار الذي كلفه به رئيس أركان الجيش آنذاك طاهر يحيى التكريتي: «إن مجلس قيادة الثورة قرر تطبيق الشريعة الإسلامية في حق الشيوعيين بالقتل. وأن هناك في نقرة السلمان حوالى تسعة آلاف شيوعي سجين، وهناك حوالى (٢٦٠٠) ألفين وستمائة شيوعي موقوفين في مخافر الشرطة في جميع أنحاء العراق. وبما أنك رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمت عبد الكريم قاسم (لم تحصل المحاكمة، والراوي لم يكن حقوقياً بالأساس) إذن أنت تكون رئيساً لهذه المحكمة أيضاً. وأنت بعد غد تذهب بالطائرة إلى نقرة السلمان، بينما غداً تتحرك جماعة تنفيذ الرمي بالسيارات وأنت بالطائرة. وحسب ما تراه فالبريء يطلق سراحه مع منحه نقوداً عن الأيام التي قضاها بالتوقيف، والشيوعي ينفذ به الإعدام فوراً، ويدفنون بقبور جماعية، وسترسل بلدوزر (لحفر القبور) لهذا الغرض مع جماعات التنفيذ أيضاً مع نقود مخصصات كثيرة توزع حسب ما تراه»[٣٣٣].

وبعد الإتصال بالشيخ الدكتور طه جابر العلواني بمقر اقامته بأمريكا، اعترف برواية عبد الغني لرواي، واحالنا إلى كتابه «لا كراه في الدين.. إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام حتى اليوم. فوجدنا أن الرواي أغفل فتوى ثالثة أخذها من مفتي بغداد نجم الدين الواعظ (ت ١٩٧٥)، وأغفل الراوي أيضاً ذكر المتحمسين للمجزرة الجماعية وهما: عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر[٣٣٤]. والقصة، حسب العلواني: أن عبد الغني الراوي زاره في بيته الملاصق للمسجد الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أي قُبيل تنفيذ فتاوى القتل بخمس سلعات فقط. وطلب منه فتوى رابعة، فيكون قد حصل على فتوتين من علماء الشيعة وفتوتين من علماء السُنَّة. وكان الراوي يصلي في مسجد حسيبة الباججي، ويسمع خطبة الجمعة، التي كان يلقيها الشيخ العلواني. ولما اعتذر الشيخ بالقول أن فتوته لا تقدم ولا تؤخر بعد فتاوى كبار رجال المذهبين. أخبره الراوي أنه يثق به، وأن الأمر يتعلق بقتل الآلاف.

عندها قال له العلواني: إن الأمر سياسي لا ديني، وهو لا يتعدى خلاف البعثيين مع الشيوعيين. لذا حاولوا التخلص منهم، وهم اختاروا الراوي لأنه متدين، ومن عائلة لها فضل في الدين. وحذر الشيخ العلواني الراوي من تحمل مثل هذه الجريمة، وربما سيقتله جندي من جنوده بأمر من السلطة، بعد تنفيذ حكم الإعدام بآخر متهم. وطلب منه أن لا يخبر السلطة

---

(٣٣٣) المصدر نفسه.

(٣٣٤) العلواني، لا كراه في الدين، ص ٤٠ وما بعدها.

بما جرى بينهما . سمع الراوي نصيحة العلواني ، واعتذر عن التنفيذ . كان المطلوب قتله الحزب الشيوعي كافة ، وما يتبعه من منظمات ، مثل منظمة الشبيبة الديمقراطية . والأمر حسب العلواني لا يخص السجناء فقط بل إبادة الشيوعيين وأتباعهم بالكامل[٣٣٥] .

بعد شهادة الضابط الراوي والشيخ العلواني نأتي على شهادة ثالثة أدلى بها قيادي بعثي في إنقلاب شباط ١٩٦٣ ، وكان شاهد عيان. قال هاني الفكيكي : «فجأة أندفع إلى داخل قاعة الاجتماع العميد الركن عبد الغني الراوي ، وقدم إلى عارف (عبد السلام) وريقات ، ما أن أطلع عليها حتى هتف : ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ وتصورنا للحظات أن أمراً خطيراً وقع . وأن تمرداً آخر حدث. وأن الانتفاضات الشيوعية المسلحة قد عمّت وحدات الجيش ومعسكراته. وواصل عارف : هاهم! الشيخ قاسم القيسي ، والمفتي نجم الدين الواعظ ، والسيد محسن الحكيم قد أفتوا بجواز قتل الشيوعيين ، فماذا تنتظرون بعد؟»[٣٣٦] . لم يقرأ عبد السلام عارف ، المتحمس لقتل الشيوعيين ، كل أسماء المفتين بالقتل ، لكن رواية الفكيكي أضافت اسم آخر ، لم يورده الراوي ولا العلواني وهو رجل الدين قاسم القيسي .

لم نكن نأتي على هذه التفاصيل لولا أن الأمر يتعلق بالمرجعية الدينية . لكن الفتاوى التي صدرت من الكاظمية والنجف رفض إعطاءها العديد من مراجع الشيعة ، في ما بعد ، فمحمد باقر الصدر لا يكفر الشيوعي بحجة سليمة حسب قناعته ، أنه لم يمنحه الإسلام الصحيح ، وكذا عزف الإمام محمد حسين الشيرازي عن التورط بمثل هذه الفتاوى[٣٣٧] .

وأملاً بإلغاء القوانين التي أصدرتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أوفد السيد الحكيم ولده مهدي الحكيم مع جماعة من علماء الدين لمقابلة رئيس وزراء انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ أحمد حسن البكر . وكانت نتيجة المقابلة تأليف لجنة مشترك من المرجعية والحكومة . ولما لم تسفر اللجنة عن شيء من مطاليب المرجعية أعلن السيد الحكيم احتجاجه المباشر في السفر إلى بغداد في أيار «مايو» من العام نفسه . وهناك استقبل عشرات الوفود ، وكان موكبه يمر وسط حشود المؤيدين .

---

(٣٣٥) المصدر نفسه .

(٣٣٦) الفكيكي ، أوكار الهزيمة ، ص ٢٧٩ .

(٣٣٧) بعد نشر مذكرات عبد الغني الراوي كتبت رسالة إلى السيد آية الله محمد باقر الحكيم استفسره الأمر . ومضى عامان ولم استلم أي جواب ، وبعد نشر الفتاوى في الطبعة الأولى من الكتاب ، وفي نشرة «رسالة العراق» (العدد ٨٦) ، كتبت جريدة «نداء الرافدين» لسان حال المجلس الإعلى للثورة الإسلامية في العراق في عددها المؤرخ في ٧ نيسان ٢٠٠٢ «نود أن نبين ونؤكد لجميع السادة القراء من أن سماحة المرجع الراحل كان قد رفض بشدة وبصورة قاطعة لا لبس فيها طلب عبد الغني الراوي ورفيقيه اللذين كانا معه أثناء زيارته للأمام الحكيم بعد أسبوع واحد من قيام إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ إصدار أية فتوى بقتل الشيوعيين أو غيرهم ، وخاطبهم بقوله : أنني أرفض رفضاً قاطعاً أن أبرر للمجاز التي قامت أو التي ستقوم لاحقاً ، وكان ذلك بحضور السيد محمد باقر الحكيم» .

كانت السفرة عبارة عن رسالة احتجاج مباشرة موجهة إلى النظام . فحكومة الحرس القومي أخذت تقوم بحملات اعتقال وتصفيات ضد «رؤساء العشائر الموالية للمرجعية ، وشباب الشيعة في العراق بحجتي الشيوعية والشعوبية»[٣٢٨] . وبهذا الموقف الأخير احتج البعض على ما ورد في مذكرات الضابط عبد الغني الراوي القائلة بأخذ فتوى قتل من المرجعية بحق الشيوعيين .

وبعد سقوط حكومة الحرس القومي استمر التوتر بين المرجعية وسلطة عبد السلام عارف . وهنا زادت مطاليب المرجعية ، فاضافة إلى مطلبي إلغاء قانون الأحوال الشخصية ، والإصلاح الزراعي ، طالبت بالغاء القوانين الاشتراكية التي طبقها عبد السلام . وزاد عبد السلام التوتر باظهاره نية بناء قبر أو مزار لمعاوية بن أبي سفيان . ويعد مثل هذا التصرف سابقة عداونية ضد الشيعة . فقد سبق أن أقام علماء النجف الدنيا ضد كتاب المدرس السوري أنيس زكريا النصولي «الدولة الأموية في الشام» (١٩٢٧) ، فكيف يكون التعامل مع مَنْ يريد تخليد معاوية بتشييد مزار له! وقد صاحب هذه الأجواء منع الحكومة لمواكب العزاء في زيارة الأربعين .

قضية النصولي

بدأت قضية المدرس السوري أنيس زكريا النصولي بتدريسه طلبة الثانوية المركزية ببغداد ملازم كتاب «الدولة الأموية . . .» ، وكان يدفعه إلى النشر على مراحل . وقد نقل الطلبة الشيعة خبر المدرس والكتاب إلى أولياء أمورهم . وبعد احتجاج ومراجعات قرر وزير المعارف عبد المهدي المنتفكي فصل النصولي . ولما اعترض زملاؤه من المدرسين السوريين ، وأصروا على استقالتهم شملهم قرار الفصل . قام طلبة الثانوية المركزية ودار المعلمين إثرها بتظاهرات أمام وزارة المعارف ضد قرار الفصل ، أدت إلى مصادمات مع الشرطة ، ولم ينفع ضدهم استخدام خراطيم المياه وسبل القوة الأخرى .

لكن الأمر انتهى بفصل النصولي وزملائه وترحيلهم ، وفصل الطلبة من قادت التظاهرات لفترات مختلفة . وما يستشف من الكتابات حول هذه الحادثة أنها هولت كثيراً ، وخرجت عن موضوعها الخاص بالمدرس السوري وكتابه . بل تحولت إلى مواجهة بين المتنفذين السُنّة والمتنفذين الشيعة في وزارة المعارف . وبطبيعة الحال كان الطلبة خارج موضوع الطائفية ، جمعهم الاحتجاج على فصل المدرسين . كُتب الكثير حول الحدث ، وكل صورها

---

(٣٢٨) الصغير ، أساطين المرجعية العليا ، ص ١٤٤ .

من من وجهة نظره . فساطع الحصري انتقد فصل المدرس ، ورأى أنه موضوع لا يستحق كل هذه الضجة ، وليس في الأمر من طائفية ، وحمل الوجيه جعفر الشبيبي إثارة الموضوع وتهويله[٣٣٩] .

واعتبر عبد الكريم الأزري ، وزير المالية ومدير المعارف ورئيس التشريفات الملكية ، القضية «زوبعة طائفية شديدة»[٣٤٠] . وأن كتاب النصولي كان اساءة متعمدة لتاريخ الشيعة ، وليس فيه غير تمجيد بني أمية . وهو فتنة طائفية دافع عنها ساطع الحصري . ويأتي الأزري بنصوص من الكتاب لها خطورتها في مجتمع مثل العراق ، حيث اعتبر بني أمية مع الحق وخصومهم كفرة وفجرة[٣٤١] . أما خيري العمري فاعتبر المستفيد الأول من تفاقم قضية النصولي وكتابه هو المحتل البريطاني . قال في حكايات سياسية تحت عنوان «الكتاب الأزمة» : «أغلب الظن أن دار الاعتماد البريطاني هي التي خرجت من المعركة غانمة ، فقد كسبت تصديع عرى الوحدة الوطنية ، وكسبت جواً مشبعاً بالحقد الطائفي»[٣٤٢] .

لكن قضية مثل هذه كانت واضحة المعالم ، ولا تحتاج إلى إثارة المستعمر ، فلا المدرس النصولي صنف كتابه بتوجيه من دار الاعتماد البريطاني ، ولا الطلبة أعلنوا اضرابهم وواجهوا الشرطة بأمر من تلك الدار . إنها قضية دقيقة تخص طائفتي الإسلام ، ليس للمستشارين البريطانيين كلمة فيها ، ناهيك من إنها ليست بالقضية السياسية الهامة بالنسبة لهم . كوالطلبة المطرودين هم : فائق السامرائي ، وعبد اللطيف محيي الدين ، وأنور نجيب ، وحسين جميل . وقد عاد الجميع ، في ما بعد ، إلى مقاعد الدراسة بتوجيه خاص من الملك فيصل الأول . ووثق حسين جميل الحادث بتفاصيل منها أن اللجنة ، التي تشكلت دفاعاً عن النصولي وزملائه ، راعت اقتراح أسماء الوفد ، الذي سيتولى أمر مقابلات المسؤولين في أن يكون أغلبهم من الشيعة ، كي تستبعد تهمة الطائفية . قال جميل : «ولهذا لم أكن أنا من أعضاء الوفد»[٣٤٣] . واعتبر الطلبة حركتهم «انتصاراً لحرية الفكر والبحث العلمي . وقالوا إن قرار فصله (النصولي) يهدر هذه الحرية . ونفوا عن كتاب النصولي وجود ما يمس مشاعر ومعتقدات طائفة من طوائف الشعب العراقي»[٣٤٤] . وضمت الحركة الطلابية المعنية بحادث النصولي طلبة تبوأوا في بعد مراكز هامة في إدارة الدولة ، منهم مدير المطبوعات والمحامي والوزير لعدة

---

(٣٣٩) الحصري ، مذكراتي في العراق ص ٥٥٧ - ٥٧٥

(٣٤٠) الأزري ، مشكلة الحكم في العراق ، ص٢١٥ .

(٣٤١) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .

(٣٤٢) العمري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحدث ، ص ١٧٢ .

(٣٤٣) جميل ، العراق شهادة سياسية ، ص١٨٩ .

(٣٤٤) المصدر نفسه .

مرات حسين جميل ، والطبيب والوزير (صحة) محمد حسن سلمان ، والمحامي والنائب والوزير (اقتصاد) عبد الرزاق الظاهر .

مع البعثيين

تعرض الشيعة عموماً في العقود الثلاثة الماضية إلى اضطهاد تمثل في حملات التهجير ، بحجة التبعية الإيرانية . مع أن كثيراً من المهجرين يحملون الجنسية العثمانية المعترف بها بالعراق منذ صدور قانون الجنسية العنصري (١٩٢٥) . وتعرضت المنظمات الشيعية ، وفي مقدمتها حزب الدعوة الإسلامية إلى تصفيات جماعية أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات . بدأت هذه التصفيات شديدة قبل إعدام آية الله محمد باقر الصدر ، الذي يعده حزب الدعوة الأب الروحي لفكره ونضاله . كان ذلك نوع من الاحتراز الدموي من نموذج الثورة الإيرانية . وأشارت إليه مراسلات المخابرات الخاصة بمنع كتبه بـ(المجرم الفارسي) . ومن المفارقات أن من الخلافات التي قوضت الجبهة الوطنية (١٩٧٣ - ١٩٧٨) بين الشيوعيين والبعثيين هو تأييد الشيوعيين عبر جريدتهم العلنية «طريق الشعب» ، وعبر بياناتهم الحزبية للثورة الإيرانية .

وبعد انتفاضة آذار ١٩٩١عقب حرب تحرير الكويت كتبت الصحافة الرسمية سلسلة مقالات ضد الشيعة بقلم صحافي النظام السابق عبد الجبار محسن تحت عنوان طائفي «التعصب الشيعي ، فساد أخلاق أهل الأهوار» . وهي سابقة أن نظاماً يقذف شعبه في جريدته الرسمية . جاء فيها : «من المعروف أن الكثير من الذين أعدموا بقرارات من محكمة الثورة جراء الزنا بالمحارم هم من بين هذا الصنف من الناس»[٣٤٥] .

وقبيل سقوط النظام نشرت جريدة عدي صدام حسين «بابل» سلسلة مقالات ضد الشيعة ، ومحاولة للحط من فكرة المهدي المنتظر ، وطقوس عاشوراء [٣٤٦] . كتبت «الثورة» و«بابل» هذا ببغداد بينما كانت جماعات من الشيعة بالمنافي تناقش موضوع الطائفية بالعراق ، فأصدرت ما عرف بإعلان شيعة العراق . جاء فيه : «من أجل إلغاء الممارسات الطائفية ، التي مارستها الأنظمة المتعاقبة لابد أن يعاد النظر في التركيبة الإدارية للدولة العراقية ، ومؤسساتها العسكرية والمدنية ، من خلال إعادة النظر في طريقة التوظيف في هيئات ومؤسسات الدولة . وإعتماد مبدأ الكفاءة المهنية» . ودعا البيان إلى ضمان حرية

---

(٣٤٥) جريدة الثورة العراقية الصادرة ببغداد في تاريخ ٥ نيسان ١٩٩١ .

(٣٤٦) جريدة بابل ، الصادر ة ببغداد في تاريخ ١٠ ، ١٣ نيسان ٢٠٠٢ .

الطقوس الشيعية . وحرية النشر وتأسيس المعاهد الفكرية ، وحرية إنشاء المساجد والحسينيات والمكتبات . وتسجيل المراقد المقدسة في مؤسسة اليونسكو . وتنقية المواد الدراسية من النزعة الطائفية[٣٤٧] .

نشاط الخالصي

عموماً منذ ثورة العشرين «لم تشهد الساحة السياسية تحركاً دينياً قوياً ذا بعد سياسي واضح قبل مرجعية السيد محسن الحكيم ، مع ما كان يؤخذ على تداخلاتها السياسية من مآخذ بوجه عام»[٣٤٨] . وما ورد أعلاه كان في مقدمة تلك المآخذ . غير أن البعثيين والقوميين في السنة (١٩٦٣) لم يخفوا طائفيتهم كثيراً ، فما هي إلا أيام وينفجر الخلاف بين الإمام الخالصي والحرس القومي . وأصبح الأخير هدفاً لميلشيات الحرس القومي ، بعد أن تعاون معها ، وساهم أتباعه في دعهم في القتال ضد المقاومة بالكاظمية ، وإعدام شيوعيين ووطنيين علناً . أرتقى الخالصي منبر الصحن الكاظمي ليعلن في خطبته : «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر ميشيل عفلق . . . مصيبة العرب أشد واشق جاءنا بميشيل عفلق . مَنْ هو ميشيل عفلق ، ما هذا الاسم؟ ألا يوجد اسم عربي! ألا مرشد عربي! ألا مرشد مسلم! ميشيل عفلق وما عفلق؟ أنقل لكم عبارة القاموس ، واعتذر عن نقلها لترون مدى سخرية الإنكليز والاستعمار بنا ، وكيف يصدنا عن ديننا ويهزأ بنا ، واعتذر عن نقلها لأنها بذيئة . ولكن لا بد من نقلها ، نبينها لإخواننا كيلا يتبعه أحد ، وأرجو منكم أن تكتبوها عن القاموس ، وتبثوها بين الناس ، ليعلم درجة استهزاء المستعمرين بنا . قال في القاموس : عفلق الفرج الواسع الرخو ، والمرأة السيئة المنطق»[٣٤٩] .

لا ندري ، هل حدث بداء للخالصي أن يكتشف عفلق لغة ومصطلحاً؟ وقد سخر ميليشياته للقتال معه ، ونصره في أحلك الظروف ، وزوده بفتوى تقتل الآلاف ، وترميهم في قبور جماعية ، وكأن هؤلاء ليسوا بشراً ولهم بنين وبنات وأهل! كان الخالصي يقوم بمهام والده يوم كان الأخير منفياً بإيران من قبل وزارة عبد المحسن السعدون ، قد حث والده على الاتصال بالبلاشفة . جاء في تقرير خاص أنه «في ٢٢ كانون الثاني (يناير) التالي العام (١٩٢٣) تلقى الشيخ مهدي الخالصي رسالة من ابنه ينصحه فيها أن يجتمع ، مع آخرين ، مع الوزير السوفيتي المفوض في إيران ، الذي أعلن أن روسيا السوفيتية ستساعد تركيا في

(٣٤٧) إعلان بيان الشيعة جريدة الزمان الصادرة بلندن في ٢٠ حزيران ٢٠٠٢ .

(٣٤٨) الحيدري ، تراجيديا كربلاء ، ص ٣٥٨ .

(٣٤٩) الخالصي ، سبعة وعشرون شهراً في طهران ، ص٤٥ .

حالة اندلاع حرب حول العراق»[٣٥٠] . كان ذلك في وقت تبحث فيه النجف موضوع «التوافق بين البلشفية والإسلام»[٣٥١] . وقال الشيخ الخالصي لحنا بطاطو (١٩٥٨) : إنه اطلع على رسائل لينين المتبادلة مع شخصيات إيرانية دينية . ومنها إنه ليس لدى البلاشفة مخططات حول الشرق . وأن كل ما يرغبونه هو تحرير البلدان الشرقية من العبودية والحكم الاستعماري . وأنه ليست لديهم نية للتدخل في شؤوننا الداخلية أو معارضة مسلمي العراق في دينهم»[٣٥٢] .

أكدت ملفات الشرطة مساعي الشيخ الخالصي لإقناع علماء النجف بالصلة مع البلاشفة ، التي اعتمدها حنا بطاطو في بحث حول العراق . وضع الشيخ الخالصي والسيد الحكيم ، في فتوتيهما السالفتي الذكر ، مظلومية الشيعة وراء ظهريهما . ففتواهما لم تكونا بأيد أرحم من يد الحجاج بن يوسف الثقفي أو زياد بن أبيه ، والذين سيقتلون فيهم من سواد الشيعة الكثير ، ومن النجف بالذات . ألا تَذكُر المفتيان وهما يمضيان أمر القتل مظلومية الشيعة المزمنة في التاريخ؟ قال الإمام السادس محمد الباقر : «قُتلت شيعتنا بكل بلد ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة ، وكان مَنْ يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله ، أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمن عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى أن الرجل ليقال له : زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة علي»[٣٥٣] . وقال أبراهيم الغزّي : «كأني علوي في قبضة الحجاج»[٣٥٤] .

وإذا كان الإمامان أصدرا فتوتي القتل الجماعي ثأراً للدين من الشيوعيين ، فإن ما نُسب لهؤلاء من تمزيق صفحات القرآن في عهد عبد الكريم قاسم ، تأكد أنه كان من تدبير خصومهم . وكان وراء مثل هذه المكائد رئيس المحكمة العرفية شمس الدين عبد الله ، وكان قومياً متعصباً . استغل هذا القاضي نقطتين «لإرسال الشيوعيين إلى المحكمة العرفية وإصدار قرار بالسجن عليهم ، وشاع استعمالهما في حالة عدم وجود تهمة محددة : أولاً الإدعاء بأن أحدهم مزق نسخة من القرآن الكريم . وثانياً : الإدعاء بأن أحدهم مزق صورة الزعيم (عبد الكريم قاسم)[٣٥٥] ، مع أن رئيس المحكمة المذكور كان من ألد أعداء الزعيم .

---

(٣٥٠) بطاطو ، العراق ٢ ص٣٨٥ .

(٣٥١) المصدر نفسه ٢ ص٣٨٢ .

(٣٥٢) المصدر نفسه ٢ ص٣٨٤ .

(٣٥٣) مغنية ، الشيعة والحاكمون ، ص٩٥ .

(٣٥٤) الحموي ، معجم البلدان ، مادة الحلة .

(٣٥٥) العلوي ، عبد الكريم قاسم رؤية بعد العشرين ، ص٤٧ ، العراق دولة المنظمة السرية ، ص١٣ .

عموماً ، أن لقاء الحرس القومي مع علماء الدين ، وخصوصاً مع الخالصي ، وكل المتضررين من ثورة ١٤ تموز ، من ملاكي الأرض والتجار الكبار الذين جمعوا الأموال لتقويض الثورة ، ترتبط أولاً بالخطاب الديني الملفق ، الذي مارسه البعثيون لمجابهة الحزب الشيوعي بالعراق ، وأقتنع فيه رجال الدين[٣٥٦] . ومثلما انتهى الوفاق بين البعثيين ومرجعية الخالصي بالكاظمية ، أصبحت مرجعية الحكيم متهمة من قبل البعثيين بالجاسوسية بعد ١٧ تموز (١٩٦٨) ، وأن يلاحق أبرز أولاد الحكيم ، مهدي الحكَيم ، بهذه التهمة المزيفة . ويطوله النظام في ما بعد بعملية اغتيال بالخرطوم ، أثناء حضوره مؤتمراً إسلامياً في ١٧ كانون الثاني (١٩٨٨) . وأن يُقتل من آل الحكيم كوكبة من الشيوخ والشباب .

جامعة الكوفة

من المشاريع العلمية والحضارية التي تعاملت معها مرجعية السيد محسن الحكيم بإيجابية وبعد نظر ، عبر ولده مهدي الحكيم وأحبطها البعثيون بعد عودتهم الثانية للحكم (١٩٦٨) . هو مشروع جامعة الكوفة ، الذي بدأ الشروع به العام (١٩٦٦) ، أيام عبد الرحمن عارف - طاهر يحيى . والبداية أن قدم جماعة من العلماء العراقيين طلب إجازة تأسيس جامعة أهلية ، مستقلة عن المؤسسات الرسمية . وفكرة المشروع ، حسب رئيس الجمعية الدكتور محمد مكية ، لها علاقة بتأسيس نواة اللامركزية في بلد قلصته المركزية ببغداد ، حيث الاندفاع السكاني إلى العاصمة . ووتعد جامعة الكوفة محاولة لإرساء مؤسسات المجتمع المدني بالعراق . لهذا لم يكن المشروع أكاديمياً بالمعنى المألوف ، وإنما هو مشروع تنموي لإحياء وسط وجنوب العراق ، في المجال الزراعي والحضاري بشكل عام ، ويرمي لمعالجة الزحف السكاني إلى بغداد ، ومراكز المدن ، وتقييم نتائج الهجرة المستمرة ، وما يتميز به الجنوب والوسط من كثافة سكانية .

ولماذا مدينة الكوفة دون غيرها من مدن الجنوب والوسط العراقي؟ أجاب الدكتور مكية رئيس الجمعية المؤسسة ، في حوار معه حول ماهية الجامعة بالقول : «تُعد الكوفة ، حالياً ، جزءاً من النجف حيث المركز العلمي الديني ، ولعلَّ في هذا القرب ، بعيداً عما فُسر بالطائفية ، يتحقق تقارب بين العلم والدين والتنمية الاقتصادية والاجتماعية . نال المشروع تأييد الجميع ، ومن الذين بكروا في التأييد رئيس المجمع العلمي العراقي الشيخ محمد رضا الشبيبي ، مع إشارته إلى أن مدينة الحلة لها مواصفات الكوفة نفسها . فمن الأفضل أن تؤخذ مكانتها بنظر الاعتبار . لكنه أقتنع أن قيام جامعة بالكوفة لا يعني أن تنحصر مهامها بالكوفة فقط ، فستنتشر في مجال جغرافي أكبر ، عن طريق الفروع والمؤسسات» .

---

(٣٥٦) المصدر نفسه .

أخذ المشروع بنظر الاعتبار أهمية المجالات المهنية . فما إعتاده طلبة المتوسطة والثانوية هو التوجه إلى التعليم النظري فقط ، لغرض الحصول على شهادة جامعية تؤهلهم للتوظيف في الدولة . لكنها لا تؤهل للخبرة العملية ، ومع هذا التعلق بالوظيفة الحكومية هناك أعداد كبيرة من أبناء مدن الجنوب والأهوار يحاولون الاحتفاظ بمهنة الأباء والأجداد . وبطبيعة الحال لا يتحقق لهم ذلك إلا عبر التعليم المهني المناسب . قال مكية : ما وضعناه بالحسبان أن تكون هناك دراسة مسبقة ، تساعد الكل في أن يكون بمستوى التفوق العلمي والمهني . ومن جانب آخر ، حرص واضعوا تصاميم المدينة الجامعية أن تكون جزءاً من مدينة الكوفة ، وأن يُكسر الحاجز بين الحرم الجامعي وبين المدينة . وعندها تتحول المدينة بكاملها إلى جامعة كبرى . قال مكية : «هكذا كانت العلاقة بين مدينة كامبردج وجامعتها . فلماذا لا يكون للكوفة مثل تلك العلاقة؟ بمعنى آخر أن تتحول الجامعة إلى مدينة ، فيها سوق ، ومطاعم ، ومصانع ، وورشات حرفية» .

قررت الجمعية أن يكون تخطيط الجامعة على مراحل ، بداية بالبوابة كمركز إداري . ثم البناء والمواقع الدراسية على مساحة أربعة كيلومترات مربعة ونصف الكيلو . وشجعت تبرعات الأراضي الواقعة على الفرات بالامتداد إلى الشاطئ النهري ، فالفرات يخترق الكوفة . ومن الأراضي التي أصبحت ملكاً للجامعة بساتين صغيرة ، وكان من بين التبرعات هناك مليون نخلة . لذا كان بالإمكان تحويل الجامعة إلى غابة نخيل ، تُعيد مجد أرض السواد الغابر . وكذلك خطط لحفر عدد من الآبار الارتوازية ، لتوفير الماء بكميات كبيرة ، فللجامعة حقولها الزراعية ، وحدائقها الواسعة . وكانت الفكرة أن تمتد تلك الحقول باتجاه النجف . وأهم هذه الحقول مخصصة لزراعة الرز بكميات استثمارية وعبر طرق علمية .

قال مكية ، وهو يعيش المشروع لحظة بلحظة ، وبأثر ذلك أسس ديوانه الثقافي وسط لندن (ديوان الكوفة) : «لم تكن آمالنا من تأسيس جامعة الكوفة خيالية ، يصعب تحقيقها . فعندما فكرنا في المشروع كان أمامنا واقع يقبل التغيير ، وإن كانت هناك طموحات رومانسية ، فإنها من باب احتمال التفوق ، والتصورات الزاهية» . من ذلك المنطلق أعطت لوائح برنامج جامعة الكوفة الأهمية للتأهيل الزراعي والصناعي . لكن ذلك لا يعني إهمال الفروع الأخرى ، فلكل فرع اختصاصه ودوره في عملية التأهيل .

من أهداف الجامعة غير المنظورة التأثير في المناهج الدراسية الفقهية بالنجف . وأن تتسع لمناحي الحياة العملية والنظرية الأخرى من غير العلوم الدينية واللغوية . أي تهدف إلى تأهيل رجل الدين بمعارف حياتية متكاملة ، فلابد أن يكون للفقيه موقفه من التطورات التي تحيط به . ومن أمنيات الجامعة الطموحة أن يتعلم طلبة الفقه الإنكليزية والأدب والفن . فعلى حد

عبارة رئيس الجمعية المؤسسة : فهل هناك حياة دون فن؟ غير أن هذه الأهداف الطموحة جداً ستصطدم بموانع المؤسسة الدينية . وأولها أن أحد أولاد السيد محسن الحكيم ، وهو السيد محمد باقر الحكيم المعارض المعروف ورئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق (قتل في آب ٢٠٠٣) ، قد أسمع الدكتور مكية وأعضاء الجمعية المؤسسة وهم بحضرة والده كلاماً لم يرتضه والده ، عندما طلب منهم أن يعرضوا مناهج الجامعة على المرجعية الدينية ، فأسكته والده بما معناه : ما علاقتك بمناهجهم؟

أُلغي المشروع من قبل البعثيين ، بذريعة أن تكون الجامعة مكاناً للنشاط الشيوعي . وأشار وزير الداخلية صالح مهدي عماش أثناء استقباله لرئيس الجمعية المؤسسة إلى تعاون بعض مَنْ اعتقلوا بتهمة الجاسوسية ، ومنهم السيد مهدي الحكيم ، الذي كلفه والده أن يكون حلقة اتصال بين الجمعية المؤسسة والمرجعية . وكان شخصية مقنعة ومؤثرة ، فمن الصعب بمكان أن يتحقق مشروع بالكوفة دون علم المرجعية الدينية . وفي محاولة يائسة أتصل محمد مكية تلفونياً بالشاعر محمد مهدي الجواهري ، وكان قد عاد إلى بغداد بعد سنوات قضاها في الاغتراب ، بدعوة من صالح مهدي عماش ، لعله يقنع صديقه الوزير بشأن البقاء على المشروع الجامعي . فالجواهري كان من المحتفى بهم في مقر الجمعية ، ومن المؤيدين للمشروع . لكن الشاعر كان أكثر يأساً فقال : «لا ينفع مع هؤلاء (البعثيين) شيء! فماذا عساني أن أقول لهم»؟ وكان عذر عماش لمحمد مكية : أنه «لا يمكن أن تكون جامعة غير حكومية ، إضافة إلى أنه أعتبر المشروع مشروعاً طائفياً»[٣٥٧] . قال مكية نافياً : «هذه مغالطة ، فالذين وافقوا على المشروع لم يكونوا شيعة ، بمَنْ فيهم وزير الداخلية ورئيس الوزراء طاهر يحيى قبل تموز (١٩٦٨) . فكيف وافق هؤلاء على مشروع طائفي شيعي ، وهم من أهل السُنَّة أومن العلمانيين؟

لفقت جريدة «الثورة» العراقية أسباباً لالغاء مشروع الجامعة ، مخالفة تماماً لحقيقة ما دار بين رئيس الجمعية المؤسسة وبين وزير الداخلية عماش في بداية العام (١٩٦٩) . نشرت تحت عنوان «أسباب حلِّ الهيئة المؤسسة» ما نصه : «كان السيد وكيل الوزارة يتحدث في مكتبه الرسمي يوم أمس (٢٠ شباط ١٩٦٩) إلى عدد من مندوبي الصحف المحلية ، وأوضح خلال ذلك الأسباب التي دفعت الوزارة إلى حل الهيئة المؤسسة لجامعة الكوفة ، التي تألفت بتاريخ ٤ آذار (١٩٦٧) ، فقال : إن الجمعية المذكورة عجزت خلال العام الفائت عن جمع المبالغ اللازمة لتأسيس الجامعة المقترحة ، حيث منحت السلطات المسؤولة للقائمين على شؤونها رخصة الاكتتاب مبلغ (٧٥٠) ألف دينار خلال عام واحد»[٣٥٨] . قال رئيس الجمعية : «كل

---

(٣٥٧) حديث مع الدكتور محمد مكية ، بلندن ١٩٩٦ .

(٣٥٨) جريدة الثورة العراقية ، العدد ١٥٨ ، ١٩ شباط ١٩٦٩ .

ما ذُكر ليس له أساس من الصحة . وكان حديثاً كاذباً من ألفه إلى يائه! فلم تُبحث معنا الإمكانيات المالية إطلاقاً ، بل ما بُحث هو ضرورة حل الجمعية المؤسسة ، وغلق مقرها حالاً . أما من ناحية قلق السلطة عن عدم توفر الإمكانيات المالية فقد توفر لدينا ما هو قادر على فتح الجامعة . وقد وضعت الدولة يدها على حساب الجمعية في بنك الرافدين ، وعلى وثائقها كافة ، بعد إغلاق مقرها بالشمع الأحمر . وما يؤسف له لم نحتفظ بأي خريطة من خرائط تصميم الجامعة ، وما فعله أحد زملائي ، أحمد الشالجي ، أن وضع في جيبه قائمة أسماء المتبرعين خوفاً من اعتقالهم» . والغريب بالأمر أن اسم الكوفة أصبح مخيفاً ، وكأنها ما زالت مركزاً للمعارضة الشيعية ، كما كان دورها أيام العهدين الأموي والعباسي .

لم يكن ببال محمد مكية وبال زملائه أعضاء الجمعية المؤسسة عند تأسيس الجامعة المذكورة أنهم من الشيعة . لذا فوجئ وزملاؤه بالتعصب ضدهم . قال مكية : «مما جعلني أتذكر بأنني شيعي! فالطائفية تغدو مخيفة عندما تظهر من رجال الدولة والسياسة . بينما ما نلاحظه في المجتمع العراقي التطلع إلى التسامح» . بطبيعة الحال لا تسمح خلفية مؤسسي المشروع الثقافية والعلمية والمهنية تبني مشاريع طائفية ، والدولة تعرف هذا جيداً . لكن أي دولة شديدة المركزية توافق أن ينشأ بمحاذاتها جامعة لم تتدخل في شؤونها مباشرة ، ولم تتمكن من فصل أو تعيين أساتذتها . وأن تمنح شهاداتها خارج الأعراف العلمية؟كان يمكن لمشروع جامعة الكوفة أن يتحول إلى دار علم عالمية ، قد تعيد مجد دار الحكمة ببغداد ، و مدارس بابل القديمة . وتصبح مؤسسة حضارية ترفد الدولة بالمختصين والخبراء ، فأغلب أعضاء الجمعية كانوا من الدارسين في الجامعات الغربية .

بعد سقوط النظام

ظل التشيع بالعراق موحداً ومختلفاً في آن واحد . موحداً في الانتماء إلى ثوابت المذهب من الاعتراف بمركزية النجف والمرجعية الدينية ، التي نادراً ما تجتمع لمرجع واحد يبرز لأعلميته ودوره الاجتماعي ، وعلى الرغم مما حصل فيما عُرف بـ«ثورة العشرين» ، وما حصل من مواجهات مع الدولة طوال الحقبة الملكية ، إلا أنه لم يظهر حزب سياسي شيعي ، على شاكلة تنظيمات الإخوان المسلمين السُّنِّية . وذلك لعدم شرعية التنظيم الحزبي من قبل المرجعية الدينية . لذا كان يشير البعض إلى آية الله الخميني بالنجف بالشيوعي لاشتغاله في السياسة . ولم يحبذ العديد من المراجع الدينية انصراف رجال الدين إلى العمل الحزبي أو السياسي عموماً . فالمعروف أن أكثر مراجع الشيعة لا تحبذ استباق ظهور المهدي المنتظر ،

بعمل سياسي أو التصدي للسلطة الدنيوية . وقد شاع هذا حتى بين مَنْ تصدوا للعمل السياسي والحزبي . فعلى سبيل المثال سعت إحدى التنظيمات المنشقة عن حزب الدعوة ، وهي حركة «جند الإمام المهدي المنتظر» إلى «تهيئة المناخ والظروف السياسية لظهور الإمام المهدي (ع) ، من خلال إيجاد مناصرين للإمام ، وإيجاد مؤسسات وأطر ينجز من خلالها الإمام مهمته»[٣٥٩] .

لقد شجعت كلمة آية الله السيد محسن الحكيم التالية النشاط والعمل السياسي الحزبي لرجال الدين . قال : «إذا كان معنى السياسة إصلاح شؤون العباد ، والعمل على ترقية أحوالهم ، واستصلاح أمورهم ، فلم يأت الدين الإسلامي المقدس إلا للقيام بهذه الأمور . ومن الطبيعي أن من واجب رجال الدين القيام بها بكل ما أوتوا من قوة وقدرة . كما أن من اللازم عليهم السعي في تطبيق هذه الواجبات على الكل على حد سواء»[٣٦٠] . ويبدو أن حزب الدعوة الذي تشكلت خلاياه الأولى في نهاية الخمسينات بالنجف ، من قبل علماء دين بينهم السيد محمد باقر الصدر والسيد مهدي الحكيم ، هو العمل الحزبي الأول والأهم بين الشيعة . وقد ظهرت في داخله عدة تيارات ، ربما كان أبرزها تيار «حركة الكوادر الإسلامية» ، التي آثرت تمييز سياسة الحزب ونشاطه عن إيران[٣٦١] . ومنظمة «العمل الإسلامي» . و«المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق» .

بعد التاسع من نيسان «أبريل» ٢٠٠٣ دخلت التنظيمات الشيعية المذكورة العراق ، واستفادت من الأجواء الدينية ، التي صادفت زيارة الأربعين . وفتحت لها مقرات في مختلف أنحاء العراق . إلا أنها أخذت تجاري المزاج الشيعي العامي في إعلان الحزن ومظاهر اللطم والتطبير ، وإدخالها إلى مؤسسات الدولة . وحاول عدد من مسؤوليها ، الذين تبوأوا مناصب في الإدارة المؤقتة ، من تعزيز المظاهر الدينية في محاولة منها لفرض الحجاب ، وتعيين المتدينين في الدوائر التي يديرونها ، والتدخل في شوون الموظفين والعاملين الشخصية ، بل ومحاولة فرض هذه الحالة على الشارع العراقي عامة ، واستغلال الظروف للمناداة بفرض الشريعة الإسلامية ، ورفع شعارات لقيام دولة إسلامية . لقد عاشت بغداد ومدن العراق الجنوبية والوسطى أجواء عاشوراء يومياً . وفعلاً تحقق القول : «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء» . لقد استفز هذا الإنفعال اليومي الجهات السُنِّية ، التي لم تكن منتظمة وموحدة في أحزاب وتشكيلات فاعلة ، فظهر نوع من التوتر المخفي تارة ، والمكشوف تارة أخرى بين الطائفتين .

---

(٣٥٩) العجلي ، الخريطة السياسية للمعارضة العراقية ، ص ١٨٨ .

(٣٦٠) المصدر نفسه ، ص ١١٤ ، عن سنوات الجمر ، ص٤٤ .

(٣٦١) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

وحاولت جهات عربية وإسلامية متطرفة تطوير هذا التوتر إلى مواجهات دموية . ظهر ذلك في الفضائيات العربية ، التي لا تريد الاستقرار للعراق ، وفي بيانات الجماعات المتطرفة وبقايا البعثيين . فسارع جماعة من أهل السُنَّة إلى تأسيس ما عرف بهيئة علماء المسلمين بعد سقوط النظام بأشهر . وذلك للموازاة مع المرجعية الشيعية ، التي ظهرت كحوزة دينية وعلمية وجهة تشريعية من قبل ألف عام . والسبب في تأخر ظهور مرجعية سُنَّية كل هذه القرون هو وجود المذهب السُنّي بشقيه الشافعي والحنفي في السلطة . ففي العهد العباسي كان يمثله الخليفة نفسه وقاضي القضاة . وفي العهد المغولي كانت تمثله السلطة المحلية التي عينها المغول بعيد اجتياح بغداد . وفي العهد العثماني يمثله السلطان وشيخ الإسلام ومفتي بغداد . وكان المشهور بين مفتي بغداد هو أبو الثناء محمود الآلوسي . كذلك ليس هناك حقوق مالية تتفرغ لها مرجعية سُنِّية مثلما هو الحال لدى الشيعة .

لكن دور الهيئة ، حتى هذه الساعة ، ظل دوراً سياسياً وتحريضياً . هذا ما يلاحظ في البيانات التي تصدرها ، وتنشرها في جريدتها «البصائر» . والأمر الذي يعنيها هو فقدان سلطة المذهب التي استمرت طوال الحقب السابقة ، بداية من السلطة الأموية ، وحتى سقوط النظام السابق (٤٠-١٤٢٤هـ) . وقد اعترضت على التمثيل الشيعي في مجلس الحكم . جاء في بيانها المؤرخ في تاريخ ١٦ تموز٢٠٠٣ ما نصه : «كان لابد من بيان الحقيقة ، وهي أن الفئة التي أعطيت الأغلبية ، مع احترامنا لها ، لا تمثل في الواقع الغالبية المطلقة على جميع مكونات الشعب العراقي . إذ يشكل المسلمون الآخرون من عرب وكرد وتركمان وغيرهم ما يزيد على الخمسين بالمائة ، وفق إحصائيات سابقة ، وإحصائيات خاصة»[٣٦٢] .

لقد فات الهيئة أن للكرد والتركمان تمثيلهم خارج التمثيل السُنّي والشيعي . وبرزت الهيئة تدافع عن النظام السابق من خلال بيانات ، منها دفاعها عن صدام حسين ، بعد إختلاق خبر الاعتداء الجنسي عليه . جاء في البيان : «إذ تقرر هيئة علماء المسلمين في العراق أن الرئيس صدام حسين هو رجل مسلم ، لا يجوز للنصارى أو غيرهم من الكفار أن يمسوه بسوء ، أو أن يهتكوه ، وأن يحترموا أعراف المسلمين بأن نرحم عزيز قوم ذل»[٣٦٣] .

ومن جانب آخر تحول الخطاب الحزبي الشيعي ، بعد سقوط النظام ، إلى خطاب فيه شيء من الاستفزاز للمذاهب والأديان الأخرى . ذلك بتشدده على تحقيق حكم إسلامي وتهديده بالأكثرية . ومن بوادر ذلك ما أعلنه السيد عبد العزيز الحكيم ، رئيس مجلس الحكم لشهر كانون الأول «ديسمبر» ٢٠٠٣ ، من إلغاء قانون الأحوال الشخصية رقم (١٨٨ لسنة

(٣٦٢) بيان هيئة علماء المسلمين في العراق ١٦ تموز «يوليو» ٢٠٠٣ .
(٣٦٣) بيان هيئة علماء المسلمين في العراق ٣٠ تموز «يوليو» ٢٠٠٤ .

١٩٥٩) ، كتمهيد لتطبيق الشريعة الإسلامية . لكن القانون رُفض بشدة من قبل النساء العراقيات وعدد من أعضاء مجلس الحكم ، فألغي بقرار خاص في فترة رئاسة عدنان الباجه جي ، الذي بادر إلى التصويت على رفضه . وبالوقت الذي حاول فيه الحكيم التمهيد لفرض الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية ، وأن يصبغ الدولة العراقية بصبغة دينية أصدرت حكومة إيران مرسوماً يقضي بمساواة النساء بالرجال[٣٦٤] في الإرث . وهو أهم ما تعرض له قانون الأحوال الشخصية العراقي .

ومقابل حدة الخطاب الحزبي الشيعي ، وعلو صوت المرجعية المهدئ مرة والمهدد مرة أخرى ، علا صوت هيئة علماء المسلمين بزعامة حارث الضاري ، حفيد الشيخ الضاري (ت ١٩٢٨) الذي تعاون مع الإنكليز مقابل راتب شهري ، ثم تمرد عليهم بسبب شخصي تحول إلى مشاركة في ثورة العشرين[٣٦٥] ، وما حدث بالفلوجة من استقطاب المتطرفين الإسلاميين لم يكن بمعزل عن نشاط هذه الجماعة . ومن الغرابة بمكان أن يظهر عضو الهيئة عبد السلام الكبيسي على شاشة قناة «الجزيرة» ليصف ما حدث بالفلوجة أنه فتح من الفتوحات الإسلامية الهامة! وبعيداً عن تطبيع العلاقة مع الشيعة أقدم شيوخ فلوجيون على إصدار فتوى قتل بحق ستة شباب من الشيعة والتمثيل بجثثهم . وقامت جماعة علماء المسلمين بتأييد جيش المهدي بزعامة مقتدى الصدر . وذلك للإستفادة من خلافه مع الحوزة الدينية والأحزاب الشيعية .

ظلت جريمة قتل السيد عبد المجيد الخوئي ، نجل آية الله أبي القاسم الخوئي ، في اليوم اللاحق لسقوط النظام البعثي ببغداد تلاحق السيد مقتدى الصدر وأعوانه . ومن أسباب عدم تجاوب النجفيين والكربلائيين ، وعموم الشيعة مع ما عرف بجيش المهدي أو الحركة الصدرية ، هو تصدي مقتدى المتأخر لزعامة جماعة شيعية ، ليس لها أي صوت أو كلمة في ظل النظام السابق ، الذي قتل أباه وأخويه . يضاف إلى ذلك تخبطه في اتخاذ القرارت ، وعدم نضجه ومعاندته للحوزة العلمية بزعامة آية الله علي السيستاني ، وتعريض المدن المقدسة لعنف وقتال راح ضحيته المئات . إلا أن هناك تأييداً خفياً لجيش المهدي من قبل جماعات من الأحزاب الشيعية الأخرى ، ينطوي هذا التأييد على إسهام هذا الجيش في الحفاظ على الأجواء والمظاهر الدينية بالمدن العراقية ، من فرض الحجاب والحرب على بيع

---

(٣٦٤) جريدة الشرط الأوسط للندنية ١١ أيار «مايو» ٢٠٠٤ .

(٣٦٥) الوردي ، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ٥ ج٢ ص٦٧-٦٦ . ورد في تقرير معاون الحاكم العسكري السياسي بالفلوجة« إن عشيرة زوبع منشقة تضم كثيراً من الفروع الصغيرة التي ورثت من العهد التركي نزعة الاستقلال بعضها عن بعض . ولهذا فاني بذلت كل جهدي لتدعيم نفوذ الشيخ ضاري» .

وتعاطي الخمور، وتعميم الإلتحاء وأقامة العزاء الحسيني. وبقدر ما استفاد المتشددون من تصرفات جيش المهدي العدوانية، في فرض الحالة الدينية، بدأ العد التنازلي لشعبية تلك الجماعات، بعد أن حصرت فاعليتها في محاولة قيام دولة دينية على مثال الدولة الإيرانية التي بدأت تتصدع.

ظهر اسم مقتدى الصدر أول مرة عبر الإعلام في حادث قتل السيد عبد المجيد الخوئي. ثم عبر ممارسات أتباع والده الصدر بمدينة الثورة، وتبديل اسمها إلى مدينة الصدر، مع أن موجدها الزعيم عبد الكريم قاسم لم يسع إلى فرض اسمه عليها، مثلما لم يفرض اسم النبي محمد على يثرب، ولا اسم علي بن أبي طالب على الكوفة، وقد اتخذها عاصمة طوال فترة خلافته.

بتبديل اسم الثورة إلى الصدر، ومناداة الزتباع مقتدى بالقائد، أخذ الناس يتذكرون نرجسية صدام في تصرفات الجماعات الدينية، فهو الوحيد الذي عمل على فرض اسمه على مدن ومستشفيات ومطارات ومرافق عامة عديدة، وهو القائد الضرورة. أهم ما يلفت النظر أن كشف المواطن العراقي حقيقة الكثير من أتباع مقتدى الصدر أنهم من فلول أجهزة الأمن البعثية، وقد تطرفوا في ممارسة العنف والقسوة على النساء، وعلى غير المتدينين، بل وغير المنتمين لهم من المتدينين. كان من هؤلاء الشيخ محمد الفرطوسي، الذي ظهر على شاشات التلفزيون متحدثاً عن اضطهاد الأمريكان له باسقاط عمامته. لكن كشف ملفه في دائرة الأمن كوكيل سابق لها اسكته وأزاله من الواجهة تماماً.

ومما يعرفه النجفيون أن والد مقتدى محمد محمد صادق الصدر كان على صلة مع السلطة البعثية، وقد حصل أن فوضته مهمة تجديد إقامات علماء الدين وطلبة الحوزة الأجانب. وكان يستغلها في الضغط لتكريس مرجعيته غير المعترف بها من قبل المراجع الأخرين. وحصل أن امتنع من تجديد إقامة آية الله بشير النجفي، أحد المراجع الكبار بالنجف حالياً، وهو باكستاني الجنسية، مما اضطر الأخير إلى مراجعة السفارة الباكستانية، وأخذ الإقامة عن طريقها. وحصل أيضاً أن قام أتباعه باحتلال مدرسة عائدة لآية الله محمد سعيد الحكيم، وهو من المراجع الكبار أيضاً، ولما التجأ الحكيم إلى السلطة أعادت له المدرسة على خلاف رغبة الصدر. كان مثل هذه الحوادث وراء اختلافه مع السلطة، التي أيدها وأيدته في بادئ الأمر.

بدايةً، حاولت المرجعية الدينية بالنجف امتصاص ظاهرة مقتدى الصدر، وجيش المهدي بعدم الاكتراث، لا تأييد ولا اعتراض. لكن تصرفات جيش المهدي وعبثه في أمن

النجفيين ، ومعاشهم المعتمد على التجارة وزيارة المرقد العلوي ودفن الجنائز وما وصلته الحالة من قتال مع الجيش الأمريكي وابعاد الشرطة العراقية ، كل ذلك دفع المرجعية الطلب لِمَنْ يريد قتال الأمريكيين الخروج إلى خارج النجف .

بعدها برز الصراع بين المجلس الأعلى وجيش المهدي إلى العلن ، فأخذت صلاة الجمعة تتعطل لأسابيع في الضريح العلوي . بل وأخذ مقتدى ينيب عنه نائباً لصلاة الجمعة[٣٦٦] في مسجد السهلة بالكوفة .

أخذت الأحداث بالتطور السلبي بعد تخطي جماعة جيش المهدي الحدود ، فأخذوا يتسلحون بالأسلحة الثقيلة ، ويعلنون عن تأسيس محاكم شرعية بالنجف ومدن عراقية أخرى . فأصبح وضع الحكومة العراقية المؤقتة محرجاً أمام أهالي النجف ، فقد ضاقوا ذرعاً بتصرفات هذه الجماعة . لذا أقدمت الحكومة إلى وضع حد لهذه التصرفات ، والتضييق على مظاهر التسلح والعنف . أعدت لذلك قوة مدربة تعدادها ثمانمئة ضابط وجندي ، مع طلب المساعدة من القوات الأمريكية المتواجدة في محاذاة مدينة النجف . بدأ التصعيد من بداية أغسطس ٢٠٠٤ ، فتحصن جماعة جيش المهدي ومقتدى الصدر في داخل الضريح العلوي ، بذريعة الدفاع عنه ، مع أن النجفيين والعراقيين عموماً يعلمون أن الخطر يأتي من هذه الجماعة . فليس للحكومة العراقية ولا القوات الأمريكية من مصلحة في الاعتداء على الضريح وتهييج عموم الشيعة ضدهم .

لم يسمع مقتدى الصدر الدعوات المتكررة من قبل رئيس مجلس الوزراء ، في الخروج من الحضرة العلوية ، ورمي السلاح ، والشروع بالدخول في العملية السياسية والانتخابات

---

(٣٦٦) معلوم أن صلاة الجمعة صلاة سياسية بالدرجة الأولى . ذلك طوال فترة الحكم الأموي والعباسي . ففيها الدعاء لولي الأمر ، وتقديم الطاعة له . والشيعة بشكل عام لا ترى صلاة الجمعة إلا بظهور المهدي المنتظر لأنها صلاة دولة ويجب أن تكون بظل حاكم عادل تولى الإمامة على أساس نظرية الشيعة فيها . إلا أن الإيرانيين أخذوا يصلون صلاة الجمعة المليونية بعد الثورة الإسلامية . وقيل كان محمد مهدي الخالصي يصليها بالكاظمية وهو يلبس الكفن . وهناك مَنْ يرى أن محمد محمد صادق الصدر صلى صلاة الجمعة بتأييد من صدام حسين ، كي يبدو أنه الحاكم العادل . ثم أُغري الصدر بكثرة المصلين فأخذ يطالب الدولة بحرية المواكب الحسينية وإطلاق سراح السجناء من رجال الدين الشيعة . وكان يردد عبارة «نريد نريد نريد» ، فقتل بأثر ذلك . ربط التقليد الشيعي صلاة الجمعة بوجود الإمام العادل ، فقد أفتى السيد محسن الحكيم لِمَنْ أستفتاه في أمر الجمعة بالآتي : «يشترط في صلاة الجمعة أمور منها وجود السلطان العادل كالنبي (ص) والإمام ، مع بسط اليد بأن يكون له سلطان يتولى به الأمور العامة . ومن جملة تلك الأمور العامة نصب إمام الجمعة الذي يصلي بالناس صلاة الجمعة . فإذا لم يكن سلطان ولا من منصوب من قبله للإمامة في صلاة الجمعة فلا تشرع صلاة الجمعة...»(رؤوف ، العمل الإسلامي في العراق بين المرجعية والحزبية ، ص ٢٣٣ عن الحق يدمغ الباطل ، ص ٤١) .

القادمة (يناير ٢٠٠٥) ، كذلك لم يستقبل اللجنة التي شكلها المجلس الوطني ، الذي انعقد ببغداد (أغسطس ٢٠٠٤) . وكان ضمن اللجنة أو الوفد قريب مقتدى الصدر السيد حسين الصدر ، وقيل خالته أيضاً . وبهذا وجهت السلطة الإنذار عقب الإنذار تجنباً للقتال في الحضرة العلوية .

وقبيل ساعات من هجوم موكد ، قررت السلطة العراقية شنه ضد المتحصنين داخل الحضرة ، جاءت مبادرة آية الله السيد علي السيستاني حال عودته من رحلة العلاج بلندن ، ونصت على التالي : تسليم أمور الأمن إلى الشرطة العراقية . وتسليم مفاتيح الحضرة العلوية إلي المرجعية الدينية بعد خروج جماعة جيش المهدي منها . وإخلاء النجف من المظاهر المسلحة أي تسليم جيش المهدي أسلحتهم إلى الشرطة العراقية . وتحمل السلطة تعويضات المتضررين من جراء الأوضاع الشاذة . قَبِل مقتدى الصدر بمبادرة السيد السيستاني ، وهي ليست المبادرة الأولى ، فقد تجاهل مقتدى عدة مبادرات ومناشدات سابقة . لكن هذه المرة جاءت المبادرة خلاصاً له من نهاية محتومة . كانت المبادرة متوازية مع وجود قوة حكومية ، وقفت تماماً عند بوابات الضريح ، مع خطة اقتحام محكمة حسب تصريحات السلطة العراقية . انتهى الحدث بانسحاب جيش المهدي من داخل الحضرة ، وتسليم بعض اسلحته .

رافق ذلك دعوة جماهيرية اطلقها السيستاني لزيارة الضريح . لكن المفاجأة أن كشفت الشرطة العراقية وفضائية عربية محايدة عن أكثر من عشرين جثة في باحة البناية التي اتخذها جيش المهدي مقراً لمحكمته الشرعية ، عليها آثار التعذيب والحرق . وكانت السلطة العراقية قد حذرت ، وفقاً لما وصلها من شكاوى ونداءات إغاثة من جرائم تنفذ ضد المواطنين داخل المحكمة الشرعية . ظهرت شبيهة كثيراً ببيوت الأشباح التي فتحتها الجبهة الإسلامية بقيادة حسن الترابي بالسودان ، وفضحتها المعارضة السودانية ، ومنظمات حقوق الإنسان . كان مقتدى الصدر ومستشاروه يعتقدون أن التحصن في الحضرة العلوية سيثير الرأي العام الشيعي والإسلامي على السلطة العراقية . وذلك تجاوباً مع احتجاجات السلطة الإيرانية التي لم تلاق صدى واضحاً حتى داخل إيران .

إن حركة مقتدى الصدر ، حسب المعطيات العراقية الرسمية وملاحظة تصرفات الدولة الإيرانية ، أنه كان ورقة بيد رجال الدين الإيرانيين ، فهو لم يعلن التمرد بهذه الحدة رغم اتهامه بقتل السيد عبد المجيد الخوئي إلا بعد الحصول على تأييد وتشجيع إيرانيين . فما أعلنه حزب الله ، المدعوم إيرانياً ، بلبنان على لسان السيد حسن نصر الله من تأييد مفتوح لحركة مقتدى ، وما أعلنه مقتدى نفسه من أنه ذراع حزب الله الضارب بالعراق . وبالتالي هو ذراع طهران ، يؤكد تلك الصلة . تحاول إيران بتشجيع أي عمل مضاد داخل العراق ترحيل

مصائبها الداخلية ، والتغطية على ملاحقات المجتمع الدولي لملفها النووي ، وتنشيط مشاكل كبرى فيها مثل المشكلة الأهوازية والكردية . يضاف إلى ذلك أن نجاح التجربة العراقية في دولة لادينية ، وتحقيق ديمقراطية غير مقيدة فيه ما فيه من ايقاظ الشعب الإيراني ضد سلطته الثيوقراطية ، التي رجعت بإيران عشرات السنين إلى الخلف .

عموماً ، كان حال المشهد الشيعي السياسي والحزبي تعاظماً ثم انحساراً شعبياً ، ومعارك جانبية ، وعدم وجود رؤية مستقبلية . وهذا ما شجع إلى إعلان مبادرة تأسيس ما عُرف بالبيت الشيعي من إسلاميي الشيعة وعلمانييها . هذا ما يخص الأحزاب والمؤسسات ، أما السواد الأعظم من الشيعة فهم يتوقون إلى دولة يسودها القانون والأمن والإستقرار ، تعالج ما خلفته الحقبة البعثية من كوارث .

محاولة إحصاء

بلغ عدد الشيعة حسب الإحصاء البريطاني العام (١٩١٩) مليون وخمسمائة ألف نسمة من مجموع مليونين وثمانمائة وخمسون ألف نسمة ، فكانت النسبة ٥٣٪ . وفي العام (١٩٣٢) بلغ عددهم (١٦١٢٥٣٣) نسمة من مجموع (٢٨٥٧٠٧٧) نسمة ، والنسبة تصاعدت إلى ٥٦٪[٣٦٧] . وفي إحصاء ١٩٤٧ بلغ عدد الشيعة عرباً وأكراداً (فيلية) وتركماناً (٢٤١٦٠٠٠) نسمة (من غير الفرس الشيعة البالغ عددهم (٥٢٠٠٠ نسمة) ، من مجموع عدد سكان العراق (٤٥٦٤٠٠٠) نسمة[٣٦٨] . وكل ما يعلن من الإحصاءات يتجاهل التركيبة المذهبية . يتعلق الأمر بالمخاوف من تقدير الأغلبية السكانية ، وما يترتب على ذلك من صلة بالسلطة ، وربما هناك حسن نية لإبعاد مظاهر الشعور الطائفي . إلا أن الجنوب والوسط العراقي ذو غالبية شيعية تعيش بينها قلة سُنّية ، إلا بغداد فتبقى متلونة الأديان والمذاهب ، وقد يتوازن فيها عدد القاطنين من المذهبين ، إضافة إلى كثافة مسيحية وصابئية مندائية وندرة يهودية .

---

(٣٦٧) نقاش ، شيعة العراق ، ص ٣٢ .

(٣٦٨) بطاطو ، العراق ١ ص ٦٠ .

الفصل السادس

المـذهب الحنفـي

نشأ بين ظهراني الكوفة، مركز سواد العراق، مذهب فقهي وفكري عرف بالمذهب الحنفي، نسبة إلى مؤسسه الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت. واشتهر باسم أهل العراق، وأهل الرأي، وأصحاب أبي حنيفة. وربما عُرف أيضاً بأهل القياس. غير أن التسميات المذكورة ظلت متداولة في نطاق الرواية التاريخية فقط، ليعرف في ما بعد بالمذهب الحنفي. وكذا الحال بالنسبة إلى المذاهب الأخرى: عُرفت بين المسلمين بنسبتها إلى مؤسسيها. وهي المذاهب الفقهية الخمسة السائدة منذ ظهورها وحتى الآن في العالم الإسلامي. وهناك مذاهب تشترك مع المذهب الحنفي في مقالات وتشريعات، أخذت من الفكر المعتزلي أُصولها، مثل الإباضية بعُمان، والزيدية الشيعية بصنعاء اليمن وتوابعها، من غير عدن وتوابعها جنوباً.

وإن اختصت البصرة بظهور علم الكلام، وظهور المعتزلة والإباضية والفرق الأخرى، اختصت الكوفة بعلم الفقه، فضلاً عن اختصاص المدينتين بمدرستين لغويتين، اقتسمتا إرث اللغة العربية، واختلفتا في نحوها وصرفها وعلومها بشكل عام. انعكس هذا الاختلاف على البصريين والكوفيين: فقهاء وجغرافيين وأدباء وشعراء، فمدوا الخلاف إلى التفاخر بلطف البيئة وكثرة الزروع. على الرغم من أن السواد والفرات، بعد امتزاج مياه الأخير بمياه دجلة، يجمعان بينهما، وشملت المفاخر والأهاجي الماء والهواء.

إلا أن التصور العام حول ماضي الكوفة وحاضرتها الحيرة، وامتدادها البابلي قد يفيد لتعيين بعض الأسباب التي دفعت الكوفيين إلى التفكير بهذه الطريقة المختلفة عن عواصم إسلامية أخرى، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن معظم نصوص كتاب «نهج البلاغة»، قد قيلت من على منبر مسجد الكوفة في فترة إسلامية مبكرة، تعود العقد الرابع الهجري. بدا

ذلك وكأن ماضي الكوفة الحضاري ، وإرث ملوكها المناذرة ، وانفتاحهم الاجتماعي لم تبرح المكان ، إذا آمنا أن لحاضر الفكر والثقافة صلة قوية بالماضي . فالإسلام أخرج علوماً وفنوناً وعمارة وفلسفة بعد عملية طويلة من التأثير والتأثر . وكل بيئة أضافت ما لديها من مواهب ، فظهر التنوع داخل الإسلام الواحد الرحب . وكانت الإشارة إلى هذا التعدد والتنوع صريحة وواضحة في القرآن الكريم . وإذا كان تأثير محيط الكوفة : بابل والحيرة ، أقل على عبد الله بن مسعود الحجازي ، فتأثيره أكبر على أقطاب مدرسة الرأي : النخعي وحماد والنعمان ، وكان الثلاثة من أهل الكوفة ولادة ومنشأً .

الثلاثة الأوائل

تمتد جذور أهل الرأي أو المذهب الحنفي إلى عقود الإسلام الأولى ، حيث الصحابي عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) وولايته لبيت مال الكوفة ، وكان قارئها وفقيهها الأول . والفقيه التابعي إبراهيم النخعي(ت ٩٦هـ) . والفقيه حماد بن أبي سليمان (ت١٢٠هـ) . وعن الأخير أخذ أبو حنيفة الرأي . عاش هؤلاء الأربعة بالكوفة وتصدروا أمور الدين فيها ، ومنذ إمامة النخعي ظهرت تسمية أهل الرأي . فما الجامع بين هؤلاء؟ هل هو المكان؟ ولماذا احجمت الكوفة دون سواها عن الإكثار من رواية الحديث؟ لم تهتم الروايات والأخبار بهذه الظاهرة . وما تناقله المؤرخون كان مجرد تراجم شخصية . وبالتالي فالمصادر لا تعين في الإجابة على الأسئلة الآنفة .

إن أبرز مشترك بين أعمدة الرأي المذكورين هو موقفهم السلبي من رواية الحديث النبوي . وبالتالي فسح المجال للرأي . أو بعبارة أخرى تقديم العقل على النص . وهذا لا يعني بمكان رفض النص بقدر ما يعني مواجهة المستجد من أمور الدنيا بالرأي ، والاعتماد على روح النص ، والقياس ، الذي أُستخدم ، أثناء المواجهات المذهبية ، ضد أبي حنيفة وأصحابه . عُرف عبد الله بن مسعود بالمقل في رواية الحديث . ولهذا لم يدخل اسمه في الجرح والتعديل . وربما أيضا لأنه من الصحابة . والصحابة ، حسب مذاهب سُنّية : فوق الميول والاتجاهات[1] . مع أن للشيعة والإباضية موقفهم السلبي والصريح من فريق كبير من الصحابة .

وبسبب كثرة رواية الحديث ، ظهر ضرب من التأليف عُرف بالجرح والتعديل . والمجروحون هم الكذابون ، أو غير الثقة في النقل . والعدول هم الصادقون الموثقون . وظهرت

---

(١) راجع كتاب القاضي عياض «الشافا في حقوق المصطفى» ففيه العديد من العقوبات الصارمة ضد منتقدي وشاتمي الصحابة كافة .

أحاديث الوقاية من الكذب في النقل عن الرسول ، ماعدا ما أجازه أهل العلم لمصلحة دينية أو اجتماعية ، أي الأحاديث الموضوعة المجازة . فهذا الصحابي أبو هريرة ، وهو أحد المكثرين من الرواية ، ولعل ذلك كان ميلاً من ميول المعرفة والاهتمام لديه ، تعرض إلى تهمة الكذب حتى من جهات سُنِّية ، فأضطر أن يدافع عن نفسه بالقول : «إن الناس قد قالوا : قد أكثر أبو هريرة من الحديث عن رسول الله . وأني كنت ألزم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بشبع بطني»[٢] .

وقال : «قلت لرسول الله : إني اسمع منك حديثاً أنساه ، فقال : ابسط رداءك؟ فبسطته ، فغرف بيده فيه . ثم قال : ضمه . فضممته . فما نسيت حديثاً قط»[٣] . دفعت تهمة الكذب أبا هريرة إلى الدفاع عن نفسه وسط السوق . وهو المكان الأنسب لإذاعة أمر ما . قال : «أيها الناس مَنْ عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني ، فأنا أعرفه بنفسي . فأنا أبو هريرة . أيها الناس : أني سمعت رسول الله يقول : مَنْ كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . فدعوا أبي هريرة يتبوأ مقعده من النار إن كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٤] . وهناك مَنْ قال من الحنابلة : «لم يكن من فقهاء الصحابة ، وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب أشياء»[٥] ، كي يتمكن الحنابلة الطعن على أبي هريرة لا بد من إخراجه من سجل الصحابة ، فهم ملتزمون في إجلال كل مَنْ له صحبة مع النبي . واتهمه عمر بن الخطاب بسرقة أموال يوم كان عاملاً له بالبحرين . وأشارت عليه عائشة بالكذب فيما روي من أحادث ضد النساء . وإن صحت رواية أبي هريرة لقرابة خمسة آلاف حديث نبوي ، فمعنى هذا أنه عاش معاناة كبيرة ليرويها ، وتمتع بذاكرة قوية ، وشغله الشاغل الرواية لا غيرها . قد لا يلام أبو هريرة على ذلك إذا عرفنا أن للشعراء والخطباء رواة يتبعونهم ويحفظون عنهم . ولولا هذه الميول ما وصلت لنا قصيدة شعر ولا خطبة من الخطب . فكيف والحديث حديث الرسول والفعل فعله؟ ولماذا يُنتقد أبو هريرة على رصيده من الرواية ، وفضله فيها ، كل هذا الانتقاد؟ والجواب أن أبا هريرة كان يتعامل مع سُنَّة سيتحمل الناس تبعات التقيد بها . فكثيراً ما تُذل النساء ، وتقطع الرقاب بأحاديث نبوية ، وكم نقل أبو هريرة وأمثاله بسماع ربما كان متخيلاً؟

وكان عبد الله بن مسعود ، خلاف أبي هريرة ، مقلاً في الرواية ، فهو القائل : «والله الذي لا إله إلا هو! ما على ظهر الأرض أحوج إلى طول سجن من لسان»[٦] . قال : «كفى

---

(٢) الجرجاني ، الكامل في ضعفاء الرجال ١ ص ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ١ ص ٣٤ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ ج ١ ص ٢٣ .

(٦) الأصبهاني ، حلية الأولياء ١ ص١٣٤ .

بالمرءِ إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[٧] . ونقل عنه أيضاً : «الاقتصاد في السُنَّة أفضل من الاجتهاد في البدعة»[٨] . وقال عنه الإمام علي بن أبي طالب : «قرأ القرآن ثم وقف عنده ، وكفى به»[٩] . وقال أبو عمر الشيباني : «كنت أجلس إلى ابن مسعود حولاً لا يقول قال رسول الله ، فإذا قال : قال رسول الله استقلته الرعدة . وقال : هكذا ، نحو ، إذا ، قريب من هذا»[١٠] . وقال عمرو بن ميمون : «صحبت عبد الله (ابن مسعود) ثمانية عشر شهراً ، فما سمعته يُحدث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حديثاً واحداً ، فرأيته يفرق ثم غشيه بهر . ثم قال : نحوه أو شبهه»[١١] . وقوله : «كان عبد الله بن مسعود يأتي عليه الحول قبل أن يحدثنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بحديث»[١٢] . إلا أن المؤرخ نفسه ينقل الرواية الآتية : «بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود وإلى أبي الدرداء ، وإلى أبي مسعود الأنصاري ، ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم؟ فحبسهم في المدينة حتى استشهد» . ولعل الشك في الرواية الآنفة يوجبه تواجد ابن مسعود بالكوفة حتى خلافة عثمان بن عفان .

وكان ابن مسعود من المسلمين الأوائل ، وأول مَنْ جهر بقراءة القرآن الكريم ، وحفظ عن لسان الرسول سبعين سورة ، ودخلِ قلبه حزن حينما لم تسند إليه مهمة جمع القرآن ، بدلاً من زيد بن ثابت ، الذي كان طفلاً يوم كان ابن مسعود يحفظ ويرتل القرآن . والرسول أوصى بقراءة ابن أم عبد ، أي ابن مسعود . وقيل : هو قاتل أبو جهل(كان يكنى قبل الإسلام بأبي الحكم) في معركة بدر . ومع ذلك كان رصيده من رواية الحديث في الصحيحين أربعة وستين حديثاً فقط[١٣] . وعلى رواية كان ثمانمئة وأربعين حديثاً ، مفرقة في كتب الحديث الأخرى . وهذا العدد مبالغ فيه .

الشخص الثاني في مدرسة الرأي هو أبو عمران إبراهيم بن زيد بن الأسود النخعي . ولعله العربي الوحيد بين مجايليه من بين فقهاء الأمصار ، إذ كان معظمهم من الموالي . هذا ما أخبر به ابن عطاء الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك . وقيل إنه رأى عائشة أم المؤمنين ، وهو صبي يرافق عمه وخاله إلى الحج[١٤] . ويذكر أنه كان مقلاً في رواية الحديث ، رغم أنه

---

(٧) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ ص ١٣- ١٥

(٨) المصدر نفسه .

(٩) الأصبهاني ، حلية الأولياء ١ ص ١٢٩ .

(١٠) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ ص١٣-١٥

(١١) المصدر نفسه ١ ص ٤٩٤ .

(١٢) الجرجاني ، الكامل في ضعفاء الرجال ١ ص ١٨ .

(١٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١ ص ٤٦٢ .

(١٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٦ ص ٢٧٠ .

تابعي وعاصر عدداً من الصحابة فترة طويلة . وحين سُئل عن ذلك قال : «أقول : قال عمر وقال عبد الله ، وقال علقمة ، وقال الأسود ، أجد ذلك أهون عليّ»[15] . كما روي عنه أنه كان يكره السؤال والكتابة والرواية . وكثيراً ما كان يشير إلى الحديث بمعناه[16] . بمعنى أنه لم يثق بذاكرته . لأن نقل أحاديث الرسول لتصبح سنة بين الناس ليس بالأمر الهين . ورغم معاصرته ورؤيته لعائشة ، إلا أنه «لم يثبت له منها سماع»[17] .

كان إبراهيم يكره الحجاج بن يوسف الثقفي ، لحد جعل خبر هلاكه بشارة وفرحاً إلى حد البكاء . قال لمبشره : «كفى عمّي أن يعمى الرجلُ عن أمر الحجاج»[18] . وقال تلميذه حماد : «بَشرت إبراهيم بموت الحجاج فسجد . . . ما كنت أرى أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت إبراهيم يبكي من الفرح»[19] . مات النخعي بعد الحجاج بسنة واحدة ، أي السنة ٩٦هـ . وبالعادة تشير كثرة المشيعين إلى منزلة صاحب الجنازة . لذا حاول ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، وهو من أصحاب الحديث ، أن يحرمه من حظوة التشييع فقال عن أحدهم : «كنت في جنازة إبراهيم ، فما كان فيها إلا سبعة أنفس ، وصلى عليه عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد ، وهو ابن خاله»[20] .

الشخص الثالث في مدرسة الرأي هو حماد بن أبي سليمان (ت ١٢٠هـ) ، مولى الأشعريين ، من أهل بُرخوار من نواحي أصبهان[21] . «كان قاضياً ، وعنه أخذ أبو حنيفة النعمان الفقه والحديث»[22] . ومثل سلفيه كان مقلاً في رواية الحديث ، ووصف بالضعيف[23] . وقال عنه العقيلي : ليس بثقة ، كاذب لا يصدق . وقيل إنه كان مصاباً بالصرع . قال أحد معاصريه : «رأيت حماد يصرع»[24] . وورد أنه لا يحفظ الحديث[25] . وفي غمرة الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي ، أو بين الحجازيين والعراقيين ، قال مالك بن أنس : «أهل البصرة عندنا أهل العراق ، وهم الناس . ولقد كان بالكوفة رجال : علقمة ، والأسود ، وشريح ، حتى وثب إنسان يُقال له حماد ، فاعترض هذا الدين ، فقال فيه برأيه .

---

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
(١٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١ ص ٦ .
(١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٧٩ .
(١٩) المصدر نفسه .
(٢٠) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٤٦٤ .
(٢١) المزي ، تهذيب الكمال ٥ ص١٨٧ .
(٢٢) النديم ، الفهرست ، ص ٢٨٥ .
(٢٣) الطبقات الكبرى ٦ ص٣٣٢ ، العقيلي ، الضعفاء الكبير ١ ص٣٠١ .
(٢٤) الجرجاني ، الكامل في ضعفاء الرجال ٢ ص ٦٥٤ .
(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥٥ .

ثم رهق رجل يقال له أبو حنيفة ، ففسد الناس»[٢٦] . لكن مالكاً نفسه قال في أبي حنيفة النعمان ، برواية الشافعي : «رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته»[٢٧] .

إن صحت الرواية السابقة عن مالك بن أنس فأنه عنى بأهل البصرة العثمانيين ، الذين أيدوا عثمان بن عفان ، وحاربوا علي بن أبي طالب بقيادة عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . أما الكوفة فكانت مع علي ، مثلما هو معروف . ولعل معاداة أهل الرأي جعلت ابن عدي ، وهو أبرز المؤلفين في التجريح ، أن يخص حماد بالذات بمرض الصرع الذي صاحبه يكون أقرب إلى الجنون . ووصمه بالكذب والتدليس والنسيان . والسبب أن حماداً كان أحد أعمدة مدرسة الرأي أو المذهب الحنفي في ما بعد . وسيتضح هذا من شهادة الإمام أبي حنيفة . فمن أخبار الجرجاني ضد حماد : أنه اشترك «في رواية الخبر المرفوع إلى المغيرة بن شعبة : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أتى سباطة بني فلان ، فج رجليه ثم بال قائماً»[٢٨] .

قال ابن عدي حول حماد : كان «كثير الرواية ، وخاصة عن إبراهيم ، المسند والمقطوع ، ورأي إبراهيم ، ويحدث عن أبي وائل ، وعن غيرهما بحديث صالح . وتقع في أحاديثه افرادات وغرائب ، وهو متماسك في الحديث لا بأس به»[٢٩] . وفي مكان آخر قيل : أسانيده في رواية الحديث على قلتها ، من الثقات : إبراهيم النخعي ، وأنس بن مالك ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس[٣٠] . تتلمذ أبو حنيفة على حماد بن أبي سليمان طوال ثمانية عشر عاماً ، وظل ملتصقاً به حتى مماته . قال : «لزمت حماداً لزوماً ما أعلم أن أحداً لزم أحداً مثلما لزمته . وكنت أكثر السؤال ، فربما تبرم مني ، ويقول : يا أبا حنيفة ، قد أنتفخ جنبي ، وضاق صدري»[٣١] . ومن شغف أبي حنيفة بأستاذه سمى ابنه حماداً . وبهذا يصعب الأخذ براوية تلمذة أبي حنيفة للإمام جعفر الصادق . وبالقول المشهور : «لولا السنتان لهلك النعمان»[٣٢] ، إشارة إلى مدة تلمذته على يد الصادق .

---

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٣٨ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٦٥٦ .

(٢٩) الجرجاني ، الكامل في ضعفاء الرجال ٢ ص ٦٥٦ .

(٣٠) المزي ، تهذيب الكمال ٥ ص ١٨٧ .

(٣١) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص ٤٨ .

(٣٢) وردت هذه العبارة كثيراً في المصادر الحديثة ، مثل «الإمام جعفر الصادق» لعبد الحليم الجندي ، و«الصادق والمذاهب الأربعة» لأسد حيدر ١ ص ٧٠ . والكل أخذ عن مختصر التحفة الاثني عشرية للدهلوي ، اختصار الألوسي ، ص ٨ .

نقول يصعب اعتماد هذا القول لأن شيخ أبي حنيفة هو حماد. ولم يُعد الصادق ضمن مشيخة أبي حنيفة. وأن اتجاهه كان الرأي والاجتهاد والقياس المختلف عن اتجاه الصادق والمدرسة الشيعية التي لم تأخذ بالاجتهاد إلا في القرن السابع الهجري على يد العلامة الحلي. يضاف إلى عمرهما المتقارب. ولعل الرواية التالية تفيد بتأكيد ما ذهبنا إليه. قال قاضي الكوفة عبد الله بن شبرمة عن محمد بن يحيى الربعي: «دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد بن علي، فسلمتُ، وكنت صديقاً. ثم أقبلت على جعفر فقلت له: أمتع الله بك، هذا رجل من أهل العراق، له فقه وعلم. فقال لي جعفر: لعله الذي يقيس الدين برأيه. ثم أقبل عليَّ فقال: هو النعمان بن ثابت...»[٣٣]. وتستمر المناظرة بينهما حول القياس. بمعنى أن الصادق تعرف شخصياً على أبي حنيفة وهو فقيه معروف، وأن صيته وصله قبل هذا اللقاء. ذلك بعبارته: «لعله الذي يقيس الدين برأيه»، فكيف تتلمذ على يديه!

عُدَّ الثلاثة: إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان، وأبو حنيفة النعمان من المرجئة. ذلك بسبب رأيهم في الإيمان: أن يكون في الجوارح، وأنه لا تنقصه الذنوب، ولا تزيده الفضائل. كان ذلك مع أن ابن سعد في طبقاته يذكر موقف إبراهيم السلبي من الإرجاء عامة. كما تلازم الثلاثة في مسند أبي حنيفة، فكان ابن مسعود، وإبراهيم، وحماد أسانيد أغلب الأحاديث. وكان المسند الذي جمعه وشرحه القاري الحنفي (ت ١٠١٤هـ) هو واحد من عدة مسانيد. غير أن عدداً من الأحاديث المروية فيه قد لا تتفق ووجهة نظر أبي حنيفة وأسلافه من أصحاب الرأي. وكثيراً ما تتفق وفكرة المرجئة لا خلود في جهنم. من تلك الأحاديث ما ملخصه: أن رجلاً سأل الرسول عن خلود الموحدين بالنار، فقال الرسول: يبقى رجل في قعر النار، يخرج منها بعد أن ينادي بالحنان المنان[٣٤]. وأن هناك من الحديث ما لا يتفق مع رأي أبي حنيفة بالمرأة، التي أجاز لها ولاية القضاء، وأعفاها من حد الردة. جاء فيه: «لا تسافر المرأة إلا مع محرم». و«أن رسول الله خرج في جنازة فرأى امرأة تتبع الجنازة، فأمر بها فطردت، فلم يُكبر حتى لم يرها»[٣٥]. نقول: كيف يأذن أبو حنيفة للمرأة أن تتولى القضاء، وليس لديها حرية السفر، إلا مع رقيب. وأن تمنع من المشاركة في تشييع الجنائز؟ إلا إذا كان الإمام أبو حنيفة ينقل ما يسمع، من دون اعتبار لموقفه ورأيه!

---

(٣٣) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٧٦.

(٣٤) المكي، مسند أبي حنيفة، ص٢٠ - ٢٤.

(٣٥) المصدر نفسه، ص٢٥٠ - ٢٨٥.

انحداره البابلي

شاع عن أبي حنيفة أنه من بلاد فارس ، وبهذا يحسب هو ومذهبه على الشعوبية ، كما ظهرت في القرن الثاني والثالث الهجريين . لكنه كما يبدو عراقي من أصول غير عربية . قال الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) : كان نبطياً ، أي من فلاحي سواد العراق . وأنه من أهل بابل «وربما قال في قول البابلي كذا»[٣٦] . والبابلي هو النبطي . قال النبطي أحمد بن علي المعروف بابن وحشية (القرن الثالث الهجري) ، مستهلاً ترجمة كتاب «الفلاحة النبطية» : «فو الله أن الغيرة على الناس تحملني على إظهار علومنا لهم ، لعلهم ينتهون عن ثلب النبط»[٣٧] . والكتاب المترجم كان حول الزراعة ببابل .

وفي رواية أخرى انحدر أبو حنيفة من الأنبار في غرب العراق . وفي رواية مرفوعة إلى حفيده القاضي إسماعيل بن حماد ، قال : نحن «من أبناء فارس الأحرار»[٣٨] . والمعروف عن الأبناء بالعراق أو اليمن أنهم من أبناء الفرس القاطنين بالبلدين ، ومن أمهات غير فارسيات ، أي أثناء السيطرة الفارسية على العراق ، والتي دامت حوالى خمسة قرون . وأكد ابن ساباط انحداره العراقي بالقول : «ولد أبو حنيفة وأبوه نصراني»[٣٩] ، واسمه عتيق بن زوطرة أو زوطى . وزواطى بلدة عراقية بين واسط والبصرة ، أي مكان سكنى النبط والزط . وقال الكردري أنه من أهل بغداد ، قبل العباسيين طبعاً . وقال : إنه من بابل «فبغداد تسمى ببابل»[٤٠] . والراويات الآنفة تؤكد تصحيف بابل إلى كابل عند النديم حين قال : «وهو من أهل كابل»[٤١] .

وقيل أصله من نسأ بخراسان ، أو من ترمذ . والروايتان الأخيرتان غير مشهورتين . واللافت للنظر ، فيما يحكى عن نسب أبي حنيفة ، أن معظم الباحثين المصريين يتكالبون لتأكيد انحداره الفارسي ، مثل أبي زهرة في «أبو حنيفة حياته وعصره - آراؤه الفقهية» . وشوقي ضيف في «العصر العباسي الأول» . وبالطريقة نفسها تعاملوا مع أبي نواس ، مع أن والد الأخير كان شامياً وأمه بصرية . أجد فيما قاله المصريون عن الإمام العراقي أبي حنيفة أن شافعيتهم دفعت بهذا الاتجاه ، وأحسب مساور الوراق قد فضح دوافعهم بالقول :

---

(٣٦) الغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٢٥ .

(٣٧) ابن وحشية ، الفلاحة النبطية ١ ص٧ .

(٣٨) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٢٦ .

(٣٩) المصدر نفسه ١٣ ص ٣٢٤ .

(٤٠) المكي ، مناقب أبي حنيفة ٢ ص٧٣ .

(٤١) النديم ، الفهرست ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

إذا مـا أهـــل مصر بـادهــونـا

بـداهـــيـة مـــن الفتـيـا لطيـفه

أتيـنـاهـم بمقـيـاس صحيـح

صليـب مـن طـراز أبي حنيفه

إذا سَـمَـع الفقـيـه بـه حـوارا

وأثبـتـه بحـبـر في صحيفه[٤٢]

قال مساور ذلك بعد أن هجا الإمام متعرضاً إلى مذهبه بالقياس ولموالاته وبيعه الخز :

كنـا مـن الدين قبـل اليوم في سعة

حتى ابتلينـا بأصحـاب المقاييس

قامـوا من السوق إذ قلت مكاسبهم

فاستعملـوا الرأي عند الفقر والبوس

أمـا العُريب فأمسـوا لا عـطاء لهـم

وفـي المـوالي علامات المفـاليس[٤٣]

أما غضب المصريين من أبي نواس ، وفي مقدمتهم عباس محمود العقاد في كتابه «أبو نواس ، الحسن بن هاني» فيبدو كان ثأراً قديماً . إذ قال في أهل مصر ، وهو يشتاق إلى بغداد :

فـإن تـك مـن فرعون فيكم بقية

فـإن عصا موسى بـكف خصيب

وخصيب كان والي مصر للعباسيين . لذا أعتبر العقاد وشوقي ضيف حنين إبي نواس لبغداده حنيناً للمجون . وكأن ليس ببغداد غير المجون . ولعل استخدام الخصوم انحداره غير العربي في الحرب المعلنة على أبي حنيفة ومذهبه جعلت الحنفيين يزرعون شجرة نسب لإمامهم ، أصلها الأنبياء وفرعها النعمان ، ويسقطون اسم زوطرة منها . قال أبو الوفاء القرشي عن أبي إسحاق الصيرفيني : «النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز بن مرزبان بن بهرام بن مهركر بن ماحسير بن حسنسل . . . بن يهودا بن يعقوب بن إبراهيم بن آزر ، وهو تارح»[٤٤] .

كتب المؤلفون الحنفيون بقوة رداً على توظيف الخصوم لانحدار أبي حنيفة غير العربي .

---

(٤٢) البغدادي ، تاريخ بغداد ٣ص٣٦٢ ، ووردت عند النديم : إذا ما الناس يوماً قايسونا/بأبدة من الفتيا طريفة/أتيناهم بمقياس صحيح/تلاد من طراز أبي حنيفة/إذا سمع الفقيه بها وعاها/وأثبتها بحبر في صحيفة (الفهرست ، ص ٢٥٥) .

(٤٣) المصدر نفسه ٣ ص ٣٦٣ .

(٤٤) ابن أبي الوفاء ، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ١ ص ٥٣ .

قال الموفق المكي : إن هشام بن عبد الملك سأل عن علماء الأمصار ، فعد له من الموالي فقهاء المدينة ، ومكة ، واليمن ، واليمامة ، والشام ، والجزيرة ، وخراسان ، والبصرة . ماعدا إبراهيم النخعي كان عربياً . ولكثرة ما ذكر له من فقهاء الموالي ، قال الخليفة : «كادت تخرج نفسي ولا تقول واحد عربي»[٤٥] . وقال المكي شعراً في فضل الموالي :

إلى التقى فأنتسب إن كنت منتسباً
فليس يجديك يوماً خالص النسب
بلالٌ الحبشي العبد فاق تقى
أحرار صيد قريش صفوة العرب
إذا أبو لهب يرمى إلى لهب
فيه غدت حطباً حمالة الحطب

قال خلف بن أيوب ، وهو أحد الحنفيين ، في فضل إمامه النعمان : «صار العالم من الله تعالى إلى محمد . ثم صار إلى أصحابه . ثم صار إلى التابعين . ثم صار إلى أبي حنيفة . فمن شاء فليرضَ ومن شاء فليسخط»[٤٦] . وبنعرة عربية أحتج أصحاب المذهب الشافعي (عربي من الحجاز) في تقديم مذهبهم ، وفقاً لقول الرسول : «الأئمة من قريش» . و«قدموا قريشاً ولا تقدموها» . و«تعلموا من قريش ولا تعلموها» . وإجمالاً قال الشافعيون : «لا نجد إماماً من قريش سوى الشافعي ، رضي الله عنه . ولأنه بن عمِّ النبي»[٤٧] .

الفقيه

في بداية حياته العلمية استشار أبو حنيفة أهل المعرفة ، إلى أي علم يتوجه : اللغة ، التاريخ ، التفسير ، الكلام ، الحديث ، علوم القرآن ، الفقه أم الشعر ؟ يذكر تصرفه هذا بطلبة الصف المنتهي من الثانوية العامة اليوم ، وهم يختارون ويستشيرون . قال أبو حنيفة : «لما أردت طلب العلم ، جعلت أتخير العلوم ، وأسأل عن عواقبها ، فقيل لي : تعلم القرآن ، فقلت : إذا تعلمت القرآن ، وحفظته فما يكون آخره؟ قالوا : تجلس في المسجد ، ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ، ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك ، أو يساويك في الحفظ ، فتذهب رئاستك . قلت : فإن سمعت الحديث وكتبته ، حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني؟ قالوا :

---

(٤٥) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص١٢ .
(٤٦) المصدر نفسه ١ ص ٣٧٩ .
(٤٧) المصدر نفسه ١ ص ٣٩٦ .

إذا كبرت وضعفت حدثت ، واجتمع عليك الأحداث والصبيان ، ثم لا تأمن أن تغلط فيرمونك بالكذب ، فيصير عاراً عليك في عقبك ، فقلت لا حاجة لي في هذا . ثم قلت : أتعلم النحو ، فقلت : إذا حفظت النحو والعربية ما يكون آخر أمري؟ فقالوا : تقعد معلماً ، فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة . قلت وهذا لا عاقبة له . فقلت : فإن نظرت في الشعر ، فلم يكن أحد اشعر مني ، ما يكون أمري؟ قال (لعلها قالوا) : تمدح فلاناً ، فيهب لك ، أو يحملك على دابة ، أو يخلع عليك خلعة . وإن حرمك هجوته ، فصرت تقذف المحصنات . قلت لا حاجة لي في هذا . قلت : إن نظرت في الكلام ما يكون آخره؟ قالوا : لا يسلم من نظر في الكلام من مشنعات الكلام ، فيرمى بالزندقة ، فأما أن تؤخذ فتقتل ، وأما أن تسلم فتكون مذموماً ملوماً . قلت فإن تعلمت الفقه؟ قالوا : تسأل وتفتي الناس وتطلب القضاء ، وإن كنت شاباً . قلت : ليس في العلوم أنفع من هذا ، فلزمت الفقه وتعلمته»[٤٨] .

اشتغل أبو حنيفة ، حسب رواية أحد مريديه زفر بن الهذيل ، في الكلام فبلغ «مبلغاً يشار له بالأصابع» . إلا أنه سمع حماد بن أبي سليمان فمال إلى الفقه[٤٩] . ولعل أجواء الكوفة الفقهية واللغوية لا تسمح في التقدم بعلم الكلام على حساب الفقه واللغة . لذا عندما شدَّ أبو حنيفة الرحال إلى البصرة ، ربما لتعلم الكلام ، سأله البصريون عن مسائل فقهية . وهو القائل «قدمت إلى البصرة فظننت أني لا أُسأل عن شيء إلا أجبت فيه ، فسألوني عن أشياء ما عندي فيها جواب ، فجعلت على نفسي أن لا أفارق حماداً حتى يموت ، فصحبته ثمانية عشرة سنة»[٥٠] .

هناك مَنْ يعتقد أن أبا حنيفة لم يجد علماً غير الفقه أطوع للقياس ، فاختاره من بين العلوم . ففي رواية قيل : «كان أبو حنيفة طلب النحو في أول أمره ، فذهب يقيس فلم يجيء . وأراد أن يكون فيه أستاذاً ، فقال : قلب قلوب ، وكلب كلوب ، فقيل له : كلب كلاب ، فتركه ووقع في الفقه . فكان يقيس ولم يكن له علم بالنحو»[٥١] . ومن ضعفه في العربية أنه أجاب من سأله عن القتل بالمثل ، فقال وإن رمي بأبا قبيس (المفروض أبي قبيس) . ورغم اعتراف ابن خلّكان في ضعف أبي حنيفة بالعربية : «لم يكن يُعاب بشيء سوى قلة العربية»[٥٢] . غير أنه برر هذه القلة أو الخطأ المذكور آنفاً بأن الأسماء الستة : أبوه ، أخوه ، حموه ، هنوه ، فوه ، ذو مال ، يكون إعرابها حسب المدرسة الكوفية في الأحوال الثلاث

---

(٤٨) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٥٠) المصدر نفسه .

(٥١) المصدر نفسه .

(٥٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٥ ص٤٥ - ٤٦ .

بالألف «وأبو حنيفة من أهل الكوفة ، فهي لغته ، والله أعلم»[٥٣] . ومثل هذا ورد في «الفقيه والمتفقه» : «سمع أبو عمرو أبا حنيفة يتكلم في الفقه ويلحن فأعجبه كلامه واستقبح لحنه ، فقال : إنه لخطاب لو ساعده صواب . ثم قال لأبي حنيفة : إنك أحوج إلى إصلاح لسانك من جميع الناس»[٥٤] .

بلغ أبو حنيفة الفقه يوم جلس محل شيخه حماد بن أبي سليمان ، حين سافر إلى البصرة للإشراف على إرث قريب له . لكنٍ هذه التجربة ألزمته أن يستمر تلميذاً حتى وفاة حماد . قال : «لما خرج حماد وردت عليٍّ مسائل لم اسمعها منه ، فكنت أُجيب وأكتب جوابي ، فغاب شهرين . ثم قدم فعرضت عليه المسائل ، وكانت نحو ستين مسألة ، فوافقني في أربعين ، وخالفني في عشرين ، فآليت على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت»[٥٥] . ورغم طموح طالب الفقه ، كما ورد آنفاً ، في ولاية القضاء . غير أن أبا حنيفة عزف عن تقلد هذا المنصب ، ورفض طلب أمير العراق يزيد بن هبيرة ، زمن آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد . وكانت عقوبة رفضه الجلد مئة وعشرة أسواط . وقيل : أراده على بيت المال فأبى أيضاً . قال عبد الحميد الكاتب : «كان أبو حنيفة يخرج كل يوم ، أو قال بين أيام ، فيضرب ليدخل في القضاء فأبى . ولقد بكى في بعض الأيام ، فلما أطلق قال لي : غمٌ والدتي أشد عليٍّ من الضرب»[٥٦] .

تقول الرواية السائرة أن أبا جعفر المنصور أراد أبا حنيفة لمنصب القضاء ، ولما أبى جلده . وروى القاضي بشر بن الوليد الكندي : «اشخص أبو جعفر أمير المؤمنين أبا حنيفة ، فأراد أن يوليه القضاء ، فأبى . فحلف عليه أن يفعلن . فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل ، فحلف المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل . فقال الربيع الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف! فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه ، أقدر مني على كفارة أيماني! وأبى أن يلي القضاء فأمر به إلى الحبس في الوقت»[٥٧] .

قال الحاجب الربيع بن يونس : «رأيت أمير المؤمنين المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء ، وهو يقول : اتق الله ، ولا ترعى أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأموناً من الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات ، وأن أتلو الحكم لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون إلى مَنْ يكرمهم لك ، فلا أصلح

(٥٣) المصدر نفسه .

(٥٤) البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ ص ٢٩ .

(٥٥) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص٣٣١ - ٣٣٢ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص٣٢٧ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص٣٢٨ .

لذلك . فقال له : كذبت ، أنت تصلح . فقال : حكمت لي على نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك ، وهو كذاب»[٥٨] . إلا أن الأخبار أشارت إلى صلح أبي حنيفة بحركة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

ما كان لأبي حنيفة ترك الكوفة ، دار إمامته الفقهية ، لولا إلحاح المنصور . «إذ وجه في حشر الصناع والفعلة (من مختلف البلدان) فأُحضروا . وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة . فكان ممن أُحضر لذلك الحجاج بن ارطأة ، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت»[٥٩] . ويوم ذاك «عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم . فحلف ألا يُقلع عنه حتى يعمل فأُخبر بذلك . . . فدعا بقصبة فعدُ اللبن على رجل قد لبنّه (ويعني الاشتغال ببناء قصور المدينة المدورة ، وإنه فك يمين الخليفة وعمل في الدولة) فأخرج أبو جعفر عن يمينه ، واعتل فمات ببغداد»[٦٠] . وقيل إنه احتج بمهنة والده . قال «كان أبي خبازاً ، وأهل الكوفة لا يرضون أن يكون القاضي ابن خباز»[٦١] .

خلا ذلك أشار الفقيه الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) إلى علاقة أبي حنيفة بثورة مسلحة . قال : «يرى السيف في أمة محمد»[٦٢] . ويذكر ابن تمام لأبي حنيفة قولاً جريئاً : «السلطان الجائر إذا ظلم وجار عزل ، وإن لم يعزل يقتل . (و) كان عثمان إماماً ست سنين أقام الحق فلما ظلمَ وجار بطلت إمامته»[٦٣] . ولم تكن يوم ذاك غير حركة إبراهيم ، وقبلها حركة أخيه محمد النفس الزكية . وهناك عدد من الروايات يكفي تأكيد تأييد أبي حنيفة للحركة المذكورة ، منها أن أحدهم بحث عن سبب التحاق أخيه بإبراهيم وقتله معه ، فوجد فتوى أبي حنيفة وراء ذلك . وأن امرأة سألته عن رغبة ولدها في الالتحاق بالحركة ، فقال لها «لا تمنعيه» . وقيل أنه قدم الخروج مع إبراهيم على الحج[٦٤] . وحذر الحنفي زفر بن هذيل أبا حنيفة من تأييد إبراهيم ، بقوله : «والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال في أعناقنا» . وحال ذاك وصل أمر استدعائه إلى بغداد عن طريق أمير الكوفة عيسى بن موسى «إحمل أبا حنيفة» . قال زفر : «فغدوت إليه ووجهه كأنه مسح» . وما هي إلا خمسة عشر يوماً حتى

---

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٥٩) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٧ ص ٦١٨ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٦١٩ .

(٦١) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص ١٣٧ .

(٦٢) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٨٤ . أي كان يؤيد الثورات المسلحة ، مثل ثورة زيد بن علي وثورتا محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم .

(٦٣) ابن تمام ، كتاب الشجرة ، فصل الشيطان ، ص ٨٥ .

(٦٤) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص٣٢٥ .

«سقاه فمات»[٦٥] . وقيل إن المنصور ظفر بكتاب من أبي حنيفة إلى إبراهيم ، ينصحه في أن يعامل العباسيين ، فيما لو أصبح حاكماً ، مثل معاملة جده علي بن أبي طالب مع الأمويين يوم صفين ، لا معاملته مع أصحاب الجمل ، أي أن يسبي ويقسم الغنيمة[٦٦] .

بعد هذا الحماس سُئل أبو حنيفة : لماذا لم يخرج مع إبراهيم بنفسه؟ قال : «ودائع الناس عندي»[٦٧] . ولم يكن هذا سبباً مقنعاً ، فهناك العشرات يقومون مقامه في رد الودائع . لكن إن صحت الرواية فإن شخصية أبي حنيفة ليست لساحات الحرب ، بل لمجالس المناظرات . ومع ذلك كان تأييد حركة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، بالفتوى أو بالمشورة ، سبباً كافياً لقتله . أما أمر القضاء ، فربما طلب منه المنصور ولايته ، لكن لم يكن رفضه سبباً وكافياً لتصفيته . وإن كان قد عُرض القضاء عليه فما هو إلا حجة لتحييده أو إلزامه في أن يكون مع الدولة . وهذا ما طلبه المنصور من عمرو بن عبيد المعتزلي (ت ١٤٤هـ) ، واحتال له في بعث رسالة مزورة على أنها من إبراهيم ليكشف النوايا . مات أبو حنيفة موت سقراط ، فالحكم عليه كان شرب السم ، وهو على علم بما في الإناء . ورد في الرواية : دعا أبو جعفر أبا حنيفة «إلى الطعام فأكل منه . ثم استسقى فسقي شربة عسل مجدوحة ، وكانت مسمومة» .

وفي رواية «دُفع إلى أبي حنيفة قدح له فيه سم ليشرب ، فقال : لا أشرب ، إني أعلم ما فيه ، لا أعين على نفسي . فطُرح ثم صب في فِيه . ثم خلى عنه . فجاء إلى المنزل الذي كان فيه ، وذلك ببغداد ، فلم يلبث إلا قليلاً ، حتى مات . فصلى عليه خلق كثير ودفن ببغداد»[٦٨] . وقال المسعودي : مات «وهو ساجد في صلاته»[٦٩] . وقال بعض الخصوم : «رأيت في المنام جنازة عليها ثوب أسود ، وحولها قسيسون ، فقلت جنازة مَنْ هذه؟ فقالوا : جنازة أبي حنيفة . حدثت به أبا يوسف ، فقال : لا تحدث به أحداً»[٧٠] .

أما عن تأييد أبي حنيفة حركة زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب (قُتل ١٢٢هـ) ، أيام هشام بن عبد الملك ، وردت عند أبي فرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ، وموفق المكي (ت٥٦٨هـ) وملخصها : أن أبا حنيفة لم يلتق بزيد ، وإنما ابلغه رسالة شفوية عن طريق أحد الفقهاء المؤيدين . عرض فيها معونة له بالمال والسلاح[٧١] . وينفرد المكي بذكر ما قاله أبو

(٦٥) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص٣٣٠ .
(٦٦) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٣١٥ .
(٦٧) المصدر نفسه ، ص ٣١٤ .
(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٣١٤ ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٤٣٢ .
(٦٩) المسعودي ، مروج الذهب ٤ ص ١٥٩ .
(٧٠) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٤٢٣ .
(٧١) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص١٤١ ، المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص ٢٣٩ .

حنيفة لرسول زيد : «لو علمت أن الناس لا يخذلونه ، ويقومون معه قيام صدق لكنت أتبعه وأجاهد معه من خالفه ، لأنه إمام حق . ولكني أخاف أن يخذلوه كما خذلوا أباه (يقصد جده الحسين) . لكني أعينه بمالي فيتقوى به على مَنْ خالفه . وقال لرسوله أبسط عذري عنده . وبعث إليه بعشرة آلاف درهم»[٧٢] .

رغم ذلك كانت لأبي حنيفة صلة بأمراء أمويين ، أو متنفذين في العهد الأموي . منها ما ذكره الطبري في أحداث السنة ١٢٦هـ : «أن خالد بن زياد البدى ، من أهل ترمذ ، وخالد بن عمرو مولى بني عامر خرجا إلى يزيد بن الوليد يطلبان الأمان للحارث بن سريح ، فقدما الكوفة . . . وسألا أبا حنيفة أن يكتب لهما إلى الأجلح ، وكان من خاصة يزيد (ابن هبيرة) فكتب لهما إليه ، فأدخلهما عليه . . . فسألاه أماناً للحارث بن سريح فكتب له »[٧٣] .

لعل أول مؤرخ أشار إلى أبي حنيفة بصاحب الرأي هو كاتب الواقدي ابن سعد (ت٢٣٠هـ) . مع قوله فيه «كان ضعيفاً في الحديث»[٧٤] . ثم ذكره بذلك ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في كتابيه «المعارف» و«تأويل مختلف الحديث» . والخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في «تاريخ بغداد» ، وسمى أبا حنيفة إمام أهل الرأي وفقيه أهل العراق . وقال مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) معيباً أهل الرأي بقوله : «فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله وأصحابه ، ولا تتبع الرأي . وإنه متى أتبعت الرأي جاء رجل آخر أقوى منك فاتبعته . فإنك كلما جاء رجل غلبك اتبعته . أرى هذا الأمر لا يتم»[٧٥] . وها هو جوهر مقالة أهل الحديث ، ولا يعني بالرَجل الأقوى إلا مستجدات العصر وصواب الرأي . ولايفسر ما نقله أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) عن يحيى بن معاذ : «مَنْ تعلم علمَ أبي حنيفة تعرض للسلطان»[٧٦] بغير علم الرأي والقياس والموقف من الإمام الجائر . جاء في ذم أهل الرأي ، براوية خصومهم من أهل الحديث : «تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله . ثم تعمل برهة بسنّة رسول الله . ثم تعمل برهة بعد ذلك بالرأي . فإذا عملوا بالرأي فقد ضلوا»[٧٧] .

كم يبدو مذهب النعمان مرغوباً به لسهولته أولاً ، ولاعتماده الرأي ثانياً . لهذا عزى ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) انتشار المذهب المالكي ، وهو مذهب أهل الحجاز ، في شمال أفريقيا إلى عدم احتكاك المغاربة بالعراقيين ، وإلى بداوتهم . ومعلوم أن السهولة في الرأي غير البساطة

---

(٧٢) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص ٢٣٩ .
(٧٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٧ ص ٢٩٣ .
(٧٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٦ ص ٣٦٨ .
(٧٥) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٩٦ .
(٧٦) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ٢ ص ١٢٣ .
(٧٧) البغدادي ، الفقيه والمتفقه ، ص ١٧٩ .

في الحياة . قال : «وأما مالك ، رحمه الله ، فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وكان يوجد في غيرهم ، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل . (لأن) رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يوم ذاك دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق . ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة . . . وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق»[٧٨] .

سمى عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) أبا حنيفة بصاحب الرأي ، وميزه عن فقهاء الحجاز . قال : «أما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السُنَّة والجماعة من فريقي الرأي والحديث ، دون مَنْ يشتري لهو الحديث»[٧٩] . وذكر الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) بوضوح أصحاب الرأي بالقول : «أهل العراق ، هم أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومن أصحابه : محمد بن الحسن ، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي ، وزفر بن الهذيل ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وابن سماعة ، وعافية القاضي ، وأبو مطيع البلخي ، وبشر المريسي»[٨٠] . وقال الشهرستاني الشافعي في سبب تسميتهم بأصحاب الرأي : «لأن أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس ، والمعنى المستنبط من الأحكام ، وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدمون القياس الجلي على أحاد الأخبار . وقال أبو حنيفة : قولنا هذا رأي حسن ما قدرنا عليه ، فمن يقدر على غير ذلك فله ما رأى ولنا ما رأينا»[٨١] . وقال الشهرستاني في تسمية أهل الحديث : «لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص . ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خيراً أو شراً» .

معلوم أن أهل الحديث هم «أهل الحجاز ، وهم أصحاب مالك بن أنس ، وأصحاب محمد بن إدريس الشافعي ، وأصحاب سفيان الثوري ، وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأصحاب داود بن علي بن محمد الأصفهاني»[٨٢] . لكن ابن قتيبة جمع المذهبين أو رموزيهما في إطار أهل الرأي ، مثل مالك بن أنس ، والأوزاعي ، والثوري ، وأبي حنيفة[٨٣] . وقد استخدم ابن قتيبة المعنى العام لكلمة الرأي . لذا لم يخص بها أبا حنيفة وأصحابه دون سواهم؟ والمعنى هو ما من فقيه إلا وله رأي ، ومنهم مَنْ تحدده النصوص ومنهم من يجتهد ويقيس وإن خالفها . قال الأوزاعي : «إنا لم ننقم على أبي حنيفة أنه رأى ، كلنا يرى ، ولكننا

---

(٧٨) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١ ص٨٠٥ .
(٧٩) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٩ .
(٨٠) الشهرستاني ، الملل والنحل ١ ص ٢٠٧ .
(٨١) المصدر نفسه .
(٨٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .
(٨٣) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٤٩٤ وما بعدها .

نتقم عليه أن يجيئه الحديث عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيخالفه إلى غيره»[٨٤] .
وواجه خالد بن سلمة أبا حنيفة بالقول : «إنما نحتاج إلى قولك إذا لم نجد أثراً ضربنا ، فإذا وجدنا أثراً ضربنا بقولك الحائط»[٨٥] .

إلا أن أبا حنيفة كان مدرسة في الرأي ، لا يعادله رأي الأوزاعي المقيد بالحديث . وهو القائل كما تقدم : «قولنا هذا رأي ، وهو أحسن ما قدرنا عليه . . .»[٨٦] . ولا صحة لما ورد في «دائرة المعارف الإسلامية» من أن أهل الرأي «اسم أطلقه أهل الحديث للانتقاص من قدر خصومهم من فقهاء الشرع»[٨٧] . لا سيما وأن ابن قتيبة ، وهو من أصحاب الحديث ، ومن الشديدين على أبي حنيفة ومذهبه ، ذكر مالك ابن أنس وسفيان الثوري ضمن أصحاب الرأي . فإذا كان الرأي في الأصل يدل على الرأي السديد ، حسب ما ورد عند مؤرخي الملل والنحل ، مثل : البغدادي والشهرستاني فما هو وجه الانتقاص في التسمية؟ كما لم تكن «دائرة المعارف الإسلامية» واضحة فيما ذهبت إليه عند تعريفها لأهل الحديث من أنهم فرقة جديدة ظهرت بالهند وباكستان مؤخراً ، لا تلتزم طاعة أو تقليد المذاهب السُنيّة الأربعة ، و«رأوا أنها لا تستند إلى الأحاديث المروية عن الصحابة ، أو تخالفها» . لكن أي المذاهب ، خلا مذهب أهل الرأي ، لا يلتزم بالأحاديث المروية؟ وبالنتيجة تكون «دائرة المعارف الإسلامية» ، وهي المعتمدة من قبل الجامعات والباحثين لم تراع الدقة في هذا الموضوع بالذات . وقد ينسحب ذلك على موضوعاتها الأخرى .

كان حديث الرأي ، الذي امتحن الرسول به معاذ بن جبل وهو يودعه إلى اليمن قاضياً ، حجة قوية لدى أهل الاجتهاد والقياس . فقيل : إن الرسول سأل معاذاً كيف «تقضي»؟ قال : «أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال : فبسُنّة رسول الله . قال : فإن لم يكن في سُنّة رسول الله؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو . فقال الرسول : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه الله»[٨٨] . ووفقاً لهذا الحديث قال عبد الله بن المبارك : «إن كان الأثر قد عرف واحتج إلى الرأي ، فرأي مالك وسفيان وأبي حنيفة ، وأبو حنيفة أحسنهم وادقهم فطنة ، وأغوصهم على الفقه ، وهو أفقه الثلاثة»[٨٩] . وحسب أبي الفرج النديم أن عبد الله بن المبارك كان من أهل الحديث ، ومع ذلك زاد في مدح أبي حنيفة ، وتعرض لشيوخ الحديث بالقول :

---

(٨٤) ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث ، ص ٥٥ .
(٨٥) البغدادي ، الفقيه والمتفقه ، ص ٢٠٨ .
(٨٦) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٥٢ .
(٨٧) دائرة المعرف الإسلامية ، ج٣ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
(٨٨) الكوثري ، مقالات الكوثري ، ص ١٥٤ .
(٨٩) االبغدادي ، تاريخ بغداد ١٣ ص ٣٤ .

لقــــد زان البـــلاد ومـــن عليـهـــا
إمـــام المسـلمـــين أبـــو حنيفـة
بآثـــــار وفـقــــه فـــي حـــديـث
كـــآيات الزبـور علـــى الصحيـفـة
فـمـــا بالمشـــرقيـــن لــــه نـــظيـــر
ولا بالمغــــربيـــن ولا بكـــوفـــة
رأيـــت العايبيـن لــــه سفـاهـــاً
خـلاف الحق مع حجج ضعيفة[٩٠]

للإمام أبي حنيفة صلات مع أئمة الشيعة ، فقد جالس محمد الباقر بن علي بن الحسين . ثم ولده جعفر الصادق ، لكن يصعب اعتباره تلميذاً للأخير . كثلما تقدم . وقيل ، حسب ما أسلفنا ، إن الصادق اعترض على قياس أبي حنيفة بقوله : «إتق الله ولا تقس الدين برأيك ، فإن أول من قاس إبليس ، إذ أمره الله بالسجود لآدم! فقال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين . هل تحسن أن تقيس رأسك من جسدك»[٩١] . وارتبط بعلاقة حميمة مع بيت شيعي آخر حمل السيف ضد العباسيين ، بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، كما ورد آنفاً . وبطبيعة الحال أن محمد الباقر كان يمثل بيتاً شيعياً آخر لا يرى السيف ، بل كان يرى التقية ، ومنه خرج الإسماعيليون والنصيريون أو العلويون . وذُكر محمد الباقر من بين شيوخ أبي حنيفة ، وتناظر مع محمد بن النعمان المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق ، وعند السُنَّة بشيطان الطاق[٩٢] .

ويُفهم من الروايات أن العلاقة الشخصية بين أبي حنيفة والشيعي مؤمن الطاق كانت مرنة ، تسمح بتبادل الفكاهات بينهما ، على الرغم من الاختلاف العميق في وجهات النظر . ذلك ما أومأ إليه الطبرسي بالرواية : «كان لأبي جعفر مؤمن الطاق مقامات مع أبي حنيفة»[٩٣] منها : كان أبو حنيفة يماشيه في سكك الكوفة ، وإذا مناد ينادي من دلني على صبي ضال؟ فقال مؤمن الطاق : أما الصبي الضال فلم نره ، وإن أردت شَيخاً ضالاً فخذ هذا ،

---

(٩٠) النديم ، الفهرست ، ص ٢٥٥ .

(٩١) ابن بكار ، الأخبار الموفقيات ، ص ٧٦ ، وكيع ، أخبار القضاة ، ص ٧٨ ، الطبرسي ، الاحتجاج ٢ ص١١٤ .

(٩٢) قيل حول تسميته بشيطان الطاق : إنه كان صيرفياً حاذقاً في تمييز النقود المزيفة ، وكان يسكن بمحلة طاق المحامل بالكوفة ، لكن مؤرخي السنّة استغلوا هذه التسمية فأطلقوها عليه وهو متكلم وفقيه ، وسموا اتباعاً له بالشيطانية (راجع ، سعد الأشعري ، المقالات والفرق ، الملحق ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩) .

(٩٣) الطبرسي ، الاحتجاج ٢ ص ١٤٩ .

ودفع له أبا حنيفة[٩٤] . وقيل لمؤمن الطاق أو شيطانه حكايات أخرى كثيرة مع الإمام أبي حنيفة جمعها في كتاب «مجالسة مع أبي حنيفة والمرجئة» . منها أنه سأل مؤمن الطاق هل يقول بالرجعة؟ فأجابه بنعم . «قال : أقرضني من كيسك هذا خمسمئة دينار ، فإذا عدتُ أنا وأنت رددتها إليك . فقال له في الحال : أريد ضميناً يضمن لي انك تعود إنساناً ، فإني أخاف أن تعود قرداً فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت مني»[٩٥] .

إمام التسامح

قبل الحديث عن انتشار المذهب الحنفي بالعراق . لابد من التعرف على مقالات المذهب الهامة ، ومنها نتفهم ما عُرف عن المذهب من مرونة وتسامح ، وتوافق مع المستجد من الأمور . سنسلط الضوء على مقالاته في : الإيمان ، والمرأة ، والنبيذ ، ومعاملة أهل الأديان الأخرى ، والقول بخلق القرآن . وهي المجالات الأكثر جدلاً بين الفقهاء . والإيمان عند أبي حنيفة يعني «الإقرار والمحبة لله وتعظيمه»[٩٦] . وذهب في حوار جرى معه بمكة ، أثناء موسم الحج ، إلى القول بإيمان من أعتقد أنه لا يدري أن الله حرم لحم الخنزير المعروف عند الناس أم خنزير آخر ، أو الذي اعتقد بالحج إلى الكعبة غير أنه لا يدري أهي الكعبة المعروفة أم غيرها ، أو الذي أعتقد ببعث النبي محمد غير أنه لا يدري هل هو محمد المعروف أم شخص آخر[٩٧] . قال الأشعري (ت٣٢٤هـ) : «لم يجعل أبو حنيفة شيئاً من الدين مستخرجاً إيماناً ، وزعم أن الإيمان لا يتبعض ، ولا يزيد ولا ينقص ، ولا يتفاضل الناس فيه»[٩٨] . قال الفقيه وكيع بن الجراح ، حول رأي أبي حنيفة بالأيمان : «عندنا جرأة»[٩٩] . أي خرج عن المألوف .

لم يشترط أبو حنيفة شروطاً في الإيمان غير ما يظهر من الإنسان . وبكلمة أخرى أنه لايعرض رقاب الناس للسيف بحجة وأخرى . ومن الملاحظ أن أبا الحسن الأشعري ، الحنبلي والشافعي في آن واحد ، لم يعترف لأبي حنيفة وأصحابه بأنهم أهل رأي ، مع أنه ذكر تسمية أصحاب الحديث . وبالتالي أنه لم يعترف بوجود مذهب حنفي بالأساس ، فأبو حنيفة عنده متكلم ، لم يرقِ مذهبه إلى أن يكون أول الأربعة بين مذاهب السُنّة . وفي مسند أبي حنيفة

---

(٩٤) المصدر نفسه .

(٩٥) الأشعري ، المقالات والفرق ، الملحق ، ص ٢٢٨ .

(٩٦) الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٩٧) المصدر نفسه .

(٩٨) المصدر نفسه .

(٩٩) تاريخ بغداد ١٣ ص٣٧٠ .

ورد حديث الإيمان وحكايته كالآتي : قال أبو الدرداء صاحب الرسول : «بينا أنا رديف رسول الله ، فقال : يا أبا الدرداء : من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وجبت له الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق! قال : فسكت» . وتكرر قول الرسول وسؤال أبي الدرداء ثلاث مرات ، وبعدها قال الرسول : «وإن زنى وإن سرق . وإن رغم أنف أبي الدرداء»[١٠٠] .

أشار الحديث إلى تأييد المرجئة ، وأبو حنيفة كان محسوباً عليهم . ويخالف تماماً موقف الخوارج من صاحب الذنب الكبير ، مثل السرقة والزنى . وخالف رأي المعتزلة في قولهم بالمنزلة بين المنزلتين . وإن كان هناك فروق بين المؤمنين والمنافقين ، فالحديث الآنف خالف رأي الحسن البصري وفقهاء البصرة إذ قالوا : إن صاحب الكبيرة منافق . ولعل أبا حنيفة في موقفه المميز من أصحاب الذنوب ، كبرت أو صغرت ، أنه لم يجعل الدين طريقاً للالتزام الاجتماعي ، بل العكس هو الصحيح . بدا ذلك واضحاً في قوله الآتي : «رأيت المعاصي نذلة فتركتها فصارت ديانة»[١٠١] . ولأهمية القول الآنف شاع شعراً بين الحنفيين :

يـروى الـرواة لنـا مقالاً مرتضى
لأبي حنيفة كـان فيـه محسنا
إن المعـاصـي نـذلـة فتركتـها
لمـروةٍ حتـى يصيـر تـدينـا[١٠٢]

أراد أبو حنيفة في عبارتـه الآنفـة أن استقامة الخلـق مهمة شخصية واجتماعية ، قبـل أن تكون ديناً . ولابـد أن يكون للعلم والثقافة دور فيها ، فهو القائل : «من لم يمنعه العلم عن محارم الله تعالى ، ولم يحجزه عن معاصي الله تعالى فهو من الخاسرين»[١٠٣] . ويسند ما ذهب إليه ما رواه عبد الله بن مسعود بروايته عن النبي : «ما رآه المسلمون حسناً ، فهو حسن ، وما رآه المؤمنون سيئاً فهو عند الله سيئ»[١٠٤] . ومن رُقي عدًّ أبو حنيفة منزلة العلماء أولياء الله . قال : «إن لم يكن العلماء أولياء الله في الأرض فليس لله فيها ولي»[١٠٥] . ونرى عبارته شاملة لأهل العلم ، لم يفرق بين افلاطون الوثني والحسن البصري المسلم ، ولايستثني منها : ألبرت انشتاين اليهودي ولا روجر بيكون المسيحي ولا عبد

(١٠٠) أبو حنيفة ، مسند أبي حنيفة ، ص ٣١١ - ٣١٢ .
(١٠١) المكي ، مناقب أبي حنيفة١ ص ٣٣٩ .
(١٠٢) المصدر نفسه .
(١٠٣) المصدر نفسه ، ص٣٤٠ .
(١٠٤) الكوثري ، فقه أهل العراق ، ص٢٧ - ٢٨ .
(١٠٥) الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١ ص ٣١ .

الجبار عبد الله الصابئي المندائي . وقال في تقديره للعلم : «أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه»[106] . ويعني لذة العلم .

لأبي حنيفة مقالة هامة في أحوال المرأة ، ابعد عنها شبهة نقص العقل والدين . ولعل رأيه فيها كان تأويلاً في محله لما جاء في القرآن الكريم «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاّتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً»[107] . قال أبو حنيفة : «يجوز أن تقضي المرأة ، فيما تصح شهادتها ، ولا يجوز أن تقضي فيما لا تصح شهادتها»[108] . وقد وسع محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ما ذهب إليه أبو حنيفة فأفتى بجواز قضائها في جميع الأحكام[109] . وقال الماوردي (ت٤٥٠هـ) الشافعي ، في فتوى الطبري الشافعي أيضاً : «لا اعتبار بقول يرده الإجماع من قوله تعالى : الرِّجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض . يعني في العقل والرأي ، فلا يجزي أن يقمن على الرجال»[110] . عاش الطبري عصر القهرمة ، وهو سيطرة الجواري على قصور الخلافة ، وأدرك سطوة جارية المعتضد وأم ولده المقتدر شغب (ت٣٢٠هـ) ، وكانت الدولة دولتها ، التي أسندت ولاية ديوان المظالم إلى قهرمانتها ثمل[111] .

للمرأة حسب المذهب الحنفي ، مهما كان دينها ، حرمة أن لا يهدر دمها بالارتداد عن الدين . جاء في الفقه الحنفي : «أما المرأة المرتدة فإن كفالتها بالمال جائزة . وإن ماتت على الردة من قبل أنها لا تُقتل»[112] . كذلك أجاز أبو حنيفة أكل ذبائح النساء ، واستند في ذلك إلى الحديث الآتي : «أن رسول الله أكل من ذبيحة امرأة ، ونهى عن قتل المرأة»[113] . وأن نساء الدهرية وعبدة الأوثان ، حسب المذهب الحنفي ، يُسترقن ، وان لا يفرق بينهن وبين أولادهنَ ، بينما يقتلنَ حسب المذهب الشافعي[114] . جاء في

---

(١٠٦) المصدر نفسه .

(١٠٧) سورة النساء ٣٤ .

(١٠٨) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٦٥ .

(١٠٩) المصدر نفسه .

(١١٠) المصدر نفسه .

(١١١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ٤ ص٣٧٠ .

(١١٢) الطبري ، إختلاف الفقهاء ، ص ٦٠ .

(١١٣) أبو حنيفة ، مسند أبي حنيفة ، ص ٣٩ .

(١١٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٣٤ .

«مسنده» ، خلاف مَنْ ادعى أن المرأة حالها حال الحمار والكلب إن مرت أمام المصلي تقطع صلاته[١١٥] : أن عراقيين سألوا عائشة عمّا يقطع الصلاة ، فقالت : «يا أهل العراق تزعمون الحمار والكلب والسنور يقطعون الصلاة ، إذا مرٍ بين يدي المصلي ، ولم يكن له سترة ، قرنتمونا معشر النساء بهم ، إدرأ (إدفع) المار ما استطعت فإن اندفع وإلا فلا يضرك ، كان النبي يصلي وأنا نائمة إلى جنبه ، عليه ثوب جانبه عليّ»[١١٦] . وفيما يتعلق بالطفولة ، فهي محفوظة في المذهب الحنفي لذاتها . ولا يتعلق أمرها بالوالدين . فأبن الزنا إنسان سوي ، وما جاء في الحديث «ولد الزنا شر الثلاثة» حسب التفسير الحنفي أنه يعني الولد الذي عمل عملَ أبويه ، وزاد في الكفر ، فالآية تقول : ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى[١١٧] .

الشائع عن أبي حنيفة أنه صاحب رأي منفرد في النبيذ (الشراب) ، وهذا الرأي ليس بعيداً عن روايات ابن مسعود فيه ، إضافة إلى علاقة ذلك بأجواء الكوفة والحيرة ، وما بها من أديرة ، تتعامل مع النبيذ كمادة مقدسة . ورد عن ابن مسعود : «سألني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما في أدواتك؟ فقلت نبيذاً ، فقال : تمرة طيبة وماء طهور . قال : فتَوَضأ منه»[١١٨] . وكتب الحديث تميل إلى أنه النبيذ بمعنى العصير وليس الشراب المعروف . و ورد بإسناد قطبي مدرسة الرأي بالعراق : إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان ، عن علقمة : «رأيت عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، وهو يأكل طعاماً ، ثم دعا بنبيذ فشرب . فقلت : رحمك الله ، تشرب النبيذ في مجلسك! فقال : رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يشرب النبيذ . ولولا أني رأيته يشرب ما شربته»[١١٩] . وقيل سأل قاضي الكوفة ابن أبي ليلى أبا حنيفة : «أتحل النبيذ وبيعه وشراءه؟ قال : نعم . قال : أفيسرك أن أمك نباذة؟ فقال له أبو حنيفة : أيحل الغناء وسماعه؟ فقال : نعم . قال : أيسرك أن أمك مغنية»[١٢٠] . وأجاب أبو حنيفة عبيد الله بن عمر العمري في سؤاله حول النبيذ : «أخذناه من قبل أبيك ، يعني عمر بن الخطاب (مجازاً) رضي الله عنه . قال : وأي شيء قال؟ قال : إذا رابكم شيء فاكسروه بالماء»[١٢١] .

لعل إسناد أبي حنيفة في شرب الخمر إلى عمر بن الخطاب له علاقة بمرويات عديدة ،

---

(١١٥) راجع كتب الحديث الستة ، جامع الترمذي ، ص ١٦٧٣ . وابن تيمية ، مختصر الفتاوى المصرية ، ص ٥٨ . قال : «إن مرور المرأة والكلب الأسود والحمار بين يدي المصلي دون سترته يقطع الصلاة» .

(١١٦) أبو حنيفة ، مسند أبي حنيفة ، ص ٥٤ .

(١١٧) سورة الأنعام ، ١٦٤ . المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(١١٨) الكتب الستة ، جامع الترمذي ، ص ١٦٤٠ . سنن أبي داود ، ص ١٢٢٨ .

(١١٩) أبو حنيفة ، مسند أبي حنيفة ، ص ٣٠ .

(١٢٠) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص ١٤٥ .

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

منها ما أورده ابن حزم (ت٤٥٦هـ) أن عمر قال للرسول ما قولك في كل مسكر حرام؟ قال: «إشرب فإذا خفت فدع»[١٢٢]. وعن طريق أبي موسى الأشعري أن الرسول قال: «أشربا ولا تسكرا» (المصدر نفسه)، وابن حزم يعتبر القولين لا حجة في نقلهما. وقال عمر بن الخطاب: «إنا نشرب من هذا النبيذ شراباً يقطع لحوم الأبل»[١٢٣]. وعن أبي موسى الأشعري أنه قال: «بعثني النبي أنا ومعاذ بن جبل إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، أن شراباً يصنع بأرضنا يقال له المزر من الشعير (لعله البيرة أو ما يشبهها)، وشراباً يقال له البتع من العسل، فقال الرسول: كل مسكر حرام». وسبق أن ظهرت الشكوى في أمر الخمر بالقول: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً»[١٢٤]. فنزلت «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»[١٢٥]. وتظهر سهولة أبي حنيفة في حكمه على السكران: «ليس سكران إلا حتى لا يميز بين السماء والأرض»[١٢٦]. وأضاف الماوردي «لا يعرف أمه من زوجته»[١٢٧]. وعمر كان يمتحن السكران بقراءة سورة من القرآن، أو بخلط ثيابه مع ثياب أخرى فلم يخرجها (المصدر نفسه). وأبو حنيفة «يحد من شرب الخمر وإن لم يسكر، ولا يحد من شرب النبيذ حتى يسكر»[١٢٨]. أما الشافعي فيحد الشارب إذا «تكلم بلسان منكسر، ومعنى غير منتظم. ويتصرف بحركة مختبط، ومشي متمايل. وإذا جمع بين اضطراب الكلام فهماً وإفهاماً، وبين اضطراب الحركة مشياً وقياماً، صار داخلاً في حد السكر. وما زاد على هذا فهو زيادة في حد السكر»[١٢٩]. وجاء في «متن المختار على مذهب النعمان»: «النبيذ لا يحد شاربها إلا بالسُكر، ولا يُكفر ستحلها. ونبيذ التمر والزبيب إذا طبخ أدنى طبهة حلال. وأن أشتد إذا شرب منه ما لا يُسكر من غير لهو. ونبيذ العسل والتين والحنطة والشعير والذرة حلال طبخ أو لا»[١٣٠]. وحسب مذهب النعمان «يحد بشرب قطرة من الخمر، وبالسكر من النبيذ، والسكران لا يعرف الرجل من المرأة، والأرض من السماء. ولا يُحد حتى يَعلم إنه سكر. ولا يُحد مَنْ وجد منه رائحة الخمر»[١٣١].

---

(١٢٢) ابن حزم، المحلى ٤ ص ٤٨٢.

(١٢٣) المصدر نفسه.

(١٢٤) الكتب الستة. سُنن أبي داوود، باب الأشربة، ص ١٤٩٥.

(١٢٥) سورة النساء ٤٣.

(١٢٦) ابن حزم، المحلى ٤ ص٥١٠.

(١٢٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٢٩.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(١٣٠) كتاب مخطوط، جامعة هارفرد MS ARAB13.

(١٣١) المصدر نفسه.

إن النبيذ الذي وردتنا أحكامه وأخباره، وما سنورده منها، لا يعني بمكان العصير العادي، المستخرج من الفاكهة إن كانت عنباً أو غيره، بل هو العنب أو التمر يلقى بالماء ويترك ليكون نبيذاً وهو الشراب المعروف. وإن كان المقصود به العصير العادي فلماذا اختلفوا حوله، وجعلوا له أحكاماً؟ ظل حكم النبيذ مادة للجدل في مجالس الفقهاء والقضاة. ومن أخبار هذه المجالس، ذكر الجهشياري (ت٣١٠هـ) أن شريكاً القاضي تحدث في حديث يبيح النبيذ، فرد عليه عافية القاضي بقوله: «ما سمعنا بهذا الحديث»، فقال له: «ما يضر عالماً إن جهل جاهل»[١٣٢]. ربما كان ميل المذهب الحنفي للإنفتاح والتسامح الاجتماعي، ومنه مقالته في النبيذ، وراء تمسك الخلفاء العباسيين بهذا المذهب. فالحد، كما جاء آنفاً، لا يستحقه إلا من شرب فسكر، ولم يميز بين السماء والأرض. وقيل كان أغلب خلفاء بني العباس يشربون[١٣٣].

ونُقل عن الكاتب أبو عبيد الله المرزباني (ت٣٨٤هـ) صاحب «معجم الشعراء» كان «يضع محبرته بين يديه وقنينة فيها نبيذ، فلا يزال يكتب ويشرب. قال: وسأله مرة عضد الدولة عن حاله، فقال: كيف حال مَنْ هو بين قارورتين؟ يعني المحبرة وقدح النبيذ»[١٣٤]. ويذكر أن مذهب المرزباني كان التشيع والاعتزال، وهذا يشير إلى تبنيه للمذهب الزيدي، الحنفي الفروع والمعتزلي الأُصول.

ويذكر أن ملك الشام عيسى بن محمد الأيوبي (ت ٦٢٤هـ) المعروف بالملك المعظم قال للفقيه الحنفي إسماعيل بن إبراهيم «أفتِ بإباحة الأنبذة، وما يعمل من ماء الرَّمان ونحوه، فقال: لا أفتح هذا الباب على أبي حنيفة! إنما هي رواية النوادر. وقد صحَّ عن أبي حنيفة أنه ما شربه قط، وحديث ابن مسعود لا يصح. وكذا ما يُروى عن عمر في إباحة شربه لا يثبت عنه، فغضب المعظم وأخرجه من مدرسة طرخان»[١٣٥].

وفي الخلاف الشاسع بين الأديان في الشراب، قال أبو العلاء المعري في لزومياته:

وجـدنـا اختـلافاً بيننا في إلهنا

وفـي غيـره عـز الـذي جـل وأتحد

---

(١٣٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٤٤.

(١٣٣) التنوخي، الفرج بعد الشدة ٢ ص٢٥٠.

(١٣٤) البغدادي، تاريخ بغداد ٣ ص ١٣٦.

(١٣٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ٦ ص ٢٧٨-٢٧٩. يذكر أن الملك المعظم صنف كتاباً رد فيه على ما جاء في «تاريخ بغداد» ضد أبي حنيفة، وله كتاب في الفقه الحنفي (الزركلي، الأعلام ٥ ص ١٠٨).

تُقـرب نـاس بالُمـدام وعنـــدنـا
علــى كــل حــال أن شـاربها يُحد

خلا ذلك ، ورد في يوميات أبي حنيفة ، أنه كان في يوم الجمعة «يجمع أصحابه في بيته ، ويطبخ لهم ألوان الطعام . وكان يسقيهم النبيذ الشديد ، وكان لا يأكل (معهم) غير أنه كان يشرب»[١٣٦] . ولم يجد الإمام أبو حنيفة حرجاً من الذهاب إلى دار إمارة الكوفة ، وهو البعيد عن مجالسها ، ليطلق من سجنها سراح جاره الإسكافي ، والذي أدمن الشراب ، وينشد ، وهو في سكره ، شعراً يشير إلى أمر ما تأخذه الدولة بالحسبان . كتب الخطيب البغدادي في ترجمة أبي حنيفة ، رواية مرفوعة إلى عبد الله الغداني . قال : «كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب الشراب فيه غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعــوني وأي فتــى أضاعــوا
ليــوم كــريهــة وســـداد ثـغـــر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم . وكان أبو حنيفة يسمع جلبته . وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ليال . وهو محبوس . فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد ، وركب بغلته وأستأذن على الأمير . قال الأمير : أذنوا له وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له مجلسه . وقال : ما حاجتك؟ قال : لي جار اسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته . فقال : نعم وكل مَنْ أُخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا . فأمر بتخليتهم أجمعين . فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه فقال : يا فتى أضعناك؟ قال : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ، ورعاية الحق ، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان»[١٣٧] .

ومثلما لم يسلم أبو حنيفة من شائعة إباحة شرب الخمر ، وهو قصد النبيذ ، وعلة التحريم عنه هي السكر ، فالمذاهب الأخرى ابتليت بما طرقت من الدقيق في المسائل . وفي ذلك قال نشوان الحميري ، وهو فقيه ومؤرخ يميل إلى الاعتزال ويلتزم الفروع الحنفية ، بحكم مذهبه الزيدي : «المالكية يستحلون اللواط بالمماليك . والشافعية يجيزون القمار بالشطرنج .

---

(١٣٦) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٣٦٤ - ٣٦٥ .

(١٣٧) البغدادي ، تاريخ بغداد ٣ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ، وبيت الشعر المشهور ورد في مراثي الخنساء لأخيها صخر ، قالت : على صخر وأي فتى كصخر/ ليوم كريهة وطعان لحس (ديوان الخنساء ، ٨٧) .

والحنفية يجيزون شرب الخمر . والشيعة يجيزون متعة النساء»[١٣٨] . وذكر نشوان الحميري لأبي المعري ، ما لم نجده في اللزوميات ، في نبذ التمذهب ، مع تقديره لشخص أبي حنيفة :

الشافعي من الأئمة واحدٌ
ولديهم الشطرنج غير حرام
وأبو حنيفة قال ، وهو مصدق
فيما يفسره من الأحكام
شرب المنصف والمثلث جائزٌ
فأشرب على أمن من الآثام
وأجاز مالكٌ الفقاح تطرفاً
وهم دعائم قبة الإسلام
وأرى الروافض قد اجازوا متعة
بالقول لا بالعقد والإبرام
فافسق ولُط وأشرب وقامر واحتجج
في كل مسألة بقول إمام[١٣٩]

يظهر تقدير المعري لأبي حنيفة في رثاء فقيه حنفي يدعى أبا حمزة :

فالعراقي بعده للحجازي
قليل الخلاف سهل القياد
وفقيهاً أفكاره شُدن للنعمان
ما لم يشده شعر زياد[١٤٠]

لأبي حنيفة الريادة ، من بين الفقهاء ، في الانفتاح والدعوة إلى التسامح بين الأديان ، فهو يساوي بين دية المسلم ودية اليهودي والنصراني والمجوسي والصابئي . قال : «يقتل المسلم بالذمي ، ولا يقتل المستأمن»[١٤١] . واعترف ضمناً بالديانات كافة ، بما فيها عُباد الأصنام ، والناس ، والملائكة من غير العرب . جاء ذلك في حكمه بقبول الجزية منهم[١٤٢] . وبهذا حقن دماءهم . وعدا ذلك ، يوصي بحسن معاشرة أهل الأديان الأخرى . واعنده لإنسان هو

---

(١٣٨) الحميري ، الحور العين ، ص ٣١٥ .
(١٣٩) المصدر نفسه ، ص٣١٥ - ٣١٦ .
(١٤٠) المعري ، ديوان سقط الزند ، ص١١١ - ١١٥ .
(١٤١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٤٧ .
(١٤٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

الأصل ، ورد ذلك في وصيته لخالد السمتي ، بعد أن أكمل دراسة الفقه عليه ، وعاد إلى البصرة «عاشر أهل الأديان بمعاشرتهم»[١٤٣] .

وربما أنفرد من بين المذاهب في القول بجواز دخول أهل الكتاب الحرم المكي . قال : «لهم دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها . ولكن لا يستوطنون به»[١٤٤] . ويعلق ابن قيم الجوزية على فتوى أبي حنيفة المذكورة بالقول : «كأن أبا حنيفة ، رحمه الله تعالى ، قاس دخولهم مكة على دخولهم مسجد رسول الله(ص) ولا يصح هذا القياس ، فإن لحرم مكة أحكاماً يخالف بها المدينة على أنها ليست عنده حرماً»[١٤٥] .

ويقصد بقياس أبي حنيفة صلاة قساوسة نجران بالمسجد النبوي إلى قبلتهم نحو المشرق وهم يتزيون بزيهم الديني ويعلقون صلبانهم ، عند وفادتهم على الرسول[١٤٦] . قال قاضي القضاة الماوردي في حرمة الحرم المكي على أهل الكتاب وغيرهم من أهل الأديان الأخرى : «ليس لجميع مَنْ خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم لا مقيماً فيه ولا ماراً به . وهذا مذهب الشافعي ، رحمه الله ، وأكثر الفقهاء . وأجاز أبو حنيفة دخولهم إليه إذا لم يستوطنوه»[١٤٧] . أما المدينة فحكمها مثل حكم مكة ، محرمة على غير المسلمين عند أغلب الفقهاء ما عدا أبا حنيفة . وحدد عمر بن الخطاب إقامة غير المسلمين بالحجاز كلها بثلاثة أيام . وأن لا يدفن في أرضها غير أموات المسلمين[١٤٨] .

كثرت الروايات حول صلة أبي حنيفة بمقالة خلق القرآن ، التي طرحها المعتزلة بقوة في ما بعد . ومن هذه الروايات ، نُقل عن قاضي الكوفة ابن أبي ليلى : «لما قدم أبو حنيفة شهد عليه جماعة ، فأقر أن القرآن مخلوق»[١٤٩] . وجاء في تفاصيل محاكمته : أن سأله القاضي : من خلقك ، ومن خلق لسانك ، ومن خلق منطقك؟ قال : الله . قال القاضي : «خُصمت يا أبا حنيفة» ، فقال : «أتوب إلى الله وارجع»[١٥٠] . وعند ذاك ، عمم القاضي توبة أبي حنيفة على حلقات مسجد الكوفة ببعث رجلين يدوران به على حلقات المسجد يناديان بالقول : «إن أبا حنيفة قال : القرآن مخلوق ، فإنه تاب ورجع ، فإن سمعتموه يقول : بشيء من هذا فارفعوا

---

(١٤٣) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٣٦٧ .
(١٤٤) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص ١٨٨ .
(١٤٥) المصدر نفسه .
(١٤٦) راجع ابن هشام ، السيرة النبوية ٢ ص١٥٩-١٦٠ .
(١٤٧) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص١٦٧ .
(١٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .
(١٤٩) وكيع ، أخبار القضاة ، ص١٤١ .
(١٥٠) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

ذلك إلى القاضي» . كما منعه أمير الكوفة عيسى بن موسى من الإفتاء ، فكان يصلي بالمسجد برفقة حارس «فإذا صلى قال له الحرسي (الحارس) : قم إلى منزلك ، فيقول : دعني أُسبِّح ، فيقول : لا . ولا كلمة . فلا يدعه حتى يقيمه»[١٥١] .

قيل : أخبر أبو جعفر المنصور القاضي ابن أبي ليلى في أمر أبي حنيفة ، يوم قابله بالمدينة : «إن هو رجع وإلا فضرب عنقه وحرقه بالنار»[١٥٢] . وهناك روايات عديدة أخرى أشارت إلى قول الإمام بمقالة خلق القرآن وتوبته أنها كانت أثناء ولاية خالد بن عبد الله القسري على العراق ، في خلافة هشام بن عبد الملك ، يوم قُتل الجعد بن درهم بالتهمة نفسها . أو في زمن يوسف بن عمر ، الذي تولى أمر العراق بعد أن قتل القسري . وورد في رواية أن أبا حنيفة استتيبَ من القول بخلق القرآن مرتين . الأولى أيام القسري والثانية أيام خلفه ابن عمر[١٥٣] . واستتبع إعلان توبة أبي حنيفة أبعاداً خطيرة جداً ، منها : أنه أستتيب من الكفر ، ومن الزندقة ، ومن الدهرية . مع أنه كان شديداً في مواجهة القائلين بالدهر .

ولعل الصداقة القديمة مع الشاعر المتمرد حماد بن عجرد كانت حجة بيد الخصوم في اتهام أبي حنيفة بالزندقة . ورد في الرواية[١٥٤] : «كان أبو حنيفة صديقاً لحماد بن عجرد ، وبسطَ لسانه فيه ، فجعل يلاطفه ليكف عن ذكره . وأبو حنيفة يذكره ، فكتب إليه :

إن كان نسكك لا يتم ... بغير شتمي وانتقاصي
أو لم تكن إلا به ... ترجو النجاة من القصاص
فلطالما زكيتني ... وأنا المقيم على المعاصي

ويوماً استفسر حماد من والده أبي حنيفة عن أمر توبته أمام القاضي ابن أبي ليلى : «كيف صرت إلى هذا وتابعته؟ قال : يا بُني ، خفت أن يقدم عليَّ ، فأعطيته التقية»[١٥٥] . ولعل الشائعات اشتدت على أبي حنيفة بسبب موقف ابن أبي ليلى منه ، فكان الأخير ينشد فيه وفي المرجئة عامة :

وعتيبة الدباب لا يقرى به ... وأبا حنيفة شيخ سوء كافر

لباعه في الفقه روي أن أبا حنيفة صحح للقاضي ابن أبي ليلى مسائل فقهية . منها أنه أقام الحد على امرأة مجنونة ، وأخطأ في ستة مواضع . وعلى إثر ذلك طلب القاضي من أمير

---

(١٥١) المصدر نفسه .

(١٥٢) المصدر نفسه .

(١٥٣) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٢ ص ٣٨١ .

(١٥٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات ١٣ ص ١٤٣ .

(١٥٥) المصدر نفسه ١٣ ص ٣٨٠ .

الكوفة أن يمنع أبا حنيفة الفتيا، على الرغم من أن الاثنين منسوبان إلى مدرسة الرأي العراقية. ولما أمر ولي العهد محمد المهدي أن تعرض مسائل على أبي حنيفة. قال: «أنا محجور عليَّ! فذهب الرسول إلى الأمير، فقال الأمير: قد أذنت له، فقعد فأفتى»[156]. غير أن منع الموالي من الفتيا كان قانوناً أموياً. ذكر ذلك أبو حنيفة بقوله: «كان ولاة بني أمية لا يدعون الموالي من الفقهاء للفتيا»[157]. فالحجاج بن يوسف الثقفي اتخذ قراراً منع بموجبه إمامة الصلاة من قبل الفقهاء الموالي. ورد ذلك في رواية أحمد بن عبيد الله العجلي، أحد التابعين ومقرئ الكوفة، أن يحيى بن وثاب (ت١٠٣هـ) اعتزل الصلاة بعد سماعه بقرار الحجاج، وأنه قال للمصلين: «اطلبوا إماماً غيري، إنما أردت أن لا تستذلوني»[158].

منعت الدولة الأموية الفقهاء والقضاة الموالي من إمامة الصلاة والفتيا، مع أن سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) قد اعترف بدورهم الكبير في الحضارة الإسلامية. قال: «عجبت لهذه الأعاجم، ملكوا ألف سنة لم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم، وملكنا مائة سنة، لم نستغن عنهم ساعة واحدة»[159]. وأوردها الراغب بالقول: «ألا تتعجب من هذه الأعاجم؟ احتجنا إليهم في كل شيء، حتى في تعلم لغتنا». عموماً، تشهد الآثار لهؤلاء باعهم في تسيير الدواوين وإدارة الدولة ناهيك عن دورهم في العلوم الفقهية واللغوية والكلامية! ومع ذلك تبقى الموالاة سبباً من أسباب ما عرف بالشعوبية، فرغم قدرات هؤلاء الفكرية والفقهية واللغوية إلا أن هناك مَنْ يقرن موالاتهم، حتى وإن كانت بعد عدة أجيال، بضعفهم بالعربية، وبهذا ذُكر الحسن البصري، والمتكلم عمرو بن عبيد، وأبو حنيفة، وأُطلق على المفكرين والفقهاء من الموالي عبارة «أبناء السبايا»[160].

مذهب الدولة

تبنى العباسيون الأوائل المذهب الحنفي ببغداد. ذلك بعد قتل مؤسسه بكأس مسمومة بتهمة التآمر مع إبراهيم أخ محمد النفس الزكية. وتم هذا التبني عبر منصب القضاء. كان أول قاضي قضاة في الدولة العباسية، وفي تاريخ الإسلام، الفقيه الحنفي أبا يوسف إبراهيم الأنصاري (ت١٨٢هـ)، المعروف بصاحب أبي حنيفة. وأصبح كتابه

(١٥٦) الصفدي، الوافي بالوفيات ١٣ ص٣٥١، ص ٣٥١.

(١٥٧) المكي، مناقب أبي حنيفة ١ ص ١٤٥.

(١٥٨) السيوطي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار ١ ص ٦٣.

(١٥٩) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٨٦. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ٢ ص ٣٤٩.

(١٦٠) الخيون، معتزلة البصرة وبغداد، ص ٢٩، ٩٤.

«الخراج» الذي ألفه لهارون الرشيد (ت ١٩٣هـ) بمثابة دستور اقتصادي وإداري للدولة ، وفقاً لأحكام المذهب الحنفي . وفي معظم المسائل كان سنداه ، بعد أبي حنيفة ، حماد بن أبي سليمان وإبراهيم النخعي ، وهما رائدا مدرسة الرأي . وقد أشار أبو يوسف في قسم «الغنائم» من كتابه إلى المذهب الحنفي بالقول : «كان الفقيه المقدم أبو حنيفة . . .»[١٦١] . قال التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) في اتصال أبي يوسف بالرشيد ، دون أن يذكر صلة له بمحمد المهدي وموسى الهادي : «إنه قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة ، فحنث بعض القواد في يمين ، فطلب فقيهاً يستفتيه فيها ، فجيء بأبي يوسف ، فأفتاه ، أنه لم يحنث ، فوهب له دنانير ، وأخذ له داراً بالقرب منه ، اتصل به . فدخل القائد يوماً على الرشيد ، فوجده مغموماً ، فسأله عن سبب غمّه ، قال : شيء من أمر الدين قد حزَّ بيَّ ، فاطلب لي فقيهاً استفتيه ، فجاءه بأبي يوسف»[١٦٢] .

والأمر أن أحد أولاد الرشيد كان محبوساً بتهمة الزنا ، وينتظر الحد ، ويعز على الرشيد أن يجلد ولده ، لذا احتاج لفقيه يسهل الأمر ، ولا يحرج الخليفة . مرَّ أبو يوسف ، وهو في طريقه إلى مقابلة الرشيد ، على شاب محبوس ، ولم يعرف مَنْ هو ، وما قصته . سأله الرشيد : «ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني ، هل يحده»؟ قال القاضي : «لايجب ذلك» . حينها سجد الرشيد شاكراً ، فسأله كيف يكون ذلك ، فقال : «لأن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : ادرؤوا الحدود بالشبهات ، وهذه شبهة ، يسقط الحد معها» . فقال الرشيد : وأي شبهة مع المعاينة؟ قال أبو يوسف : «ليست توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحكم في الحدود لا يكون بالعلم . . . لأن الحدَّ حق الله تعالى ، والإمام مأمور بإقامة الحد ، فكأنه صار حقاً له ، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه ، ولا تناوله بيده . وقد أجمع المسلمون على وقوع الحد بالإقرار والبينة ، ولم يجمعوا على إيفائه بالعلم»[١٦٣] .

كانت هذه واحدة من الحيل الفقهية المشروعة ، تضاف إلى خلفية المذهب الحنفي في مراعاة المواقف الحرجة ، مثل هذا الموقف ، وخاصة فيما يتعلق بحق الله على الإنسان لابحق إنسان على إنسان . لأن الحيلة الشرعية لا تبرر جريمة قتل أو سرقة مثلاً . وحسب ما تقدم أن المفتي لم يكن يعرف شخصية الزاني ، هل هو ابن الرشيد أم غيره؟ حتى تكون فتواه مداهنةً للخليفة . بعد هذا اللقاء تقلد أبو يوسف منصب قاضي القضاة .

لكن في موقف آخر ، لا تجوز فيه الحيلة ، تحولت الحيلة الفقهية إلى خديعة ، تجاوز فيها

---

(١٦١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١٩ .

(١٦٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ،١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(١٦٣) المصدر نفسه .

أبو يوسف على حقوق الغير لينقذ نفسه من إحراج أو إيذاء ما . فمعروف حسب المذهب الحنفي أن المسلم يُقتل بالذمي ، وحصل أن قتل مسلم نصرانياً في زمن الرشيد . وثبتت الجريمة بشهود . وأن أولياء المقتول طالبوا القضاء بحقهم . ووعد أبو يوسف في القصاص من القاتل بما يقضي فيه مذهبه . لكنه تراجع بعد سماع تهديد ذوي القاتل ، ورقعة دست له ، جاء فيها :

جـــار على الـــديـــن أبو يوســف

بقتـــلـــه المـــؤمـــن بالـكـافـــر

نـوحـــوا وأبكـــوا أخـــوتي دينكم

وأصبـــروا فالأجـــر للصابـــر[١٦٤]

لما شكا القاضي الأمر للرشيد قال له : احتل لنفسك! «جلس في مجلسه فجاء أولياء المقتول ، فتقدموا إليه ، فقال : شاهدين عدلين ان صاحبكم كان يؤدي الجزية إلى أن مات . . . فأبطل دمه وابطل ديته»[١٦٥] . وهو طلب فيه استحالة! فمن أين يأتي هؤلاء النصارى بشهود عاينوا ما كان يدفعه صاحبهم المقتول من الجزية في حياته حتى مماته!

وخلاف رواية التنوخي أشارت روايات أخرى إلى إتصال أبي يوسف بالعباسيين في عهد المهدي . قال المسعودي (ت ٣٤٦هـ) : «كان نقش خاتم المهدي الله ربي ، وعلى قضائه أبو يوسف ، صاحب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وهو يعقوب بن إبراهيم»[١٦٦] . وقال أيضاً : «كانت أم جعفر [١٦٧] كتبت مسألة إلى أبي يوسف تستفتيه فيها ، فأفتاها بما وافق مرادها ، على حسب ما أوجبته الشريعة عنده ، وأداه اجتهاده إليه ، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقان من فضة ، وفي كل حق لون من الطيب ، وجام من ذهب فيه دراهم ، وجام فضة فيه دنانير ، وغلمان وتخوت من ثياب ، وحمار وبغل»[١٦٨] . وذكر الكوثري أن أبا يوسف قُلد القضاء السنة ١٦٦هـ ، أي قبل وفاة المهدي (ت ١٦٩هـ) بثلاث سنوات[١٦٩] .

---

(١٦٤) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٤٨٠ .

(١٦٥) المصدر نفسه ١ ص٤٨١ .

(١٦٦) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ٢٩٨ .

(١٦٧) هناك ثلاث نسوة بهذه الكنية : زوجة أبي جعفر المنصور ، وزوجة الوزير خالد بن يحيى البرمكي ، وزبيدة بنت جعفر أكبر أولاد المنصور وزوجة الرشيد وأم الأمين ت٢٢٦هـ ، ويفهم من الجهشياري أنها كانت الأخيرة (الوزراء والكتاب ، ص٢٢٥ .

(١٦٨) المسعودي ، مروج الذهب ٢ ص ٣٢٤ .

(١٦٩) الكوثري ، حَسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي ، ص ٣ .

إمامة قريش

أجاب الحنفيون على هذا الإدعاء بنصوص كثيرة، اعترفوا فيها بحصر الإمامة السياسية في قريش. من دون الإمامة الدينية والفقهية. قال المكي: «النسب لا تأثير له في علم الرجل وفقهه، وفقده لا يوجب نقصاً في ذلك. ألا ترى أنه جاء في التفسير أن لقمان كان عبداً حبشياً عظيم المشافر، مشفق الساقين، فقال تعالى: ولقد آتينا لقمان الحكمة»[170]. وخلاف ما شاع بأن الدولة العثمانية تبنت المذهب الحنفي لأنه لا يقر حصر الولاية السياسية، أو الخلافة بيد قريش، كان رأي الحنفيين واضحاً في حصر الولاية السياسية.

كتب علي الوردي، من دون العودة إلى أُصول وأدب المذهب الحنفي، قائلاً: «الشائع أن السبب الذي جعل الدولة العثمانية شديدة التمسك بالمذهب الحنفي هو أن أبا حنيفة كان لا يأخذ بهذا الحديث. ويرى من الجائز أن تكون الخلافة في غير قريش»[171]. وكتب حسن العلوي مؤكداً: «ولا يشترط الإمام أبو حنيفة أن يكون الخليفة عربياً، ومن هنا جاء الاعتقاد، بأن الأتراك العثمانيين كانوا قد أخذوا بمذهب أبي حنيفة لأنه يجيز لغير العربي، كالتركي والفارسي أن يكون خليفة، على عكس المذهب الجعفري الذي يوجب اشتراط عروبة الخليفة»[172]. وكيف يتمكن أبو حنيفة من مقالة سياسية خطيرة مثل هذه، سواء كانت في العصر الأموي المتشدد في العروبة أو العصر العباسي المنفتح على الموالي؟ فخلفاء العصرين، زمن أبي حنيفة، كانوا من قريش وهي مركز العرب؟ وقوله بجواز إمامة الصلاة لغير العربي فيها الكثير أيضاً. فقد جاءت اعتراضاً واضحاً على قرار الحجاج السالف الذكر. قالها بالتأكيد بعد موت الوالي الدموي، فعمره يوم ذاك كان خمسة عشر عاماً. وعلى العموم، يبقى التحرش بإمامة الصلاة أقل خطراً من التحرش بالإمامة السياسية!

كان تبني العثمانيين لهذا المذهب دون غيره من المذاهب له علاقة بعدة أمور، منها: أن للمذهب الحنفي حضوراً بإيران وبخارى وعموم أواسط آسيا، حيث أنحدر العثمانيون. فبعد العراق انتشرت الحنفية بين «مُسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها»[173]. ودخل السلاجقة الأتراك الإسلام على المذهب الحنفي، مثلما دخله البويهيون على المذهب الشيعي الزيدي. ومن غير المعقول أن يظل العثمانيون حتى تاريخ ظهورهم كسلاطين بلا مذهب. وربما شجعهم للاحتفاظ بالمذهب الحنفي أنه كان شائعاً في الدولة العباسية، التي

---

(170) المكي، مناقب أبي حنيفة ١ ص ٤٨٠.

(171) الوردي، لمحات اجتماعية ١ ص٤٩.

(172) العلوي، الشيعة والدولة القومية في العراق، ص١٣.

(173) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١ ص٨٠٣.

يجدون في تقليدها سمة شرعية ، فقيل أن سلاطين آل عثمان بدءوا يطلقون لقب خليفة على أنفسهم بعد أن «أستولى السلطان العثماني سليم الأول على مصر في (١٥١٧م) ، واجبر المتوكل أمريل حكيم (هكذا وردت) آخر خلفاء العباسيين الذي كان مقيماً هناك على التنازل عن حقوقه بالخلافة ، فأصبح سلاطين الإمبراطورية العثمانية منذ ذلك الوقت يحملون لقب خليفة»[174] . يُضاف إلى أنه كان أسهل المذاهب مع أهل الذمة ، وأن الدولة العثمانية المترامية الأطراف ضمت العديد من أهل الأديان . فلم يمانع العثمانيون ، وفقاً للمذهب الحنفي ، أن يتولى المسيحيون منصب معاون أو نائب الدفتردار (بمثابة وزير المالية) «ذلك لايجاد منفذ يستطيع رعايا السلطان المسيحيون من خلاله أن يشاركوا في الإدارة بشكل غير مباشر ، ولهذا كان يفترض أن لا يشغل هذا المنصب إلا المسيحيون»[175] .

في تثبيت رواية حصر الإمامة بيد قريش قال أبو حنيفة وسائر المرجئة : «لا تصلح الإمامة إلا في قريش . كل من دعا منها إلى الكتاب والسُّنَّة ، والعمل بالعدل ، وجبت إمامته ، ووجب الخروج معه . وذلك للخبر الذي جاء عن النبي (ص) إنه قال : «الأئمة من قريش»[176] . وذكر الناشئ الأكبر (ت٢٩٣هـ) ، قول أبي حنيفة الصريح في الإمامة : «لا يجوز أن يُكون الإمام إلا رجلاً من قريش»[177] . ويأتي ابن تمام في كتاب «الشجرة» برأي أهل الرأي والمرجئة بالإمامة . قال أبو حنيفة : «علي بن أبي طالب إمام مُرضي إلى أن خرج من الدنيا ، فمَنْ لم يرض به كان في قلبه مرض وغش ، لأنه لم يرض بالعادل ورضي بالجائر . وقالوا : لا تصلح الإمامة إلا في قريش عادلاً كان أو غير عادل . وقالوا إذا كان الإمام من قريش وكان عادلاً كنا معه ، فإذا كان أعدل منه نكون معه»[178] . علق ابن تمام بالقول : «فهم يدورون مع الإمام العادل إذا كان من قريش» . ولعل الحنفيين ، من بعد أبي حنيفة ، صرحوا بذلك دفاعاً عن مذهبهم ، الذي أسسه مولى . في ذلك قال المكي معبراً عن الحنفية عامة ، وهو أحد شيوخها في القرن السادس الهجري : «قولهم الأئمة من قريش ، فلا يخلو ما يريد به الأئمة في الصلاة ، أو في العلم ، أو الخلافة ، لا وجه يريد في الصلاة ، لأن مخالفة السُّنَّة والجماعة . . . فتعين أن يريد به التقديم في الخلافة»[179] .

---

(١٧٤) آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٤٨ - ٨٥ . ظلت الخلافة العباسية قائة بمصر شكلياً ، في زمن صلاح الدين الأيوبي وحتى الملك الظاهر بيبرس ، الذي حاول استعادت العرش العباسي ببغداد ، ممثلاً بأمير عباسي .

(١٧٥) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(١٧٦) النوبختي ، فرق الشيعة ص١٠ ، الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص ٨ .

(١٧٧) الناشئ ، مقتطفات من الكتاب الأوسط ، ص٦٢ - ٦٣ .

(١٧٨) ابن تمام ، كتاب الشجرة ، فصل الشيطان ، ص٨٥ .

(١٧٩) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٣٩٩ .

وفي السياق نفسه قال الكردري (ت٨٢٧هـ) : «رجع الكل إلى هذا الحديث، دل أن المراد بالإمامة الخلافة الكبرى بالإجماع، فلا يراد غيره. وأما قولهم: قوله عليه السلام: تعلموا من قريش ولا تعلموها، فلا أصل له»[١٨٠] . والكردري الذي عاش القرنين الثامن والتاسع الهجريين، كان قد عرف الشعوبية، وما يعنيه هذا المصطلح من العداوة بين العرب والموالي. قال مدافعاً عن مذهبه الحنفي المتهم بالشعوبية: «الشعوبية لتعلقهم فيها بقوله تعالى: وجعلناكم شعوباً وقبائل (وهي) ليست مَنْ ذكرت، إنما قوم يعادون العرب، وعبارته شعوبية، بضم الشين، لقب لقبيلة غير محمودة عادت العرب، فتصغر شأنهم، ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم»[١٨١] .

القضاة والمدارس

أهم مجالين ساعدا على انتشار المذهب الحنفي، وهذا ما ينسحب على المذاهب الأخرى، هما القضاء والتعليم. وكانت حصة الحنفيين من القضاة والمدارس كبيرة جداً، فأول قاضي قضاة هو تلميذ وصاحب أبي حنيفة، وعن طريقه احتكر الفقهاء الحنفيون القضاء فترة طويلة.

قال التنوخي، الحنفي والمعتزلي، في مذاهب القضاء، بعد وفاة أبي يوسف: «كان القضاة على مذهب أبي حنيفة، وغيره من الفقهاء»[١٨٢] . ولعل حنفية القضاة والمدارس الفقهية في ظل الخلافة العباسية، حتى سقوطها السنة ٦٥٦هـ، تكفي لإعطاء صورة واضحة عن انتشار المذهب بالعراق والبلاد الأخرى. وسنذكر ذلك في فترات مختلفة. ومن القضاة الحنفيين: نوح بن دراج (ت ١٨٢هـ) . أسد بن عمرو (ت١٩٠هـ) قضاء شرق بغداد، و واسط. قضاء الكوفة علي بن طبيان (ت ١٩٢هـ) قضاء بغداد ومنصب قاضي قضاة. الحسين بن الحسن العوفي (ت٢٠١هـ) قضاء بغداد. إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة (ت ٢١٢هـ) قضاء شرقي بغداد ثم البصرة والرقة. بشر بن الوليد (ت ٢٣٨ هـ) قضاء بغداد. الحسن بن علي الجعد (ت ٢٤٣هـ) قضاء بغداد. هلال بن يحيى بن سالم، المعروف بهلال الرأي (ت ٢٤٥هـ) . عبد الرحمن بن إسحاق بن إبراهيم. عبد الله بن محمد الخنلجي. عبيد الله بن أحمد بن غالب. أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز (ت ٢٨٣ هـ) قضاء شرق بغداد. أبو الحسن علي بن أبي طالب البهلول (ت ٣٥٨هـ) قضاء الأنبار، وهيت،

---

(١٨٠) المصدر نفسه ٢ ص٦٥.

(١٨١) المصدر نفسه، ص ٧١ - ٧٢.

(١٨٢) التنوخي، نشوار المحاضرة ١ ص٨٢.

وخراسان، ومنصب قاضي قضاة. الحسين بن محمد بن إسماعيل الكوفي (ت ٣٩٥هـ). أبو علي المُحسن التنوخي (ت ٣٨٤هـ) قضاء الكوفة، وبابل، وقصر ابن هبيرة. أبو الهيثم عتبة بن ضيثمة(عن نشوار المحاضرة). محمد بن عبد الله المؤذن قضاء بغداد أيام المتوكل. صاعد بن محمد (ت ٤٣٢هـ) قضاء نيسابور.

أشار هذا العدد من القضاة إلى عدم التزام الفقهاء الحنفيين بوصية إمامهم أبي حنيفة، في ما يخص تولي وظيفة القضاء. جاء برواية أبي يوسف، وهو «أول من خوطب بقاضي قضاة»[183]، كان أصحاب الإمام مجتمعين حول إمامهم في يوم مطير، فقال لهم: «أنتم مسار قلبي، وجلاء حزني. قد أسرجت لكم الفقه وألجمته. فإذا شئتم فأركبوا، وقد تركت لكم الناس يطأون أعقابكم، ويلتمسون ألفاظكم، وذللت لكم الرقاب، وما منكم أحد إلا وهو يصلح للقضاء، وفيكم عشرة يصلحون أن يكونوا مودي (ورد معناها في القاموس الأسد، وربما قُصد هذا المعنى) القضاة. فسألتكم بالله، وبقدر ما وهب الله لكم جلالة العلم لما صنتموه عن ذل الاستيمار(الموافقة في كل الأحوال). فإن بُلي رجل منكم بالدخول في القضاء فعلم من نفسه خربة، سترها الله تعالى عن العباد، لم يجز قضاؤه وطاب له رزقه. فإن دفعته ضرورة إلى الدخول فيه، فلا يجعلن بينه وبين الناس حجاباً، وليصل الصلوات الخمس في الجامع، ولينادِ عند كل صلاة من له حاجة، فإذا صلى صلاة العشاء الآخرة نادى ثلاثة أصوات مَنْ له حاجة. ثم دخل إلى منزله، فإن مرض مرضاً لا يستطيع الجلوس معه اسقط من رزقه بقدر مرضه»[184].

كان أشهر المنتسبين إلى المذهب الحنفي، من غير القضاة: الطبيب والفيلسوف ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، وهناك مَنْ عده من الشيعة الإسماعيلية. والمتكلم المعتزلي البغدادي عبد الله بن أحمد البلخي (ت ٣١٩ هـ). والفقيه العالم محمد بن الحسن فرقد الشيباني (ت ١٨٩هـ). واللغوي والمفسر محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥١٥ هـ)، وللأخير كتاب في المذهب بعنوان «شقائق النعمان في حدائق النعمان»[185]، وهناك مَنْ عده معتزلياً. وحاول الفضل بن سهل (ت ٢٠٢هـ)، ذو الرئاستين (الحرب والسياسة)، منع المذهب الحنفي رسمياً، بدسيسة راوية الحديث وقاضي مرو النضر بن شميل التميمي (٢٠٣ هـ) - يبدو من الرواية أنه ليس على المذهب الحنفي - وكانت بينه وبين قاضي مرو الحنفي خالد بن صبيح وأصحابه جفوة، فاستشار قبل تقديم الطلب إلى المأمون، فقيل له: «إن الأمر لا ينفذ،

---

(١٨٣) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، م٤ ج٣ ص٥٥٢.

(١٨٤) المكي، مناقب أبي حنيفة ١ ص ٤٥٩ - ٣٦٠.

(١٨٥) قطلوبغا، تاج التراجم، ص ٢٦.

وإلا ينتقض جميع الملك عليكم . ومَنْ ذكر هذا فهو ناقص العقل» . قال الفضل : «هذا إن سمعه أمير المؤمنين لا يرضى به ، ويعاقب من ذكر له هذا»[١٨٦] .

بعد إلقاء نظرة عامة على تعيين القضاة الحنفيين ، نتابع باختصار توسع المدارس الفقهية الحنفية ، واستمرار وجودها إلى الحقبة الأخيرة من تاريخ الدولة العباسية ، والتي رافقها وجود الفقهاء والقضاة . ولكن ليس بالقوة التي كانوا بها ، فقد حل المذهب الشافعي منافساً بقوة منذ الفترة السلجوقية . اشهر هذه المدارس كانت المدرسة المستنصرية ببغداد ، والتي أكتمل بناؤها العام (٦٣١هـ) . ورد في يوم افتتاحها : «حضر نصير الدين نائب الوزارة ، وسائر الولاة ، والحجاب ، والقضاة ، والمدرسون ، والفقهاء ، ومشايخ الربط والصوفية ، والوعاظ ، والقراء ، والشعراء ، وجماعة من أعيان التجار الغرباء إلى المدرسة . وتخير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً ، ورتب لها مدرسان ونائبا تدريس . أما المدرسان فمحيي الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي ، ورشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني الحنفي ، وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء ، وطرحة كحلية ، وأمطي بغلة بمركب جميل وعدة كاملة . وأما النائبان فجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي الحنبلي ، نيابة عن والده . لأنه كان مسافراً في بعض مهام الديوان . والأخر أبو الحسن علي المغربي المالكي . وخلع على كل واحد منهما قميص مصمت وعمامة قصب . ثم خلع على جميع المعيدين»[١٨٧] .

يتضح من خبر افتتاح المستنصرية ، وتعيين الفقهاء أن المذهب الشافعي كان يناصف المذهب الحنفي ، مع بقاء المذهبين الآخرين ثانويين . وبطبيعة الحال ينعكس هذا على القضاء ، ومراكز الفتيا ، والمجتمع بشكل عام . واقتسمت المذاهب الأربعة ، حسب الأهمية ، أركان المدرسة الأربعة . جاء في الرواية : «ثم ذكر المدرسان ، المقدم ذكرهما ، الدروس كل واحد منهما على سدته . والنائبان كل واحد منهما تحت السدة . ثم قسمت الأرباع ، فسلم ربع القبلة الأيمن للشافعية . والربع الثاني يسرة القبلة للحنفية . والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة . والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية»[١٨٨] . أشارت مثل هذه المفردات ، يسرة ويمنة ، إلى استخدام المؤرخ اللهجة العراقية العامية . وبعد ثمانية عشر عاماً من افتتاح المدرسة المستنصرية بالرصافة افتتحت بالكرخ جارية المستعصم (ت٦٥٦هـ) وأم ولده ، المعروفة بباب بشير ، مدرسة البشيرية ، وجعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة على قاعدة المستنصرية .

---

(١٨٦) المكي ، مناقب أبي حنيفة ١ ص٤١٥ .

(١٨٧) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٥٥ .

(١٨٨) المصدر نفسه .

من المدارس الخاصة بالمذهب الحنفي فقط ، وشيدت قبل المدرسة المستنصرية ، كانت مدرسة أبي حنيفة . والمدرسة المغيثية . والمدرسة الموفقية . ومدرسة زيرك . والمدرسة البهائية . ومدرسة تركان خاتون وغيرها[١٨٩] . ومن المدارس المغلقة للمذهب الحنفي بواسط مدرسة الغزنوي ، شيدها محمود الغزنوي (ت٥٦٣هـ) ، بمحلة الوراقين بواسط[١٩٠] . وظل الحال كما هو عليه بعد سقوط الخلافة العباسية ، ففي السنة ٦٧١ هـ شيدت زوجة حاكم بغداد للمغول علاء الدين ، صاحب الديوان ، المدرسة العصمتية ، وجمعت فيها المذاهب الأربعة[١٩١] . وبطبيعة الحال أن الدولة العباسية لم تسمح بتدريس الفقه الشيعي الجعفري بالمدرسة المستنصرية . بينما خصص كرسي للمذهب المالكي بالمدرسة المستنصرية رغم أنه مذهب الغرباء الوافدين من بلدان أخرى ، مثل مصر والمغرب[١٩٢] .

كان الفقهاء والقضاة يستبدلون المواقع بين المذاهب السُنِّية الأربعة دون حرج . ذلك للتقارب في العديد من الأُصول ، ومنها ما يخص أمر الإمامة . غير أن المؤرخين يروون اليسير من هذه الحالات ، التي تحدث لمجاراة مذهب الدولة السائد لتحقيق مصلحة ما . منها ، يوم أنشأ نظام الملك السلجوقي المدرسة النظامية وأوقفها على الشافعية فقط . وأن لا يُقبل فيها طالب أو مدرس أو موظف أو فراش إلا أن يكون شافعياً . إثرها بدل وجيه الدين أبو بكر بن المبارك الواسطي مذهبه إلى الشافعي ، وكان قد بدل مذهبه عدة مرات من الحنبلي إلى الحنفي إلى الشافعي ، حسب مذهب المدرسة التي يجد وظيفة فيها . وهذا المدرس كان نابغة في النحو ، ومعرفة الألسن ، فقيل أنه كان يتقن : الفارسية والتركية والرومية والحبشية . إضافة إلى ذلك كان شاعراً . وقد داعبه مؤيد الدين أبو البركات التكريتي (ت ٥٩٩ هـ) بالأبيات الآتية[١٩٣] :

ألا مـبلغ عنـي الـوجيه رسالة	وإن كـان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل	وذلـك لما أعـوزتك المـآكـل
ومـا اخترت رأي الشافعي تَديناً	ولكنما تهـوى الذي هو حاصل
وعـما قريب أنت لا شك صائرُ	إلى مـالك فأفطـن لما أنا قائـل

---

(١٨٩) معروف ، تاريخ علماء المستنصرية ١ ص ٢٨ .

(١٩٠) المعاضيدي ، واسط في العصر العباسي ، ص٢٤٠ .

(١٩١) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٣٧٤ .

(١٩٢) فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، ص ٤٣٣ .

(١٩٣) الربيعي ، العُذيق النضير ، ص ٣ - ٥ ، عن مصادر تاريخية قديمة ، منها معجم الأدباء ، وطبقات الشافعية ، والجامع لابن الساعي .

كما بدل النحوي علي بن معالي أو ابن الباقلاني(ت٦٣٧هـ) مذهبه الحنفي إلى المذهب الشافعي ، وهو شيخ الأدب والنحو في وقته[١٩٤] .

أيام العثمانيين

كان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي بالعراق أثناء الحكم العثماني . وكما ورد آنفاً ، لا علاقة له بموقف أبي حنيفة من حديث ولاية قريش ، فمذهبه اعترف لهذه القبيلة بولاية سياسية ، غير أنه لم يحصر الولاية الدينية فيها . كانت المشيخة الإسلامية باستانبول هي الدائرة الفقهية التي منها تصدر أوامر تعيينات الفقهاء والقضاة . وتشرف على المحاكم الشرعية في ولاية بغداد (وتعني العراق كافة) . وتصادق على الأحكام المهمة التي تصدرها المحكمة الشرعية في مركز الولاية . وتستأنف أحكام هذه المحكمة فيها[١٩٥] .

وتولى القضاء في المحاكم الشرعية في المناطق الشيعية أو الشافعية قضاة حنفيون . لهذا كان القضاء الرسمي شبه معطل في تلك المناطق . فالناس يرجعون عادة في حل خلافاتهم إلى رؤساء العشائر ، أو إلى فقهاء مذهبهم غير المعتمدين من الدولة . لذا كان القضاة الرسميون «يمكثون في مناصبهم دون أن ينظروا في أية قضية ، إلا في القليل النادر من الأحوال ، مما كان يجبر عليه البعض من الناس . وقد نقل أحد قضاة مدينة كربلاء أنه مكث في منصبه تسعة أعوام لم يرَ فيها ولا دعوة واحدة . وكان ذلك بسبب قيام الدولة بفرض مذهبها الرسمي ، وهو المذهب الحنفي ، على بقية أتباع المذاهب الأخرى من سكان الولاية من الشيعة والسنة»[١٩٦] . فعلى سبيل المثال كان السيد الآلوسي قاضياً بكربلاء السنة ١٨٩٠م ، وهي مدينة شيعية بالكامل[١٩٧] . ولم تشمل إعادة النظر في أحوال القضاء بالعراق العام ١٩١٧ . غير المحاكم السُنّية[١٩٨] . ومن المعلوم أن أبا الثناء محمود الآلوسي ، مفتي بغداد أيام نجيب باشا ، كان شافعي المذهب . لكنه يفتي بأحكام المذهب الحنفي[١٩٩] .

يجيز الفقه الشافعي ذلك ، ولكن بشروط ، يلخصها الماوردي بقوله : «يجوز لمن أعتقد مذهب الشافعي ، رحمه الله ، أن يقلد القضاء من اعتقد مذهب أبي حنيفة . لأن القاضي

---

(١٩٤) ابن الفوطي ، لحوادث الجامعة ، ص١٨٠ - ١٨١ .

(١٩٥) راجع جميل النجار ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد .

(١٩٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ ، عن الواعظ ، الروض الزاهر ، ص ٤٣٠ .

(١٩٧) السامرائي ، تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع الهجري ، ص ١٧ .

(١٩٨) راجع العاني ، أصول المرافعات الصكوك في القضاء الشرعي .

(١٩٩) البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٤ ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

يجتهد برأيه في قضائه ، ولا يلزمه أن يقلد في النوازل والأحكام من اعتزى إلى مذهبه . إذا كان شافعياً لم يلزمه المصير في أحكامه إلى أقاويل الشافعي حتى يؤديه اجتهاده إليها . فإذا أداه اجتهاده إلى الأخذ بقول أبي حنيفة عمل عليه وأخذ به»[٢٠٠] . ولعل الآلوسي حاول تطبيق أحكام مذهبه الشافعي في البابي البسطامي ، عند محاكمته العام ١٨٤٥م ببغداد ، سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخاص بالبابية والبهائية من الكتاب ، من قبل فريق سُنِّي برئاسته وآخر شيعي برئاسة الشيخ حسن كاشف الغطاء . وقد أصر المفتي على موقفه بقتل المتهم ، بينما طلب الشيخ كاشف الغطاء كتاب أبي حنيفة ، فوجد فيه ما يخالف حكم الآلوسي ، وقد قال : «إني أحكم وفقاً لمذهب الإمام الأعظم»[٢٠١] .

لم يكن من الأمة الكردية العراقية على المذهب الحنفي سوى قسم من عشيرة باجلان ، فالقسم الآخر منهم شافعية[٢٠٢] . أما التركمان العراقيون السنيون فأغلبهم على المذهب الحنفي ما عدا القاطنين بأربيل فهم شافعية . أما القاطنون مدينتي قره تبة ، وطوز خورماتو فهم شيعة إمامية . وأهل البصرة كانوا من أهل السُنَّة على المذهب الشافعي ، سوى أهل شط العرب شيعة ، وأهل الزبير سنة حنابلة[٢٠٣] . فأول مدرسة خاصة بالمذهب الحنبلي تفتح بالبصرة شيدها حاكمها الأمير باتكين بن عبد الله الرومي ، مملوك عائشة بنت الخليفة المستنجد السنة (٦٤٠هـ) . توافق ذلك مع بناء وتزيين قبري الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله بالفرش والقناديل[٢٠٤] . والمذهب الحنفي الشائع ببغداد والموصل وبلدان العراق الأخرى ، ماعدا الجنوب ، تقل نسبته بالأنبار (الرمادي) وتكريت فمناطق كثيرة منها على المذهب الشافعي ، وعلى وجه الخصوص سامراء وما جاورها .

ظل مشهد أبي حنيفة ، في مقبرة الخيزران بالأعظمية ببغداد ، مزاراً يحج إليه الحنفيون من كل بقاع الأرض . وظل محط تبادل النعرات الطائفية بين هدم الدولة الصفوية ، وعمران الدولة العثمانية . وأن شافعية السلاجقة لم تمنع سلاطينهم من بناء قبة لضريح إمام المذهب المنافس لمذهبهم مدى قرون . قام ببنائها العام (٤٥٩هـ) أبو سعيد محمد بن منصور الخوارزمي ، نيابة عن أبي أرسلان والد السلطان محمد شاه ملك[٢٠٥] . ولم يمنعهم ذلك التنافس من أن يحطوا رحالهم ، ويتشفعوا في أركانه ، ففي العام (٥٠١هـ) ، دخله السلطان

(٢٠٠) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص٦٧ - ٦٨ .

(٢٠١) كاشف الغطاء ، العبقات العنبرية ، ص ٣٣٥ .

(٢٠٢) الحيدري ، عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد ، ص ١٢٢ .

(٢٠٣) المصدر نفسه ، ص١٦١ - ١٦٢ .

(٢٠٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ١٣٨ .

(٢٠٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٥ ص٤٧ .

محمد شاه . بعد الإياب من سفر طويل ، سيراً على الأقدام من داره . «اجتمع بالفقهاء والعلماء على باب المشهد ، فقال للحاجب : قل لهم هذا يوم عزمت فيه على الانفراد مع الله تعالى ، فخلوا بيني وبينه . وأمر بغلق الأبواب ومنع الأمراء وغيرهم من الدخول . وأقام يصلي ويدعو ويخشع»[٢٠٦] .

في حدة الخلافات المذهبية وغيرها ، تظهر المزحة بديلاً جميلاً عن المواجهة الدامية ، والتعصب القاتل . وما يخص الخلاف بين الحنفية والشافعية ، استغل أتباع المذهبين مناسبة اقتران ولادة الشافعي بالحجاز ، أو فلسطين بوفاة النعمان ببغداد في عام واحد (١٥٠هـ) ، وهناك مَنْ قال في يوم واحد[٢٠٧] ليكون وقع الرواية أمضى . وفي هذا الاقتران قال الشافعيون للحنفيين : إمامكم مات كمداً لما طلع إمامنا ، ردُّ عليهم الحنفيون : إمامكم ظل مختفياً حتى مات إمامنا . ومَنْ يدري! فلعل المختلفين ، وقت ذاك ، كانوا يعنون ما قالوا حول الاقتران في الغياب والظهور ، حتى وصلنا الخبر مزحة بريئة .

---

(٢٠٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ ج١ ص٢٣ - ١٤ .

(٢٠٧) الموسوي ، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ٢ ص ٢٠٩ .

الفصل السابع

المذهب الشافعي

خلفت مدرسة الحديث بالحجاز المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي ، مقابل ما خلفته مدرسة الرأي بالعراق المذهب الحنفي ، الذي شق طريقه ، وارتفع شأنه عبر الفقهاء القضاة ، وفي مقدمتهم صاحب أبي حنيفة وتلميذه أبو يوسف (ت ١٨٢ هـ) ، ومنذ ذلك الوقت وإلى اليوم ما زال الفقه الحنفي منتشراً بين العراقيين السُّنِّيين ، وعلى وجه الخصوص من العرب والتركمان . انتشر بالعراق من مدرسة الحديث المذهب الشافعي ومازال مذهباً معروفاً في شمالي وغربي العراق ، وإلى جانبه كان المذهب الحنبلي ، بعد تبلوره إلى مذهب فقهي . إلا أن الأخير لم يبق إلا في بعض مناطق جنوب البصرة . أما المذهب المالكي فيبدو أنه غير معروف لدى العراقيين ، لا قديماً ولا حديثاً ، ولم يعتنقه إلا «بعض العلماء ، وخاصة الوافدين من مصر أو المغرب»[١] ، كما ورد آنفاً . فمن بين إجازات المذاهب التي يمنحها الخلفاء للمذاهب الأربعة عادة منح الناصر لدين الله ، العام (٦٠٧هـ) ، إجازة المذهب المالكي إلى التقي علي بن جابر الزاهد المغربي[٢] .

بعد جهود فقهاء المذهب لعبت الوزارة السلجوقية ، والمدارس والربط الصوفية دوراً كبيراً في نشر المذهب الشافعي بين العراقيين . فكانت المدرسة النظامية ، التي أسسها الوزير السلجوقي نظام المُلك أول المدارس ذات المذهب الواحد ، مغلقة للمذهب الشافعي ، طلبة وفراشين ومدرسين ووعاظ . ويعد وجود مثل هذا النوع من المدارس فاتحة لاحتكار الرأي ، ومقدمة لما عرفناه في ما بعد بالفقه الواحد ، أو الفكر الواحد ، أو الحزب الواحد إلخ . فعادة كان الخلفاء يشركون المذاهب السُّنِّية الأربعة ويحذفون المذهب الجعفري . أما ما سنته المدرسة النظامية فكان حذفاً للمذاهب كافة ما عدا مذهبها ، الشافعي الفقه والأشعري الفكر[٣] .

---

(١) فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، ص ٤٣٣ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ ج ٢ ص٥٤٤ .

(٣) وردت سيرة حياة و مقالات المذهب الأشعري في كتاب «معتزلة البصرة وبغداد»

قال الشافعي: «سُميت ببغداد ناصر الحديث»[٤]. والنصرة عادة تعني التعرض لهزيمة ما، وهذا ما تعرض له أهل الحديث في مواجهة المذهب الحنفي. فما كان يخشاه أهل الحديث هو خسارة ما حققوه في ظل خلافة هارون الرشيد، مثل إبعاد البرامكة، وإلغاء مجالس المناظرات التي كان يرعاها الوزير جعفر بن خالد البرمكي. يُضاف إلى ذلك قدرة المذهب المنافس، المذهب الحنفي، على دعم الحركة العقلية والفرق الكلامية. لذا أصبح الحنفيون قريبين من الاعتزال في أُصول الدين. وبالمقابل كان الشافعيون مقيدين بمقالات الأشعري وما فيها من تراجع عن الاعتزال، وأصبح من المتعذر، أيام السلاجقة، الفصل بين الشافعي والأشعري، حتى قامت مدارس الفقه الشافعي بمهام التبشير في مقالات الأشاعرة.

أما تعصب الشافعية للنص فتفصح عنه مقولة الشافعي الآتية: «إذا «وجدتم لي مذهباً، ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي، فأعلموا أن مذهبي ذلك الخبر»[٥]. وفي نقد إتباع مدرسة الحديث وتقليد النص قال أبو العلاء المعري:

وينفــر عقلـي مُغضبـاً إن تــركتـه
سـدىً وأتّبـعت الشافعي ومالكا[٦]

بينما سهولة المذهب الحنفي جعلت أبا العلاء يقول:

فــالعراقـي بعــــده للحجـــــازي
قـليـــل الخـــلاف سهــل القيـاد

المؤسس

ما يهمنا هنا هو تاريخ تأسيس المذهب الشافعي بالعراق. وانتشاره ليصبح مذهب السلطة السلجوقية ويتبناه الخلفاء لمسايرة أمراء السلاجقة من جهة، وللوقوف بوجه الحنابلة والشيعة من جهة أخرى. وما يترتب على ذلك من سطوة أو حظوة بين الناس. وإن حدث انتشار الشافعية رسمياً بجهود الوزير نظام المُلك الشافعي والأشعري (ت ٤٨٥هـ) إلا أن مؤسس المذهب وطأ أرض بغداد غير مرة، وأولها ورد سجيناً، مُهدداً بالقتل. وبعدها ورد رغبة بالعلم والمناظرة، فكانت بداية وجود المذهب ببغداد على يده.

= الطبعة الثانية ١٩٩٩.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٥١ ص٣٤٣.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل ١ ص٢٠٧.

(٦) المعري، لزوم ما لا يلزم ٢ ص١٢٠.

ولد محمد بن إدريس الشافعي العام (١٥٠هـ) ، وهي السنة التي مات فيها الإمام أبو حنيفة النعمان ، كما اسلفنا ، فصور الشافعيون اقتران وفاة إمام المذهب المنافس بولادة إمامهم بتلاشي مذهب الرأي أمام مذهب الحديث ، بينما صوره الحنفيون بضعف الحديث أو النص أمام الرأي . والشافعي فلسطيني الأصل حجازي النشأة[٧] . عاش يتيم الأب منذ طفولته ، فانتقلت أمه به إلى الحجاز ، حيث مجلس إمام الحديث مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) . كان عذب الصوت ، «إذا سمعه الناس يتلو اشتد بكاؤهم»[٨] . وهذه الميزة تجعل لصاحبها حضوراً في المجالس والمساجد رغم صغر سنه ، ويعرف سريعاً بين الناس . وحسب هذه الموهبة كانت بدايته مرتلاً للقرآن . وقيل في نسبه إنه من أحفاد شافع بن السائب . وكان السائب قد أسلم يوم بدر ، بعد أن كان صاحب راية الهاشميين من المشركين ، فأُسر وفدى نفسه ، ثم أسلم ، فقيل له : «لِمَ لم تسلم قبل أن تفتدي فداك» ، فقال : «ما كنت أحرم المؤمنين طعماً لهم فيَّ»[٩] ، ويعني الفداء .

استغل مؤرخو حياة الشافعي ما قيل عن جده الأعلى ، وشيوع إمامته ، فأحاطوا ولادته بكرامات وعجائب ، لم يختص فيها غير الأنبياء والأئمة . قالوا : «لما حملت أم الشافعي به رأت كأن المشتري خرَّ من فرجها ، حتى انقض بمصر . ثم وقع في كل بلد منه شظية ، فتأول أصحاب الرؤيا ، أنه يخرج عالمٌ ، يخص علمه أهل مصر . ثم يتفرق في سائر البلدان»[١٠] . وإبداع خبر هذه الرؤيا إشارة إلى تبني المصريين المذهب الشافعي ، وأن تكون رئاسته بمصر . وشغل تلميذه وصاحبه الأول أبو يعقوب يوسف البويطي (ت ٢٣١هـ) مكانه في الدرس والإفتاء وعنه انتشر المذهب ، وإن جاز القول إن مكانة البويطي في المذهب الشافعي كانت توازي مكانة سميِّه الحنفي أبي يوسف يعقوب الكوفي والبغدادي .

نشأ الشافعي فقيراً ، فحسب قوله : «كنت يتيماً في حجر أمي . ولم يكن معها ما تعطي المعلم . وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام»[١١] . وكان يتعلم ذاتياً . بالحفظ عن الناس . ويستعمل في الكتابة العظام والأكتاف بدل الرقاع ، ثم يخزنها بجرة قديمة . وهو القائل : «حتى امتلأ في دارنا من ذلك جبان (مقبرة)»[١٢] . كان في بداية حياته مغرماً في اللعب بالرماية ، فقال له الطبيب : «أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر»[١٣]!

---

(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ١٠ ص ١٣٦ .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٢٧٤ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١١) المصدر نفسه ، ص٢٨٢ .

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) المصدر نفسه .

ولعسر الحال نصحه قريبه بقوله : «لا تشتغل بهذا (العلم) وأقبل على ما ينفعك» . لكن النتيجة كانت كما أخبر عنها الشافعي : «جعلت لذتي في هذا العلم ، وطلبه حتى رزقني الله منه ما رزق»[١٤] . وتدرجَ الشافعي في الدراسة ، فصار من تلاميذ مالك بن أنس ، وقبلها درس لدى إمام مكة مسلم بن خالد الزنجي (ت ١٧٩هـ) ، وعرف بالزنجي لشدة حمرته . وكان عبد الملك بن سعيد الأصمعي (ت ٢١٦هـ) من تلامذته ، إذ قرأ عليه ديوان الهُذليين وغيرها[١٥] . وهذه إشارة إلى اهتمامات الإمام الشافعي الأدبية ، التي سنأتي على ذكرها . وقال الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) : «ما عرفتُ ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي»[١٦] . ومع ذلك تجاوز مؤرخو الحنبلية على شيخ إمامهم ، الشافعي ، وعدوه من طبقات الحنابلة .

اختلف الشافعي في مرحلة من حياته مع رأي أستاذه مالك بن أنس . وكان ذلك سبباً كافياً لحقد المالكيين عليه ، فشكوه «إلى السلطان ، والتمسوا منه إخراج الشافعي من البلد (لعله المدينة) ، فأجابهم إليه ، فذهب القرشيون والهاشميون إلى السلطان وكلموه ، فأبى عليهم . وقال : إن هؤلاء قد كرهوه ، وأخاف الفتنة . ثم أنه أجل الشافعي ثلاثة أيام على أن يخرج من البلد ، فلما كانت الليلة الثالثة مات الوالي فجأة ، وكفى الله تعالى أمره»[١٧] . كانت للشافعي ميول أخرى ، غير جمع الحديث والفقه . لكنه عزف عنها حتى يحتفظ برزانة الفقهاء ، فلو مارس موهبته الشعرية لكان شاعراً مطبوعاً . من وزن الشعراء الكبار الذين «يتبعهم الغاوون»[١٨] . قال مبرراً كبحه لطبعه الشعري لصالح الحديث والفقه :

ولـولا الشعـر بالعلمـاء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيد»[١٩]

يروي سبطه (ابن ابنته) عن أبيه اهتمام جده ، أيام حداثته ، بالفلك والنجوم «وما نظر في شيء إلا فاق فيه . فجلس يوماً وامرأته تطلق ، فحسب وقال : تلد جارية عوراء على فرجها خالٌ أسود . تموت كذا وكذا . فكانت كما قال! فجعل على نفسه ألا ينظر فيه بعدها . ودفن الكتب التي كانت عنده في النجوم»[٢٠] . ولا يحتاج سبطه أن يبرر لجده ، في هذه الحكاية ، عزوفه عن الفلك والنجوم ، لأن مثل هذا الاهتمام لايليق بالفقهاء . للإمام علي بن

(١٤) المصدر نفسه .
(١٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر٢ ص٤٠ .
(١٦) المصدر نفسه .
(١٧) الرازي ، مناقب الشافعي ، ص٢٢ .
(١٨) سورة الشعراء ٢٢٤ .
(١٩) الشافعي ، الديوان ، ص٣٩ .
(٢٠) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر٢ ص٤٠ .

أبي طالب تأثيره على الشافعي، وهو القائل في التنجيم: «أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به في بر وبحر، فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر! والكافر في النار! سيروا على اسم الله»[٢١].

قال الشافعي سارداً قصة ذهابه إلى نجران، جنوب الجزيرة العربية، وتعيينه والياً لمظالمها: «قدم علينا والي اليمن، فكلمه بعض القرشيين في أحجية. ولم يكن عند أمي ما تعطيني أتحمل به، فرهنت دارها على ستة عشر ديناراً، ودفعتها إليَّ، فتحملت بها إلى والي اليمن. فلما وصلنا سالمين استعملني على عمل، فحمدتُ فيه، فزادني عملاً آخر، فحمدتُ فيه. ودخل العمال مكة فأحسنوا عليَّ الثناء، وأكثروا من المدح. فلما قدمت مكة لقيت ابن أبي يحيى، فسلمت عليه. فقال لي: تضعون كذا، وتفعلون كذا؟ فتركته ولقيت سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) فسلمت عليه، فسلم عليَّ. وقال لي: قد بلغنا خبر ولايتك، وحُسن ما أنتشر عنك»[٢٢].

قال حول محنته بسبب الأمير العباسي المنصور بن المهدي (ت ٢٣٦هـ): «وليت نجران، وكان بها قوم من الحارث، وموالي ثقيف، فرفع إليَّ الناس مظالم كثيرة، فجمعتهم وقلت لهم: اختاروا لي سبعة منكم، مَنْ عدلوه كان عدلاً (موثوقاً)، وإن جرحوه كان مجروحاً قصياً. فاختاروا لي منهم سبعة، فجلستُ وأجلست السبعة بالقرب مني، فكلما شهد عندي شاهد بعثت إلى السبعة، فمَنْ عدلوه كان عدلاً ومَنْ جرحوه كان مجروحاً. فلم أزل أفعل ذلك حتى أتيت على جميع مَنْ تظلم إليَّ، فكنت أكتب وأسجل. قال: فنظروا إلى حكم جار. فقالوا: أي شيء يعمل؟ إن هذه الأمور التي تحكم علينا فيها ليست لنا، إنما هي في أيدينا لمنصور بن المهدي، فكتبت أسفل الكتاب: وأقر فلان بن فلان الذي وقع عليه الحكم في هذا الكتاب أن الذي حكمت به عليه ليس له، إنما هو لمنصور بن المهدي في يديه، ومنصور بن المهدي على حجته ما قام. فلما نظروا إلى ذلك خرجوا إلى مكة، ورفعوا ولم يزالوا يرفعون عليَّ حتى حُملت إلى العراق»[٢٣].

ما رفعه جماعة المنصور بن المهدي إلى أخيه هارون الرشيد بشأن الشافعي تهمة تأييده لعبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بابن الأفطس[٢٤].

---

(٢١) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام، رقم ٧٨، ص١٥٦.

(٢٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٢٨٣.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص٤٠٩. وعبد الله بن الحسن، حسب الأصفهاني، لم يخرج أو يثور على هارون الرشيد، وإنما كُتب عنه هكذا، فسجنه الرشيد ثم طلب من جعفر بن يحيى البرمكي أن يوسع عليه في سجنه. لكن الأخير قتله، واتى برأسه بعد تنظيفه إلى الرشيد، فامتعظ

حمل الشافعي إلى العراق مكبلاً بالحديد السنة (١٨٤هـ) . وذكر المصدر أن في ذلك الوقت كان صاحبا أبي حنيفة من ولاة الأمر ، أبو يوسف على قضاء القضاة ، مع أنه توفي قبل حمل الشافعي بسنتين ، «ومحمد (ابن الحسن بن فرقد) على المظالم ، فدخل على الرشيد . فقال محمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ) : الحمد لله الذي مكنك في البلاد ، وملكك رقاب العباد من كل باغ ومُعاد إلى يوم المعاد . لا زال قولك مسموعاً وأمرك مطاعاً . فقد عملت لدعوة ، وظهر أمر الله ، وهم كارهون . إن شرذمة من أصحاب عبد الله بن الحسن اجتمعوا ، وفيهم واحد ينوب عن الكل ، يقال له : محمد بن إدريس (الشافعي) ، يزعم أنه بهذا الأمر أحق منك ، ويدعي من العلم ما لا يبلغه سنه ، ولا يشد له بذلك ، وله لسان ورؤيا ، وسيخلبك بلسانه ، وأنا خائف على الدولة منه ، وكفاك الله مهماتك»[٢٥] .

نجا الشافعي من التهمة القاتلة التي دبرها له جماعة الأمير العباسي المنصور بن المهدي . وكانت المحاكمة سبباً لتعرف الشافعي بالفقيه الحنفي محمد بن الحسن ، الذي جرت معه في ما بعد مناظرات ، عكست العلاقة بين قطبي المدرستين ، الرأي والحديث . لكن علاقته بالعلويين ظلت قائمة من دون أن يتورط بتأييد عمل مسلح ، أو أن ينساق إلى التحريض ضد العباسيين . وبهذه الحدود أُعتبر الشافعي رافضياً! لكنه لم ينكر هذه التهمة بحدود حبه لسلالة الرسول ، فقال كما وردت الإشارة آنفاً في الفصل الخامس من الكتاب :

إن كـان رفضـاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافضي[٢٦]

أسعدَ قدوم الشافعي ، إلى بغداد ، أصحاب الحديث ، حتى أن أحمد بن حنبل سايره وهو على ظهر بغلته . وهذا ما لا يكون إلا لسادة القوم . لم يرض ذلك المحدث يحيى بن معين البغدادي (ت٢٣٣ هـ) ، فقال لابن حنبل : «ما رضيت إلا أن تمشي مع بغلته ، فقال : يا أبا زكريا ، لو مشيت من الجانب الأخر أنفع لك»[٢٧] . وقيل إن بعض أصحاب الرأي حاولوا التصدي له ، غير أنهم أصبحوا ، في ما بعد ، من أصحابه . قال أبو الثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت٢٤٠ هـ) : «لما ورد الشافعي (بغداد) جاءني الحسين الكرابيسي . وكان يختلف معي إلى أصحاب الرأي . فقال : قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه ، فقم بنا نسخر به ، فقمت وذهبنا حتى دخلنا عليه ، فسأله الحسين عن مسألة ، فلم يزل الشافعي يقول : قال الله ، وقال رسول الله ، حتى أظلم علينا البيت ، وتركنا بدعتنا وأتبعناه»[٢٨] .

= الأخير من فعل ذلك ، وحفظها لوزيره جعفر ، فلما أراد قتله قال لمسرور السياف : اقتله وقل له : «هذا بعبد الله بن الحسن ابن عمي ، الذي قتلته بغير أمري» .

(٢٥) الرازي ، مناقب الشافعي ، ص٢٣ .

(٢٦) الشافعي ، الديوان ، ص٧٣ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٣١٧ .

(٢٧) ابن الجوزي ، المنتظم ١٠ ص١٣٩ .

(٢٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٣٤٢ .

عجز أصحاب الحديث، ببغداد قبل ورود الشافعي، أمام تمرس أصحاب الرأي بالجدل والمناظرة، حتى قالوا: «كنا نريد أن نرد على أصحاب الرأي، فلم نحسن كيف نرد عليهم حتى جاءنا الشافعي ففتح لنا». وقالوا أيضاً: «لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث»[٢٩]. وقال فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، الفقيه الشافعي والمتكلم الأشعري: «الناس كانوا قبل زمان الشافعي فريقين: أصحاب حديث وأصحاب رأي. أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله، إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل. وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً، أو إشكالاً بقوا في أيديهم عاجزين متحيرين. وأما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل، إلا أنهم عاجزون عن معرفة الآثار والسنن. وأما الشافعي فكان عارفاً بسُنَّة رسول الله محيطاً بقوانينها. وكان عارفاً بآداب النظر والجدل»[٣٠]. ولأهمية الإمام الشافعي بالنسبة إلى أصحاب الحديث قال الرازي: «لولا الشافعي لكان أصحاب الحديث في عمى»[٣١].

ناظر الشافعي المتكلمين حول أبرز المسائل وهي خلق القرآن، كان ذلك قبل تعميمها رسمياً من قبل المأمون، وامتحان الفقهاء والمحدثين بها العام (٢١٨هـ)، وهي سنة وفاة الخليفة المذكور. منهم: بشر المريسي (ت ٢١٨هـ)، المحسوب على الاعتزال، وحفص الفرد (ت ٢١٨هـ). لكنه ضاق في مناظرة الفرد بمصر، فرماه بالكفر[٣٢]. وحجة الشافعي في تكفير مَنْ قال بمقالة خلق القرآن: «إنما خلق الله الخلق بكن، فإذا كانت كن مخلوقة فكان مخلوقاً خُلق بمخلوق»[٣٣]. ومع منزلة الشافعي العلمية بين أصحابه، إلا أنه من المبالغة أن يقال عنه قبل دراسته بمكة: «كان صاحب طريقة جديدة في الفقه، وصاحب آراء جديدة فيه تنفصل عن آراء مالك»[٣٤].

وجد ابن عساكر (ت٥٧١هـ)، الشافعي والأشعري، حجة لوضع ترجمة وافية لإمامه، فتاريخه «تاريخ مدينة دمشق»، كما هو معروف، كان مقتصراً على الدمشقيين. غير أنه برر الخروج عن القاعدة التي التزم بها بالقول: «اجتاز(الشافعي) بدمشق أو ساحلها حتى ذهب إلى مصر»[٣٥]. لذلك خصه بترجمة استغرقت مجلداً كاملاً من كتابه.

---

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.
(٣٠) الرازي، مناقب الشافعي، ص ٢١.
(٣١) المصدر نفسه.
(٣٢) المختصر في أخبار البشر ٢ ص٤٠.
(٣٣) المصدر نفسه.
(٣٤) أبو زهرة، الشافعي حياته وعصره، ص ٢٩.
(٣٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٢٦٨.

يذكر ابن عساكر مناظرة الشافعي لمحمد بن الحسن بن فرقد الحنفي بالرقة (من مدن الفرات بالشام)، وكان يخفض جناحه لمحمد ببغداد، وتعلم منه واستكبر مناظرته، بقوله له: «إني أُجلّك عن المناظرة»[٣٦]. إلا أنه طلب المناظرة معه حول صلاة الكسوف على مذهب مالك بن أنس، بعد أن توثق من ابن الحسن أن لا يغضب ولا يحتد كعادته. ولم يعترف الفقيه الحنفي بأسانيد مالك، فقال للشافعي: «لو غيري جالسك»[٣٧]. كان الشافعي متمرساً في الجدل، والمناظر عنده هو «مَنْ عودَ لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ. ولا يكون رخي البال قصير الهمة، فإن مدارك العلم صعبة لا تُنال إلا بالجهد والاجتهاد. ولا يستحقر خصمه لصغره فيسامحه في نظره، بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء. لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع»[٣٨].

لا ندري، ما مدى صحة الرواية التي أشارت إلى سعاية محمد بن الحسن، صاحب ديوان المظالم ببغداد، بشيخ الشافعي مالك بن أنس عند والي المدينة العباسي، بقوله: «لا يرى الأيمان ببيعتكم هذه بشيء، لأن يمين المكره ليست لازمة. فغضب جعفر ودعا بمالك وجرده وضربه بالسياط، ومُدت يده حتى انخلعت كتفه، وارتكب منه أمراً عظيماً»[٣٩]. وخلاف ما روي، يذكر أن الشافعي كان يجل الفقيه الحنفي محمد بن الحسن، و«يعظمه ويثني عليه ثناءً كثيراً»[٤٠]. ومع هذا، حصل أن طلب الشافعي إعارة شيء من كتب الفقيه، للاستزادة من الفقه الحنفي، فلم يستجب له.

رحلَ الشافعي، بعد مناظرة الرقة مع محمد بن الحسن، إلى مصر، وهي زيارته الأولى لها عبر الشام. ففي زيارته الثانية لها، عِبر مكة، مكث فيها حتى وفاته السنة ٢٠٤هـ[٤١]. كان ذلك في خلافة عبد الله المأمون. وصلى على جنازته أمير مصر محمد بن السريّ بن الحكم[٤٢]. كانت صلاة أمير مصر على جنازته إشارة إلى رضا الدولة العباسية عنه، بعد أن كاد يُقتل في مجلس هارون الرشيد.

غير أن المؤرخ المصري ابن أياس (ت٩٣٠هـ) ذكر أن الأمير محمد بن السريّ قضى

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٣٧) المصدر نفسه، ص٢٧٠.

(٣٨) البغدادي، الفقيه المتفقه ٢ ص ٢٩.

(٣٩) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ٢ ص٢٣ - ٢٤.

(٤٠) الأسنوي، طبقات الشافعية ١ ص١٤.

(٤١) تاريخ مدينة دمشق ٥١ ص٢٧١.

(٤٢) المسعودي، مروج الذهب ٤ ص٣١٩.

دَين الشافعي بوصية منه «أن لا يغسله إلا أمير البلد» . وقد فهم الأمير أنها كناية عن قضاء الدَين عنه ، وقد سددَ نيابة عنه سبعين ألف درهم للدائنين . أما وصية الصلاة فكانت لأستاذته بالحديث السيدة نفيسة ، التي توفيت بعده بأربع سنوات ، فلما مات «احضروا نعشه عندها فضُربت لها ستارة ، وصلت عليه من خلفها ، ثم حُمل من عندها ودفن في تربته»[٤٣] . والسيدة نفيسة ، لمن لا يعرفها ، ابنة الإمام الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، هاجرت من مكة إلى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق . وقيل دخلت مصر مع أبيها ، وكان الإمام الشافعي «حضر عندها وأخذ عنها الحديث . وبالجملة أن الدعاء عند قبرها مجاب»[٤٤] .

قد لا نذهب بعيداً ونعدّ الشافعي قد تجاوز ما فرض على المرأة في مذهبه . لم يجز لها أن تتولى القضاء فكيف يجوِّزُ لها أن تصلي على جنازة الرجل . لذا لم تتعد وصيته الخاص إلى العام ، أي لم تتجاوز حدود شخص شيخته إلى جنسها ، فكان طالب بركة من امرأة صالحة من آل محمد ، أثر فيه صلاحها وتقاها وعلمها . ولا غرابة في الأمر ، فقد ظل فقهاء ومؤرخون عديدون ، منهم سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) ، يتذكرون أستاذتهم نعمة بنت علي بن يحيى بن محمد الطراح (ت٦٠٤هـ) ، ولعلمها أطلقوا عليها لقب «ست الكتبة» ، قال السبط : «شيختنا سمعت عليها الحديث بدمشق في سنة (٦٠٠هـ) وكانت صالحة عابدة وزاهدة»[٤٥] . استخدم الباحث منصور فهمي رواية صلاة السيدة نفيسة على جنازة الإمام الشافعي في أطروحته التي قدمها إلى الجامعة الفرنسية (١٩١٣) كدليل على سريان مبدأ عزل النساء بما تجاوز سنوات الإسلام الأولى . قال : «قامت نفيسة بالصلاة ، ولكن لوحدها مع التابوت معزولة عن الجموع بستارة»[٤٦] .

قال المسعودي ، وقد زار قبره : «دُفن الشافعي بمصر ، بحومة قبور الشهداء ، في مقبرة بني عبد الحكم ، وبين قبورهم ، وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وكذلك عند رجليه ، وعلى العالي الذي عند رأسه حفر كتب فيه ، في ذلك الحجر : هذا قبر محمد بن إدريس الشافعي ، أمين الله»[٤٧] . قال صاحبه ، وراوية كتبه ، الربيع بن سليمان بن عبد الجبار (ت٢٧٠هـ) : «رأيت الشافعي ، بعد وفاته ، في المنام ، فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟ قال : أجلسني على كرسي من ذهب ، ونثر عليَّ اللؤلؤ

(٤٣) ابن أياس ، تاريخ مصر بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ١ ص٣٣ .

(٤٤) المصدر نفسه ١ ص٣٤ - ٣٥ .

(٤٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ ج١ ص٣٣٩ .

(٤٦) فهمي ، أحوال المرأة في الإسلام ، ص ٥٨ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص٣٢٠ .

الرطب»[٤٨] . مات الشافعي وأهل الحديث لا يرجون عنه عوضاً . قال ابن حنبل لولده عبد الله وهو يسأله عن الشافعي : «يا بني ، كان كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فأنظر هل لهذين خلف ، أو منهما عوض»[٤٩]! ومازال ضريحه بالقاهرة مكاناً للتبرك ، وتصله طلبات رد مظالم ، ومنها «طلبات انتقام»[٥٠] . ومن ألقابه كما وردت في رسائل المصريين الحاليين : قاضي الشريعة ، والسيد ، والشفيع ، والولي وغيرها (راجع الفصل الخامس) .

انفتاح بويهي

رغم تشيع الأمراء البويهيين (٣٣٤ - ٤٤٧هـ) إلا أن المذهب الشافعي كان قوياً ومهيمناً من خلال قضاته وفقهائه ، وفي مقدمتهم أبو الحسن الماوردي (٤٥٠هـ) . ويُذكَر لهذا العهد انفتاحه على المذاهب والأديان الأخرى . وفي ظل هذا الانفتاح نشط الشيعة الإماميون والشافعيون الأشاعرة على السواء ، فكان قاضي القضاة الماوردي وسيطاً بين دار الخلافة العباسية ودار السلطنة البويهية[٥١] . وكان أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، إمام الأشاعرة في عصره ، سفيراً لعضد الدولة البويهي (ت٣٧٢هـ) إلى ملك الروم البيزنطينين[٥٢] .

من المفارقة بمكان أن «يقبض عضد الدولة على القاضي المُحسن التنوخي (الحنفي والمعتزلي) ، وكان شديد التعصب على الشافعي ، يطلق لسانه فيه»[٥٣] . ولعلَّ من أسباب استمرار الحضور الشافعي في العهد البويهي ، إضافة إلى التسامح المتاح بين المذاهب ، تبني الخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ) المذهب الشافعي ، بعد أن «تفقه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي»[٥٤] ، وقد عدَّ السبكي هذا الخليفة من طبقات الشافعية ، وكانت مدة خلافته (٤١) عاماً ، أطول فترة حكم بعد ولده القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ) ، وحفيد أحفاده الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) .

يذكر للقادر بالله تدخله وتأثيره في نصرة المذهب الشافعي ببغداد . مثل امتناعه من تقليد الرضي الشيعي مهام القضاء . جاء في الرواية إن بهاء الدولة البويهي قلد العام

(٤٨) ابن الجوزي ، المنتظم ١٠ ص١٣٨ .
(٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .
(٥٠) عويس ، رسائل إلى الإمام الشافعي ، ص٢٦٢ .
(٥١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر٢ ص٢٢٧ .
(٥٢) ابن الأثير ، الكامل ، السنة ٣٧١هـ ، ابن عساكر ، تبيين كذب المفتري ، ص ٢١٩ .
(٥٣) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر٢ ص١٧٧ .
(٥٤) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٤ ص٦ .

(٣٩٤هـ) «الشريف الرضي نقابة العلويين بالعراق ، وقضاء القضاة والمظالم . وكتب عهده بذلك من شيراز . ولقبه الطاهر ذا المناقب . فامتنع الخليفة من تقليد قضاء القضاة . وأمضى سواه»[٥٥] . كما «صنف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث . وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز ، و اكفار المعتزلة ، والقائلين بخلق القرآن . وكان الكتاب يقرأ كل يوم جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ، ويحضر الناس سماعه»[٥٦] .

حدث ذلك في أوج قوة العهد البويهي الشيعي والمعتزلي . وحسب ما بأيدينا من الروايات ، لم يلاق تصرف الخليفة معارضة بويهية ، على الرغم من أن الأمراء كانوا قادرين على لجم الخليفة ، وفعلوها في مواقف معينة . كان لجوء الخليفة إلى الشافعية له علاقة بالمد الشيعي والمعتزلي الذي تعاظم في أيام البويهيين . وهذا ما يحصل عادة في ظل انفتاح الدولة ، فلدى المعتزلة ما يغري المثقفين والباحثين عن العلوم وحرية الرأي . ولا زالت الشيعة في ذلك الوقت تستقطب المعارضة .

ومع التزامه المذهب الشافعي ، وانحيازه الواضح ، إلا أن القادر بالله أخذ برأي قاضي القضاة الحنفي في حادثة اختلاف فقهي على رؤية هلال رمضان ، التي لا زالت قائمة بين المذاهب حتى زماننا الحاضر . روى ابن الجوزي في أحداث العام ٤٤٨هـ : أن شريفاً من أولاد المهتدي أعلن العيد حسب تعاليم المذهب الشافعي في رؤية الهلال ، فقال قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني ، لما روجع في ذلك : «أما مذهب أبي حنيفة ، الذي هو مذهبي ، فلا تقبل مع صحو السماء ، وجواز ما يمنع من مشاهدة الهلال إلا قول العدد الكثير الذي يبلغ مائتين ، وأما مذهب الشافعي ، رضي الله عنه ، الذي هو مذهب هذا الشريف فإنه يقطع بشهادة أثنين في مثل هذا»[٥٧] . والتزم الخليفة ، رغم شافعيته ، رأي قاضي القضاة ، فأمر «بالنداء أن لا يفطر أحد ، فأمسك مَنْ كان أكل» .

ومما يذكر للعهد البويهي من انفتاح وبعد عن الطائفية هو تبؤ عدد من فقهاء المذهب الشافعي منصباً خطيراً في الدولة كمنصب القضاء ، مثل : قاضي القضاة بالعراق أبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمداني (ت٣٥٠هـ) . وقاضي بغداد عمر بن أكثم الأسدي (ت ٣٥٧هـ) ، وقيل هو أول مَنْ تولى مهام القضاء من الشافعية[٥٨] . وقاضي القضاة المعتزلي عبد

---

(٥٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ٢ ص ١٩٨ .

(٥٦) البغدادي ، تاريخ بغداد ٤ ص٣٧ - ٣٨ .

(٥٧) ابن الجوزي ، المنتظم ١٦ص ٦ - ٧ .

(٥٨) الأسنوي ، طبقات الشافعية ٢ ص٢٥ .

الجبار الأسدابادي (ت ٤١٥هـ) ، ولعله كان من المعتزلة القلائل الذين تبنوا المذهب الشافعي في الفقه ومذهب المعتزلة في الفكر . والقاضي أبو بكر الجرجاني (ت ٤١٨هـ) . والقاضي أبو علي الحسن بن عبيد الله البندنيجي -نسبة إلى بندنيج وهي مندلي حالياً- (ت ٤٢٥هـ) . والقاضي أبو العباس أحمد بن محمد الأبيوري (ت٤٢٥هـ) ، تولى قضاء بغداد : الرصافة ومدينة المنصور ، وكان «يُدرس في قطيعة الربيع ، وله حلقة الفتوى في جامع المنصور»[٥٩] . وقاضي القضاة الحسين بن علي بن جعفر ، المعروف بابن ماكولا (ت٤٤٧هـ) ، صاحب كتاب «الإكمال» ، تولى قضاء بغداد العام ٤٢٠ هـ . وقاضي القضاة علي بن محمد الماوردي (ت٤٥٠هـ) ، صاحب الأحكام السلطانية ، تولى ولاية القضاء من قبل خلافة القائم بالله العباسي (ت ٤٦٧ هـ) .

تتضح قوة المذهب الشافعي في ظل البويهيين من تصرفات فقهائه وتدخلهم في شؤون السلطنة والخلافة . فقد كتب الشيخ أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني (ت ٤٠٦ هـ) إلى الخليفة القادر بالله ، بعد أن وقع فتور بينهما - مع أنهما على مذهب واحد - مهدداً : «أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي ، التي ولانيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك»[٦٠] . وولاية الفقيه ليس من الله كما يدعي بل من السلطان البويهي الذي يخضع الخليفة لأمره . فالقادر (ت٤٢٢هـ) ، وهو على مذهب الفقيه الاسفرايني ، شافعي ، ظل فاراً من ابن عمه الطائع بالله (ت٣٨١هـ) ، مدة سنتين بالأهوار جنوبي العراق . وكان معيناً من قبل السلطان البويهي ، بعد أن قبض الأخير على الطائع بالله وسحبه من مجلسه على الأرض ، فقال شاهد الحادث الشريف الرضي :

أمسيت أرحم مَنْ قد كنت اغبطه
لقد تقارب بين العزّ والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني
يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات اعتز بالسلطان ثانية
قد ظل عندي ولاج السلاطين[٦١]

أفتى قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي فتوى ضد تلقيب السلطان البويهي بملك الملوك «وشدّد في ذلك . وكان الماوردي من خواص جلال الدولة ، فلما أفتى بالمنع أنقطع عنه ، فطلبه جلال الدولة ، فمضى إليه على وجل شديد . فلما دخل قال له : إن تحقق أنك لو

---

(٥٩) ابن الجوزي ، المنتظم ١٥ ص٢٤٣ .
(٦٠) المصدر نفسه ١ ص ٤٦ .
(٦١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ٢ ص ١٨٦ .

حابيت أحداً لحابيتني ، لما بيني وبينك ، وما حملك إلا الدين ، فزاد بذلك محلك عندي»[٦٢] . واحتفظ الماوردي بمركزه وقربه من الملك . وخلاف ما يقتضيه فضل البويهيين عليه كان يحمل سراً رسائل الخليفة العباسي إلى السلاجقة في مهمة التنسيق ضد أصدقائه البويهيين[٦٣] . بينما شافعي آخر هو القاضي أبو الطيب الطبري (ت٤٥٠هـ) أفتى بجواز إطلاق لقب ملك الملوك ، بمعنى ملك الأرض ، مبرراً ذلك بوجود لقب قاضي القضاة . ووافقه في هذه الفتوى أحد فقهاء الحنابلة[٦٤] . وقصة هذا اللقب أن أمر الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت٤٦٧هـ) ، السنة ٤٢٩هـ ، « يزاد في ألقاب جلال الدولة ابن بويه شاهنشاه الأعظم ، ملك الملوك ، وخُطب له بذلك . فأفتى بعض الفقهاء بالمنع ، وأنه لا يقال ملك الملوك إلا لله . وتبعهم العوام ، ورموا الخطباء بالآجر ، وكُتب إلى الفقهاء في ذلك ، فكتب الصيمَري الحنفي : أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية»[٦٥] .

يتضح مما تقدم مدى رعاية البويهيين للعلم والفقه بمذاهبه المختلفة . إلا أنهم تعرضوا للهجوم والانتقاد بسبب معاملتهم المذهب الشيعي أسوة بالمذاهب الأخرى : الحنفي والشافعي والحنبلي . له مدارسه الخاصة ، ويُرفع من مساجدهم الأذان بحي على خير العمل . وأن تتمارس علانية ببغداد ، وبدعم من سلاطين آل بويه (٣٥٢هـ) ، طقوس حزن الشيعة في عشرة عاشوراء لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية . بعدها وعلى غير العادة دفن عضد الدولة بن ركن الدولة (السنة ٣٧٢هـ) في مشهد علي بن أبي طالب[٦٦] . ولعل ذلك التاريخ كان بداية وجود مقبرة وادي السلام المشهورة بالنجف .

ومن التعسف بمكان أن يوصف البويهيون ، رغم انفتاحهم الفكري والفقهي وتسامحهم قياساً بخلفائهم السلاجقة المتشددين ، من قبل مؤرخ معاصر أنهم «كانوا شيعة متطرفين ، عملوا على إضعاف الخلافة السُنّية ، وأضاعوا هيبتها ، وشجعوا على نشر كثير من معتقداتهم الشيعية»[٦٧] . ومن التعسف أيضاً أن يذكروا في أجواء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ - ١٩٨٨) بالغزاة ، وكأن السلاجقة كانوا عراقيي الأصول ولم يزحفوا على بغداد من بلاد فارس؟ ورد في قصيدة الشاعر محمد جميل شلش المهداة إلى الجيش العراقي «يا حاملاً غضب الأجيال»[٦٨] :

---

(٦٢) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٥ ص ٧١ .

(٦٣) ابن الجوزي ، المنتظم ١٦ ص٨٥ .

(٦٤) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٥ ص٢٧١ .

(٦٥) المصدر نفسه .

(٦٦) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، السنة المذكورة . .

(٦٧) أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص٢٢١ .

(٦٨) عبود ، ثقافة العنف في العراق ، ص١٩٩ ، عن ديوان نشيد الدم .

من عهد كسرى وذات الحقد في دمها

لـم يـأل خلـف قنـاع الديـن يلتهـب

هـذي الخمينيـة الصفـراء نعـرفـهـا

مـن قبل ألف ونبلـــوها ونجتنـب

هــم الغـزاة البويهيــون يا وطنـــي

وإن تغيـــرت الألـقـــاب والـرتـب

ما أن حل السلاجقة الأتراك بالعراق حتى ظهر التعصب لمذهب واحد، هو المذهب الشافعي، من دون المذاهب الأخرى. وطغت النعرات الطائفية. وبفعلها أُحرقت مكتبة شيخ الطائفة أبي جعفر محمد الطوسي (ت٤٦٠هـ)، فاضطر إلى ترك بغداد والإقامة النجف. وقد صاحب حرق مكتبة شيخ الطائفة الشيعية السنة ٤٤٨هـ ممارسات أخرى ضد الشيعة فقد أقيم الأذان بخير من النوم السُنِّية بدلاً من حي على خير العمل الشيعية في المشاهد والساجد الشيعية ببغداد، مثل: مشهد الإمام موسى بن جعفر ومساجد الكرخ[٦٩].

تشدد سلجوقي

يحكى في سبب قدوم السلاجقة، أن استولى القائد التركي أبو الحارث ابن أرسلان البساسيري (قُتل ٤٥١ هـ) «على البلاد وطار أسمه. وتهيبته أمراء العرب والعجم. ودعي له على كثير من المنابر العراقية، والأهواز ونواحيها، وجبى الأموال. ولم يكن القائم بأمر الله يقطع أمراً دونه. ثم صح عند الخليفة سوء عقيدته، وشهد عند جماعة من الأتراك: أن البساسيري عرفهم، وهو إذ ذاك بواسط، عزمه على نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة، فكاتب الخليفة أبا طالب محمد بن ميكائيل، المعروف بطغرلبك، أمير الغز، وهو بنواحي الري يستنهضه على المسير إلى العراق. وانفض أكثر مَنْ كان مع البساسيري، وعادوا إلى بغداد، ثم أجمع رأيهم على أن قصدوا دار البساسيري، وهي في الجانب الغربي، في الموضع المعروف اليوم بدرب صالح، بقرب الحريم الظاهري، فأحرقوها وهدموا أبنيتها»[٧٠]. والبساسيري من بقايا أتراك عهد المعتصم بالله (ت ٢٢٧هـ)، أي من أحفاد وصيف وبغا، اللذين استضعفا الخلفاء العباسيين بعد قتل المتوكل على الله (ت٢٤٧هـ)، فقال الشاعر[٧١]:

---

(٦٩) تغرى بردى، النجوم الزتهرة ٥ ص ٥٩.

(٧٠) ابن الجوزي، المنتظم ١٥ ص ٣٤٨، السبكي، طبقات الشافعية ٥ ص ٢٤٨.

(٧١) الصابي، الوزراء، ص٢٤١

خليـفة مقتسـمٌ بيـن وصيف وبُغـا
يقول ما قالا له كما تقـول الببِّغا[٧٢]

دخل الجيش السلجوقي بغداد السنة (٤٤٧ هـ) تتقدمه ثمانية فيلة، دون مقاومة من السلطنة البويهية، في عهد آخر ملوكها الملك الرحيم، الذي حرص الخليفة أن يبقي أسمه في الخطبة فترة من الزمن. لكن السلطان الجديد طغرلبك لم يلتزم مرسوم الخليفة. وكما جرت العادة في إعلان حسن النوايا أُحتفل بمراسيم زواج الخليفة من ابنة أخ طغرلبك بصداق قدره مائة ألف دينار، وعقد النكاح قاضي القضاة الحنفي أبو عبد الله الدامغاني، وبشهادة قاضي القضاة الشافعي أبي الحسن الماوردي، وهو زواج مصلحة بين الخلافة والسلطنة الجديدة ببغداد، ولم يلتق الخليفة السلطان طغرلبك إلا العام (٤٤٩هـ) في حفل استقبال رسمي، خاطب الخليفة السلطان فيه بلقب «ملك المشرق والمغرب».

عاد البساسيري إلى بغداد ثانية العام (٤٥٠هـ) بعد أن خرج منها منكسراً، مستغلاً انشغال الجيش السلجوقي بتمرد إبراهيم ابن أخ طغرلبك بالموصل، وهذه المرة تمكن من أسر الخليفة القائم بأمر الله، ونفيه إلى مدينة حديثة، غرب العراق.

واتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله بمصر، وخطب باسمه بجامع المنصور ببغداد، ورفع الأذان بحي على خير العمل[٧٣]. والملاحظ أنه كل مَنْ احتلف مع الحليفة العباسي وخرج عليه يتصل بالخليفة الفاطمي، مثلما فعل البساسيري، وعطية صاحب بالس غرب العراق[٧٤]، وغيرهما كثير. وبالوقت الذي أخذت الخلافة الفاطمية بالتوسع لكثرة الخارجين علر الخليفة العباسي كانت الخلافة العباسية تتقلص، حتى لم يبقى لها في أيام المستعصم غير بغداد وأنحائها. لكن بإنقلاب داخلي قاده المؤتمن عليها صلاح الدين الأيوبي سبق القاهرة الفاطمية بغداد العباسية إلى السقوط.

وبعد قتل البساسيري، وتمكن الجيش السلجوقي من السيطرة على بغداد العام ٤٥١هـ، عاد الخليفة وسط احتفال شعبي «ضربت البوقات والدبادب بين يديه، واجمع

---

(٧٢) ليس بعيداً، أن تكون رواية هذين البيتين من قبل كاتب من أبرز كتّاب العصر البويهي، هو هلال بن المُحسن الصابئ(ت ٤٤٨هـ) لها صلة بالصراع بين البويهيين والسلجوقيين. وبالتالي بين الفرس والأتراك. غير أن صابئياً آخر صنف كتاباً في تاريخ البويهيين، بطلب من عضد الدولة، سماه «التاجي» قال لبعض أصحابه: «أباطيل أُنمقها وأكاذيب أُلفقها» (أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ٢ ص١٢٩). وقيل «حرك ذلك عضد الدولة عليه، و أبعده وحرمه، بعد أن كان غاضباً عليه من الرسائل التي يكتبها لمعز الدولة وابنه بختيار»(المصر نفسه).

(٧٣) تغرى بردى، النجوم الزاهرة ٥ ص ٦.

(٧٤) المصقر نفسه، ص٦٦.

النساء والنفاطين (حاملي المشاعل) بالدفوف، ومَنْ يغني بين يديه»[٧٥]. وقتل البساسيري وأودع رأسه بعد تحنيطه في «خزانة الرؤوس» بدار الخلافة، التي ورد ذكرها غير مرة[٧٦] في التاريخ. استمر السلاطين السلاجقة يحكمون بغداد وما يتبعها الفترة (٤٤٧ - ٥٢٥هـ)، إلى أن استقل الخليفة المقتفي لأمر الله (ت٥٥٥هـ)، بعد حوالى قرنين من ازدواجية الحكم بين السلطنة أو المملكة والخلافة، وظل تواجدهم في مناطق صغيرة، يلاحقهم جيش الخلافة العباسية، حتى انتهاء أمرهم بقتل طغريل بن أرسلان شاه (ت٥٩٠هـ)، وهو آخر سلطان سلجوقي.

كان السلاجقة، بعد إسلامهم، على المذهب الحنفي، المنتشر بإيران وما وراء النهر، وكان ابرز الحنفيين وزير طغرلبك عميد المُلك أبو نصر منصور بن محمد الكندري (٤٥٦هـ)، وقيل، وربما كانت شائعة أشعرية ضده، إنه كان مخصياً «خصاه طغرلبك لأنه أرسله يخطب امرأة ليتزوجها، فتزوجها هو، وعصي عليه، فظفر به وخصاه، وأقره على خدمته، وقيل: بل أعداؤه أشاعوا عنه أنه تزوجها، فخصى نفسه ليخلص من سياسة السلطنة»[٧٧]. فقال فيه علي بن الحسن الباخرزي:

قالـوا محا السلطان عنه بعزة	سمة الفحول وكان قرماً صائلا
قلت اسكتوا فالآن زاد فحولة	لما اعتدى عن أُنثييه عاطلا
فالفحل يأنف أن يسمى بعضه	أُنثى لذلك جذّه مُستأصلا[٧٨]

ورد في مصادر شافعية، أن الوزير الحنفي الكندري كان «شديد التعصب على الشافعية، كثير الوقيعة في الشافعي. بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان في لعن الرافضة (قد يتعلق الأمر في العهد البويهي) على منابر خراسان، فأذن في ذلك بلعنهم، وأضاف إليهم الأشعرية، فأنف من ذلك أئمة خراسان. منهم أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني وغيرهما، ففارقوا خراسان، وأقام إمام الحرمين بمكة أربع سنين إلى أن انقضت دولته (الوزير الكندري) يدرس ويفتي، فلهذا لُقب إمام الحرمين. فلما جاءت الدولة النظامية (الوزير نِظام المُلك) أحضر مَنْ انتزح منهم وأكرمهم، وأحسن إليهم. وقيل إنه تاب من الوقيعة في الشافعي. فإن صح ذلك فقد أفلح. وإلا فعلى نفسها براقش تجني»[٧٩]. ومن

---

(٧٥) ابن الجوزي، المنتظم ١٦ ص٥٥.

(٧٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨ ج٢ ص٥٢٣، أبو الفداء، المختصر ٢ ص١١٣.

(٧٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٠ ص٣٢.

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) المصدر نفسه ،ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الاشعري، ص

الإجراءات التي أقدم عليها الكندري ، واستفز الشافعية «عزلَ أبا عثمان الصابوني عن الخطابة بنيسابور ، وفوضها إلى بعض الحنفية ، فأم الجمهور»[٨٠] .

قال ابن عساكر (ت٥٧١هـ) قبل ذلك : «حتى تقشعت تلك السحابة ، وتبدد بهلاك الوزير (الكندري) شمل تلك العصابة . ومات ذلك السلطان ، ووُلّي ابنه (ابن أخيه) ألب أرسلان ، واستُوزر الوزير الكامل ، والصدر العالم العادل أبا علي الحسن بن علي بن اسحق (نظام المُلك) فأعز أهل السُنَّة . وقمع أهل النفاق . وأمر بإسقاط ذكرهم من السب ، وإفراد مَنْ عداهم باللعن والثلب»[٨١] . ويفهم من رواية ابن الأثير الآنفة ، أن لقب أو نبز الرافضة لم يقتصر على الشيعة حسب ، وإنما اختص فيه الشافعية أيضاً ، وربما يتعلق الأمر باتهام الإمام الشافعي بالرفض أيام هارون الرشيد .

كان الخلاف شديداً بين عميد المُلك الحنفي ونظام المُلك الشافعي ، فاستغل الأخير قربه من السلطان ألب أرسلان ليفتك بخصمه في المذهب ، ومنافسه في المنصب . وبعد وزارته كان له ذلك . فقال ابن الأثير الشافعي شامتاً : «ومن العجب أن ذَكره دُفن بخوارزم لما خُصي ، ودمه مسفوح بمرو ، وجسده مدفون بكندر ، ورأسه ما عدا قحفه مدفون بنيسابور . ونقل قحفه إلى كرمان ، لأن نظام المُلك كان هناك . فاعتبروا يا أولي الأبصار»[٨٢] . والجدير بالذكر أن قتل الوزير الحنفي لا يعني خلو مجلس السلطان السلجوقي من الحنفيين ، فقد ذُكر أن فقيه ألب أرسلان الخاص كان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي ، في ظل وزارة نظام المُلك ، وهو الذي نصح السلطان أن يمضي في محاربة الروم السنة (٤٦٣هـ)[٨٣] . ولعل هذه إشارة إلى بقاء السلطان على مذهبه الحنفي . إلا أن المتنفذ بشؤون الدولة هو الوزير نظام المُلك .

حرض أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري السلطان طغرلبك ضد الوزير الحنفي الكندري في رسالة بثها السنة (٤٤٥هـ) ، إلى بلدان الإسلام المختلفة تحت عنوان «شكاية أهل السُنَّة بحكاية ما نالهم من محنة» . ولأهميتها في توضيح خلفية تأسيس المدرسة النظامية ، المغلقة للشافعية والأشعرية ، في كشف ستار المواجهة بين المذاهب نأتي بنصها :

«أما بعد ، فإن الله إذا أراد أمراً قدره ، فمن ذا الذي أمسك ما سيره ، أو قدم ما أخره ، أو عارض حكمه فغيره أو غلبه على أمره فقهره . كلا بل هو الله الواحد القهار ، الماجد

= ١٠٨ ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ٢ ص٢٦٣ .

(٨٠) ابن عساكر ، تبيين كذب المفتري ، ص ١٠٨ .

(٨١) المصدر نفسه .

(٨٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١٠ ص٣٣ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ص٦٥ .

الجبار . ومما ظهر ببلد نيسابور من قضايا التقدير في مفتتح سنة خمس وأربعين وأربعمائة من الهجرة ، ما دعا أهل الدين إلى شق صدور صبرهم ، وكشف قناع ضرهم . بل ظلت الملة الحنيفية تشكو غليلها ، وتبدي عويلها ، وتنصب غرائز رحمة الله على مَنْ يسمع شكواها ، وتصغي ملائكة السماء حين تندب شجوها . السُّنَّة ذلك مما حدث من لَعن إمام الدين وسراج ذوي اليقين ، محيي السنَّة وقامع البدعة ، وناصر الحق وناصح الخلق ، الزكي الرضي أبي الحسن الأشعري ، قدس الله روحه ، وسقي بماء الرحمة ضريحه . وهو الذي ذب عن الدين بأوضح حجج . وسلك في قمع المعتزلة ، وسائر أنواع المبتدعة ، أبين منهجٍ . واستنفد عمره النصح عن الحق . وأورث المسلمين بعد وفاته كتبه الشاهدة بالصدق . ولما مَنَّ الله الكريم على الإسلام بزمان السلطان المعظم ، المحكم بالقوة السماوية في رقاب الأمم ، الملك الأجل شاهانشاه يمين خليفة الله وغياث عباد الله طغرلبك أبي طالب محمد بن ميكائيل . وقام بإحياء السُّنَّة والمناضلة عن الملة ، حتى لم يبق من أصناف المبتدعة حزباً إلا سل لاستئصالهم سيفاً عضباً ، وأذاقهم ذلاً وخسفاً ، وعقب لآثارهم نسفاً . حرجت صدور أهل البدع عن تحمل هذه النقم ، وضاق صبرهم عن مقاساة هذا الألم . ومنوا بلعن أنفسهم على رؤوس الأشهاد بألسنتهم .

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت بانفرادهم بالوقوع في مهواة محنتهم ، فسولت لهم أنفسهم أمراً فظنوا أنهم بنوع تلبيس ، وضرب تدليس يجدون لعسرهم يسراً . فسعوا إلى عالي مجلس السلطان المعظم بنوع نميمة . ونسبوا الأشعري إلى مذاهب ذميمة . وحكوا عنه مقالات لا يوجد في كتبه منها حرف . ولم ير في المقالات المصنفة للمتكلمين الموافقين والمخالفين من وقت الأوائل إلى زماننا هذا ، لشيء منها حكاية ولا وصف بل كل ذلك تصوير بتزوير وبهتان بغير قدير . وما نقموا من الأشعري إلا أنه قال بإثبات القدر لله ، خيره وشره ، نفعه وضره»[٨٤] .

هناك رسائل أخرى صدرت عن القشيري ، وأشارت إلى تأهب الشافعيين الأشعريين لبسط نفوذهم المذهبي والفكري ، الذي جاء لاحقاً عقب بضع سنوات على يد الوزير نظام المُلك الطوسي . فمَنْ هو نظام المُلك؟ وكيف تمكن من إحداث التغيير المذهبي والفكري في حياة السلاجقة ، وما هي أهميته بالنسبة إلى المذهب الشافعي والفكر الأشعري؟

نظام المُلك ومدرسته

ولد الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (٤٠٨ - ٤٨٥هـ) بطوس في ناحية بيهق من

---

(٨٤) ابن عساكر ، تبيين كذب المفتري ، ص١١٠ - ١١٢ .

«أولاد الدّهاقين ، الذين يعملون في البساتين ، بنواحي طوس . فحفظه أبوه القرآن . وشغله في التفقُه على المذهب الشافعي»[٨٥] . عمل أولاً كاتباً ببلخ . ثم قصد دواوين ميكائل السلجوقي ، والد ألب أرسلان (أصبح سلطاناً خلفاً لعمّه) ، وشقيق السلطان طغرلبك . «فلما دخل عليه أخذ بيده فسلمه إلى ولده . . . قال : هذا حسن الطوسي ، فتسلمه واتخذه والداً ، ولا تخلفه . وقيل : بل خدم ابن شاذان إلى أن توفي ، فأوصى به إلى ألب أرسلان . فلما صار المُلك إلى ألب أرسلان دبر له المُلك ، فأحسن التدبير ، فبقي في خدمته عشر سنين ثم مات . وازدحم أولاده على المُلك ، وطغى الخصوم ، فدبر الأمور . ووطد المُلك لملك شاه ، فصار الأمر كله إليه وليس للسلطان إلا التخت والصيد ، فبقي على هذا عشرين سنة»[٨٦] .

زار نظام المُلك بغداد ، أول مرة ، وحظي بمقابلة الخليفة المقتدي بالله (ت٤٨٧ هـ) ، فإذن له الجلوس بين يديه ، وخاطبه بالقول : «يا حسن بن علي ، رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك»[٨٧] . واشتهر بمدرسته النظامية (تأسست ٤٥٧ هـ) ببغداد ، التي أسسها بعد عام واحد من تولي الوزارة وقتل الوزير الكندري . لعبت النظامية دوراً كبيراً في نشر المذهب الشافعي والأشعري ، واتخاذهما مذهبين رسميين للسطنة السلجوقية . الأول يمثل الفقه أو الفروع ، والثاني يمثل العقيدة أو الأُصول . وهي مدرسة جديدة في شروط الدراسة وغلقها على الشافعيين فقط . كان موقعها «بين باب الأزج (باب الشيخ برصافة بغداد) وشاطئ دجلة . أي أنها لم تكن بعيدة عن البصلية ، وهي محلة طرف بغداد الجنوبي . ومن الجانب الشرقي متصلة بباب كلواذى . المعروف اليوم بالباب الشرقي . . . أما اليوم فالمتواتر بين البغداديين أن بقايا النظامية هو ما يرى من البيوت المرصوصة المتراكمة في درب المفطومة أي المقطوعة . وهو الدرب الذي يسميه البعض الأخر بدرب محمود أبو الخس في محلة باب الأغا»[٨٨] . ظلت النظامية عاملة حتى «نصف المائة الرابعة عشرة بعد المسيح»[٨٩] . وآنذاك لقبها المؤرخ الفارسي حمدُ الله «بأم المدارس ببغداد»[٩٠] .

جاء في كتاب شروط النظامية «أنها وقفت على أصحاب الشافعي ، أصلاً وفروعاً . وكذلك الأملاك الموقوفة عليها ، شُرط فيها أن يكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً ، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها ، والواعظ الذي يعظ بها ، ومتولي الكتب . وشُرط

---

(٨٥) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٤ ص٣١٢ .

(٨٦) ابن الجوزي ، المنتظم ١٦ ص٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٨٧) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٤ ص٣٣٢ .

(٨٨) الكرملي ، مدارس الزوراء في عهد الخلفاء ، مجلة المشرق ، أيار ١٩٠٧ ، ٤٤١ .

(٨٩) المصدر نفسه .

(٩٠) المصدر نفسه .

أن يكون فيها مقرئ القرآن، ونحوي يدرّس اللغة. وفُرض لكل قسطاً من الوقف»[٩١]. وفي الأُصول عنيت المدرسة بالمذهب الأشعري، فمن الشاذ أن يكون غير الشافعي أشعرياً. قال ابن الجوزي في ترجمته للفقيه الحنفي أحمد بن محمد السمناني (ت ٤٦٦هـ): «كان أشعرياً، وهذا يستظرف أن يكون الحنفي أشعرياً»[٩٢]. فأغلب الحنفيين يكونون عادة معتزلة في الأُصول، فهم أهل رأي لا أهل حديث.

وعاب ابن عقيل الحنبلي (ت٥١٣هـ)، تعبيراً عن صدامات الشافعية والحنابلة المستمرة، على الشافعيين تعلقهم بمقالات الأشعرية بقوله: «الشافعي لم يكن أشعرياً وأنتم أشعرية»[٩٣]. ومن غير المنطقي أن يجعل أحد الباحثين سبب تأسيس المدرسة النظامية وفروعها إلى «حاجة الدولة إلى الموظفين من قضاة وعمال وكتاب. يتخرجون من مدارس منهجية، يتفهمون عقائد الدين الرسمي، ويتعودون الطاعة والنظام ضمن مناهج الدرس»[٩٤]، لكن لماذا المذهب الواحد والفكر الواحد وبالعراق خمسة مذاهب؟ وهل شكت الدولة الإسلامية قبل نظام الملك من نقص في القضاة؟ وهل منع البويهيون القضاة السُنَّة من صدارة القضاء ببغداد وما يتبعها من البلدان؟

ومع ذلك، ليس كل الفقهاء الشافعيين متفقين أو محبذين في وجود المدرسة النظامية، وإن كانت مغلقة لمذهبهم. فهذا أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، أول عميد لها، أخذ يصلي بالمسجد المجاور. وعذره في ذلك «إني لم أطب نفساً بالجلوس في هذه المدرسة، لما بلغني أن أبا سعد القاشي غصب أكثر آلاتها، ونقض قطعة من البلد لأجلها، ولحق أصحابه غم»[٩٥]. ويعني بنقض قطعة من البلد، هو الاستيلاء على «بقية الدور الشاطئية بمشرعة الزوايا، والفرضة، وباب الشعير، ودرب الزعفراني»[٩٦]

قال السبكي في معيشة طلبة النظامية ببغداد وفروعها(بالبصرة، ونيسابور، وهراة، والموصل، وطبرستان، وبلخ، وأصبهان ومرو): «غلب على ظنّي أن نظام المُلك أوّل مَنْ قدّر المعاليم للطلبة (أرزاق)، فإنه لم يتّضح لي، هل كانت المدارس قبلَه بمعاليم للطلبة أو لا؟ والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم»[٩٧].

---

(٩١) ابن الجوزي، المنتظم ١٦ ص٣٠٤.
(٩٢) المصدر نفسه ١٦ ص ١٥٨.
(٩٣) المصدر نفسه ١٦ ص ٢٩٥.
(٩٤) أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٢٢٥.
(٩٥) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٠٢ - ١٠٣.
(٩٦) المصدر نفسه، ص٩١.
(٩٧) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ٤ ص٣١٤.

أما عن اهتمام نِظام الملك بالمتصوفة وجلهم على المذهب الشافعي ، فربما يبرره قوله الآتي : «أتاني صوفي ، وأنا في خدمة الأمراء ، فوعظني . قال : أخدم مَنْ تنفعك خدمته . ولا تشتغل بما تأكل الكلاب غداً . فلم أعرف معنى قوله . فشرب ذلك الأمير من الغد . وكانت له كلاب كالسباع تفرس الغرباء بالليل ، فغلبه السكر ، وخرج وحده فلم تعرفه الكلاب فمزقته . فعرفت أن الرجل كوشف بذلك ، فأنا أطلب أمثاله»[٩٨] . لكن السبب الحقيقي وراء إهتمام بالصوفية هو مواجهة الحنابلة ، ومنافستهم على جذب العامة بالصوفية وكراماتهم .

برر الوزير سابقته في فتح مدرسته لمذهب واحد ، في كتاب مؤرخ العام (٤٧٠هـ) ، رداً على كتاب عميدها أبي إسحاق الشيرازي ، شاكياً فيه من مشاكسات الحنابلة . جاء في الكتاب : «ورد في كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب . وليس توجب سياسة السلطان ، وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة ، ونحن بتأييد السُّنَن أولى من تشييد الفتن . ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة ، إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة ، لا للاختلاف وتفريق الكلمة . ومتى جرت الأمور على خلاف ما أوردناه من هذه الأسباب ، فليس إلا التقدم بسد الباب . وليس في المكنة إلا بيان على بغداد ونواحيها ، ونقلهم عما جرت عليه عاداتهم فيها ، فإن الغالب هناك ، وهو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، رحمة الله عليه ، ومحله معروف بين الأئمة ، وقدره معلوم في السُّنَّة . وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديد مسألة سئل عنها أبو نصر القشيري عن الأُصول ، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه في معتقداتهم»[٩٩] . وقيل أطلع الحنابلة على كتاب صاحب النظامية إلى عميدها «وسُروا به» .

حُرر هذا الكتاب عقب الفتنة الطائفية التي وقعت السنة (٤٦٩هـ) ، بين الأشعرية والحنابلة ، يوم أخذ الواعظ القشيري «يذم الحنابلة ، وينسبهم إلى التجسيم . ولعظم الفتنة تأهب عميد المدرسة لمغادرة بغداد ، وغلق باب المدرسة . وقد أقلق هذا التصرف الخليفة ، فأرسل إليه مَنْ يرده عن رأيه . وقيل أيضاً : «إن الخليفة لما خاف من تشنيع الشافعية عليه عند النظام (وهو السلطان الفعلي) أمر الوزير أن يحيل الفكر فيما تنحسم فيه الفتنة»[١٠٠] . وكان الوعاظ يوفدون إلى النظامية من قبل نظام المُلك مباشرة . وعادة يزودون بإجازة يسمح لهم وفقها «التكلم بمذهب الأشعرية»[١٠١] . وفي محاولة امتصاص نقمة المذاهب الأخرى ،

---

(٩٨) ابن الجوزي ، المنتظم ١٦ ص٣٠٤ .

(٩٩) المصدر نفسه ، ص١٩٠ - ١٩١ .

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(١٠١) المصدر نفسه ، ص٢٢٤ .

حرص الوزير نظام المُلك زيارة أضرحة الأئمة ببغداد كافة ، وهي : ضريح أحمد بن حنبل ، وأبي حنيفة ، وموسى الكاظم ، ومعروف الكرخي ، فقال الشاعر زكرويه الواسطي مادحاً الوزير بالأبيات الآتية :

زُرتَ المشاهدَ زورةً مشهودةً
أرضت مضاجع مَنْ بها مدفون
فكأنك الغيث استهل بتُربها
وكأنها بك روضة ومعين
فازت قداحك بالثواب وأنجحت
ولك الإله على النَّجاح ضمين[١٠٢]

كان غرض المدرسة النظامية الحقيقي هو مواجهة التشيع ، بمذاهبه كافة ، والاعتزال ، وتصفية التنوع المذهبي الذي ساد ببغداد أيام البويهيين ، فأشهر معتزلة الفترة البويهية كانوا أصحاب مراكز هامة ، مثل : الوزير الصاحب ابن عباد (٣٨٥هـ) ، وقاضي القضاة عبد الجبار الأسدابادي ، وأشهر متكلمي الشيعة الشيخ محمد المفيد (ت٤١٣هـ) وتلميذيه الشريفين محمد الرضي (٤٠٥هـ) وعلي المرتضى (٤٣٥هـ) ، وشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠هـ) وغيرهم . والأهم من هذا هو مواجهة الدولة الفاطمية بمصر . لكن سرعان ما تحولت أروقة النظامية إلى محل للصراع بين مذاهب السُنَّة نفسها ، بعد أن كانت الأجواء سليمة ، إلى حد ما ، في ما بين المذاهب السُنَّة في الأقل .

صنفت في الفترة السلجوقية ، وقبلها في فترة تعاظم الشافعية بما سمح فيه العهد البويهي ، عدة كتب ضد التشيع والفكر الإسماعيلي على وجه الخصوص . نذكر منها : ما صنفه أبو عبد الله بن رزام في الرد على الإسماعيلية ، وأبو عثمان سعد بن محمد الغساني القيرواني ، وأبو بكر الباقلاني في «كشف الأسرار وهتك الأسرار»[١٠٣] . وأهم وأخطر التصانيف ما صنفه أبو حامد الغزالي ، مثل : «المنقذ من الضلال» و«فضائح الباطنية» أو «المستظهري» . قال الغزالي في تكليف الخليفة المستظهر بتصنيف الفضائح : «حتى خرجت الأوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالإشارة إلى الخادم في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية مشتمل على الكشف عن بدعهم وضلالاتهم وفنون مكرهم واحتيالهم»[١٠٤] . ومن المفارقة بمكان أن ينعت الغزالي ، الفيلسوف والمفكر والصوفي ، نفسه بالخادم . ومن

(١٠٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١٠ ص١٥٦ .
(١٠٣) الغزالي ، فضائح الباطنية ، من مقدمة عبد الرحمن بدوي ، ص(أ - ج) .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ص٣ .

الغرابة أيضاً ، وهو العميق الإيمان حسب ما ورد في كتبه ، أن يموت بمرض الاكتئاب[١٠٥] ، الذي يعرفه الأطباء قديماً بالغنط أو السويداء ، أو اليأس التام!

حكم الغزالي في الفصل الثامن من كتابه بالكفر على فرق الباطنية ، وقتلهم كمرتدين وقتل نسائهم . قال : «أما النسوان فإنا نقتلهم مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفرٌ على مقتضى ما قررناه (حسب المذهب الشافعي) . فإن المرتدة مقتولة عندنا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم مَنْ بدل دينه فاقتلوه . نعم : للإمام أن يتبع فيه موجب اجتهاده . فإن رأى أن يسلك فيهم مسلك أبي حنيفة ويكف عن قتل النساء فالمسألة في محل اجتهاد . ومهما بلغ صبيانهم عرضنا الإسلام عليهم ، فإن قبلوا قُبل إسلامهم وردت السيوف عن رقابهم إلى قُرَبها . وإن أصروا على كفرهم متبعين فيه آباءهم مددنا السيوف الحق إلى رقابهم وسلكنا بهم مسلك المرتدين»[١٠٦] . هذا ما قرره الإمام الغزالي الشافعي والأشعري المذهب ، في ظل وزارة نظام المُلك السلجوقي ، فماذا يربطه بالتصوف وهو يعرض السيف والإسلام معاً على رقاب صبيان ، بلغوا أو لم يبلغوا؟

كان نظام المُلك أول مَنْ بدأ بتطبيق نظام الاقطاع على خلاف ما شرعه عمر بن الخطاب بالعراق ، ففرق «الاقطاعيات على الجند . ولم يكن عادة الخلفاء والسلاطين ، من لدن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . إلا أن الأموال كلها (تجبى) إلى الديوان ، ثم تُفرق العطايا على الأمراء والأجناد ، على حسب المقرر لهم . فلما اتسعت مملكة نظام المُلك رأى أن يُسلم إلى كل مُقطع قرية ، أو أكثر أو أقل ، على قدره أقطاعه»[١٠٧] . وفائدة هذا النظام الاقتصادية ، يومذاك ، حسب تاج الدين السبكي (٧٧٠هـ) «أنه إذا تسلمها ، وليس له غيرها عمرها ، واعتنى بها ، بخلاف ما إذا شمل الكل ديوان واحد ، فإن الخرق يتسع ، ففعل ذلك ، فكان سبب عمارة البلاد . وكثرت الغلات . وتناقلته الملوك بعده . واستمر إلى اليوم في بلاد الإسلام»[١٠٨] . ولا نعلم مدى صحة القول ببداية نظام الإقطاع في عهد الوزير المذكور ، وتاريخ الدولة العباسية ، فهناك روايات كثيرة أشارت إلى قطع الأراضي للقواد والقضاة والوجهاء والأمراء من الأسرة العباسية . وخاصة في العصر العباسي الثاني . وزيادتها أيام المقتدر بالله .

انتهى نظام المُلك مقتولاً بعملية اغتيال ، السنة ٤٨٥هـ ، والشكوك والشبهات ظلت

---

(١٠٥) فروخ ، تاريخ الفكر العربي ، ص٤٩٦ .

(١٠٦) الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص١٥٦ - ١٥٧ .

(١٠٧) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٤ ص٣١٧ .

(١٠٨) المصدر نفسه .

تحوم حول الإسماعيليين من النزاريين[109] ، جماعة الحسن بن محمد الصبَّاح (ت ٥١٨هـ) ، المعروفة يومذاك بالفداوية (الفدائية)[110] . وأتهم بقتله أيضاً السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، الذي توفي بعد قتل الوزير بخمسة وثلاثين يوماً . وبقتل هذا الوزير دب الخلاف بين أقطاب الأسرة السلجوقية ، التي قال في دولتها تاج الدين السبكي الشافعي : «سقى الله عهدها»[111] .

تأسست مدارس شافعية أشعرية عديدة ، على منوال المدرسة النظامية وفرعيها بالموصل والبصرة ، محتكرة للمذهب الشافعي . مثل : المدرسة البهائية في الجانب الشرقي من بغداد . والتاجية ، أسسها ، العام (٤٨٢هـ) ، تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو[112] . والثقتية تأسست العام (٥٤٩هـ) . والكمالية تأسست العام ٥٧٢هـ ، والعزية تأسست السنة (٥٨٩هـ) - مشتركة بين الحنفية والشافعية - والمجاهدية تأسست السنة (٥٧٢هـ) . ومن مدارس الموصل المدرسة الأتابكية (٥٤١هـ) (مشتركة بين الحنفية والشافعية) . والنورية بالموصل (٦٠٧هـ)[113] .

انتشار المذهب

خلفَ الشافعي بمصر صاحبه أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي (ت ٢٣٢هـ) ، نسبة إلى بويط مصر ، الذي قال فيه : «ليس أحد أحق بمجلسي من أبي يعقوب . وليس أحد من أصحابي أعلم منه»[114] . وكما وردت الإشارة أن موقع البويطي بين الشافعية كموقع قاضي القضاة أبي يوسف بين الحنفية . أُمتحن البويطي ببغداد ، أيام الواثق بالله ، في محنة خلق القرآن . وحُمل من مصر إلى بغداد . وقيل إن ذلك كان من تدبير قاضي مصر ابن أبي الليث الحنفي ، الذي سعى به إلى الواثق «فأمر بحمله مع جماعة آخرين من العلماء ، فحمل إليها على بغل ، مغلولاً مقيداً مسلسلاً في أربعين رطلاً من حديد»[115] . انتشر المذهب الشافعي على يد البويطي وغيره من الشافعيين بمصر ، وهو ما زال أكبر المذاهب الإسلامية هناك .

---

(١٠٩) عرفوا خطأً بالحشاشين نسبة إلى المخدر المعروف ، إنما لهذه النسبة صلة بالحشائش الأدوية. راجع الأمين ، الأسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي ،ص ٢٠٨-٢١٠ .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص٣٢٣ .

(١١١) المصدر نفسه ٥ ص ٢٤٨ .

(١١٢) ابن الجوزي ، المنتظم ١٦ ص٢٨١ ،٣١٤ .

(١١٣) راجع تاريخ العراق في العهد السلجوقي ، ص ٣٧٩ وما بعدها .

(١١٤) الأسنوي ، طبقات الشافعية ١ ص٢٠ .

(١١٥) المصدر نفسه ، ص٢١ - ٢٢ .

أما ببغداد فلانتشار المذهب، قبل دخول السلاجقة بغداد، أكثر من سبب. ولعلَّ أول مَنْ سهل نشر مقالاته حاجب الرشيد، ووزير محمد الأمين، الفضل بن الربيع (ت ٢٠٨هـ). قال السبكي في ابن الربيع: «يستحسن إيراده في أصحاب الشافعي»[١١٦]. وقيل كان له موقف جميل مع الإمام في محنته، وإنه حفظ دعاءً عنه، قاله وهو يشق طريقه مكبلاً إلى مجلس الرشيد. ذكره بقوله: «هذا ما أدركت من بركة الشافعي»[١١٧]. ولربما كان موقف الفضل متأثراً بموقف والده الربيع بن يونس (ت ١٦٩هـ)، وزير أبي جعفر المنصور، السلبي من أبي حنيفة. وبالتالي من أهل الرأي كافة[١١٨]. هذا وليس هناك تفاصيل تؤكد جهود هذا الحاجب أو غيره في تثبيت أقدام المذهب الشافعي، خلا تعاطفه الشخصي معه. ويشير ذلك إلى أن المذهب لم يكن ممنوعاً أو محاصراً منذ البداية، وحتى في العهود اللاحقة، سواء كان ذلك في عهد المأمون الذي مال إلى التشيع، وظل رسمياً على المذهب الحنفي، أو في العهد البويهي.

أخذ الشافعيون بالتبشير لمذهبهم عن طريق نسخ الكتب، والطواف في البلاد. فلم يكن هناك ما يحرم عليهم ذلك. وأول الناشطين ببغداد أبو علي الحسن بن محمد الزعفراني (ت ٢٤٩هـ). قال عنه الماوردي: «أثبت رواة القديم». وهناك مَنْ ينقل عنه: «إني لأقرأ كتب الشافعي، وتُقرأ عليَّ منذ خمسين سنة»[١١٩]. وربما أشار هذا إلى أن الزعفراني كان من أقدم أصحاب الشافعي بالعراق. فالشافعي الذي توفي السنة (٢٠٤هـ) زار بغداد بعد محنته السنة (١٩٥هـ)، والسنة (١٩٨هـ). وتحمل أبو إسماعيل محمد بن إبراهيم الترمذي (ت٢٨٠هـ) مهام «نسخ كتب الشافعي وحملها إلى بغداد»[١٢٠]. وكان أبو القاسم عثمان بن سعيد الأنماطي الشافعي (ت ٢٨٢هـ) «السبب في نشاط الناس بالأخذ بمذهب الشافعي في تلك البلاد (بغداد)»[١٢١]. وعمل القاضي أبو سريج أحمد بن عمر بن سريح البغدادي (ت٣٠٦هـ) على نشر الفقه الشافعي في أكثر الآفاق[١٢٢]. ومن الذين نشطوا في التبشير أيضاً الفقيه أحمد بن محمد بن العلي السيبي (ت ٣٧٢هـ)، الذي إنحدر من سواد الكوفة ناحية قصر ابن هبيرة. ومن أشهر الفقهاء والمؤلفين الشافعيين، في العهد البويهي: أبو بكر بن أبي داود

---

(١١٦) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ٢ ص١٥٢.

(١١٧) المصدر نفسه.

(١١٨) البغدادي، تاريخ بغداد، ١٣ ص ٣٢٨ وما بعدها.

(١١٩) المصدر نفسه ١ ص٣٢.

(١٢٠) المصدر نفسه ١ ص٣٠٨.

(١٢١) المصدر نفسه ١ ص٤٥.

(١٢٢) المصدر نفسه ٢ ص٢١.

السجستاني (ت ٣١٩هـ) ، صاحب كتاب «المصاحف» ، ونجل الحافظ السجستاني صاحب السُنَن»[١٢٣] .

انتشرت الشافعية بين خاصة الناس من علماء وأطباء ومؤرخين وأدباء ولغويين ومتصوفة ، مثل : الجنيد القواريري (ت ٢٩٨هـ) . مع أنه عُدَّ من طبقات الحنابلة . وربما قصد بأبي حيان التوحيدي غير الأديب المعروف (ت٤١٤هـ) ، الذي يصعب تحديده بمذهب . واللغوي المعروف ابن دريد (ت٣٢٠هـ) . ولعل اختلاف المذهب كان من أسباب العداء الذي بينه وبين اللغوي الحنبلي إبراهيم نفطويه (ت ٣٢٣هـ) . وكان الأخير أتهم ابن دريد بسرقة كتاب «العين» للفراهيدي ، فحوله إلى كتاب «الجمهرة»[١٢٤] .

ومن أقطاب الشافعية أيضاً المؤرخ والفقيه الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، صاحب كتاب «تاريخ بغداد» . وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) صاحب كتاب «الملل والنحل» و«الإقدام في علم الكلام» . وأبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) المقرب من الخليفة المستظهر بالله العباسي (ت ٥١٢هـ) . ومن بين أصحاب الطرق الصوفية كان أبو الحسن علي بن أحمد الرفاعي (ت ٥٧٨هـ) ، الذي «سكن البطائح (على حافة الأهوار) بقرية يقال لها أم عبيدة»[١٢٥] . وعرفت باسمه مدينة تتبع محافظة ذي قار اليوم[١٢٦] . ومن الأطباء كان علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف بابن النفيس (ت٦٨٧هـ) . وغيرهم من الذين سبق أن ورد ذكرهم بين القضاة والفقهاء والخلفاء .

أما أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) صاحب المذهب الفكري المعروف ، والمعتزلي السابق ، فاسمه شاع مقترناً باسم الإمام الشافعي ، لأن أغلب الشافعيين كانوا أشاعرة في الأصول . وعُدَّ من طبقات الشافعية ، مع أنه صرح بميله إلى الإمام أحمد بن حنبل بقوله : «قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب الله ربنا عزَّ وجل ، وبسُنَّة نبيه ، وما ورد عن السادة الصحابة ، وأئمة الحديث . ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول

---

(١٢٣) المصدر نفسه ٢ ص٣٥ .

(١٢٤) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ١ ص٩٤ . قال نفطويه :

ابـن دريـد بقَـرة	وفيـه عـيٌ وشـره
ويـدعـي مـن حمـقه	وضـع كتـاب الجمهـره
وهـو كـتـاب العـين	إلا أنـه قـد غيـره

فردَ ابن دريد :

أوف علـى النحـو وأربابه	قد صار من أربابـه نفطويه

(١٢٥) الأسنوي ، طبقات الشافعية ١ ص٥٩٠ .

(١٢٦) كانت تَعرف بفضاء الكرادي ، نسبة إلى مؤسسها عباس الكرادي (بابان ، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، ص١٣٢) .

به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته . أبان الله به الحق ودفع الضلال»[127] ، قصد بذلك قول ابن حنبل في إثبات الصفات وقدم القرآن .

لقد ذكرنا القضاة الشافعيين في العهد البويهي . أما في العهد السلجوقي فمنهم : القاضي طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري (ت٤٥٠هـ) ، كان أستاذ معظم أئمة الشافعية ، الذين درسوا بالنظامية في زمانه . وقاضي القضاة محمد بن مظفر الشامي (ت ٤٨٨هـ) ، الذي طُلب منه أن يحل محل أبي عبد الله الدامغاني الحنفي «فامتنع ، فألحوا عليه ، فشرط عليهم أن لا يأخذ عليه معلوماً (راتباً) ، ولا يقبل شفاعة . وأن لا يغير ملبسه ، فأجابوه . لكن الأكابر كرهت منه ذلك ، وتغير عليه الخليفة ، ثم استقام أمره ، وظل قاضي قضاة إلى أن توفي»[128] . ومنهم القاضي ابن البقال الحسن بن أحمد (ت٤٧٧هـ) تولى قضاء حريم دار الخلافة عن قاضي القضاة الدامغاني . والقاضي أبو الفرج محمد بن عبيد بن الحسن البصري (ت ٤٩٩هـ) تولى قضاء البصرة . والقاضي أحمد بن بختيار المندائي (٥٥٢هـ) تولى قضاء واسط . والقاضي أبو الثناء الزنجاني ، وهو والد قاضي القضاة عزّ الدين ، الذي قتله التتار السنة ٦٥٦هـ[129] . ويذكر أن شيخ الطائفة الشيعية أبا جعفر الطوسي كان شافعياً وتحول إلى التشيع ليكون إماماً فيه . قال السبكي : «فقيه الشيعة ومصنفهم ، كان ينتمي إلى مذهب الشافعي . قَدِم بغداد وتفقه على المذهب الشافعي»[130] . وبعدها درس الأصول على يد الشيخ المفيد «وقد أُحرقت كتبه عدة نوب بمحضر من الناس»[131] .

لم يقتصر تحريم ، أو عدم تحبيذ ، تبؤ منصب القضاء على المذهب الحنفي ، مثلما ورد في رسالة الإمام أبي حنيفة لأصحابه ، ولا على الحنابلة ، كما سيأتي ذكره ، بل أمتنع عدد من الفقهاء الشافعيين عن قبول هذا المنصب . منهم : الفقيه الحسين بن صالح بن خيران البغدادي (ت٣٢٠هـ) . وكان الوزير أبو علي الحسن بن الفرات (ت ٣١٢هـ) طلبه بأمر المقتدر بالله (ت٣٢٠هـ) للقضاء ، لكنه فضل الاعتقال على تولي المنصب . فاعتقل بداره واحتاج إلى الماء فلم يقدر إلا بمساعدة الجيران . فقال فيه ابن الفرات : «ما أردنا بالشيخ أبي علي إلا خيراً . أردنا أن نعلم أن في مملكتنا رجلاً يعُرض عليه قضاء القضاة شرقاً وغرباً ، وفعل مثل هذا وهو لا يقبل»[132] . وهناك مَنْ أنب الشافعيين الذين قبلوا القضاء بالقول : «هذا الأمر لم

(١٢٧) الأشعري ، الأبانة عن أصول الديانة ، ص٢٠ .

(١٢٨) الأسنوي ، طبقات الشافعية ٢ ص ٩٦ .

(١٢٩) المصدر نفسه ٢ ص ١٥ .

(١٣٠) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٤ ص ١٢٦ .

(١٣١) المصدر نفسه .

(١٣٢) الأسنوي ، طبقات الشافعية ١ ص٤٦٣ - ٤٦٤ .

يكن في أصحابنا ، إنما كان في أصحاب أبي حنيفة»[١٣٣] .

من أشهر شخصيات المذهب الشافعي بالعراق ، بعد نهاية العهد السلجوقي : محمد بن عبد الله بن محمد البسطامي (ت ٥٤٨هـ) ، المعروف بإمام بغداد . والفقيه ابن فضلان يحيى بن علي (ت ٥٩٥هـ) ، وصف بشيخ الشافعية بالعراق في زمانه . وولده ابن فضلان محمد بن يحيى (ت٦٣١هـ) ، ولاه الناصر لدين الله قضاء القضاة ، ومدرس المدرسة المستنصرية ، ورئاسة ديوان الجوالي . وقد سبق أن أوردنا رسالته إلى الخليفة المذكور في التشديد على أهل الذمة بتطبيق مذهبه الشافعي عليهم[١٣٤] . وابن الخل أبو الحسن محمد بن المبارك البغدادي(ت٥٥٢هـ) «من كبار أئمة المذهب الشافعي بالعراق ، كان زاهداً عابداً على طريقة السلف في خشونة العيش»[١٣٥] . والمتصوف الشيخ عدي بن مسافر الهكاري (ت ٥٥٧هـ) ، الذي أتخذ أو اختلط على الأيزيدية الأمر فجعلوه مقدساً لديهم . والشاعر سعد بن محمد (ت ٥٧٤هـ) ، الذي اشتهر بعبارته «ما للناس في حيص بيص» ، فعرف في كتب الأدب بحيص بيص . والكاتب عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) درس بالنظامية ، وتولى النظر بالبصرة . وأبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الترمذي ، كان حنفياً ثم تحول إلى المذهب الشافعي ليكون «رأس الشافعيين بالعراق»[١٣٦] . والمتصوف صاحب الطريقة عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي (ت ٦٣٢هـ) . وكان على صلة بالخليفة الناصر ، وسفيره إلى عدة أقاليم ، مات فقيراً لم يترك حتى ثمن كفنه[١٣٧] . والفقيه ابن الصلاح تقي الدين الكردي الشهرزوري (ت٦٤٣هـ) . «كان إماماً في الفقه والحديث ، عارفاً بالتفسير والأصول والنحو»[١٣٨] . وأبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء البغدادي البادرائي (ت ٦٥٥هـ) . وكان قد «أجبره الخليفة على تولي قضاء بغداد»[١٣٩] . والمؤرخ ابن الساعي تاج الدين علي بن أنجب البغدادي (ت ٦٧٤هـ) ، كان إلى جانب ذلك فقيهاً وقارئاً بالسبع قراءات وشاعراً ، كتب تاريخه «الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير» في ستة وعشرين مجلداً ، ووقف كتبه على المدرسة النظامية[١٤٠] .

---

(١٣٣) المصدر نفسه .
(١٣٤) المصدر نفسه ٢ ص٢٨٠ .
(١٣٥) المصدر نفسه ١ ص ٤٦٨ .
(١٣٦) المصدر نفسه ١ ص ٢٩٨ .
(١٣٧) المصدر نفسه ٢ ص ٦٤ .
(١٣٨) المصدر نفسه ٢ ص ١٥٨ .
(١٣٩) المصدر نفسه ١ ص ٢٧٧ .
(١٤٠) المصدر نفسه ٢ ص ٧١ .

شمال العراق

أشارت الروايات إلى انتشار المذهب الشافعي بين الكرد العراقيين عبر الأمراء السلاجقة المتأخرين، وعلى وجه الخصوص في العهد الأتابكي. وأتابك لفظ تركي يتألف من كلمتين: أتا بمعنى أب، وبك بمعنى الأمير أو النبيل، والمقصود من الكلمة «مربي الأمير السلجوقي»[١٤١]. قال ابن خلّكان في أول أتابكي شافعي: «كان أرسلان بن شاه بن عز الدين بن مسعود بن أتابك زنكي (ت٦٠٧هـ) ملكاً شهماً، عارفاً بالأمور، وانتقل إلى المذهب الشافعي، ولم يكن شافعي سواه. وبنى المدرسة المعروفة به بالموصل للشافعية، قلَّ أن توجد مدرسة في حسنها»[١٤٢]. وقال فيه ابن الأثير أبو السعادات الشافعي: «ما قلتُ له يوماً في فعل خير فامتنع بل بادر إليه»[١٤٣]. إلا أن سبط ابن الجوزي الحنبلي قال فيه: «كان ملكاً جباراً سافكاً للدماء بخيلاً»[١٤٤].

من المدارس، التي بُث وثبت عبرها المذهب الشافعي، بين الكرد العراقيين، المدرسة العقيلية أو مدرسة الربض. والمدرسة النظامية (نهاية القرن الخامس الهجري). ومدرسة القلعة تأسست العام ٥٣٣هـ. أسسها أبو منصور سرفتكين. والمدرسة المجاهدية تأسست العام ٥٥٩هـ. أسسها نائب الأمير زين الدين علي كجك. والمدرسة المظفرية، أسسها الأمير مظفر الدين كوكبري. وقد شهدت المدرسة الأخيرة ولادة المؤرخ والقاضي ابن خلّكان الشافعي. وهناك بلدة خلّكان الواقعة على الطريق بين أربيل والسليمانية، على مقربة من سد دوكان، تضم ضريحاً ذا قبة زرقاء قيل إنه للمؤرخ المذكور. هذا ما شاهدنا بأعيننا. أما التاريخ المكتوب فيشير إلى وفاته بدمشق ودفنه على سفح جبل قاسيون. لكن هناك مَنْ يعتقد أن هذا الضريح لابن خلّكان آخر هو جد المؤرخ. كانت تلك المدارس محطات جذب للفقهاء الشافعيين، حتى قيل: «إن أكثر الذين زاروا هذه المدينة (أربيل) لغرض التدريس، أو سماع الحديث كانوا من أتباع الإمام الشافعي، الذين تعلموا في المدارس النظامية المنتشرة، وخاصة في بغداد. والمعروف عن هذه المدارس أنها أنشئت في الأساس لنشر مذهب هذا الإمام. فكانت مدارس أربيل الأربع مدارس شافعية، باستثناء المدرسة المظفرية، التي كان التدريس فيها على المذهبين الشافعي والحنفي»[١٤٥].

---

(١٤١) حسين، أربيل في العهد الأتابكي، ص٢٤.

(١٤٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، وفيات ٦٠٧هـ.

(١٤٣) المصدر نفسه.

(١٤٤) المصدر نفسه.

(١٤٥) حسين، أربيل في العهد الأتابكي، ص٢٤٧ - ٢٥٥.

تظهر شافعية كردستان العراق عبر التواجد الصوفي الكثيف . ساعدت في ذلك جغرافية المنطقة . فالوديان والجبال أمكنة مثالية للانقطاع التام إلى الله . لهذا انتشرت التكايا والخانقات بقرى كردستان العراق . ولها مراكز متعددة . وتُعد مدينة السليمانية مركزها الأول ، ومنطلقها إلى المناطق الأخرى . وحالياً هناك طريقتان صوفيتان بكردستان العراق هما : القادرية والنقشبندية . والأولى أكثر انتشاراً بين عوام الناس . والثانية هي الأقرب إلى الوسط الثقافي . ولعل السبب في ذلك أن القادرية تعتمد رياضة الأفعال الخارقة مثل التهام النار وطعن الجسد بالسيف والخنجر ، وملاعبة الأفاعي وغيرها من المخاطر ، التي تجذب النظر . بينما شاعت النقشبندية في الوسط الثقافي لعقلانية طقوسها وتجردها عن تلك الرياضات .

قبل تفرد هاتين الطريقتين في تصوف المنطقة كانت تتواجد الطريقة السهروردية والمولوية والبكتاشية والبرزانية . وقيل : تفرعت الأخيرة عن النقشبندية وخالفتها في عدة أمور . وكان الملا مصطفى البرزاني ، الذي أوصى أن يكون قبره دارساً بمستوى الأرض ، كما شاهدناه بمنطقة برزان ، يهتم بتكايا النقشبندية . ثم التزم ورثته ذلك . والبرزانية نسبة إلى منطقة برزان التي ينحدر منها الزعيم الكردي المذكور . لكن القبر الدارس ، وهو عبارة عن حفرة ، أصبح ضريحاً بلا قبة أو بناء ، بل هو قبر دارس ، تزوره الوفود القادمة إلى شمال العراق ، وحوله حرس الشرف الخاص لمثل تلك المناسبة . نحت اسم النقشبندية من الكلمة الفارسية نقشبند ، ومعناها الناقش . وأطلقت مجازاً على مؤسسها الأول الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد البخاري ، الذي عُرف بالنقشبند ، وليس النقشبندي نسبة إلى حرفة نقش القماش[١٤٦] . وإن صح ذلك فتاريخ الطريقة يعود إلى القرن الثامن الهجري . أما دخول الطريقة إلى كردستان العراق فكان على يد الشيخ ضياء الدين النقشبندي (١٧٧٩ - ١٨٢١م) ، بعد عودته من الدراسة بالهند ، وهو من قرداغ بالسليمانية . كما درس ببغداد الطريقة القادرية ، وهناك قام بنشر طريقته[١٤٧] .

يتولى حالياً مشيخة النقشبندية بالسليمانية الشيخ عبد الملك بن محمد عثمان ، بعد وفاة والده قبل بضع سنوات . لفتت نظرنا ، ونحن نزوره بداره (أكتوبر ٢٠٠٠) ، كثرة الصور التي تجمع بين والده والعاهل الأردني الراحل الملك حسين بن طلال . وكان يقيم بتركيا ويتردد على عمان بين حين وآخر . ووصيته إلى ولده الشيخ عبد الملك التأكد من سريرة المنتمين الجدد تجاه الطريقة . ورد في الرسالة ، التي حصلنا على نسخة منها ، والموجهة إلى كبار مرشدي الطريقة : «إنني اجزتكم بإقامة الختم والتهليلة ، وتلقين الطريقة للمبتدئين ،

---

(١٤٦) أحمد ، ماهو التصوف ما هي الطريقة النقشبندية ، ص٢٣٩ .

(١٤٧) النقشبندي ، السادات النقشبندية ، ص٤٠١ - ٤٠٢ .

وأحب أن تداوموا على ذلك، وتتعاونوا في ذلك مع ولدي عبد الملك النقشبندي على الشكل الذي يتسنى له. وهو يساعدكم في أمور الطريقة، ونشرها ببغداد».

هناك حوالى (٢١) مسجداً تمارس فيه طقوس النقشبندية، ولها مدرسة لتخريج مرشدين، قوامها الحالي سبعون طالباً. وتعقد حلقات الذكر عدة مرات. وللنساء في كل خانقاه حلقة خاصة ومكان خاص بهن. وأهم مزارات النقشبنديين يقع بناحية بياره من منطقة هورمان، ففيها مرقدا الشيخين علاء الدين وسراج الدين. وأهميتهما في تاريخ الطريقة أنهما رسخا وجود الطريقة بالمنطقة. قال الشيخ عبد الملك: تفضل غداً معنا لزيارة بياره، فهناك ستجري حلقة ذكر كبيرة، وباستطاعتك الإطلاع على أحوال الطريقة وطقوسها. لكن مغادرة السليمانية إلى أربيل في اليوم الآخر حرمني من فرصة قد لا تعوض مستقبلاً. وبياره من المناطق التي سلمت من دمار الحرب العراقية الإيرانية. ومن القرى التي دمرت: كومة وقرى ببنجوين.

قال الشيخ: نحتفظ بخانقاه بياره بثلاث شعرات من شعر النبي محمد، وثلاث أخرى بخانقاه الطويلة، القرية القريبة من حلبجة، والتي قيل سيطر عليها جماعة جند الإسلام في ما بعد، وأعلنوا فيها تطبيق الشريعة الإسلامية بطريقة فجة لا تنسجم مع العشق الصوفي. سألت الشيخ النقشبندي عن مصدر هذه الشعرات، وكيف وصلت إلى وديان جبال كردستان، ولم تستقر بمكة حيث بيوت زوجات الرسول ومسجده بالمدينة.

قال الشيخ: وصلتنا الشعرات المقدسة هدية من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، سلمها إلى الشيخ أحمد بن سراج الدين، أثناء رحلته إلى الحج، ومروره باستنبول. والصلة بين شيوخ النقشبندية ومراكز الحكم استمرت بعد العثمانيين بالملك فيصل الأول، والوصي عبد الإله ثم في العهد الجمهوري مع الزعيم عبد الكريم قاسم[١٤٨]. وتعتمد النقشبندية ثلاث طرق للوصول إلى المراد الصوفي: الدوام على الذكر القلبي، والمراقبة وطاعة المرشد. وتحقيقها مبني على إحدى عشرة قاعدة: اليقظة عند النفس، النظر إلى القدم، السفر في الوطن، الخلوة في الجلوة، الذكر الدائم، العودة من الذكر إلى الذات، حراسة القلب من الغفلات والخواطر، حفظ آثار ذكر القلب، الوقوف الزماني، الوقوف العددي، والوقوف القلبي[١٤٩].

أما الطريقة القادرية، وتعرف بالسليمانية بالكسنزانية نسبة إلى منطقة كسنزان. فأول مَنْ تبناها في المنطقة، وبالتحديد بناحية قرداغ ووليان، هو الشيخ إسماعيل الولياني. أما اتخاذ اسم القادرية الكسنزانية فيعود إلى الشيخ عبد الكريم الكسنزاني (ولد ١٨٢٤م)[١٥٠].

---

(١٤٨) المصدر نفسه، ص٣٢١ - ٣٢٤.

(١٤٩) أحمد، ما هو التصوف ما هي الطريقة النقشبندية، ص١٩٦، ٢١٧ - ٢٢٦.

(١٥٠) الحسيني، الطريقة العلية القادرية الكسنزانية، ص ٣٤١.

وإذ عرف مكان النقشبندية بالخانقاه فمكان القادرية معروف بالتكية . وتتكون من كلمتي تاك وتعني العزلة ، وكاه وتعني المكان . أي مكان العزلة أو الخلوة ، من أجل بلوغ ذروة الإتصال بالله .

تغيرت أسماء بيوت الصوفية عبر الزمان ، فهي الزاوية ، يوم كانت جزءاً من المسجد ، والرباط في العصر العباسي المتأخر ، والخانقاه في العهد العثماني . وتتكون من الخان بمعنى الأمير أو السلطان وكاه بمعنى المكان ، فيكون المعنى مكان الأمراء . وقد احتفظت النقشبندية بهذا الاسم إلى الآن . وللنساء عند القادرية أيضاً حلقة خاصة بهن تديرها عادة امرأة تعرف بالخليفة ، أي خليفة الشيخ . وتعتمد القادرية ممارسة الخوارق الخاصة بالرجال فقط ، وذلك لصعوباتها وخطورتها . وجوهر هذه الرياضة السيطرة الكاملة على النفس ، حتى يُفقد ممارسها الاحساس بالألم . وتتم عادة بإشراف الشيخ ، وإذنه بها هام جداً في نجاحها ، وأن يتجرد مؤديها من نزعة الظهور ، والفخر فيما يفعله على الآخرين ، بمعنى أن تكون خالصة للذكر الصوفي .

وجوهر الخوارق عند القادرية القدرة على إدخال أدوات حادة في مناطق الجسم المختلفة ، بغض النظر عن خطورتها . لكنها من المؤكد تتجنب المناطق الحساسة مثل منطقتي القلب والدماغ ، التي تؤدي إلى الموت مباشرة . غير أن إدخال الخنجر في عظمة الجمجمة بمساعدة مطرقة خاصة ليس بالأمر المستحيل . وكذلك بلع الزجاج ، ومقاومة النار وشرب لهيبها ، وهي تنبعث من مشعل ناري شديد ، أو مقاومة لدغات الأفاعي والعقارب ، وأكل رأس الأفعى ، الذي يحمل الغدد السامة ورأس العقرب ، ومقاومة الصدمة الكهربائية .

قال القادريون : إن هذه الفعاليات الخطرة ليست بواجبة على أتباع الطريقة ، وذلك لصعوبتها . والهدف منها هو إرجاع الناس إلى طريق الحق والصواب[١٥١] . وأن ممارسة الخوارق من اختصاص المريدين . وللشيوخ الأمر بممارستها والإشراف عليها فقط[١٥٢] .

وللقادرية أوراد هي بمثابة فروض إضافية ، اليومية منها ثمانية أوراد . يؤديها المريدون بشكل جماعي بعد تأدية فريضة الصلاة . والدائمية وهي تسعة عشر ورداً ، يقوم بها المريد بشكل فردي بعد الصلاة أيضاً . ويتم تكرار كل واحد منها مائة ألف مرة . وعند الانتهاء من الورد التاسع عشر يعود المريد مرة ثانية بداية من الورد الأول . وهكذا حتى نهاية العمر ، يكرس نفسه لتأدية أوراد الطريقة . والورد عبارة عن قراءة سورة من القرآن ، أو تكرار اسم الله وأسمائه الحسنى بعدد معين . وللقادرية من غير الأوراد مقامات تعرف بها : التوبة ، والتوكل ،

---

(١٥١) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ .

(١٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

والخوف ، والرجاء ، والصدق ، والإخلاص ، والصبر ، والورع ، والزهد ، والرضا ، والشكر[١٥٣] . عموماً ، أن الطرق الصوفية لم تعد مذاهب فقهية قائمة بذاتها ، بل هي تتبع المذهب السائد ، فأكثر أتباع أو مريدي الطرق الصوفية ببغداد على المذهب الحنفي ، مثلما مذهب الطرق الصوفية بكردستان العراق الشافعي . وربما تلتقي في الطرق الصوفية مقدسات عدة مذاهب ، لتشكل وحدة روحية . يحضر مثلاً عند المتصوفة اسم الحسين بن علي وآل البيت بقوة ، إلى درجة تتوهم بها أنهم من الشيعة . فهذه الطريقة الكسنزانية يعد شيوخها الحسين رمزاً للحرية . لكنهم لا يرون البكاء والنحيب في عاشوراء[١٥٤] .

إن سيادة المذهب الشافعي بكردستان العراق لم تمنع الشيعي أبا علي الحسن بن محمود بن الحسن السنجاري المعروف بابن الحكاكا (ت٦٠٤هـ) من أن «يتولى اشراف ديوان سنجار في أيام عماد الدين زنكي . كان شيخاً ظريفاً شيعي المذهب فيه أدب»[١٥٥] . ولابن الحكاكا شعر طريف منه :

ما زلت أشربها حتى زوت نشبي
عني كما زويت عن فاطم فدك
من كف أغيد تحكي الشمس طلعته
في خده الورد والنسرين مندعك[١٥٦]

صراعات

شغلت خلافات الأشاعرة والحنابلة ، اليومية تقريباً ، أروقة مدارس ومساجد ورباطات بغداد . وكانت بعيدة عن التوافق بين الشافعي وابن حنبل ، حتى أظهرت الإمامين عدوين لدودين . هذا ما عبرت عنه الفتن المستمرة بين عوام المذهبين حول الشكليات الفقهية ، مثل الاختلاف حول الجهر أو عدم الجهر بالبسملة ، أو القنوت أو عدم القنوت في صلاة الصبح ، أو الترجيع في الآذان[١٥٧] . أما الفتن بين الشافعية الأشعرية من جهة وبين المعتزلة الحنفية والشيعة من جهة أخرى فلها أسباب أعمق .

مع أن هناك معارك طاحنة دارت بين السُنَّة عموماً والشيعة الإمامية حول عبارة «حي

---

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص ٣٦٨ - ٣٧١ .
(١٥٤) المصدر نفسه ، ص ٦٦ - ٦٨ .
(١٥٥) ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ص ٢٥٧ .
(١٥٦) المصدر نفسه .
(١٥٧) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر٢ ص ٢٤٩ . والترجيع تعن التغني بالأذان .

على خير العمل» ، واستبدالها من قبل السُنَّة بعبارة «الصلاة خير من النوم» . والسبب أن في هذه العبارة الفصل بين مذهب وآخر . فالعبارة الأولى لدى الشيعة «من فصول الأذان والإقامة ، لأنها كانت مدروجة في سلك فصولهما على عهد رسول الله (ص) ، وخلافة أبي بكر وشطر من إمارة عمر بن الخطاب(رض) . إلا أن الخليفة عمر (رض) هو الذي أسقطها من فصول الآذان والاقامة»[١٥٨] . أما عبارة «الصلاة خير من النوم» فيعتقد الشيعة أنها ليست من السُنَّة ، وأنها من إبداعات عمر أيضاً[١٥٩] .

كانت عبارة «حي على خير العمل» من الخطورة في بعض الأحيان إلى درجة يضطر الراوة أو المؤلفين سترها أو رفعها من رواياتهم للتقية . ذلك لتفسيرها تفسيراً سياسياً ، أي تعني الولاية . قال ا أبو جعفر بن بابويه : «نما ترك الراوي حي على خير العمل للتقية . وقد روى في خبر آخر عن الصادق (ع) إنه سُئل عن معنى خير العمل ، فقال : خير العمل الولاية . وفي خبر آخر خير العمل بر فاطمة وولدها»[١٦٠] . ويعد الشيعة الشهادة الثالثة «أشهد أن علياً ولي الله» من أحكام الأيمان لا من أحكام الأذان[١٦١] . وتبدو الشهادة الثالثة في الآذان حديثة ، لربما دخلت بتأثير صفوي في الأذان الشعي . فحسب العلامة الشيعي في الزمن العباس والمغولي رضي الدين علي بن موسى المعروف بابن طاووس أو طاوس (ت ٦٦٤هـ) ، وهو صاحب مقالة سلطان عادل كافر أفضل من سلطان مسلم جائر ، أن الأذان كان بالشهادتين فقط[١٦٢] .

كذلك لم ترد الشهادة الثالثة في رسائل فقه الشيعة ، بداية من كتاب «الخلاف» لشيخ الطائفة الطوسي وانتهاء برسلئل الفقهاء المعاصرين ، مثل «مستمسك العروة الوثقى» لآية الله محسن الحكيم وما أتى بعدها . قال الطوسي : الأذان عندنا «التكبير أربع مرات ، والشهادتان مرتين مرتين ، وحي على الصلاة مرتين ، وحي على الفلاح مرتين ، وحي على خير العمل مرتين ، والله أكبر مرتين ، ولا إله إلا الله مرتين»[١٦٣] . وعلى صعيد العلاقة مع الأديان الأخرى لم يكن حال أهل الذمة في عهد السطوة الشافعية والأشعرية ، وأثناء الحقبة السلجوقية مريحاً . فوفقاً لهذا المذهب طُبقت عليهم إجراءات صارمة ، حسب ما جاء في الشروط العمرية ، فألزموا «لبس الغيارات والعمائم والمصبوغات ، وذلك عن أمر

---

(١٥٨) القزويني ، الشيعة في عقائدهم وأحكامهم ، ص ١٢٤ .

(١٥٩) المصدر نفسه .

(١٦٠) ابن طاووس ، كتاب فلاح المسائل ، ص ١٤٤-١٤٤ .

(١٦١) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

(١٦٢) المصدر نفسه .

(١٦٣) الطوسي ، الخلاف ١ ص ٧٨ .

السلطان»[١٦٤] . يضاف إلى ذلك تشدد بعض فقهاء المذهب ضد الآخر بما هو خارج حدود المعقول ، وبما فيه من تحريض على الوحشية! قال محمد الأمين الشنقيطي ما يُفزع ويرهب : «لو وجدَ مضطراً آدمياً غير معصوم كالحربي والمرتد فله قتله والأكل منه عند الشافعية . وبه قال القاضي من الحنابلة . واحتجوا بأنه لا حرمة له . فهو بمنزلة السباع . والله تعالى أعلم»[١٦٥] .

عموماً ، إن كانت للشافعية السطوة ببغداد ففي مناطق أخرى كان الحال مختلفاً ، فقد حصل أن سحب القاضي أبو عبد الله محمد البلاساغوني (ت ٥٠٥ هـ) إمامة جامع دمشق من الشافعية وسلمها لجماعته الحنفية . وظل الحال هكذا حتى أعادها صلاح الدين الأيوبي إلى الشافعية السنة ٥٧٠ هـ . وفي حمية الصراع المذهبي بين أهل السُنّة قال القاضي البلاساغوني (مصنف أُصول الفقه على المذهب الحنفي) : «لو كان إليَّ الأمر لأخذت الجزية من الشافعية»[١٦٦] . فقال فيه ابن عساكر الشافعي : «لم تكن سيرته محمودة»[١٦٧] .

(١٦٤) ابن الجوزي ، المنتظم ١٦ ص٦ .
(١٦٥) الشنقيطي ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١ص ١١٥ .
(١٦٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ ج١ ص٤٤ .
(١٦٧) المصدر نفسه .

الفصل الثامن

الحنابلة

نشأ ت حركة الحنابلة بالعراق بجهود الإمام أحمد بن حنبل البغدادي . ومع نشأتها العراقية إلا أنها كانت حجازية الجوهر والقصد ، حيث مدرسة أهل الحديث المالكية ثم الشافعية . وتشكل منها مذهب من أكثر المذاهب تشدداً . فكم حاول المذهب الشافعي الجمع بين الفقه والحديث ، ليكون المذهب الوسيط ، على حد عبارة نصر حامد أبو زيد ، أراد الحنابلة الوجود للحديث فقط . وكانت نواتها الأولى التفاف جماعة من رواة الحديث وخصوم أهل الرأي حول الإمام ابن حنبل ، والتصدي للحركة الكلامية والفلسفية التي ظهرت بقوة بتشجيع من البرامكة ثم عبد الله المأمون .

لقد ارتبط تاريخ بغداد ، الفقهي والفكري منه ، لقرون عديدة بمشاكسات الحنابلة ، التي بدأت بمقاطعة وعناد ابن حنبل المستمر لمجالس المناظرات الفكرية والفقهية ، المفتوحة لشيوخ الأديان والمذاهب المختلفة من دون تمييز ، سواء كانت برعاية البرامكة أو المأمون ، وخلفائه المعتصم والواثق . وكان ابن حنبل من القلائل الذين قاطعوا ذلك الانفتاح بدوافع التعصب لأهل الحديث . تحول عناد ابن حنبل المستميت إلى بطولة بين الناس ، فكثر شغب العوام بالهتاف للحنابلة ، من دون أن يعرفوا حقيقة تشدد هذا المذهب ضد الحركة الفكرية . ولا يعني هذا أن الحنابلة احتكروا التأثير في العامة بل كان للمعتزلة عامتهم المنتقاة بالبصرة وبغداد أيضاً ، قبل ابتعادهم عن السياسة والتفرغ للفكر والثقافة ، رغم الفارق الكبير بين العامتين ، في التفكير والتحرك . وأقول للمعتزلة عامة منتقاة لأن تأييد مقالات فكرية كلامية وفلسفية عميقة ، وتجاوز نصوص دينية ، يحتاج إلى خلفية ثقافية قد لا يملكها الإنسان العادي . وأن المستوى الثقافي العالي لدى المعتزلة دفعهم إلى التعامل مع نخبة من العوام . فالمعتزلة يضعون أنفسهم بالنسبة إلى الآخرين بموضع الملائكة من البشر .

رغم نشوء الحنبلية في رحم الشافعية، غير أنهما تقاطعتا، في ما بعد. اغتر الحنابلة وعدّوا الإمام محمد بن إدريس الشافعي حنبلياً، بل أكثر من هذا عدوا شيوخ مؤسس حركتهم أو مذهبهم حنابلة أيضاً، مثل يزيد بن هارون، كما سيأتي ذكر ذلك. وحدث التقاطع بينهما بعد تبني الشافعيين مقالات أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) أُصولاً. وساد المذهب الشافعي كمذهب رسمي للسلطنة السلجوقية ثم الخلافة العباسية، فتصاعدت المواجهات الدامية بين الطرفين. كان موقف الخلفاء من الحنابلة متأرجحاً بين التضييق كما حدث في خلافة الراضي، وبين التشجيع، واستخدامهم عصا غليظة لضرب الخصوم.

لم يعرف اهتمام للحنابلة في السلطات السياسية والقضائية، فليس بينهم وزير ولا قاضي قضاة أو قاض إلا ما ندر، وماعدا ما أنيط ببعضهم مهام أستاذية دار الخلافة (مسؤول ميزانية قصر الخلافة) أو محتسبين، أو المطاوعة، وهي مفردة تختصر جبروت هذه الجماعات. وظل هذا التكليف محصوراً تقريباً في عائلة ابن الجوزي. عزف الحنابلة عن تلك السلطات وكأنهم اكتفوا بتحريك العامة عبر القرآن والسُنّة النبوية، وتوظيفهما عبر شعارات مغرية ضد الخصوم. وهم المعتزلة والشيعة ثم الأشاعرة ومعقلهم المدرسة النظامية ببغداد. ولم يكتف رؤساء الحنابلة بمقاطعة مجالس المناظرات الفقهية والفكرية بل أخذوا يوجهون أتباعهم إلى الشغب والفوضى ورمي الخصوم بقطع الطابوق الآجر. فكانوا يدخلون مجهزبن بالحجارة المساجد والمدارس التي تُلقى من على منابرها خطب الوعظ وتعقد فيها المناظرات.

التأسيس

أسس ابن حنبل، بجمعه الكم الهائل من الحديث النبوي وانغلاقه على النص الديني، قاعدة تاريخية للسلفية الإسلامية، تفرعت عنها مذاهب أخرى، لم تراع مستجدات الحياة، مثلما راعتها مدرسة الرأي. كان من روادها المتأخرين الأئمة: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ثم ابن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ). وبجهود هؤلاء تحولت الحنبلية إلى مذهب فقهي. جعلت هذه السلفية النص مقابل الرأي. ولشدة تمسكها بالأثر لم يُعترف بالحنبلية كمذهب فقهي. والعذر في ذلك أن رائدها كان محدثاً لا فقيهاً، فهو القائل حفظت «ألف ألف حديث»[1]. ومَنْ يصرح بحفظ مليون حديث، ولو كان من باب التباهي والمبالغة، هل يتسع وقته وفكره للفقه والاجتهاد؟

قيل جمع ابن حنبل المليون حديث - مع أن ابن خلدون المالكي يعد الأحاديث كافة بخمسين ألفاً - متنقلاً من مكان إلى آخر يتتبع الأثر، حسب قول أصحابه، ليعارض به أهل

---

(١) البغدادي، تاريخ بغداد ٤ ص٤١٩.

الرأي . كان رفضه لمقالة خلق القرآن لا يتعلق بطبيعة المقالة ، وإنما لعدم ورود أثر نبوي أو قرآني فيها . اتضح ذلك من قوله لمتحنيه : «أ أتوني بحديث أو آية»؟ وقال الحنابلة في صاحبهم : «أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة»[٢] . كان ابن حنبل مخلصاً للسلف في حياته ، وكأن الحياة توقفت عندهم . مثال ذلك أنه أستأذن «زوجته أن يتسرّى طلباً للأتباع (اتباع السُنَّة) ، فأذنت له ، فاشترى جارية بثمن يسير ، وسماها ريحانة ، استناداً برسول الله» . وهي أم ولده عبد الله . وسُئل عن مسألة فقال : «ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون»[٣] . ومع تشدد الحنابلة في الأثر القرآني والنبوي إلا أن مخيلة الأتباع اختلقت القصص والحكايات حول إمامهم . وانتشرت دون أن تدعم بنص قرآني أو حديث نبوي ، دخلت عن طريق العاطفة إلى قلوب الحنابلة ، وامتلأت منها كتبهم .

ولد ابن الحنبل العام (١٦٤هـ) ، واختلف حول مسقط رأسه أببغداد كان أم بمرو؟ فروايات قالت : إنه «بصري من أهل خراسان ، ولد ببغداد ونشأ بها»[٤] . ولعلّه أصبح بصرياً في نظر الرواة لقوله : «دخلت البصرة خمس دخلات»[٥] . أولها العام (١٨٦هـ) وآخرها العام (٢٠٠ هـ) . وقيل : «حُمل من مَرْو وأمه به حامل ، وجده حنبل بن هلال والي سرخس . وكان من أبناء الدعوة»[٦] ، لعلها الدعوة العباسية . وينسب إليه القول : «قُدم بي من خراسان وأنا حمل ، وولدتُ هاهنا ، ولم أرْ جدي ولا أبي»[٧] . أما ولادته بمرو فقد أيدها كاتبو سيرته من الحنابلة بحديث نبوي ، وهو من الأحاديث العباسية : «سيكون بعدي بعوث كثيرة ، فكونوا في بعث خراسان . ثم أنزلوا مدينة مرو ، فإنه بناها ذو القرنين ، ودعا لها بالبركة ، ولا يضرها أهلها سوءاً»[٨] .

أوجد الحنابلة لإمامهم صلة مقدسة مماثلة للتي أوجدها الشافعيون لإمامهم ، وإن كانت بعيدة . فحسب قياسهم من حق أي عربي أن يدعيها . قال ابن الجوزي الحنبلي : «لأن النبي مضري ، من ولد مضر بن نزار ، وكل قريش من مضر ، وأحمد بن حنبل ربعي من ولد ربيعة بن نزار ، وهو أخو مضر»[٩] . لكن هناك مَنْ نسبه إلى قبيلة مازن ذات المال والسطوة ، والتي ورد فيها :

---

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١٨ .

(٣) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٢٣٢ .

(٤) تاريخ بغداد ٤ ص ٤١٥ .

(٥) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٥١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(٧) المصدر نفسه ، ص٣٦ .

(٨) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(٩) المصدر نفسه ، ص٤٢ .

لو كـنـتُ مـن مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة مـن ذهل بن شيبانا[١٠]

قال ابن حنبل حول خلفية شغفه بجمع الحديث: «كنت ربما أردت البكور في الحديث، فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتى يؤذن الناس، أو حتى يصبحوا، وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش وغيره»[١١]. وكان قد دخل الكتاب (المدرسة) وهو غلام، فيطلب نساء مرافقي هارون الرشيد، في موسم اصطيافه بالرقة، من معلم الغلمان كتابة الرسائل إلى أزواجهن، فيكلف ابن حنبل بذلك، لقدرته على الكتابة وصغر سنه، «فكان يجيء إليهن مطأطئ الرأس، فيكتب جواب كتبهن، فربما أملين عليه الشيء من المنكر فلا يكتبه لهن»[١٢].

كان أول شيوخه في الحديث هشيم بن بشير (ت ١٨٣هـ). قال ابن حنبل عن أستاذه: «كتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث، وبعض التفسير، وكتاب القضاء، وكتباً صغاراً»[١٣]. ودرس عند يزيد بن هارون بواسط، وعند المُحدث والمفسر عبد الرزاق بن همّام الصنعاني (ت٢١١هـ) باليمن، وكان قد سار إليها ماشياً، كما خرج، من أجل الحديث، إلى طرسوس ماشياً. وخرج إلى البصرة وعبادان ١٨٦هـ، بعدها بسنة خرج إلى مكة. وأخذ من المحدث سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)، وكان حجه الأول. واعاقته أجرة الطريق عن السفر إلى الري لحضور دروس المحدث جرير بن عبد الحميد (ت ١٨٨هـ)، فتوجه إلى الكوفة لقربها من بغداد. وسكن في بيت خالٍ من مستلزمات المعيشة. فكان يضع تحت رأسه لبنة وينام. كرس ابن حنبل حياته للحديث، وشعاره في ذلك «مع المحبرة إلى المقبرة»[١٤]. ولا يستغرب سفر ابن حنبل إلى اليمن وطرطوس سيراً على الأقدام، أو توسده اللبنة، فقد كان يعيش «من اللقاط، السنبل الذي تخطئه المناجل، وعمل مع الحمالين»[١٥].

وهو القائل: «خرجت إلى الثغر على قدمي فالتقطنا. وقد رأيت قوماً يفسدون مزارع الناس. لا ينبغي لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا بأذنه»[١٦]. وعلى الرغم من ميله إلى العزلة وتطلعاته الصوفية، الظاهرة بقوله: «أريد النزول بمكة، ألقي نفسي في شعب من تلك

---

(١٠) المصدر نفسه، ص٤٠.
(١١) المصدر نفسه، ص٥٠.
(١٢) المصدر نفسه، ص٤٣.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(١٤) المصدر نفسه، ص٥٥.
(١٥) المصدر نفسه، ص٢٩٠.
(١٦) المصدر نفسه،.

الشِّعاب حتى لا أعرف» . إلا أن رغبته الجنسية لم تتأثر بأمانيه الصوفية ، فذكر أنه اشترى جارية اسمها حسِّن ، وأوصى مَنْ اشتراها له أن تكون مكتنزة «لها لحم»[17] على حد عبارته .

اعتاد ابن حنبل حفظ متن الحديث وإسناده على ظهر قلب . واختبر قدرته على الحفظ أمام ابنه عبد الله بالقول : «خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف ، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد . وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام»[18] . وقيل : «حُزرت كتبه في اليوم الذي مات فيه ، فبلغت أثني عشر حملاً وعدلاً ، ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان ، ولا في بطنه حدثنا فلان ، وكل ذلك يحفظه من ظهر قلب»[19] . ورغم نهيه عن كتابة أو إملاء «كلامه ومسائله ، ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ، ولنُقلت عنه كتب»[20] . إلا أن ابن الجوزي عدَّ له المصنفات الآتية : كتاب «المسند» وهو ألف حديث . وكان يقول لعبد الله : احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماماً . و«التفسير» وهو مائة ألف حديث وعشرون ألفاً . و«الناسخ والمنسوخ» ، و«التاريخ» ، و«حديث شعبة» (الراوية) ، و«المقدم والمؤخر في القرآن» ، و«جوابات القرآن» ، و«المناسك الكبير والصغير»[21] .

بين الحديث والفقه

حسب ما تقدم لم يخطئ المؤرخ محمد بن جرير الطبري الشافعي (ت٣١٠هـ) في عدِّ ابن حنبل محدثاً لا فقيهاً . ولم يذكره في كتابه «اختلاف الفقهاء» . وقال لمن استفسر عن ذلك : إنه «لم يكن فقيهاً وإنما محدثاً»[22] . وبالتالي لم يعترف الطبري بفقه حنبلي ، أو مذهب رابع بين مذاهب السُّنَّة . ولم يسرد أخبار محنته مثلما أسهب في سردها مؤرخو الحنابلة . ولم يأت على أخبار سجنه وجلده أيام المعتصم بالله (ت ٢٢٧هـ) . حفظ الحنابلة ذلك وتعصبوا ضد الطبري ، فحركوا العوام من أتباعهم ، «وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد ، فشغبوا عليه ، وقالوا ما أرادوا»[23] . غير أن ابن الأثير الشافعي عدَّ ذلك حسداً للطبري المؤرخ والمفسر والفقيه ، فأنشد يقول :

---

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٣٧٦ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٨ ص ١٣٤ .

(٢٣) المصدر نفسه .

حسَـــدوا الفتى إذ لم ينـالوا سَعيه
فالنـــاس أعـداءٌ لـــه وخـصـــوم
كضــرائــر الحسنـاء قُلـــن لوجهـها
حسَـداً وبغيـاً إنـــه لـــدميم[٢٤]

كان الأمر خطيراً على الطبري ، إذ تطلب تدخل وزير المقتدر بالله (ت٣٢٠هـ) علي بن عيسى ، فدعاه إلى داره لمناظرة الحنابلة . «فحضر ولم يحضروا ، فعاد إلى منزله»[٢٥] . وهذه عادتهم يتظاهرون بالترفع عن الحوار والمناظرة . وفي الحقيقة أنهم يدركون مسبقاً أن الحجة ستلزمهم . وقد صاغ أبو حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ) ما حصل بين الطبري والحنابلة بقوله في مؤانسة الوزير أبي عبد الله العارض : «فأناظرهم فيك وبسببك ، لا مناظرة الحنبليين مع الطبريِّين»[٢٦] .

الحنابلة حسب هذه الرواية كانوا أبعد الناس عن المناظرة ، لأنهم تعاملوا بنصوص لا آراء . شهد بذلك أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) الشافعي الأشعري ، الذي يتفق مع الحنابلة في رفض مقالة خلق القرآن وإثبات الصفات . وأن شيخ فرقته أبو الحسن الأشعري يعد نفسه حنبلياً في هذه القضية بالذات . ورد ذلك في تعليقه على رفض الأشاعرة دعوة عضد الدولة البويهي (ت ٣٧٢هـ) إلى حضور مجالس مناظراته ، فقد رفضها رئيس الأشاعرة في زمان أبو الحسن الباهلي بقوله : «إن هؤلاء القوم كفرة ، فسقة لا يحلُّ لنا أن نطأ بساطهم . وليس غرض الملك من هذا إلا أن يُقال إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر الكبيرة»[٢٧] . اعترض الباقلاني على قرار شيخه الباهلي ، مذكراً بمخاطر مقاطعة ابن حنبل لمناظرات المأمون ، ولبى دعوة عضد الدولة ، ليكون في ما بعد سفيره إلى ملك الروم[٢٨] .

يحتاج حضور المناظرة إلى معرفة في الجدل وآدابه ، وإلمام في علم الكلام ، وابن حنبل كان يحرم ذلك على أصحابه . فالزاهد أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد اختفى عن انظار جماعته الحنابلة بسبب ميله إلى علم الكلام ، و «لم يصلِ عليه إلا أربعة نفر»[٢٩] ، ذلك «لتعصب العامة لأحمد» . لقد حدد ابن حنبل موقفه من علم الكلام في كتاب إلى

---

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .
(٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم ١٣ ص ٢٠٠ .
(٢٦) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ٢ ص ١٨٨ .
(٢٧) ابن عساكر ، تكذيب كذب المفتري ، ص١١٩ ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٣ ص ٥٩٠ - ٥٩١ .
(٢٨) وردت التفاصيل في معتزلة البصرة وبغداد ، الطبعة الثانية ، ص ٣٧٦ .
(٢٩) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٧ ص ٨٤ .

وزير المتوكل عبد الله بن يحيى بن خاقان (ت٢٦١هـ) : «لستُ بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في شيء من هذا ، إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه ، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود»[٣٠] . وأكثر من هذا قال ابن حنبل محرماً علم الكلام ومتهماً أصحابه : «لا تجالسوا أهل الكلام . وإن ذبوا عن السُنّة»[٣١] ، وشمل هذا بطبيعة الحال الأشاعرة في ما بعد .

طال تجاوز الحنابلة جنازة المؤرخ والمفسر ابن جرير الطبري ، فقد «دفن ليلاً ، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ، وادعت عليه الرفض ، ثم ادعت عليه الإلحاد»[٣٢] . قال الوزير علي بن عيسى عن جهالة محاصري جنازة الطبري : «والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ، ولا فهموه»[٣٣] . وقال الفقيه الشافعي أَبو بكر ابن خُزيمة (ت٣١١هـ) ، المعروف بين طبقات الشافعية بإمام الأئمة ، بعد مطالعته لتفسير الطبري : «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبي جعفر ، ولقد ظلمته الحنابلة»[٣٤] .

حاول شيوخ الحنابلة التصدي للذين نفوا فقاهة إمامهم ابن حنبل ، فقال أبو الوفاء علي بن عقيل (ت ٥١٣هـ) : «عجيب ما تسمعه عن هؤلاء الأحداث ، أنهم يقولون : أحمد ليس بفقيه ، لكنه محدِّث! وهذا غاية الجهل . لأنه قد خرج عنه اختيارات بناها على الأحاديث ، بناء لا يعرفه أكثرهم ، وخرج عنه من دقيق الفقه ما ليس نراه لأحد منهم ، وانفرد بما سلموه من الحفظ ، وشاركهم ، وربما زاد على كبارهم . ومن دقيق ما خرج عنه أنه اختلفت الرواية عنه في قسمة الدين . إذا كان في ذمة اثنين ، ولم تختلف في نفي صحة القسمة إذا كان في ذمة واحد ، وكأن المعنى فيه ، أنه إذا كان في ذمة لا تتأتى قسمته ، لأن الملتزم له واحد ، وليس لمن له الدين من الشريكين إلا حق المطالبة بحق مع الاشتراك ، ولا يكون له إلا ذلك ، فكيف يتأتى الانقسام؟ وليس كذلك إذا كان على الاثنين ، لأنه لا يمكن أن ينفرد أحد الشريكين المستحقين للدين بما في ذمة أحد الاثنين المستحق عليهما الدين فتصح القسمة»[٣٥] .

حاول ابن عقيل التصدي للطبري في أمثلة أخرى ، ولو بعد قرابة قرنين من الزمان ، ليؤكد أن إمامه صاحب مذهب فقهي ، وهو المذهب الرابع والأخير بين المذاهب السُنّية .

---

(٣٠) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص ٢٠٤ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

(٣٢) مسكويه ، تجارب الأمم ١ ص ٨٤.

(٣٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٨ ص ١٣٤ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

(٣٥) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٩٢ .

لكنه، وهو شيخ من شيوخ الحنابلة البارزين في زمانه، لم يعف من تعصب أصحابه الحنابلة، فهو القائل في محنته: «كان أصحابنا الحنابلة يريدون مني هجران جماعة من العلماء، وكان ذلك يحرمني علماً ونفعاً»[٣٦]. ويعني صلته بشيوخ المعتزلة والأشاعرة. ولأن ابن عقيل لم يطع جماعته أُهدر دمه، السنة (٤٦١هـ)، بفتوى الشريف أبي جعفر عبد الخالق بن عيسى. وبعد هروبه حصل أن سمع قول أحد ركاب السفينة التي كان مسافراً عليها بين بغداد والبصرة، وكان لا يعرفه: «تمنيت لو لقيتُ هذا الزنديق ابن عقيل حتى أتقرب إلى الله تعالى بقتله وإراقة دمه»[٣٧].

فزع ابن عقيل من وعيد الرجل، فأسرع إلى بغداد لإعلان توبته أمام حشد من الناس، بعد هروب دام أربع سنوات. ومما قاله في محضر توبته: «إني أبرأُ إلى الله تعالى من مذاهب المبتدعة: الاعتزال وغيره، ومن صحبة أربابه وتعظيم أصحابه، والترحم على أسلافهم والتكثر بأخلاقهم، وما كنتُ علقته ووجد بخطي من مذاهبهم وضلالاتهم، فأنا تائب إلى الله سبحانه وتعالى من كتابته وقراءته، وإنه لا يحلُ لي كتابته ولا قراءته ولا اعتقاده»[٣٨]. وقد ختم توبته بالآية القرآنية الآتية: «ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام»[٣٩]. ومعنى هذا أن قتله من الله ومن أجل الله.

كم تبدو التوبة أو البراءة من فكرة أو عقيدة، لا من سرقة أو جريمة، شديدة على النفس، وخصوصاً على قاض وفقيه مثل ابن عقيل، يطلبها منه أصحابه و أتباعه، فهي بمثابة القتل الروحي، والانكسار أمام الناس، وقد شهد عليه في محضر توبته مَنْ هو أقل علماً ومنزلة منه. جاء الحكم بالموت بحق ابن عقيل بسبب مخالطته، كما يقال في السر للمعتزلة والكتابة لصالح الحلاج (ت٣٠٩هـ) بعد مرور أكثر من قرن ونصف على قتله، فاعلن توبته من ذلك أيضاً، بالقول: «اعتقدتُ في الحلاج أنه من أهل الدين، والزهد، والكرامات، ونصرتُ ذلك في جزء عملته. وأنا تائب إلى الله تعالى منه، وأنه قُتل بإجماع علماء عصره، وأصابوا في ذلك، واخطأ هو».

قد يفند ما ورد في توبة ابن عقيل الحنبلي، من الكتابة في براءة الحلاج أو الترحم عليه، ما قيل حول مناصرة الحنابلة للحلاج عند قتله! أو أنه كان حنبلياً. وهذا ما لا يقبله تصوفه ولا قرمطيته. فعادة ما تصاحب التصوف ميول شافعية، بينما القرمطية حركة شيعية

---

(٣٦) ابن الجوزي، المنتظم ١٧ ص ١٨.

(٣٧) ابن قدامة، تحريم النظر في كُتب الكلام، ص ٣٣.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) سورة المائدة، ٩٥.

إسماعيلية . ولعلَّ ما ذكره مسكويه في محنة الحلاج من أن العامة دافعت عنه لم يعنِ الحنابلة ، فللصوفية مريديهم وعامتهم أيضاً . قال : «خرج الحلاج إلى رحبة المجلس ، واجتمع من العامة خلق كثير لا يحصى عددهم ، وأمر الجلاد بضربه ألف سوط»[٤٠] . وقال أيضاً : «إن والي الشرطة رفض استلام الحلاج بعد فتوى إعدامه ، لأنه «يتخوف أن ينتزع من يده ، فوقع الاتفاق على أن يحضر بعد العتمة ، ومعه جماعة من غلمانه ، وقوم على بغال يجرون مجرى الساسة ليجعل على بغل منها ، ويدخل في غمار القوم»[٤١] .

أشارت حادثة ابن عقيل إلى شدة التعصب ضد علم الكلام والفلسفة ، من قبل خصمين يلتقيان في معارضة المعتزلة وهما : الأشاعرة ومؤسستهم المدرسة النظامية ببغداد بأساتذتها وطلابها ، والحنابلة وأتباعهم العامة . كان من رموز التشدد ، عصر محنة ابن عقيل ، الإمام أبو حامد الغزالي ، الذي أعطى ، كما سبقت الإشارة في الفصل السابق ، رأيه الصريح والسلبي ضد الكلام والمتكلمين ، وكل ما يتعلق بمسائل الجدل والفلسفة . قال : «ولم يكن علم الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنتُ أشكو منه شافياً . ولم يكن في كتب المتكلمين إلا كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد»[٤٢] .

غير أن الحنابلة الذين أزعجهم مَنْ نفى عن إمامهم الفقاهة ، قالوا عن الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) : «كان فقيهاً ولم تكن له معرفة بالحديث . فربما قال لأحمد : هذا الحديث قوي محفوظ؟ فإذا قال أحمد : نعم ، جعله أصلاً وبنى عليه»[٤٣] . وهذا ممكن الحدوث ، فالشافعي توفي وعمر ابن حنبل أربعون عاماً . لكن من الغرابة بمكان ، وهو غرور ما بعده غرور ، أن يعد صاحب طبقات الحنابلة ابن الفراء (ت ٥٢٦هـ) الإمام الشافعي من أتباع ابن حنبل[٤٤] ، رغم أن الأخير أثنى على أهل الحديث ، وفي مقدمتهم الشافعي ، الذي نهض به علم الحديث وتوافد الكتاب على كتابه والحفاظ على حفظه ، فمن أقواله فيهم : «سُرج الإسلام» ، و«أحبار رسول الله»[٤٥] . عدَّ أهل الحديث وعوامهم موقف ابن حنبل السلبي والقوي من مقالة خلق القرآن بطولة ، مع أنه ورد في روايتين متناقضتين : الأولى رواها الحنابلة تؤكد صلابته اثناء التحقيق ، والثانية رواها المعتزلة تؤكد خضوعه .

---

(٤٠) مسكويه ، تجارب الأمم ١ ص ٨١ .

(٤١) المصدر نفسه .

(٤٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ١٥ .

(٤٣) ابن الفراء ، طبقات الحنابلة ، ص ٢٠٤ .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٥ .

جاء خبر المحنة ، حسب رواية ولده صالح : «صار أبي إلى بغداد وهو مقيد ، فمكث بالياسرية أياماً ، ثم صار إلى الحبس ، في دار اكتريت له عند دار عمارة . ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة في درب الموصلي . وفي رواية في درب يعرف بالموصلية»[٤٦] . وذكر الراوي نفسه : «قال أبي : كنت أُصلي بأهل السجن وأنا مقيد»[٤٧] . ويسرد ابن حنبل يومياته بالقول : «لما كان في شهر رمضان سنة تسع عشرة ، حُولتُ إلى دار إسحاق بن إبراهيم يوجه إليّ في كل برجلين . أحدهما يقال له أحمد بن رباح ، والآخر أبو شعيب الحجام . فلا يزالان يناظراني ، حتى إذا أرادا الانصراف دُعي بقيد فزيد في قيودي . فصار في رجله أربعة أقياد»[٤٨] .

كانت مناظراته معهم كالتالي : دخل عليه رسول الخليفة المعتصم ، فبادر ابن حنبل إلى السؤال : «ما تقول في علم الله؟ قال : علم الله مخلوق . فقلت له : كفرت»[٤٩] . ولما وصل أمر حمله إلى ديوان المعتصم . قال له إسحاق بن إبراهيم : «يا أحمد ، إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب . وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس . أليس قد قال الله عز وجل : إنَّا قد جعلناه قرآناً عربياً؟ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً! وبعد الوصول إلى دار المعتصم نوديَ عليه ليجيب الخليفة ، وكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد[٥٠] حاضراً المجلس . وقد سأل ابن حنبل أحد الفقهاء الشافعيين من الحضور : أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح؟ فرد قاضي القضاة بقوله : «انظروا رجلاً هو ذا يقدم به لضرب العنق يناظر في الفقه»[٥١] . ثم أوكل المعتصم عبد الرحمن بن إسحاق وجماعة من الحضور امتحانه بحضرته . وقد أوردها ابن الجوزي في نص كبير نلخصه بالتالي :

المتحن : ما تقول في القرآن؟

---

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٩٥ .

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٢٩٧ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ .

(٥٠) قاضي قضاة في زمن المعتصم والواثق ، وهو معتزلي المذهب ، يوصف بالجود والسخاء وحسن الخلق ، ووفرة الأدب ، كان أحد ممتحني الفقهاء والقضاة في خلق القرآن ، بالغ المؤرخون في تحميله قرار المحنة ، توفي منكوباً وولده القاضي محمد بن أحمد بن أبي دؤاد من قبل المتوكل السنة ٢٤٤هـ (البغدادي ، تاريخ بغداد ٤ ص١٤١) .

(٥١) ابن الجوزي ، مناقب ابن حنبل ، ص ٣٩٩ .

ابن حنبل : ما تقول في علم الله؟ لم يُرد على السؤال .

الممتحن : أليس قد قال الله : الله خالق كل شيء ، والقرآن أليس هو شيء؟

ابن حنبل : قال الله عزَّ وجلَّ : تُدَمِّر كل شيءٍ بأمر ربها . فدمَّرت إلا ما أراد الله عز وجل .

الممتحن : قال الله عز وجل : ما يأتيهم من ذِكرٍ من ربهم محدث . أفيكون محدثٌ إلا مخلوقاً؟

ابن حنبل : قال الله عز وجل : ص والقرآن ذِى الذِّكر ، والذِّكر هو القرآن . ويلك ليس فيها ألف ولا لام!

الممتحن : إن الله خلق الذِكْر .

ابن حنبل : هذا خطأ! حدثنا غير واحد ، أن الله عز وجل كتب الذِكْر .

الممتحن : جاء في الحديث المرفوع إلى ابن مسعود : «ما خلق الله عز وجل من جنة ، ولا نار ، ولاسماء ، ولا أرض أعظم من آية الكرسي» .

ابن حنبل : إنما يوقع الخلق على الجنة والنار والأرض ، ولم يقع على القرآن .

الممتحن : حدثنا حديث خباب : «يا هنتاه تقرب إلى الله بما استطعت ، فإنك لن تتقرب إليه بشي أحب من كلامه» .

ابن حنبل : هذا كذا هو!

كان أحمد بن أبي دؤاد ينظر إليه بغضب! في كل رد يرد به على الممتحنين ، ويقول : يا أمير المؤمنين ، هو والله ضال مضل مبتدع! فيرد المعتصم بقوله : كلموه ، ناظروه .

المعتصم : ويحك يا أحمد؟

ابن حنبل : يا أمير المؤمنين! أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل ، أو سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى أقول به .

ابن أبي دؤاد : وأنت لا تقول إلا ما في كتاب الله أو سُنَّة رسول الله؟

ابن حنبل : كما تأولت تأويلاً فأنت أعلم ، وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليه .

وكلما كلموه قال لهم : «أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سُنَّة رسوله» . ولم يبق كلام معه فحضر الجلادون وسياطهم .

قال ابن حنبل في المحنة : «قال (المعتصم) للجلادين : تقدموا . قال : فجعل يتقدم إليَّ الرجل فيضربني سوطين ، فيقول له : شد ، قطع الله يدك! ثم يتنحى . ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين . وهو (المعتصم) في ذلك يقول لهم : شدوا قطع الله أيديكم . فلما ضربت

تسعة عشر سوطاً قام إليَّ : فقال : يا أحمد! علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك شفيق . قال : فجعل عُجيف[٥٢] ينخسني بقائم سيفه . وقال : أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول : ويلك! الخليفة على رأسك قائم؟ وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين! أنت صائم ، وأنت في الشمس قائم! فقال لي : ويحك يا أحمد ، ما تقول :؟ فأقول : أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سُنَّة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، أقول به . قال : ثم رجع فجلس . ثم قال للجلاد : تقدم أوجع ، قطع الله يدك! ثم قام الثانية ، فجعل يقول : ويحك يا أحمد ، إمامك على رأسك قائم . وجعل عبد الرحمن يقول : مَنْ صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال : وجعل يقول (الكلام للمعتصم) : ويحك يا أحمد أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي . قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنَّة رسوله حتى أقول به . قال : فرجع فجلس ، فقال للجلادين : تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى . وهو في خلال ذلك يقول : شد قطع الله يدك! . . . فذهب عقلي ، فأفقت بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أطلقت عني . فقال لي رجل ممن حضر : إنا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك باريةً (بساط من القصب) ودسناك! . . . ما شعرت بذلك . وأتوني بسويق ، فقالوا لي : أشرب وتقيأ ، فقلت لست أفطر . ثم جيءَ بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة[٥٣] فصلى ، فلما انفتل (أنصرف) من الصلاة قال لي : صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت قد صلى عمر وجرحه يثعبُ دماً»[٥٤] .

جاء برواية اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) أن ابن حنبل أقرَّ القول بخلق القرآن ، وورد على لسانه : «أني أقول بقول أمير المؤمنين»[٥٥] . وقال المسعودي (ت ٣٤٦هـ) : «في سنة تسع عشرة ومائتين ضرب المعتصم أحمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطاً ، ليقول بخلق القرآن»[٥٦] . انتقد المسعودي مناداة كبار شيوخ الحنابلة يوم وفاة ابن حنبل بقولهم : «العنوا الواقف عن الشبهات» ، فقال : «هذا بالضدِّ عمّا جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام في ذلك ، ونادى أحدهم بأعلى صوته :

---

(٥٢) ابن عنبسة قائد عباسي ، أخمد ثورة علي بن هشام ضد المأمون ، وقاد الجيش العباسي ضد ثورة الزط ، فلاحي البصرة وواسط . قتله المعتصم بسامراء السنة ٢٢٣هـ ، بعد أن عظم أمره ، وكثرت ضياعه وأمواله ،(ابن الجوزي ، المنتظم ١٠ ص٨٥ - ٨٦) .

(٥٣) أبو عبد الله محمد بن سماعة من أصحاب الرأي من أهل الكوفة ، تولى قضاء بغداد بعد القاضي أبي يوسف ، عفاه المأمون ليحل محله إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، توفي السنة ٢٢٣هـ (البغدادي ، تاريخ بغداد ، ٥ ص٣٤١هـ) ، (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٠ ص٦٤٦) .

(٥٤) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٥٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ ص٤٧٢ .

(٥٦) المسعودي ، مروج الذهب ٤ ص ٣٤٩ .

وأظلمت الدنيا لفقد محمد

وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل[٥٧]

ذكر ابن الأثير (ت ٦٤٠هـ) محنة ابن حنبل في خبر مختصر، جاء فيه: «أحضر المعتصم أحمد بن حنبل، وامتحنه بالقرآن، فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عن عقله، وتقطع جلده، وحُبس مقيداً»[٥٨]. ولابن الأثير رأيه السلبي في الحنابلة. قال في أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ): «مصنف كتاب الصفات، أتى به بكل عجيبة، وترتيب أبوابه يدل على التجسيم المحض، تعالى الله عن ذلك. وكان ابن التميمي الحنبلي يقول: لقد خرئ أبو يعلى الفرّاء على الحنابلة خرية لا يغسلها ماء»[٥٩]. كان رأي ابن الأثير في كتاب معاصره ابن الجوزي الحنبلي «تلبيس إبليس» أنه «لم يبق فيه على أحد من سادة المسلمين وصالحيهم»[٦٠]. وما كرهه ابن الأثير من ابن الجوزي ثلبه أُستاذه عبد الكَريم السمعاني (ت٥٦٢هـ) صاحب «الأنساب».

ففي غمرة الصراع بين المذهبين تعرض ابن الجوزي للسمعاني الشافعي، ذلك بسبب تعصبه لـ «مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويبالغ»[٦١]. أورد في كتابه «المنتظم» العديد من الردود على رواياته، محاولاً التقليل من منزلته العلمية. قال: «كان له مشقعة (طباع) عجيبة، فإنه كان يأخذ الشيخ البغدادي فيجلس معه فوق نهر عيسى (من أنهار بغداد التي تغرف من الفرات عند الأنبار وتصب في دجلة)، ويقول: حدثني فلان من وراء النهر، ويجلس في رَقة بغداد (بستان مقابل دار الخلافة بالكرخ) ويقول: حدثني فلان بالرَقة (ويعني التي بالشام) كذا وكذا في أشياء من هذا الفن لا تخفى على المحدثين»[٦٢]. رد ابن الأثير على تلبيس ابن الجوزي بقوله «فإن الرجل سافر إلى ما وراء النهر حقاً، وسمع في عامة بلاده من عامة شيوخه، فأي حاجة به إلى هذا التلبيس البارد؟ وإنما ذنبه عند ابن الجوزي أنه شافعي، وله أسوة بغيره، فإن ابن الجوزي لم يُبق على أحد إلا مكسري الحنابلة»[٦٣].

لكن رغم ما عكسته المواجهات الحادة من تباعد بين المذهبين، فهناك ما يشير إلى وئام كبير بين شيوخ المذهبين الأوائل. فمن غير صلة ابن حنبل المتينة بالشافعي كان أبو يعقوب

---

(٥٧) المصدر نفسه ٥ ص٢٠.

(٥٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٦ ص٤٤٥.

(٥٩) المصدر نفسه ١٠ ص٥٢.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٦١) ابن الجوزي، المنتظم، السنة ٥٦٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٤ ج١ ص١٢.

(٦٢) المصدر نفسه.

(٦٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١١ ص٣٣٣.

البويطي أحد المعتقلين مع ابن حنبل في محنة خلق القرآن، وهو الذي كتب من سجنه ببغداد إلى بلده مصر يقول: «إني لأرجو أن يجري الله عزّ وجل أجر كل ممتنع في هذه المسألة لسيدنا الذي ببغداد (ويعني أحمد بن حنبل)»[٦٤]. وحسب ما تقدم كانت منزلة البويطي بين أصحاب الشافعي موازية تماماً لمنزلة أبي يوسف بين أصحاب أبي حنيفة.

أُطلق سراح أحمد بن حنبل بعد ثمانية وعشرين شهراً[٦٥] قضاها في السجن. وذكر ولده صالح القسوة التي مارسها المحققون مع أبيه. قال: «نظر إلى أبي رجل ممن يبصر الضرب والعلاج، فقال: قد رأيت من ضرب ألف سوط، ما رأيت ضرباً مثل هذا. لقد جُرّ عليه من خلفه ومن قُدّامه، ثم أخذ ميلاً فأدخله في بعض تلك الجراحات، فنظر فيها، فقال: لم يُنقَبْ، وجعل يأتيه ويعالجه، وقد كان أصاب وجهه غير ضربة، ومكث متكئاً على وجهه ما شاء الله»[٦٦]. وبالوقت الذي كان فيه يفضل الموت على ضرب السياط، وان الفقيه ابن سماعة قال للمعتصم: «إضرب عنقه ودمه في رقبتي» حذر المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد من قتله. قال للمعتصم: لا تفعل، فإنه إن قتل أو مات في دارك قال الناس: صبر حتى قُتل، فاتخذه الناس إماماً. وثبتوا على ما هو عليه (رفض مقالة خلق القرآن). لا، ولكن أطلقه الساعة، فإن مات خارجاً من منزلك شك الناس في أمره، وقال بعضهم لم يجبه، فيكون الناس في شك من أمره»[٦٧].

أراد المعتصم أن يحتاط لرفع مسؤوليته عن وفاة ابن حنبل بعد خروجه من السجن، فكما تقدم في الفصل الخامس من الكتاب، فعل مثلما فعل والده هارون الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر الكاظم، بعد أن مات في سجنه السنة (١٨٣هـ)[٦٨]. ورد في الرواية «دعا المعتصم بعمّ أحمد بن حنبل. ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم! هو أحمد بن حنبل. قال: فنظروا إليه. أليس هو صحيح البدن؟ قالوا: نعم!»[٦٩]. وبعد إطلاق سراحه سمح له في مزاولة أموره، ومنها لقاءاته مع أصحابه، دون قيود. ويذكر أن المشايخ من الفقهاء قد زاروه مهنئين، منهم يعقوب بن إبراهيم الزهري[٧٠]، وسليمان بن داود الهاشمي[٧١] قد قبلاه.

---

(٦٤) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص١٦٤.

(٦٥) المصدر نفسه، ص٤٠٧.

(٦٦) المصدر نفسه، ص٤٢٧.

(٦٧) المصدر نفسه، ص٤٢٠، ما أعتقده في منع المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد من قتل ابن حنبل أن الرجل كان حليماً وبعيداً عن سفك الدماء، هذا ما تؤكده أغلب المصادر التاريخية.

(٦٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٤١٤.

(٦٩) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٤٢٠.

(٧٠) أبو يوسف، محدث من أهل المدينة، سكن بغداد وحدث بها عن أبيه، وهو من أحفاد الصحابي

وأخذ الزوار يرفعون من معنوياته بذكرهم ما حل بالعلماء والفقهاء، فقال له الحارث بن مسكين[٧٢] معزياً: «ما زال الناس يبتلون في الله تعالى ويصبرون»[٧٣].

أخذ البعض يواسي ابن حنبل ويخفف عنه عذابه، ذاكراً له عذابات عدد من الفقهاء على يد الأمويين والعباسيين، مثل: التابعي سعيد بن المسيب[٧٤] الذي جلده عبد الملك بن مروان مائة جلدة، وصب عليه جرة ماء بارد في يوم شات، وألبسه جبة صوف. لأنه أحجم عن مبايعة ولده البكر الوليد ولياً للعهد. وجلد الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الرحمن بن أبي ليلى[٧٥] أربعمائة جلدة، ثم قتله[٧٦]. وقتل الفقيه سعيد بن جبير (ت٩٥هـ). وجلد أبو جعفر المنصور الإمام مالك بن أنس سبعين جلدة في يمينه. ومن اللافت للنظر، لا نجد أسماء أئمة معروفين بين أسماء المعذبين المذكورين في مجلس ابن حنبل، وفي مقدمتهم الإمامان أبو حنيفة النعمان، وموسى بن جعفر الكاظم، على الرغم أن خبرهما لازال حاضراً في ذاكرة جيل أحمد بن حنبل، وهما من رؤساء المذاهب الكبرى. وأن هناك من المتكلمين الذين قتلوا أيام هارون الرشيد بتأييد من ابن حنبل منهم ضرار بن عمرو. ذلك لأن أبا حنيفة كان صاحب مدرسة الرأي والقياس نقيض مدرسة الحديث. وكان الكاظم إماماً شيعياً. وضرار من أئمة المعتزلة.

أما المعتزلة فقد نفوا تلك الأخبار، وجاءت روايتهم على لسان الجاحظ حول عذابات ابن حنبل في امتحان «خلق القرآن»: «إنه لم ير سيفاً مشهوراً. ولا ضرب ضرباً كثيراً. ولا ضرب إلا بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار ومشعشعة الأطراف. حتى أفصح بالإقرار مراراً. ولا كان في مجلس ضيق. ولا كانت حاله حالاً مؤيسة. ولا كان مثقلاً بالحديد. ولا خلع قلبه بشدة الوعيد. ولقد كان ينازع بألين الكلام، ويجيب بأغلظ الجواب. ويرزنون ويخف

= عبد الرحمن بن عوف، توفي ببغداد السنة ٢٠٨هـ، البغدادي، تاريخ بغداد ١٤ص ٢٦٨.

(٧١) أمير من البيت العباسي، يوصف برجاحة العقل، وكان أحمد بن حنبل يتمنى إستخلافه، توفي ببغداد السنة ٢١٩هـ، البغددي، تاريخ بغداد ٩ص ٣١.

(٧٢) أبو عمرو المصري، مولى زبان بن عبد العزبز بن مروان، كان فقهاء من المذهب المالكي، حمله المأمون على المحنة، ولم يقر بخلق القرآن، وظل مسجوناً حتى خلافة المتوكل. توفي السنة ٢٥٠هـ (الخطيب، تاريخ بغداد ٨ ص٢١٦). إن استمرار سجن عدد من الفقهاء بسبب رفض مقولة خلق القرآن يؤكد أن أحمد بن حنبل قد أقر هذه المقولة، كما أكد ذلك الجاحظ في كتابه «خلق القرآن»، واليعقوبي في تاريخه.

(٧٣) ابن الجوزي، مناقب ابن حنبل، ص٤٢٢.

(٧٤) عُرف بسيد التابعين، وعالم المدينة، سير النبلاء ٤ ص٢١٧.

(٧٥) من الكوفة وسكن المدائن (سلمان باك)، تاريخ بغداد ١٠ ص٢٥٠.

(٧٦) ابن الجوزي، مناقب ابن حنبل، ص٤٢٢ - ٤٢٣.

ويحملون ويطيش»[٧٧] . وخلاف ما ادعاه ابن حنبل من أنه لم يقر بمقالة خلق القرآن قال الجاحظ : إنه «أفصح بالإقرار مراراً» .

كانت مخيلة الحنابلة خصبة في نعت إمامهم بنعوت عجيبة ، لا تخلو من الطرافة ، ففي منام من مناماتهم المبتكرة قال عبد الله بن إسحاق المدائني (ت ٣١١ هـ) : «سمعت أبي يقول : رأيت كأن الناس قد جمعوا إلى مكة ، وكأن الحجر الأسود انصدع ، فخرج منه لواء ، فقلت : ما هذا؟ فقيل لي : أحمد بن حنبل بايع الله عزَّ وجل»[٧٨] . فلك أن تتخيل كيف تكون هيئة مَنْ يبايع الله على إلوهيته؟ وورد في منام آخر : إن بحّاراً دخل بيت الإمام وقال له : «جئت من البحر من مسيرة أربعمائة فرسخ . أتاني آتٍ في منامي فقال : إءتِ أحمد بن حنبل وسل عنه ، فإنك تدل عليه ، وقل له : إن اللهَ عنك راضٍ ، وملائكة سمواته عنك راضون ، وملائكة أرضه عنك راضون»[٧٩] . وقال بحّار هندي : «إني رجل من بحر الهند خرجت أُريد الصين ، فأُصيبت مراكبنا . أتاني راكبان على موجة من أمواج البحر ، فقال لي أحدهما : أتحب أن يخلصك الله على أن تُقرئ أحمد بن حنبل منّا السلام . قلت : ومَنْ أحمد؟ ومَنْ أنتما يرحمكما الله؟ قال : أنا الياس وهذا الملك الموكل بجزائر البحر ، وأحمد بن حنبل بالعراق . قلت نعم ، فنفضني البحر نفضة فإذا أنا بساحل الأبلة ، فقد جئتك أبلغك السلام»[٨٠] . وقال بلال الخواص : «كنت في تيه بني إسرائيل ، فإذا جاء رجل يماشيني ، فعجبت منه . ثم ألهمت أنه الخضر . فقلت له : بحق الحق مَنْ أنت؟ قال : أخوك الخضر . قلت له : أريد أن أسألك مسألة . قال : سل . قلت : ما تقول في الشافعي؟ قال من الأوتاد . قلت : فأحمد بن حنبل؟ قال : صدّيق»[٨١] .

قال أحد الحنابلة لتهويل محنة إمامه : «لما قدم أحمد بن حنبل ليضرب بالسياط أيام المحنة كنت حاضراً ، وقد جُرد ، فبينا هو يُضرب إذ انحل السراويل ، فجعل يحرك شفتيه ثلاث مرات ، فرأيت يدين خرجتا من تحته ، وهو يضرب ، فشدت سراويله ، فلما فرغوا من الضرب ، وحطوه قمتُ إليه . وقلت : يا أبا عبد الله ما كنت تقول حيث انحل السراويل؟ قال : قلت : يا مَنْ لا يعلم العرش أين هو إلا هو ، إن كنت تعلم أني على حق فلا تبد عورتي»[٨٢] . وسبق الزيدية الحنابلة ، فقالوا عن كرامات زيد : إن «استرسل جلد من بطنه ،

---

(٧٧) الحَيَوان ، جدل التنزيل ، ص١٨٢ .

(٧٨) البغدادي ، تاريخ بغداد ٤ ص ٤١٨ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ٤٢١ .

(٨٠) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص١٨٧ .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

(٨٢) الفراء ، طبقات الحنابلة ، ص ١٧١ .

من قدامه ومن خلفه حتى ستر عورته»[٨٣] ، وهو مصلوب بكناسة الكوفة (١٢٢هـ) عرياناً ، بعد قتله أيام هشام بن عبد الملك ، وقيل تحرم الجنة على كل مَنْ نظر إلى عورته .

تكفير الآخر

المكفرون من قبل الحنابلة لا يحصون عدداً ، فحسب مصدر حنبلي[٨٤] ، أنهم كفروا الجهمية ، صحابة جهم بن صفوان ، لقولهم بخلق القرآن ونفي الصفات ، مع جبريتهم الشديدة . وكفروا المعتزلة لقولهم بمقالات الجهمية ونفي القدر . وكفروا الواقفة لقولهم : القرآن كلام الله ولم يتوقفوا ولم يقولوا إنه غير مخلوق . وكفروا اللفظية لقولهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . وكفروا الشيعة لقولهم : إن علياً أفضل من أبي بكر . وهؤلاء ، حسب ابن حنبل ، ردوا الآية «محمد رسول الله والذين معه» . ومجمل وصية ابن حنبل في المخالفين : «لا تشاور أهل البدع في دينك . ولا ترافقهم في سفرك . ولا نكاح إلا بولي ، وخاطب وشاهدي عدل ، والمتعة حرام إلى يوم القيامة» . أوصى بذلك مع أنه أجاز الصلاة «خلف كل بر وفاجر (ما عدا هؤلاء) صلاة الجمعة وصلاة العيدين»[٨٥] .

عمل ابن حنبل ما في وسعه للتضييق على المذاهب الأخرى ، فقد نصح الخليفة المتوكل عند استشارته في الاستعانة بأهل الأهواء من المسلمين ، حسب تسميتهم في المصادر الحنبلية ، بقوله : «يستعان باليهود والنصارى ولا يستعان بهم . قال : لأن اليهود والنصارى لا يدعون إلى أديانهم ، وأصحاب الأهواء داعية»[٨٦] . وقد نصح بعدم تولي عدد من المرشحين لولاية القضاء بتهمة الجهمية أو الاعتزال[٨٧] . كذلك كتب جواباً شديد اللهجة إلى المحدث مسدد بن مسُرهد بن مسربل البصري(ت ٢٢٨هـ) ، صاحب أول مسند للحديث بالبصرة ، ضمنه رأيه الصريح في المذاهب الأخرى . جاء فيه :

«أما بعد ، وفقنا الله وإياكم لما فيه طاعته ، وجنبنا وإياكم ما فيه سخطه ، واستعملنا وإياكم عمل العارفين به الخائفين منه . إنه المسؤول عن ذلك . أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم ، ولزوم السُنَّة ، فقد علمتم ما حل بمن خالفها ، وما جاء فيمن أتبعها . بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله عز وجل يدخل العبد الجنة بالسُنَّة يتمسك بها .

---

(٨٣) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص١٣٩ .
(٨٤) ابن الفراء ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص : ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ٢١٨ - ٢١٩ .
(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .
(٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .
(٨٧) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

فأمركم أن لا تؤثروا على القرآن شيئاً فإنه كلام الله ، وما تكلم به فليس بمخلوق ، وما أخبر به عن القرون الماضية فغير مخلوق . وما اللوح المحفوظ ، وما فيه بمخلوق ، وما في المصاحف وتلاوة الناس ، وكيف ما قُرِيء ، وكيف ما يوصف فهو كلام الله غير مخلوق . فمَنْ قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم ، ومَنْ لم يكفره فهو كافر . ثم من بعد كتاب الله سُنَّة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والحديث عنه وعن المهديين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والتابعين من بعدهم ، والتصديق بما جاءت به الرسل ، واتباع سُنَّة النجاة ، وهي التي نقلها أهل العلم كابراً عن كابر . وأحذروا رأي جهم (ابن صفوان) ، فإنه صاحب رأي وكلام وخصومات ، فقد أجمع مَنْ أدركنا من أهل العلم أن الجهمية افترقت ثلاث فرق : فقالت طائفة منهم : القرآن كلام الله ، وهو مخلوق . وقالت طائفة منهم : القرآن كلام الله . وسكتت وهي الواقفة الملعونة ، وقال بعضهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . فكل هؤلاء جهمية كفار ، يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا . واجمع مَنْ أدركنا من أهل العلم أن مَنْ هذه مقالته إن لم يتب لم يناكح ، ولا يجوز قضاؤه ، ولا تؤكل ذبيحته . والإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، زيادته إذا أحسنت ، ونقصانه إذا أسأت ، ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، ولا يخرجه من الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم ، أو برد فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً بها ، فإن تركها تهاوناً أو كسلاً كان في مشيئة الله ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه .

وأما المعتزلة الملعونة ، فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم أنهم يكفرون بالذنب ، ومن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم ، صلى الله عليه وسلم ، كان كافراً ، وان أخوة يوسف حين كذبوا أباهم يعقوب كانوا كفاراً . واجمعت المعتزلة أن مَنْ سرق حبة فهو كافر تبين منه امرأته ، ويستأنف الحج إن كان حج ، فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة كفار لا يناكحون ، ولا تقبل شهادتهم ، ولا تؤكل ذبيحتهم .

وأما الرافضة ، فقد أجمع مَنْ أدركنا من أهل العلم أنهم قالوا : إن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أفضل من أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وإن إسلام علي أقدم من إسلام أبي بكر ، رضي الله عنهما ، فمَنْ زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر ، رضي الله عنه ، فقد رد الكتاب والسُنَّة ، لقول الله عز وجل : محمد رسول الله والذين معه ، فقدم الله أبا بكر بعد النبي ، صلى الله عليه وسلم . وقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن الله أتخذ صاحبكم خليلاً ولا نبي بعدي ، فمَنْ زعم أن إسلام علي أقدم من إسلام أبي بكر فقد كذب . . .»[٨٨] .

كان نموذج المؤمن عند ابن حنبل سُنِّياً «شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن

---

(٨٨) ابن الفراء ، طبقات الحنابلة ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

محمداً عبده ورسوله ، وأقر بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل ، وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه ، ولم يشك في إيمانه ، ولم يكفر أحداً من أهل التوحيد بذنب ، وأرجأ ما غاب عنه من الأمور إلى الله ، وفوض أمره إلى الله ، ولم يقطع بالذنوب . العصمة من عند الله ، وعلم كل شيء بقضاء الله وقدره ، الخير والشر جميعاً ، ورجا لمحسن أمة محمد ، وتخوف على مسيئهم ، ولم ينزل أحداً من أمة محمد الجنة بالإحسان ولا النار بذنب أكتسبه . . .»[٨٩] .

أكثر ابن حنبل من المكفرين ، وهم : المعتزلة والخوارج والشيعة والمرجئة ، وكل مَنْ ميز بين صحابي وآخر . والسؤال هل كان علي بن أبي طالب راضياً عن الزبير وطلحة؟ وهل كانت عائشة راضية عن عثمان وعلي ، وغيرهم من الصحابة؟ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : «سألت أبي عن رجل يشتم رجلاً من أصحاب رسول الله؟ قال : ما أراه على الإسلام»[٩٠] . ولكن كيف يرى ابن حنبل البغض بين الصحابة ، الذي تجاوز الشتم إلى اللعن والقتل؟ وإجمالاً ، ينقل عن إمام أئمة الحنابلة أنه قال : «قبور أهل السُنَّة من الفسّاق روضة من رياض الجنة ، وقبور أهل البدع من الزهاد حفرة من حفر النار»[٩١] .

وسع أتباعِ ابن حنبل بعد إمامهم دائرة المكفرين فقال أحمد بن إبراهيم الدورقي (ت٢٤٦هـ) : «مَنْ سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهموه على الإسلام»[٩٢] . وقال نعيم بن حماد : «إذا رأيت العراقي (صاحب الرأي) يتكلم في أحمد ابن حنبل فاتهمه في دينه»[٩٣] . وأكثر من هذا نقل أصحابه أنه كفر مَنْ يخاصم أهل الحديث . ورد في الرواية : أن رجلاً بمكة قال أصحاب الحديث أهل سوء . وذُكر خبره لابن حنبل «فقام أبو عبد الله وهو ينفض ثوبه ، فقال : زنديق زنديق زنديق . ودخل بيته»[٩٤] .

تبدو نفعية ابن حنبل واضحة في الموقف من مخالفيه ، فقد سكت عن انتهاكات جعفر المتوكل تجاه أهل المذاهب والأديان الأخرى . وأجاز الصلاة خلف الفاجر والفاسق . وحاول تصفية خصومه بهدوء ، من مسلمين وغير ومسلمين . ومع أنه إذا رأى نصرانياً أغمض عينه ، بحجة «لا أقدر أنظر إلى مَنْ افترى على الله وكذب»[٩٥] ، كان يقبل الدواء من طبيب نصراني . قال المرّوذي : «رأيت بعض النصارى المتطببين قد خرج من عند أبي

---

(٨٩) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٢١٥ .
(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .
(٩١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .
(٩٢) ابن الفراء ، طبقات الحنابلة ، ص١٠ .
(٩٣) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .
(٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٧ .
(٩٥) المصدر نفسه ، ص ٧ .

عبد الله ومعه بعض القسيسين أو الرهبان ، فسمعت المتطبب يقول : إنه جاء يسألني أن يجيء معي حتى ينظر إلى أبي عبد الله»[٩٦] .

أما تشدد ابن حنبل ضد أهل الكتاب وبقية الأديان فكان أعظم ، فلا يجوز لهم وطء أرض مكة والمدينة . قال : «ليس لليهود والنصارى أن يدخلوا الحرم»[٩٧] . وأن زائر االحجاز اليوم يقرأ في الطرق الخارجية المتفرعة إلى مداخل مكة والمدينة عبارة تحدد اتجاه المسلمين ، وأخرى تحدد اتجاه غير المسلمين! مع أن الرسول ، كما أسلفنا ، قد سمح لنصارى نجران الصلاة بمسجده بصلاتهم . وأهل الكتاب لا يطمحون بالسياسة ولا بالقضاء والإدارة ، فهم يعرفون أنهم لا يولون شيئاً من تلك الوظائف . لذا تركز اهتمامهم في الطب والعلوم الأخرى ، التي عزف عنها المسلمون ترفعاً ، وكان في مقدمتهم ابن حنبل . وقد ذكرنا آنفاً قول ابن الأخوة في باب «الحسبة على الأطباء والكحالين والجرائحين والمجبرين»[٩٨] .

كان آخر تحريمات شيوخ المذهب على أتباعهم استعمال الوَرْد في تبادل التهاني والزيارات لأنه من فعل وممارسة الكفار . جاء في فتوى الأمانة العامة لهيئة كبار علماء المملكة العربية السعودية ، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية ، بختم رئيسها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ ما نصه : «ليس من هدي المسلمين على مر القرون إهداء الزهور الطبيعية أو المصنوعة للمرضى في المستشفيات أو غيرها . وإنما هذه عادة وافدة من بلاد الكفر ، نقلها بعض المتأثرين بهم من ضعفاء الإيمان . والحقيقة أن هذه الزهور لا تنفع المزور . بل هي محض تقليد وتشبه بالكفار لا غير . وفيها أيضاً إنفاق للمال في غير مستحقه ، وخشية مما جرى إليه من الاعتقاد الفاسد بهذه الزهور من أنها أسباب الشفاء . وبناء على ذلك فلا يجوز التعامل بالزهور على الوجه المذكور بيعاً وشراً أو إهداءً»[٩٩] . ولا أجد جدوى لنقاش مثل هذه الفتوى التي تساهم في خشونة النفوس وتحجرها . وبالتالي تدعم أرضية الإرهاب ونبذ العلم . فمثلما يخشى المفتي من اعتبار الورد سبباً للشفاء فعليه تحريم الطب والدواء أيضاً لأنه سبب في الشفاء أيضاً .

تحريك العوام

للحنابلة مكانة ملحوظة بين العوام ، ذلك لتأثيرها عبر مقالات تساير مداركهم ،

---

(٩٦) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص ١٩٨ .

(٩٧) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص ١٧٧ .

(٩٨) ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٦٦ .

(٩٩) الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء ، فتوى رقم (٢١٤٠٩) مؤرخة في ١٤٢١/٣/٢٩ .

ولاعتماد خشونة العيش سلوكاً في حياة شيوخهم . وبتحريكهم كانوا يؤثرون في الحياة السياسية والاجتماعية . فقد أحدثوا الاضطرابات يوم بادر القاهر بالله العباسي (انتهت خلافته السنة ٣٢٢ وعاش إلى وفاته ٣٣٩ هـ مسمول العينين يشحذ على أبواب المساجد) إلى لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، باقتراح من كاتبه الحسن بن هارون ، واعترض صاحب الشرطة علي بن يلبق (قتله القاهر) على أساس أنه صحابي لا يجوز لعنه ، حسب مذهب ابن حنبل . لقد ساوى ابن حنبل بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان بقوله : «رحمهم أجمعين ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبو موسى الاشعري والمغيرة . كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال : سيماهم في وجوههم من أثر السجود»[١٠٠] . ويومها «تقدم علي بن يلبق بالقبض على البربهاري (ت٣٢٩هـ) رئيس الحنبلية ، فنذر به وهرب . وقبض على جماعة من كبار أصحابه ، وجعلوا في زورق مطبق ، واحدروا إلى البصرة»[١٠١] .

قبل قرار القاهر في شتم معاوية ، وقبل ظهور مَنْ عرف بالحنابلة ، حاول عبد الله المأمون (ت ٢١٨هـ) تحقيق ذلك ، باقتراح من مستشاره المعتزلي البصري ثمامة بن أشرس (ت ٢١٣ هـ) .

روى مؤرخ تلك الحقبة ابن طيفور (ت٢٨٠هـ) : أن المأمون لما عزم على إعلان شتم معاوية على المنابر نصحه القاضي يحيى ابن أكثم في العزوف عن الأمر . قال لأن «العامة لا تحتمل هذا وسيما أهل خراسان ، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها . والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة»[١٠٢] .

سمع المأمون رأي قاضيه ، وعزف عن قراره . وقال ثمامة مدافعاً عن اقتراحه في شتم معاوية : «يا أمير المؤمنين والعامة في هذا الموضع الذي وضعها به يحيى (ابن أكثم) ، والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد (لون راية العباسيين ، وتأتي هنا إشارة إلى السلطة) ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرين ألفاً منها . والله يا أمير المؤمنين : ما رضي الله جل ثناؤه أن سواها بالأنعام حتى جعلها أظل سبيلا»[١٠٣] . وقص عليه قصة حدثت معه فحواها : أن رجلاً مصرياً عليل العين كان يبيع الدواء على الناس في شارع الخلد ببغداد ، فسأله لماذا هو عليل العين مع أنه يمتلك دواء بهذه المواصفات السحرية التي ينادي بها على الناس . أجابه

---

(١٠٠) ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص٢١٤ .

(١٠١) مسكويه ، تجارب الأمم ١ ص٢٦٠ - ٢٦١ .

(١٠٢) ابن طيفور ، كتاب بغداد ، ص ٥٤ .

(١٠٣) المصدر نفسه .

المصري بالقول: إن عينه مرضت بمصر، وهذا الدواء مخصص لأمراض العيون ببغداد! وبعد إستجارة المطبب بالعامة هجموا على ثمامة، ولولا أنه اعترف لهم بصحة ما ادعاه المطبب لفقد حياته بين أيديهم[١٠٤].

اضطر الراضي بالله (ت ٣٢٩ هـ)، بعد سنة من خلافته أي (٣٢٣هـ)، إلى منع تجمعات الحنابلة، خشية من شغبهم في الطرقات والمساجد. ففي تلك السنة «ركب بدر الخرشني فنادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري الحنبلية: ألا يجتمع منهم نفسان في موضع واحد. وحبس جماعة منهم. واستتر أبو محمد البربهاري، وكان سبب ذلك كثرة تشرطهم (مهام الاحتساب على الناس ما يتصل اليوم بجماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإيقاع الفتن المتصلة»[١٠٥]. وهذا نص كتاب الراضي في الحنابلة ورئيسهم البربهاري:

«تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم، وكشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم، زُيّن لحزبه المحظور، ويُدلى لهم حبل الغرور. فمن ذلك تشاغلكم بالكلام في رب العزّة تباركت أسماؤه، وفي نبيه والعرش والكرسي. وطعنكم على خيار الأمة. ونسبكم شيعة أهل بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى الكفر والضلال، وارصادهم بالمكارة في الطرقات والمحال. ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة، التي لا يشهد بها القرآن، ولا تقتضيها فرائض الرحمن. وإنكاركم زيارة قبور الأئمة، صلوات الله عليهم، وتشنيعكم على زوارها بالابتداع. وأنكم مع إنكاركم ذلك تتلفقون وتجتمعون لقصد رجل من العوام (أحمد بن حنبل)، ليس بذي شرف ولا نسب، ولا سبب برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته، والتضرع عند حفرته. فلعن الله رباً حملكم على هذه المنكرات ما أراده، وشيطاناً زينها لكم ما أغراه. وأمير المؤمنين يقسم الله قسماً جهد إليه، يلزمه الوفاء به لئن لم تنصرفوا عن مذموم مذهبكم، ومعوج طريقتكم، ليوسعنكم ضرباً وتشريداً، وقتلاً وتبديداً، ويستعلمنَّ السيف في رقابكم، والنار في محالكم ومنازلكم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فقد أعذر مَنْ أنذر، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب»[١٠٦].

كان الحنابلة وراء احتجاجات سياسية لمواجهة الحركة القرمطية، ذات الطابع الشيعي الإسماعيلي، والتي خلفت حركة الخوارج في نشاطها المسلح. منها ما كان السنة (٣١٢هـ)،

---

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(١٠٥) مسكويه، تجارب الأمم، ص٣٢٢.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص٣٢٢ - ٣٢٣.

أيام المقتدر بالله ، عندما وقع السبي على قوافل الحجاج ، وعودة قافلة تلك السنة خالية من النساء والصبيان ، الذين اختطفوا إلى هجر عاصمة الدولة القرمطية بالبحرين . يومها «انقلبت بغداد وطرقها في الجانبين . وخرج النساء حفاة منشرات الشعور ، مُسودات الوجوه ، يلطمن ويصرخنَ في الشوارع»[١٠٧] . ضج العامة على الوزير ابن الفرات (ت ٣١٢هـ) ونعتوه بالقرمطي الكبير ، فتحركوا مع العامة و«امتنعوا من الصلاة بالمساجد الجامعة ذلك اليوم ، وارتجت بغداد بأسرها من الجانبين»[١٠٨] . وحدث أن «تكاثر العامة على ابن فرات ، ومعهم أسباب المنكوبين يدعون عليه ، ويضجون . واجتهد مؤنس (صاحب شرطة المعتضد وأمير الأمراء أيام المقتدر) في دفعهم ، فما قدر على ذلك . ورجموا طيار (زورق) مؤنس لمكان ابن فرات فيه . وصاحوا قد قبض على القرمطي الكبير ، وبقي القرمطي الصغير (ابن ابن فرات) . ولما وصلوا إلى باب الخاصة صعد جمع عظيم من السيميريات (نوع من السفن) لرجم ابن فرات وولديه ، وكاتبه بالآجر حتى حوربوا ، واحتيج إلى رميهم بالسهام»[١٠٩] .

أدت تلك الانتفاضة إلى سقوط الوزارة ، وبالتأكيد لم يكن كل العامة حنابلة ، وخاصة في قضية تهم الناس كافة . غير أن حضور الحنابلة المنتظم والموجه بين سواد الناس ، جعلهم قادرين على تحريكها ضد مَنْ يشاؤون . لذا ولقوة تأثيرهم على الناس ببغداد بالذات ، فلا يذكر لهم نشاط في المدن الأخرى ، حاول عدد من الخلفاء التقرب إلى الحنابلة ، فقد نقل عن المطيع لله (ت ٣٦٣هـ) «وقد أحدق خلق كثير من الحنابلة ، حزروا ثلاثين ألفاً ، فأراد أن يتقرب إليهم ، فقال : سمعت شيخي ابن بنت منيع يقول : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إذا مات أصدقاء الرجل ذلك . .»[١١٠] .

ومن المواجهات بين الحنابلة والشيعة ببغداد ، يذكر ابن الأثير في أحداث السنة (٤٤٣هـ) ، أن أهل الكرخ ، الشيعة آنذاك ، شرعوا بالكتابة على أبراج محلة السماكين والقلائين : محمد وعلي خير البشر ، وقيل كتبوا ما استفز أهل السُنَّة : محمد وعلي خير البشر فمن رضي شكر ومَنْ أبى فيه كفر . فدعا شيوخ الحنابلة العامة إلى الإغراق في الشغب . ولم يتدخل السلطان البويهي الملك الرحيم (آخر سلطان بويهي ببغداد) في الأمر . لأن رئيس الرؤساء كان يميل إلى الحنابلة . فمحيت كلمة خير البشر ، وكتب محلها عبارة : «عليهما السلام» . فقالت السُنَّة : إن يقلع الآجر المكتوب عليه محمد وعلي ، وان لا يؤذن

---

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(١٠٩) المصدر نفسه .

(١١٠) ابن الجوزي ، المنتظم ١٤ ص ٤٦ .

بحي على خير العمل الشيعية . لكن الشيعة امتنعوا من ذلك . وجرت معارك بين الطرفين ، قتل فيها رجل هاشمي من أهل السُنَّة . فشيع ودفن عند قبر أحمد بن حنبل . وأثناء المعارك أُحرق ضريح الإمام موسى بن جعفر الكاظم بالكرخ . ونهبت الدور المجاورة له ، ونبش القبر لنقل رفات الكاظم وحفيده محمد الجواد إلى مقبرة ابن حنبل[111] . لكن لم يتحقق ذلك .

خلف الحادث ردة فعل قوية على أعيان الشيعة ، وفي مقدمتهم أمير الحلة نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدي (ت٤٧٤هـ) ، فولايته «وسائر أعمال النيل كلهم من الشيعة ، فقطعت في أعماله خطبة الإمام القائم بأمر الله (ت ٤٦٧هـ) . فروسل في ذلك وعوتب ، فاعتذر بأن أهل ولايته شيعة ، واتفقوا على ذلك ، فلم يمكنه أن يشق عليهم . كما أن الخليفة لم يمكنه كفّ السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا»[112] . وفي السنة ٤٤٧ هـ «وقعت بين الحنابلة والأشاعرة فتنة عظيمة ، حتى تأخر الأشاعرة عن الجمعات (صلاة الجمعة) خوفاً من الحنابلة»[113] . وفي السنة (٤٥٨هـ) تركت الدولة الجهر بالبسملة . وهذه كانت عقيدة الحنابلة . وقيل ليس مخالفة ، «لمذهب الإمام (ابن حنبل) ، بل مخالفة للعلويين الفاطميين بمصر ، لأنهم كانوا يجهرون بالبسملة»[114] . ولكن أذا كان الأمر مجرد مخالفة للفاطميين فلماذا تمنع هذه الممارسة في الأزمة مع الحنابلة؟

كانت المدرسة النظامية ، التي أنشأها الوزير نظام المُلك بؤرة لحوادث الشغب والصراعات الطائفية . فماذا يُرجى من مؤسسة قامت على أَساس طائفي . ومن أمثلة ذلك : حوادث السنة ٤٦٩هـ ، حين «وقعت الفتنة بين الحنابلة والأشاعرة . وكان السبب أن ورد إلى بغداد نصر بن القيشري وجلس في النظامية ، واخذ يذم الحنابلة ، وينسبهم إلى التجسيم (تشبيه الله بجسم من الأجسام)»[115] . ولكثرة الفتن بين أهل السُنَّة ، شافعية وحنابلة ، كتب الوزير نظام المُلك كتاباً إلى فخر الدولة عبر فيه عن امتعاضه مما جرى ، والغضب لتسلط الحنابلة على الطائفة الأخرى . جاء في الكتاب : «وأني أرى حسم القول في ما يتعلق بالمدرسة التي بنيتها في أشياء من هذا الجنس»[116] . تبع ذلك ، السنة (٤٧٠هـ) ، كتاب نِظام المُلك إلى عميد المدرسة أبي إسحاق الشيرازي بخصوص التعامل مع الحنابلة[117] .

---

(١١١) ابن الإثير ، الكامل في التاريخ ٩ ص٥٧٧ - ٥٧٨ .
(١١٢) المصدر نفسه .
(١١٣) المنتظم ١٥ ص٣٤٧ .
(١١٤) المصدر نفسه ١٠ ص ٥٢ .
(١١٥) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .
(١١٦) المصدر نفسه .
(١١٧) المصدر نفسه .

زار نظام المُلك بغداد السنة (٤٨٤هـ) ، وحينها قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي تعقيباً على سؤال الوزير حول مذهب الحنابلة : «فأحببت أن أسوغ كلاماً يجوز أن يُقال إذا سُئلت ، فقلت : ينبغي لهؤلاء الجماعة يسألون صاحبنا (ابن حنبل) فإذا اجمعوا على حفظه لأخبار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وسلموا أنه كان ثقة ، فالشريعة ليست بأكثر من أقوال الرسول وأفعاله . إلا ما كان للرأي فيه مدخل من الحوادث الفقهية . فنحن على مذهب ذلك الرجل ، الذي اجمعوا على تعديله . كما أنهم (الشافعية) على مذهب قوم أجمعنا على سلامتهم من البدعة . . . وإن قالوا : أحمد ما شبه (تشبيه الله بمخلوقاته) وأنتم شبهتم . قلنا : الشافعي لم يكن أشعرياً ، وأنتم أشعرية . فان كان مكذوباً عليكم فقد كذب علينا . ونحن نفزع في التأويل مع نفي التشبيه . فلا يعاب علينا إلا ترك الخوض والبحث ، وليس بطريقة السلف . ثم ما يريد الطاعنون علينا ونحن لا نزاحمهم على طلب الدنيا»[١١٨] . يفهم من كلمة ابن عقيل هذه ، أن محنته المارة الذكر كانت بسبب اهتمامه بكتب متكلمي المعتزلة ليواجه فيها متكلمي الأشاعرة .

تدخل الحنابلة في حياة الناس الاجتماعية ، كمطاوعة (جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، مثال ذلك : السنة ٤٦٤هـ «لقي أبو سعد بن أبي عمامة (مفتي الحنابلة في زمانه ، ويؤم بالخليفة المقتدي بأمر الله في التراويح وينادمه توفي ٥٠٦هـ) مغنية قد خرجت من عند تركي بنهر طابق ، فقبض على عودها وقطع أوتاره . فعادت فأخبرته فبعث التركي إليه مَنْ كبس داره . وافلت . وعبر إلى الحريم (دار الخلافة) إلى ابن أبي موسى شاكياً ما لقي . واجتمع الحنابلة في جامع القصر من الغد ، فأقاموا فيه مستغيثين ، وادخلوا معهم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي وأصحابه ، وطلبوا قلع المواخير . وتتبع المفسدات ، ومَنْ يبيع النبيذ . وضرب دراهم تقع المعاملة بها . . . فتقدم أمير المؤمنين بذلك ، فهرب المفسدات وكبست الدور ، وارتفعت الأنبذة ، ووعد بقلع المواخير (بيوت الدعارة) ، ومكاتبة عضد الدولة برفعها . والتقدم بضرب دراهم يتعامل بها . فلم يقتنع أقوام منهم بالوعد»[١١٩] .

كان موقف الحنابلة من الصوفية سلبياً - رغم أن اسم المتصوف الجنيد (ت ٢٩٨هـ) ورد ضمن طبقاتهم . وأن أغلب المتصوفة كانوا شافعيين . ومن مظاهر ممارساتهم ضد التصوف بغضوا أحد أصحابهم بسبب مخالطة أرباب التصوف ، ودفن والده في تربة رباط الزوزني الصوفي «لأنه أقام عندهم مدة حياته ، وبقي على هذا خمسة أيام . وما زال الحنابلة يلومون ولده على هذا ، ويقولون : مثل هذا الرجل الحنبلي ، أي شيء يصنع عند الصوفية ، فنبشه

(١١٨) المصدر نفسه ١٦ ص ٢٩٥ .

(١١٩) المصدر نفسه ١٦ ص ١٣٨ .

ليلاً بعد خمسة أيام . وقال : كان هذا أوصى أن يدفن عند والديه ، ودفنه بمقبرة أحمد (ابن حنبل)[١٢٠] .

ظلت سطوة الحنابلة قائمة في القرن السادس الهجري ، فحدث السنة (٥٤٦هـ) أن «سأل السلطان مسعود لما قدم بغداد ابن العبادي أن يجلس في جامع المنصور ، فقيل له : لا تفعل فإن الجانب الغربي (الكرخ) لا يمكنون إلا الحنابلة[١٢١] فلم يقبل . فضمن له نقيب النقباء وأستاذ الدار وخلق كثير الحماية ، فجلس يوم الجمعة خامس ذي الحجة في الرواق ، وحضر النقيبان وأستاذ الدار ، وخلق كثير . فلما شرع في الكلام أخذته الصيحات من الجوانب ، ونفر الناس وضربوا بالآجر ، فتفرق الناس منهزمين كل قوم يطلبون جهة . وأخذت عمائم الناس وفوطهم ، وجذبت السيوف حوله . وثبت وسكن الناس ، وتكلم ساعة . ونزل وأرباب الدولة يحفظونه حتى انحدر ، وقد طار لبه»[١٢٢] . ومع ذلك حاول رموز الشافعية التصدي لنشاط الحنابلة عبر مناصبهم الرسمية . فهذا مرجان الخادم الشافعي (ت٥٦٠هـ) «تعصب على الحنابلة فوق الحد ، حتى أن الحطيم الذي كان برسم الوزير ابن هبيرة بمكة يصلي فيه ابن الطباخ الحنبلي ، مضى مرجان وأزاله من غير تقدم بغضاً للقوم»[١٢٣] . وشكا منه ابن الجوزي بقوله : «وناصبني دون الكل» .

استخدم خلفاء عباسيون الحنابلة ضد الشيعة ومظاهر احتفالاتهم بعاشوراء ، فحصل أن كتب صاحب المخزن إلى الخليفة المستضيء بأمر الله(ت ٥٧٥هـ) السنة (٥٧١ هـ) أن يطلق يد ابن الجوزي الحنبلي في الوعظ ، وتصدر مواجهة الشيعة . قال ابن الجوزي في هذا التكليف : «كتب أمير المؤمنين بتقوية يدي ، فأخبرت الناس بذلك على المنبر . وقلت : إن أمير المؤمنين قد بلغه كثرة الرفض . وقد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع . فمَنْ سمعتموه من العوام ينتقص الصحابة فأخبروني حتى أقض داره ، وأخلده الحبس . وإن كان من الوعاظ حدرته المشان . فانكف الناس . ثم تقدم في يوم الخميس عاشر شوال بمنع الوعاظ كلهم إلا ثلاثة كل واحد من مذهب : أنا من الحنابلة ، والقزويني من الشافعية ، وصهر العبادي من الحنفية»[١٢٤] .

وأمر المستضيء السنة (٥٧٤هـ) ، إكراماً للحنابلة ، بعمل لوح على قبر إمامهم ، وبنى

---

(١٢٠) المصدر نفسه ١٨ ص ٨٤ .

(١٢١) تغيرت تركيبة الكرخ المذهبية فبعد أن كانت شيعية أصبحت حنبلية ، ثم عادت شيعية حسب ما أشارت إليه روايات اجتياح المغول لبغداد .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

(١٢٤) المصدر نفسه ١٨ ص ٢٢٢ .

سترة القبر بآجر جديد ، وكتب عليه : «هذا قبر تاج السُنَّة ، وحيد الأمة ، العالي الهمة ، العالم العابد الفقيه الزاهد ، الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني»[١٢٥] . وصاحب تجديد القبر «عمل دكة بجامع القصر للشيخ ابن المنى الفقيه الحنبلي» . حينها قال ابن الجوزي مزهواً بما ناله الحنابلة من حظوة : «فأتوا أهل المذاهب من عمل مواضع للحنابلة ، وما كانت العادة قد جرت بذلك . وجعل الناس يقولون : هذا بسببك ، فشكرت الله تعالى على ذلك»[١٢٦] . لكن القبر وما كتب عليه لم يصمد أمام فيضانات دجلة العاتية ، ففي فيضان السنة (٥٥٤هـ) ، «انخسفت القبور المبنية ، وخرج الموتى على رأس الماء»[١٢٧] . وطال فيضان السنة (٥٦٨هـ) قبة القبر وبناء المدرسة النظامية[١٢٨] . ولعله خُرب نهائياً في فيضان السنة (٦١٤هـ) العاتي[١٢٩] . كذلك لم يستمر زهو ابن الجوزي بثقة الخلافة ، فما هي إلا سنوات ومات المستضيء ، وخلفه ولده الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) ذو الميول الشيعية ، فنكب ابن الجوزي السنة(٥٩٠هـ) ، ونفاه إلى واسط مدة خمس سنوات .

نكبة آل الجوزي

ذكر سبط ابن الجوزي تحت عنوان «محنة جدي رحمه الله»[١٣٠] ، قصة انقلاب الناصر لدين الله على جده لأمه وعلى الحنابلة عامة ، بعد قتل صاحبه أستاذ الدار يونس . كان ذلك ، حسب رواية السبط ، بسبب تحامل الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ، حفيد الشيخ عبد القادر الكيلاني (ت ٥٦١ هـ) ، صاحب الطريقة الصوفية والمزار المعروف ببغداد ، وكان حنبلياً أيضاً . فقد ادعى الركن عبد السلام ، المتهم برداءة المعتقد والتفلسف ، حسب صاحب سير أعلام النبلاء ، أن ابن الجوزي حرض أستاذ الدار يونس ضد جده ، فحرق كتبه وسلم مدرسته له . فلما سنحت الفرصة اقنعوا الخليفة الناصر بتسليم ابن الجوزي إلى عدوه للقصاص منه بطريقته . قال السبط في اعتقال جده : «كنت وكان جدي يسكن باب الأزج (محلة باب الشيخ ببغداد اليوم) ، بدار بنفشا . وكان الزمان صيفاً ، وجدي جالس في السرداب يكتب ، وأنا صبي صغير . ما أحسسنا إلا بعبد السلام ، وإذا به قد هجم على

(١٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ .

(١٢٦) المنتظم ، ١٨ ص٢٤٩ .

(١٢٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١١ ص ٢٤٨ .

(١٢٨) المصدر نفسه ١١ ص ٣٩٤ .

(١٢٩) المصدر نفسه ١٢ ص ٣٣٢ .

(١٣٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، السنة ٥٩٠هـ .

جدي (في) السرداب وأسمعه غليظ الكلام ، وختم على كتبه وداره ، وسب عياله ، وجرى عليهم ما لم يجر على أقل الناس . فلما كانوا في الليل حملوا جدي إلى سفينة وأنزلوه فيها ، ونزل معه عبد السلام لاغير . وعلى جدي غلالة (ما يُلبس تحت الثوب) بغير سراويل ، وعلى رأسه تخفيفة (غطاء خفيف) . وحدره إلى واسط» .

طلب عبد السلام من والي واسط ، ذي الميول الشيعية ، أن يمكنه من ابن الجوزي ليضعه في زنزانة تحت الأرض . رفض الوالي الطلب ، بقوله : «يا زنديق ، أرمي ابن الجوزي في المطمورة بقولك؟ هات خط الخليفة»! بعدها عاد عبد السلام إلى بغداد . أما ابن الجوزي فظل بواسط معتقلاً بدار عليها حراسة ، وعمره يقارب الثمانين عاماً . ومن يوميات سجنه الإنفرادي : كان يخدم نفسه بنفسه ، من غسل ثيابه وطهي طعامه إلى السقاية من البئر . ذكر سبطه : أنه لم يدخل الحمام طوال تلك الفترة ، ويستثني سورة يوسف من ختم القرآن ، بسبب حزنه لفراق ولده محيي الدين يوسف ابن الجوزي ، الذي تمكن من فك حبس والده وعودته إلى بغداد في ما بعد .

نكبت أسرة آل الجوزي نكبة عظيمة عند اجتياح بغداد السنة (٦٥٦هـ) . قُتل صبراً نجل ابن الجوزي محيي الدين يوسف ، وأنجال الأخير الثلاثة وهم : شرف الدين ، المحتسب والأستاذ في المدرسة البشيرية ، وسفير المستعصم إلى هولاكو وهو بخراسان ، كان يحمل في سفارته ختم المستعصم ، قتله المغول بأسدآباد بعد عودة هولاكو من بغداد . والمحتسب جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف ، الذي أخذ كنية واسم جده صاحب «المنتظم» ، وتاج الدين عبد الكريم بن يوسف . ذكر السبط في «مرآة الزمان» مناصب خاله محيي الدين يوسف في دار الخلافة ، أنه كان محتسب بغداد ، ووالي ديوان الجوالي (ديوان شؤون أهل الذمة) ، وأستاذ دار الخلافة ، وسفيرها إلى ملوك أوروبا . قتل آل الجوزي جميعاً مع العائلة العباسية ، وأكثر من سبعين عالماً وفقيهاً ، وكانت ساحة الإعدام مقبرة الشيخ الخلال ، يعرف المكان اليوم بالخلاني وسط بغداد[١٣١] .

وجهاء الحنابلة

كان أبرز شخصيات الحنبلية بالعراق من ذوي الأثر في الفقه والأدب واللغة : قاضي القضاة يحيى بن أكثم (ت٢٤٢هـ) . وكان ابن حنبل قد دفع عنه تهمة اللواط الشائعة بقوة . فحين ذكر له ذلك ، قال : «سبحان الله ، ومَنْ يقول هذا؟ وأنكر إنكاراً شديداً»[١٣٢] . ومن

---

(١٣١) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٣٢٨ .

(١٣٢) ابن الفراء ، طبقات الحنابلة ، ص٢٧٥ .

النحويين : أحمد بن يحيى بن زيد المعروف بثعلب (ت ٢٩١هـ) . إبراهيم بن محمد المعروف بنفطويه (٣٢٣هـ) . ولعل الشاهد على حنبليته صلاة رئيس الحنابلة البربهاري على جنازته[١٣٣] . ومحمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨هـ) . وصاحب كتاب «الأموال» القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) . والفقيه إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه (ت ٢٤٣هـ) . قال ابن حنبل : «لم يعبر الجسر مثل إسحاق» . لكنه كان «غير راضٍ عن أفعاله»[١٣٤] . عُدَّ من الحنابلة أيضاً صاحبا الصحيحين محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ) ، وصاحب السُنَن سليمان بن أبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) . طلب الأمير العباسي الموفق بالله (ت ٢٧٨ هـ) ، ولي عهد أخيه المعتمد ، من السجستاني الذهاب إلى البصرة ، بعد إخماد ثورة الزنج . قال : «ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض ، فتعمر بك ، فإنها قد خربت ، وانقطع عنها الناس لما جرى من مجيء الزنج»[١٣٥] .

كذلك أراد الموفق بالله من المحدث سليمان بن أبي داود السجستاني تعليم أولاده ، الذين اصبحوا في ما بعد خلفاء ، كتابه «السنَن» في مجلس منفرد لأن «أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة» . لكنه اعترض بلطف ، فأخذوا يقعدون «ويضرب بينهم وبين الناس ستر ، فيستمعون مع العامة»[١٣٦] . وعلى أية حال ، أن ورود اسم السجستاني ضمن طبقات الشافعية قد يشير إلى أن الموفق بالله لم يكلف حنبلياً في مهمة تصفية آثار ثورة قامت بها طوائف من العامة ، منهم أكرة الأرض والعبيد . وربما جعل مصنفو طبقات الحنابلة كل أصحاب السنَن والمسانيد حنابلة ، قياساً على عناية المذهب بالحديث . قد لا تعبر كتب الطبقات دائماً عن دقة الانتساب المذهبي ، فكثيراً ما يذكر الشخص في طبقات عدة مذاهب ، وبذلك يحار بتصنيفه مذهبياً .

ووردت في طبقات الحنابلة أسماء يصعب عدها من الحنابلة ، منهم أساتذة ابن حنبل مثل : يزيد بن هارون (ت ٢٠٦هـ) . والإمام محمد بن إدريس الشافعي ، والفقيه مسدد بن مسرهد . ومعروف الكرخي (ت٢٠٠هـ) . و الوزير يحيى بن خاقان . وصاحب كتاب «الأموال» ابن سلام ، الذي ، حسب علمي ، لم يسند حديثاً من أحاديث كتابه إلى أحمد بن حنبل ، وهناك مَنْ عادله في الحديث والفقه بالشافعي وابن حنبل[١٣٧] .

---

(١٣٣) ابن الجوزي ، المنتظم ١٣ ص٣٥٢ .

(١٣٤) ابن الفراء ، طبقات الحنابلة ، ص : ٤٨ ، ٧٠ ، ٨٢ .

(١٣٥) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(١٣٦) المصدر نفسه .

(١٣٧) ابن سلام ، مقدمة كتاب الأموال .

ربما الحيرة تكون أكبر إذا عُدّ علي بن الجهم (ت ٢٤٨هـ) من طبقات الحنابلة؟ فهو الشاعر المطبوع، الذي تغزل ومدح ووصف وتكسب، وجالس المغنين والجواري، فما له والحنابلة الذين وصفهم أحد شيوخهم، ابن عقيل الحنبلي (ت٥١٣ هـ) : «هم قوم خُشن، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة، وغلظت طباعهم عن المداخلة. غلب عليهم الجد، وقل عندهم الهزل. وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة. وفزعوا عن الآراء إلى الروايات. وتمسكوا بالظاهر تحرجاً عن التأويل. وغلبت الأعمال الصالحة. فلم يدققوا في العلوم الغامضة، بل دققوا بالورع، وأخذوا ما ظهر من العلوم»[١٣٨]. ولو كان ابن الجهم حنبلياً بهذه الطباع، هل استطاع أن يقول قصيدته «الرصافية»، ومنها البيتان المشهوران :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
سلوتُ ولكن زدن جمراً على جمر[١٣٩]

ولعل جزالة هذه القصيدة جعلت البعض يختلق لابن جهم مكاناً بالبادية، رغم أنه من محلة الدجيل ببغداد. وأبيات شعر بدوية في مدح المتوكل شائعة بين الناس، تحولت بعد الحياة بالمدينة إلى قول «الرصافية»، ومنها الأبيات التالية :

أنت كالكلب في حفاظك للودّ وكالتيس في قِتراع الخطوب
أنت كالدلّو لا عدمناك دلواً من كبار الدلّا كثير الذنوب[١٤٠]

لعب علي بن الجهم دوراً في التراجع الفكري الذي تبناه الخليفة جعفر المتوكل. وربما لا يقل عن دور ثمامة بن أشرس في مثول مقالات الاعتزال في عهد المأمون. ولكن بالاتجاه المعاكس. فالروايات أفادت بتوسطه بين المتوكل وابن حنبل بتكليف من الأول[١٤١]. وتدخل علي بن الجهم ليهديء من غضب الخليفة على الإمام، بعد أن أخبره صاحب البريد عدم احترامه لهدية الخليفة، قائلاً له : «تصدق بالدراهم من يومه، حتى تصدق بالكيس». قال ابن الجهم : «يا أمير المؤمنين قد تصدق بها، وعلم الناس أنه قد قبل منك، وما يصنع أحمد بالمال؟ وإنما قوته رغيف. قال : فقال لي : صدقت يا علي»[١٤٢]. كان الأكثر عداوة لعلي بن

---

(١٣٨) ابن رجب، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ١ ص ١٨٤.
(١٣٩) ديوان علي بن الجهم، ص٢٥٢.
(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١١٧.
(١٤١) ابن الجوزي، مناقب ابن حنبل، ص ٤٤٣.
(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٦.

أبي طالب والشيعة والمعتزلة ، فهو القائل :

تضافرت الرَّوافض والنَّصارى وأهل الاعتزال على هجائي

وعابوني وما ذنبي إليهم سوى بصري بأولاد الزناء[١٤٣]

تعذر ابن الجهم في تشدده ضد العلويين بقصة بيع الإمام علي بن أبي طالب أجداده لمَصْقَلة بن هبيرة (قُتل ٥٠هـ)[١٤٤] ، يوم ارتدوا مع مَنْ أرتد من مسلمي البحرين . وظلوا على ردتهم حتى أيامه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ومن أصر على رأيه سباه واسترقه ، فاشتراهم مَصْقَلَة بن هبيرة ، ثم أعتقهم ، فدخلوا في جيش معاوية بن أبي سفيان . ونجده يفصح عن هذا العذر حينما سُئل عن سبب طعنه بآل علي ، فأجاب «أتعني بيعة أهلي من مقصلة بن هبيرة»[١٤٥] . إن صحت هذه الرواية فهي دليل على أن علي بن أبي طالب لم يقتل المرتد عن الإسلام ، مثلما فعلها خلفاء وولاة لاحقون .

لقد تمادى ابن الجهم في كراهيته للإمام علي حتى ضاق من اسمه ، قال المسعودي : «كان يلعن أباه ، فسئُل عن ذلك وبما استحق اللعن منه ، فقال : بتسميته إياي علياً»[١٤٦] .
أنشد البحتري وهو من الشعراء المحسوبين على التشيع ، متعرضاً بابن الجهم :

عَلام هجوت مجتهداً علياً
بما لفقت من كذب وزور
وما رغثاؤك الجهم بن بدر
من الأقمار ثم ولا البدور
أما لك في أستك الوجعاء شغلٌ
يكُفُّك عن أذى أهل القبور[١٤٧]

لا ندري ، كم عدد حنابلة العراق اليوم ، فالمعروف أن هذا المذهب انحسر ، ولم يبق منه بالعراق سوى بعض أطراف البصرة ، وقضاء الزبير ، كامتداد لوجوده بدول الخليج العربي المحاذية للعراق ، ومنها المملكة العربية السعودية والكويت .

---

(١٤٣) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص٣٢٠ .
(١٤٤) ومصقلة هذا كان من أصحاب علي بن أبي طالب ، ثم انقلب إلى معاوية بن أبي سفيان ، وقد ولاه طبرستان على أن يفتحها ، لكنه أهلها قتلوه قبل أن يتمكن من بلادهم .
(١٤٥) الأصفهاني ، الأغاني ٩ ص١٠١ .
(١٤٦) المسعودي ، مروج الذهب ٣ ص ١٥٩ .
(١٤٧) الأصفهاني ، الأغاني ،١٠ ص ٢١٧ ، الحموي ، تجريد الأغاني ٣ ص١١٩٥ .

لقد حدث أن أجهض أهل البصرة محاولة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لنشر الحنبلية ثم الوهابية بالعراق . مع أن للمذهب صوتاً في العهد العثماني ، ضمن المذاهب السنّية الأربعة . اتضح ذلك من توقيعات الفتوى التي كانت تصدر بإجماع هذه المذاهب ، ومنها فتاوى القتل ضد الأيزيديين في شمال العراق .

الفصل التاسع

الكـاكائــية

جبال العراق، وأي بيئة جبلية محاطة مثلها بتاريخ ديني متنوع، تظهر فيها بشكل طبيعي غرائب وعجائب. اخصب الأمكنة لظهور الدراويش، والأنسب للاحتفاظ بالعادات والطقوس ذات الروحانية الخالصة. فلا ينال منها بسهولة دعاة التحديث أو السلفية. لذا تظل تحتفظ طويلاً بأعراف سرية لا تظهرها إلا لصخرة الجبل، وما يتسع له الوادي والكهف. وإن لاذ الصابئة المندائيون واليهود والمسيحيون بالآيات الثلاث التي وردت في السور القرآنية: «البقرة» و«المائدة» و«الحج»، فما الذي حفظ الأيزيديين ودراويش الجبال من الهلاك غير البيئة العصية على الاختراق وسرية الطقوس! ولا سيما أن فرق وطوائف عراقية عديدة اختفت من الوجود، لأنها لا تمتلك الجبل ولا الكهف. اختفت القلم حاجية، وديارهم بمندلي شرق بغداد، والنصيرية من بغداد وعانة، ولم يبق منهم هناك غير بيت أو بيتين. ومن الطوائف التي خالفت أُصولها الإسلامية، وأسندت ظهرها إلى الجبل وجعلت وجودها من وجوده هي الطائفة الكاكائية أو أهل الحق.

فمَنْ هم الكاكائيون، وما هي أُصول مذهبهم؟ وهل تدل التسمية على بقايا جماعة الفتوة وتنظيمها الاجتماعي القديم، الذي شجعه خلفاء عباسيون متأخرون؟ ثم تحولوا إلى فرقة دينية أم هم قبيلة كردية مسلمة تأثرت بالأديان الأخرى، فظهرت لديها تعاليم مزدوجة، وعرفوا في مناطق أخرى بأهل الحق؟

أسئلة كثيرة حاول الاجابة عليها عدد من المؤرخين والمهتمين، كل حسب معلوماته وقناعاته. كان المشترك بين أغلبهم أن مصدر معلوماتهم وتكهناتهم شخص تخلى عن طائفته الكاكائية، فتحدث عن قومه رغبة في تأكيد انتمائه الجديد. وهي الطريقة نفسها التي بحث فيها وجود كيان مذهبي أو طائفي مختلق عُرف بالشبك، حسب ما سيرد في الفصل القادم.

وللأسف أغرت هذه الطريقة رغم سطحيتها وسذاجتها عدداً من المهتمين العراقيين . وعلى الباحث الجاد الحذر من تناقضات المعلومات و الاستنتاجات المستخلصة ، إلى جانب دوافع البعض المذهبية والدينية . غير أن هؤلاء ، أصابوا أو أخطأوا ، كانوا من هواة الكتابة في موضوعات غريبة ومشوقة ، لم تكن معروفة آنذاك بعد . فتحوا بهاطريقاً لدراسة تاريخ طالما ظل مكتوماً بين وديان وجبال كردستان العراق ، سواء كانت الكاكائية أو مذاهب وأديان هذه المنطقة المنيعة عامة .

يُفاجأ الباحث في تاريخ الكاكائية بكثرة الروايات المتناقضة ، فالغالب منها ، كما ذكرنا ، ورد عن طريق السماع . ساعد حذر الكاكائيين من الغرباء أن ينقلوا للمؤرخ ، الذي جاب الجبال بحثاً عن تاريخهم وحقيقتهم ، حكايات غامضة ، يلعب فيها الرمز دوراً كبيراً ، وما أن يحصل على معلومة حتى تأتي أخرى تلغيها . عموماً ، أن البحث في الكاكائية ، أو غيرها من مذاهب أهل الجبال يستدعي الحَيرة . فالمصادر كما بينّا حطب ليل ، جمعت من خارج على قومه أو ملته ، أو من مذكرات موظفي الدولة بالمنطقة ، أو من خواطر رحالة أجنبيٍ . لكن المقبول من الأراء ، حسب المصادر التي بين أيدينا ، أن الكاكائية مسلمون ، مالوا إلى الغلو في محبة الإمام علي بن أبي طالب ، فعدوا من (العلي إلهيين) ، وتأثروا بالأديان المحيطة بهم ، فشكلوا فرقة خاصة في نظرتها إلى الوجود ، وفي طقوسها من الصعب إعتبارها واحدة من المذاهب الإسلامية ، أو مذهباً من ديانة أخرى .

الكاكا أو الفتى

وجد بعض الباحثين في تاريخ الكاكائية صلة بين الكلمة الكردية كاكا (الأخ الأكبر) وتنظيم الفتوة ، المعروفة بالأخية . وقد شجعها الخليفة الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) ، وجعلها تحت إشرافه العام (٦٠٤هـ) ، بعد أن جعل من نفسه الفتى أو الأخ الأول . ثم تقلد رئاستها خلفاؤه . فيذكر أن حفيده المستنصر (ت٦٤٠هـ) لبس سراويل الفتوة عند مرقد الإمام علي بن أبي طالب بالنجف . وبهذا المعنى قصد المستشرق الروسي (فلاديمير مينورسكي) الكاكائية فيما قاله حول العلي إلهية : «من طريف عاداتهم المؤاخاة»[1] . والأخ أو الفتى كان صاحب هيمنة وشهامة ونخوة ، يردع الظلم والاعتداء عن أبناء محلته أو طائفته .

كان علي بن أبي طالب عند الأخيين ، وبالتالي الكاكائيين ، مثال الفتى أو الكاكا الأول . وكان هذا في كل مراحل تطور الفتوة ، وتاريخياً لها صلة بالقول المشهور «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي» . وتاريخ هذه العبارة يعود إلى معركة أُحد ، السنة الثالثة للهجرة ،

---

(١) مينورسكي ، الأكراد ملاحظات وانطباعات ، ص٨١ .

يوم انتصرت قريش على المسلمين ، وكان خالد بن الوليد ، الذي لقبه الرسول ، في ما بعد ، بسيف الله ، على ميمنة المشركين . وحدث أن جماعة من قريش هاجمت الرسول وكادت تقتله ، فقال لعلي : «أحمل عليهم» ، ففرقهم وردهم . وتكرر المشهد مرتين ، فقال جبرائيل : «يا رسول الله هذه المؤاخاة! فقال الرسول : «إنه مني وأنا منه» ، فتمنى جبرائيل أن يكون منهما ، فسمع صوت يقول : «لا سيف إلا ذو الفقار (غنيمة من غنائم إحدى المعارك مع قريش) ، ولافتى إلا علي»[٢] . كانت لحظات حاسمة في حياته وحياة الدعوة الإسلامية . وحسب ما جاء في السيرة أن ذي الفقار هو واحد من سيوف النبي محمد ، غنمه في معركة بدر من العاص بن وائل بعد قتله ، وحمله علي في معركة أُحد . ويظهر في الصورة المتخيلة أنه مشقوق من بدايته ، وعرف بذي الفقار لوجود فقرات «مثل فقرات الظهر» في بنيته[٣] .

جاء في مقدمة منشور الفتوة ، الذي عممه الخليفة الناصر لدين الله الآتي : «من المعلوم الذي لا يتبارى في صحته ، ولا يرتاب في براهينه وأدلته ، أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو أصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها . وعنه تروى محاسنها وآدابها . ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، وإليه تنتسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والإخوان . وأنه كان عليه السلام ، مع كمال فتوته و وفور رجاحته ، يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها ، ويستوفيها من أصناف الحسبات (طبقات الناس) على تباين جناياتها ومللها ونحلها ومذاهبها»[٤] .

إضافة إلى ما ذكره مينورسكي ، من علاقة الإخاء بين العلي إلهيين ، فتح ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) الباب واسعاً أمام المؤرخين في القول بالتاريخ المشترك بين الفتوة والكاكائية . ذلك في روايته أو مشاهدته لجماعة الفتيان في بلاد الأناضول (تركيا حالياً) ، وتسميتهم بالأخية . وبالتالي شيوعها في المناطق الكردية بالكاكائية ، وأخلاقهم ومزاياهم التي أشارت إلى أنهم أهل الفتوة المقصودة ، من دون أن يشير إلى علاقة ما بعلي بن أبي طالب . قال ابن بطوطة : «واحد الأخية أخي ، على لفظ الأخ ، إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس . وأسرع إلى إطعام الطعام ، وقضاء الحوائج . والأخذ على أيدي الظلمة ، وقتل الشُرط ومن لحق بهم من أهل الشرّ . والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشّبان الأغراب ، والمتجردين ويقدّمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضاً . . .»[٥] .

---

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٢ ص١٥٣ ، السنة ٣هـ .

(٣) الرصافي ، كتاب السيرة المحمدية ، ص٣٤٢

(٤) الشيبي ، الصلة بين التصوف والتشيع ، ص٥٣٤ ، عن ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ص٢٢٣ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة بن بطوطة ، ص٢٨٥ - ٢٨٧ .

بيد أن ما يعترض التسليم في العلاقة التاريخية بين الفتوة العربية والكاكائية الكردية أن الأولى كانت تنظيماً شبابياً اجتماعياً عفوياً في أغلب البلدان ، يلعب فيه الفتى البطل دوراً محورياً ويبدو متمرداً ، ويظهر القوة والرجولة تبعاً لمذهب الفتيان ، مما يحتم عليه الذود عن أبناء الحي أو المحلة ومقارعة فتيان الأحياء الأخرى . وهذا خلاف ما وصفه مصطفى جواد بقوله : «مذهب حيوي ديني سلك بعد ظهور الإسلام لتهذيب الأخلاق ، ونعش النفوس وبث العبقرية»[٦] . وبعد حوالى ثلاثين عاماً من مقاله السابق عاد جواد ووصف الفتوة بقوله : «مذهب إسلامي ديني اجتماعي ، قد تطور كسائر المذاهب الدينية والاجتماعية في الإسلام»[٧] .

إن الفتوة أو الأخية ليست مذهباً مثلما هي الكاكائية . لأنها تخص فئة اجتماعية معينة ، هي فئة الفتيان الشباب ، فلا روابط عقائدية بينها ، ومنها فتوة شيعية وأخرى سُنِّية . قال الرحالة ابن جبير ما يفيد ويوكد تبعية الفتوة للمذاهب : «سلط الله على هذه الرافضة (الفتوة الشيعية وفيها علي بن أبي طالب الفتى الأول) طائفة تعرف بالنُّبوية ، سُنِّيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها ، وكلٌ من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه ، منها ما يحرمونه (يلبسونه) السراويل ، فيلحقونه بهم . ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل بهم . لهم في ذلك مذاهب عجيبة . وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برٍّ قسمه ، وهم يقتّلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم ، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف»[٨] .

ظهرت الفتوة السُنِّية بالشام ، مقابل الفتوة العلوية أو الشيعية بالعراق ، وكأن المواجهة بينهما عودة بالتاريخ إلى الصراع بين الشام الأموي بزعامة معاوية والعراق العلوي بزعامة علي بن أبي طالب . فالفتيان العراقيون كانوا «يعقدون اجتماعهم في مسجد براثا ، بغربي بغداد ، وهو مسجد بنيَ على رواية أن الإمام علي بن أبي طالب لما خرج لقتال الخوارج صلى في موضعه ، ودخل حماماً في قرية براثا ، ولذلك أصبح من مساجد الشيعة ، وكان مسدود الباب مهجوراً ، ففتح ابن الرسولِي (رئيس الفتيان) بابه ، وقلع الباب العتيق ، ونصب عليه باباً جديداً ، ورتب في المسجد مَن يراعيه»[٩] . هذا ما يتعلق بالأخوة ، ولنأت إلى الكاكائية ، فهل تعني الفتوة أو الأخية الكردية؟

فسر الأب الكرملي (ت ١٩٤٧) الكاكائية ، كمصطلح وكيان أنها : «لفظة كاكائي ليست اسم قبيلة ، أو أُمّة أو قوم ، أو بلد ، إنما هي لفظة كردية فارسية الأصل ، معناها : الأخ ، فقالوا في واحدها العائد إلى هذه الجمعية السرية : كاكايا ، على الطريقة الآرامية .

---

(٦) جواد ، الفتوة والفتيان قديماً ، مجلة لغة العرب ، أبريل ١٩٣٠ .

(٧) جواد ، الفتوة وأطوارها ، مجلة المجمع العلمي ، المجلد الخامس ، ١٩٥٨ .

(٨) ابن جبير ، رحلة بن جبير ، ص٢٨٠ .

(٩) جواد ، الفتوة وأطوارها ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الخامس ، ١٩٥٨ .

ومنهم منْ يلفظها كاكائي ، مفرداً وجمعاً . فانظر كيف جمعوا في لفظة واحدة الفارسية والآرامية ، وهم يريدون بذلك الأخ في المذهب»[١٠] . والكرملي ، حسب النص المذكور ، لا يعني أن للكاكائية صلةً بالفتوة أو الأخية المقصودة ، مثلما لا يمكن ربط تسمية أحزاب إخوان المسلمين بالأخية ، وهذا ينسحب أيضاً على التنظيمات والأحزاب التي يتعامل أفرادها بكلمة أخ ، إشارةً إلى القرب وعمق العلاقة .

نحلة دينية

ورد في تقرير الاستخبارات البريطانية ، أن «الكاكائية بالأصل طريقة صوفية ، دروشة ، سواء من ناحية التنظيم أو المنشأ التاريخي»[١١] . ومؤسسها ، حسب التقرير ، هو سلطان إسحاق بن عيسى البرزنجي[١٢] . جاء ذلك مطابقاً لما قاله مينورسكي حول العلي إلهية : «وأما كشف الأسرار ، فلم يتم في عهد القول بإلوهية علي ، وإنما بعده ، فقد حدث في عصر بابا خوشين والسلطان إسحق . ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الألوهية - في نظرهم - قد رضخت إلى رئيس الملائكة التي كانت تقترن بها»[١٣] . ورغم البعد الأيزيدي الذي أضافه مينورسكي على العلي إلهية . وبالتالي على الكاكائية ، والمتمثل برئيس الملائكة إلا أن ريادة إسحق في بلورة فرقة دينية ، عرفت بالكاكائية ، جديرة بالاهتمام .

أما بابا خوشين ، حسب معلومات الاستخبارات البريطانية ، فهو صاحب نحلة دينية قديمة كانت مزدهرة . تأسست عليها الكاكائية ، بواسطة السلطان إسحق ، الذي «جعل الزعامة وراثية في أسرته وحدها»[١٤] . وينقل عباس العزاوي ، عن كاكائيين شفاهة ، أنهم عدّوا إسحق أول ظهور بعد علي بن أبي طالب[١٥] . بمعنى أنه المؤسس للكاكائية . وما زال مرقد إسحق ، حسب العزاوي ، مزاراً كاكائياً في جبل هاورامان[١٦] . قال مينورسكي بعد رحلته العام ١٩١٤ في المنطقة : «استطعت أن أزور قبلة مقدسة للعلي إلهيين ، قرية بيرديور في هاورامان ، وهي قابعة وراء قمم وصخور وعرة ، وتعتبر هذه البقعة من الأماكن الرائعة الجميلة الخلابة من حيث المناظر الطبيعية»[١٧] .

---

(١٠) الكاكائية ، مجلة لغة العرب ، نيسان ١٩٢٨ .

(١١) خورشيد ، العشائر الكردية ، ص٨٩.

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) مينورسكي ، الأكراد ملاحظات وانطباعات ، ص٨١ .

(١٤) خورشيد ، العشائر الكردية ، ص٨٩.

(١٥) العزاوي ، الكاكائية في التاريخ ، ص٤١ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) مينورسكي ، الأكراد ملاحظات وانطباعات ، ص ٨٤.

تبقى لفظة أخ، التي عُرفت بها الكاكائية، غامضة بين الكاكائيين. لذا شاعت حولها حكاية فسروا فيها سبب التسمية، توكد فضل السلطان إسحق أو أسرته في تأسيس الفرقة. جاء في الحكاية: «أن أحد رؤسائها المؤسسين لها كان من السادة البرزنجية في أنحاء السليمانية، فبنى تكية في قرية برزنجة، وضعت لسقفها العمد. ولكنها قصرت عن جدار البناء، فقال لأخيه: مدها أيها الأخ، كاكا. ومن ثم مدَّها فطال الخشب كرامةً، وصاروا يدعون بالكاكائية لهذه الحادثة»[18]. لكن عباس العزاوي، الذي يحاول ربط تاريخ الكاكائية بالفتوة، نفي هذه الحكاية الشعبية المتداولة، والمستخلصة من واقع الحال مع إضافة خرافية. قال محاولاً تثبيت رأيه بدون أدلة كافية: «إنها الأخية، الطريقة المعروفة في بلادنا، وفي إيران، وفي الترك، وتنسب إلى أخي، وأصلها أن كل واحد من أرباب هذه الطريقة يدعو الآخر من جماعته بأخي، بالإضافة إلى ياء المتكلم. ويعنون أن أصحاب هذه الطريقة أخوة، وأصلها التمسك بآية المؤمنون أخوة، والسير بمقتضى هذه الطريقة. وعلى كلٍ تستند إلى أصل أنها طريقة الفتوة، يتصلون لها»[19].

خلاف ما تقدم تبدو الفتوة أو الأخية ليست طريقة دينية، بقدر كونها تنظيماً اجتماعياً عفوياً، إلتفت الخلفاء إلى هيمنتها وسريانها بين شريحة الشباب، فأسرعوا إلى الإشراف على إعدادها كتنظيم رسمي. ولها فوائد جمة. لكن العزاوي، بعد هذا الإصرار، يبتعد عن رأيه السابق وينسب الكاكائية إلى طريقة صوفية، هي السهروردية. ودليله على ذلك وجود قبر إبراهيم بن السيد أحمد، جد رؤوساء الكاكائية بمقبرة الشيخ عمر السهروردي ببغداد. قال: «وهذا يشير إلى العلاقة بهذه الطريقة»[20]. وبناءً على ما توصل إليه من علاقة بالصوفية أخرج العزاوي الكاكائية من العلي إلهية. وبهذا تخلى أيضاً عن إشارته إلى وجود أدلة تؤكد العلاقة بين الكاكائية والفتوة أو الأخية. ومنها وجود محلة بكركوك تدعى بأخي حسين، أو وجود أشخاص يدعون بأخي فلان، أو بكك، مثل مبارز الدين كك، وحسام الدين كك[21]. غير أن كلمة كاكا، كما سلفت الإشارة، تعني الأخ الأكبر، الذي له اعتبار بين أفراد الأسرة، يتميز عن سائر إخوانه[22]. وبالتالي تصبح كلمة أخ كلمة عامة، غير ملزمة لملة أو طريقة.

قال الكرملي، مستنتجاً من شهادة كاكائي صبأ عن ملته، تعرف عليه العام ١٨٩٦

---

(١٨) العزاوي، الكاكائية في التاريخ، ص ٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٤١.

(٢١) المصدر نفسه، ص٥.

(٢٢) الكاكائية، مجلة لغة العرب، نيسان ١٩٢٨.

ببغداد، يدعى بسعو بن جمو، أن الكاكائية: «طائفة خفية المعتقد والمذهب، مبثوثة في كركوك وأنحائها. ولهذا لم يذكر وجودهم أحد من الكتبة والمؤرخين. لأنهم يخفون رأيهم الديني على كل إنسان، ويتظاهرون بالإسلام في موضع يكون أكثر سكانه مسلمين. ويتظاهرون بالنصرانية، في المواطن التي يكثر فيها المسيحيون»[٢٣]. ويتظاهرون بالإسلام في مواطن الإسلام مع أنهم لا يعتقدون بنبوة محمد، ولا بالصحابة وأئمة المسلمين، ولا يؤمنون بالقرآن[٢٤]. واصل الكرملي كشف عقائد الكاكائية القريبة إلى المسيحية ذاكراً عقيدتهم بالإله الواحد، الذي يظهر في ثلاثة مظاهر، كبير ووسط وصغير. وأن روح القدس خلق مريم العذراء بواسطة جبرائيل. ويساعد هؤلاء أربعة وزراء، وللوزراء مسيطرون عددهم سبعة. وللمسيطرين منفذون وعددهم أثنا عشر. «اتفقوا جميعاً على أن يرسلوا إلى العالم الأدنى رجلاً زودوه بجميع القوى العقلية والجسدية، وهو موسى، وهم يعظمونه أشد التعظيم، ويحلفون به، ويضعونه فوق جميع الأنبياء، ويعتقدون بأنه المسيح»[٢٥].

أشارت تلك المعتقدات - حسب المرجع الكاكائي الذي يدعي الكرملي أنه أثبت صحتها بمقابلة كاكائي ثان وثالث - إلى أن الكاكائيين ليسوا من العلي إلهيين، ولا حضور لعلي بن أبي طالب، وبل ولا حضور إسلامي بينهم. كما أنهم على الوجه العام لايشكلون ديناً قائماً بذاته. على الرغم من أن المصدر وصفها بالفرقة الدينية، التي ظهرت بتأثيرات مزدكية ونصرانية ويهودية وإسلامية[٢٦]. خلاصة القول لا وجود لدين أو مذهب خالص في منطقة وصفت بمتحف للأديان والعقائد. «وهذا الاختلاف يعود إلى طبيعة البلاد، فإنها جبلية، وقد تناوب عليها أصحاب الأديان القديمة والعناصر المتباينة. وقد أبقى كل عنصر وكل معتقد، وكل مذهب شيئاً من بقاياها... وفي كل من تلك الأجيال بقايا قد اختلط بعضها ببعض حتى أنه يستحيل على كل عاقل الوصول إلى قرار الحقيقة، والذي يحاول البلوغ إليه يطلب المحال»[٢٧]. وليس مستبعداً أن يكون ميل الكاكائية إلى المسيحية، بالطقوس والمحرمات، ادعاءً ادعاه الكاكائيون الثلاثة أمام رجل دين مسيحي. لقد وردت إشارة الكرملي، قبل قليل، إلى تلون الكاكائيين حسب الظروف، فهم مسلمون أمام المسلمين ومسيحيون أمام المسيحيين.

لقد نفى مينورسكي، كشاهد عيان، تأثر ذلك المذهب، الذي يذكره ضمناً مع العلي

---

(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) المصدر نفسه.
(٢٦) المصدر نفسه.
(٢٧) المصدر نفسه.

إلهية ، بالمسيحية . وأنه «بجميع أبعاده واتجاهاته العامة لا يجتمع مع المسيحية في شيء»[28] . وخلاف ما ذكر الكرملي من أن الكاكائيين «اختاروا النصرانية على كل دين سواه»[29] أكد عباس العزاوي ، أثناء تجواله بالمنطقة ، إسلامية عقائد الكاكائية ، مع وجود الغلو فيها ، على حد زعمه ، المتصل بالحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ) . وأنهم يحرمون الخمر . ويحترمون يومي الاثنين والجمعة . ويقرأون الأدعية الخاصة فيهم . ويقرون الطلاق . ولكن برضا الرجل والمرأة ، فهو عندهم كعقد الزواج . لا يجوز إلا برضاء الاثنين . لكنهم لا يبيحون تعدد الزوجات . وأن لا يتزوج الشيخ ابنة مريده ، ولا يتزوج المريد ابنة شيخه[30] . خلا ذلك ردّ رئيس الكاكائية على سؤال عباس العزاوي حول حبهم لعلي ، بسؤال أحرج الأخير ، قال : «وأنتم هل تكرهونه؟ ثم أردف قائلاً حول ما يشاع عنهم : «ليس لنا من هذا النوع أكثر من أننا مسلمون ، نؤمن بالقرآن»[31] .

أهل الحق

وردت عقيدة أهل الحق ، وما يتعلق بها من الأسماء متداخلة مع الكاكائية . لذا يصعب الفرز التام بين المذاهب التي تبنت فكرة العلي إلهية ، مع أن الجميع يرفضون تسميتهم بهذا الاسم . وقد أفاد مترجم كتاب «الكرد دراسة سوسيولوجية وتاريخية» ، في تأكيد هذا التداخل الذي يشير إلى كيان واحد بتسميتين . قال : «ففي كردستان العراق ، وفي مناطق متباعدة منها يوجد أتباع طائفة أهل الحق ، الذين يسمون هنا كاكه يي (كاكائية) ، ربما نسبة إلى مرشد لهم قديم كان يحمل في اسمه كلمة كاكه ، التي تعني في اللغة الكردية الأخ الأكبر سناً . وهناك كثير من المرشدين الروحيين في تاريخ أهل الحق مَنْ توجد هذه الكلمة ضمن اسمهم ، أو إشارة إلى مبدأ المؤاخاة التي تجري بين أتباع هذه الطائفة»[32] .

نجد من العبث أن نبحث في الفوارق بين أهل الحق والكاكائية ، أو أي طائفة أخرى من التي سماها الكرملي مثل الصارلية ، فهي مسميات لمذهب واحد . وربما افترقت مقالاتها من مكان آخر ولكن الجوهر واحد . وهناك مَنْ وجد في كتابيهما «سرانجام» ، و «فرقان الأخبار» مذهباً فلسفياً لهم . مع الاعتراف أن هذا المذهب لا يتعدى الاعتقاد بمجموعة من

---

(٢٨) مينورسكي ، الأكراد ملاحظات وانطباعات ، ص٨٢ .

(٢٩) لغة العرب ، نيسان ١٩٢٨ .

(٣٠) العزاوي ، الكاكائية في التاريخ ، ص٧٠ - ٧٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص٢٩ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ الهامش .

القصص البسيطة التي وردت في الكتاب الأول. وجوهر فلسفتهم، إن كانت هناك فلسفة: «أن الإله يتجسد في صور متعاقبة عددها سبع، وهم يشبهون تجسيد الإله بثياب يلبسها. فالتجسيد معناه عندهم الظهور أو الحلول في لباس... والإله يظهر في كل مرة ووراءه أربعة أو خمسة من الملائكة، وهو يؤلف معهم فئة متحدة»[33]. وأطوار التجسيد الإلهي عندهم، حسب كتاب سرانجام هي: «كان الإله في الأزل داخل درة، ثم تجسد لأول مرة فظهر في شخص خاوندكار أي خالق العالم. وتجسد للمرة الثانية في شخص علي. ومن مبدأ المرتبة الثالثة يظهر الابتكار في قول أهل الحق في التجسيد، ويصبح مذهباً خاصاً بهم»[34]. ماثل النص الكاكائي النص الأيزيدي الآتي: «في البداية خلق الله درة البيضاء (هكذا وردت) من سره العزيز، وخلق طيراً اسمه انفخر. وجعل الدرة فوق ظهره، وسكن عليها أربعين ألف سنة»[35]. غير أن ديانات عديدة تحدثت عن الماء، ووحدة الله والظلمة، أو البيضة في الماء الحي، التي هي الدرة بتمامها[36].

لو جمعنا ما نقله الإخباريون، والمؤرخون المسلمون، عن النبي محمد ثم عن كعب الأحبار حول خلق الكون والإنسان ووجود الله قبل كل شيء وحيداً مفكراً في ذاته، بأحاديث خارج ما جاء فيه القرآن، لظهرت لنا عشرات الفرق والمذاهب. على شاكلة أهل الحق. وما نود قوله: إن أهل الحق، رغم ماورد في كتابيهما، طائفة إسلامية، لهم عاداتهم وطقوسهم الخاصة، ويقولون بالتناسخ في العالم الآخر. ويهتمون بصلاة الجماعة، ويكثر بينهم الدراويش، ويمارسون الذكر الصوفي بطريقتهم... وهم بهذه التسمية (أهل الحق) مذهب ببلاد فارس، وحصة العراق منه ما يتواجد «بين قبائل الأكراد والتركمان في أقليم كركوك والسليمانية. وقد يكون بعضهم في الموصل»[37]. وما هؤلاء إلا كاكائية! لكن هذا لا يعني أن هذا المذهب لم يغادر تلك المناطق إلى مناطق أخرى من جبال العراق ووديانه.

انتهي إلى ما ابتدأت به، وهو القول بصعوبة البحث في مذهب لم تنشر تعاليمه، ولم يسمح له البوح بها، ولم يحضر غير الرأي الآخر فيه، وكثرت التقولات حوله، حتى كاد يصدقها أهلوه. لكن حب المعرفة والإطلاع دفع البعض إلى تحبير المقالات والكتب المرتبكة، ففي كتاب واحد وجدنا الكاكائيين ذوي أصول صوفية وفتوة وعلي إلهية. ولقلة معلوماته

---

(٣٣) دائرة المعارف الإسلامية، ٥ ص١٤٨، محمد مكري، ولادة الكون عند الأكراد أصحاب مذهب أهل الحق «مجلة أصوات، العدد ١٢».

(٣٤) دائرة المعارف الإسلامية، ٥ ص١٤٨.

(٣٥) جول، اليزيدية قديماً وحديثاً، ص١٠٠.

(٣٦) النديم، الفهرست، مقالة الرشيين، ومقالة الأرودجيين، ص: ٢٩٢ - ٤٠٣.

(٣٧) دائرة المعارف الإسلامية ٥ ص١٥٤.

حول الكاكائية أو أهل الحق رفد العزاوي كتابه «الكاكائية في التاريخ» بكتابة تاريخ الفتوة والأخية ، والتكايا . ولو ثُقف هذا الكتاب لفضل المفيد منه عشرة أوراق لا أكثر . هذا مافعله أحمد حامد الصراف في كتاب «الشبك» إذ سمنه بالملاحق وبمقالات المستشرق مينورسكي والأب الكرملي . إنها حيرة المصادر في البحث عن أُصول مذاهب محرمة ، ومعاناة الباحث في مذهب أو فرقةأخرى ، اختلطت مقالاتها وطقوسها بمقالات وطقوس الكاكائية ، والفرق الشيعية المغالية في المنطقة عموماً . فمن الصعب بمكان أن تجد وضوحاً في الروايات ، التي ورد أغلبها من شهود عيان ، لسبب أن أهل تلك الفرق عاشوا واعتادوا الباطنية في تعاملهم مع الآخرين .

فعن دراسة للمستشرقين الروسيين جوكوفسكي ومينورسكي ينقل باسلي نيكيتين عن أهل الحق وعلاقتهم بالإمام علي بن أبي طالب . وبالتالي إلى مدى تفهم مذهبهم كمذهب علي إلهي ، هذا مع أن مقالتهم الرئيسة «ليست محصورة في تأليه الخليفة الراشد الرابع ، فبمقتضى هذا المذهب تجسد الله سبعة أجسام ، كان علي بن أبي طالب واحداً منها»[٣٨] . وعقيدة أهل الحق «أن أربعة ملائكة يمثل كل واحد منهم واحدة من الصفات الملك وتية لله يرافقون في كل مرة هذا الإله المتجسد . . . تحت إشراف أقوى مصاحبيه الأربعة . وأن إيحاء الأسرار لا يعود إلى عهد علي . بل أنه حصل عندما ظهر باوه خوشين وسولتان إيساق ، السلطان إسحاق»[٣٩] . وأهل الحق ، ومعنى التسمية : «أهل الله»[٤٠] . وهي «طائفة لا تجمعهم وحدة في العقيدة ، بل أقرب أن يمثلوا حركات كثيرة يتصل بعضها ببعض وتنتظم في نوع من الاتحاد»[٤١] .

كتب ومزارات

أهم كتب الكاكائية ، المشتركة مع أهل الحق والعلي إلهيين ، «خطبة بيان» المنسوبة إلى علي بن أبي طالب . قال حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) : «منسوبة إلى علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، وهي سبعون كلمة ، أولها : الحمد لله بديع السموات وفاطرها ألخ ، قيل إنها من المفتريات ، ولها شرح بالتركية في مجلد»[٤٢] . قال عنها أغا بزرك الطهراني :

(٣٨) نيكيتين ، الكُرد دراسة سوسيولوجية وتاريخية ، ص٣٧٢ .

(٣٩) المصدر نفسه .

(٤٠) دائرة المعارف الإسلامية ٥ ص١٤٥ .

(٤١) المصدر نفسه .

(٤٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ،١ ص٥٤٩ .

«من الخطب المشهورة نسبتها إلى أمير المؤمنين (ع) ، ولها نسخ مختلفة بالزيادة والنقصان . . . لم يذكرها الرضي في نهج البلاغة . وكذا لم يذكرها ابن شهر آشوب في المناقب ، في عداد خطبه المشهورة»[٤٣] . ومن كتبهم أيضاً . «جاودان عرفي» ، وهو كتاب الطريقة الحروفية . وكتاب «حياة» و «التوحيد» لسلمان أفندي الكاتبي . و«سرانجام» ، الذي طبعه مينورسكي باسم «سه ره نجام» قبل ١٩١٤ ، وكان مدوناً بالكردية[٤٤] . يضاف إلى هذه الكتب دواوين شعرية ، تتلى كأدعية وابتهالات .

يشترك في مزاراتهم أغلب العلي إلهيين بمَنْ فيهم أهل الحق هي : مزار سلطان إسحق في جبل هورامان . ومزار سيد إبراهيم بين مقبرة الشيخ عمر والباب الأوسط ببغداد . ودكان داوود ، وصاحب المزار المذكور كان خليفة السلطان إسحق ، يقع بين سربيل وباي طاق في كهف جبل . ومزار زين عابدين في داقوق ، وكان أصل محله كنيسة . ومزار أحمد بكركوك في محلة المصلى . ومزار عمر مندان بكفري ، وهو غير عمر مندان الواقع في طريق كركوك - أربيل[٤٥] .

حدد تقرير الاستخبارات البريطانية ، حول المنطقة ، حدود تواجد الكاكائية كالآتي : شمالاً بارون داغ والتلال المجاورة . وجنوباً الطريق الرئيس ، الواصل بين تازة وطوزخورماتو . وشرقاً منطقة حويجة ، وغرباً السهل الممتد شمال جبل حمرين ، وقره علي داغ . ويصحح مترجم التقرير حدود الكاكائية بالآتي : جنوباً السهل الممتد شمال حمرين ، وقره علي داغ ، وشرقاً الطريق الرئيس بين تازه وطوز خورماتو ، وغرباً منطقة حويجة[٤٦] . وأشار التقرير إلى موطنهم الرئيس بالعراق في ناحية طاووق بكركوك . وبين خانقين وقصر شيرين على الحدود العراقية الإيرانية . وعلى ضفاف الزاب الكبير ، ويعرفون هناك بالصارلية . كما لهم تواجد ملحوظ بتلعفر[٤٧] . وعدَّهم الكرملي العام ١٩٢٨ بحوالى عشرين ألف نسمة . وبكركوك لهم ستون بيتاً ، وعلى نهر الزاب ٤٨٠ بيتاً ، وبخانقين نحو ٥٦٠ بيتاً .

---

(٤٣) الطهراني ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٧ ص٢٠٠ - ٢٠١ .

(٤٤) مينورسكي ، الأكراد ملاحظات وانطباعات ، ص٨٣ .

(٤٥) العزاوي ، الكاكائية في التاريخ ، ص٤٠ - ٤٤ ، عن رئيس الكاكائية في الأربعينيات السيد عبد الفتاح بن السيد خليل .

(٤٦) خورشيد ، العشائر الكردية ، ص٩٠ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

الفصل العاشر

البابية والبهائية

البابية والبهائية حركة دينية اجتماعية واحدة . مجددة بحدود ما تبنته من تعاليم مخالفة للسائد الديني . فأُتهمت بنسخ الشريعة ، وإباحة المحارم . ظهرت بإيران على خلفية الشيخية والبابية . ويشار إليها أنها الحركة الأبرز في الشرق خلال القرن التاسع عشر التي استوعبت المتغيرات الجديدة . عزفت البهائية على وترٍ المعاصرة والتجديد . مع أن رداءها الديني والمذهبي أدخلها في متاهات الإعجاز ، وغيرها من الغيبيات . ذلك استخدامها أدوات الأنبياء والرسل والأولياء الخارقة . جمع الباب علي محمد الشيرازي ، ثم خليفته بهاء الله في شخصيهما خوارق الغيب . النور يحيطهما وهما في ظلمة السجن ، وبأمرهما تتحرك الأحجار وتنحني الأشجار ، وتجري مياه الأنهر عكس الإتجاه . لم يلغ ذلك عن البابية ، دون سواها من الحركات الدينية ، إيمانها بالتطور التصاعدي . وبهذا الإيمان أجازت استمرارية إتصال الوحي بالأرض . وأنها وضعت لفكرة المهدوية حداً ، فقد ظهر الموعود وهو الباب . ثم ظهر الذي وعدٌ به وهو بهاء الله . وانتهى الظهور .

قاد الإيمان بالتطور البابية والبهائية إلى الوقوف بجدية أمام الشرائع الدينية ، وقررت بعد صراع مرير بين أقطابها نسخ عدد من نصوص الشريعة ، فأقرت النسخ الجزئي في المعاملات ، كالموقف من النساء . ثم قادها التطور إلى نسخ العبادات . إن روح العصر ، حسب تصورها ، تتعارض مع أوقات الصلاة والصوم والحج الزمنية . وبشكل عام جعلت الدين عبادات فقط بعد اعتبار المعاملات شأناً اجتماعياً .

ظهرت في حياة البابية شخصيات خطيرة ، عرفت بصلابة إيمانها بالدعوة وقدرتها على التحرك . ومعلوم أن الدعوة إلى نسخ الشريعة ، في القرن التاسع عشر ، تحتاج إلى قوة استثنائية مثل قوة قرّة العين وحواري الباب الآخرين . فمن المدهش حقاً أن تتصدر امرأة

قيادة الدعوة وتعلن تمردها على الشريعة بما يخص النساء . بدأت قرّة العين ، و هي تاج زرين القزوينية ، الإتصال بالناس من خلف الستائر ، حتى تركت «قواويش» الحريم وخلعت الحجاب ، وظلت مطاردة من قبل الدولتين العثمانية السُنّية بالعراق والصفوية الشيعية بإيران . وكلاهما يحرصان أشد الحرص على تثبيت الشريعة بما فيه حجاب المرأة ، فلدى كل منهما حصون من الحريم (حرملك) موصدة الأبواب . وما يثير الاستغراب أيضاً أن للبابية ، المطاردة والمحظورة ، أتباعاً يتنافذون بين حدود الدولتين . هناك تتواجد ، بالعراق العثماني وإيران الصفوي ، معاقل وكعبات بابية ، ومن أنصارها علماء دين تأثروا قبلها بحركة الشيخية أو الكشفية . فلولا الحركة الأخيرة ما كان هناك بابية أو بهائية . ولأن الكشف عن الأسرار مر إلى المذهب أو الدين ، فأن معرفة تاريخ الكشفية هو الخطوة الأولى إلى رحاب هذه الفرقة .

عرف حواريو البابية بحروف حي ، وهو عنوان كتابنا «حروف حي . . البابية والبهائية» ، الذي إرتأينا ضم ملخص عنه ليكتمل كتاب «الأديان والمذاهب بالعراق» ، ويقابل حي ، حسب ترقيم الحروف العدد (١٨) . ويضاف شخص الباب فيكون العدد المقدس عند البابيين والبهائيين هو (١٩) . لم يشعر أحد بقدسية للعدد (١٩) . مع أنه عدد حروف«بسم الله الرحمن الرحيم» ، التي يستهل بها المسلم كلامه وطعامه وعواطفه ، وعدد آيات أكثر من سورة قرآنية ، مثل سورة «الأعلى» و«العلق» و«الانفطار» ، وعدد الملائكة الذين يحرسون جهنم ، حسب سورة «المدثر» الآية (٣٠) : «وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر عليها تسع عشر» . وبالتأكيد لم تقدس البابية الرقم (١٩) دون أن تجد له مدلولاً في القرآن ، تحسسه أهل الكشف أو العرفان ، فحل في عقيدتهم محل العدد سبعة ، أوالعدد الثاني عشر ، وهما الرقمان الأكثر تداولاً في تراث الإسلام والأديان الأخرى . تبدو البابية والبهائية فرقة غريبة في نشأتها وانتهائها إلى ديانة ، فالفرق التي انشطرت من داخل الإسلام ظلت تراعي الشهادة الإسلامية (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ، والإقرار بالقرآن كآخر كتاب ينزل من السماء ، واعتماد الحديث النبوي بما يصلح شأن هذه الفرقة أو تلك . لا سيما وأن رواية الحديث ومصدرها مختلفان من فرقة إلى أخرى .

أما غرائبية البابية والبهائية فقد ابتدأت عرفانية ، همها مسايرة الشيخية في الكشف عن الأسرار ، من دون أن تدعي النبوة لمؤسسها ، أو تتجاوز حدود المقدس فتذهب إلى نسخ الشريعة . غير أنها استفادت من التجارب المدونة في التاريخ المللي والنحلي ، وتاريخ الأنبياء ، فأخذت تنظر إلى أبعد من أن تكون فرقة داخل ديانة ، أو مجرد انشقاق مذهبي . تدرجت من الكشف ، كما قلنا ، إلى نيابة المهدي المنتظر وبابه إلى باب الله . وينتهي الباب ، حسب البهائية ، إلى مبشر ببهاء الله ، مثله مثل يحيى المعمدان وعيسى بن مريم .

وجد بهاء الله ميرزا حسين نوري ، الذي لم يكن حرفاً من «حروف حي» الثمانية عشر ، في كتاب الباب «البيان» ما يشير إلى البشارة به ، وإعلان نفسه ببهاء الله عبر كلمات مقدسة : «يا لله ، الله البهي البهي ، الله لا إله إلا هو ، الأبهى الأبهى ، الله لا اله إلا هو البهي ، الله لا إله إلا هو المبتهي المبتهي ، الله لا اله إلا هو المبهي المبهي ، الله لا إله إلا هو الواحد البهيان ، والله بهي بهيان ، بهاء السماوات والأرض وما بينهما» . ووفقاً لسريان البهاء تحولت «بسم الله الرحمن الرحيم» إلى «بسم الله الأبهى» .

بيد أن هذه الرمزية الخالية من المعاني لا تنفي عن البابية والبهائية نظرتها إلى التجديد أو التحديث ، داخل الدين والمذهب ، ليعبر بها الشرق القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين . فبعد فشل الشيخية أو الكشفية ، التي هي الأم الشرعية للبابية في تحقيق رمزيتها عبر تأويل شخصية المهدي والجنة والنار والإسراء والمعراج . بادرت البابية إلى المغالاة بالرمزية وتحقيقها عبر كتب مقدسة . قالت إنها رسالات سماوية ، مثل «البيان» وأجزائه ، و«كتاب أقدس» ، وكتب أخرى . لم يتمكن البابيون والبهائيون تجاوز اللاعقلانية ، وأن ادعوا المعاصرة وقبلت بدعوتهم أمم متحضرة . لقد أطلقوا العنان لمخيلتهم تجوب السماء فتأتي بوصايا وأحكام ، قدموا لها برموز حروفية ، قوتها بالنسبة إلى البسطاء أنها لا تفهم ، وربما يزيدها الشرح غموضاً . وهذا ما ذهبت إليه الشيخية في بداية أمرها .

نظرت البهائية ، بعد تجاوز بيانات الباب والبهاء ، إلى العالم فوجدته كرة لها قطبين ، تقارب سكانه ليكونوا أبناء قرية واحدة . ولا سيما أن الموروث الديني جعلهم أبناء امرأة ورجل ، هما آدم وحواء ، فلماذا لا يدينون بدين واحد ويتكلمون لغة واحدة؟ مع أن اللغة هي اصطلاح لا توقيف ، وبمثل هذا يفسر موقف الدين . وكيف تحدثت البابية عن هذه الوحدة ، وقد افترقت إلى فرق وهي في المهد؟ أرقى ما في تعاليم البابية هو موقفها الحضاري من النساء والمعلمين ، فحاولت تخليص المرأة من دونية حقوقها قياساً بحقوق الرجل في الأديان كافة ماعدا ديانة الشمسية ، التي ظلت حيَّة حتى مطلع القرن الثامن عشر في جبال ووديان ماردين . كما حاولت الاعتراف بفضل المعلم عن طريق إشراكه في الميراث . يضاف إلى ذلك تطلعاتها إلى العدالة الاجتماعية بمفهومها الاشتراكي . ولتحقيق ذلك وجهت نداءً سلمياً للرأسماليين تنصحهم فيه بإنصاف العمال .

توحي غزارة الكتابات الضد إلى أهمية هذه الفرقة ، وجذبها إلى طبقات مختلفة من الناس ، وانتشار محافلها في العالم . وأنها كانت خيار الذين ضاقوا بالمفاهيم القديمة المفروضة على روح العصر . واجمالاً في مقالات هذه النحلة ما يغري النساء والرجال في التردد إلى محافلها . لكن القيود الشديدة المفروضة على نشاط البابيين والبهائيين قلصت كثيراً من

وجودهم بإيران والعراق . فإلى جانب القيود الحكومية الصارمة هناك عشرات الفتاوى التي تحرم الانتماء إلى هذه الفرقة ، وتفرض عقوبة الإعدام ضد منتسبيها ، ومروجي مقالاتها ، وجلهم من المسلمين ، لا يسمح لهم ترك ديانتيهما إلى ديانات أخرى ، ومن اليهود والمسيحيين . أهم كتب البهائية «كتاب أقدس» يحتوي على (١٨٢) فقرة أو آية إن صحت التسمية ، فيها الحث على الإيمان بالله ورسالة البهاء وأحكام المعاملات والعبادات والوصايا الاجتماعية العامة ، وما يجوز وما لا يجوز للبهائي . لكن ليس فيه ما يشير إلى أن بهاء الله هو الله . إلا أنه الشخص المقدس . ونسخ اسمه اسم الباب ، فلم يعد لاسم البابية وجود في الكتب الرسمية ، مع تقدير وإجلال شخص الباب .

وتقديساً لبهاء الله منع ورثته تداول صوره ، بالوقت الذي سمحوا فيه بداول صورة «حضرة أعلى» الباب ، وإن كان بشكل محدود . لأن تداول الصور قد يؤثر أو يخدش القدسية ، ويدني صاحبها من مستوى البشر . مع أن تداول أيقونات ورسومات السيد المسيح ووالدته العذراء لم يقلل من قدسيتهما بين الأتباع . ولعل موقف البهائيين من تداول صور مقدسهم بهاء الله يمتد إلى مرحلتهم الإسلامية ، فلا يسمح الإسلام بتداول صور النبي ولا الخلفاء الراشدين ، ولا يظهر في المسلسلات التلفزيونية غير ظل أقدامهم . أما الشيعة فأباحوا ، شعبياً ، الصور بما فيها صور النبي وجبرائيل والأئمة ، مع أنها غير جائزة في رسائل الفقهاء . في مقالات البهائية سنجد أحلام وردية . لكن لم يتحقق فردوسها الموعود تحقيقه خلال القرن العشرين . وهو حسب نبؤة مؤسس البابية الثالث عبد البهاء «جميع آفاق العالم قد استنارت ، وسوف يكون العالم كروضة الأوراد وكالجنة»[1] .

الشيخية

برزت الشيخية أو الكشفية كحركة إصلاحية في القرن التاسع عشر ، أمتدت نشطة حتى أواسط القرن التاسع عشر . ظهرت في ظروف الضنك الاجتماعي والفكري ، يوم كانت تحكم المنطقة الدولتان الصفوية والعثمانية ، لتحرك برمزيتها مياه بحيرة راكدة . لكنها ، في كل الأحوال لم تخرج عن السائد إلا بحدود . اعتبرها العلماء في حينه تجاوزاً على مسلّمات . اقتربت الشيخية من الفلسفة والتصوف . وأبتعدت عن مسلمات الفكر الشيعي بحدود أيضاً . ولا ينفى تأثرها بالخلاف بين الإخباريين (النصيين) والأصوليين (المجتهدين) .

ارتبطت الحركة الشيخية بالشيخ أحمد بن زين الأحسائي (ت ١٨٢٦) ، الذي ولد

(١) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص ١٢٣ .

بالأحساء من الجزيرة العربية ، و«توفي وهو في طريقه إلى الحج ، بمنزل هدية ، قريباً من المدينة المنورة ، ودفن بالبقيع»[٢] . وقيل إنه هجر العراق مرغماً . أما أصول الشيخية ومسحتها الصوفية فتعود إلى التصوف الشيعي الضارب بالقدم . قال محسن الأمين : إن الشيخية تسمى بالكشفية أيضاً «نسبة إلى الكشف والإلهام ، الذي يدعيه هو ، ويدعيه له أتباعه . وهي طريقة ظهرت في تلك الاعصار ، ومبناها على التعمق في ظواهر الشريعة ، وإدعاء الكشف . كما ادعاه جماعة من مشائخ الصوفية»[٣] .

اعتمدت الشيخية الرمزية في طرح مقالاتها ، وأتاحت التأويل لمسلّمات دينية كالنبوة والمعراج والمعاد ، بعد أن أسبغت عليها طابعاً روحياً يمكن قبولها بعيداً عن الواقع المادي . ففي عالم الأرواح والغيبيات ليس هناك حدود للتخيل . أما خصوم الشيخية فاعتبروا رمزيتها ، الموغلة بالروحية ، عبارة عن «شطحات وعبارات معميات من خرافات ، وأمور تلحق بالسخافات»[٤] . قالت في ظهور المهدي المنتظر : يظهر «إذا التقى كاف الكينونة مع باء البينونة» . وحسب الرمزية الحروفية لا تقييد زمني ومكاني لظهور المنتظر حسب هذه الرمزية الحروفية ، فهي أقرب إلى مسايرة ما تنتجه المخيلة الشعبية ، والتي تضمحل بمرور الزمن ، وطول الانتظار . وكذلك الحال بالنسبة إلى قبول فكرة المعراج والمعاد ، على أنه معراج ومعاد روحاني لا جسماني . وملخص فكرة الشيخية في ظهور المهدي أن غيبته «مثل موته ، ليس فيه منفعة للخلق (و) أنه عليه السلام لما كان غائباً كان خارجاً من الدنيا ، وعند ظهوره يرجع»[٥] إليها .

بعبارة أخرى ، حولت الشيخية فكرة الظهور الجسماني إلى ظهور روحاني ، فينسب إلى الشيخ الإحسائي القول الآتي : «إن الإمام ، روحي له الفداء ، لما خاف من أعدائه خرج من هذا العالم ، ودخل في جنة هورقليا (روحيّة) ، وسيعود إلى هذا العالم بصورة شخص من أشخاصه»[٦] . وقد عممت الشيخية فكرة تحول المهدي إلى وجود هورقليائي ، حسب تفسيرهم أو تأويلهم للظواهر الخارقة الأخرى ، ومنها معراج النبي محمد إلى السماء ، فهم ينفون «العروج بالجسد البشري ، والملابس البشرية»[٧] .

لم يعد هذا التأويل حكراً على الشيخية ، إنما تبنى عدد من مفسري آية «سبحان الذي

---

(٢) الأمين . أعيان الشيعة ٨ ص٣٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩١ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٩٢ .
(٥) القزويني . ظهور الحقية على فرقة الشيخية ، ص ٧٢ .
(٦) الوردي ، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ٢ ص ١٣٢ .
(٧) القزويني ، ظهور الحقية على الفرقة الشيخية ، ص ٥٨ .

أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» (الإسراء ١) رواية حذيفة بن يمان، وأم المؤمنين عائشة، ومعاوية بن أبي سفيان، حول قصة الإسراء والمعراج. قالت عائشة: «ما فقد جسد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولكن أسرى بروحه»[٨]. وقال معاوية: «كانت رؤيا من الله صادقة»[٩]. ولعلَّ الآية الآتية «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس» (الإسراء ٦٠) ترجح أن الإسراء والمعراج كانا مجرد منام.

ترى الشيخية: «أن الجسم جسمان: جسم عنصري دنياوي، وهو مخلوق من عناصر هذه الدنيا التي تحت فلك القمر. وهو يفنى ويخلَق كل شيء إلى أصله، ويعود عود ممازجة. والثاني جسداً أصلياً من عناصره هورقليا، وهو كان في الجسد الدنيوي، وهو مركز الروح الذي يقوم للحساب، وهو الذي يتألم، وبه يُدخل الجنة»[١٠]. وبهذه الفكرة، القريبة من الصابئية والمسيحية، فسر الشيخية طبيعة البعث ببعث الروح دون الجسد، ومعنى هذا أن كل متع الجنة ومنغصات وعذابات جهنم مجرد رموز تحمل معان أخرى، مفارقة للذة أو الألم الحسيين. وكان رأيهم في نبوة محمد، حسب القزويني أنها «لمْ تكن عامة (...) ودعوى أن نبوة محمد عامة لكل زمان، وفي كل العالم مخالف لضرورة الدين الشريف»[١١].

وخالفت الشيخية المذاهب والأديان الأخرى في علة وجود الخلق. قالت: إن «العلة الغائبة من كون الله سبحانه خلق الخلق من أجلهم ولهم»[١٢]. وأن صح ذلك عنهم، ففيه مخالفة ظاهرة لما ورد في القرآن: «وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون». ولا ندري، هل كان الشيخيون يعتبرون عبادة الناس لله من «أجلهم ولهم»؟ لذا عدوا عبادتهم بالعلة الغائبة هي وجود الخلق. والفرق بين العلتين، العلة القرآنية والعلة الشيخية، أن الأولى أقرت حاجة الله إلى العبادة، حتى خلق الجن والأنس للقيام بها، وكأنه يريد تحقيق ذاته عبر عبادته وتسبيحه. بينما أقرت الثانية حاجة العباد إلى عبادة الله. قال السيد كاظم الرشتي (ت ١٨٤٣) ملخصاً رمزية شيخه الأحسائي بقوله: «كان يدأب في التدريس وتلقين الناس، وبث الدعوة إلى طريقته الروحانية، التي ترمي في النظر إلى الأشياء إلى ما لم يكن مألوفاً يومئذ من الشذوذ عن الظاهر، والتمسك بالباطن، ونحو ذلك مما حمل كثيراً من القوم على استغراب تلك الطريقة، وكثر القيل والقال، حتى أضطر إلى إلقاء خطبة حاول التوفيق فيها بين علوم الظاهر والباطن»[١٣].

---

(٨) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن ١٥ ص ١٣.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) القزويني، ظهور الحقية، ص ١٩.

(١١) المصدر نفسه، ص١١١.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٧ -٩٨.

(١٣) الأمين، أعيان الشيعة ٨ ص ٣٩٥.

لوخص بطرس البستاني مقالات مؤسس الشيخية الأحسائي بالقول : «مزج التصوف والفلسفة بالشريعة . وجمع بين اعتقادات الشيعة الإمامية والأصول الفلسفية على طراز جديد . وقال : إن المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحي ، كأجسام الجن والملائكة ، المسماة بالأجسام الهورقليائي . وهي من اصطلاحات الكيمياء القديمة»[١٤] . إن ما قاله البستاني في مؤسس الشيخية له علاقة بالفلسفة المشرقية والصوفية ، فالمزج بين الشريعة والفلسفة يعود إسلامياً إلى أبي نصر الفارابي وإخوان الصفا . لكن تلميذه كاظم الرشتي ينفي عنه الاهتمام الفلسفي . قال حول اهتمامه الآخرين بكتبه : «لم يأخذوا عليه فيها شذوذ آرائه ومخالفتها للفلاسفة على اختلاف شعبهم من الإشراقيين والمشائين والرواقيين ، وإصراره على إبطال آرائهم»[١٥] .

وبسبب موقفه السلبي من الفلسفة والفلاسفة رد عليه أحدهم دفاعاً عن الملا صدرا الشيرازي بالقول : «ما هذا الخلط ، أنك لا تفهم كلام الملا صدر الدين»[١٦] . ولا نعلم ماهية كتابه «شرح علم الصناعة والفلسفة وأحوالها» ، هل كان ضد الفلسفة أم معها؟ كما تنفي صوفيته عناوين كتبه ضد التصوف ، التي منها : «بيان أحوال أهل العرفان والصوفية وطرائقهم وطرق الرياضيات» ، و«جواب المسائل التوبيلية» ، وهو كتاب «كبير جداً متضمن لتطبيق الباطن مع الظاهر ، وتحقيق القول بالإنسان الكبير والصغير ، وبيان كثير من مراتب العرفان ، والرد على الفرقة الصوفية الباطلة ، وبيان الطريقة الحقة ، والكشف عن العوالم الخمسة ، وتفسير الحروف المقطعة في فواتح السور»[١٧] .

ورغم ذلك عدَّ كامل الشيبي المتصوف الشيعي رضي الدين رجب البرسي (ت ١٤١١م) أصلاً لمقالات الشيخية ، بقوله : «إن البرسي كان أستاذاً حقيقياً لأحمد الأحسائي وكاظم الرشتي ومن ثم البابيين والبهائيين . لأن استعانته بالعنصر الصوفي في بناء مدارس فكرية جديدة في التشيع كان الأسوة والقدوة للأولين على الظهور بالفكرة الكشفية ، التي ينم اسمها عن أصلها . ولم يكن الشيعة ليجهلوا هذه الصلة بينهما»[١٨] . أخذ الشيبي هذا الرأي عن السيد حيدر الحسيني (ت ١٨٤٩) المعاصر للشيخ الأحسائي والسيد الرشتي ، في كتابه «البارقة الحيدرية في نقض ما أبرمه الكشفية» ، الذي جاء فيه : «إنما الأصل في مذهبهم هو ما ذهب إليه البرسي من أن الولي في مقامه في الخلق مقام الرب الأعلى ، لا فرق بينه

---

(١٤) البستاني ، دائرة المعارف ٥ ص ٢٦ .

(١٥) الأمين ، أعيان الشيعة ٨ ص ٣٩٦ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٤٠٢ .

(١٨) الشيبي . الصلة بين التصوف والتشيع ٢ ص ٢٥٢ .

وبينهم»[١٩] . ويفصح الشيخ الأحسائي بالعرفان الصوفي في عبارته الآتية : «من عرفك لا فرق بينك وبينه إلا إنهم عبادك»[٢٠] .

سُئل الشيخ حسن كاشف الغطاء (ت ١٨٤٦) ، أحد علماء الشيعة الكبار وأستاذ صاحب المكاسب مرتضى الأنصاري (ت ١٨٦٥) ، عن منكري المعاد الجسماني ، وهم الشيخية ، فأجاب : «إن منكره كافر يحكم عليه بالارتداد»[٢١] . إلا أن رأي الشيخ حسن بتلميذ والده الشيخ الإحسائي كان الآتي : «إني أدركت الشيخ المرقوم ، وكان تقياً ورعاً مواظباً على الطاعات ، ورأيت جماعة من العلماء الفحول يقتدون به بالنجف ، ولما انتقل إلى دار القرار نُسبت إليه بعض المزخرفات ، وبعض الاعتقادات الفاسدة في بعض رسائله . فلا يصح ثلبه وانتقاصه إلا بعد القطع بصدور ما ينافي الدين منه . وإذا وهم ذلك من بعض رسائله فأن قطع بأنها له ، وأنها ليست مما ينسب إليه لغرض دنيوي فإن أمكن حملها على معنى يطابق الشرع يلزم ذلك عملاً بقوله (ص) : أحمل أخاك المؤمن على أحسنه ، وإن لم يمكن الحمل ولم يمكن إجراء الشبهة في حقه عمل القاطع فيما بينه وبين ربه بما يقطع به لا عن عناد وعصبية ، إذا توقف على معرفة ما هو عليه أثر شرعي يلزم العمل به ، وإلا فقد رفع الله عنكم أشياء فلا تتكلفوها»[٢٢] . فتقديراً لمكانة الشيخ الإحسائي طلب الشيخ حسن كاشف الغطاء تأويل مقالاته بما لا يُخالف الشرع . قال ذلك ليمنع من يحاول تكفير الشيخ المذكور . كما أثنى أكثر من عالم دين ، من غير الشيخية ، على الشيخ الأحسائي ، فمن غير ما ذكر أنفاً . قال صاحب الشيخ محمد باقر الخوانساري (ت ١٨٩٥) في «روضات الجنات» : «لم يعهد في هذه الأواخر مثله في المعرفة والعلم والفهم ، والمكرمة والجزم ، وجودة السليقة وحسن الطريقة ، وصفاء الحقيقة وكثرة المعنوية ، والعلم بالعربية ، والأخلاق السنية والشيم المرضية ، والحكم العلمية والعملية»[٢٣] .

كان الشيخ الأحسائي ، حسب مريديه ، أحد المستلهمين لعلم أئمة الشيعة المعصومين ، فقد ورد في سيرة حياته ، كما خطها بقلمه أو كما خطها عنه تلميذه الرشتي ، ما نصه : «أنه رأى في منامه ذات ليلة الحسن بن علي فأجابه الإمام عن مسائل كانت غامضة عليه . ثم وضع فمه الشريف على فمه ، وأخذ يمج فيه ريقه ، وكان الريق ساخناً . غير أنه كان ألذ من العسل . وظل الشيخ من بعد ذلك يتصل بالأئمة بهذه الطريقة ، فيجيبونه

---

(١٩) المصدر نفسه ، هامش ص٢٥٣ .

(٢٠) المصدر نفسه ، عن الحسني ، مخطوط «البارقة الحيدرية» عن شرح زيارة الجامعة للأحسائي .

(٢١) كاشف الغطاء ، العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية ، ص٢٩٦ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص٢٩٨ .

(٢٣) الأمين ، أعيان الشيعة ، ٨ ص ٣٩٩ .

بشكل واضح مدعوم الأدلة ، فلا يقدر أحد أن يدخل أية شبهة حتى ولو اجتمع الناس كلهم على ذلك ، وجاءوا بألف اعتراض»[٢٤] .

تفرعت الشيخية ، بعد وفاة زعيمها الثاني الرشتي ، إلى ثلاث جماعات : تزعم الأولى الميرزا محمد حسن جوهر ، وتزعم الثانية الحاج كريم القاجاري ، أما الثالثة فكانت بزعامة الملا حسين البشروئي . والجماعة الأخيرة «اعتزلوا الخلق واعتكفوا ، وكانوا حسب مسلكهم دائماً مشغولين بالبحث المتتالي عن شخص عظيم فريد أمين دعوه في اصطلاحهم بالركن الرابع (وكيل المهدي المنتظر)»[٢٥] . وعلى رأي آخر ، تفرقت الشيخية إلى ثلاث فرق : الركنية نسبة إلى قولهم بالركن الرابع الذي يلتقي الإمام مباشرة ، وهم أتباع كريم خان القاجاري (ت ١٨٧١) . والكشفية وهم أتباع الميرزا محمد باقر الأسكوني (ت ١٨٨٣) . وقالوا يتم اللقاء بين المرجع الديني والإمام عن طريق الكشف . وفرقة ملا حسين البشروئي ، وهم الباحثون عن الموعود[٢٦] . تؤكد المصادر ، من البابية وغيرها ، أن البشروئي ، المعروف بباب الباب ، قد زامل الموعود ، وهو علي محمد الشيرازي عند تلمذتهما للسيد كاظم الرشتي بكربلاء . وهكذا تبلورت حركة جديدة من الشيخية هي البابية ، وظلت الشيخية الأصل محافظة على وجودها هنا وهناك .

ويذكر أن لهم جماعة غير قليلة بالبصرة ، لا يبدون غرباء على بقية الشيعة ، فلهم موكبهم ومجالسهم الحسينية في عاشوراء . ولهم مسجد وحسينية بالقرب من العشار وسط البصرة . ويحيطون أنفسهم بتكاتف اجتماعي . ولا يبدون معارضة للسلطات . ويعتمرون عمائم لو دققت النظر فيها لوجدتها مختلفة بعض الشيء عن العمامة الشيعية العادية ، فهي تميل بعض الشيء إلى العمائم التي يعتمرها شيوخ الديانة السيكية . ويحدث أن تجد بين أفراد العائلة الواحدة البصرية شيخية وإمامية ، دون أن يقاطع أحدهما الآخر . وخارج العراق هناك للشيخية أتباع بإيران ، والكويت ، وعرفت شيخية الكويت بالأحقاقية ، يترأسهم شيخ يدعى بالشيخ الأحقاقي .

البابية

بعد وفاة رمزا الشيخية والكشفية ، الشيخ أحمد الأحسائي (ت ١٨٢٦) والسيد كاظم الرشتي (ت ١٨٤٣) وضع الملا حسين البشروئي علامات ظهور الموعود ، والاختبار الخاص

---

(٢٤) الوردي ، لمحات اجتماعية ٢ ص١٣١ ، عن سيرة الشيخ الأحسائي ، ص١٧-١٩ .

(٢٥) مقالة سائح في البابية والبهائية ، ص ٤ .

(٢٦) الأمين ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ٢ ص ٢٣٤ .

للشخص المدعي ، وهو تفسير سورة «يوسف» ، بطريقة جديدة . إضافة إلى الأسئلة المغلفة بالرمزية ، والمستوحاة من آراء الشيخ والسيد . ولعلً جعل تفسير سورة «يوسف» ، دون غيرها من سور القرآن ، إمتحاناً لموعود الشيخية ، له علاقة برمزيتها ، وكثرة الرؤيا فيها ، وحالة الشبه بين النبي يوسف والباب الموعود ، من جمال وحكمة وعفة ، وعلم كثير في تفسير الرؤيا ، وقراءة المستقبل ، ثم الظهور بعد غياب طويل حاكماً بمصر ، وإليه لجأ الخلق بعد سبع سنوات عجاف .

اعتقد البشروئي أن صفات الموعود تنطبق تماماً على السيد علي محمد الشيرازي ، فهو هاشمي بهي الطلعة ، حاذق الفكر ، وفي عقده الثالث ، وقد اجتاز الإمتحان بتفسيره لسورة يوسف ، واقنع ممتحنيه رده على الأسئلة الشيخية الخاصة بالمهدي المنتظر . وفي هذا الأمر تجاوزت الشيخية والبابية الأحاديث النبوية ، التي اتفقت عليها السُنَّة ، واتفقت الشيعة معهم على أنه سمي الرسول باسمه الأول (محمد) ولم تتفق باسم أبيه ، فهو عند الشيعة ابن الحسن العسكري لا ابن عبد الله ، مثلما كان مهدي العباسيين وهو الخليفة الثالث محمد بن عبد الله المنصور (راجع المهديين في فصل الشيعة من الكتاب) . وقبل اتخاذ علي بن محمد الشيرازي لقب الباب ، كان للأئمة الأحد عشر أبوابهم ، ماعدا المهدي المنتظر ، وهم طريق الآخرين إليهم . والباب غير البواب ، الذي يقوم بمهام الحجابة والخدمة . وقد فُسر الحديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها» بأن الإمام علي بن أبي طالب هو باب الرسول ، وقيل : «من طلب العلم فعليه بالباب»[٢٧] .

كتب فضل الله الإيراني العام (١٨٩٦) حول الباب قائلاً : «شاب من أهل شيراز ، عاصمة فارس ، اسمه ميرزا علي محمد . ولد في غرة محرم ١٢٣٥هجرية ، من عائلة معروفة بالسادة الحسينية من أهل التجارة . وتوفي والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه . ورُبي هو في حجر خاله التاجر الشيرازي مير سيد علي . وكان من طفولته مواظباً على العبادات مداوماً على الصلوات ، فلما ترعرع وشب اشتهر بالتقوى والورع . وكان جميل الوجه كثير الوقار ، ظاهر المهابة والجنابة . واشتغل بالتجارة مع خاله المذكور في مدينة بوشهر وشيراز . وسافر قبل إظهار دعوته إلى العراق لزيارة مشاهد الأئمة ، كما هو معهود عند الشيعة . ومكث في العراق أقل من خمسة أشهر . وهناك أول اشتهار اسمه بين الجمهور . فلما رجع إلى شيراز وبلغ سن الخامسة والعشرين . أدعى أنه الباب ، وذلك في الخامس من جمادي الأولى سنة ١٢٦٠هـ»[٢٨] .

---

(٢٧) الطويل . تاريخ العلويين ، ص ٢٥٤ .

(٢٨) مجلة المقتطف ، سبتمبر ١٨٩٦ ، أعادت المجلة المذكورة نشر الموضوع بعد أربعين عاماً ، أي

ووصف محمد مهدي خان الباب بقوله : «كان ربعة من القوام ، حنطي اللوّن ، عصبي المزاج ، صفراوي ، طلق المحيا ، مقرون الحاجبين ، لا ببدين ولا بنحيل ضئيل» . أكد خان أن الباب سافر إلى العراق لطلب الشفاء من مرض عصبي ونفسي . كان «يزمزم ويتلو الأوراد والأذكار ، وكان يعتريه من جراء ذلك نوب عصبية شديدة حتى انحطت قواه ، فعظم الأمر على خاله (فقام الأخير) بتسفيره إلى كربلاء والنجف ، حيث مشهد أمير المؤمنين والإمام الحسين عليه السلام ، لعله يشفى من تغيير الهواء والماء ، ومن استشفائه أيضاً بهذين المقامين الكريمين ، فسفره إلى العراق ، وهو يناهز العشرين . وبعد زيارته لكل المشاهد توطن في كربلاء . واعتكف ثانياً للعبادات والرياضة الشاقة . وتعرف وقتئذ إلى بعض من تلامذة الحاج السيد كاظم الرشتي المذكور . وظل يتردد إليه في محاضر تدريسه وتعليمه ، ويسمع منه الشرح على كتب الشيخ أحمد الأحسائي طاب ثراه»[٢٩] .

كان تلميذ الرشتي ، الذي تعرف عليه الباب ، هو الملا حسين البشروئي . وتنقض هذه الرواية ، المقتبسة من مصدر قريب إلى الحدث ، ما ذهب إليه علي الوردي بالقول : «بينما كان الملا حسين يسير مفرداً خارج سور البلدة ، في اليوم الأول من وصوله إليها ، التقى على سبيل المصادفة بشاب وسيم ، يلبس العمامة الخضراء ، هو السيد علي محمد . وقد تقدم السيد (الباب) نحوه فحياه وعانقه ، ورحب به ، كأنه يعرفه منذ زمن بعيد . ثم دعاه إلى منزله للاستراحة من وعثاء السفر ، فأجاب الملا حسين دعوته وذهب معه إلى منزله حيث أمضى تلك الليلة»[٣٠] .

ويتناقض الوردي أيضاً مع ما اقتبسه من إدوارد براون ، معلم اللغات الشرقية في كامبردج ومتتبع أخبار البابية بإيران العام ١٨٨٧ ، في الرواية الآتية : «كان السيد علي محمد يومذاك في الرابعة والعشرين من عمره يمتهن التجارة مع خاله في شيراز وبوشهر ، وقد سافر في عام ١٨٤٠ إلى كربلاء فحضر بعض دروس السيد كاظم الرشتي . وقيل أن الرشتي أهتم به وعطف عليه»[٣١] . وبهذا يكون الباب قد زامل البشروئي في مدرسة الرّشتي ، وتعارفا عند تواجدهما بكربلاء . وإن أفكار الشيخية لم تكن جديدة على الباب ، فقد أخذها من الأصل .

= في مايو ١٩٣٦ .

(٢٩) خان ، تاريخ البابية أو مفتاح باب الأبواب ، ص٢٤٩ . ألف خان كتابه بتوجيه من مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده ، وكان والده قد ناظر الباب شخصياً في حضرة ولي العهد الإيراني ناصر الدين ، وكان أثناء تأليف كتابه ، حسب ادعائه ، على اتصال بعكا ، وبأخي بهاء الله صبح أزل .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص١١٣ .

(٣١) الوردي ، لمحات اجتماعية ٢ ص ١٣٤ .

وحسب محمد خان ، أن الباب أعلن دعوته بالكوفة ، بعد اتمام «الرياضة ، تسمى عند المرتاضين بالأربعينية ، وبالفارسية جلة (وبعدها) خرج من الخلوة إلى الجلوة بمظهر غير المظهر الاعتيادي . وكان يحضر محضر السيد المذكور (الرشتي) وهو بحالة الانذهال والاندهاش (فـ) اجتمع عليه ثمانية عشر شخصاً في الكوفة ، فرحلوا إلى بغداد ، ومنها إلى البصرة ، وأقلعوا منها في سفينة شراعية ميممين الحجاز ، وذلك سنة ١٢٥٩هـ»[٣٢] . ذلك لإبلاغ شريف مكة ، محمد عون (١٢٦٨ - ١٢٤٣هـ) ، ولعلها محاولة الانطلاق بدعوته من ذلك المكان ، حيث ظهر الإسلام ، وسيظهر المهدي ، كما أشارت الروايات المبشرة به . إضافة إلى استغلال موسم الحج لإعلان الدعوة . ولكن لم يتحقق من ذلك شيء .

أما تاريخ إعلان الدعوة فسجله الباب في كتابه المقدس «البيان» ، بالآتي : «ساعتين وخمسة عشر دقيقة بعد غروب اليوم الخامس من شهر جماد الأول سنة ١٢٦٠هـ موافق ٢٣ مايو سنة ١٨٤٤»[٣٣] . ويذكر محمد مهدي خان أن الدعوة البابية ، حسب الموروث ، يجب أن تبدأ من خراسان ، ورد ذلك لأهمية هذه المدينة في ضمان نجاح دعوات سابقة مثل الدعوة العباسية ضد الأمويين . أرسل الباب إلى خراسان البشروئي المعروف بباب الباب ، تيمناً بحديث يقول : «إذا رأيتم الرايات السود من قبل خراسان فأتوها ، فإن فيها خليفة المهدي»[٣٤] .

لمح الشيخ علي كاشف الغطاء (ت ١٨٣٧) الباب ، قبل إعلان بابيته ، عند زيارة ضريح الإمامين الكاظمين ببغداد ، الذي ضم رفات موسى بن جعفر الكاظم وحفيده محمد بن علي الجواد . قال : «رأى داخل الحرك (لعلها الحرم) سيداً وقوراً مهاباً ، واقفاً مقابل القبلة ، عند الرأسين الشريفين ، وهو يبكي ويتضرع ، ويتأوه ويطيل الفكر والنظر»[٣٥] . وقيل في كرامات الشيخ كاشف الغطاء : إنه تنبأ بأمر الباب ، وقال لمن حوله : «أطيعوني وأخرجوه من العراق ، التي هي بيضة الإسلام اليوم وإلا سوّدها . ولولا أن العقوبة قبل الذنب لا تجوز لأمرتكم بقتله»[٣٦] . لما سمع الباب برأي الشيخ علي به ، وهو المرجع الشيعي الأول في زمانه ، «خرج إلى تلك الأطراف ، وما مضت إلا سنوات قليلة حتى توفي الشيخ ، وأظهر (السيد) دعوته ونشر طريقته»[٣٧] . ولعلَّ هناك شيئاً من الصحة في الخبر المذكور ، وظفه

---

(٣٢) المصدر نفسه ، ص٣٥ عن بروان ، سنة في بلاد فارس ، ص٦٥ .

(٣٣) خان ، تاريخ البابية ، ص١١٤و١٢١ .

(٣٤) اسلمنت . بهاء الله والعصر الجديد ، ص٢٢ .

(٣٥) خان ، تاريخ البابية ، ص١٢٣ ، عن البيهقي ، دلائل النبوة .

(٣٦) كاشف الغطاء ، العبقات العنبرية ، ص٢٨٧ .

(٣٧) المصدر نفسه .

المؤلف لإضفاء كرامة من الكرامات العجيبة على أحد ذويه من آل كاشف الغطاء .

أما زندري في «مطالع الأنوار» ، والذي اقتبس منه علي الوردي روايته ، فيذكر انطلاق البابية من شيراز ، مسقط رأس الباب ، ليلة اللقاء بالبشروئي . فبعد أن نزل الأخير ضيفاً على الباب سأله «عمن أصبح خليفة الرشتي بعد وفاته ، فأجابه الملا : أن الرشتي أوصى تلاميذه بأن يتركوا أوطانهم من أجل البحث عن الموعود ، ولذا فهو جاء إلى شيراز ، وسيذهب إلى غيرها من البلدان ، عملاً بتلك الوصية . وهنا انبرى السيد علي محمد سائلاً : هل عين الرشتي الأوصاف والمميزات التي يجب أن يتصف بها الموعود؟ فأجابه الملا قائلاً : نعم ، فأنه من السلالة الطاهرة والعترة النبوية ، ومن ذرية فاطمة . وأما سنه فأكثر من عشرين وأقل من ثلاثين . وعنده علم لدُني . وهو متوسط القامة . يمتنع عن شرب الدخان ، وخال من العيوب والعاهات الجسمانية . فسكت السيد ثم سأل بصوت جهوري : أنظر هل ترى هذه العلامات في شخصي؟ وقد أثار هذا السؤال المفاجئ دهشة الملا حسين ، فقال معترضاً : إن الذي ننتظره هو شخص قدسي ، ليس فوق قداسته قداسة ، ويظهر من الأمر ماله قوة فائقة ، وشرائطه وعلائمه عديدة ، فكم أشار السيد إلى سعة علمه ، وكم كان يقول : إن علمي بالنسبة إلى علمه كقطرة من بحر ، مما وهبه الله ، وإن جميع ما حصلّته لم يكن إلا كذرة من التراب في مقابل اتساع معارفه ، والفرق بينهما شاسع»[٣٨] .

أصبحت ليلة إعلان الموعود ليلة قدر بابية أو عيداً بابياً . أوصى بها الباب بقوله : «إن هذه الليلة ، وهذه الساعة سيحتفل بها في الأيام الآتية كأعظم الأعياد ، وأهمها ، فاشكر الله الذي أوصلك إلى مرغوب قلبك وأشربك من رحيق كلامه المختوم . طوبى للذين هم إليه واصلون»[٣٩] .

ألتف حول الباب ، في بداية الأمر ، سبعة عشر رجلاً وامرأة ، وعددهم الثمانية عشر بعدد حروف كلمة حي ، ففي حساب الحروف الهجائي الحاء ثمانية ، والياء عشرة ، فتكون خلية البابيين المقدسة الأولى مع رئيسهم تسعة عشر . ولهذا قسمت السنة البابية إلى تسعة عشر شهراً ، ودخل هذا الرقم في الطقوس ، في ترديد عبارات وعدد ركعات وأيام صوم .

قال الصوفي الشيعي رجب البُرسي ، الذي تعود الشيخية إلى مقالاته : إن الله عبأ في الموجودات «أسرار الحروف ، التي هي معيار الأقدار ومصدار الآثار . لأن الله تعالى بالكلمة تجلى لخلقه وبها أحتجب»[٤٠] . عدا ذلك لروحانية الحروف ورمزيتها تاريخ في الفكر

---

(٣٨) المصدر نفسه .

(٣٩) الوردي ، لمحات اجتماعية ٢ ص١٣٦ ، عن مطالع الأنوار ، ص٤١-٤٩ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ عن مطالع الأنوار .

الإسلامي ، فقد وردت كمستهلات لعدد من سور القرآن . بث الباب رسله ، وهم على عدد حروف حي ، إلى آفاق العراق وإيران ، وكان داعيته بالعراق ملا علي البسطامي ، إضافة إلى قرّة العين ، وما فعلته من أجل نشر الشيخية ثم البابية .

تُذكَر للباب قصة مؤلمة مع نظام الدولة التبريزي حسين خان والي شيراز ، أوهمه أنه من مؤيديه . و«ذات ليلة استحضر الباب لديه سراً ، وبالغ في الإكرام والتبجيل له ، حتى جثا على ركبتيه ، مُظهراً اسفه العظيم على ما فرط منه في حق دعاة الباب»[٤١] ، فتعهد أن يضع خزانته وجنوده تحت تصرفه ، مقابل أن يجمد دعوته إلى وقت يتفق عليه بحجة عدم استفزاز الفقهاء «ووقوع الثورة في المدينة» . وحقيقة الأمر أن والي شيراز اتفق مع الفقهاء على الإطاحة بالدعوة البابية ، وذلك أن يوافقوا على المناظرة بمنزله ، ثم يريهم مشهداً ساخراً . وبعد عجز الباب على دحض الفقهاء ، كشف الوالي عن حيلته . وانتهى المجلس بضرب الباب ، وإعلان توبته أمام الفقهاء . ثم «أركبوه حماراً للتشهير وقصدوا به إلى المسجد عبر السوق الكبير»[٤٢] .

بعدها «في أحداث شغب هرب الباب إلى اصفهان عن طريق أحد المسؤولين الذين آمنوا به» . وهناك من قال : أُطلق سراحه وعاد إلى منزل خاله . وأن الشاه أهتم بأمره فبعث إلى شيراز الفقيه يحيى الدارابي لامتحانه . امتحنه بالآيات القرآنية المتشابهة ، وبنبوآت الأئمة . «فأخذ الباب يجيب عليها بشكل آثار إعجاب الدارابي . وفي جلسة أخرى أخذ يفسر له سورة الكوثر ، وكان تفسيره لهذه السورة يختلف عن التفاسير المعهودة . وكانت الآيات تتموج من قلمه بسرعة مدهشة . تكاد لا تصدق ، حتى بلغ مجموعها ألفين . مما جعل الدارابي مسحوراً»[٤٣] .

انتهت المناظرة باعتناق رسول الشاه الدارابي البابية . وبعد هذا الفشل الذريع طلب الشاه من والي شيراز التخلص من الباب بأية طريقة . ومرة أخرى فشلت السلطة في تصفيته ، وأرتفع بالمقابل رصيد البابية ، وزاد تأثيرها على مسؤولين حكوميين آخرين . قال الزرندي في «مطالع الأنوار» : «أرسل الوالي مدير شرطته عبد الحميد خان إلى منزل الباب ، فألقى القبض عليه ثم ساقه إلى مركز الشرطة . ولكنه لم يكد يسير قليلاً حتى وجد السوق في هرج ومرج ، والناس يهرعون ذاهلين ، وهم يحملون الجنائز . وكان سبب ذلك انتشار وباء الكوليرا في البلدة ، وموت الكثير منهم فجأة . فتوجه مدير الشرطة نحو داره ومعه الباب ،

---

(٤١) الشبي ، الصلة بين التصوف والتشيع ٢ ص٢٤١ .
(٤٢) خان ، تاريخ البابية ، ص ١٣٤-١٣٥ .
(٤٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

فوجد ولده مصاباً بالوباء . وعند هذا ألقى مدير الشرطة نفسه على أقدام الباب يتضرع إليه أن ينقذ حياة ابنه ، ويطلب المغفرة . وشرع الباب يتوضأ . ثم أمر بأخذ شيء من الماء الذي غسل به وجهه ليشربه الولد المصاب . وقد نجا الولد»[٤٤] .

لم يثن خضوع مدير الشرطة ، وغيره من المسؤولين ، السلطة عن ملاحقة الباب ، بل أُلقي القبض عليه مجدداً ، وأودع السجن . ثم أُعدم مع أحد أتباعه أغا محمد علي ، في ٩ تموز ١٨٥٠ . وكانت ساحة الإعدام ميدان قشلاق تبريز ، المعروفة في مصدر بهائي بمحل «قطع الرؤوس»[٤٥] .

اخفى البابيون جثمان الباب وصاحبه خارج المدينة ، «في مستودع سري في إيران . جيء بهما بصعوبة وتحت الخطر إلى الأرض المقدسة . ودفنا في قبر جميل الموضع على بضعة أميال من المكان الذي قضى بهاء الله سنواته الأخيرة»[٤٦] . ومكان الضريح على سفح جبل الكرمل بعكا بفلسطين ، شيدً بهيئته الأخيرة العام ١٩٥٧ . بيد أن مصدراً بابياً آخر قال أن الجسدين وضعا أمانة «في مصنع رجل ميلاني بابي . وفي يوم آخر صنعوا صندوقاً ووضعوه وأودعوه أمانة . ثم نقل من أذربيجان بمقتضى تعاليم وردت من طهران . ومن يومئذ أمست حادثة الجسد في عوالم الخفاء والكتمان الكلية»[٤٧] .

قتل الباب بعد «أن عدً نفسه سعيداً في تحمل كل ألم في سبيل تهيئة الطريق . وأنه قليل في سبيل مَنْ يظهره الله الذي كان مصدر وحيه وفريد محبته وأنسه»[٤٨] . ومن ذلك اليوم أصبح تحمل الألم سعادة روحية بعرف البابية . قال الأديب العراقي مير بصري في طقوس الألم عند البابيين والبهائيين ، بعد هجرته من بغداد السنة ١٩٧٤ : «اتصلت بيَ لجنة العفو الدولية أمنستي ، وسألتني عن أحوال العراق والمعتقلين من البنائين الأحرار (الماسونيين) ، فري ميسن السابقين وغيرهم . ولما ذكرت اعتقال البهائيين قالوا : إن المجلس البهائي الأعلى في حيفا طلب من اللجنة عدم الدفاع عنهم . لأنهم يرتضون الاعتقال والتعذيب عن طيبة خاطر في سبيل إيمانهم الذي لا يتزعزع»[٤٩] .

كان لعلي محمد الباب ثمانية عشر حوارياً ، على عدد حروف كلمة حي : الملا حسين البشروئي باب الباب ، وحمد حسن ، ومحمد باقر الصغير ، والملا خدا بخش

---

(٤٤) الوردي ، لمحات اجتماعية ٢ ص١٤٢ عن مطالع الأنوار ، ص١٠٩-١١٠ .

(٤٥) المصدر نفسه ، عن مطالع الأنوار ، ص١٥٢-١٥٥ .

(٤٦) أسلمنت ، البهاء والعصر الجديد ، ص ٢٧ .

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) مقالة سائح في البابية والبهائية ، ص٣٢ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

القوجاني ، والملا حسين باجستاني ، والسيد حسين اليزدي ، والميرزا محمد روضخاني ، والسيد سعيد الهندي ، والملا محمد الخوئي ، والملا جليل أرومي ، والملا أحمد الدالمي المراغي ، والملا باقر التبريزي ، والملا يوسف الأردبيلي ، والميرزا هادي القزويني ، والميرزا محمد علي القزويني ، والحاج محمد علي البافروشي المعروف بالقدوس ، والملا علي البسطامي ، وقرّة العين[٥٠] .

وفي مصدر بابي وردت الأسماء الآتية : ميرزا أحمد الأزغندي ، ملا صادق المقدس ، الشيخ أبو تراب الأشتهاري ، ملا مهدي الكندي[٥١] . وأغلب هؤلاء ، إن لم يكن جميعهم ، كانوا شيخيين ، وأكثرهم نشاطاً كانوا رُسل البابية بالعراق ، وهما البسطامي وقرّة العين[٥٢] .

البهائية

البهائية نسبة إلى بهاء الله وهو لقب الميرزا حسين علي بن عباس بزرك النوري (١٨١٨ - ١٨٩٢) . والنورية من العائلات الشهيرة بإيران ، فوالده كان من كبار وزراء دولة فتح شاه[٥٣] . ورغم عدم ورود اسم بهاء الله ضمن حروف حي الثمانية عشر ، المذكورين آنفاً ، إلا أنه كان من المصدقين الأوائل . و«بينه وبين الباب مراسلات سرّية ، كان الواسطة فيها عبد الكريم القزويني ، كاتب ألواح الباب»[٥٤] . وكانت منزلة بهاء الله الاجتماعية ترد عنه الشبهة والأذى ، فهو ابن «عائلة غنية وممتازة ، وكثير من أعضائها شغلوا مناصب مهمة في الحكومة ، وفي المصالح المدنية والحربية»[٥٥] .

وليسر حاله وتطلعه إلى تبؤ زعامة البابية رفض منصب الوزارة ، التي عرضت عليه بعد وفاة والده ، حسب ما تقتضيه تقاليد الحكم الوراثي بإيران . ويذكر أن رئيس الوزراء آنذاك لم يستغرب هذا التصرف منه ، إذ قال عنه : اتركوه بنفسه ، فأن هذا المنصب لا يليق به[٥٦] . وقد لا يسمح هذا التاريخ العائلي بتصديق ما قاله عبد البهاء عباس أفندي في والده : إنه «لم يذهب إلى المدرسة أو الكلية ، بل تلقى تعليمه البسيط في المنزل . ومع ذلك ، حينما كان

---

(٥٠) بصري ، رحلة العمر من ضفاف دجلة إلى وادي التّيمس ، ص ٦٨ .
(٥١) راجع الحسني ، البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم .
(٥٢) مقالة سائح ، ص ٤ .
(٥٣) الإيراني ، البابية والبهائية ، مجلة المقتطف ، سبتمبر ١٨٩٦ .
(٥٤) المصدر نفسه .
(٥٥) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص ٣١ .

طفلاً ظهرت منه نجابة وعلماً عجيبان»[٥٧] . وهذه الصفات الأعجوبة لم يحتكرها بهاء الله ، فقبله أضفيت على الأنبياء والأوصياء والعظماء ، وأقربهم إليه الباب .

بيد أن محاولة اغتيال الشاه السنة ١٨٥٢ ، وقبلها الإتهام بتأييد الخروج على الحكم ، أدى إلى اختراق منزلة العائلة النورية ، فأُلقي القبض على بهاء الله ، وكانت محاكمته بمحضر جمع من الوزراء[٥٨] . نفذ محاولة اغتيال الشاه أحد أنصار البابية الشباب ، الذي لم يتحمل إعدام أثيره الباب أمام عينه ، فأصيب بمس من الجنون . وراح ينتقم دون استشارة أحد ، ومن باب الانتقام كمن للشاه ، وأطلق عليه بندقيته ، وكان قد حشاها رشاً بدلاً من الرصاص ، فلم يصب الشاه بأذى بليغ . واعتبر «البابيين جميعاً مسؤولين عن هذا الحادث ظلماً ، وابتدأت فيهم المذابح المخيفة . وأعدم منهم ثمانية بطهران بأشد أنواع العذاب . وقبض على الكثير وزجوا بالسجون ، ومنهم بهاء الله»[٥٩] .

ردَ بهاء الله وهو في السجن تهمة محاولة إغتيال الشاه عن البابية : «لعمر الله لم يكن لنا دخل في هذا الأمر المنكر أبداً ، وقد ثبت في مجالس التحقيق أيضاً عدم التقصير . ومع ذلك أخذونا وسيرونا مترجلين عاريي الرأس والأقدام ، مقيدين بالسلاسل من نياوران ، التي كانت في تلك الأيام مقر السلطنة ، إلى أن أوصلونا لسجن طهران»[٦٠] .

صرح بهاء الله من داخل السجن بالإلهام الإلهي ، فكتب في «لوح ابن الذئب» عن رؤيا مقدسة : «إننا ننصرك بك وبقلمك ، لا تحزن عما وردً عليك ، ولا تخف إنك من الآمنين ، سوف يبعث الله كنوز الأرض ، وهم رجال ينصرك بك ، وباسمك ، الذي به أحيا الله أفئدة العارفين»[٦١] . كان ذلك على عادة المقصودين بالنداء الإلهي ، أن يكونوا في حال عسر . ولم يعرف متصدي لمثل هذا الأمر إلا وكان العذاب يحيط به ، وقومه يلاحقونه بالقتل . فولادة مثل هذه الظواهر تكون متعسرة ، حتى تلفت النظر وتنشأ متينة في نفوس الأتباع ، ويرق لها المتأخرون .

ومنذ التصريح بتلك الرؤيا أخذ بهاء الله يعدُّ لتجديد البابية بالبهائية ، ويحتل مركز الباب المقتول . والدعوة البابية عموماً تقرُّ بهذا التجديد . ولكن ليس بهذه السرعة ، فمعطياتها أشارت إلى أن دورة التجديد تستغرق قرناً من الزمان . غير أنه صرح بذلك بعد إطلاق سراحه ، ونفيه إلى العراق السنة ١٨٥٣ . وكان النفي لصالح الدعوة ، حيث تهيأت الظروف لإعلانها .

---

(٥٧) المصدر نفسه .

(٥٨) مجلة المقتطف ، سبتمبر ١٨٩٦ .

(٥٩) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص٣٢-٣٣ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص٣٣ .

(٦١) المصدر نفسه .

أُخرج بهاء الله من طهران «مصحوباً ببعض عساكر إيران، تراقبه بعض فرسان سفارة الروس، حفظاً له من الاغتيال إثناء الطريق حتى ورود بغداد»[٦٢]. ولعلَّ وقوف السفارة الروسية إلى جانبه ساعة محاكمته وفرض حمايته، وساعة ترحيله إلى العراق، كان بسبب وشائج صداقة بين العائلة النورية ذات الجاه العريض وبين الحكومة الروسية. والأمر كما يبدو يتعدى مسؤولية السفير الروسي الشخصية دون رأي حكومته، ولم يُذكر للسفارة الروسية موقف إيجابي سابق مع البابية ما عدا زيارة القنصل الروسي للخندق الذي وضع على حافته جسدا الباب وصاحبه، والتقط لهما صورة[٦٣].

غير أن هناك مَنْ رمى البابية والبهائية بعلاقات مشبوهة مع الدول الأجنبية، ومنها الدولة الروسية، اعتماداً على مذكرات كنيازد الكوركي (لعله الغوركي)، المتنكر باسم الشيخ عيسى النكراني. وقيل إنه كان مع الباب في حلقة كاظم الرشتي الدراسية بالعراق. وكان مترجماً في السفارة الروسية، ثم أصبح وزيراً مفوضاً، ثم سفيراً لروسيا بإيران[٦٤].

بيد أن هذه الحكاية وردت في كتب متحمسة ضد البابية والبهائية، أكثرت من كيل التهم والمثالب عليها. ولم تنظر إلى أي سبب آخر في ظهور هذه الفرقة سوى تُهم التجسس وخدمة الأجنبي، وتحقيق أغراض مسيحية أو يهودية ضد الإسلام، واطلقت عليها تسمية الحركة الهدامة. لكن من الأسباب المشجعة على ظهور مثل البابية والبهائية هو الاعتراض على فكرة أبدية الشريعة بكل تفاصيلها، وخطو خطوة تجديدية في الفكر الديني والمسار الفقهي.

صادف ترحيل بهاء الله وعائلته إلى العراق حلول فصل الشتاء، فعانوا «قسوة البرد، وغيره من المصاعب إلى أن وصلوا بغداد في حالة يرثى لها»[٦٥]. وأول منزلة للمنفيين كان مدينة الكاظمية شمال بغداد، ذات التواجد الشيخي والبابي. ثم انتقلوا إلى مركز بغداد، محلة العاقولية بالرصافة. وأخيراً استقر بهم المطاف بمحلة «الشيخ بشار بجانب الكرخ»[٦٦].

وطوال وجود بهاء الله بالعراق، مدة أثني عشر عاماً، كانت علاقته جيدة برجال الحكم العثماني، وعلماء بغداد والقناصل القوية. وقد زاره القنصل البريطاني، وعرض عليه الحماية، وتسهيل سفره إلى الهند، وأن رسائله ستصل إلى الملكة فكتوريا[٦٧].

---

(٦٢) المقتطف، سبتمبر ١٨٩٦.

(٦٣) مقالة سائح في البابية والبهائية، ص٣١.

(٦٤) الحياني، البهائية حقيقتها وأهدافها، ص ١٥٩.

(٦٥) أسلمنت، بهاء الله والعصر الجديد، ص ٣٤.

(٦٦) الوردي، لمحات اجتماعية ٢ ص ٢٠٢.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

تذكر المصادر البهائية أن بهاء الله ، بعد وصوله بغداد بعام واحد ، هام على وجهه وحيداً لمدة سنتين ، في رحلة صوفية ، إلى فيافي السلمانية . ولعلّها صحراء السماوة ، المشهورة بسجنها الرهيب «نقرة السلمان» . ولم يأخذ معه سوى بدلة واحدة .

سجل بهاء الله يوميات رحلته في كتاب «الإيقان» بالقول : «إن هذا العبد في أول وروده في هذه الديار (العراق) لما أطلع على هذه الأمور التي ستقع أختار الهجرة ، وأقام في صحارى العراق ، وصرف سنتين وحده في فيافي الهجر . وجرت من العيون عيون ، ومن القلب بحور ومياه ، فكم من الليالي لم أملك فيها قوتاً . وكم من أيام لم أجد راحة لجسمي . ومع هذه البلايا النازلة ، والرزايا المترادفة ، فوالذي نفسي بيده كنت في كمال السرور ، ونهاية الفرح . لأني لم أتطلع لأي أحد بضر ولا نفع ولا صحة ولا سقم»[٦٨] . ومن يومياته ببغداد ، حسب رواية ولده عباس أفندي ، كان يذهب دائماً إلى شاطئ دجلة ، و«عند رجوعه يكتب هذه اللآلئ الفريدة»[٦٩] .

وفي رواية ينقلها حفيده شوقي أفندي أن بهاء الله غادر «بغداد بمفرده متجهاً إلى الشمال ، وهو في زي درويش يحمل كشكولاً ، وسمي نفسه درويش محمد . وعند وصوله إلى السليمانية اعتكف في جبل سركلو ، الذي يقع على مقربة منها . ثم انتقل بعد فترة وجيزة إلى البلدة نفسها ، فنزل في تكية الخالدية حيث أمضى فيها سنتين . وحين اهتدى أفراد أسرته إلى مكانه أرسلوا إليه يرجونه أن يعود ، ويلحون في رجائهم عليه . وذهب الشيخ سلطان الكربلائي إلى السليمانية ليقنعه بالعودة ، فعاد بهاء الله إلى بغداد في ١٩ آذار من عام ١٨٨٥»[٧٠] .

وصل بغداد ، في تلك الفترة ، الأخ غير الشقيق لبهاء الله الميرزا يحيى ، المعروف بصبح أزل . وصل متنكراً بزي درويش[٧١] . ولم يمض وقت طويل على وصوله حتى بدأ انشقاقه عن أخيه ، معترضاً على إظهار البهائية محل البابية . فقد أعلن صراحة أنه «وحي الباب وخليفته . وأن بهاء الله إنما يرأس البابيين بالنيابة عنه»[٧٢] . وعلى الرغم من حياة بهاء الله والبابيين العلنية ببغداد . فهم يقضون فترة نفي رسمي ، إلا أن صبح أزل ظل «يجول بضواحي بغداد متستراً ، ويشتغل ببعض الحِرف متنكراً ، وأحياناً يمكث في بغداد بزي الأعراب»[٧٣] .

---

(٦٨) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ٣٥ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٧٠) ا لوردي ، لمحات اجتماعية ٢ ص ٢٠٤ ، عن God Passes. by Shoqhi Effendi. p 131 .

(٧١) المصدر نفسه ٢ ص ٢٠٢ .

(٧٢) خان ، تاريخ البابية أو مفتاح باب الأبواب ، ص ٣٤١.

(٧٣) الوردي ، لمحات اجتماعية ،٢ ص٢٠٣ ، عن أغا محمد مصطفى البغدادي ، رسالة أمرية ، ص١٢٦ .

قال أحد البابيين ، معللاً الانشقاق : «لأن الأصحاب تشتتوا ، وكل من كان يُبلغ أمر الله رأى نفسه شيئاً من الأشياء ، كأنهم مرايا الظهور ، وخصوصاً حين نزول صاعقة الامتحان ، وهو صعود الرب الأعلى (الباب) جل شأنه . لأنه امتحان عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وبقي الأمر في هرج ومرج ، واستند أحباء كل بلدة إلى المرايا . مثلاً جماعة اعتقدوا بصبح أزل ، وآخرون اعتقدوا برجل بغدادي ، يدعى الشيخ علي الدباس»[٧٤] .

إضافة إلى صراعها الداخلي كانت البابية تخوض صراعاً شديداً مع الشيعة الإمامية بالعراق ، فبهاء الله وصل بغداد في أول محرم ١٢٦٩ من الهجرة المصادف نيسان ١٨٥٣ ، حيث عنفوان الربيع بالعراق وميلاد الباب ، فكانت فرحة البابيين فرحتين في ذلك اليوم : مناسبة ميلاد الباب ووصول بهاء الله ناجياً من حكم الإعدام ، ومخاطر السفر في الشتاء . واتفقت المناسبتان سنوياً مع حزن الشيعة . ومن مظاهر فرح البابيين الاحتفال في حديقة النجيبية (مكان مدينة الطب حالياً شمال مركز بغداد) بباب المعظم ، فيمرحون ويلهون»[٧٥] . غير أن ذلك لم يكن السبب الوحيد في الصراع ، فالأسباب العقائدية ظهرت مع بداية ظهور الدعوة الشيخية ، التي تغلغلت في أوساط الشيعة ، وانتشرت بكربلاء حتى أصبحت ركزاً من مراكزهم . ثم تعاطفت شخصيات شيعية هامة مع الحركة البابية .

آمن بها أول وصول بهاء الله بغداد «رجل يُعد من كبار الملاكين والأغنياء فيها ، وهو الميرزا موسى الجواهري»[٧٦] . وكان والد الجواهري . مناوئاً للحكم الإيراني ، ولعلٍّ ذلك سهل اتفاقه السريع مع البابية . ومقابل هذا الكسب ، كان يسكن العراق في تلك الأونة عبد الحسين الطهراني وهو عالم إيراني واسع النفوذ ، يُلقب بشيخ العراقيين . أخذ على عاتقه مقاومة الدعوة البابية ، وقد عاونه في ذلك القنصل الإيراني العام في بغداد[٧٧] .

ولمواجهة الموقف دعت مرجعيات الشيعة إلى مؤتمر عام بالكاظمية ، تقرر فيه بعث مندوب عنهم لمناظرة بهاء الله . عرف هذا المبعوث برجاحة العقل وفصاحة اللسان[٧٨] . وحصل أن اقتنع المناظر بحجج بهاء الله ، وطلب منه أن يقوم بمعجزة بينة تقنع العلماء . وافق بهاء الله على الطلب شرط أن يوقع العلماء محضراً يلزمون أنفسهم الإيمان بالبابية . وأيضاً في

---

(٧٤) المصدر نفسه ٢ ص٢٢٣ .

(٧٥) المصدر نفسه ٢ ص ٢٠٥ . الاسم ليس له علاقة بعائلة الجواهري المعروفة بالنجف ، وجدها الشيخ محمد حسن صاحب كتاب جواهر الكلام .

(٧٦) المصدر نفسه ٢ ص ٢٢٣ .

(٧٧) المصدر نفسه ٢ ص ٢٢٤ ، عن الجرفادقاني ، الحجج البهية ، ص ١٤٢ .

(٧٨) المصدر نفسه ٢ ص ٢٢٤ ، عن مقالة سائح ، ص٦٢ ، وشوقي أفندي ، ص ١٤٤ .

حال العجز يحق لهم اتهامه «بالتدليس والكذب» . لم ترق الفكرة للعلماء ، بحجة أن بهاء الله ساحر ، ولعله حقق المعجزة بطريقة ما ، يُضلل بها أبصارهم . كان هذا الصراع أيام زعامة المرجع الكبير الشيخ مرتضى الأنصاري ، صاحب كتاب «المكاسب» . وذكر أن الشيخ الأنصاري لم يحضر المؤتمر الشيعي بالكاظمية ، أو أنه حضر المؤتمر وامتنع عن تكفير البابية .

ويروى في مصادر بابية أن الأنصاري اعتذر بقوله : «إني لست مطلعاً على كنه حقائق هذه الطائفة . ولا عالماً بأسرار سرائر إلهياتهم كما حقها . ولا فهمتها بعد . ولا رأيت من أحوالهم وأطوارهم ما ينافي الكتاب المبين ، ويدعو إلى التكفير والتضليل . فأقيلوني من هذه القضية ، وكل إنسان درى بتكاليف نفسه فعليه أن يعمل»(٧٩) .

رضخت السلطة العثمانية بالعراق لضغوط علماء الكاظمية والدبلوماسية الإيرانية ، لكنها لم تلب طلب إبعاد بهاء الله إلى إيران ، حيث سيواجه حكم الإعدام . بل وافقت على إبعاده إلى استانبول ، ومنها إلى ادرنة ثم إلى عكا ، ليموت هناك السنة ١٨٩٢ . بدأ أمر التسفير بإشعار بهاء الله لمقابلة هامة مع وزير العراق نامق باشا . وكان محتفلاً مع اتباعه ومريديه في مزرعة الوشاش (حالياً حديقة الزوراء) غرب بغداد . وإثناء المقابلة سلمه الوزير رسالة من الصدر الأعظم (رئيس وزراء) يدعوه فيها «أن يكون ضيفاً على السلطات في استانبول . وقدم إليه أيضاً مبلغاً من المال لنفقات السفر»(٨٠) .

كتب أسلمنت حول أواخر أيام بهاء الله ببغداد ، قائلاً : «إن أسرته اتخذت حديقة نجيب باشا (معروفة بالنجيبية نسبة إلى دار نجيب باشا الصيفية فيها) خارج المدينة مقراً لها مدة أثني عشر يوماً ، ريثما تتجهز القافلة للسفر الطويل . وفي اليوم الأول من هذه الأثني عشر (٢١ أبريل - ٣ مايو ١٨٦٣) أي في السنة التاسعة عشر (لهذا الرقم مدلول مقدس عند البابيين كما سبق ذكر ذلك) بعد ظهور دعوة الباب . بشر بهاء الله الكثيرين من أتباعه بأنه هو الموعود ، الذي أخبر عنه الباب ، وسماه بمن يظهره له . وأنه هو الموعود أيضاً من جميع الأنبياء السابقين . وقد عُرفت تلك الحديقة ، التي أُعلنت فيها الدعوة ، بحديقة الرضوان . وعُرفت الأيام ، التي صرفها بهاء الله فيها بعيد الرضوان . ويحتفل البهائيون به سنوياً ، مدة أثني عشر يوماً»(٨١) . وعلى رواية أن وزير العراق ، نامق باشا ، حضر إلى توديع بهاء الله في الحديقة النجيبية ، عارضاً عليه المساعدة ، وموصياً به الضابط المسؤول عن ترحيله(٨٢) .

---

(٧٩) المصدر نفسه ٢ ص ٢٢٥ .

(٨٠) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص ٣٧-٣٨ .

(٨١) الوردي ، لمحات اجتماعية ٢ ص ٢٢٦ ، عن شوقي أفندي ، ص ١٤٩-١٥٠ .

(٨٢) المصدر نفسه .

غادر بهاء الله بغداد مع أسرته وخمسة وسبعين بابياً ، في ٩ أيار «مايو» ١٨٦٣ ، في قافلة تضم خمسين بغلاً وسبعة هوادج ، ويصحبها عشرة فرسان من جنود الحكومة . وكانت الرحلة عبر كركوك والموصل . وصلت قافلة البابيين استانبول بعد سفر ثلاثة أشهر . بعدها نقلوا إلى أدرنة ليطول بهم المقام هناك حوالى الأربع سنوات . وهناك استبدل اسم البابية بالبهائية . أما أخوه صبح أزل وجماعته ، الذين التحقوا به ، فظلوا بابيين . ولمشاكل حصلت بين الطرفين ، بعد تبديل اسم الدعوة ، فرقت الحكومة العثمانية بين الطرفين . رحلت بهاء الله والبهائيين إلى فلسطين مدينة عكا ، ورحلت صبح أزل والبابيين إلى جزيرة قبرص .

حل البهائيون بعكا ، في ٣١ أغسطس ١٨٦٨ . عاش بهاء الله فيها أربعة وعشرين عاماً بين سجين ومعزول ببيته ، واتخذها مكاناً مقدساً بعد أن فشل في الاحتفاظ ببغداد ، حتى مات في ٢٨ أيار «مايو» ١٨٩٢ عن عمر ناهز الخامسة والسبعين . وهناك كتب كتابه المقدس «كتاب أقدس» . وفيه ذكر الأماكن التي ناضل فيها ، بقوله «هذا ما أخبرناكم به إذ كنا في العراق وفي أرض السر ، وفي هذا المنظر المنير (بعكا)»[٨٣] . ومن ذلك المنظر المنير بعكا وجه بهاء الله رسائله إلى ملوك وحكام العالم . ومنه وصلت البهائية أوروبا وأمريكا والحبشة وغيرها من بقاع العالم . خلف بهاء الله على رأس الحركة ولده عباس أفندي ، المعروف بعبد البهاء ، الذي رافقه كل حياة المنفى . وبعد وفاة الأخير السنة ١٩٢٢ ، الذي رضى عنه البريطانيون عند دخولهم عكا ، وقلدوه وساماً ولقباً نبيلاً . وبعد وفاته خلفه في رئاسة البهائية ولده شوقي أفندي . وبعكا وحيفا ، حيث سفح جبل الكرمل ، شيد البهائيون أقدس مكانين لهم ، هما ضريح الباب وضريح بهاء الله .

الكعبة البهائية

من آثار البهائيين ببغداد الكعبة البهائية . وهي الدار التي سكنها بهاء الله بالكرخ محلة الشيخ بشار ، غرب بغداد . تعود الدار إلى موسى هادي الجواهري ، الذي حاول إهداء الدار إلى بهاء الله ليقيم فيها . غير أن الأخير رفض العرض بقوله : «إن قبول هذه الأشياء ليس من سجايانا ، وهو بعيد عن مبادئنا وعقائدنا»[٨٤] . وحرص أن يسكنها مقابل أجر معلوم . وبعد إبعاده عن بغداد تركت الدار عند البابيين «دون أن تسجل باسمه في القيود الحكومية ، لعدم وجود دوائر الطابو في العراق يومئذ»[٨٥] . وحسب عبد الرزاق الحسني ، أن حجاجاً بهائيين يردون من بلدان أخرى لزيارة تلك الدار والتبرك بها .

---

(٨٣) كتاب أقدس ، ص ٣٥ .

(٨٤) الحسني ، البابيون والبهائيون ، ص٦٣ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

وفي العام (١٩٠٠) ادعى أحد العراقيين ملكيته للدار . لكنه لم ينجح بتأكيد دعواه ، وقد أمر عبد البهاء عباس أفندي بتجديدها ، «فجمع البهائيون في العراق الأموال الطائلة لتنفيذ هذا الأمر ، واحضروا المهندسين لهذا الغرض ، واعادوا بناء كعبتهم دون تحوير . أو تغيير ، فلما شاهد المسلمون هذا التجديد شعروا بالأهمية التي ستكسبها الحركة البهائية»[٨٦] .

عينت المحكمة ، بعد غياب القيم على الدار ، البهائي محمد حسين الكتبي ، وكيلاً عن القيم الغائب ، مع احتفاظ البهائيين بملكيتها وإدارتها . وبعد حين ظهرت للكتبي وريثة تدعى ليلى ، وبعد وفاتها دون الحصول على حصتها من الأرث ، طالب ورثتها ، جواد كابي وأخته بي بي بملكية الدار ، وجاءا بشهود لإثبات النسب والملكية ، فأصدر قاضي المحكمة في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ حكماً كان في صالحهما[٨٧] .

وحسب الحسني أيضاً ، أن جمعيات أوروبية وأمريكية بعثت ببرقيات الاحتجاج إلى المندوب السامي البريطاني على العراق ، السر برس كوكس ، تحث الحكومة البريطانية للتدخل لصالح البهائيين في هذه القضية . لكن الملك فيصل الأول تفهم الموقف إزاء الصراع بين البابية والشيعة «فأمر بتخلية الدار وحفظ مفاتيحها لدى الحكومة حفظاً للأمن» .

انتهت قضية الدار ، بمحلة الشيخ بشار بكرخ بغداد ، لصالح جواد كابي وبي بي ، ثم تحولت إلى حسينية ، وما زالت . أما البهائيون فدولوا القضية وطرحوها على طاولة عصبة «فدرست لجنة الانتدابات في العصبة طلبهم ، وتقدمت بمشروع قرار يتضمن توسيط الحكومة البريطانية المنتدبة لمفاتحة الحكومة العراقية بضرورة إرضاء المشتكين»[٨٨] .

لم يكن انضمام العراق ، دولة مستقلة ، إلى عصبة الأمم في ٣ تشرين الأول ١٩٣٢ لصالح تعلق البهائيين بكعبتهم ، فقد أغلق ملف القضية ، وظلت الدار حسينية ، تنطلق منها مواكب عزاء عاشوراء . ومقابل ذلك عوضت الحكومة العراقية البهائيين كعبتهم بقطعة أرض في محلة السعدون ، وسط بغداد . وشيدوا عليها محفلاً ، ظل مفتوحاً حتى بداية السبعينات . وبعد تحريم الشاط البهائي حول المحفل إلى دائرة للأمن . لقد أُلغيت المحافل البهائية بالعراق كافة وفقاً للقانون رقم ١٠٥ لسنة ١٩٧٠ ، الذي حرم الاعتقاد البابي والبهائي ، وهذا نصه :

«استناداً لأحكام الفقرة (ج) من المادة الخمسين المعدلة من الدستور المؤقت وبناء على ما عرضه وزير الداخلية ، وأقره مجلس قيادة الثورة صدر القانون التالي :

---

(٨٦) المصدر نفسه .

(٨٧) المصدر نفسه .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص٦٠ .

المادة الأولى : يحظر على كل شخص تحبيذ أو ترويج البهائية ، أو الانتساب لأي محفل أو جهة تعمل على تلقين أو نشر البهائية أو الدعوة إليها بأي شكل من الأشكال .

المادة الثانية : لا يجوز بيع أو توزيع أو طبع أو حيازة الكتب والنشرات البهائية . وتمنع مثل هذه الكتب والنشرات الصادرة في الخارج من الدخول إلى العراق والتداول فيها .

المادة الثالثة : تغلق جميع المحافل البهائية ، ومراكزها الموجودة في العراق ، ويوقف نشاطها . ويمنع كل شخص طبيعي أو حكمي ، وأية منظمة ، أو هيئة أو جهة من القيام بأي نشاط كانت تمارسه المحافل والمراكز المذكورة . ولوزير الداخلية إصدار القرارات اللازمة لتنفيذ ذلك .

المادة الرابعة : تؤول أموال وموجودات المحافل البهائية ومراكزها بعد تصفيتها إلى الجهة أو الجهات التي يصدر بتعيينها قرار من رئيس الجمهورية بناء على اقتراح من وزير الداخلية . ويسري هذا الحكم على الأموال والموجودات والعقارات المسجلة باسماء المحافل والمراكز البهائية ، أو بأسماء أخرى ، التي ثبت أنها مخصصة للأغراض البهائية .

المادة الخامسة : يحتفظ في دوائر الأمن بجميع المستندات والأوراق والسجلات ، والكتب والموجودات والأموال الأخرى ، التي لا يجوز تداولها العائدة للمحافل البهائية ومراكزها .

المادة السادسة : يعاقب المخالف لأحكام هذا القانون بالحبس مدة لا تقل عن عشر سنوات وبالغرامة أو بإحدى هاتين العقوبتين .

المادة السابعة : لوزير الداخلية إصدار التعليمات المقتضاة لتسهيل تنفيذ هذا القانون .

المادة الثامنة : ينفذ هذا القانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية .

المادة التاسعة : على الوزراء تنفيذ هذا القانون»[٨٩] .

وكانت الحكومة العراقية في عهد عبد السلام عارف قد أصدرت قراراً السنة ١٩٦٥ ، وهو المادة الرابعة من قانون السلامة الوطنية ، حرمت فيه النشاط البهائي وقررت بموجبه إغلاق المحافل البهائية[٩٠] . لكنها لم تتشدد في تنفيذه . وحسب الإحصاء السكاني لعام ١٩٦٥ بالعراق بلغ عدد البهائيين (٧٤٤) بهائياً ، يتوزعون على بغداد والبصرة وديالى وأربيل

---

(٨٩) الحياني ، البهائية حقيقتها وأهدافها ، ص١٤٣ ، عن جريدة الوقائع العراقية ، العدد ١٨٨٠ ، ١٨ مايو ١٩٧٠ .

(٩٠) المصدر نفسه ١٤٢ ، عن وزارة الداخلية رقم الكتاب ٢٦٦٨ والمؤرخ في ١١إبريل ١٩٦٥ .

وكركوك[٩١] . ويذكر أنهم لم ينقطعوا عن العمل وكسب الأتباع ، فقد نشطوا في التسعينيات من القرن الماضي . ويظهر رئيسهم في المحافل عبر العلاقات الاجتماعية . فالآخرون يذكرون للبهائيين الإستقامة وسعة الصدر والثقافة . إن وجودهم الدولي وقوة تأثيرهم في الغرب تهيؤهم إلى التناسل بالعراق وخاصة في الأجواء الديمقراطية التي بدأت تترتب بعد التاسع من «نيسان» أبريل ٢٠٠٣ .

إن البهائية التي طوردت من جديد بالعراق ظلت متنفذة بإيران ، فقد ذكر الوزير المغربي ومستشار الملك الحسن الثاني عبد الهادي أبو طالب ، في مذكراته أنه توسط العام (١٩٧٨) بين شاه إيران ومراجعها الدينية . فكان من شروط آية الله العظمى كاظم شريعتمداري ، الذي لم يتفق مع أسلوب آية الله الخميني في الثورة ، للمصالحة هو «ألا يحكم الشاه بالأقلية بل بالغالبية ، والأقلية هنا هم جماعة البهائيين ، الذين وضعهم الشاه بجانبه لإدارة الحكم ، وآثرهم على المسلمين ، وأصبح يحكم بهم ضد الأغلبية الإسلامية ، فيما البهائيون لا يشكلون في أقصى التقديرات إلا نسبة خمسة بالمئة[٩٢] .

وإن غض الأمريكيون الطرف عن قمع البهائيين العراقيين ، في زمن التقارب بين العراق وأمريكا في السبعينيات ، تحدث مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية لشؤون الحرية الدينية الدكتور روبرت سيبل عن اضطهاد البهائيين بإيران لمراسل جريدة «القدس العربي قائلاً : «يوجد أناس على قائمة الإعدام هناك ، وأنا واثق من أنك لم تقابل أبداً بهائياً لم تحبه وتقدره . إنهم أناس هادئون وليسوا سيئين على الإطلاق . ونحن نعتبر المذهب البهائي يتمتع بشرعية كاملة مثل أي مذهب أو دين آخر . ويجب حماية اتباعه . ويتميز الوضع بإيران بوجود استهداف واضح وعن قصد للبهائيين . وبالتالي فأن قتلهم يحدث بشكل مباشر وبسياسة واضحة تتبعها الحكومة هناك . وهذا يضع إيران في قسم خاص بها ، حيث يوجد اضطهاد مستمر ومنهجي ضد البهائيين . ونحن نأمل في أن تتحسن الأوضاع هناك»[٩٣] .

معاملات وعبادات

لم تترك الشيخية ، حسب ما توفر من المصادر ، أي تغييرات في العبادات والمعاملات الدينية . وكل ما بشرت به كان تصورات عقائدية ، خصت المهدي المنتظر والمعاد والمعراج .

---

(٩١) المصدر نفسه ١٤٠ ، عن جغرافية الاقليات الدينية في العراق ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٩٢) جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٨٠٨٧ تاريخ : ١٨يناير ٢٠٠١ .

(٩٣) جريدة القدس العربي ، العدد ٣١١٣ تاريخ : ١٢ مايو ١٩٩٩ .

ففي عقيدتها أن كل تلك المظاهر روحية وليست جسمية . إلا أن البابية ومرحلتها البهائية جعلت من تلك التصورات مقدمات لتغييرات عديدة في التعامل الديني . وأول ما فعلته أنها فصلت المعاملات الاجتماعية عن فلك الدين .

انطلقت البابية من منطلق الزمن وجريانه المستمر إلى الأمام . فليس في عرفها نصوص صالحة لكل زمان . غير أن دعوتها إلى وحدة العالم الدينية والدنيوية أشارت إلى إيمانها بصلاحية نصوصها لكل مكان على الأرض . ولعلّ قراءة العقيدة البابية بوضوح ، وتأمل نزعتها الدنيوية القوية وتأويلها الظواهر الآنفة الذكر ، يجعلنا نعتقد أنها لولا منزلة الدين القوية في المجتمع ، ولما اتخذته طريقاً لها في الإصلاح والتجديد ، حتى أن المقاومة الدينية الشرسة التي واجهها مؤسسها حتى يوم إعدامه جعلته يهادن مرة ويثور أخرى ، ويلجأ عبر الدين إلى محاولة اقناع المجتمع المنغلق على نفسه بقبول إصلاح اجتماعي عبر إصلاحات عقائدية .

أبرز إصلاحات الحركة كان في المواريث ، فإلى جانب الأب والأم والذرية والزوجة والأخ والأخت يورث المتوفى مَنْ علمه . ولعل البابية والبهائية أول ديانة وجماعة في تاريخ البشرية جعلت للمعلم حقاً في الميراث . جاء في حكم الميراث عند البهائية ، حسب قرار الباب سابقاً : «قسمنا المواريث على عدد الزاء منها قدر لذرياتهم من كتاب الطاء ، على عدد المقت . وللأزواج من كتاب الحاء على عدد التاء والفاء . وللأب من كتاب الزاء على عدد التاء والكاف . وللأمهات من كتاب الواو على عدد الرفيّع . وللإخوان من كتاب الهاء عدد الشين . وللأخوات من كتاب الدال عدد الراء والميم . وللمعلمين من كتاب الجيم عدد القاف والفاء . كذلك حكم مبشّري الذي يذكرني في الليالي والأسحار»[٩٤] .

يعني النص الآنف أن الميراث يقسم على عدد حروف الزاء . أي إلى سبعة حصص . فالزاء في حساب الحروف يساوي سبعة ، وهي حصة : الولد ، والزوج ، والأب ، والأم ، والأخ ، والأخت ، والمعلم . وفي حال انعدام الوريث يذهب الميراث إلى بيت العدل . وهذا البيت يتأسس وفقاً لما ورد في «كتاب أقدس» : «قد كتب الله على كل مدينة أن يجعلوا فيها بيت العدل ، ويجتمع فيه النفوس على عدد البهاء» . وحكم زكاة الأموال في «كتاب أقدس» كالآتي : «الذي يملك مائة مثقال من الذهب فتسعة عشر مثقالاً لله فاطر الأرض والسّماء ، إياكم يا قوم أن تمنعوا أنفسكم عن هذا الفضل» .

عدلت البهائية عدد من العقوبات ، منها عقوبة الزنا ، فأصبح حكمها : «حكم الله لكل زان وزانية دية مسلّمة إلى بيت العدل ، وهي تسعة مثاقيل من الذهب ، وإن عادا مرة أخرى عوّقبوا بضعف الجزاء» . كذلك حرمت البهائية كل ما يضرّ البهائي من التدخين ،

---

(٩٤) كتاب أقدس ، ص٢٠ .

وشرب والخمر، وتعاطي والأفيون، ولعب القمار. وسمحت البهائية بانشاد الشعر في الصلاة. وارتداء ما يريد ارتداءه المصلي من الثياب. وقال المشرع: إن ذلك لم يكن ممنوعاً في القرآن. ولكن «اشتبه على العلماء»، ففسروه بالتحريم. وأبطلت التيمم للصلاة، حتى في حالة استحالة وجود الماء. وتقرر استبداله بذكر «خمس مرات بسم الله الأطهر الأطهر». وفي أمية الدعوة البابية أو البهائية، ورد في الكتاب المذكور «والبلدان التي طالت فيها الليالي والأيام فليصلوا بالساعات، والمشاخص التي منها تحدد الأوقات»[٩٥].

في فروض الصلاة، أُلغيت صلاة «الآيات» مثل الكسوف والخسوف. واستبدلت بقوله: «إذا ظهرت اذكروا الله بالعظمة والاقتدار، أنه السميع العليم»[٩٦]. كما ألغيت صلاة الجماعة، ما عدا الصلاة على الميت، بالقول: «كتب عليكم صلاة فرادى، قد رفع حكم الجماعة. إلا في صلاة الميت أنه لهو الآمر الحكيم»[٩٧].

خالف عبد البهاء في تصريحه الخاص حول صلاة الجماعة ما ورد في «كتاب أقدس». قال: «إذا اجتمع جمع كثير فأن قوتهم تكون عظيمة، فالعسكر إذا حاربوا منفردين فلا يكون له قوة الجيش المتحد، فإذا أتحد الجند في هذا الحرب الروحاني مجتمعين فإن احساساتهم الروحانية المجتمعة تساعد بعضهم البعض، وتكون دعواتهم مقبولة»[٩٨].

وهذا الاختلاف، على حد علمي، له علاقة بالظروف التي تحيط بالدعوة، ففي ظروفها السرية، حيث النفي والأسر والقتل منع بهاء الله صلاة الجماعة، التي تثير بشكل من الأشكال حفيظة السلطات ضدها، وبعد تبدل الظروف اجتهد عبد البهاء بفرضها. وحسب اعتقاد البهائية أن الوحي دائم الاتصال بالأرض. لذا لا يكون تبرير نسخ الشريعة والعبادات مستحيلاً. والصلاة المفروضة على البهائي في «كتاب أقدس» هي «تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال، وفي البكور والآصال. وعفونا عدة أخرى أمراً في كتاب الله أنه لهو الآمر المقتدر»[٩٩].

اتخذ البهائيون من عكا بفلسطين قبلةً، فهي مكانهم المقدس، ومنطلق دعوتهم إلى القارات الخمسة. يتوجهون إلى جبل الكرمل حيث الضريح أو المقام الأقدس قبر بهاء الله. وفرض التوجه إليه بالنص الآتي: «وإذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري الأقدس المقام

---

(٩٥) المصدر نفسه، ص ١١.
(٩٦) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٩٧) المصدر نفسه.
(٩٨) أسلمنت، بهاء الله والعصر الجديد، ص ٩٨، عن مذكرات المس ايثيل روز نبرج.
(٩٩) كتاب أقدس، ص ٦.

المقدس ، الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى . ومقبل أهل مدائن البقاء . ومصدر الأمر لمن في الأرض والسموات»[١٠٠] . وصلاة البهائيين اليومية ثلاث : الصلاة الكبيرة ، والوسطى ، والصغيرة ، وفيها قراءة الأدعية والسجود والقنوت ، والتأكيد على وحدانية الله ونعمته ، وليس فيها ذكر للباب أو بهاء الله . وصومهم ، الامتناع عن الأكل والشرب والشهوات طوال الشهر التاسع عشر ، والذي عدد أيامه تسعة عشر يوماً . وهذا الرقم له علاقة ، كما ذكرنا آنفاً ، بعدد حروف حي الثمانية عشر مع اضافة اسم الباب . ورد في النص : «قد كتبنا عليكم الصيام أياماً معدودات ، وجعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها . كذلك أشائت (هكذا وردت) شمس البيان ، من أفق من لدن مالك المبدء والمئاب»[١٠١] . إضافة إلى الصلاة والصوم ، وضعت البهائية الطقس الآتي : «أن يغسل في كل يوم يديه ثم وجهه ، ويقعد مقبلاً إلى الله ، ويذكر خمساً وتسعين مرّة الله أبهى»[١٠٢] .

أما الموقف الإيجابي من المرأة ، والذي أكدته قرّة العين ومارسته ودفعت حياتها ثمناً له ، فيعبر عنه عبد البهاء في خطبته في مؤتمر حرية المرأة بلندن العام ١٩١٣ . قال : «إن الإنسان كالطائر ذي جناحين ، أولهما الذكر والآخر الأنثى . وما لم يكن الجناحان قويين تحركهما قوة واحدة فإن الطير لا يقدر أن يطير نحو السماء . فتبعاً لروح هذا العصر يجب أن يتساوين مع الرجال»[١٠٣] . ونسخت البهائية تحريم الربا ليتماشى مع التطورات المالية ، مع ترك تحديد نسبته إلى بيت العدل . ورد في النص «أن أكثر الناس محتاج لهذه المعاملة ، ولو لم يكن ربح متداول معمول به بين الناس تتعطل وتتعوق الأمور ، وقلما يوجد من يوفق بمراعاة أبناء جنسه ، وأبناء وطنه ، ويقرضهم قرضاً حسناً . لذا فضلاً على العباد ، قررنا الربح كسائر المعاملات المتداولة بين الناس ، وصار ربح النقود حلالاً طيباً طاهراً»[١٠٤] .

أعلنت البهائية النوروز عيداً دينياً ، بدل عيدي الفطر والأضحى ، يسبقه شهر صيام . إضافة إلى النوروز لديهم أعياد : الرضوان ٢١ أبريل (١٨٦٣) ، الذي شرعه بهاء الله في حديقة نجيب باشا ببغداد . وعيد ميلادي الباب ، ٢٠ أكتوبر (١٨١٩) . وعيد بهاء الله ١٢ نوفمبر (١٨١٧) . وعيد إعلان دعوة الباب ، الذي يصادف عيد ميلاد عبد البهاء ، ٢٣ مايو (١٨٤٤) . وموسم أحزانهم هو يوم إعدام الباب ٩ يوليو (١٨٥٠) ، ويكون يوم صمت وحزن .

---

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ٧ .

(١٠١) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ١٨-١٩ .

(١٠٣) مختصر المبادئ البهائية ، ص ١٣ .

(١٠٤) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص ١٤٥ ، عن لوح اشراقات .

وحساب الزمن حسب التقويم البهائي : السنة إلى تسعة عشر شهراً ، هي : البهاء ، الجلال ، الجمال ، العظمة ، النور ، الرحمة ، الكلمات ، الأسماء ، الكمال ، العزة ، المشيئة ، العلم ، القدرة ، القول ، المسائل ، الشرف ، السلطان ، الملك والعلا . وتبدأ سنتهم بما يقابل التقويم الميلادي ٢١ مارس (آذار) ، وهو يوم النوروز . ويبتدأ التاريخ البهائي من سنة ظهور الباب (١٨٤٤) ، أي يكون عام ألفين الميلادي مقابلاً للعام ١٥٦ البابي أو البهائي .

يعتقد البهائيون بوحدة البشر في الدين واللغة والمعاملة ، وما يتطلبه من توحيد المقاييس والأوزان والعملات النقدية . وكل هذا يتحقق حين تسود التعاليم البابية والبهائية على الأرض بالفيض لا بالفتوحات . ورد في «لوح اشراقات» لبهاء الله ما نصه : «إتحاد العباد واتفاقهم ، فلم تزل آفاق العالم مستضيئة بنور الإتحاد . والسبب الأعظم في ذلك معرفة بعضهم لغة بعض ، وكذلك الخط . إنا أمرنا أمراء بيت العدل ، من قبل في الألواح ، أن يختاروا لساناً من الألسن الموجودة ، أو يبتدعوا لساناً جديداً . وكذلك يختاروا خطاً من الخطوط ، ويعلموا به الأطفال في مدارس العالم ، حتى يشاهد هذا العالم وطناً واحداً وأرضاً واحدة»[١٠٥] . ويعتقد البهائيون أن دعوتهم سبقت العالم البولندي (لودفيك زامنهوف) مخترع لغة (الاسبرانتو) العلمية . كما ادعت أنها وراء فكرة محكمة لاهاي الدولية ، وسباقة في الدعوة إلى تأسيس عصبة الأمم .

وللبهائية تطلعاتها في تنظيم المجتمع ، من دون الدعوة إلى معارضة الحكم ، أو العمل على تبؤ السلطة السياسية في بلد ما . فالعمل السياسي محرم لديها . قال عبد البهاء : «ميزان معرفة ما إذا كان الشخص بهائياً أم غير بهائي هو أن الشخص الذي يتدخل في الأمور السياسية ، أو الذي يتخطى حدود وظيفته الشخصية ، فعمله هذا يكون برهاناً كافياً على أنه ليس بهائياً ، ولا حاجة لبرهان آخر» .

وفي مجال الزراعة ، أوصت البهائية بتأسيس جمعية لكل قرية ، ينتخب أعضاؤها . وأن يكون للقرية مخزن عمومي له سبعة واردات : الأعشار (ضريبة تصاعدية على أموال الميسورين) ، وضريبة الحيوان ، والمال الذي لا وارث له ، واللقطة (المال الذي يُعثر عليه) ، والدفينة (الكنز) ، والمعادن ، والتبرعات . وللمخزن مصروفات سبعة هي : المصاريف العامة ، والصحة ، وأداء العشر للحكومة ، وأداء الرسوم والضرائب ، والصرف على أيتام القرية ، وإعاشة العجزة ، وإدارة مدرسة القرية ، وإكمال المعيشة الضرورية لفقراء القرية . يتبع ذلك أن مخزن القرية يساعد الشخص الذي تنقص وارداته عن مصروفاته ، مع تحريم البطالة والكسل تحريماً قاطعاً .

---

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٦-١٧٧ .

ولعلَّ البهائية سبقت في هذا التشريع تشريع مساعدة العاطلين عن العمل ، وأصحاب الدخول المنخفضة بأوروبا . غير أنها ، في كل الأحوال لم تسبق التشريعات القرمطية ، في تأسيس مثل هذه القرى والمخازن ، وفي منح المساعدة للعاطلين ، مثلما شرعت ذلك الدولة القرمطية بالبحرين في القرن الرابع هجري (راجع ناصر خسرو ، سفرنامة) . ولمعاجة ذلك ترى البهائية ضرورة العمل على تعليم البهائيين الحرف والمهارات . ورد في «كتاب أقدس» : «يا أهل البهاء قد وجب على كلٍّ واحد منكم الاشتغال بأمر من الأمور من الصنائع ولاقتراف وأمثالها . وجعلنا اشتغالكم بها نفس العبادة لله والطافه . ثم اشكروه في العشى والإشراق . لا تضيّعوا أوقاتكم بالبطالة والكسالة . واشتغلوا بما ينتفع به أنفسكم وأنفس غيركم . كذلك قُضي الأمر في هذا اللوح الذي لاحت من افقه شمس الحكمة والتبيان . ابغض الناس عند الله من يقعد ويطلب . تمسكوا بحبل الأسباب متوكلين على الله مسبب الأسباب . قد حُرِّمَ عليكم تقبيل الأيادي في الكتاب . هذا ما نهيتهم عنه من لدن ربكم العزيز الحكام»[١٠٦] .

نادت البهائية بالمساواة الطبقية بين الرأسماليين والعمال . أعلن ذلك عبد البهاء في مؤتمر بالولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩١٢ ، وطالبه بالتخلي سلمياً عن استغلال العمال ، الذي أُطلق عليه عبارة الرق الصناعي . قال مناشداً العالم الرأسمالي : «إنكم عملتم عملاً صالحاً مجيداً ، فيما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦٥ . فإنكم منعتم الرق والاستعباد الزراعي . ولكنكم الآن يجب عليكم أن تعملوا ما هو أعظم وأعجب . فامنعوا الرق الصناعي . فإن حل المشاكل الاقتصادية لا يمكن تحقيقه بواسطة مقاومة رأس المال ضد العمل أو العمل ضد راس المال . ولكنه يأتي بواسطة حسن التفاهم بين الجانبين ، فتتوثق إذ ذاك عرى العدالة الدائمة الحقة . فعند البهائيين لا يوجد السلب والنهب ، ولا أعمال الطمع والظلم ، ولا المطالب الثورية ، ولا القيام بثورة ضد الحكومات الحاضرة»[١٠٧] .

لا تؤمن البابية والبهائية بتوقف إصال السماء بالأرض أو ختم النبوة ، فالوحي في عقيدتها يواصل النزول . وبرأيها «الحقيقة الدينية ليست مطلقة ، وإنما هي نسبية . وأن الوحي الإلهي عملية مستمرة ومتدرجة» . وبهذا نسخت فكرة ختم النبوة ، وحددت سقفاً زمنياً بين نبي وآخر ، ورد ذلك في كتابها الأقدس : «مَنْ يدعي أمراً قبل إتمام ألف سنة كاملة أنه كذاب مفتر ، نسأل الله بأن يؤيده على الرجوع إن كان أنه هو التواب . وإن أصر على ما قال يبعث عليه من لا يرحمه أنه شديد العقاب . مَنْ يأول هذه الآية أو يفسرها بغير ما نزل في الظاهر أنه محروم من روح الله ، ورحمته التي سبقت العالمين»[١٠٨] . لذا ظهر الباب بعد

---

(١٠٦) كتاب أقدس ، ص ٢٨-٢٩ .

(١٠٧) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص ١٤٦ .

(١٠٨) كتاب أقدس ، ص ٣٣ -٣٤ .

انقضاء ألف سنة هجرية على اختفاء الإمام الثاني عشر محمد المهدي في الغار بسامراء[١٠٩] . لكن بهاء الله لم ينتظر طويلاً فأعلن دعوته بعد تسعة عشر عاماً من غياب الباب .

ختاماً ، حلمت البهائية كثيراً ، ولم يتحقق حلمها المخملي في القرن العشرين ، في أن تكون ، حسب توقع مؤسس البابية الثالث عبد البهاء أن «جميع آفاق العالم قد استنارت ، وسوف يكون العالم كروضة الأوراد وكالجنة»[١١٠] .

---

(١٠٩) بصري ، رحلة العمر من ضفاف دجلة إلى وادي التيمس ، ص ٦٧ .

(١١٠) أسلمنت ، بهاء الله والعصر الجديد ، ص ١٢٣ .

الفصل الحادي عشر

الشبك

تمتاز منطقتا الموصل وكركوك ، عن غيرها من المناطق العراقية الأخرى ، بكثرة تعدد أعراق وديانات ومذاهب سكانها . فهي تحتضن تقريباً التنوع العراقي كافة : العرب والأكراد والآثوريون والكلدان والسريان ومختلف الديانات من مسلمين ومسيحيين وأيزيديين ويهود . إضافة إلى المذاهب والطرق الصوفية والزوايا والتكايا المختلفة ، وربما بقايا من الزرادشتية . ناهيك من وجود الديانة الشمسية (يقدسون الشمس ويقدمون البنات على الأولاد) هناك إلى عهد قريب .

ومما لا شك فيه أن هذا التجاور في المكان والاختلاط اليومي بين هذه التكوينات فرز العديد من التأثيرات والتداخلات . وبالتالي لا يمكن بقاء التكوين العرقي أو الديني أو المذهبي خالص الأصل ، تتمازج عبره اللغة والعقيدة والممارسة الطقسية . وقد يحتم هذا التداخل النزوع إلى اعتقادات أخرى ، ربما اختلفت اختلافاً كلياً عن الكيان الأصل . وهذا الأمر يفرض نفسه كواقع لا يملك الناس التحكم فيه . وليس من أماني أتباع هذا التكوين أو ذاك هو الانشطار عن الأصل والاستقلال بكيان مختلف . كذلك للجغرافية دورها المؤثر في طبائع الناس ، فما تفرضه العزلة الجبلية غير ما يفرضه الامتداد الصحراوي أو السهول والأهوار . عموماً ، لكل مكان من هذه الأمكنة تأثيره الخاص على المفاهيم الدينية والمذهبية .

فمن الصعوبة بمكان إيجاد تشيع في الإمتدادات الصحراوية ، وبين قبائل البدو الرحل . فقد اقترن وجود التشيع بالسهول وأماكن الأطيان ، بما فيها من زراعة واستقرار تثبته روحياً الأضرحة والمزارات . أما الامتداد الصحرواي فوجد ضالته في المذهب الحنبلي والمالكي . وتبلور من الأول المذهب الوهابي حيث الانسجام مع البداوة ، ورفض الضريح والمزار والتوسل

بما يحيط . والأمر لا يفسر بالتوحيد أو الشرك ، شرك اللائذين بالأضرحة وإيمان الرافضين لها ، وإنما يفسر بروح الإنسان وما نشأ عليه من عاطفة تفرض عليه التوسل إلى الله . وليس غريباً أن يرث الشيعة الطقس السومري في البكاء على دموزي .

كل هذه التأثيرات الهامة وخصوصاً في الحياة لا زالت غير مستوعبة من قبل الباحثين أو الفقهاء ، في التعامل تجاه بعض المذاهب التي تبدو مختلفة جزئياً عن الأصل الديني ومنابعه الفقهية . والأمر قد لا يبدو دائماً انحرافاً مقصوداً عن الجادة ، أو انسلاخاً إلى مفاهيم أخرى يُكفر عليها البعض ، وتشن عليه حروب الإبادة لحمله على العودة إلى الأصول التي يُعتقد أنها باقية صافية كما هي . وكأن الأمر يحدث منفصلاً عن تأثيرات البيئة الاجتماعية والجغرافية . وأن جماعة مسلمة معينة اختلطت لمئات السنين مع المسيحيين أو اليهود أو الأيزيديين لا بد أن تتأثر بما عند هذه الأديان من أعياد وتقاليد . وكذلك يحدث هذا بالنسبة إلى الكيان الديني الأيزيدي ، أو المسيحي ، أو اليهودي ، أو الصابئي عبر التعايش مع المسلمين ، فهم أبناء جغرافية واحدة ، يتعاملون مع الوادي والجبل بأسلوب واحد . وقد يقرر عليهم هذا التعامل الانسجام بأفراح وأحزان واحدة ، رغم استقلاليتهم بممارسة الطقوس .

بعد هذا التمهيد العام في التعامل مع ظاهرة الاختلاف في الطقوس والشعائر بين الأديان والمذاهب المختلفة ، التي تجمعها بيئة جغرافية واحدة ، نأتي على كيان كردي عراقي يقطن شمال شرق الموصل منذ القدم . تعامل معه الباحثون والمؤرخون بطرق مختلفة ، منها محاولة سلخه من انتمائه القومي والعراقي أو عزله عن انتمائه الإسلامي .

ابتلي الشبكيون بكُتّاب خلقوا لهم مقالات وطقوساً خاصة ، لمجرد سماعها من شخص جاورهم لفترة من الزمن ، أو من آخر إدعى أنه كان منهم ، ثم اهتدى إلى المذهب السليم! وكل ما في الأمر أن قبيلة الشبك الكردية التي منها الشيعة والسُنّة كبقية الكيانات القبلية لا يميزها عن بقية المسلمين مقال ديني أو طقس خاص . ولولا اللغط الذي دار حولهم ما كنا نذكرهم بفصل خاص في كتاب عنوانه «الأديان والمذاهب بالعراق» . إلا أن عدم ذكرهم سيثير التساؤل . لأن كيانهم ترسخ عبر أحمد حامد الصراف وعباس العزاوي وأنستاس الكرملي وغيرهم . واعتادت إحصاءات الدولة العراقية أن تجمعهم مع الأيزيديين ، فيبدون وكأنهم ديانة خاصة ، تثير طقوسها الخفية فضول الآخرين .

زارني شبكي مقيم بلندن ، اسمه حاتم عبد الله زبير ، دون سابق معرفة ، على أثر مقال نشرته في جريدة الحياة (أوائل كانون الثاني ١٩٩٧) حول الدين الأيزيدي ، وكان بعنوان «الأيزيدية ديانة قديمة . . ليس لها علاقة بيزيد بن معاوية ولا بعبادة الشيطان» . وكان عتبه

أني نقلت الإحصاءات الخاصة بالأيزيدية جمعاً مع الشبك ، رغم أن الرجل لم ينطلق في ملاحظته من عصبية دينية . عرفني حاتم بنفسه أنه شبكي كردي من أهل السُنَّة ، واسمه يدلُ على سُنّيته ، فليس بين الشيعة ، حسب علمي ، مَنْ يدعى زبيراً . ذلك خروجه على علي بن أبي طالب وراء جمل عائشة أم المؤمنين بالبصرة . وأن هناك من أبناء قبيلته مَنْ هم شيعة . وعدد لي أسماء مساجد سُنّية وأخرى شيعية لدى الشبكيين . ليس في ملامح الرجل وسلوكه ما يؤكد ما حبَّره فيهم أحمد حامد الصراف في كتابه «الشبك» ، والذي للأسف أصبح مرجعاً للعديد من الباحثين والدراسات الأكاديمية ، مع أن الكتاب ليس فيه منهج علمي ، ولا رواية صحيحة .

نبهني حاتم الشبكي إلى أمور جوهرية ، وقدم لي بعض كتابات الشبكيين حول كيانهم القبلي . ولم يكن بوسعي إلا البحث في حقيقة هذا الكيان الديني أو المذهبي الملفق ، عبر قراءة المصادر ونقدها . وكان أولها كتاب الصراف آنف الذكر ، وما كُتب عنهم في المجلات والموسوعات ، ومنها «الموسوعة الإسلامية» . قبل أن تتوطد العلاقة مع الزبير ظننت أنه سيقص عليًّ ما قصه أحد الشبكيين للأب الكرملي أو أحمد الصراف أو عباس العزاوي ، فالكل كتبوا بهذه الطريقة . لكن الشبكي الذي أمامي ليس لديه من علم الباطن أو الطقس الباطن الذي نُسب إلى قومه ، ظهر أنه شافعي حاله حال الكرد الآخرين ماعدا الفيليين فهم من أهل الشيعة .

فمن هم الشبك وماذا كُتب عنهم؟

يتردد اسم الشبك كثيراً ، مرة كتكوين قومي عراقي وأخرى تركي أو فارسي ، أو ديانة مستقلة لها جذورها الزرادشتية أو الأيزيدية ، وغالباً ما يعد من الغلاة (العلي إلهية) دون الإلتفات إلى انقسام الشبك المذهبي الشيعي والسُنّي كباقي الشعوب والقبائل الإسلامية . كتب عن الشبك بشكل عابر مؤرخون كرد وعرب ورحالة غربيون ومستشرقون . مثل المؤرخ الكردي محمد أمين زكي . قال : «توجد في لواء الموصل طائفة أخرى تذكر بأسماء شارلي (سارلي أو صارلي أو الصارلية) ، وباجوان (وردت أيضاً بالباجوران) والشاباك ، فهذه الطائفة أيضاً بأقسامها الثلاثة كردية بحتة . يؤيد هذا تقرير عصبة الأمم حيث ينص في صفحة (٦٠) أن لغة هذه الطائفة أيضاً كردية ، ولكنها قاسية خليطة وغير فقهية ، ولها نحلة خاصة»[1] .

وذكرهم من الغربيين (ستيفن همسلي لونكَريك) أحد ضباط الحملة البريطانية على

(١) زكي ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١ ص ٢٨ .

العراق في كتابه «العراق الحديث» . اعتقد خطأً منذ العشرينيات ذوبان التكوينات العراقية في المجتمع العربي ، وذلك عند حديثه عن التركمان العراقيين . قال : «ويصدق هذا الشيء على طائفة الشبك الصغيرة التي تعيش وتتحدث بلهجة كردية محلية ، على ضفاف دجلة جنوبي الموصل . والمعتقد أنهم يمثلون الطراز الهرطقي (البدعة أو الانحراف في الدين أو المذهب) من الشيعة»[٢] . وكتب عن الشبك أيضاً المستشرق الروسي (فلاديمير مينورسكي) قائلاً : «الشبك طائفة إسلامية كردية الأصل تقطن في ولاية الموصل . . . ولهم صلة قرابة بجيرانهم اليزيدية ، وهم يحضرون اجتماعات هؤلاء ويزورون مزاراتهم»[٣] .

كتب الأب الكرملي واصفاً الشبك : «لا يُعرف لهم دين خصوصي»[٤] . وجعل الأب الكرملي عنوان مقاله حول الصارلية والباجوران والشبك ، «تفكهة الأذهان في تعريف ثلاثة أديان» . وهذا اعتراف ضمني أن الشبك ليس مذهباً بل ديانة . ومثل هذا المقال ما زال في متناول الباحثين ومعتمد في البحث ، كون شهرة الأب الكرملي ذائعة في الآفاق العلمية . ومن هؤلاء أخذ كامل مصطفى الشيبي ليجعل الشبك ضمن العلي إلهية ، ويقر بكتبهم الخاصة ، وبطقوسهم التي خالفوا فيها المسلمين . ويرى : أن الشبك قبائل تركمانية ، يستخفون بالتكاليف الشرعية من إباحة المحرمات ، ورفع الواجبات الدينية . إلا أنه أثنى على مَنْ برأهم من إباحة الجنس ، يمارسون ليلة عُرفت بليلة الكفشة يختلط فيها الرجال بالنساء ، التي أُتهم فيها المعارضون في كل أطوار التاريخ . وأخيراً عدَّ الشيبي الشبك طريقة دينية متأثرة بالطريقة الصفوية[٥] .

اعتمدت الدراسات الغربية تلك المعلومات والأحكام لتصبح هي الأخرى من المصادر الرئيسة في دراسات أكاديمية حديثة . تناولت الشبك ككيان عرقي وديني مستقل ومتأثر بالمحيط . ومن هذه الدراسات دراسة Amal Vinogradov بعنوان «The case of the Shabak» ، المنشورة في مجلة American Ethnologist (١٩٧٤) ورد فيها : «تكون الشبك أصلاً من الاعتقادات الدينية والفقهية . . . وتشمل اعتقاداتهم واحتفالاتهم الأخوة الصفوية المبنية على حركة أهل الحق» . وفي مكان آخر من هذه الدراسة ذُكر الشبك محل القزلباشية (كلمة تركية تعني الأحمر وتشير إلى جماعة تركية في الجيش الصفوي ، كانوا

---

(٢) لونكريك ، العراق الحديث (١٩٠٠ - ١٩٥٠) ١ ص ٣٠ .

(٣) مينورسكي ، الشبك ، المعلمة الإسلامية ، ترجمة مير بصري . ، من ملاحق كتاب الشبك ، ص ٢٣٠ .

(٤) الكرملي ، تفكهة الأذهان في تعريف ثلاثة أديان ، مجلة المشرق ، تموز ١٩٠٢ .

(٥) الشيبي ، الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر ، ص ٤٨ - ٥٥ .

يعصبون رؤوسهم بعصابة حمراء) ، وذلك باعتبارهم : «من بقايا الصفوية ، التي بدأت في القرن الرابع عشر في غرب أذربيجان ، ووصلت إلى بلاد فارس سنة (١٥٠٢م) في عهد الشاه إسماعيل الصفوي» .

من الكتب التي تناولت موضوعة الشبك بتوسع وباعتماد على معلومات الكرملي وإرشاداته كتاب «الشبك ، من فرق الغلاة في العراق» لأحمد حامد الصراف ، الذي قدم موضوعه العام (١٩٣٨)كمحاضرة في نادي القلم العراقي . ثم طبع ببغداد ككتاب العام (١٩٥٤) . وأحمد الصراف كان حقوقياً ، مدعياً عاماً ، بالموصل خلال الثلاثينيات ، تعرف هناك على شخص شبكي ومنه أستل معلوماته الخاصة بالطقوس والتقاليد ، التي كانت عادات اجتماعية أكثر منها دينية أو مذهبية . وقد أصبح هذا الكتاب مصدراً شبه رئيسي للعديد من الباحثين في قضايا المجتمع الكردي عامة ، أو الشبكي خاصة كأصل ولغة وعقائد .

توصل مؤلف كتاب «الشبك» إلى نتيجة مغلوطة ، مفادها أن عقائدهم خليط من الزرادشتية والأيزيدية والمسيحية واليهودية . وبما أن الكتاب لا يعتمد أسساً علمية في البحث فإن مؤلفه تناقض مع نفسه غير مرة . مرة جعل : «الشبك جماعات من الأتراك»[٦] . وقال في أخرى : «لم يقطع فيه حتى الآن ، أنهم من عنصر كردي أم من عنصر تركي»[٧] . بعدها وضع خمسة احتمالات لأصلهم القومي ، بين أن يكونوا كرداً أو أذريين (الآذرية لغة تركمان العراق ، التي تختلف عن اللغة التركية بأمور) ، أو أتراكاً دخلوا العراق بثلاث طرق مختلفة . وهي احتمالاته الثلاثة الأخرى . لكنه يعود ويسقط كل احتمالاته عندما يصف الاحتمالين الأولين بالضعف ، والثالث عديم البينة ، والرابع فقير البرهان ، والخامس ينقصه الدليل .

يملأ الصراف كتابه «الشبك» بأدعية وابتهالات ، يطلق عليها اسم كتاب «الشبك المقدس» . وبهذا أشار إليهم كديانة ، لا عشيرة كردية تدين الإسلام على مذهبين شيعي وسني كباقي الكرد . وكتاب الشبك الذي سماه الصراف بالكتاب المقدس ، هو كتاب «المناقب» لا يشير محتواه إلى كتاب مقدس إذ كان عبارة عن ذكر كرامات الأئمة والأولياء الصالحين ، الذين يَعتقد بكراماتهم كل شيعة العراق . ويصف الصراف هذا الكتاب بقوله : «يحتوي على حوار في آداب الطريقة بين الشيخ صدر الدين وبين قطب العارفين الشيخ صفي الدين الأردبيلي . ويعد كتاب المناقب من الكتب المقدسة ويعرف عندهم بالبرخ (البويوروق) أي ما يتفضل به»[٨] .

---

(٦) الصراف ، الشبك ، ص٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ص١١ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

يبدو الكتاب الأخير، حسب أسماء شيوخ الطريقة، أنه أحد كتب القلزباشية لا الشبك. هذا ما سيتضح لاحقاً. وزيَّن الصراف كتابه عن الشبك بصور لأماكن مقدسة أيزيدية ذات القباب المخروطية، بينما للشبك مساجد أسوة ببقية المسلمين. ورغم أن حالة الشبك الدينية كحالة الكرد الآخرين أو العرب أوالتركمان، لكن المعلومات الشفوية التي هي من مصادر كتاب الصراف تقول: إنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون. وتنطبق عليهم طقوس الأيزيديين والمسيحيين، كالاعتراف والتناول والاحتفال بعيد رأس السنة، وتسمية شيخهم أو الكبير فيهم بالبابا[٩].

أما المحامي عباس العزاوي في كتابه «الكاكائية» والصادر ببغداد (١٩٤٩) فيعترف بإسلام الشبك، ويعدهم من الفرق المغالية. قال: «هؤلاء الشبك من الطوائف المعروفة بغلوها في العراق، وتسكن في أنحاء الموصل، والمشتهرة كالكاكائية في لواء كركوك، فلا تقل عنها واختلف في أصلها. وتدعي أنها من الأنحاء الجنوبية من إيران، ويغلب الظن أنها من شبنكارة»[١٠]. ويشابه العزاوي بين الشبك والقزلباشية، معرفاً كتاب «المناقب»، الذي ذكره الصراف ككتاب شبكي مقدس، كتاباً للقزلباشية، مع إشارته إلى التماثل بينهما بالقول: «وكتبهم عين كتبهم»[١١].

فمن هي القزلباشية وما هي صلتها بالمنطقة، وكيف رُحلت أحداث هجرتهم ونسب تاريخها إلى الشبك؟

وقد نجد عند مصطفى جواد جواباً للسؤال الآنف. قال: «الذي عندنا أن القزلباشية كانوا من السُنَّة. ولكون هذه البدعة ابتدعت في إيران، سمَى الترك قزلباش، وسموا بلاد إيران بلاد القزلباش. وخلاصة أمرهم أن الشيخ صفي الدين الأردبيلي، جد شاه إسماعيل بن الشيخ حيدر، كان صاحب زاوية في أردبيلِ. وله سلسلة من المشايخ، أخذ عن الشيخ زاهد الكيلاني، وتنتهي إجازته بوسائط إلى أحمد الغزالي وهو سُنِّي مشهور... وكان الشاه إسماعيل في لاهجان في بيت صائغ يُقال له نجم زركر. وبلاد لاهجان فيها كثير من الفرق،

---

(٩) المصدر نفسه، ص ١١٨ - ١٢٠.

(١٠) العزاوي، الكاكائية، ص ٩٥. اعتبر محمد أمين زكي في كتابه «خلاصة تاريخ الكرد وكردستان» الشبانكارة أو الشوانكارة من إمارات إيران الكردية (٤١٢ - ٦٥٨ هـ) وكان لرؤسائها صلة جيدة بالدولة البويهية، واذا تأكدت هذه الصلة وتأكدت أيضاً صلة الشبك الحاليين بإمارة الشبانكارة سيكون أصل التشيع عند قسم من الشبكيين غير غامض، وبعيداً عن الصفويين والقزلباش.

(١١) المصدر نفسه.

كالرافضة والحرورية . . . فتعلم منهم شاه إسماعيل في صغره مذهب الرفض ، فإن آباءه كان شعارهم مذهب السُنَّة ، ولم يظهر الرفض غيره ، فالقزلباشية كانوا من السُنَّة لا من الرافضة»[١٢] .

أما كيف تبعت هذه الجماعة التركية شاهات إيران الصفويين ، رغم الحروب المستمرة بين الدولتين؟ أجاب مصطفى جواد بالقول : إن (تيمورلنك) بعد عودته من بلاد الروم قام بزيارة لصدر الدين موسى ، أحد أجداد إسماعيل الصفوي ، فطلب منه صدر الدين إطلاق سراح كل الأسرى الروم (كانت البلاد التركية تسمى بلاد الروم) . وبعد تنفيذ الطلب صار أهل الروم يتبعون صدر الدين وجميع المشايخ الأردبيليين من ذريته حتى إسماعيل الصفوي ، وكانوا جماعة مهمة في جيشه . ثم قطنوا منطقة الموصل وغيرها خلال تبادل المواقع في الحروب بين العثمانيين والصفويين . ومن القرى القزلباشية المخالطة لقرى الشبك هي : تيس خراب كبير ، تيس خراب صغير . وهؤلاء القزلباش من عشيرة البيات[١٣] . وبهذا يكون القزلباش تركماناً ، وليسوا شبكاً . والمشهور عن عشيرة البيات أنها عشيرة تركمانية .

ظلت المعلومات التي وردت حول الشبك في كتابات الأب الكرملي وكتابي العزاوي «الكاكائية» و «العراق بين احتلالين» وكتاب الصراف «الشبك» تُبعث في دراسات ومقالات كثيرة عن عشائر الشبك . كان آخرها ، على حد علمي ، مقال «حول الشبك» ، نشرته مجلة «الثقافة الجديدة» العراقية(١١/١٩٩٠) ، ومقال «تنوع أكراد العراق» ، نشرته مجلة «أبواب» (٣/١٩٩٤) ثم كتاب «عرب وأكراد» لمنذر الموصلي . وقد ورد في الكتاب الأخير مانصه : «تاريخ الشاباك القزلباش مجهول وهم أكراد . لكن بعض الباحثين يزعمون أنهم أتراك . وذلك بسبب كثرة التعابير التركية في لغتهم»[١٤] . ثم ينقل مؤلف الكتاب ما ورد في المصادر السابقة نصاً ، دون أن يُشير إليها . والموصلي في كتابه المذكور لا يفقه التمييز بين الأيزيدية الديانة العراقية والزيدية ، المذهب الشيعي السائد باليمن الشمالية منذ أكثر من ألف عام؟

لم تأخذ الكتابات التي أوردنا عناوينها ، ورغم الجهد المبذول في بعضها ، بنظر الاعتبار سيئات مصادرها ، التي مرَّ على تأليفها أكثر من أربعين عاماً . ولم يحسب كُتابها حسابات النعرات المذهبية التي كان البعض من أولئك المؤلفين متأثراً بها إلى حد كبير . ولم تُعنَ بواقع الشبك الحالي ولا بواقع المنطقة الكردية ككل ، والعلاقة بين طوائفها . وإنما كتبوا عن الشبك ككيان قومي مستقل رغم اعترافهم بكرديته . وككيان مذهبي مستقل عن الأكراد . ومن

---

(١٢) مجلة لغة العرب ، الجزء ٦ السنة ١٩٣١ .

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) الموصلي ، عرب وأكراد ، ص٢٩٧ .

الكتابات الكردية الشبكية الشحيحة جداً ، يأتي المقال الوافي الذي كتبه (شاخه وان شبك) بعنوان «الشبك ، دراسة تاريخية لغوية» ، عبر فيه كاتبه عن قوميته ككردي وديانته كمسلم ، بعد أن حاول الآخرون تارة تتريكه وأخرى تعريبه ، أو تأسيس تعاليم ديانة جديدة له لا يفقه منها شيئاً . وربما استطاع في مقاله هذا إيصال صوته لمن أراد البحث عن الحقيقة . يبدو الانفعال واضحاً في المقال تأثراً بالمغالطات الخطيرة في الكتابة حول تاريخ أهله (الشبك) القومي والديني .

نقرأ في مقدمة المقال : «أن الدافع لكتابة هذا البحث هو تناقض البحوث والآراء حول أصل الشبك ، وانتمائهم اللغوي وديانتهم . وكذلك بعض الآراء غير العلمية من قبل المؤرخين والباحثين وبعض المستشرقين»[١٥] . وينفي (شاخه وان) أن يكون الشبك هم أتباع نادر شاه الصفوي الغلاة ، على رواية أنهم كانوا قد تخلفوا عن جيش الصفوي خلال محاصرته للموصل مدة أربعين يوماً في إحدى الحروب . ثم يتحدث عن أصل القزلباش على رواية مقاربة إلى رواية مصطفى جواد من دون الإشارة إليه في مصادره . ومن جهة أخرى ينفي علاقة الشبك بمذهب الصارلية ، والكاكائية . إذ لايجمعهما مع الشبك غير المحيط الجغرافي الواحد ، والتعامل اليومي بحكم آصرة الجوار . وينتهي إلى القول : «إن الشبك ليسوا بصارلية ولاهم بقزلباش ، وإنما ديانتهم كديانة بقية المسلمين ، بمذهبيها السُنِّي والشيعي»[١٦] .

وبعد نفي الصلة الجوهرية بين الشبك وبين القزلباشية والصارلية ، كطوائف العلي إلهية أسوة بما يعرف بالحقة أو مذهب أهل الحق ، نأتي إلى الصلة بين الشبك والبكتاشية ، والأخيرة ، كما هو معروف ، طريقة صوفية أسسها بكتاش ولي ، ولعبت دوراً ملموساً في الحكم العثماني بتأسيس ما يسمى بالإنكشارية . ولم تنته إلا بعد ظهور الدولة التركية الحديثة . والحديث عن هذه الصلة شائع مشافهةً أكثر مما هو مدون في كتاب . ويذكر عباس العزاوي ، في حديثه عن البكتاشية ، الطوائف القريبة منها من دون أن يسمي الشبك أحدها كالعلي إلهية ، والكاكائية ، والقزلباشية ، والبابوات . غير أن الصراف يذكر في كتابه السابق الذكر هذه الصلة بقوله : «ظهر لي من التتبع والتنقيب أن عقيدة الشبك عقيدة بكتاشية قزلباشية ، مع وجود فرق يسير ، فعوائد الشبك وأوابدهم تكاد تكون بكتاشية محضة»[١٧] . مع أن كتابه ليس فيه تتبع ولا تنقيب!

---

(١٥) شاخه وان الشبك ، الشبك دراسة تاريخية ، مجلة سه رهلدان ، أربيل ، ١٩٩٥ ، ص (١٠٣ - ١٢٣) .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(١٧) الصراف ، الشبك ، ص ٤٥ .

ويبدو الأمر ملتبساً في أن تكون البكتاشية من فروع العلي إلهية ، وهي متعارضة مذهبياً مع الدولة العثمانية . وكيف الحال والبكتاشيون كانوا بمثابة أئمة الإنكشارية وهي قوى الأمن العثمانية . والرواية تقول : «إن البكتاشية «لم تُعرف قبل دخول العثمانيين بغداد سنة (٩٤١هـ)»[١٨] . إلا أن العزاوي يذكر تكايا بكتاشية بالنجف وكربلاء الشيعيتين ، ويتولاها شخصيات من آل الدده (يُقال أنها تعني لقباً تركياً بمعنى الأخ الأكبر) . وتُعرف إحدى تكايا كربلاء بتكية الددوات . ويُقال أن الددوات ، بالأصل ، كانوا أتراكاً من أهل السُنَّة تحولوا بعد قدومهم العراق إلى شيعة إمامية . وحتى لا نميل عن صلب الموضوع الذي نحن بصدده ، نترك موضوع البكتاشية وإشكاليتها المذهبية وغيرها من الطوائف إلى مناسبة أخرى .

إن الواضح تاريخياً هو أن الشبك عشائر كردية ، ربما تأثرت منهم مجموعة بالمذاهب والديانات المحيطة . ودخل بعضهم في التكايا والطرق الصوفية . ويهتم الشيعة منهم بمناسبة عاشوراء ويلبسون السواد ، ويزورون العتبات المقدسة بالنجف وكربلاء والكاظمية وسامراء . ويدفعهم الحب والافتتان بشخصية الإمام علي بن أبي طالب ، والأئمة الآخرين من صلبه ، إلى الدعاء والتوسل بهم . وهذا ما يفعله الكثيرون في العالم الإسلامي . وقد ألتبس على الباحثين والمهتمين فقاموا بتبديل المواقع بينهم وبين القزلباشية ، والبكتاشية ، والصارلية وأهل الحق اعتماداً على تأثر متبادل بين هذه الأطراف .

ويعتز الشبكيون بكرديتهم ، وقد قاوموا ، كبقية الكرد ، محاولات كثيرة لتعريبهم ، كتهجير قسم من العائلات الشبكية السنة (١٩٧٥) ، ثم تهجير قرى بكاملها إلى مجمعات قسرية للغرض نفسه (١٩٨٨ - ١٩٨٩) . وقبل ذلك كانت السلطة قد سجلتهم خلال تعداد (١٩٧٧) عرباً . ومن قبل كانت الإحصاءات تجمعهم مع الأيزيديين . لذا لم يشر تقرير مديرية الأمن العامة الخاص بالتوزيع الديني للسكان العراقيين إليهم أو ذكرهم جمعاً مع الأيزيديين ، مثلما حصل في الإحصاءات السابقة . ولعل عبارة «الديانات الأخرى» أو «غير المبينين» أشارتا إلى الكاكائية وبقايا الزرادشتية ، ولا تعنيان الشبك .

يتكلم الشبك لهجة كردية تحتفظ بالكثير من الألفاظ القديمة . إضافة إلى تأثير المحيط المتمثل بوجود ألفاظ فارسية أو تركية أو عربية . وفي ذلك يقول شبكي آخر في تعقيب على مقال نشرته «الثقافة الجديدة العراقية» : «إن اللغة التي يتحدث بها الشبك كردية ، لا تقل نسبة مفرداتها عن ٧٠ بالمئة من المفردات التي ينطقها الكرد العراقيون ، إن لم نقل أكثر من ذلك» . وتذكر المصادر أن لهجة الشبك هي اللهجة الكردية الباجلانية ، وهي إحدى فروع اللهجة الكَورانية . ويمكن تحديد علاقة الشبك في منطقة كردستان العراق من خلال تحديد

(١٨) العزاوي ، العراق بين احتلالين ٤ ص١٥٤ .

الأصل الكردي، وتواجده القديم في المنطقة، والذي سماه اليونانيون بالكردوخي (الكرد). ذكر ذلك المؤرخ اليوناني زينوفون (حوالى ٤٠١ ق م) بقوله حول اتجاه الحملة اليونانية على بلاد فارس، وهي تمر على جبال العراق: «والطريق المتجهة شمالاً فوق الجبال تسلك نحو الأكراد، وأفصحوا أن هؤلاء القوم يقطنون الجبال، وأنهم بواسل جداً، وغير خاضعين للعاهل»[١٩].

يقطن الشبك السُنيّون في القرى الموصلية التالية: باريمة، عمر قابجي، خرسباد، سماقية، بعويزة، اورطة خراب، باجربوع، فاضلية، خويت له، ديرك. وانحدار هذه القرى من عشيرة باجلان الكردية. والمذهب السائد بين الشبكيين السُنَّة هو المذهب الشافعي، رغم أن أغلب أهل الموصل على المذهب الحنفي. أما الشبك الشيعة فهم على المذهب الاثني عشري الإمامي ويقطنون القرى التالية: خزنه تبة، طيراوة، دراويش، بدنه صغير، بدنه كبير، نوران، بايبوخت، علي ره شه، زهره خاتون، مفتية، جمه كور، منارة وغيرها. وبطبيعة الحال حديثنا يخص ما قبل الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) وحرب الخليج (١٩٩١)، فربما أُزيلت تلك القرى من الوجود.

عموماً، أن وجود شيعة بين الشبك وسط محيط سُنّي شافعي، هو المنطقة الكردية كافة، ظاهرة قد تلفت النظر، وتكثر حولها التكهنات. وربما اضطروا إلى السرية وسط ذلك المحيط، مع أن حالهم حال بقية الشيعة يزورون العتبات المقدسة ويعتقدون بشفاعة الأئمة، مثلهم مثل شيعة وسط وجنوب العراق. وبطبيعة الحال يلجأون إلى السرية في التعبير عن اعتقاداتهم وسط محيط سُنّي. كل هذا جعل المحيط يُشير إليهم بالغلو والعلي إلهية، وما ظهر حولهم من كتابات قد لا تتعدى أوهام المحيطين. غير أنها أصبحت مصادر لكل مَنْ يريد الكتابة أو البحث في كيانهم. والدليل على ذلك أن كل الباحثين اعتمدوا «الشبك» لأحمد حامد الصراف، و«تفكهة الأذهان» للأب الكرملي وغيرهما.

تتفاوت التقديرات والإحصاءات حول عدد نفوس الشبك، منها التقديرات الإنكليزية القديمة، التي عدتهم بعشرة آلاف نسمة. وفي الإحصاء العراقي (١٩٤٧) عُدوا جمعاً مع الأيزيديين بثلاثة وثلاثين ألف نسمة. وفي إحصاء (١٩٧٧) بلغت نفوسهم ٥٨ - ٧٥ ألف نسمة.

ومن اللافت للنظر أن الدليل العراقي لعام (١٩٣٦)، وإحصاءات أخرى، لم تذكر

---

(١٩) زينوفون، حملة العشر آلاف «الحملة على فارس»، ص١٦٦، باسيلي نيكيتين، الكُرد دراسة سوسيولوجية وتاريخية، ص٤٧.

الشبك بالاسم ، على اعتبار أنهم كرد مسلمون ، فليس هناك تفاصيل خاصة بالعشائر ، عربية كانت أو كردية . لكن جمعهم في إحصاء (١٩٤٧) مع الأيزيديين يؤكد الرأي الرسمي المعتمد على البحوث والدراسات المذكورة سلفاً ، على أنهم من ديانة أخرى غير الديانة الإسلامية . وكذلك ذكرهم منفصلين عن الأكراد في إحصاء (١٩٧٧) إشارة إلى أنهم عرب ، حسب الإدعاء الرسمي .

ملحق

مديرية الأمن العامة

مركز الأعداد والتطوير الثقافي

مكتب العلوم النفسية والاجتماعية

التوزيع الديني للسكان العراقيين

مقدمة

ترمي هذه الدراسة إلى بيان التوزيع الجغرافي للفئات الدينية من السكان العراقيين في القطر العراقي ، معتمدين بذلك على نتائج التعداد السكاني الأخير في عام ١٩٧٧ . وقد عالجت هذه الدراسة توزيع الفئات الدينية في منطقة الحكم الذاتي ومقارنته بالتوزيع الجغرافي للفئات الدينية في عموم القطر . كما تناولت هذه الدراسة التوزيع الجغرافي للفئات الدينية حسب المحافظات واتجاهات نمو السكان بين الفئات الدينية في العراق بين سنة (١٩٤٧ - ١٩٧٧) ، كما تم احتساب معامل التنوع الديني لكل محافظة من محافظات القطر . وأخيرا نأمل أن نكون وفقنا في أعداد هذه الدراسة عن التوزيع الديني للسكان العراقيين ، التي تمثل الجزء الثاني من دراسة سابقة تضم التوزيع القومي والديني للسكان العراقيين

الفصل الأول

التركيب الديني للسكان العراقيين

١ - التركيب الديني للسكان العراقيين

تظهر نتائج التعداد السكاني الأخير لسنة ١٩٧٧ أن المسلمين في العراق يمثلون غالبية السكان العظمى ، حيث بلغ عددهم (١١,٤٧٤,٧٢٩٣) فرداً أو ما يعادل (٩٧٪) تقريباً من مجموع السكان العراقيين والبالغ (١١,٨٦٢,٦٢٠) ، لذلك فأن بقية الطوائف الدينية الأربعة (المسيحيون ، اليزيديون ، والصابئة ، واليهود) يمثلون أقليات دينية في العراق ، وهم موزعون كالآتي : المسيحيون (٢٥٣,٤٧٨) نسمة أي ما يعادل (٢,١٤٪) من المجموع الكلي للسكان

العراقيين ، واليزيديون (١٠٢,١٩١) نسمة أو ما يعادل ٠,٨٦٪ والصابئة (١٥,٩٣٧) نسمة أو ما يعادل ٠٠,١٤٪ واليهود (٣٨١) أو ما يعادل ٠,٠١ انظر جدول (١) .

جدول (١) يوضح توزيع السكان العراقيين حسب الديانة لسنة ١٩٧٧ .

الديانة	العدد	النسبة المائوية
المسلمون	١١,٤٧٤,٢٩٣	٪ ٩٦,٧٠
المسيحيون	٢٥٣,٤٧٨	٪ ٢,١٤
اليزيديون	١٠٢,١٩١	٪ ٠,٨٦
الصابئة	١٥,٩٣٧	٪ ٠,١٤
اليهود	٣١٨	٪ ٠,٠١
أخرى	٣١١	٪ ٠,٠١
غير مبين	١,٦٢٩	٪ ٠,١٤
المجموع	١١,٨٦٢,٦٢٠	٪ ١٠٠

المصدر : نتائج التعداد السكاني في العراق لسنة ١٩٧٧

٢ - الأقليات الدينية

إذا ما أخذنا توزيع الأقليات الدينية في العراق (عدا المسلمين) فأننا نجد المسيحيين يمثلون حوالي ثلثي المجموع الكلي للأقليات الدينية في العراق (٦٥٪) ، يليهم اليزيديون ويمثلون (٢٦,٣٪) ثم الصابئة (٤,١٪) وأخيرا اليهود ٠,١٪ . انظر جدول (٢) .

جدول (٢) يوضح توزيع الأقليات الدينية في العراق لسنة ١٩٧٧

الطوائف الدينية	العدد	النسبة المائوية
المسيحيون	٢٥٣,٤٧٨	٪ ٦٥,٢٧
اليزيديون	١٠٢,١٩١	٪ ٢٦,٢٧
الصابئة	١٥,٩٣٧	٪ ٤,١٠
اليهود	٣١٨	٪ ٠,٠٩
أخرى	٣١١	٪ ٠,٠٩
غير مبين	١٦,٠٢٩	٪ ٤,١٣
المجموع	٣٨٨,٣٢٧	٪ ١٠٠

الطوائف الدينية في منطقة الحكم الذاتي وبقية أنحاء القطر

يظهر من البيانات المذكورة في جدول (٣) أن عدد المسلمين في منطقة الحكم الذاتي بلغ (١,٤٤٠,٤٩١) شخصا ، في حين بلغ مجموع المسلمين في بقية أرجاء القطر (خارج منطقة الحكم الذاتي) (١٠,٠٣٣,٨٠٢) نسمة أو بعبارة أخرى بلغت نسبة المسلمين في منطقة الحكم الذاتي أكثر من (١٢٪) من المجموع الكلي للمسلمين العراقيين في حين بلغت نسبتهم خارج منطقة الحكم الذاتي اكثر بقليل من (٨٧٪) . أما المسيحيون في منطقة الحكم الذاتي فيبلغ عددهم (٢٨,٥٧٢) نسمة أو ما يزيد قليلا على (١١٪) من مجموع المسيحيين العراقيين بينما بلغ عددهم خارج منطقة الحكم الذاتي (٢٢٤,٩٠٦) أو ما يعادل ٨٩٪ تقريبا . وبلغ مجموع اليزيديين في منطقة الحكم الذاتي (١٠,٣٨١) نسمة ، أو ما يعادل (١٠٪) من مجموعهم الكلي في العراق في حين بلغ عددهم خارج منطقة الحكم الذاتي (٩١,٨١٠) نسمة ، أو ما يعادل (٩٠٪) تقريباً . ولا يزيد مجموع الصابئة في منطقة الحكم الذاتي على (٦٦) شخصاً بالمقارنة مع (١٥,٨١٠) شخصاً خارج منطقة الحكم الذاتي . كما أن عدد اليهود في منطقة الحكم الذاتي لا يتجاوز (١٩) شخصاً بالمقارنة مع (٣٦٤) شخصاً خارج منطقة الحكم الذاتي . وهناك عدد من الفئات الدينية الأخرى غير المبنية كما موضح في جدول (٣) .

توزيع الأقليات الدينية على محافظات القطر

وإذا ما أخذنا التوزيع النسبي لكل فئة دينية بصورة مستقلة على محافظات القطر فأننا نلاحظ اختلافا كبيراً ، وذلك على الوجه التالي :

توزيع المسلمين على محافظات القطر

يظهر من البيانات الواردة في جدول (٤) أن أكثر من ربع مجموع المسلمين العراقيين يعيشون في محافظة بغداد (٢٥,٨٪) في حين تصل نسبة المسلمين إلى اكثر من (٨٪) في كل من محافظتي نينوى والبصرة . وبعبارة أخرى تصل نسبة المسلمين العراقيين إلى حوالي (٤٣٪) في المحافظات الثلاثة (هكذا وردت) المذكورة أعلاه بينما يتوزع الباقون على المحافظات الأخرى بصورة متقاربة في معظم المحافظات . انظر جدول (٤) .

جدول (٣) يوضح توزيع الطوائف الدينية في منطقة الحكم الذاتي وبقية أنحاء القطر العراقي لسنة ١٩٧٧

التوزيع المطلق							
المنطقة	المسلمون	المسيحيون	اليزيديون	الصابئة	اليهود	أخرى	غير مبين
الحكم الذاتي	١,٤٤٠,٤٩١	٢٨,٥٧٢	١٠,٣٨١	٦٦	١٩	١٣	٩٤٦
أنحاء القطر	١٠,٠٣٣,٨٠٢	٢٢٤,٩٠٦	٩١,٨١٠	١٥,٨٧١	٣٥٤	٢٩٦	١٥,٠٨٣
المجموع الكلي	١١,٤٨٤,٢٩٣	٢٥٣,٤٧٨	١٠٢,١٩١	١٥,٩٣٧	٣٨١	٣١٩	١٦,٠٢٩
التوزيع النسبي							
الحكم الذاتي	١٢,٥٥	١١,٤٧	١٠,١٦	٠,٤١	٤,٩٦	٤,٢١	٥,٩٠
أنحاء القطر	٨٧,٤٥	٨٨,٧٣	٨٩,٨٤	٩٩,٥٩	٩٥,٠٤	٩٥,٧٩	٩٤,١٠
المجموع الكلي	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠

جدول رقم (٤) يبين توزيع السكان العراقيين على كل محافظة حسب الديانة

المحافظة	الديانة							
	مسلم	مسيحي	يهودي	يزيدي	صابئي	أخرى	غير مبين	المجموع
دهوك	١,٩٥	٦,٥٥	٠,٧٨	٩,٤٨	٠,٠٦	٠,٩٦	١,٩٦	٢,١١
نينوى	٨,٣١	٢١,٢٨	٢,٣٥	٨٧,٧٨	٠,٧٨	٠,٩٦	٦,٣٩	٩,٢٧١
السليمانية	٥,٩٩	٠,٤٩	٢,٠٩	٠,٤٧	٠,٢٠	١,٢٩	٢,٤٨	٥,٨١
التأميم	٤,١٨	٤,٥٦	١,٥٧	٠,٥٩	١,٩٨	١,٩٣	١,٤٦	٤,٥٥
أربيل	٤,٦٢	٤,٢٣	٢,٠٩	٠,٢١	٠,١٥	١,٩٣	١,٤٦	٤,٥٥
ديالى	٥,٠٨	٠,٣٠	١,٨٣	٠,٠٩	٢,٥٢	٤,٨٢	٢,٢٥	٤,٩٣
الأنبار	٣,٩٦	٠,٧٦	٦,١١	٠,٠٩	١,٩٥	١,٩٣	١,٤٠	٣,٨٥
بغداد	٢٥,٨٢	٥٦,١٣	٧٠,٩٠	٠,٨١	٥٠,٤١	٧٤,٩٢	٤٧,٣٣	٢٦,٣٢
بابل	٥,١١	٠,٣٨	١,٣٢	٠,١٠	٠,٥٤	٠,٣٢	١,٤٤	٤,٩٦
كربلاء	٢,٣٢	٠,٠٣	صفر	٠,٠١	٠,٠١	صفر	٠,٩٣	٢,٢٥
واسط	٣,٥٩	٠,١٥	٠,٧٨	٠,٠٣	٠,٩٨	٠,٣٢	٠,٥٦	٣,٤٨
صلاح الدين	٣,١٥	٠,١٧	٠,٥٢	٠,٠٨	٠,١٨	٠,٦٤	٠,٧٢	٣,٠٦
النجف	٣,٣٤	٠,٠٣	صفر	٠,٠٠١	٠,٠٢	صفر	٠,٨٩	٣,٢٣
القادسية	٣,٦٧	٠,١٣	٠,٥٢	٠,٠٥	٢,١٩	٠,٣٢	٠,٩١	٣,٥٥
المثنى	١,٨٧	٠,٠٥	صفر	٠,٠١	٠,٠١	٠,٦٤	٠,٨٨	١,٨٢
ذي قار	٥,٣٨	٠,٠٨	٢,٨٧	٠,٠٤	٨,٨٨	٠,٣٢	٠,٧٥	٥,٢٢
ميسان	٣,٢١	٠,١٦	١,٠٤	٠,٠٤	١٢,١٢	٠,٦٤	١,٥٨	٣,١٢
البصرة	٨,٤٥	٤,٥١	٥,٢٢	٠,١٣	١٨,٠٢	٨,٠٥		٨,٣٢
المجموع	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠

توزيع المسيحيين على محافظات القطر

يظهر لنا بوضوح أن اكثر من نصف مجموع المسيحيين العراقيين يتركزون في محافظة بغداد ، حيث تصل نسبتهم إلى (٥٦٪) من المجموع الكلي . كما أن اكثر من خمس المسيحيين في العراق يعيشون في محافظة نينوى (٢١ ٪) ، أي أن أكثر من ثلاث (هكذا)

أرباع المسيحيين يعيشون في محافظتي بغداد ونينوى (٧٧٪) . وتصل نسبة المسيحيين في محافظة دهوك إلى حوالي (٧٪) ، ولا تزيد نسبتهم على (٥٪) في محافظات البصرة (٤,٥٪) والتأميم (٤,٦٪) ، وأربيل (٤,٢٪) ، ولا توجد إلا نسب قليلة جدا من المسيحيين في باقي محافظات القطر ، خصوصا كربلاء والنجف والمثنى وذي قار التي تكاد تخلو من المسيحيين تقريبا ، أنظر جدول (٤) .

توزيع اليزيديين على محافظات القطر

ويتجلى لنا بوضوح كذلك أن محافظة نينوى تنفرد بين بقية محافظات القطر الأخرى من حيث ارتفاع اليزيديين الذين يشكلون حوالي (٨٨٪) من مجموع اليزيديين ، وتصل النسبة إلى حوالي (٩,٥٪) في محافظة دهوك . ولا توجد إلا أعداد قليلة جداً من اليزيديين في باقي المحافظات . انظر جدول (٤) .

توزيع الصابئة على محافظات القطر

كان الاعتقاد السائد سابقا أن موطن الصابئة الرئيس هو كلاً من ميسان وذي قار ، إلا أن نتائج التعداد السكاني الأخيرة تشير بوضوح إلى أن الصورة القديمة لموطن الصابئة قد تغيرت كثيراً ، وذلك لأننا نلاحظ بوضوح أن اكثر من نصف مجموع الصابئة في العراق يعيشون حاليا في محافظة بغداد (٥٠,٤٪) ، في حين لا تزيد نسبتهم في محافظة ميسان على (١٢٪) ، وفي محافظة ذي قار على (٩٪) فقط ، ومما يذكر أن نسبة الصابئة في محافظة البصرة تزيد على نسبتهم في كل من محافظتي ميسان وذي قار كلاً على انفراد ، حيث تصل نسبتهم إلى (١٨٪) . انظر جدول (٤) .

توزيع اليهود على محافظات القطر

رغم قلة عدد اليهود العراقيين إلا أن اغلبهم يتركزون في محافظة بغداد ، إذ تزيد نسبتهم على (٧٠٪) ، ويتوزع الباقون بأعداد قليلة جداً على بقية محافظات القطر . أنظر جدول (٤).

توزيع الفئات الدينية حسب كل محافظة على انفراد

نقوم الآن بدراسة توزيع الأقليات الدينية في القطر ابتداءاً (هكذا) من المحافظات الشمالية فالوسط ثم الجنوبية .

١ - محافظة السليمانية

يمثل المسلمون الغالبية العظمى من سكان محافظة السليمانية ، حيث بلغ عددهم (٦٣٧,١١٠) نسمة ، أو ما يعادل حوالي (٩٩,٦٨٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، في حين بلغ عدد المسيحيين في المحافظة نفسها (١,٢٥٣) نسمة ، أو ما يعادل (٠,١٨٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، توزعت بقية الفئات الدينية كاليزيديين (٤٨٢) والصابئة (٣٢) ونسبة اليهود (٨) نسمة من مجموع سكان المحافظة ، والفئات الدينية الأخرى (٤) ، أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٣٩٨) نسمة ، كما هو موضح في الجدولين (٥) ، (٦) .

٢ - محافظة دهوك

وفي محافظة دهوك كذلك يمثل المسلمون غالبية سكان المحافظة ، حيث بلغ عددهم (٢٢٣,٦٧١) نسمة ، أو ما يعادل (٨٩,٣٧٪) من مجموع سكان المحافظة . وتبلغ نسبة المسيحيين في محافظة دهوك (٦,٦٪) من مجموع المسيحيين البالغ (١٦,٥٩٧) في المحافظة ، ويأتي اليزيديون بالدرجة الثالثة ، بعد المسلمين والمسيحيين ، من حيث العدد (٩,٦٨٥) نسمة ، أو ما يعادل حوالي (٤٪) من مجموع الفئات الدينية في المحافظة .

وتتوزع بقية الفئات الدينية على النحو التالي : الصابئة (١٠) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٠٤٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، ، واليهود (٣) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٠١٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة . ثم الفئات الدينية الأخرى (٣) نسمة او ما يعادل (٠,٠٠١٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة . أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٣١٤) نسمة ، أو ما يعادل (٠,١٣٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، كما هو موضح في الجدولين (٥) ، (٦) .

جدول (٥) توزيع السكان العراقيين على كل محافظة حسب الديانة (الأرقام المطلقة)

المحافظة	الديانة							
	مسلم	مسيحي	يهودي	يزيدي	صابئي	أخرى	غير مبين	المجموع
دهوك	٢٢٣٦٧١	١٦٥٩٧	٣٠	٩٦٨٥	١٠	٣	٣١٤	٢٥٠٣١٠
نينوى	٩٥٣٣٩٨	٥٣٩٥٤	٩	٨٩٧٠٢	١٢٥	٣	٢٦٢٧	١٠٩٩٨٩
السليمانية	٦٨٦٩٤٢	١٢٥٣	٨	٤٨٢	٣٢	٤	٣٩٨	٦٨٩١١٩
التأميم	٤٧٩٣٨١	١١٥٦١	٦	٦٠١	٣١٥	٦	٧٤٥	٤٩٢٦١٥
أربيل	٥٢٩٨٧٨	١٠٧٢٢	٨	٢١٤	٢٤	٦	٢٣٤	٥٤١٠٨٦
ديالي	٥٨٣٠٨٤	٧٥٨	٧	٨٨	٤٠٣	١٥	٣٦٠	٥٨٤٧١٥
الأنبار	٤٥٤٤٤٠	١٩٢٩	٢٣	٩٣	٣١٠	٦	٢٢٤	٤٥٧٠٢٥
بغداد	٢٩٦٢٥٥٤	١٤٢٢٨٣	٢٧٠	٨٢٩	٨٠٣٤	٢٣٣	٥٨٧	٣١٢١٧٩٠
بابل	٥٨٦٦٦٨	٩٥٧	٥	١٠١	٨٦	١	٢٣١	٥٨٨٠٤٩
كربلاء	٢٦٦٥١٦	٨٢	صفر	٦	١	صفر	١٤٩	٢٦٦٧٥٤
واسط	٤١٢٠٨٢	٣٧٢	٣	٢٩	١٥٦	١	٩٠	٤١٢٧٣٢
صلاح الدين	٣٦١٩٦١	٤٢٨	٢	٨٥	٢٨	٢	١١٥	٣٦٢٦٢١
النجف	٣٨٣٣٩٤	٧٣	صفر	١	٣	صفر	١٤٣	٣٨٣٦١٤
القادسية	٤٢٠٨٧٤	٣٢٠	٢	٥٣	١٩٠	١	١٤٦	٤٢١٥٨٦
المثنى	٢١٤١٤٩	١٣٥	صفر	٧	١	٢	١٤٢	٢١٤٤٣٦
ذي قار	٦١٧٦٥٨	٢١٤	١١	٣٩	١٤١٥	١	١٢١	٦١٩٤٥٩
ميسان	٣٦٧٨٩٨	٤٦٦	٤	٤٠	١٩٣٢	٢	٢٥٤	٢٧٠٥٤٦
البصرة	٩٦٩٧٤٥	١١٤٣٣	٢٠	١٣٦	٢٨٧٢	٢٥	٢١٤٩	٩٨٦٣٨٠
المجموع	١١٤٧٤٢٩٣	٢٥٣٤٧٨	٣٨١	١٠٢١٩١	١٥٩٣٧	٣١١	١٦٠٢٩	١٨٦٢٦٢٠

جدول (٦) يبين توزيع السكان العراقيين في كل محافظة حسب الديانة (النسب المئوية)

المحافظة	الديانة							
	مسلم	مسيحي	يهودي	يزيدي	صابئي	أخرى	غير مبين	المجموع
دهوك	٨٩,٣٧	٦,٦٣	١,٠٠١	٣,٨٧	٠,٠٠٤	٠,٠٠١	٠,١٣	١٠٠٪
نينـوى	٨٦,٦٩	٩	٠,٠٠١	٨,١٦	٠,٠١	٠,٠٠٠٢	٠,٢٤	١٠٠٪
السليمانية	٩٩,٦٨	٠,١٨	٠,٠٠١	٠,٠٧	٠,٠٤	٠,٠٠١	٠,٠٦	١٠٠٪
التأميم	٩٧,٣١	٢,٣٥	٠,٠٠١	٠,١٢	٠,٠٦	٠,٠٠١	٠,١٥	١٠٠٪
أربيل	٩٧,٩٣	١,٩٨	٠,٠٠١	٠,٠٤	٠,٠٠٤	٠,٠٠١	٠,٠٤	١٠٠٪
ديالي	٩٩,٩٢	٠,١٣	٠,٠٠١	٠,٠٢	٠,٠٧	٠,٠٠٢	٠,٠٦	١٠٠٪
الأنبار	٩٩,٤٣	٠,٤٢	٠,٠١	٠,٠٢	٠,٠٧	٠,٠٠١	٠,٠٥	١٠٠٪
بغداد	٩٤,٩٠	٤,٩٦	٠,٠١	٠,٠٣	٠,٢٦	٠,٠١	٠,٢٤	١٠٠٪
بابل	٩٩,٧٧	٠,١٦	٠,٠٠١	٠,٠٢	٠,٠١	٠,٠٠٠٢	٠,٠٤	١٠٠٪
كربلاء	٩٩,٩١	٠,٠٣	صفر	٠,٠٠٢	٠,٠٠٠٤	صفر	٠,٠٦	١٠٠٪
واسط	٩٩,٨٤	٠,٠٩	٠,٠٠١	٠,٠١	٠,٠٤	٠,٠٠٠٢	٠,٠٢	١٠٠٪
صلاح الدين	٩٩,٨٢	٠,١٢	٠,٠٠١	٠,٠٢	٠,٠١	٠,٠٠١	٠,٠٣	١٠٠٪
النجف	٩٩,٩٤	٠,٠٢	صفر	٠,٠٠٠٣	٠,٠٠١	صفر	٠,٠٤	١٠٠٪
القادسية	٩٩,٨٣	٠,٠٨	٠,٠٠٥	٠,٠١	٠,٠٥	٠,٠٠٠٢	٠,٠٣	١٠٠٪
المثنى	٩٩,٨٧	٠,٠٦	صفر	٠,٠٠٣	٠,٠٠٠٥	٠,٠٠١	٠,٠٧	١٠٠٪
ذي قار	٩٩,٧١	٠,٠٣	٠,٠٠١	٠,٠١	٠,٢٣	٠,٠٠٠٢	٠,٠٢	١٠٠٪
ميسان	٩٩,٢٩	٠,١١	٠,٠٠١	٠,٠١	٠,٥٢	٠,٠٠١	٢٥٤	١٠٠٪
البصرة	٩٨,٣١	١,١٦	٠,٠٠٢	٠,٠١	٠,٢٩	٠,٠٠٣	٠,٢٢	١٠٠٪
المجموع	٩٦,٧٣	٢,١٤	٠,٠٠٣	٠,٨٦	٠,١٣	٠,٠٠٣	٠,١٤	١٠٠٪

٣- محافظة أربيل

وكما هو الحال في المحافظات الأخرى ، فان المسلمين يشكلون الأغلبية الساحقة من سكان محافظة أربيل ، حيث بلغ عددهم (٥٢٩,٨٧٨) نسمة ، أو ما يعادل (٩٧,٩١٪) . أما

المسيحيون فيأتون بالدرجة الثانية بعد المسلمين في المحافظة ، حيث بلغ عددهم (١٠,٧٢٢) نسمة ، أو ما يعادل (١,٩٨٪) ، وتتوزع بقية الفئات الدينية على النحو التالي : يزيديون (٢١٤) نسمة ، او ما يعادل (٠,٠٤٪) ، صابئة (٢٤) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٠٤٪) ، يهود (٨) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٠١٪) ، ثم الفئات الدينية الأخرى (٦) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٠١٪) من مجموع سكان المحافظة . أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٢٣٤) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٤٪) من مجموع السكان في المحافظة ، كما هو موضح في الجدولين (٥) ،(٦) .

٤ - محافظة نينوى

يشكل المسلمون الغالبية العظمى من سكان محافظة نينوى ، حيث بلغ عددهم (٩٥٣,٣٩٨) نسمة ، أو ما يعادل (٨٦,٧٪) من مجموع السكان في المحافظة ، ومما هو جدير بالذكر أن غالبية اليزيديين في القطر يتركزون في محافظة نينوى ، حيث بلغ عددهم (٨٩,٧٠٢) نسمة ، أو ما يعادل (٨,٢٪) من مجموع سكان المحافظة ، ويليهم المسيحيون (٥٣,٩٤٥) نسمة ، أو ما يعادل (٤,٩٪) من مجموع سكان المحافظة ، ثم الصابئة (١٢٥) نسمة ، واليهود (٩)نسمة ، ثم أصحاب الديانات الأخرى (٣) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٢,٦٢٧) نسمة ، كما هو مبين في الجدولين (٥) ، (٦).

٥ - محافظة التأميم

ويمثل المسلمون غالبية السكان في محافظة التأميم حيث بلغ عددهم (٤٧٩,٣٨١) نسمة أو ما يعادل (٩٧,٣٪) من مجموع السكان العراقيين في هذه المحافظة ، ويليهم المسيحيون البالغ عددهم (١١,٥٦١) نسمة ، أو ما يعادل (٢,٣٥٪) من مجموع العراقيين في المحافظة . أما بقية الفئات الدينية الأخرى فلا تشكل سوى جزءاً قليلاً جداً من مجموع السكان في محافظة التأميم . فقد بلغ عدد اليزيديين (٦٠١) نسمة ، والصابئة (٣١٥) نسمة ، واليهود (٦) نسمة ، إضافة إلى بعض الفئات الدينية غير المبينة (٧٥١) نسمة ، (أنظر)جدول (٥) ، (٦) .

٦ - محافظة صلاح الدين

بلغ مجموع العراقيين المسلمين في محافظة صلاح الدين (٣٦١,٩٦١) نسمة ، أو ما

يعادل (٩٩,٨٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، ولا تمثل بقية الفئات الدينية في المحافظة إلا جزءاً يسيراً جداً من مجموع السكان في المحافظة ، حيث بلغ عدد المسيحيين (٤٢٨) نسمة ، واليزيديين (٨٥) ، والصابئة (٢٨) ، واليهود (٢) نسمة ، أما الفئات الدينية الأخرى غير المعروفة فقد بلغ عددها (١١٥) نسمة ، أنظر جدول (٥) ،(٦) .

٧ - محافظة ديالى

ويمثل المسلمين الغالبية العظمى من سكان محافظة ديالى ، حيث بلغ عددهم (٥٨٣٠٨٤) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٧٢٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، ثم تتوزع بقية الفئات الدينية على النحو التالي : (٧٥٨) نسمة مسيحيون ، (٤٠٣) صابئة ، (٨٨) يزيدية ، (٧) يهود ، والفئات الدينية الأخرى (١٥) ، الفئات الدينية غير المعروفة (٣٦٠) نسمة ، (أنظر) جدول (٥) ،(٦) .

٨ - محافظة بغداد

يشكل المسلمون اكبر الفئات الدينية في محافظة بغداد ، حيث بلغ عددهم (٢,٩٦٢,٥٥٤) نسمة ، أو ما يعادل (٩٤,٩٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، يليهم المسيحيون (١٤٢,٢٨٣) نسمة ، أو ما يعادل (٤,٦٪) من مجموع العراقيين في المحافظة ، وتتوزع بقية الأقليات الدينية كالآتي : الصابئة (٨٠٣٤) شخصاً ، اليزيديين (٨٢٩) شخصاً ، اليهود (٢٧٠) شخصاً ، والفئات الدينية الأخرى (٢٣٣) شخصاً ، الفئات الدينية غير المعروفة (٧٥٨٧) شخصاً (أنظر) الجدول (٥) ،(٦) .

٩ - محافظة الأنبار

ويمثل العراقيون المسلمون كذلك غالبية السكان في محافظة الانبار ، حيث بلغ عددهم (٤٥٤,٤٤٠) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٤٪) تقريباً ، في حين لا تزيد نسبة كافة الأقليات الدينية على (٠,٦٪) ، وهؤلاء موزعون على النحو التالي : المسيحيون (١٩٢٩) نسمة ، الصابئة (٣١٠) نسمة ، اليزيدية (٩٣) نسمة ، اليهود (٢٣) نسمة ، والفئات الدينية الأخرى (٦) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغت (٢٢٤) نسمة ، الجدولين (٥) ، (٦) .

١٠ - محافظة بابل

وكما هو الحال في المحافظات الأخرى ، يشكل المسلمون كافة السكان العراقيين في المحافظة تقريباً ، فقد بلغ عددهم (٥٨٦.٦٦٨) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٨٪) تقريباً ، في حين لا تزيد نسبة كافة الأقليات الأخرى على (٠,٢٪) ، وهم موزعون كالآتي : المسيحيون (٩٥٧) نسمة ، يزيدية (١٠١) نسمة ، صابئة (٨٦) نسمة ، يهود (٥) نسمة ، وبقية الفئات الدينية الأخرى (١) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٢٣١) نسمة . انظر الجدولين (٥) ، (٦) .

١١ - محافظة كربلاء

يكاد سكان محافظة كربلاء يقتصر على المسلمين فقط ، حيث بلغ عددهم (٢٦٦,٥١٦) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٩١٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، ولا تتجاوز نسبة بقية الفئات الدينية (١٪) ، وهم موزعون على النحو التالي : المسيحيون (٨٢) نسمة ، يزيدية (٦) نسمة ، صابئة (١) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المبينة فقد بلغ عددها (١٤٩) نسمة . (أنظر الجدولين (٥) ،(٦) .

١٢ - محافظة النجف

وكما هو الحال بالنسبة إلى محافظة كربلاء ، فإن محافظة النجف تكاد تقتصر على المسلمين الذين بلغ عددهم (٣٨٣,٣٩٤) ، أو ما يعادل (٩٩,٩٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، أما بقية الفئات الدينية الأخرى فلا تزيد نسبتهم على (٠,٠٦٪) من المجموع ، وهم موزعون على النحو التالي : المسيحيون (٧٣) نسمة ، صابئة (٣) نسمة ، يزيدية (١) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المبينة فقد بلغ عددها (١٤٣) نسمة . (أنظر الجدولين (٥) ،(٦) .

١٣ - محافظة واسط

ويمثل المسلمون العراقيون اكبر فئة دينية في محافظة واسط كذلك ، فقد بلغ عددهم (٤١٢,٠٨٢) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٨٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، أما بقية الفئات الدينية الأخرى فلا تزيد نسبتهم على (٠,١٦٪) وهم موزعون كالآتي :

مسيحيون (٣٧٢) نسمة ، صابئة (١٥٦) نسمة ، يزيدية (٢٩) نسمة ، يهود (٣) نسمة ، الفئات الدينية الأخرى (١) نسمة ، أما الفئات غير المعروفة فقد بلغت (٩٠) نسمة . (أنظر) الجدولين (٥) ، (٦) .

١٤ - محافظة القادسية

بلغ مجموع المسلمين العراقيين في محافظة القادسية (٤٢٠,٨٧٤) نسمة . أو ما يعادل (٩٩,٨٪) من مجموع العراقيين في المحافظة ، وبذلك يشكل المسلمون غالبية سكان المحافظة ، أما الفئات الدينية الأخرى فلا تزيد نسبتهم على (٠,١٧٪) ، وهم موزعون على النحو التالي : مسيحيون (٣٢٠) نسمة ، صابئة (١٩٠) نسمة ، يزيدية (٥٣) نسمة ، يهود (٢) نسمة ، الفئات الدينية الأخرى (١) نسمة ، أما الفئات الدينية الأخرى غير المعروفة فقد بلغ عددها (١٤٦) نسمة . (أنظر) الجدولين (٥) ، (٦) .

١٥ - محافظة المثنى

وكما هو الحال في المحافظات الأخرى ، يشكل المسلمون غالبية السكان العراقيين في محافظة المثنى ، حيث بلغ عددهم (٢١٤,١٤٩) نسمة ، أو ما يعادل (٩.٩٩٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، أما الفئات الدينية الأخرى فلا تزيد نسبتهم على (٠,١٣٪) ، وهم موزعون على النحو التالي : مسيحيون (١٣٥) نسمة ، يزيدية (٧) نسمة ، صابئة (١) نسمة ، فئات دينية أخرى (٢) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (١٤٢) نسمة . (أنظر) الجدولين (٥) ، (٦) .

١٦ - محافظة ذي قار

بلغ مجموع العراقيين المسلمين في محافظة ذي قار(٦١٧,٦٥٨) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٧٪) من مجموع العراقيين في المحافظة ، وبذلك يشكل المسلمون غالبية سكان محافظة ذي قار ، أما بقية الفئات الدينية فلا تزيد نسبتهم على (٠,٢٩٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، وهم يتوزعون كالتالي : مسيحيون (٢١٤) نسمة ، صابئة (١٤١٥) نسمة ، يزيدية (٣٩) نسمة ، يهود (١١) نسمة ، فئات دينية أخرى (١) نسمة ، أما بقية الفئات الدينية غير المعروفة فيبلغ عددها (١٢١) نسمة . (أنظر) الجدولين (٥) ، (٦) .

١٧ - محافظة ميسان

وفي محافظة ميسان ايضا يشكل المسلمون الغالبية العظمى من سكان المحافظة ، إذ بلغ عددهم (٣٦٧,٨٩٨) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩,٢٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، في حين لا تزيد نسبة الفئات الأخرى على (٠,٧١٪) ، وهم يتوزعون على النحو التالي : مسيحيون (٤١٦) نسمة ، يزيدية (٤٠) نسمة ، صابئة (١٩٣٢) نسمة ، يهودية (٤) نسمة ، فئات دينية أخرى (٢) نسمة ، أما بقية الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٢٤٥) نسمة . (أنظر الجدولين (٥) ، (٦) .

١٨ - محافظة البصرة

وكما هو الحال في جميع المحافظات السابقة ، يشكل المسلمون غالبية السكان في محافظة البصرة ، حيث بلغ عددهم (٩٦٩,٧٤٥) نسمة ، أو ما يعادل (٩٨,٣٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، ويليهم المسيحيون حيث بلغ عددهم (١١,٤٣٣) نسمة ، أو ما يعادل (١,١٦٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، وتتوزع الفئات الدينية الأخرى على النحو التالي : يزيدية (١٣٦) نسمة ، صابئة (٢,٨٧٢) نسمة ، يهود (٢٠) نسمة ، فئات دينية أخرى (٢٥) نسمة ، أما الفئات الدينية غير المعروفة فقد بلغ عددها (٢١٤٩) نسمة . (أنظر الجدولين (٥) ، (٦) .

إتجاهات نمو السكان بين الفئات الدينية في العراق (١٩٤٧ ـ ١٩٧٧)

بالنظر لعدم توفر المصادر الإحصائية الموثوقة المتعلقة بأعداد الفئات الدينية في العراق في الفترة التي سبقت عام ١٩٤٧ ، فقد تركنا بحثنا لهذه الظاهرة على الفترة الزمنية الواقعة بين ١٩٤٧ ـ ١٩٧٧ . تظهر لنا هذه البيانات المذكورة في الجدول (٧) أن نسبة السكان بين المسلمين تفوق كثيراً نسبة زيادة السكان بين بقية الأقليات الدينية الأخرى ، حيث ظلت النسبة مرتفعة ، وهي قريبة جداً من نسبة زيادة السكان في العراق خلال الفترة المذكورة ، والتي تزيد على ٣٪ سنوياً ، وهذا يعني أن عدد المسلمين يتضاعف مرة واحدة في فترة لا تتجاوز ربع قرن ، وهي من أعلى الزيادات السكانية في العالم .

ومن جهة أخرى نجد أن معدل زيادة السكان بين المسيحيين كان يقرب إلى حد كبير من نظيره ، لدى المسلمين خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ ـ ١٩٥٧ وهو يزيد على ٣٪ سنوياً .

إلا إننا نلاحظ أن معدل زيادة السكان بين المسيحيين بدأ بالتناقص السريع فأنحدر إلى ١,٦٪ سنوياً ما بين ١٩٥٧ ـ ١٩٦٥ ، ورغم قلة هذا المعدل إلا أنه أستمر بالانخفاض السريع حتى وصل إلى ٠,٧٣٪ سنوياً ما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٧ ، وهذا المعدل يعتبر واطئ جداً ، وهو يقرب من معدل نمو السكان في الأقطار المتقدمة .

وربما يعود انخفاض معدل نمو السكان بين المسيحيين إلى عاملين أساسيين هما : الهجرة إلى خارج القطر وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم انحدار خصوبة المرأة المسيحية ، ورغم عدم توفر بيانات مباشرة عن الظاهرة الأخيرة إلا أن الدراسات التي أجريت في أقطار عربية مجاورة مثل الأردن ولبنان ومصر تشير بوضوح إلى أن المرأة المسيحية تميل إلى تحديد النسل بشتى الوسائل أكثر من المرأة المسلمة ، وربما يعود جزء من هذا التفاوت في السلوك الإنجابي إلى اختلاف تعاليم الدين الإسلامي عن الدين المسيحي ، وربما يعود جزء من هذا الاختلاف كذلك إلى تباين المستويات الثقافية والمعاشية والحضارية بين المسلمين والمسيحيين .

أما بخصوص اتجاهات نمو السكان بين الصابئة فيبدو أنهم يزيدون بمعدلات عالية جداً تتجاوز (٥٪) سنوياً ما بين ١٩٤٧ ـ ١٩٥٧ ، وربما يعود ذلك إلى عدم دقة بيانات سنة الأساس ١٩٤٧ . ويظهر أنهم بدءوا يميلون إلى الانحدار بعد ذلك حتى وصلت نسبة الزيادة السنوية إلى (٢,٨٪) ما بين ١٩٥٧ ـ ١٩٦٥ ، وهي نسبة قريبة من نظيرتها لدى المسلمين . ولكن الأمر الذي يثير الاستغراب هو أن النسبة انحدرت فجأة إلى (٠,٩٣٪) سنوياً ما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٧ ، وهذا الأمر يتطلب مزيداً من الدراسة والاستقصاء لأنه يصعب تفسير مثل هذه الظاهرة على صورة البيانات القليلة المتوفرة عنها حالياً . أما معدل نمو السكان بين اليزيدية فيبدو أنه ظل على الدوام عالياً ، وهو أقرب إلى معدل نمو السكان بين المسلمين منه إلى أية فئة دينية أخرى . أنظر جدول (٧) .

التنوع الديني في العراق

عند احتساب التنوع الديني (×) للسكان العراقيين في كل محافظة من محافظات القطر حسب نتائج التعداد السكاني الأخير لسنة ١٩٧٧ ، ظهر لنا أن أكثر المحافظات تنوعاً هي محافظة نينوى التي كان معاملها الصافي أصغر من جميع المحافظات في حين كانت أقل المحافظات تنوعاً هي محافظة النجف ، التي كان معاملها الصافي أكبر من جميع المحافظات . كما هو موضح في الجدول(٨) .

جدول (٧) يوضح عدد الجامعات الدينية ونموها في الفترة من (١٩٤٧ - ١٩٧٧)

سنة الإحصاء	المسلمون	المسيحيون	اليهود	الصابئة	اليزيدية	أديان أخرى
١٩٤٩	٤,٢٧٤,٧٨٩	١٤٩٣٧٧	١١٨١٩٦	٦٥٩٧	٣٢٤٣٣	٧٤
٤٧-١٩٥٧ درجة التغيير السنوية المئوية	٣,٤٨٪	٣,١٧٪	٢٨,١٧٪	٥,٦٤٪	٥,٥٨٪	٣٠,١٨٪
١٩٥٧	٦٠١٩٥٨٥	٢٠٤٢٢٦	٤٣١٩	١١٤٢٥	٥٥٨٢٨	١٠٣٥
٥٧-١٩٦٥ درجة التغيير السنوية المئوية	٣,١٤٪	١,٦٢٪	-٣,٧٢٪	٢,٨١٪	٢,٨٢٪	-١٣,٠٢٪
١٩٦٥	٧٧١١٧١٢	٢٣٢٤٠٦	٣,١١٧	١٤٢٦٢	٦٩٦٥٣	١٣٠٠
٦٥-١٩٧٧ درجة التغيير السنوية المئوية	٣,٣٧٪	٠,٧٣٪	-١٦,١٨٪	٠,٩٣٪	٣,٢٥٪	
١٩٧٧	١١٤٧٤٢٩٣	٢٥٣٤٧٨	٣٨١	١٥٩٣٧	١٠٢١٩١	٣١١

جدول (٨) يبين معامل التنويع الديني الصافي في العراق

المحافظة	معامل التنوع الصافي	المحافظة	معامل التنوع الصافي
نينوى	صفر	كربلاء	٠,٩٩
دهوك	٠.٢١	واسط	٠,٩٩
بغداد	٠,٦٨	صلاح الدين	٠,٩٩
السليمانية	٠,٩٨	النجف	١
التأميم	٠,٨٣	القادسية	٠,٩٩
أربيل	٠,٨٨	المثنى	٠,٩٩
ديالى	٠,٩٦	ذي قار	٠,٩٨
الأنبار	٠,٩٦	ميسان	٠,٩٥
بابل	٠,٩٨	البصرة	٠,٩٢

ونظراً للتجانس الكبير في التوزيع الديني بين المحافظات القطر والذي يشكل فيها المسلمون الغالبية العظمى من سكان جميع محافظات القطر فأن هذه الدراسة لم تتولى معالجة توزيع الفئات الدينية حسب الأقضية والنواحي لجميع محافظات القطر باستثناء محافظات نينوى ودهوك وبغداد .

توزيع الأقليات الدينية حسب الأقضية

بالنظر لما تتميز به بعض المحافظات من تنوع كبير في التركيب الديني ، كما يشير معامل التنوع الديني ، ذلك جدول (٨) ، فقد بات من الضروري معرفة توزيع الأقليات الدينية على نطاق الأقضية والنواحي التابعة لها ، وسوف يقتصر بحثنا لهذه الظاهرة على محافظات نينوى ودهوك وبغداد التي تتميز يتنوع تركيبها الديني الكبير .

توزيع الأقليات الدينية في محافظة نينوى

تعتبر محافظة نينوى من أكثر محافظات القطر تنوعاً من حيث التركيب الديني كما يشير إلى ذلك مقياس التنوع الديني جدول (٨)

أ - توزيع المسيحيين على أقضية نينوى :

يعتبر المسيحيون من أكبر الأقليات الدينية في محافظة نينوى حيث بلغ عددهم(٥٣,٩٤٥) نسمة ويمثلون (٤٧٪) من مجموع الأقليات الدينية الأخرى (عدا المسلمين) في المحافظة ، ويعيش (٤٢٪) منهم في قضاء الموصل ، (٢٧,٥٪) ، في قضاء تلكيف حوالي (٢٧٪) في قضاء الحمدانية . أي أن (٩٦٪) من المسيحيين في محافظة نينوى يتركزون في الأقضية الثلاثة المذكورة أعلاه ، وخصوصاً في مراكز الأقضية بينما يتوزع الباقون (٤٪) على بقية الأقضية في المحافظة .

١ - توزيع المسيحيين في قضاء الموصل والنواحي التابعة له :

يبلغ مجموع المسيحيين في مركز قضاء الموصل (٢٠,٨٣٧) نسمة أو ما يعادل (٩٢٪) من مجموع المسيحيين في قضاء الموصل والنواحي التابعة له .

وتأتي بعشيقة بعد مركز قضاء الموصل من حيث عدد المسيحيين الذين يبلغ عددهم (١,٦٣٥) نسمة أو ما يعادل (٧٪) من مجموع المسيحيين في قضاء الموصل . ويتوزع الباقون على ناحية حمام العليل (٦٢) نسمة وناحية الحميدان (٦١) نسمة ، وناحية المحلبية (٨) نسمة فقط .

٢ - توزيع المسيحيين في مركز قضاء تلكيف ونواحيه :

يبلغ مجموع المسيحيين في مركز قضاء تلكيف (١٤,٨٠٨) نسمة ويتركز أغلبهم في مركز القضاء ، ويبلغ عددهم (١٠,٦٣٦) نسمة ، ويمثلون (٧٣٪) من مجموع المسيحيين في القضاء المذكور ، ويبلغ عدد المسيحيين في ناحية القوش (٤,١٧١) نسمة أو ما يعادل (٢٨٪) من مجموع المسيحيين في قضاء تلكيف . أما ناحية (وانه) فهي خالية من المسيحيين إذ لا يوجد فيها سوى شخص واحد بموجب تعداد ١٩٧٧ .

٣ - توزيع المسيحيين في قضاء الحمدانية ونواحيه :

وبلغ مجموع المسيحيين في قضاء الحمدانية (١٤,٤٥٢) نسمة ، ويتركز جميعهم تقريباً في قضاء الحمدانية "قرقوش" (٩,١٤٢) ، وناحية برطلة (٥,٢٧٩) وهم يمثلون (٠,٩٩) من المجموع الإجمالي في القضاء المذكور ، أما عددهم في ناحية نمرود فلا يتجاوز (٢٨) نسمة كما أنهم لا يزيدون على (٣) أشخاص في ناحية كللك .

٤ - توزيع المسيحيين على بقية الأقضية :

ذكرنا أن نسبة المسيحيين في بقية الأقضية التابعة إلى محافظة نينوى لا تتجاوز (٤٪) فقط ، ولا يزيد عددهم على (٢٠٣٦) نسمة ، وهم موزعون على الوجه التالي : قضاء سنجار (٥١٥) نسمة ، قضاء عقرة (٢٠٠) نسمة ، قضاء تلعفر (١٦٤) نسمة ، قضاء الشرقاط (١١٧) نسمة ، قضاء البعاج (٨) نسمة ، وقضاء الحضر (٣) أفراد . ويتركز أغلب هؤلاء في مراكز الأقضية المذكورة باستثناء قضاء الشرقاط ، حيث يعيش أغلبهم في ناحية القيارة وقضاء تلعفر ، حيث يتركز أغلبهم في ناحية زمار ، وقضاء عقرة ، حيث يتركز أغلبهم في ناحية نهلة .

ب - توزيع اليزيدية على أقضية محافظة نينوى :

ذكرنا سابقاً أن معظم اليزيديين في القطر يتركزون في محافظة نينوى حيث بلغ عددهم (٨٩,٧٠٢) نسمة ، أو ما يعادل (٨٨٪) تقريباً من مجموع اليزيديين في العراق (أنظر جدول٤) ، ويتركز أغلبهم في قضاء سنجار (٦٠,١٤٠) نسمة ، أو ما يعادل (٦٧٪) من مجموعهم الكلي في المحافظة ، كما وتتركز أعداد كبيرة منهم في كل من أقضية تلكيف (١٣,٠١٤) نسمة ، أو ما يعادل (١٤,٥٪) ، وفي قضاء الشيخان (٨,٨٣٨) نسمة ، أو ما يعادل (٩,٨٪) ، وفي قضاء الموصل (٧,٢٢٤) نسمة ، أو ما يعادل (٨٪) من مجموعهم في المحافظة . ولا يزيد عددهم على (٢١٧) نسمة في قضاء تلعفر ، (١٦٤) في قضاء البعاج ، (٧٤) نسمة في قضاء عقرة ، (٢١) نسمة في قضاء الشرقاط ، (١٠) نسمة في قضاء الحمدانية .

١ - توزيع اليزيدية في مركز قضاء سنجار ونواحيه :

يعتبر قضاء سنجار أكثر مناطق اليزيدية تركزاً في محافظة نينوى ، ويتركز معظمهم في

ناحية الشمال ، حيث يبلغ عددهم (٣٢,١٣٣) نسمة ، أو ما يعادل (٥٣٪) من مجموع اليزيديين في القضاء ، بينما يعيش في مركز قضاء سنجار (٢٨,٠٠٧) نسمة ، أو يعادل (٤٧٪) من اليزيديين في قضاء سنجار .

٢ - توزيع اليزيديين على مركز قضاء تلكيف ونواحيه :

يظهر لنا أن اليزيدية في قضاء تلكيف يتركزون في ناحية القوش ، حيث بلغ عددهم (١٣,٠١٣) نسمة ، أو ما يعادل أكثر من (٩٩٪) من مجموع اليزيدية في قضاء دهوك (هكذا وردت ، والمفروض قضاء تلكيف) ، ولا يتجاوز عدد اليزيدية في ناحية (وانه) (١) فقط ، بينما يخلو مركز قضاء تلكيف منهم تماماً .

٣ - توزيع اليزيديين على مركز قضاء الشيخان ونواحيه :

بلغ مجموع اليزيديين في قضاء الشيخان (٨٨٣٨) نسمة ، ويتركز معظمهم في القضاء ، حيث بلغ عددهم (٨٨٣٣) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩٪) من مجموع اليزيديين في القضاء ، ولا يتجاوز عددهم في ناحية مربيا على (٤) ، وناحية المرزوي على (١) .

٤ ـ توزيع اليزيديين على مركز قضاء الموصل ونواحيه :

يظهر لنا أن معظم اليزيديين في مركز قضاء الموصل يتركزون في ناحية بعشيقة ، حيث بلغ عددهم (٦,٣٩٦) نسمة ، أو ما يعادل (٨٨,٥٪) من مجموع اليزيدية في قضاء الموصل (٨١٢) نسمة ، وفي ناحية حمام العليل (١٣) نسمة ، وفي ناحية الحميدان (٣) أشخاص فقط .

٥ - توزيع اليزيدية على مركز قضاء تلعفر ونواحيه :

بلغ مجموع اليزيديين في قضاء تلعفر (٢١٧) ، ويتركز معظمهم في ناحية زمار ، حيث بلغ عددهم (١٧٥) نسمة ، أو ما يعادل (٨٠٪) من مجموع اليزيديين في القضاء ، أما عددهم في ناحية ربيعة فلا يتجاوز (٢٣) نسمة ، وفي مركز قضاء تلعفر على (١٩) نسمة .

٦ - توزيع اليزيدية على مركز قضاء البعاج :

أما عن توزيع اليزيديين في قضاء البعاج فأنهم يتركزون في مركز القضاء فقط ، فقد بلغ عددهم (١٦٤) نسمة .

٧ - توزيع اليزيدية على مركز قضاء عقرة ونواحيه :

بلغ مجموع اليزيديين في قضاء عقرة (٧٤) نسمة ، يتركز معظمهم في مركز قضاء عقرة ، حيث بلغ عددهم (٤١) نسمة ، أو ما يعادل (٥٥٪) من مجموع اليزيديين في القضاء ، بينما يتوزع الباقون على النحو التالي : (٢١) نسمة في ناحية نهلة ، (١٢) نسمة في ناحية السنورجية .

٨ - توزيع اليزيدية على مركز قضاء الشرقاط ونواحيه :

يتوزع اليزيديون في قضاء الشرقاط على مركز قضاء الشرقاط وناحية القيارة ، إذ بلغ مجموع اليزيدية الذين يعيشيون في ناحية القيارة ومركز قضاء الشرقاط (١٢) ، (٩) نسمة على التوالي . بينما لا تظهر أي نسبة لليزيديين في ناحيتي الزاب والشورة .

٩ - توزيع اليزيدية على مركز قضاء الحمدانية ونواحيه :

رغم قلة عدد اليزيدية في قضاء الحمدانية إلا أنهم يتوزعون على النحو التالي : (٥) نسمة في ناحية كللك ، (٣) نسمة في مركز قضاء الحمدنية(قرقوش) ، (٢) نسمة في ناحية نمرود . ومما يلاحظ لا يوجد ذكر لليزيديين في مركز قضاء الحضر ونواحيه .

ج - توزيع الصابئة على أقضية محافظة نينوى :

ومما تجدر إليه (الإشارة) أن عدد الصابئة في محافظة نينوى قليل جداً بالمقارنة مع محافظة بغداد ، وبعض المحافظات الجنوبية ، ولا يزيد عددهم الإجمالي في محافظة نينوى على (١٢٥) نسمة ، ويتركز أغلبهم في قضاء الموصل ، وخاصة مركز القضاء ، إذ يبلغ عددهم (١١٢) نسمة ، أو ما يعادل (٨٩٪) من مجموعهم الكلي في المحافظة المذكورة . وتوجد بقية الأعداد القليلة في قضاء سنجار (٧) ، وقضاء تلعفر (٤) ، وقضاء تلكيف (٤) أشخاص .

توزيع الأقليات الدينية على أقضية محافظة دهوك

أ - توزيع المسيحيين على أقضية محافظة دهوك :

ذكرنا سابقاً أن مجموع المسيحيين في محافظة دهوك بلغ (١٥,٥٩٧) نسمة ، أي ما يعادل (٧,٤٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، وهم موزعون على الأقضية الثلاثة في المحافظة على الوجه التالي : (٦,٣٥٩) شخصاً في قضاء دهوك ، أو ما يعادل (٤٠,٨٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (٥,٠٨٥) شخصاً في قضاء زاخو ، أو ما يعادل (٣٢,٦٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (٤,١٥٣) شخصاً في قضاء العمادية ، أو ما يعادل (٢٦,٦٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة .

١ - توزيع المسيحيين في مركز قضاء دهوك والنواحي التابعة له :

ومما جدير بالذكر أن (٤٦,١٪) من المسيحيين في قضاء دهوك ، ويعيش (٣٠,٢٪) منهم في ناحية سميل ، (١٩,٦٪) في ناحية الدوسكي ، (٤,١٪) في ناحية زاويته .

٢ - توزيع المسيحيين على مركز قضاء زاخو ونواحيه :

بلغ عدد المسيحيين في مركز قضاء زاخو (٢,٩٦٤) نسمة وهم يمثلون (٥٨,٣٪) من مجموع المسيحيين في القضاء . وتضم ناحية السندي (١١٩٣) نسمة أو ما يعادل (٢٣,٥٪) من مجموع المسيحيين في القضاء . كما تضم ناحية الكلي (٨٤٠) نسمة ، أو ما يعادل (١٦,٥٪) ، ولا يزيد عدد المسيحيين في ناحية رزكاري على ٧٦ نسمة ، وفي ناحية السليفاني على (١٢) نسمة فقط .

٣ - توزيع المسيحيين في مركز قضاء العمادية ونواحيه :

يبدو أن ناحية سرسنك تضم أكبر نسبة من مجموع المسيحيين في قضاء العمادية حوالي (٥٠٪) ، ولا تزيد نسبتهم على (٢٢٪) في مركز قضاء العمادية ، (١٥٪) في ناحية تيروه ديكان ، (١٤٪) في ناحية برواري بالا .

ب - توزيع اليزيدية على أقضية محافظة دهوك :

بلغ مجموع اليزيدية في محافظة دهوك (٩,٦٨٥) نسمة ، ويتركز أغلبهم (٩٣٣٠)

نسمة ، أو ما يعادل (٩٦٪) في قضاء دهوك ، بينما لا يزيد عددهم على (٢٨٣) نسمة في قضاء زاخو ، (٧٢) نسمة في قضاء العمادية .

١ - توزيع اليزيدية في مركز قضاء دهوك ونواحيه :

يظهر أن الغالبية العظمى من اليزيدية في قضاء دهوك يعيشون في ناحية سميل ، حيث بلغ عددهم (٩,١٣٥) نسمة ، أو ما يعادل (٩٨٪) تقريباً من مجموع اليزيدية في قضاء دهوك . ولا يتجاوز عدد اليزيدية في مركز قضاء دهوك (١٨٦) نسمة ، وفي ناحية زاويته (٧) أشخاص ، وفي ناحية الدوسكي (٢) فردان فقط .

٢ - توزيع اليزيدية في مركز قضاء زاخو ونواحيه :

على الرغم من قلة عدد اليزيدية في قضاء زاخو ، فأنهم يتوزعون بأعداد متقاربة على مركز القضاء والنواحي التابعة له ما عدا ناحية رزكاري التي يوجد فيها (١٤٧) نسمة ، أو ما يعادل (٥٢٪) من مجموع اليزيدية في قضاء زاخو ، أما الباقون فيتوزعون كالآتي : (٤١) نسمة في مركز قضاء زاخو ، (٣٥) نسمة في ناحية الكلي ، (٣١ نسمة في ناحية السليفاني ، (٢٩) نسمة في ناحية السندي .

٣ - توزيع اليزيدية في مركز قضاء العمادية ونواحيه :

ذكرنا أن عدد اليزيدية في قضاء العمادية لا يتجاوز (٧٢) نسمة ، ويعيش أغلبهم (٦٠) نسمة أو ما يعادل (٨٣٪) منهم في ناحية سرسنك ، في حين لا يوجد في قضاء العمادية سوى (٨) يزيديين ، وفي ناحية نيروه ريكان (٣) أشخاص ، وفي برواري بالا يزيدي واحد فقط . ومما تجدر الإشارة إليه أن عدد الصابئة لا يزيد على (١٠) نسمة في كافة الأقضية والنواحي التابعة لمحافظة دهوك ، لذلك سنكتفي بهذا القدر من العرض .

توزيع الأقليات الدينية على أقضية محافظة بغداد

أ - توزيع المسيحيين على أقضية محافظة بغداد :

ذكرنا سابقاً أن مجموع المسيحيين في محافظة بغداد بلغ (١٤٢٢٨٣) نسمة ، أو مايعادل (٤,٥٦٪) من مجموع السكان العراقيين في المحافظة ، وهم موزعون على الأقضية

السبعة في المحافظة على الوجه التالي : (٢١١٨٠) شخصاً في قضاء الكرخ ، أو ما يعادل (١٥٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (١١٧,٢٦١) شخصاً في قضاء الرصافة ، أو ما يعادل (٨٢,٤٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (٢٠٢١) شخصاً في قضاء الأعظمية ، أو ما يعادل (١,٤٢٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (١٠٧٩) شخصاً في قضاء الكاظمية ، أو ما يعادل (٠,٧٥٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (٥٣٦) شخصاً في قضاء صدام (قضاء الثورة سابقاً) ، أو ما يعادل (٠,٤٦٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (٥٣) شخصاً في قضاء المحمودية ، أو ما يعادل (٠,٠٤٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، (٣٦) شخصاً في قضاء المدائن ، أو ما يعادل (٠,٠٣٪) من مجوع المسيحيين في المحافظة .

١ - توزيع المسيحيين في مركز قضاء الرصافة ونواحيه :

يعتبر قضاء الرصافة أكثر مناطق المسيحيين تركزاً ببغداد ، ويتركز أغلبهم في ناحية الكرادة الشرقية ، حيث بلغ عددهم (٦٨٩٧٩) نسمة ، أو ما يعادل (٥٨,٨٣٪) من مجموع المسيحيين في القضاء ، وبلغ مجموع المسيحيين في ناحية بغداد الجديدة (٣٢٥٢١) نسمة ، أو ما يعادل (٢٧,٧٣٪) من مجموع المسيحيين في القضاء ، بينما يعيش في مركز قضاء الرصافة (١٥٧٦١) نسمة ، أو ما يعادل (١٣,٤٤٪) من مجموع المسيحيين في قضاء الرصافة .

٢ - توزيع المسيحيين في مركز قضاء الكرخ ونواحيه :

يظهر لنا أن الغالبية العظمى من المسيحيين في مركز قضاء الكرخ يعيشون في ناحية المأمون ، حيث بلغ عددهم (٨٠١١) نسمة ، أو ما يعادل (٣٧,٨٢٪) من مجموع المسيحيين في القضاء ، وتأتي ناحية المنصور بالدرجة الثانية ، حيث بلغ عدد المسيحيين فيها (٧٣٩٤) نسمة ، أو ما يعادل (٣٤,٩١) من مجموع المسيحيين في القضاء ، بينما بلغ عدد المسيحيين في مركز قضاء الكرخ (٥٧٧٥) ، أو ما يعادل (٢٧,٢٧٪) من مجموع المسيحيين في القضاء .

٣ - توزيع المسيحيين في قضاء المحمودية ونواحيه :

بلغ عدد المسيحيين في مركز قضاء المحمودية (٣٧) نسمة ، وهم يمثلون (٦٩,٨١٪) من

مجموع المسيحيين في القضاء، وتضم ناحية اللطيفية (١٦) نسمة، أو ما يعادل(٣٠,١٩٪) من مجموع المسيحيين في القضاء، بينما تخلو ناحية اليوسفية، وناحية التأميم من المسيحيين.

٤ - توزيع المسيحيين في قضاء الأعظمية ونواحيه :

يظهر لنا أن الغالبية العظمى من المسيحيين في قضاء الأعظمية يتركزون في مركز القضاء، حيث بلغ عددهم (١٠٦٣) نسمة، وهم يمثلون (٥٢,٦٠٪) من مجموع المسيحيين في القضاء، وتضم ناحية الفحامة (٩٥٣) نسمة، أو ما يعادل (٤٧,١٥٪) من مجموع المسيحيين في القضاء، ولا يعيش في ناحية الراشدية سوى (٥) أشخاص، أو ما يعادل (٠,٢٥٪) من مجموع المسيحيين في القضاء.

٥ - توزيع المسيحيين على مركز قضاء الكاظمية ونواحيه :

تتركز الغالبية العظمى من المسيحيين في مركز قضاء الكاظمية حيث بلغ عددهم (٤٢٩) نسمة، أو ما يعادل (٣٩,٧٦٪) من مجموع المسيحيين في القضاء، وتضم ناحية أبي غريب (٤١٠) نسمة، أو ما يعادل (٣٨٪) تقريباً من مجموع المسيحيين في القضاء، كما تضم ناحية التاجي (٢١٥) نسمة، أو ما يعادل (١٩,٩٣٪) من مجموع المسيحيين في القضاء. ولا يزيد عدد المسيحيين في ناحية ذات السلاسل على (٢٠) نسمة، وفي ناحية الطارمية على (٥) نسمة فقط.

٦ - توزيع المسيحيين على مركز قضاء المدائن ونواحيه :

يبدو أن ناحية الجسر تضم أكبر نسبة من مجموع المسيحيين في قضاء المدائن، حيث بلغ عددهم (١٨) نسمة، وهم يمثلون (٥٠٪) من مجموع المسيحيين في القضاء، وتضم ناحية الوحدة (١٢) نسمة، أو ما يعادل (٣٣,٣٣٪) من مجموع المسيحيين في القضاء، ولا يضم مركز قضاء المدائن سوى (٦) أشخاص. أما قضاء صدام (قضاء الثورة سابقاً) فقد بلغ عدد المسيحيين فيه (٦٥٣) نسمة.

ب - توزيع الصابئة على أقضية محافظة بغداد :

بلغ مجموع الصابئة في محافظة بغداد، حسب تعداد ١٩٧٧، (٨٠٣٤) نسمة، أو ما

يعادل (٥٠,٤١٪) من المجموع الكلي للصابئة في العراق ، وتتركز الغالبية العظمى منهم في قضاء الكرخ (٤٣٨٤) نسمة ، أو ما يعادل (٥٤,٤١٪) من مجموع الصابئة في المحافظة ، ويليهم قضاء الرصافة (١٧٤٩) نسمة ، أو ما يعادل (٢١,٧٧٪) من مجموع الصابئة في المحافظة ، ثم قضاء صدام (١٣١٠) نسمة ، أو ما يعادل (١٦,٣١٪) من مجموع الصابئة في المحافظة ، بينما بلغ عدد مجموع الصابئة في قضاء الاعظمية (٣٩٦) نسمة ، قضاء الكاظمية (١٣٦) نسمة ، قضاء المدائن (٥١) نسمة ، قضاء المحمودية (٨) نسمة .

١ - توزيع الصابئة في قضاء الكرخ ونواحيه :

يظهر لنا أن الغالـبية العظـمى من الصابئة في مركز قضاء الكرخ يعيشون في ناحية المنصور (٣٠٠٨) نسمة ، أو ما يعادل (٦٨,٦١٪) من مجموع الصابئة في القضاء ، تليهم ناحية المأمون (٧٥٢) نسمة ، أو ما يعادل (١٧,١٥٪) من مجموع الصابئة في القضاء ، في حين بلغ عددهم في مركز قضاء الكرخ (٦٢٤) نسمة ، أو ما يعادل (١٤,٢٣٪).

٢ - توزيع الصابئة في قضاء الرصافة ونواحيه :

بلغ مجموع الصابئة في قضاء الرصافة (١٧٤٩) نسمة ، يتركز أغلبهم في مركز القضاء (١١٢٨) نسمة ، أو ما يعادل (٦٤,٤٩٪) من المجموع الكلي للصابئة في القضاء ، تليهم ناحية بغداد الجديدة (٤٧٩) نسمة ، أو ما يعادل (٢٧,٣٩٪) من المجموع الكلي للصابئة في القضاء ، بينما بلغ مجموع الصابئة في ناحية الكرادة الشرقية (١٤٢) نسمة ، أو ما يعادل (٨,١٢٪) . أما قضاء صدام (قضاء الثورة سابقاً) فقد بلغ مجموع الصابئة فيه (١٣١٠) نسمة .

٣ - توزيع الصابئة في قضاء الأعظمية ونواحيه :

بلغ مجموع الصابئة في قضاء الأعظمية (٣٩٦) نسمة ، تتركز غالبيتهم في مركز القضاء (٢٠٥) نسمة ، أو ما يعادل (٥١,٧٧٪) من المجموع الكلي للصابئة في القضاء ، يليهم ناحية الفحامة (١٩٠) نسمة ، أو ما يعادل (٤٧,٨٠٪) من المجوع الكلي للصابئة في القضاء ، في حين كان مجموع الصابئة في ناحية الراشدية (١) نسمة .

٤ - توزيع الصابئة في مركز قضاء الكاظمية ونواحيه :

يظهر لنا أن الغالبية العظمى من الصابئة في قضاء الكاظمية يتركزون في مركز القضاء (٩٤) نسمة ، أو ما يعادل (٦٩,١٢٪) من المجموع الكلي للصابئة في القضاء ، وتأتي ناحية التاجي بالدرجة الثانية ، حيث بلغ مجموع الصابئة فيها (٢٢) نسمة ، أو ما يعادل (٢٣,٤٠٪) من المجوع الكلي للصابئة في القضاء ، أما ناحيتي أبي غريب وذات السلاسل فقد بلغ مجموع الصابئة فيها (١٩ ، ١) نسمة على التوالي .

٥ - توزيع الصابئة في قضاء المدائن ونواحيه :

بلغ مجموع الصابئة في قضاء المدائن (٥١) نسمة ، أغلبهم يتركزون في مركز القضاء ، (٣٠) نسمة ، أو ما يعادل (٥٨,٨٢٪) من المجموع الكلي للصابئة في القضاء ، بينما تركز الباقون في ناحية الجسر (٢١) نسمة ، أو ما يعادل (٤١,١٨٪) ، ويظهر لنا قلة عدد الصابئة في قضاء المحمودية حيث بلغ عددهم (٨) نسمة جميعهم يسكنون في مركز القضاء .

ج - توزيع اليزيديين على أقضية محافظة بغداد :

ذكرنا سابقاً أن مجموع اليزيديين في محافظة بغداد بلغ (٨٢٩) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٠٣٪) من المجموع الكلي للسكان العراقيين في المحافظة . وهم موزعون على الأقضية السبعة كما يلي : قضاء الرصافة (٦٣٨) نسمة أو ما يعادل (٧٦,٩٦٪) من مجموع اليزيديين في المحافظة ، (٦٩) نسمة في قضاء الكرخ ، أو ما يعادل (٨,٣٢٪) من مجموع اليزيديين في المحافظة ، (٦٩) نسمة في قضاء الكاظمية ، (٣٦) نسمة في قضاء الأعظمية ، أو ما يعادل (٤,٣٤٪) من مجموع اليزيديين في المحافظة ، (٩) نسمة في قضاء المحمودية ، أو ما يعادل (١,٠٩٪) ، (٦) نسمة في قضاء صدام أو ما يعادل (٠,٧٢٪) ، (٢) نسمة في قضاء المدائن ، أو ما يعادل (٠,٢٤٪) .

١ - توزيع اليزيديين في مركز قضاء الرصافة ونواحيه :

تتركز الغالبية العظمى من اليزيديين في قضاء الرصافة في ناحية الكرادة الشرقية ، حيث بلغ مجموعهم (٤٠٠) نسمة ، أو ما يعادل (٦٢,٧٠٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء ، يليهم مركز قضاء الرصافة (١٧٩) نسمة ، أو ما يعادل (٢٨,٠٦٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء ، ثم ناحية بغداد الجديدة (٥٩) نسمة ، أو ما يعادل (٩,٢٥٪).

٢ - توزيع اليزيديين في مركز قضاء الكرخ ونواحيه :

بلغ مجموع اليزيديين في قضاء الكرخ (٦٩) يزيدي (هكذا) ، يتوزعون على النحو التالي : (٤٨) يزيدي في مركز قضاء الكرخ ، أو ما يعادل (٦٩,٥٧٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء ، (٢٠) يزيدي في ناحية المنصور ، أو ما يعادل (٢٨,٩٩٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء ، ويزيدي واحد في ناحية المأمون .

٣ - توزيع اليزيديين في مركز قضاء الكاظمية ونواحيه :

يتركز معظم اليزيديين في قضاء الكاظمية في ناحية أبي غريب ، حيث بلغ عددهم (٣٤) نسمة ، أو ما يعادل (٤٩,٢٨٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء ، ثم مركز قضاء الكاظمية (٣) نسمة ، أو ما يعادل (٤,٣٥٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء .
أما بخصوص توزيع اليزيديين في قضاء المحمودية والثورة والمدائن فهي كما يلي : بلغ مجموع اليزيديين في قضاء المحمودية (٩) نسمة ، يتركز أغلبهم في ناحية اللطيفية (٦) نسمة ، أو ما يعادل (٦٦,٦٧٪) من المجموع الكلي لليزيديين في القضاء ، أما مجموع اليزيديين في مركز قضاء المحمودية وناحية اليوسفية فقد بلغت (١,٢) نسمة على التوالي . أما في قضاء صدام (قضاء الثورة سابقاً) فقد بلغ عددهم (٦) نسمة ، جميعهم في مركز القضاء . كذلك الحال بالنسبة لليزيديين في قضاء المدائن فقد بلغ عددهم (٢) نسمة ، جميعهم في مركز قضاء المدائن .

د - توزيع اليهود على أقضية بغداد :

ذكرنا سابقاً أن مجموع اليهود في محافظة بغداد بلغ (٢٧٠) يهودي (هكذا) ، ويبدو أن الغالبية العظمى من اليهود في محافظة بغداد يتركزون في قضاء الرصافة ، (٢٤٣) نسمة ، أو ما يعادل (٩٠٪) من المجموع الكلي لليهود في المحافظة ، بينما بلغ مجموع اليهود في قضاء الكرخ (١١) نسمة ، أو ما يعادل (٤,٠٧٪) ، في حين بلغ عدد اليهود في قضاء صدام (٨) نسمة ، أو ما يعادل (٢,٩٦٪) ، وبلغ مجموع اليهود في قضاء الأعظمية (٤) نسمة ، كذلك في قضاء الكاظمية (٤) نسمة .

١ - توزيع اليهود في مركز الرصافة ونواحيه :

يبدو أن معظم اليهود في قضاء الرصافة يتركزون في ناحية الكرادة الشرقية ، حيث بلغ

عددهم (٢٠١) نسمة ، أو ما يعادل (٨٢,٧٢٪) من المجموع الكلي لليهود في القضاء ، يليهم مركز قضاء الرصافة (٣٦) نسمة ، أو ما يعادل (١٤,٨١٪) ، ثم يليهم مركز قضاء الرصافة (٣٦) نسمة ، أو ما يعادل (٢,٤٧٪) .

٢ - توزيع اليهود في مركز الكرخ ونواحيه :

بلغ مجموع اليهود في مركز قضاء الكرخ (١١) نسمة ، يتوزعون على النحو التالي : (٥)نسمة يعيشون في ناحية المنصور ، أو ما يعادل (٤٥,٤٥٪)من المجموع الكلي لليهود في القضاء ، (٣) نسمة في مركز قضاء الكرخ ، أو ما يعادل (٢٧,٢٧٪) من المجموع الكلي لليهود في في القضاء ، (٣) نسمة كذلك في ناحية المأمون أو ما يعادل (٢٧,٢٧٪) .

٣ - توزيع اليهود في قضاء صدام والكاظمية والأعظمية ونواحيهم :

بلغ مجموع اليهود في قضاء صدام (٨) نسمة ، جميعهم في مركز القضاء ، أما بالنسبة لمجموع اليهود في قضاء الأعظمية فقد بلغ عددهم (٤) نسمة ، جميعهم في مركز قضاء الأعظمية ، وفي قضاء الكاظمية أيضاً بلغ مجموع اليهود (٤) نسمة ، جميعهم يتركزون في مركز القضاء أيضاً .

الفصل الثاني

التركيب الديني لسكان المحافظات حسب القومية

يرمي هذا الفصل إلى تسليط الضوء على توزيع الأقليات الدينية في كل محافظة ، وذلك حسب الانتماء القومي لكل فئة دينية .

التركيب الديني في محافظة دهوك حسب القومية :

بلغ مجموع المسلمين في محافظة دهوك (٢٢٣,٦٧١) نسمة ، أغلبهم من الأكراد ، الذين بلغ عددهم (١٨٩,٥٧٦) نسمة ، أو ما يعادل (٨٥٪) تقريباً من مجموع المسلمين في المحافظة ، أما المسلمون العرب فيبلغ عددهم (٣٢,٩٩٩) شخصاً ، أو ما يعادل (٢٥٪) تقريباً من مجموع المسلمين في المحافظة ، وهناك (٥٠٠) مسلم من التركمان ، (٤٠) مسلم من الأكراد الفيلية ، (٢٨) من السريان ، (٦) فقط من الأرمن ، إضافة إلى (٥٢٢) من الفئات الأخرى غير المبينة .

وأما المسيحيون فقد بلغ عددهم (١٦,٥٩٧) نسمة ، أغلبهم من السريان ، الذين يبلغ عددهم (١١,٦٦٣) نسمة ، أو ما يزيد بقليل على (٧٠٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة . أما المسيحيون العرب فقد بلغ عددهم (٣,٧٧٧) شخصاً ، أو ما يزيد على خمس المجموع الكلي ، (٢٢,٧٪) . أما المسيحيون الأرمن فقد بلغ عددهم (٨٧١)شخصاً ، ويليهم من حيث العدد المسيحيون الأكراد (٢٤٦) ، ثم المسيحيون التركمان (٥) ، والأكراد الفيلية (٥) فقط . ويوجد إلى جانب ذلك (٣٠) شخصاً لم تحدد هويتهم الدينية .

ويبلغ مجموع اليزيدية في المحافظة (٩,٦٨٥) نسمة ، جميعهم تقريباً من العرب ، الذين يبلغ عددهم (٩٤٤٢) ، أو ما يعادل (٠,٩٨٪) تقريباً من مجموع اليزيدية في المحافظة . أما الباقون فهم من الأكراد (٢٣٣) شخصاً ، ولا يوجد سوى سرياني واحد وآخر أرمني فقط . ويظهر بوضوح عدم وجود الصابئة واليهود في محافظة دهوك إلا بأعداد قليلة جداً (١٠) ، (٣) شخصاً لكل منهما على التوالي . ومما تجدر الإشارة إليه وجود (٣١,٧) شخصاً لم تعرف هويتهم الدينية . أنظر الجدول (٩) .

التركيب الديني لسكان محافظة السليمانية حسب القومية :

بلغ مجموع المسلمين في محافظة السليمانية (٦٨٦,٩٤٢) نسمة ، ويتكون غالبيتهم العظمى من الأكراد ، الذين يبلغ عددهم (٦٤٦,٧٥٦) نسمة ، أو ما يعادل (٩٤٪) من مجموع المسلمين في المحافظة . أما المسلمون العرب فيبلغ عددهم (٣٦,٨٢٣) نسمة ، أو ما يزيد قليلاً على (٥٪) فقط . أما المسلمون التركمان فيبلغ عددهم (٩٦٤) شخصاً ، كما ويوجد (١٥٠) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (٢٨) شخصاً من السريان ، و(١٣) من الأرمن . وهناك عدد كبير من الأشخاص الذين لم يكشفوا النقاب عن هويتهم الدينية أو القومية (٢,٣٠٨) شخصاً . ويظهر بوضوح قلة الفئات الدينية الأخرى في محافظة السليمانية التي يتكون أغلب سكانها من المسلمين كما بينا سابقاً .

جدول (٩) يوضح التوزيع الديني لسكان محافظة دهوك حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	١٤,٧٥	٨٤,٧٦	٠,٢٢	٠,٠٢	٠,٠٠٣	٠,٠١	٠,٢٣	١٠٠٪
مسيحي	٢٢,٧٦	١,٥٩	٠,٠٣	٠,٠٣	٥,٢٥	٧٠,٣٧	٠,١٨	١٠٠٪
يهودي	٦٦,٦٧	صفر	٣٣,٣٣	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٩٧,٤٩	٢,٤١	صفر	صفر	٠,٠١	٠,٠١	٠,٠٨	١٠٠٪
صابئي	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٢٠,٨٢	١٨,٩٢	صفر	صفر	٠,٩٥	٣,٧٩	٥٥,٥٢	١٠٠٪
المجموع	١٨,٥٠	٧٥,٩٦	٠,٠٢	٠,٢٠	٠,٣٥	٤,٦٨	٠,٢٩	١٠٠٪

فالمسيحيون لا يزيد عددهم على (١,٢٥٣) شخصاً في كافة أرجاء المحافظة ، منهم (٤٧٧) من العرب ، ويمثلون (٣٨٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، يليهم السريان من حيث العدد (٤١٠) شخصاً ، او ما يعادل الثلث تقريباً (٣٢,٧٪) ، ويوجد إلى جانب ذلك (٢٢٣) فرداً من المسيحيين الأكراد ، (٣٩) من الأرمن ، (٧) من الأكراد الفيلية ، (٦) من التركمان فقط .

إلى جانب المسلمين والمسيحيين ، اليزيدية الذين يبلغ عددهم (٤٨٢) شخصاً ، ويتكون أكثر من ثلاث أرباعهم (٧٨٪) من العرب ، أما اليزيديين الأكراد فيبلغ عددهم (٦٥) شخصاً ، ويوجد يزيدي واحد فقط من الأرمن ، إلى جانب (٣٨) فردا غير مبين . وكما هو الحال بالنسبة لمحافظة دهوك ، فأن عدد الصابئة واليهود في محافظة السليمانية يكاد لا يذكر (٣٢و١٠) لكل منهم على التوالي . وأن هناك (٣٩٨) شخصاً لم يذكروا هويتهم الدينية . أنظر جدول (١٠) .

جدول (١٠) يوضح التوزيع الدين لمحافظة السليمانية حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٥,٣٦	٩٤,١٥	٠,٠٢	٠,١٣	٠,٠٠٢	٠,٠٠٤	٠,٣٤	١٠٠٪
مسيحي	٣٨,٠٧	٧١,٦٠	٠,٥٦	٠,٤٨	٣.١١	٣٢,٧ ٢	٧,٢٦	١٠٠٪
يهودي	٧٠	صفر	١٠	صفر	١٠	١٠	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٧٨,٤٢	١٣,٤٩	صفر	صفر	٠,٢١	صفر	٧,٨٨	١٠٠٪
صابئي	٨٤,٣٨	٩,٣٨	صفر	صفر	صفر	صفر	٦,٢٥	١٠٠٪
غير مبين	٢,٢٥	٣٤	صفر	صفر	١	٤,٢٥	٥٨,٢٥	١٠٠٪
المجموع	٥,٤٧	٩٣,٩١	٠,٠٢	٠,١٢	٠,٠١	٠,٠٧	٠,٣٩	١٠٠٪

التركيب الديني لسكان محافظة أربيل حسب القومية :

يبلغ مجموع المسلمين في المحافظة (٢٨٢٤١٦) ويتكون أغلبهم من الأكراد ، الذين بلغ عددهم (٢٣٥٧٢٣) نسمة ، أو ما يعادل (٨٧,٧١٪) من مجموع المسلمين في المحافظة . أما المسلمون العرب فقد بلغ عددهم (٤١٢٨٩) نسمة ، أو ما يعادل (١٠,٣٢٪) من مجموع المسلمين في المحافظة . ويليهم المسلمون التركمان الذي بلغ عددهم (٤٦٢٢) نسمة ، أو ما يعادل (١,٦٨٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة . ويوجد كذلك (٣٨) شخصاً من المسلمين السريان ، (٣٦) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (٤) أشخاص من المسلمين الأرمن ، وهناك عدد من الأشخاص لم يكشف النقاب عن هويتهم الدينية أو القومية (٠,٣٧٪) شخصاً . ويبدو أن نسبة الفئات الدينية الأخرى في محافظة أربيل قليلة ، فالمسيحيون لا يزيد عددهم على (١٠٧٢٢) نسمة في كافة أرجاء المحافظة ، منهم (٩٢١٩) من السريان ، أو ما

يعادل (٨٥,٩٨٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، يليهم العرب من حيث العدد (١٢١٠) نسمة ، أو ما يعادل (١١,٢٩٪) من مجموع المسيحيين الأرمن ، (١٤٣) شخصاً من المسيحيين الأكراد ، (٤) شخصاً (هكذا) من المسيحيين التركمان ، (١) شخصاً (هكذا) من الأكراد الفيلية ، إلى جانب (٣٧) شخصاً غير مبين . ويوجد كذلك إلى جانب المسلمين والمسيحيين ، اليزيدية ، الذين بلغ عددهم (٢١٤) نسمة ، يشكل العرب (٩٦) نسمة ، الغالبية العظمى منهم (٤٤,٨٦٪) من مجموع اليزيدية في المحافظة ، يليهم اليزيدية الأكراد (٧٤) نسمة ، أو ما يعادل (٣٤,٥٨٪) من مجموع اليزيدية في المحافظة . أما اليزيدية السريان فقد بلغ عددهم (٢) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٩٣٪) من مجموع اليزيدية في المحافظة إلى جانب (٤٢) شخصاً غير مبين . وكما هو الحال بالنسبة إلى محافظة السليمانية ودهوك فإن الصابئة واليهود يكاد لا يذكر ، إذ بلغ عددهم (٢٤) شخصاً من الصابئة ، و(٨) أشخاص من اليهود . ومما تجدر الإشارة إليه أن (٢٤٠) شخصاً في محافظة أربيل لم يذكروا هويتهم الدينية .

جدول (١١) يوضح التوزيع الديني حسب القومية في محافظة أربيل

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	١٠,٣٢	٨٧,٧١	٠,١	١,٦٨	٠,٠٠١	٠,٠١	٠,٣٧	١٠٠٪
مسيحي	١١,٢٩	١,٣٣	٠,٠١	٠,٠٤	٠,٠١	٨٥,٩٨	٠,٣٥	١٠٠٪
يهودي	٣٧,٥	٢٥	١٢,٥	صفر	صفر	٢٥	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٤٤,٨٦	٣٤,٥٨	صفر	صفر	صفر	٠,٩٣	١٩,٦٣	١٠٠٪
صابئي	٩١,٦٧	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	٨,٣٣	١٠٠٪
غير مبين	٩,٥٨	٢٨,٧٥	صفر	صفر	صفر	١٧,٩٢	٤٣,٧٥	١٠٠٪
المجموع	١٠,٣٥	٨٥,٩٥	٠,٠١	١,٦٤	٠,٠٢	١,٧٣	٠,٣٠	١٠٠٪

التركيب الديني لسكان محافظة نينوى حسب القومية

بلغ مجموع المسلمين في المحافظة (٩٥٣,٣٩٨) نسمة ، ويتكون أغلبهم من العرب ، الذين بلغ عددهم (٧٩٥,٨٣٤) نسمة ، أو ما يعادل (٨٣٪) من مجموع المسلمين في المحافظة . أما المسلمون الأكراد فقد بلغ عددهم (١٤٢,٨٧٥) نسمة أو ما يعادل (١٥٪) من

مجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، ويأتي المسلمون التركمان بالدرجة الثالثة من حيث عددهم الذي بلغ (٩,٤٧٧) شخصاً ، أو ما يعادل (١٪) تقريباً ، كما يوجد (٢,٤٠٨) شخصاً من الأكراد الفيلة ، (٢١) من السريان إضافة إلى (٨) شخصاً (هكذا) من الأرمن . كما تجدر الإشارة إلى وجود عدد كبير من الأشخاص الذين لم يذكروا شيئاً عن هويتهم الدينية أو القومية ، والبالغ عددهم (٢,٧٧٥) شخصاً .

أما المسيحيون فيبلغ عددهم (٥٣,٩٤٥) نسمة ويتكون غالبيتهم العظمى من العرب (٥٢,٥٠٥) شخصاً ، أو ما يعادل (٩٧٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، ويليهم من حيث العدد المسيحيون السريان والبالغ عددهم (١١٥٦) شخصاً ، أو ما يقارب من (٢٪) ، كما يوجد (٩٤) شخصاً من المسيحيين الأكراد ، (٦٨) شخصاً من المسيحيين الأرمن ، (٧) من التركمان ، كذلك (٧) من الأكراد الفيلية .

أما اليزيدية فيبلغ عددهم (٨٩,٧٠٢) نسمة ، ويتألف جميعهم تقريباً من العرب (٨٩,٣١٥) شخصاً ، أو ما يزيد بقليل على (٩٩٪) ، ويوجد إلى جانبهم (٢٩٨)شخصاً من الأكراد اليزيدية ، (٦٧) من الأكراد الفيلية ، (٢) من التركمان ، وشخص واحد فقط من السريان وآخر من الأرمن ، أما البقية فلا يزيد عددهم على (١٢٥) شخصاً غالبيتهم العظمى من العرب (١٢٢) شخصاً ، كما أن عدد اليهود في محافظة نينوى لا تتجاوز (٩) أشخاص فقط ، اثنان منهم عرب والباقون أكراد . ويذكر أن هناك (٢,٦٢٨) شخصاً لم يذكروا شيئاً عن هويتهم الدينية والقومية . أنظر جدول (١٢) .

التوزيع الديني لسكان محافظة التأميم (كركوك) حسب القومية

بلغ مجموع المسلمين في محافظة التأميم (٤٧٩,٣٨١) نسمة ، منهم (٢١٠,٩٧٧) شخصاً أو ما يعادل (٤٤٪) من العرب ، (١٨٤,٥٧٣) شخصاً أو ما يعادل (٣٨,٥٪) من الأكراد ، (٨٠,٢٩٦) شخصاً أو ما يعادل (١٧٪) تقريباً من التركمان ، (٣٨٠) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (٩٣) من السريان ، (٣٥) من الأرمن . وهناك (٣٠٢٧) شخصاً لم تعرف هويتهم القومية أو الدينية .

أما المسيحيون في محافظة التأميم فقد بلغ عددهم (١١,٥٦١) نسمة ، وهم موزعون كالآتي : (٦,٨٥٢) شخصاً ، أو ما يعادل (٥٩٪) من العرب ، (٣٩٢٠) شخصاً أو ما يعادل (٣٤٪) من السريان ، (٥٤٣) شخصاً أو ما يعادل (٥٪) تقريباً من الأرمن ، (٨٣) شخصاً من الأكراد ، (٣٣) من التركمان ، (٧) من الأكراد الفيلية .

جدول (١٢) يوضح التوزيع الديني لسكان محافظة نينوى حسب القومية

الديانية القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٣٨,٤٧	١٤,٩٩	٠,٢٥	٠,٩٩	٠,٠٠١	٠,٠٠٢	٠,٢٩	١٠٠٪
مسيحي	٩٧,٣٣	٠,١٧	٠,٠١	٠,٠١	٠.١٨	٢,١٤	٠,٢٠	١٠٠٪
يهودي	٢٢,٢٢	٤٤,٤٤	٣٣,٣٣	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٩٩,٥٧	٠,٣٣	٠,٠٧	٠,٠٠٢	٠,٠٠١	٠,٠٠١	٠,٠٢	١٠٠٪
صابئي	٩٧,٦	٠,٠٨	٠,٠٨	٠,٠٨	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٧١,٧٩	١,٠٦	٠,١١	صفر	٠,١٥	صفر	٢٦,٨٨	١٠٠٪
المجموع	٨٥,٤٤	١٣,٠٣	٠,٢٢	٠,٨٦	٠,١٠	٠,١١	٠,٣١	١٠٠٪

ويظهر بوضوح قلة الفئات الدينة الأخرى ، فقد بلغ مجموع اليزيدية (٦٠١) شخصاً ، أغلبهم من العرب (٤١٧) شخصاً ، والأكراد (١١٩) شخصاً . ويوجد إلى جانب ذلك (٣١٥) شخصاً ، من الصابئة جميعهم تقريباً من العرب (٣١١) شخصاً ، أما اليهود فلا يزيد عددهم على (٦) أشخاص فقط . انظر جدول (١٣) .

التوزيع الديني لسكان محافظة صلاح الدين حسب القومية

بلغ مجموع المسلمين في محافظة صلاح الدين (٣٦١,٩٦١) نسمة ، وتتكون غالبيتهم العظمى من العرب ، الذين بلغ عددهم (٣٠٧,٥٤٩) شخصاً أو ما يعادل (٨٥٪) من مجموع المسلمين في المحافظة . أما المسلمون الأكراد فيبلغ عددهم (٣٨,٢١) شخصاً ، الذين تقدر نسبتهم حوالي (٤٪) من مجموع المسلمين في المحافظة ، وهناك (٦٣) شخصاً من الأكراد الفيلة ، (٦) من الأرمن ، (٣) من السريان . أما الفئات الدينية الأخرى في محافظة صلاح الدين فقليلة جداً ، إذ لا يزيد مجموع المسيحين على (٤٢٨) شخصاً غالبيتهم العظمى من العرب (٢٨٠) شخصاً ، ويوجد إلى جانب المسيحيين (٨٥) شخصاً من اليزيدية منهم (٤٦) شخصاً من العرب ، و(٣٣) من الأكراد ، كما ويوجد (٢٨) شخصاً من الصابئة ، (٢) فقط من اليهود .

جدول (١٣) يوضح التوزيع الديني حسب القومية في محافظة التأميم

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٤٤,١٠	٣٨,٥٠	٠,٠٨	١٦,٧٥	٠,٠١	٠,٠٢	١٠,٦٣	١٠٠٪
مسيحي	٥٩,٢٧	٠,٧٢	٠,٠٦	٠,٢٨	٤.٧٠	٣٣,٩١	٠,٠٦	١٠٠٪
يهودي	٦٦,٦٧	صفر	صفر	صفر	١٦.٧	صفر	١٦.٧	١٠٠٪
يزيدي	٦٩,٣٨	١٩,٨٠	٠,١٧	٠,٣٣	٠,١٧	٠,٥٠	٩,٦٥	١٠٠٪
صابئي	٩٨,٧٣	٠,٩٥	صفر	صفر	صفر	صفر	٠,٣٢	١٠٠٪
غير مبين	٢٥,٨٣	١٢,٩٢	صفر	٢,١٣	٠,١٣	٤,٥٢	٥٤,٤٦	١٠٠٪
المجموع	٤٤,٤١	٣٧,٥٣	٠,٠٨	١٦,٣١	٠,١١	٣,٨٢	٠,٧٣	١٠٠٪

جدول (١٤) يوضح التوزيع الديني حسب القومية في محافظة صلاح الدين

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٨٤,٩٧	١٠,٥٣	٠,٠٢	٣,٩٩	٠,٠٠٢	٠,٠٠١	٠,٤٨	١٠٠٪
مسيحي	٦٥,٤٢	٧,٩٤	٠,٤٧	٠,٤٧	٢,٥٧	١٠,٩٨	١٢,١٥	١٠٠٪
يهودي	٥٠	صفر	٥٠	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٥٤,١٢	٣٨,٨٢	صفر	صفر	صفر	صفر	٧,٦	١٠٠٪
صابئي	٩٦,٤٣	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	٣.٥٧	١٠٠٪
غير مبين	٢٩,٠٦	٨,٥٥	صفر	صفر	٥,٩٨	١,٧١	٥٤,٧٠	١٠٠٪
المجموع	٨٤,٩٢	١٠,٥٣	٠,٠٢	٣,٩٨	٠,٠١	٠,٠١	٠,٥٢	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة بغداد حسب القومية

بلغ تعداد المسلمين في محافظة بغداد (٢,٩٦٢,٥٥٤) نسمة ، وتتألف غالبيتهم العظمى من العرب ، الذين بلغ مجموعهم (٢,٨٢٢,٩١٦) شخصاً ، أو ما يزيد قليلاً على

(٩٥٪) من المجموع الإجمالي للمسلمين في المحافظة . أما المسلمون الأكراد فقد بلغ عددهم (١١٤,٠٤١) شخصاً أو حوالي (٤٪) من المجموع الكلي . ويوجد إلى جانب ذلك (١١,٥٢٩) شخصاً من مسلمين التركمان ، (٦,٩٤٩) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (٢٢٢) من السريان ، (١٣٦) شخصاً من الأرمن . كما ويوجد عدد كبير من الأشخاص الذين لم يكشفوا النقاب عن هويتهم الدينية أو القومية بلغوا (٦٧٢٢) نسمة .

أما المسيحيون فقد بلغ مجموعهم (١٤٢,٢٨٣) نسمة ، يتكون حوالي ثلثهم من العرب (٩١,٥٦٨) وحوالي الخمس من السريان (٣٢,٣٧٧) ، (٩٥١٨) من الأرمن ، (٧٧٩) من المسيحيين الأكراد ، (٢٨٢) من المسيحيين التركمان ، (٢٣) من الفيلية ، ويأتي الصابئة بعد المسلمين والمسيحيين من حيث العدد ، حيث بلغ تعدادهم (٨,٠٣٤) شخصاً ، غالبيتهم العظمى من العرب (٧,٩٨٥) شخصاً ، كما ويوجد (٨٢٩) يزيدي (هكذا) غالبيتهم من العرب (٥٠٨) ، والأكراد (٢٦٩) ، أما اليهود فلا يتجاوز عددهم (٢٧٠) شخصاً ، اغلبهم من العرب (٢٣٣) ، ويوجد عدد كبير من الأفراد الذين لم يذكروا شيئاً عن انتمائهم الديني أو القومي بلغوا (٧,٥٨٧) شخصاً . (أنظر جدول (١٥) .

جدول (١٥) يوضح التوزيع الديني في محافظة بغداد حسب القومية

الديانية القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٩,٢٩	٣,٨٥	٠,٢٣	٠,٣٩	٠,٠٠٠٦	٠,٠٠٧	٠,٢٣	١٠٠٪
مسيحي	٦٤,٣٦	٠,٥٥	٠,٠٢	٠,٢٠	٦,٦٩	٢٢,٧٦	٥,٤٤	١٠٠٪
يهودي	٨٦,٣٠	٣,٧٠	١,١١	٢,٥٩	٠,٧٤	٠,٧٤	٤,٨١	١٠٠٪
يزيدي	٦١,٢٨	٣٢,٤٥	صفر	٠,٢٤	٠,١٢	صفر	٥,٩١	١٠٠٪
صابئي	٩٩,٣٩	٠,٢٠	صفر	٠,٠١	صفر	٠,٠٥	٠,٣٥	١٠٠٪
غير مبين	٤٥,٧٣	١,٨٢	٠,٠١	٠,١٢	٠,٣٧	١,٣٣	٥,٦٣	١٠٠٪
المجموع	٩٣,٧٥	٣,٦٩	٠,٢٢	٠,٣٨	٠,٣١	١,٠٥	٠,٥٩	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة ديالى حسب القومية

بلغ مجموع المسلمين في محافظة ديالى (٥٨٣,٠٨٤) نسمة ، منهم (٥١٠,٢٣٦) شخصاً ، أو ما يعادل أكثر من (٧٨٪) بقليل من العرب ، (٦٢,٦٨٥) أو (١٠٪) تقريباً من

الأكراد . كما ويوجد (٨,١٨٠) شخصاً من المسلمين التركمان (١,٤٪) ، (١١٧) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (٢٩) من الأرمن ، (٤) فقط من السريان . أما مجموع المسيحيين في المحافظة فلا يتجاوز (٧٥٨) شخصاً ، تتكون غالبيتهم من العرب (٤٥٥) إلى جانب (١٢٣) شخصاً من السريان ، (٨٨) من الأرمن ، (٢٣) من الأكراد ، (٤) فقط من الأكراد الفيلية . ويوجد في محافظة ديالى (٤٠٣) شخصاً صابئياً جميعهم تقريباً من العرب (٣٩١) ، (١١) من السريان ، كما أن هناك (٨٨) شخصاً يزيدي ، منهم (٤٤) عربياً ، (٣٤) كردياً ، أما اليهود فلا يزيد عددهم على (٧) أشخاص فقط . أنظر جدول (١٦) .

جدول (١٦) يوضح التوزيع الديني حسب القومية في محافظة ديالى

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٨٧,٥١	١٠,٧٥	٠,٠٢	١,٤٠	٠,٠٠٥	٠,٠٠١	٠,٣١	١٠٠٪
مسيحي	٦٠,٠٣	٣,٠٣	٠,٥٣	صفر	١١,٦١	٨,٥٧	١٦,٢٣	١٠٠٪
يهودي	٨٥,٧١	صفر	صفر	١٤,٢٩	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٥٠	٣٨,٦٤	صفر	صفر	صفر	صفر	١١,٣٦	١٠٠٪
صابئي	٩٧,٠٢	صفر	صفر	صفر	صفر	٢,٧٣	٠,٢٤	١٠٠٪
غير مبين	٦٩,٨٧	٧,٤٧	صفر	٢,٤	١,٣٣	٠,٢٧	١٨,٦٧	١٠٠٪
المجموع	٨٧,٤٦	١٠,٧٤	٠,٠٢	١,٤٠	٠,٠٢	٠,٠٢	٠,٣٤	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة بابل حسب القومية

بلغ مجموع المسلمين الكلي في محافظة بابل (٥٨٦,٦٦٨) نسمة ، تتكون غالبيتهم العظمى من العرب (٥٨٠,٩٦٥) شخصاً أو ما يعادل (٩٩٪) من المجموع الإجمالي للمسلمين في المحافظة . أما المسلمون الأكراد فقد بلغ عددهم (٤٨٩٠) شخصاً ، أو أقل من (١٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة . وهناك (٣٨٠) شخصاً من المسلمين التركمان ، (٢٢) من الأكراد الفيلية . أما المسيحيون في محافظة بابل فلا يتجاوز عددهم (٩٥٧) شخصاً ، غالبيتهم العظمى من العرب (٦٩٩) ، إلى جانب (١٢٨) من المسيحيين السريان ، (٣٦) من المسيحيين الأكراد ، (١٩) من الأرمن ، (٨) تركمان . ويظهر بوضوح قلة عدد اليزيدية

والصابئة واليهود الذين تبلغ أعدادهم (١٠١) ، (٨٦) ، (٥) على التوالي . أنظر جدول (١٧) .

جدول (١٧) يوضح التوزيع الديني في محافظة بابل حسب القومية

الديانية القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٩,٠٣	٠,٨٣	٠,٠٠٤	٠,٠٦	٠,٠٠٠١	٠,٠٠١	٠,٠٧	١٠٠٪
مسيحي	٧٣,٠٤	٣,٧٦	صفر	٠,٨٤	١,٩٩	١٣,٣٨	٧,٠٠	١٠٠٪
يهودي	١٠٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٣٦,٦٣	٦٢,٣٨	صفر	صفر	صفر	صفر	٠,٩٩	١٠٠٪
صابئي	٩٨,٨٤	١,١٦	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٦٢,٠٧	صفر	صفر	صفر	صفر	٢,٥٩	٣٥,٣٤	١٠٠٪
المجموع	٩٨,٩٦	٠,٨٥	٠,٠٠٤	٠,٠٧	٠,٠٠٣	٠,٠٢	٠,٠٩	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة الأنبار حسب القومية

بلغ مجموع المسلمين في محافظة الأنبار (٤٥٤,٤٤٠) نسمة ، يشكل العرب الغالبية العظمى منهم ، حيث بلغ عددهم (٤٤٤,٢٨٧) نسمة ، أو ما يعادلها (٩٧,٧٧٪) من مجموع المسلمين في المحافظة ، يليهم الأكراد (٨٥١٧) نسمة ، أو ما يعادل (١,٨٧٪) من مجموع المسلمين في المحافظة ، وبلغ مجموع التركمان (٤٩٢) نسمة ، أو ما يعادل (٠,١١٪) من مجموع المسلمين في المحافظة ، أما الأرمن والسريان فلا يتجاوز عددهم (٧ ,١٤) شخصاً على التوالي ، ويوجد (٤٨٨) شخصاً غير معروفة هويتهم الدينية . أما بالنسبة للمسيحيين في محافظة الأنبار فقد بلغ عددهم (١٩٢٩) نسمة ، يشكل العرب أيضاً الغالبية العظمى منهم ، حيث بلغ عددهم (٩٨٩) نسمة ، أو ما يعادل (٥١,٢٧٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، بينما يشكل السريان (٥٨٦) نسمة ، أو ما يعادل (٣٠,٣٨٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، والأرمن (١٩٣) شخصاً ، أو ما يعادل (١٠,٠١٪) ، والتركمان (٨) نسمة ، أو ما يعادل (٠,٤١٪) ، والأكراد الفيلية (٥) شخصاً ، أو ما يعادل (٠,٢٦٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة ، ويوجد (١٢٣) شخصاً غير معروفة هويتهم الدينية . ويوجد إلى جانب المسلمين والمسيحيين الصابئة الذي بلغ مجموعهم (٣١٠) نسمة ، أغلبهم من

العرب ، الذين بلغ مجموعهم (٢٩٧) نسمة ، أو ما يعادل (٩٥,٨١٪) من مجموع الصابئة في المحافظة ، و(٢) شخصاً من التركمان و(١١) شخصاً لا تعرف هويتهم الدينية . أما اليزيديين (هكذا وردت) واليهود في محافظة في محافظة الأنبار فلا يتجاوز عددهم (٩٣، ٢٣) شخصاً على التوالي . أنظر جدول (١٨) .

جدول (١٨) يوضح التوزيع الديني في محافظة الأنبار حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٧,٧٧	١,٨٧	٠,١٤	٠,١١	٠,٠٠٣	٠,٠٠١	٠,١١	١٠٠٪
مسيحي	٥١,٢٧	١,٣٠	٠,٢٦	٠,٤١	١٠,٠١	٣٠,٣٨	٦,٣٨	١٠٠٪
يهودي	٩٥,٦٥	صفر	٤,٣٥	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٤٤,٠٩	٢٠,٤٣	٦,٤٥	صفر	صفر	صفر	٢٩,٠٣	١٠٠٪
صابئي	٩٥,٨١	صفر	صفر	٠,٦٤	صفر	صفر	٣,٥٥	١٠٠٪
غير مبين	٤٦,٠٩	٢,٦١	صفر	صفر	٧,٣٩	٠,٤٣	٤٣,٤٨	١٠٠٪
المجموع	٩٧,٥٣	١,٨٧	٠,١٤	٠,١١	٠,٠٥	٠,١٣	٠,١٦	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة واسط حسب القومية

بلغ المجموع الكلي للمسلمين في محافظة واسط (٤١٢،٠٨٢) نسمة تتكون غالبيتهم العظمى من العرب (٤٠٧،٠٤٤) نسمة ، أو ما يمثل (٩٨,٧٨٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، أما المسلمون الأكراد فقد بلغ عددهم (٤،١٠٥) أو ما يعادل (١٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، وهناك (٢٦٦) شخصاً من التركمان ، (٢٢٢) شخصاً أكراد فيلية و(٢) شخصاً (هكذا) من الأرمن ، وشخصاً واحداً من السريان ، ويوجد (٣٦٢) شخصاً لم تعرف هويتهم الدينية أو القومية . أما المسيحيون في محافظة واسط فلا يتجاوز عددهم (٣٧٢) شخصاً غالبيتهم العظمى من العرب (٢٥٤) شخصاً ، إلى جانب (١٥) شخصاً من السريان ، (١٤) شخصاً من المسيحيين الأكراد ، (٣) شخصاً من التركمان ، (٢) شخصاً (هكذا) من الأكراد الفيلية ، وشخصاً واحداً من الأرمن . ويوجد في محافظة واسط (١٥٦) شخصاً صابئياً جميعهم من العرب ، كما أن هناك (٢٩) شخصاً يزيدياً ، منهم (٩) عرب ، (١١) كردياً ، أما اليهود فلا يزيد عددهم على (٣) أشخاص فقط . أنظر جدول (١٩) .

جدول (١٩) يوضح التوزيع الديني لمحافظة واسط حسب القومية

الديانية القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٨,٧٨	١,٠٠	٠,٠٥	٠,٠٦	٠,٠٠٤	٠,٠٠٢	٠,١١	١٠٠٪
مسيحي	٦٨,٢٨	٣,٧٦	٠,٥٤	٠,٨١	٠.٢٧	٤,٠٣	٢٢,٣١	١٠٠٪
يهودي	٦٦,٦٧	صفر	٣٣,٣٣	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٣١,٣	٣٧,٩٣	صفر	صفر	صفر	صفر	٣١,٠٣	١٠٠٪
صابئي	١٠٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٥٧,١٤	١,١٠	صفر	صفر	صفر	١,١٠	٤٠,٦٦	١٠٠٪
المجموع	٩٨,٧٤	١,٠٠	٠,٠٥	٠,٠٧	٠,٠٠١	٠,٠٠٤	٠,١٤	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة كربلاء حسب القومية

يظهر بوضوح أن التركيب الديني في محافظة كربلاء يكاد يقتصر على المسلمين فقط ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . فقد بلغ مجموع المسلمين في المحافظة (٢٦٦,٥١٦) نسمة ، يتكون أغلبهم من العرب ، الذين يبلغ عددهم (٢٦٤,٩٤١) نسمة ، أو ما يزيد على ٩٩٪ بقليل من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة . أما المسلمون الأكراد فيبلغ تعدادهم (١,٢٩٣) شخصاً ، كما أن هناك (١٢٠) شخصاً من المسلمين التركمان ، (٢٤) شخصاً من الأكراد الفيلية . ولا يزيد مجموع الأقليات الدينية الأخرى في المحافظة على (٨٩) شخصاً منهم (٨٢) مسيحياً ، (٦) يزيدياً (هكذا) وصابئياً واحد فقط . (أنظر جدول ٢٠) .

التوزيع الديني لسكان محافظة النجف حسب القومية

يظهر من بيانات تعداد ١٩٧٧ أن أغلبية العظمى من سكان محافظة النجف هم من مسلمون (هكذا) كما هو الحال بالنسبة إلى محافظة كربلاء . فقد بلغ مجموع المسلمين في المحافظة (٣٨٣,٣٩٤) نسمة ، ويتكون غالبيتهم العظمى من العرب (٣٨١,٤٧٩) أو ما يعادل (٩٠,٥٠٪) من المجوع الكلي للمسلمين في المحافظة ، أما المسلمون الأكراد فبلغ عددهم (١,٣٧٧) شخصاً ، ويوجد إضافة إلى ذلك (١٤٩) من المسلمين التركمان ، (٣٦) كردي

فيلي ، (٢) من السريان وأرمني واحد فقط . أما مجموع المسيحيين في المحافظة فلا يزيد على (٧٣) شخصاً معظمهم من العرب ، ولا يوجد سوى يزيدي واحد في المحافظة ، و(٣) من الصابئة فقط . وهناك (٤٣) شخصاً من الفئات الأخرى وغير المبينة . (أنظر الجدول (٢١) .

جدول (٢٠) يوضح التوزيع الديني لمحافظة كربلاء حسب القوميات

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٩,٤١	٠,٤٩	٠,٠٠٩	٠,٠٥	صفر	صفر	٠,٠٥	١٠٠٪
مسيحي	٦٥,٨٥	١٣,٤١	٢,٤٤	صفر	٢.٤٤	١,٢٢	١٤,٦٣	١٠٠٪
يهودي	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٣٣,٣٣	٦٦,٧٧	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
صابئي	١٠٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٢٤,١٦	صفر	صفر	صفر	٠,٨٧	صفر	٧٥,٨٤	١٠٠٪
المجموع	٩٩,٣٦	٠,٨٦	٠,٠١	٠,٠٤	٠,٠٠١	٠,٠٠٠٣	٠,١٠	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة القادسية حسب القومية

يظهر بوضوح أن الغالبية العظمى في سكان محافظة القادسية هم من المسلمين حيث بلغ عددهم (٤٢٠,٨٧٤) نسمة ، بلغ مجموع العرب فيهم (٤٠٨,٦٢٤) شخصاً ، أو ما يعادل (٩٧,٠٩٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة . أما المسلمون الأكراد فقد بلغ عددهم (١٠٦٩٦) شخصاً ، أو ما يعادل (٢,٥٤٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة . وهناك (١٨٣) شخصاً من التركمان ، (١٥) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (١١) شخصاً غير مبين . أما المسيحيون فقد بلغ عددهم (٣٢٠) شخصاً أغلبهم من العرب (١٨١) شخصاً ، أو ما يعادل (٥٦,٥٦٪) من المجموع الكلي للمسيحيين في المحافظة ، وهناك (٦٠) شخصاً من السريان ، و(٢٢) شخصاً من الأكراد ، و(١٠) أشخاص من الأرمن ، (٦) أشخاص من الأكراد (النص مقطوع فهناك صفحات مفقود من نسخة التقرير الذي بأيدينا) .

جدول (٢١) يوضح التوزيع الديني في محافظة النجف حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٩,٥٠	٠,٣٦	٠,٠١	٠,٠٤	٠,٠٠٠٣	٠,٠٠١	٠,٠٩	١٠٠٪
مسيحي	٦٣,٠١	٨,٢٢	صفر	٢,٧٤	صفر	٩,٥٩	١٦,٤٤	١٠٠٪
يهودي	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	١٠٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
صابئي	١٠٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	١٦,٠٨	صفر	صفر	صفر	٠,٨٧	صفر	٨٣,٢٢	١٠٠٪
المجموع	٩٩,٤٦	٠,٣٦	٠,٠١	٠,٠٤	٠,٠٠٠٣	٠,٠٠٢	٠,١٣	١٠٠٪

جدول (٢٢) يوضح التوزيع الديني في محافظة القادسية حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٧,٠٩	٢,٥٤	٠,٠٠٤	٠,٠٤	٠,٠١	٠,٠٠٣	٠,٣٢	١٠٠٪
مسيحي	٥٦,٥٦	٦,٨٨	١,٨٨	صفر	٣.١٣	١٨,٧٥	١٢,٨١	١٠٠٪
يهودي	٥٠	صفر	٥٠	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٢٢,٦٤	٥٨,٤٩	صفر	١,٨٩	١,٨٩	صفر	١٥,٠٩	١٠٠٪
صابئي	١٠٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٥٦,٤٦	٠,٦٨	صفر	صفر	صفر	صفر	٤٢,٨٦	١٠٠٪
المجموع	٩٧,٠٤	٢,٥٥	٠,٠٠٥	٠,٠٤	٠,٠٠٤	٠,٠٢	٠,٣٤	١٠٠٪

الفيلية ، ويلاحظ بوضوح قلة أعداد الصابئة واليزيدية واليهود في المحافظة حيث بلغ عددهم (١٩٠، ٥٣، ٢) شخصاً على التوالي . أنظر جدول (٢٢) .

التوزيع الديني لسكان محافظة المثنى حسب القومية

بلغ المجموع الكلي للمسلمين في محافظة المثنى (٢١٤،١٤٩) نسمة ، يشكل العرب الغالبية العظمى منهم (٢١١،٥٨٢) نسمة أو ما يعادل (٩٨،٨٠٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، أما المسلمون الأكراد فيبلغ عددهم (٢١٣٢) نسمة أو ما يعادل (١٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، ويوجد إضافة إلى ذلك (١١٠) من الأكراد الفيلية ، (٦٨) من التركمان ، (١) من السريان ، وهناك (٢٥٦) شخصاً من الفئات الأخرى وغير المبينة . أما مجموع المسيحيين في المحافظة فلا يزيد على (١٣٥) شخصاً معظمهم من العرب ، ولا يوجد سوى (٧) أشخاص من اليزيديين ، وشخص واحد من الصابئة ، وهناك (١٤٤) شخصاً من الفئات الأخرى ، وغير المبينة . أنظر جدول (٢٣) .

جدول (٢٤) يوضح التوزيع الديني لمحافظة ذي قار حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٩,٥٦	٠,٣٨	٠,٠٠٣	٠,٠٢	٠,٠٠٠٤	٠,٠٠٠٣	٠,٠٤	١٠٠٪
مسيحي	٧٢,٩٠	٩,٨١	صفر	١,٤٠	٠,٩٣	١٢,٦٢	٢,٣٤	١٠٠٪
يهودي	٨١,٨٢	صفر	١٨,١٨	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٦٦,٦٧	٣٠,٧٧	صفر	صفر	صفر	صفر	٢,٥٦	١٠٠٪
صابئي	٩٩,٤٦	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	٠,٠٧	١٠٠٪
غير مبين	٥٢,٤٦	٠,٨٢	صفر	صفر	صفر	صفر	٤٦,٧٢	١٠٠٪
المجموع	٩٩,٥٤	٠,٣٨	٠,٠٠٣	٠,٠٢	٠,٠٠١	٠,٠٠٥	٠,٠٥	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة ميسان حسب القومية

بلغ المجموع الكلي للمسلمين في محافظة ميسان (٣٦٧،٨٩٨) نسمة معظمهم من العرب ، حيث بلغ عددهم (٣٦٦٢٢) (الرقم غير مكتمل من الأصل) نسمة ، أو ما يعادل (٩٩،٦٥٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، أما المسلمون الأكراد فقد بلغ عددهم (٩٨٣) نسمة ، أو ما يعادل (٠،٢٧٪) من مجموع المسلمين في المحافظة ، ويوجد إلى جانب ذلك (٩٠) شخصاً من التركمان ، (٢٥) شخصاً من الأرمن ، (٤) أشخاص الأكراد الفيلية ،

(١٧٤) من الفئات الأخرى وغير المبينة . أما المسيحيون فقد بلغ مجموعهم الكلي في المحافظة (٤١٦) شخصاً معظمهم من العرب (٢٩١) شخصاً ، أو ما يعادل (٦٩,٩٥٪) من المجموع الكلي للمسيحيين في المحافظة ، و(٢٣) شخصاً من الأرمن ، (١٢) شخصاً من الأكراد ، (٧) من التركمان ، (٢) من الأكراد الفيلية ، ويوجد (٨٢) شخصاً من الفئات الأخرى غير المعروفة .ويوجد إلى جانب المسلمين والمسيحيين الصابئة ، حيث بلغ عددهم في المحافظة (١٩٣٢) شخصاً جميعهم تقريباً من العرب (١٩٣٠) شخصاً أو ما يعادل (٩٩,٩٠٪) من المجموع الكلي للصابئة في المحافظة . أما اليزيديين واليهود فلا يتجاوز عددهم في المحافظة على (٤,٤٠) شخصاً على التوالي . أنظر جدول (٢٥) .

جدول (٢٥) يوضح التوزيع الديني لمحافظة ميسان حسب القومية

الديانة القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٩,٦٥	٠,٢٧	٠,٠١	٠,٠٢	٠,٠١	صفر	٠,٥	١٠٠٪
مسيحي	٦٩,٩٥	٢,٨٨	صفر	٠,٤٨	٥,٥٣	١,٦٨	١٩,٤٧	١٠٠٪
يهودي	٧٥	صفر	صفر	صفر	٢٥	صفر	صفر	١٠٠٪
يزيدي	٣٥	٦٢,٥	صفر	صفر	صفر	٢,٥	صفر	١٠٠٪
صابئي	٩٩,٩٠	٠,١٠	صفر	صفر	صفر	صفر	صفر	١٠٠٪
غير مبين	٧٣,٤٤	١,٩٥	صفر	صفر	صفر	صفر	٢٤,٦١	١٠٠٪
المجموع	٩٩,٦٠	٠,٢٨	٠,٠٠١	٠,٠٢	٠,٠٠١	٠,٠٠٢	٠,٠٩	١٠٠٪

التوزيع الديني لسكان محافظة البصرة حسب القومية

يظهر لنا من بيانات التعداد السكاني لعام ١٩٧٧ ، أن الغالبية العظمى من سكان محافظة البصرة هم من المسلمين ، حيث بلغ عددهم (٩٦٩,٧٤٥) نسمة أغلبهم من العرب (٩٥٩,٩١٣) شخصاً ، أو ما يعادل (٩٨,٩٩) من مجموع المسلمين في المحافظة ، أما الأكراد فقد بلغ عددهم (٨٣٣٥) شخصاً ، أو ما يعادل (٠,٨٦٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، يليهم التركمان (٦٥٧) شخصاً ، أو ما يعادل (٠,٠٧٪) من المجموع الكلي للمسلمين في المحافظة ، وهناك (٩٧) شخصاً من الأرمن ، (٧٦) شخصاً من الأكراد الفيلية ، (٦٤) من السريان ، ويوجد (٦٠٣) شخصاً من الفئات الأخرى وغير المبينة . أما المسيحيون

فقد بلغ عددهم (١١،٤٣٣) شخصاً معظمهم من العرب ، (٦،٥٠٨) شخصاً ، أو ما يعادل (٥٦,٩٢٪) من المجموع الكلي للمسيحيين في المحافظة ، يليهم السريان (٢٢٢٦) شخصاً ، أو ما يعادل (١٩,٤٧٪) من المجموع الكلي للمسيحيين في المحافظة ، والأرمن (١٦٧٧) شخصاً ، أو ما يعادل (١٤,٦٧٪) من مجموع المسيحيين في المحافظة . وهناك (١١٠) شخصاً من التركمان (٥٢) شخصاً من الأكراد ، (١١) شخصاً من الأكراد الفيلية . ويوجد (٨٤٩) شخصاً من الفئات غير المبينة . ويوجد إلى جانب المسلمين والمسيحيين الصابئة حيث بلغ عددهم (٢،٨٧٢) شخصاً معظمهم من العرب (٢،٨٦١) شخصاً ، أو ما يعادل (٩٩,٦٢٪) من المجموع الكلي للصابئة في المحافظة ، وهناك (٧) أشخاص من الأكراد ، وشخص واحد من التركمان . أما اليزيديين واليهود فلا يتجاوز عددهم في محافظة البصرة (٢٠ ،١٣٦) شخصاً على التوالي . أنظر جدول (٢٦) .

جدول (٢٦) يوضح التوزيع الديني لسكان محافظة البصرة حسب القومية

الديانية القومية	العربية	الكردية	كردي فيلي	التركمانية	الأرمنية	السريانية	غير مبين	المجموع
مسلم	٩٨,٩٩	٠,٨٦	٠,٠١	٠,٠٧	٠,٠١	٠,٠١	٠,٠٦	١٠٠٪
مسيحي	٥٦,٩٢	٠,٤٥	٠,١٠	٠,٩٦	١٤.٦٧	١٩,٤٧	٧,٤٣	١٠٠٪
يهودي	٨٥	صفر	٥	٥	صفر	صفر	٥	١٠٠٪
يزيدي	٣٩,٧١	٥٢,٢١	صفر	صفر	صفر	صفر	٨,٠٩	١٠٠٪
صابئي	٩٩,٦٢	٠,٢٥	صفر	٠,٠٣	صفر	٠,٠٣	٠,٠٧	١٠٠٪
غير مبين	٣٢,٠٦	٠,٠٥	صفر	٠,٠٥	٠,٨٧	١,٨٤	٦٥,١٣	١٠٠٪
المجموع	٩٨,٣٤	٠,٨٦	٠,٠٠٩	٠,٠٨	٠,١٨	٠,٢٤	٠,٢٩	١٠٠٪

الخلاصة

يظهر مما سبق أن المسلمين يشكلون غالبية السكان العظمى في العراق ، وفي كافة المحافظات والأقضية والنواحي . أما إذا أخذنا الأقليات الدينية في العراق (ماعدا المسلمين) فإننا نجد أن المسيحيين يمثلون (٦٥٪) من مجموع الأقليات الدينية بين السكان العراقيين ، يليهم من حيث النسبة ، اليزيديون ويمثلون (٢٦٪) أما الصابئة فلا تتجاوز نسبتهم (٤٪) إلا قليلاً . ولا يزيد عدد اليهود حالياً في العراق على (٤٠٠) شخصاً .

ويشير التركيب الديني لمختلف الفئات القومية في العراق إلى أن الغالبية العظمى من المسلمين في منطقة الحكم الذاتي هم من الأكراد ، في حين أن غالبية المسلمين في أنحاء القطر هم من العرب . وتصل نسبة السريان إلى (٨٥٪) من مجموع المسيحيين في محافظة أربيل ، أما الباقون فهم من العرب (١١٪) والأكراد والأرمن (٠٤٪) ، كما تصل نسبة السريان إلى (٧١٪) من مجموع المسيحيين في محافظة دهوك والباقون من العرب (٢٣٪) والأرمن (٧٪) ، وتصل نسبة السريان إلى (٣٢٪) من مجموع المسيحيين في محافظة السليمانية مقابل (٣٨٪) عرباً ، (١٨٪) أكراداً . وتتراوح نسبة السريان ما بين (١٩ ـ ٣٠٪) من مجموع المسيحيين في كل من محافظات البصرة وبغداد والأنبار . أما المسيحيون الأرمن فيتركزون ، رغم قلة نسبتهم ، في محافظات البصرة وديالى والأنبار ، حيث تصل نسبتهم إلى(١٤٪ ، ١١٪ ، ١٠٪) من مجموع المسيحيين في المحافظات المذكورة على التوالي .

أما اليزيديون الذين ينتسبون إلى أصل كردي فتصل نسبتهم إلى (٦٣٪) في محافظة بابل ، (٦٢٪) ميسان ، (٥٨٪) القادسية ، (٥٢٪) البصرة ، من مجموع اليزيدية في كل محافظة من هذه المحافظات المذكورة . وتصل نسبتهم إلى حوالي الثلث أو تزيد قليلاً على ذلك في محافظات ديالى وصلاح الدين وأربيل وذي قار وبغداد ، ولا تزيد على (٢٠٪) في الأنبار ، أما بقية اليزيدية فيدعون الإنحدار من أصل عربي . وبخصوص الصابئة فيبدو أنهم جميعاً ينتسبون إلى أصل عربي . وتجدر الإشارة إلى أن محافظة التأميم بها خصائصها المميزة في هذا الشأن ، فالمسلمون فيها يتوزعون كالآتي : (٤٤٪) عرباً ، (٣٨٪) أكراداً ، (١٦) تركمان ، وينتسب ما تبقى منهم إلى باقي القوميات . أما المسيحيون في محافظة التأميم فيتألفون من (٥٩٪) عرباً ، (٣٤٪) سريان والباقون من الأرمن . ومن المفيد أن نشير أخيراً إلى أن معمل التنوع الديني الصافي يدل على وجود تجانس كبير في التركيب الديني في كافة محافظات القطر . باستثناء محافظة نينوى ، ودهوك وبغداد التي يظهر فيها التنوع الديني بدرجات متفاوتة . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن محافظة نينوى تمتاز بشدة تباين تركيبها الديني ، كما يظهر بوضوح في معامل التنوع الديني .

تمت (مع نقص صفحات ٧٨ ـ ٧٩)

أشرف على الإصدار مكتب العلوم الإعلامية
مطبعة مديرية الأمن العامة (العراق)

المصادر والمراجع

- إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل والأعراق هموم الأقليات في الوطن العربي. القاهرة: مركز ابن خلدون، ١٩٩٤.

- ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت: دار الثقافة، الطبعة الثانية.

- ابن أبي الحديد، عز الدين المدائني (ت ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم. مصر: دار أحياء الكتب، ١٩٥٩. شرح نهج البلاغة. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤.

- ابن أبي الوفاء، عبد القادر القرشي (ت ٧٧٥هـ)، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية. تحقيق: عبد الفتاح الحلو. هجر، ١٩٩٣.

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت٦٣٠هـ)، أُسد الغابة في معرفة الصحابة. مصر: جمعية المعارف، المطبعة الحجرية، ١٢٨٦هـ؛ الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر، ١٩٩٥.

الكامل في التاريخ. ليدن: مطبعة بريل ١٨٥١م؛ اللباب في تهذيب الأنساب. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٦٩هـ

- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة. تحقيق: روبن ليوى. كامبردج: مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧.

- ابن أياس، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ)، تاريخ مصر بدائع الزهور في وقائع الدهور. مصر: بولاق، ١٣١١هـ.

- ابن بطوطة، أبو عبدالله اللواتي (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار صادر ودار بيروت: ١٩٦٠؛ رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

- ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦هـ)، الأخبار الموفقيات. تحقيق: سامي العاني. قم: منشورات الشريف الرضي، مصور طبق الأصل عن طبعة بغداد.

- ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي (ت ٨٧٣هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩، ١٩٣٢.

- ابن تيمية، تقي الدين أحمد (ت ٧٢٨هـ)، رسائل ونصوص. عُني بنشرها صلاح المنجد. بيروت: ١٩٦٣؛ مسألة في الكنائس. الرياض: مكتبة العبيكات، ١٩٩٥.

- ابن جبير ، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ) ، رحلة ابن جبير . ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٠٧ .

- ابن الجهم ، علي (ت ٢٤٩هـ) ، الديوان . تحقيق : خليل مردم بك . بيروت : لجنة التراث العربي .

- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) ، المنتظم في تاريخ الملوك الأمم . تحقيق : محمد ومصطفى عبد القادر عطا . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ ؛ مناقب الإمام أحمد بن حنبل . تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي وعلي محمد عمر . مصر : مكتبة الخانجي ، ١٩٧٩ ؛ مناقب بغداد . تحقيق : محمد بهجة الأثري . بغداد : مطبعة دار السلام ، ١٣٤٢هـ ؛ تلبيس إبليس . القاهرة : منشورات مكتبة التحرير .

- ابن حزم ، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) ، المحلى ، القاهرة : دار الطباعة المنيرية ، ١٩٣٤-١٩٢٨ ؛ جمهرة أنساب العرب . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مصر : دار المعارف ١٩٦٢ .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ) ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦١ .

- ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) ، وفيات الأعيان وأبناء الزمان . تحقيق : إحسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٠ ؛ وفيات الأعيان . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة : ١٩٤٩ .

- ابن رجب ، الحنبلي (ت ٧٥٩ هـ) ، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة.

- ابن الساعي ، تاج الدين علي بن أنجب (ت ٦٧٤ هـ) ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون
- السير . تحقيق : مصطفى جواد . بغداد : المطبعة السريانية الكاثوليكية ، ١٩٣٤ .

- ابن سعد ، كاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى . بيروت : دار صادر .

- ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ) ، كتاب الأموال . تحقيق : خليل محمد هراس . بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٨ .

- ابن الشعار ، المبارك أحمد بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤هـ) ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (مخطوط) . ألمانيا : جامعة فرانكفورت ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، ١٩٩٠ .

- ابن طاووس ، رضي الدين علي بن موسى (ت ٦٦٤ هـ) ، كتاب فلاح السائل . بيروت : الدار الإسلامية .

- ابن طيفور ، أحمد بن طاهر الكاتب (ت٢٨٠هـ) ، كتاب بغداد . تحقيق : محمد زاهد الكوثري . مكتب الثقافة الإسلامية ١٩٤٩ .

- ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٨هـ) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . مصر : مطبعة الموسوعات ، ١٨٩٩ .

- ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ) ، الإستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق : علي البجاوي. القاهرة : مطبعة نهضة مصر.

- ابن العبري ، غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ) ، تاريخ مختصر الدول . بيروت : دار المسيرة

- ابن عساكر ، علي بن الحسن الشافعي (ت ٥٧١ هـ) ، تاريخ مدينة دمشق . تحقيق : محب الدين العمروي . دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٩٩٧ ؛ تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري . دمشق : مطبعة التوفيق ، ١٣٤٧هـ .

- ابن العماد ، شهاب الدين الحنبلي (ت ١٠٣٢هـ) ، شذرات الذهب ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط . دمشق ــ بيروت ؛ دار ابن كثير ، ١٩٩١ .

- ابن الفراء ، محمد بن محمد (ت ٥٢٦هـ) ، طبقات الحنابلة . تحقيق : أحمد عبيد . دمشق : المكتبة العربية ، ١٣٥٠هـ .

- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ) ، تاريخ ابن الفرات . تحقيق : حسن محمد الشماع . البصرة : مطبعة حداد ، ١٩٦٧ .

- ابن الفوطي ، أبو الفضل عبد الرزاق (ت ٧٢٣هـ) ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . بغداد : المكتبة العربية ومطبعة الفرات ، ١٣٥١هـ (ليس كتاب ابن الفوطي المفقود) ؛ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب . تحقيق : مصطفى جواد . مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، ١٩٦٢ .

- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) ، كتاب المعارف . تحقيق : ثروت عكاشة . مصر : دار المعارف ، الطبعة الرابعة ؛ تأويل مختلف الحديث . تحقيق : محمد زهدي النجار . بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٣ .

- ابن قدامة ، موفق الدين المقدسي (ت٦٢٠هـ) ، تحريم النظر في كتب الكلام . تحقيق : عبد الرحمن مشقية . بيروت : عالم الكتب

- ابن قطلوبغا ، قاسم (ت ٨٧٩هـ) ، تاج التراجم في طبقات الحنفية . بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٦٢ .

- ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) ، أحكام أهل الذمة . تحقيق : صبحي الصالح . دمشق : مطبعة الجامعة ، ١٩٦١ .

- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ) ، قصص الأنبياء . بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٨٨ .

- ابن كمونة ، سعد بن منصور (ت ٦٨٣هـ) ، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث . لوس أنجلس : جامعة كاليفورنيا ، ١٩٦٧ .

- ابن المحرومة ، إبراهيم الخباز (القرن الثامن الهجري) ، حواشي ابن المحرومة على كتاب تنقيح

الأبحاث للملل الثلاث . تحقيق : المطران حبيب باشا . لبنان : المكتبة البولسية ، ١٩٨٤ .

- ابن المعتز ، عبد الله (ت ٢٩٦هـ) ، طبقات الشعراء . تحقيق : عبد الستار أحمد فراج . مصر : دار المعارف ، ١٩٥٦ .

- ابن واصل ، الحموي (ت ٦٩٧هـ) ، تجريد الأغاني . القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٥٦ .

- ابن هشام ، عبد الملك المعافري (ت ٢١٣هـ) ، السيرة النبوية . بيروت : دار الجيل .

- أبو حنيفة ، الإمام النعمان (ت١٥٠هـ) ، المسند . شرح علي القاري (ت ١٠١٤هـ) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ ؛ القصيدة النعمانية . دار الطباعة العامرية ، ١٢٦٨هـ .

- أبو زهرة ، محمد (ت ١٩٧٤) ، أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه الفقهية . مصر : مكتبة عبد الله وهبة ، ١٩٤٦ ؛ الشافعي حياته وعصره . آراؤه وفقهه . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ .

أ- بو الفداء ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ) ، المختصر في أخبار البشر . تحقيق : يحيى سيد حسين . القاهرة : دار المعارف ؛ المختصر في أخبار البشر . مصر : المطبعة الحسينية ، ط١ .

- أبونا ، البير ، تاريخ الكنيسة الشرقية . الموصل : المطبعة العصرية ، ١٩٧٣ .

- أبونا ، هرمز ، الآشوريون بعد سقوط نينوى . مذابح بدر خان بك في تياري وحكاري ١٨٤٦- ١٨٤٣ . ميشيغان : دار المنتدى للطباعة والنشر ، ٢٠٠١ .

- أبو يوسف ، يعقوب القاضي (ت ١٨٢هـ) ، كتاب الخراج . بيروت : دار المعروفة ، ١٩٧٩ .

- أحمد تيمور (ت١٩٣٠) ، اليزيدية ومنشأ نحلتهم . القاهرة . المطبعة السلفية ، ١٣٢٧ هـ .

- الأحمد ، سامي سعيد ، اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم . بغداد : ١٩٧١ .

- أداموف ، الكسندر (قنصل روسي بالبصره ١٩١٢) ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها . ترجمة : هاشم صالح التكريتي . البصرة : جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٢ .

- الأزري ، عبد الكريم ، مشكلة الحكم في العراق . لندن : طبع خاص ١٩٩١ .

- أسلمنت ، البروفسور ج . أ ، بهاء الله والعصر الجديد . مصر : دار العصور للنشر .

- إسماعيل ، محمود ، فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٠ .

- الأسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢ هـ) ، طبقات الشافعية . تحقيق : عبد الله الجبوري . بغداد : مطبعة الرشاد ، ١٩٧٠ .

- الأشعري ، سعد بن عبد الله (ت ٢٩٩ أو ٣٠١هـ) ، المقالات والفرق . تحقيق : محمد جواد مشكور . إيران : مركز انتشارات أعلمي .

- الأشعري ، أبو الحسن (ت ٣٢٤هـ) ، مقالات الإسلاميين ، تحقيق : هلموت ريتر . فرانز بفيسبادن ، ١٩٨٠ ؛ الإبانة عن أصول الديانة . تحقيق : فوقية محمود . مصر : دار الأنصار ، ١٩٧٧ .

- **الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله** (ت٤٣٠هـ) ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . مصر : مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ .

- **الأصفهاني ، السيد أبو الحسن** (ت ١٩٤٧) ، وسيلة النجاة . قم : مطبعة مهرا سوار ، ١٣٩٣هـ .

- **الأصفهاني ، أبو الفرج** (ت ٣٥٦هـ) ، مقاتل الطالبيين ، تحقيق : أحمد صقر ، بيروت : مؤسسة الأعلمي ، ١٩٨٧ ؛ الديارات . تحقيق : جليل العطية . لندن : رياض الريس للطباعة والنشر ، ١٩٩١ ؛ الأغاني . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٨٣ ؛ الأغاني . تحقيق إبراهيم الأبياري . مصر : الشعب ، ١٩٦٩ .

- **لألوسي ، أبو الثناء محمود** (ت ١٨٥٤) ، غرائب الاغتراب ونزهة الألباب . بغداد : مطبعة الشابندر ، ١٣٢٧هـ .

- **الألوسي ، محمود شكري** (ت ١٩٢٤) ، مختصر التحفة الاثني عشرية لعبد العزيز الدهلوي . ترجمة غلام الآسلمي . تحقيق محب الدين الخطيب . الرياض : الرئاسة العامة للافتاء ، ١٤٠٤هجرية .

- **أمين ، أحمد** (ت ١٩٥٤) ، فجر الرسلام. القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩

- **لأمين ، حسن** (ت ٢٠٠٢) ، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية . بيروت : دار التعارف ١٩٩٥ ، ١٩٩٧ ؛ الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي . مركز الغدير ، ١٩٩٧ .

- **أمين ، حسين** ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي . بغداد : مطبعة الأرشاد ، ١٩٦٥ ؛ أعيان الشيعة . تحقيق حسن الأمين . بيروت : دار التعارف للمطبوعات ، ١٩٨٦ .

- **الأمين ، محسن** (ت ١٩٥٤) ، أعيان الشيعة . دمشق : مطبعة ابن زيدون ، ١٩٣٨ .

- **الأميني ، عبد الحسين أحمد النجفي** ، الغدير في الكتاب والسنة والأدب . طهران : مطبعة الحيدري ، ١٣٧٢هـ .

- **الأندلسي ، صاعد** (ت ٤٦٢هـ) ، طبقات الأمم . تحقيق : حياة العيد بو علوان . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٥ .

- **الأندلسي ، علي بن سعيد** (ت ٦٨٥هـ) ، المقتطف من أزاهر الظرف . تحقيق : سيدحنفي حسنين . مصر : الهيئة المصرية العامة ، ١٩٨٣ .

- **الأنصاري ، سعد** ، الفقهاء حكام على الملوك . الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ .

- **بابان ، جمال** ، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية . بغداد : مطبعة الأجيال ، ١٩٨٩ .

- **البخار ، جميل موسى** ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد (١٨٧٩ - ١٩١٧) . القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٩١

- **البخاري أبو عبد الله محمد** (ت ٢٥٦هـ) ، صحيح البخاري بشرح الكرماني . المطبعة المصرية ، ١٩٣٤ .

- البراك ، فاضل (ت ١٩٩٢) ، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق . بغداد : ١٩٨٥ .

- برنجي ، سليم ، الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين . ترجمة : جابر أحمد . بيروت : دار الكنوز الأدبية ،١٩٩٧ .

- البستاني ، بطرس ، دائرة المعارف . بيروت : دار المعرفة .

- بصري ، مير ، رحلة العمر من ضفاف دجلة الى وادي التيمس . أورشليم : ١٩٩٣ ؛ أعلام الأدب العراقي الحديث . لندن : دار الحكمة ، ١٩٩٤ ؛ أعلام السياسة في العراق الحديث . لندن : دار الحكمة ، ٢٠٠٤ .

- بصري ودنكور ، الدليل العراقي . بغداد : ١٩٣٣ .

- بطاطو ، حنا (ت ١٩٩٩) ، العراق . ترجمة عفيف الرزاز . بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٩٢ .

- البغدادي ، الخطيب (ت ٤٦٣هـ) ، تاريخ بغداد . بيروت : دار الكتاب العربي ؛ الفقيه والمتفقه . تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري . بيروت : دار الكتب العلمية ،١٩٨٠ .

- البغدادي ، عبد القاهر (ت ٤٢٩هـ) ، الفرق بين الفرق . بيروت : دار الجيل والآفاق الجديدة ، ١٩٨٧ .

- البلخي (ت ٣١٩) ، (القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) ، الجشمي (ت ٤٩٤هـ) ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة . تحقيق : فؤاد سيد . الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٤ .

- البلاذري ، أحمد بن يحيى (القرن الثالث الهجري) ،أنساب الأشراف . تحقيق : عبد العزيز الدوري . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٧٨ .

- بنيامين ، التطيلي (ت ٥٦٩هـ) ، رحلة بنيامين . ترجمة : عزرا حداد . بغداد : المطبعة الشرقية ، ١٩٤٥ .

- بهنام عبد المسيح ، قره قوش في كفة التاريخ . بغداد : مطبعة الأديب ، ١٩٦٢ .

- البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ) ، تحقيق ما للهند من مقالة . حيدر أباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ ؛ القانون المسعودي . حيدر أباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤ .

- البيطار ، الشيخ عبد الرزاق (ت ١٩١٦) ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، تحقيق : بهجة البيطار . دمشق : المجمع العلمي العربي ،١٩٦٣ .

- الترمذي ، الحافظ محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ) ، الجامع الصحيح . تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف . بيروت : دار الفكر ؛ الجامع الصحيح . بيروت : دار أحياء التراث العربي .

- التنوخي ، أبو علي المُحسِّن (ت ٣٨٦هـ) ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة . تحقيق : عبود

الشالجي . بيروت : ١٩٧١ ؛ الفرج بعد الشدة . تحقيق : عبود الشالجي . بيروت : دار صادر ، ١٩٧٨ .

- **التوحيدي ، أبو حيان** (ت ٤١٤هـ) ، الإمتاع والمؤانسة . تحقيق أحمد الأمين وأحمد الزين . بلا مكان ولا تاريخ .

- **الجاحظ ، عمرو بن بحر** (ت ٢٥٥هـ) ، الحيوان . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مصر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ؛ ثلاث رسائل . القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٣٤٤هـ .

- **الجادرجي ، كامل** (ت ١٩٦٨) ، من أوراق كامل الجادرجي . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧١ ؛ في حق ممارسة الياسة والديمقراطية افتتاحيات جريدة الأهالي (١٩٤٤-١٩٥٤) .كولونيا : منشورات دار الجمل ، ٢٠٠٤ .

- **الجرجاني ، عبد الله بن عدي** (ت ٣٦٥هـ) ، الكامل في ضعفاء الرجال . بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٥ .

- **جميل ، حسين** (ت ٢٠٠٢) ، العراق . .شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠ . لندن : دار اللام ، ١٩٨٧ .

- **جندي ، خليل** ، نحو معرفة حقيقية الديانة الإيزيدية . السويد ، ١٩٩٨ ؛ نحو معرفة حقيقة الديانة الإيزيدية . آينيبك ، ١٩٩٢ .

- **الجهشياري ، محمد بن عبدوس** (ت ٣٣١هـ) ، الوزراء والكتاب . تحقيق : مصطفى السقا . القاهرة : مطبعة الحلبي وأولاده ، ١٩٣٨ .

- **جول ، إسماعيل بك** ، اليزيدية قديماً وحديثاً . تحرير : قسطنطين زُريق . بيروت : المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٤ .

- **حاجي خليفة ، مصطفى عبد الله** (ت ١٠٦٧هـ) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٩ .

- **حبيب ، جورج** (ت ١٩٧٩) ، اليزيدية بقايا دين قديم . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٧٨ .

- **حديثي ، عطا وهناء عبد الخالق** ، القباب المخروطية في العراق . بغداد : وزارة الأعلام ، مديرية الأثار العامة ، ١٩٧٤ .

- **حسن ، جعفر هادي** ، فرقة القرائين اليهود . بيروت - لندن : مؤسسة الفجر ، ١٩٨٩ .

- **حسين ، طه** (ت ١٩٧٣) ، الفتنة الكبرى - علي وبنوه . القاهرة : ١٩٥٦ .

- **الحسني ، عبد الرزاق** (ت ١٩٩٦) ، البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم . صيدا : مطبعة العرفان ، ١٩٥٧ ؛ اليزيديون في حاضرهم وماضيهم . بغداد : المكتب العربي لتوزيع المطبوعات ، ١٩٨٤ ؛ تاريخ الوزارات العراقية . بيروت : منشورات مركز الأبجدية ، ١٩٨٢ .

- حسنين ، عبد النعيم محمد ، إيران والعراق في العصر السلجوقي . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .
- حسين ، محمد محسن ، أربيل في العهد الاتابكي . بغداد : مطبعة أسعد ، ١٩٧٦ .
- الحسيني ، الشيخ محمد الكسنزاني ، الطريقة العلية القادرية الكسنزانية . لا مكان ولا تاريخ طبع .
- الحصري ، ساطع (ت) ، مذكراتي في العراق (١٩٢١-١٩٤١) . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧ .
- الحكيم ، السيد محسن (ت ١٩٧٠) ، مستمسك العروة الوثقى .
- الحلي ، نجم الدين جعفر المحقق (ت ٦٧٦هـ) ، شرائع الإسلام . تحقيق : عبد الحسين محمد علي . النجف الأشرف : مطبعة الأداب ، ١٩٦٩ .
- الحمد ، محمد عبد الحميد ، صابئة حرّان وإخوان الصفا . دمشق : الأهالي ، ١٩٩٨ .
- الحموي ، شهاب الدين ياقوت (ت ٦٢٦هـ) ، معجم البلدان . بيروت : دار صادر ، ١٩٥٧ .
- الحموي ، واصل (ت ٦٩٧ هـ) ، تجريد الأغاني . القاهرة . مطبعة مصر ، ١٩٥٦ .
- الحميري ، أبو سعيد نشوان (ت ٥٧٣هـ) ، الحور العين . تحقيق : كمال مصطفى . بيروت : دار أزال ، ١٩٨٥ .
- الحياني ، ضاري محمد ، البهائية حقيقتها وأهدافها . بغداد : دار واسط ، ١٩٨٩ .
- حيدر ، خليل علي ، العمامة والصولجان المرجعية الشيعية في إيران والعراق . الكويت : دار قرطاس للنشر ، ١٩٩٧ .
- الحيدري ، إبراهيم ، تراجيديا كربلاء . بيروت ولندن : دار الساقي ، ١٩٩٩ .
- الحيدري ، فصيح بن صبغة الله (ت ١٨٨٢م) ، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد . بغداد : دار منشورات البصري ، ١٩٦٢ ، ولندن : دار الحكمة للطباعة والنشر ، ١٩٩٨ .
- الخاقاني ، علي (ت ١٩٧٩) ، شعراء الغري . قم : مكتبة أية الله العظمى المرعشي النجفي .
- الخالصي ، محمد مهدي (ت ١٩٦٣) ، سبعة وعشرون شهراً في طهران . بيروت : ١٩٩٨ .
- الخامنئي ، علي ، الصابئة . . حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية ، بيروت : الغدير ، ١٩٩٩ .
- خان ، محمد مهدي ، تاريخ البابية أو مفتاح الأبواب . مصر : مطبعة المنار ، ١٣٢١ .
- خسرو ، ناصر (القرن الثالث الهجري) ، سفر نامه . ترجمة يحيى الخشاب . بيروت : دار الكتاب الجديد .
- الخصيبي ، الحسين بن حمدان (ت٣٣٤هـ) ، الهداية الكبرى . بيروت : مؤسسة البلاغ ، ١٩٨٦ .
- الخطيب ، محب الدين (ت ١٣٨٩هـ) ، مؤتمر النجف . مصر : المطبعة السلفية ، ١٤٠٢هـ .

- **الخليلي ، جعفر** (ت ١٩٨٥) ، موسوعة العتبات المقدسة . بيروت : مؤسسة الأعلمي ، ١٩٨٧ .

- **الخميني ، روح الله الموسوي** (ت ١٩٨٩) ، تحرير الوسيلة . دمشق : سفارة الجمهورية الإيرانية ، ١٩٩٨ ؛ تحرير الوسيلة . طهران : منشورات مكتبة الاعتماد ، ١٩٨٣ .

- **الخنساء ، تماضر** (ت حوالي ٢٣هـ) ، الديوان . بيروت : دار الحياة .

- **الخوئي ، السيد أبو القاسم** (ت ١٩٩٢) ، المباني في شرح العروة الوثقى . قم : شركة التوحيد للنشر ، ١٩٩٨ .

- **خورشيد ، فؤاد حمه** ، تقرير دائرة الاستخبارات البريطانية عن العشائر الكردية . بغداد : مطبعة الحوادث ، ١٩٧٩ .

- **الخيُّون ، رشيد** ، معتزلة البصرة وبغداد . لندن : دار الحكمة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩ ؛ جدل التنزيل . كولونيا : دار الجمل ، ٢٠٠٠ ؛ حروف حي . . تاريخ البابية والبهائية ، كولونيا : دار الجمل ، ٢٠٠٣ .

- **دراور ، الليدي** (ت ١٩٧٢) ، الصابئة المندائيون . ترجمة : نعيم بدوي وغضبان رومي . بغداد : ١٩٨٧ .

- **الدروبي ، إراهيم** ، البغداديون أخبارهم ومجالسهم . بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٨ .

- **درويش ، سلمان** ، كل شيء هادئ في العيادة . القدس : منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨١ .

- **دلو ، برهان الدين** ، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي . بيروت : الفارابي ، ١٩٨٥ .

- **الدملوجي ، صديق** (ت ١٩٥٨) ، اليزيدية . الموصل : الاتحاد ، ١٩٤٩ .

- **الدميري ، محمد بن موسى** (ت ٨٠٨هـ) ، حياة الحيوان الكبرى . مصر : شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

- **الدوري ، عبد العزيز** ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .

العلاقات العربية الإيرانية (ندوة) . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٥ .

- **الدومنيكي ، جان موريس فييه** (ت ١٩٩٥) ، الآثار المسيحية في الموصل . ترجمة نجيب قاقو . بغداد : مطبعة الطيف ، ٢٠٠٠ .

- **الذهبي ، محمد بن أحمد** (ت ٧٤٨هـ) ، سير أعلام النبلاء . تحقيق : شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٩ ؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . تحقيق : بشار عواد معروف وآخرين . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨ ؛ معرفة القراء على الطبقات والأعصار ، تحقيق : بشار عواد وشعيب الأرنؤوط وصالح مهدي عباس . بيروت : مؤسسة الرسالة ،

١٩٨٤؛ تذكرة الحفاظ . حيدر أباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٣هـ .

- **الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر** (ت ٦٠٦هـ) ، مناقب الشافعي . مصر : المكتبة العلامية ؛ التفسير الكبير . بيروت : دار الفكر ، ١٩٨١ .

- **الراغب الأصفهاني ، حسين بن محمد** (ت ٤٢٥هـ) ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء . بيروت : دار مكتبة الحياة .

- **رجوان ، نسيم** ، موجز تأريخ يهود العراق من سبي بابل إلى نزوحهم عام ١٩٥١ . القدس : ١٩٩٨ .

- **الرصافي ، معروف عبد الغني**(ت ١٩٤٥) ، كتاب الشخصية المحمدية . أو حل اللغز المقدس . ألمانيا : دار الجمل ، ٢٠٠٢ .

- **رفسنجاني ، هاشمي** ،حياتي . بيروت ولندن : دار الساقي ، ٢٠٠٥ .

- **رودلوف ، فلهلم** ،صلة القرآن باليهودية والمسيحية . بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٤ .

- **رودلوف ، كورت** ، النشوء والخلق في النصوص المندائية . ترجمة : صبيح مدلول السهيري . بغداد : ١٩٩٣ .

- **رومي ، غضبان** (ت ١٩٨٩) ، الصابئة . بغداد : مطبعة الأمة ، ١٩٨٣ .

- **الزركلي ، خير الدين** (ت ١٩٧٦) ،الأعلام قاموس تراجم . بيروت : دار العلم للملايين ، الطبعة العاشرة ، ١٩٩٢ .

- **زكي ، محمد أمين** (ت ١٩٤٦) ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان . ترجمة : محمد علي عوني . الطبعة الثانية .

- **الزمخشري ، محمود بن عمر** (ت ٥٣٨هـ) ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . بيروت : الدار العالمية للطباعة والنشر ١٩٦١ .

- **زيات ، حبيب** (ت ١٩٥٤) ،الديارات النصرانية في الإسلام . بيروت : الكاثوليكية ، ١٩٣٨ .

- **زيدان ، عبد الكريم** ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام . بيروت : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ .

- **زينوفون ، المؤرخ الإغريقي (القرن الخامس قبل الميلاد)** ، حملة العشرة آلاف "الحملة على فارس . ترجمة يعقوب افرام منصور . موصل : مكتبة بسام ، ١٩٨٥ .

- **ساكو ، الأب لويس** ،آباؤنا في الإيمان . بغداد : ١٩٨٩ .

- **السامرائي ، يونس الشيخ إبراهيم** ،تأريخ علماء بغداد في القرن الرابع الهجري . العراق : وزارة الأوقاف .

- **سباهي ، عزيز** ، أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية . دمشق : دار المدى ، الطبعة الثانية ١٩٩٩ .

- سبتن برك وسوزان هارفي وغلن بورسك ، قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب . ترجمة : فريدة بولص وميسون الحجيري . دمشق : قدمس للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠ .
- السجستاني ، ابن داوود (ت ٢٧٥ هـ) ، السنن . سوريا : دار الحديث ، ١٩٧٣ .
- السخاوي ، أبو الحسن علي (ت ٩٠٢هـ) ، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات . القاهرة : ١٩٣٧ .
- سبط ابن الجوزي ، يوسف (ت ٦٥٤هـ) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان . حيدر آباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٠ -١٩٥١ .
- السبكي ، تاج الدين (ت ٧٧١هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق : عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي . مطبعة البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٦ .
- سركيس ، يعقوب (ت ١٩٥٩) ، مباحث عراقية ، تقديم : محمد رضا الشبيبي . بغداد : شركة التجارة والطباعة المحدودة ١٩٥٥ .
- السرياني ، إسحاق أرملة (ت ١٩٥٤) ، القصارى في نكبات النصارى . السويد : دار سركون للنشر ، ١٩٩٨ (الطبعة الأولى ١٩١٠) .
- سليم ، مصطفى شاكر ، الجبايش . . دراسة في قرية بأهوار العراق . بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٧٠ .
- السمعاني ، أبو سعيد عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ) ، الأنساب . مخطوط ، من محفوظات جامعة لندن مكتبة : SAOS 1912 .
- سهير محمد علي الفيل ، اليزيدية . القاهرة : دار المنار ، ١٩٩٠ .
- سوسه ، أحمد (ت ١٩٨٢) ، العرب واليهود في التاريخ . بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٢ .
فيضانات بغداد .
- السيف ، توفيق ، ضد الاستبداد . . الفقه السياسي الشيعي في عصر الغيبة . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٩ .
- السيوطي ، جلال الدين (ت٩١١هـ) ، الإتقان في علوم القرآن . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ ؛ المزهر في علوم اللغة وأنواعها . مصر .
- شاؤول ، أنور (ت ١٩٨٤) ، قصة حياتي في وادي الرافدين . القدس : رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٠ .
- الشابشتي ، علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ) ، الديارات . تحقيق : كوركيس عواد . بغداد : مكتبة المثنى ، ١٩٦٦ .
- الشافعي ، محمد بن أدريس (ت ٢٠٤هـ) ، الديوان . جمع نعيم زرزور ، وتحقيق : قميحة . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤ ؛ كتاب الأم . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣ .

- شبر ، عبد الله ، الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين . الكويت : مكتبة الألفين ، ١٩٨٦ .
- الشعراني ، عبد الوهاب بن أحمد (ت ٩٧٣ هـ) ، الطبقات الكبرى . مصر : مكتبة محمد صبيح وأولاده .
- الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ) ، الملل والنحل . تحقيق : محمد سيد كيلاني . بيروت : دار المعرفة ؛ الملل والنحل . تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي . بيروت : المكتبة العصرية .
- شوكت ، ناجي (ت ١٩٧٤) ، سيرة وذكريات ثمانين عاماً . بغداد : دار اليقظة العربية .
- الشيبي ، كامل مصطفى ، الصلة بين التصوف والتشيع . بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٢ ؛ الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر . بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٦٧ .
- الشيرازي ، محمد الحسيني (ت ٢٠٠١) ، تقريب القرآن إلى الأذهان . بيروت : مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٠ .
- الصابئ ، هلال بن المُحسّن (ت ٤٤٨هـ) ، رسوم دار الخلافة . تحقيق : ميخائيل عواد . بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٤ .
- الصابئ ، إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤هـ) ، الكتاب المعروف بالتاجي . تحقيق : محمدخان . باكستان : باكستان هاريكل ، ١٩٩٥ .
- الصائغ ، سليمان القس الموصلي (ت ١٩٦١) ، تاريخ الموصل . مصر : المطبعة السلفية ، ١٩٢٣ .
- الصافي ، عبد الرزاق ، كفاحنا ضد الصهيونية . بغداد : مطبعة الرواد ، منشورات طريق الشعب ، ١٩٧٧ .
- الصراف ، أحمد حامد (ت ١٩٨٥) ، الشبك من فرق الغلاة في العراق . بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٥٤ .
- صروف الدمشقي وهبة الله الخوري ، المقابلة المضاعفة (رسالة مشتملة على مقابلتين : مقابلة الكنيسة الشرقية مع البابوية) . أورشليم : مطبعة القبر المقدس البطريركية ، ١٨٦٠ .
- الصغير ، محمد حسين ، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف . بيروت : مؤسسة البلاغ ، ٢٠٠٣ .
- الصفدي ، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) ، الوافي بالوفيات . دار النشر فرانز شتايز ، ١٩٨٤ .
- الصليبي ، كمال ، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل . بيروت ولندن : دار الساقي ، ١٩٩٤ .
- الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ) ، تفسير القرآن . الرياض : مكتبة الرشد ، ١٩٨٩ .
- الطالقاني ، محمد حسن ، الشيخية نشأتها وتطورها ومصادر دراستها . بيروت : الأمال للمطبوعات ، ١٩٩٩ .

- **الطباطبائي الحكيم** ، محسن (ت١٩٧٠) ، مستمسك العروة الوثقى . بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- **الطباطبائي** ، محمد حسين (ت ١٩٨١) ، الميزان في تفسير القرآن . لا مكان ولا تاريخ طبع .

- **الطبرسي** ، رضي الدين الحسن بن الفضل (القرن السادس الهجري) ، مكارم الأخلاق . بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٢ .

- **الطبرسي** ، أحمد بن علي (ت نحو ٦٢٠ هـ) ، الاحتجاج . بغداد : منشورات دار النعمان ، ١٩٦٦ .

- **الطبري** ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . مصر : دار المعارف ، ١٩٦٦ -١٩٦٠ ؛ تاريخ الأمم والملوك . بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١ ؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن . تحقيق : محمود وأحمد شاكر . مصر : دار المعارف ؛ جامع البيان في تفسير القرآن . بيروت : دار المعرفة ، ١٩٨٠ .

- **الطبري** ، محمد بن جرير بن رستم (القرن الرابع الهجري) ، دلائل الإمامة . النجف : المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٣ .

- **الطالباني** ، مكرم ، دماء وراء القضبان مذبحة سجني بغداد والكوت عام ١٩٥٣ . ٢٠٠٢ .

- **الطهراني** ، أغا بزرك (ت١٩٧٠) ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة . بيروت : دار الأضواء ، الطبعة الثالثة .

- **الطوسي** ، شيخ الطائفة محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ) ، كتاب الغيبة . طهران : مكتبة نينوى الحديثة ؛ الخلاف . قم : مؤسسة النشر الإسلامي ، ١٤٠٧ هـ .

- **الطويل** ، محمد أمين غالب ، تاريخ العلويين . بيروت : دار الأندلس .

- **العاملي** ، جعفر مرتضى ، الحياة السياسية للإمام الرضا . قم : جماعة المدرسين ، ١٤٠٣هـ .

- **عبادة** ، عبد الحميد بن بكر(ت١٩٣٠) ، كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمين . بغداد : مطبعة الفرات ، ١٩٢٧ .

- **العباسي** ، محفوظ ، إمارة بهدينان العباسية . الموصل : مطبعة الجمهورية ، ١٩٦٩ .

- **عبد الكريم** ، خليل ، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة (محمد والصحابة) . القاهرة وبيروت : سينا للنشر والانتشار العربي ، ١٩٩٨ ؛ دولة يثرب بصائر في عام الوفود . بيروت : الإنتشار العربي ، ١٩٩٩ .

- **عبد الله** ، سليم ، مع المختار بن عبيد الله الثقفي . بيروت : دار الثقلين ، ١٩٩٦ .

- **عبد الوهاب** ، سليمان بن (ت ١٧٩٥م) ، الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية . القاهرة : دار الإنسان ، ١٩٨٧ .

- عبّود ، سلام ، ثقافة العنف في العـراق . كولونيا : دار الجمل ، ٢٠٠٢ .
- العجلي ، شمران ، الخريطة السياسية للمعارضة العراقية . لندن : دار الحكمة ، ٢٠٠٠ .
- العزاوي ، عباس (ت ١٩٧١) ، الكاكائية في التاريخ . بغداد : شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٩٤٩ ؛ تاريخ العراق بين احتلالين . بغداد : مطبعة بغداد ، ١٩٣٥ .
- العسكري ، مرتضى ، عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى . بيروت : دار الزهراء ، ١٩٩١.
- العقاد ، عباس محمود (ت ١٩٦٤) ، أبو نواس الحسن بن هانئ . دار الكتاب العربي ، ١٩٨٦.
- العقيلي ، محمد بن عمر (ت ٣٢٢هـ) ، الضعفاء الكبير . تحقيق : قلعجي . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤.
- العلوي ، هادي (ت ١٩٩٨) ، شخصيات غير قلقة في الإسلام . بيروت : دار الكنوز الأدبية ، ١٩٩٥ ؛ من قاموس التراث . دمشق : الأهالي ، ١٩٨٨.
- العلواني ، الشيخ طه جابر ، لا إكراه في الدين . . إشكالية الردة والمرتدين من صدر الرسلام حتى اليوم . القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٣ .
- العلوي ، حسن ، عبد الكريم قاسم رؤية بعد العشرين . لندن : منشورات دار الزوراء ، ١٩٨٣ ؛ العراق . . . دولة المنظمة السرية . طبع خاص ؛ الشيعة والدولة القومية في العراق . فرنسا : مطبوعات CEDI ، ١٩٨٩ .
- علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ) ، نهج البلاغة . شرح محمد عبدة . بيروت : مؤسسة الأعلمي ، ١٩٩٣ .
- علي ، جواد (ت ١٩٨٧) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . بغداد : مكتبة النهضة . بيروت : دار الملايين ، ١٩٧٨ ؛ المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية . ترجمة : أبو العيد دودو . كولونيا : منشورات الجمل ، ٢٠٠٥ .
- العمري ، خيري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث . القاهرة : دار الهلال ، ١٩٦٩ .
- عويس ، سيد ، رسائل إلى الإمام الشافعي (ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعي) . القاهرة : دار الشايع للنشر ، ١٩٧٨ .
- الغزالي ، أبو حامد (ت ٥٠٥هـ) ، فضائح الباطنية (المستظهري) . تحقيق : عبد الرحمن بدوي . القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ؛ المنقذ من الضلال . تحقيق : محمد محمد جابر . مصر : مكتبة الجندي ، ١٩٥٠ .
- غنيمة ، حارث يوسف (ت ٢٠٠١) ، البروتستانت والإنجيليون في العراق . بغداد : مطبعة الناشر المكتبي ، ١٩٩٨ .
- غنيمة ، يوسف رزق (ت ١٩٥٠) ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . بغداد : مطبعة الفرات ، ١٩٢٤ ؛ نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق (مع ملحق) . لندن : دار الوراق ، ١٩٩٧ .

- **فالح ، مهدي** ، البحث عن مُنقذ . . دراسة مقارنة بين ثماني ديانات . بيروت : دار ابن رشد للطباعة والنشر ، ١٩٨١ .

- **الفخري ، علي بن محمد (القرن التاسع الهجري)** ، تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان . تحقيق : رشيد البندر (الخيُّون) . لندن : دار الحكمة ، ١٩٩٤ .

- **فرسخ ، عَوني** ، الأقليات في التاريخ العربي . بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩٤ .

- **فروخ ، عمر** ، تاريخ الفكر العربي . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨١ .

- **فضل الله ، محمد حسين** ، من وحي القرآن . بيروت : دار الملاك ، ١٩٩٨ .

- **الفكيكي ، هاني** (ت ١٩٩٦) ، أوكار الهزيمة. بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩٣ .

- **فهد ، بدري محمد** ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير . بغداد : مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٣ .

- **فهمي ، منصور** (ت ١٩٥٩) ، أحوال المرأة في الإسلام . ترجمة : رفيدة مقدادي . كولونيا : دار الجمل ، ١٩٩٧ ، صدر بالفرنسية ١٩١٣ .

- **فوزي ، فاروق عمر** ، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية - الإسلامية . بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٨٨ .

- **فياض ، عبد الله** ، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة . بيروت : منشورات الأعلمي ، ١٩٧٥ .

- **قاشا ، الأب سهيل** ، أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية . بيروت : بيسان للنشر والتوزيع والإعلام ، ١٩٩٨ .

- **القرقزاني ، يعقوب بن إسحاق (القرن العاشر الميلادي)** ، كتاب الأنوار والمراكب . تحقيق : ليون نيموي . نيويورك : ١٩٣٩ .

- **القزويني ، محمد مهدي الكاظمي** (ت ١٩٣٩) ، ظهور الحقية على الفرقة الشيخية . النجف : ١٣٤٧ هـ .

- **القزويني ، أمير الكاظمي** ، الشيعة في عقائدهم وأحكامهم . الكويت : مؤسسة معرفي . ١٩٩٧ .

- **القفطي ، أبو الحسن يوسف** (ت ٦٤٦هـ) ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء . مصر : مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هـ .

- **القمني ، سيد** ، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٠ .

- **قوجمان ، حسقيل** ، ذكرياتي في سجون العراق السياسية . لندن : طبع خاص ، ٢٠٠٢ .

- **كاشف الغطاء ، محمد حسين** (ت ١٩٥٤) ، أصل الشيعة وأصولها . بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٩٣ ؛ العبقات العنبرية في طبقات الجعفرية . تحقيق : جودة القزويني . بيروت : ١٩٩٨ .

- **الكتبي ، محمد بن شاكر** (ت ٧٦٤هـ) ، فوات الوفيات . تحقيق : إحسان عباس . بيروت : دار صادر .

- الكردري ، حافظ الدين بن محمد (ت ٨٢٧هـ) ، مناقب أبي حنيفة . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨١ .
- كركوش ، الشيخ يوسف (ت ١٩٩٠) ، تاريخ الحلة . النجف : منشورات المكتبة الحيدرية ، ١٩٦٥ .
- الكوثري ، محمد زاهد (ت ١٩٥١هـ) ، مقالات الكوثري . المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٩٤ ؛ حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي . مصر : دار الأنوار للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ ؛ فقه أهل العراق وحديثهم . تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة . مكتب المطبوعات الإسلامية ، ١٩٧٠ .
كوريه ، يعقوب يوسف ، يهود العراق تأريخهم أحوالهم هجرتهم . عمان : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٨ .
- لسترنج ، كي (ت ١٩٣٣) ، بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد . بغداد : مطبعة الرابطة ، ١٩٥٤ .
- لونكريك ، ستيفن هيمسلي ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ترجمة : جعفر الخياط . بغداد : ١٩٦٨ ؛ العراق الحديث (١٩٠٠ - ١٩٥٠) . ترجمة : سليم طه التكريتي . بغداد : منشورات الفجر ، ١٩٨٨ .
- ماسينون . لويس (ت ١٩٦٢) ، كتاب أخبار الحلاج . كولونيا : دار الجمل ، ١٩٩٩ (صدر أول مرة ١٩٣٦) .
- الماوردي ، علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ) ، الأحكام السلطانية . بيروت : دار الفكر .
- المبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) ، الكامل في اللغة والأدب . بيروت : مكتبة المعارف .
- محبوبة ، جعفر الشيخ باقر (ت ١٩٥٧) ، ماضي النجف وحاضرها . النجف : مطبعة النعمان ، ١٩٥٧ .
- المخلصي ، الأب فرنسيس يوسف ، مريم في كنائس العراق . ترجمة : يوحنان جولاغ . بغداد : مطبعة الزمان ، ١٩٨٥ .
- المر ، الياس ،الإسلام بدعة نصرانية ، طبع خاص .
- مراني ، ناجية ،مفاهيم صابئية مندائية . بغداد : ١٩٨١ .
- المرتضى ، الشريف علي بن الطاهر بن أبي أحمد الحسن (ت ٤٣٦ هـ) ، أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والأدب . الطبعة الأولى ١٩٠٧ .
- المرزباني ، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ) ، أخبار شعراء الشيعة . تحقيق : محمد هادي الأمين . بيروت : شركة الكتبي للطباعة والنشر، ١٩٩٣ .
- المزي ، جمال الدين يوسف (ت ٧٤٢هـ) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال . بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٤ .

- المسعودي ، أبو الحسن علي (ت ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق : شارل بلا . بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٣ -١٩٦٥ ؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر . بيروت :دار الكتاب اللبناني ،١٩٨٢ ؛ التنبيه والأشراف . تحقيق : عبد الله الصاوي . المكتبة التاريخية ، ١٩٣٨ ؛ التنبيه والأشراف . بيروت : مكتبة الخياط ، ١٩٦٥ .

- مسكويه ، أحمد بن محمد (ت ٤١٢هـ) ، تجارب الأمم . مصر : شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٤ ، ١٩١٥ .

- المعاضيدي ، عبد القادر سلمان ، واسط في العصر العباسي . بغداد : دار الحرية ، ١٩٨٣ .

- معروف ، ناجي (ت ١٩٧٧) ، تاريخ علماء المدرسة المستنصرية . القاهرة : مطبوعات الشعب ، الطبعة الثالثة .

- معروف ، خلدون ناجي ، الأقلية اليهودية في العراق بين سنة ١٩٢١و١٩٥٢ ، بغداد : مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٥ .

- المعري ، أبو العلاء (ت ٤٤٩هـ) ، رسالة الغفران . شرح : كامل الكيلاني . مصر : مطبعة المعارف ؛ ديوان سقط الزند . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ ؛ لزوم ما لا يلزم . تحقيق : كمال اليازجي . بيروت : دار الجيل ،١٩٩٢ .

- المعمري ، سعاد ، بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة . بغداد : مطبعة دار المعروفة ، ١٩٥٤ .

- مَغنيّة ، محمد جواد (ت ١٩٧٩) ، التفسير الكاشف . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٨ ؛ الشيعة والحاكمون . بيروت : دار الجواد للطباعة والنشر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١ .

- المكي ، الموفق بن أحمد (ت ٥٦٨هـ) ، مناقب أبي حنيفة . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨١ .

- المنقري ، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ) ، وقعة صفين . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ،١٣٨٢هـ .

- الموسوي ، العباس بن علي المكي (ت١١٨٠هـ) ، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس . النجف الأشرف : المكتبة الحيدرية ،١٩٦٧ .

- الموصلي ، منذر ، عرب وأكراد . بيروت : دار الغصون ، ١٩٩٥ .

- الميداني ، أحمد بن محمد (ت ٥١٨ هـ) ، مجمع الأمثال . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت : دار الجيل ، ١٩٨٧ .

- مينورسكي ، فلاديمير (ت ١٩٦٦) ، الأكراد ملاحظات وانطباعات . ترجمة معروفة خزنة دار بيروت : دار الكاتب ، ١٩٨٧ (تأليف الكتاب ١٩١٥) .

- الناشيء الأكبر ، عبد الله بن محمد (ت ٢٩٣هـ) ، مسائل الإمامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات . تحقيق : يوسف فان إس . بيروت : ١٩٧٠ .

- نباتي ، عزيز عبد الأحد ، تاريخ عينكاوه . أربيل : مطبعة جامعة صلاح الدين ، ٢٠٠٠ .
- النجفي ، محمد حسن (ت١٨٥٠) ، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام . بيروت : دار إحياء التراث ، ١٩٨١ .
- نجم ، محمد يوسف (تحقيق) ، رسائل الصّابئ والشريف الرضي . الكويت : ١٩٦١ .
- النديم ، إسحاق (ت ٤٣٨هـ) ، الفهرست . بيروت : دار المعرفة ؛ الفهرست . تحقيق : رضا المازندراني . دار المسيرة ، ١٩٨٨ .
- نصيبينويو ، آشور ، اليزيدية في ما بين النهرين . السويد : دار سركون للنشر ، ٢٠٠٢ .
- نغرين ، جيو وايدج ، ماني والمانوية . ترجمة : سهيل زكار . دار حسان ، ١٩٨٥ .
- نقاش ، إسحق ، شيعة العراق . ترجمة عبد الإله النعيمي . دمشق : دار المدى ، ١٩٩٦ .
- النقشبندي ، الشيخ أمين الشيخ علاء الدين ، ما هو التصوف ما هي الطريقة النقشبندية . ترجمة : محمد شريف أحمد . بغداد : الدار العربية ، ١٩٨٨ .
- النقشبندي ، عبد الرحمن الشيخ علاء الدين ، السادات النقشبندية . أربيل : وزارة الثقافة ، ١٩٩٨ .
- النوبختي ، الحسن بن موسى (القرن الثالث الهجري) ، فرق الشيعة . تحقيق : محمد آل صادق . النجف : المطبعة الحيدرية ، ١٩٣٦ .
- نيبور ، كارستن (ت ١٨١٥) ، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر . ترجمة : محمود حسين الأمين . بغداد : وزارة الثقافة والإرشاد - مديرية الثقافة العامة ، ١٩٦٥ .
- نيكيتين ، باسيلي (ت١٩٦٠) ، الكُرد دراسة سوسيولوجية وتاريخية . ترجمة : نوري طالباني : دار الساقي ، ٢٠٠١ .
- الهلالي ، عبد الرزاق (ت ١٩٨٥) ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (١٦٣٨ - ١٩١٧) . بغداد : شركة الطبع والنشر الأهلية ، ١٩٥٩ .
- الهمداني ، رشيد الدين فضل الله (قتل ٧١٨هـ) ، جامع التواريخ.. تاريخ المغول ، تاريخ هولاكو . ترجمة : مجموعة من المترجمين . مصر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الأقليم الجنوبي ، الإدارة العامة للثقافة ؛ جامع التواريخ.. تاريخ المغول ، تاريخ غازان خان . ترجمة : فؤاد الصياد . القاهرة : الدار الثقافية للنشر ، ٢٠٠٠ .
- الوردي ، حمودي ، عالم التكايا ومحافل الذكر . بغداد : مطبعة أسعد ، ١٩٧٣ .
- الوردي ، علي (ت١٩٩٥) ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث . بغداد : مطبعة الرشاد ، ١٩٧١ .
- وكيع ، محمد بن خلف بن حيّان (ت ٣٠٦هـ) ، أخبار القضاة . بيروت : عالم الكتب .

- ول ديورانت ، قصة الحضارة . ترجمة : زكي نجيب محمود . جامعة الدول العربية : الإدارة الثقافية .
- **اليزدي ، السيد محمد كاظم** (ت ١٩١٩) ، العروة الوثقى . بيروت : مؤسسة الأعلمي .
- **اليسوعي ، الأب لويس شيخو** (ت ١٩٢٧) ، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩١٢ .
- **اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب** (ت ٢٩٢هـ) ، تاريخ اليعقوبي . قم : منشورات الشريف الرضي ، ١٣٧٣هـ .
- **يوحنا ، منسي القس** ، تاريخ الكنيسة القبطية . مصر : مكتبة المحبة .

Leon, Nemoy: Karaite anthology. New haven. Yale University Press, 1952.

- إنجيل يوحنا المنحول (مصحف الأبرقا) مخطوط ، تاريخ النسخ ٧٤٢هـ ، نشر نصه العربي ١٩٥٧ .
- إنجيل برنابا ، ترجمة خليل سعادة ، مصر ، ١٩٠٧ .
- تقرير مديرية الأمن العامة (العراق) التوزيع الديني للسكان العراقيين .
- دائرة المعارف الإسلامية ، كتاب الشعب ، القاهرة ، المجلد الخامس والثالث
- دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، دمشق : المستشارية الثقافية للجمهورية الإيرانية ، ١٩٨٥ .
- قاموس الكتاب المقدس ، ١٨٩٤ .
- القرآن الكريم ، الكويت : مكتبة الألفين . إيران : ١٤٠٤هـ .
- الكتب الستة (موسوعة الحديث) . الرياض : دار السلام للنشر ، ١٩٩٩ .
- كتاب الصابئة المقدس الكنزا ربا ، بغداد : الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ . الكنزاربا ، مارك ليبارسكي ، سدني : منشورات الماء الحي ، ٢٠٠٠ .
- الكتاب المقدس ، بيروت : دار الشرق ١٩٨٨ .
- كتاب أقدس ، مخطوط في المكتبة البريطانية OR .30.3990
- كتاب البيان في الشؤون الخمسة ، مخطوط في المكتبة البريطانية ، النسخ ١٩٠٦ ، OR.6680
- كتاب البيان في شؤونات الدعوات ، مخطوط في المكتبة البريطانية ، نسخ ١٨٩٩ ، OR.5617
- كتاب البيان ، مخطوط في المكتبة البريطانية ، نسخ ١٩١٣ (المجموعة السابقة) .
- مجلة أصوات ، العدد ١٩٩٣/١٣ .
- كتاب متن المختار على مذهب النعمان أبي حنيفة ، مخطوط ١١٩٦هـ ، هارفرد ، Ms Arab 13 (14)
- كتاب القلستا ، ترانيم الزواج المندائية. ترجمة أمين فعيل حطاب بغداد : مركز البحوث والدراسات المندائية ٢٠٠٣ .
- مختصر المبادئ البهائية . المركز الروحاني ببيهائيين . أديس أبابا : ١٩٧٩ .

- المعجم المفهرس ، نهج البلاغة ، بيروت : دار الأضواء ، ١٩٨٦ .
- مقالة سائح في البابية والبهائية . المحفل الروحاني المركزي للبهائيين . بيروت : مطبعة البيان ، الطبع ١٢٤ بهائي ، ١٩٦٧ .
- من مفاوضات عبد البهاء . بلجيكا : دار النشر البهائية . الطبعة الأولى ١٩٠٨ .

المحتوى

هذا الكتاب

لا زالت خارطة العراق الدينية والمذهبية غنية بالتنوع، وهذا الكتاب يعني بالأديان الحيّة فقط، ولم يأخذ العدد بنظر الاعتبار، فلم يتعامل بمصطلح الأقلية والأكثرية، ذلك لما في مصطلح الأقلية من حرمان وإلغاء للحقوق التاريخية والشراكة المتوازنة في الوطن الواحد، إضافة إلى ما يولده هذا المصطلح من شعور بالضعف والاغتراب، وبالتالي يصبح الوطن وطن الأكثرية فقط، والمواطنة حقوق لا تخضع لحكم الأقلية والأكثرية.

وببغداد والموصل والبصرة ومدن العراق الأخرى تتجاور الأديان والمذاهب، محال مختلطة ومحال مغلقة لدين أو مذهب، ولم يؤثر في سلامة هذا التجاوز غير الموقف السياسي والتعصب الأعمى باسم الدين، ذلك ما سنراه من متابعة الاضطهادات الدينية والمذهبية، وخلا ذلك فالأديان والمذاهب كافة لديها فسحة من التسامح، قد تضيق وتتسع، وبالنتيجة لم يصل الأمر إلى إلغاء الآخر.